مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

كون إيغلدن
CONN IGGULDEN

الغُزاة

CONQUEROR

حملات أحفاد جنكيز خان وصراعاتهم

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الغُزاة

CONQUEROR

حملات أحفاد جنكيز خان وصراعاتهم

كون إيغلدن
CONN IGGULDEN

الغُزاة

CONQUEROR

حملات أحفاد جنكيز خان وصراعاتهم

ترجمة
منتدى فايز علمي

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Conqueror

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من:

,.A. M. Health & Co. Ltd

London WC1R 5DJ, UK

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2011 by Conn Iggulden

Conn Iggulden asserts the moral right to

be identified as the author of this work

All rights reserved

Arabic Copyright © 2020 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: آذار/مارس 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3860-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات

واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجـد غرافيكس**، بيروت - هـاتف 785107 (1-961+)

الطباعـة: **مطـابع الـدار العربية للعلـوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

القسم الأول

1244 ميلادي

1

هبت عاصفة على مدينة كاراكورم، وفاضت الشوارع بالمياه بسبب الهطول الغزير للأمطار ليلا. خارج الأسوار السميكة تجمعت الأغنام في الحظائر، وكان الزيت الذي دُهنت به أصوافها يقيها البرد، وبما أنها لم تخرج للرعي، فقد أخذت تثغو من الجوع وتتدافع، حيث عمت الفوضى الحظيرة.

لقد أنارت المشاعل ذات الأجيج قصر الخان، من الداخل والخارج، وكان هزيم المطر يعلو ويخبو داخل القصر، وأخذ الخدم في الحدائق والأفنية يحدقون بذهول إلى جمال المطر، حتى أن بعضهم وقفوا جماعات تحت المطر مبللين ملابسهم الصوفية والحريرية.

لكن غويوك لم يتأثر، فالمطر لم يكن أكثر من مشتت للأفكار. كان يقف بعيدا عن النافذة المفتوحة ذات العتبة الرطبة، وهو يسكب النبيذ لضيفه، الذي بدا عليه التوتر وهو يقف في قاعة الضيوف. لقد اعتقد غويوك أن حجم القصر وارتفاع سقفه يرعبان الأشخاص غير المعتادين على مثل هذه الأبنية، وتذكر ليلته الأولى في هذا القصر، حيث ظن في صمت الليل أن هذا السقف الثقيل قد ينهار ويسحقه، ولكنه الآن وبعد أن اعتاد على القصر، أصبح يسخر من تفكيره ذاك، خصوصا وهو يرى عيني ضيفه تسترقان النظر إلى السقف بين الحين والآخر. لقد كان والده أوجيدي العظيم حالما عندما بنى كاراكورم.

وضع غويوك إبريق النبيذ الفخاري وعاد إلى ضيفه، وقد عقدت الأفكار المتزاحمة في رأسه لسانه. فقد بذل والده الغالي والنفيس ولم يبخل في أن يرشو ويتودد ويرجو في سبيل الحصول على اللقب الذي كان من حقه.

قال غويوك: «جرّب هذا». مقدما الكوب لابن عمه. «إنه أسلس من حليب الفرس المخمر.»

لقد سعى غويوك ليكون لبقا مع شخص بالكاد يعرفه، وقد كان أوتشير واحدا من مئات أبناء إخوة الخان وأحفاده، وهم رجال كان على غويوك الحصول على دعمهم، لأن اسم القائد كاتشيون والد أوتشير لا يزال محفورا في ذاكرة الجميع.

شرب أوتشير بلباقة من دون تردد منهيا الكوب في جرعتين. ثم قال: «إنه كالمياه».

أخفت ابتسامة غويوك توتره، فقام أحد الموجودين، وجلب الإبريق ليعيد ملء الكوبين. جثم غويوك على أريكة قبالة أوتشير، وقد بذل قصارى جهده ليبدو مسترخيا ومستمتعا، ثم قال: «أنا على يقين أنك تعلم سبب رغبتي برؤيتك الليلة يا أوتشير، فأنت ذو مكانة في الأسرة، وقد شاهدت ذلك بأم عيني عندما شاركت في جنازة والدك في الجبال».

عدّل أوتشير من جلسته، وأحنى جسده إلى الأمام قليلا، وبدا عليه الاهتمام وقال: «لا بد أنه يشعر بالحسرة لعدم رؤيته الأراضي التي فتحت، لم أكن على تماس معه نظرا لكثرة أولاده، ولكنني واثق من أنه رغب بمرافقة تسوبوداي في الرحلة العظيمة غربا».

وافقه غويوك قائلا: «صحيح، لقد كان رجلا شريفا». وبما أن غويوك يسعى لاستمالة أوتشير إلى جانبه، فلم يكن بعض المديح ليضر أحدا. تنهد بعمق قبل أن يردف قائلا: «والدك هو سبب دعوتي لك الليلة، فهناك قسم كبير من العائلة ينضوون تحت قيادتك، أليس كذلك يا أوتشير؟».

ألقى أوتشير نظرة إلى الخارج عبر النافذة، فلاحظ استمرار هطول المطر. لقد بدا بسترته، وسرواله، ونعله عديم الزخرفة، وقبعته التي تغطي شعره المدهن، غير متناسب مع فخامة القصر. في الحقيقة، كان يشبه الرعاة أكثر مما يشبه القادة من سلالة الخان.

وضع أوتشير كوبه برفق على الأرض الحجرية، وذكرت تقاسيم وجهه التي توحي بالقوة غويوك بوالده.

«أعلم ما تريده مني يا غويوك، وسبق أن أخبرت المبعوثين الذين أرسلتهم والدتك محملين بالهدايا، أنني لن أستعجل وأقطع وعدا، وهذا ما سمعه مني كل من سألني بشأن هذا الموضوع».

عندها سأله بصوت حاد: «أتقصد أنك لن تقطع وعدا لابن الخان؟». كانت وجنتاه قد احمرتا بتأثير النبيذ، فشعر أوتشير بالتردد، سيما وأنه كان يشعر بالتوتر والتهديد من مرافقي غويوك الذين يشبهون الكلاب ويحيطون به.

أجابه أوتشير بحذر: «لم أقل ذلك». وعندما شعر بالتوتر يزداد بينهما، قرر أن يغادر ما إن تصبح الفرصة سانحة، وعندما لم يعلّق غويوك على إجابته أخذ يشرح قائلا: «لقد أحسنت والدتك الحكم بوصفها قيّمة على العرش، ولا يستطيع أحد إنكار دورها في الحفاظ على لُحمة الأمة، بالرغم من مزاعم البعض بأنها سببت تجزئتها».

قال غويوك بحسم وشدة: «لا يجب أن يكون أمر أمة جنكيز بيد امرأة».

ردّ أوتشير: «ولكن ما أقدمت عليه لم يؤدِّ إلى دك الجبال وانهيارها». ابتسم لوصفه البليغ وتابع: «أنا أؤيد فكرة وجود خان، ولكن يجب أن يحظى الخان بتأييد الجميع، فالأمة أصغر من أن تتحمل صراعا بين الأمراء كالذي حصل بين أبيك وأخيه، وسأدلي بصوتي لمن يحظى بالإجماع».

نهض غويوك وهو بالكاد يسيطر على أعصابه. لقد ألقى عليه أوتشير عظة، وكأنه لم يمضِ السنتين الماضيتين منتظرا بإحباط. راقبه أوتشير وخفض حاجبيه واسترق النظر فلاحظ أن أربعة من رجال غويوك يحرسون باب القاعة، فلم يشعر بالارتياح وهو الأعزل بينهم، فقد كانوا ينظرون إليه كما تنظر النمور إلى شاة مقيدة.

وقف غويوك ببطء، وتقدم نحو إبريق النبيذ الموجود على الأرض، ثم حمله متحسسا ثقله. وقال لأوتشير:

أنت تجلس في مدينة والدي وفي قصره، وبالرغم من أنني الابن البكر لأوجيدي خان وحفيد الخان العظيم، إلا أنك ترفض دعمي كما لو أنك تراهن على فرس».

أمسك الإبريق، ولكن أوتشير وضع يده على الكوب وهزّ برأسه. لقد شعر بالتوتر عندما وقف غويوك أمامه، ولكنه تحدث بحزم محاولا إخفاء توتره.

«غويوك، لقد كان والدي مخلصا في ولائه لوالدك، وأنا أيضا حفيد لجنكيز، وبالرغم من أنني لن أصبح خانا إلا أنه يوجد آخرون كبيدور في الغرب...».

قاطعة غويوك قائلا: «الذي يحكم أراضيه ولا حق له هنا...».

تردد أوتشير قبل أن يقول: «لو ذكر والدك اسمك في وصيته، لكن الأمر أكثر سهولة، وكان نصف الأمراء قد بايعوك اليوم يا صديقي».

علّق غويوك: «إنها وصية قديمة». دلّ صوته العميق على دهاء، بدا كمن يتحدث في الظلام.

عندها قال أوتشير بتوتر: «لا تنسَ باتو فهو الأكبر، ومونغ الابن البكر لتولاي، وهناك آخرون فلا تتوقع...».

رفع غويوك الإبريق الفخاري ممسكا بقبضته الثقيلة، فنظر إليه أوتشير بخوف.

صرخ غويوك: «أنا أتوقع الإخلاص». وضرب رأس أوتشير بالإبريق بقوة مما جعله يلتف للجهة الأخرى من شدة القوة. وأخذ الدم يسيل من جبهة أوتشير الذي رفع يديه محاولا تفادي ضربات أخرى. لكن غويوك خطا نحو الأريكة المنخفضة ليقيد الرجل، وأحضر الإبريق مرة ثانية. الذي تحطم بعد الضربة الثانية، في الوقت الذي أخذ فيه أوتشير يصرخ طلبا للنجدة.

صرخ أحد المساعدين وهو خائف «غويوك» في الوقت الذي ركع فيه الجميع خائفين من التدخل، تعارك الرجلان على الأريكة، فقد سعى أوتشير للإمساك بعنق غويوك، لكن أصابعه كانت تنزلق بسبب الدم، فلم يستطع إحكام قبضته. وظل إبريق النبيذ يضرب رأسه مرارا وتكرارا إلى أن تهشم، ثم أمسك غويوك القبضة البيضوية الشكل القاسية، وربت وهو مبتهج ومسح الدم عن خده.

أما رأس أوتشير فقد تهشم، ولم يعد يستطيع فتح إلا إحدى عينيه. حاول رفع يديه، إلا أن قوته لم تسعفه، فأبعدهما غويوك بسهولة وأخذ يضحك.

ثم قال: «أنا ابن الخان، هيا قل إنك ستدعمني».

لم يكن بمقدور أوتشير التكلم فقد كانت الدماء تملأ حلقه، وكاد أن يختنق بها، وكانت الغرغرة تصدر من بين شفتيه المدماتين.

قال غويوك: «كلا؟ لن تقوم بإعطائي حتى هذا الشيء الصغير؟ إذا لقد انتهيت منك يا أوتشير». ودفع القبضة المسننة نحوه بشكل مرعب. شاهد الرجال برعب ما حصل، قبل أن تختفي الضجة ويقف غويوك، محكما قبضته على مقبض الإبريق.

ثم نظر إلى نفسه بقرف، بعد أن انتبه فجأة إلى أن الدماء المتناثرة غطت شعره وثوبه.

عندها لاحظ أن مرافقيه يقفون وقد فغروا أفواههم، وكان ثلاثة يقفون كالحمقى، إلا أن أحد المرافقين بدا أنه منهمك في تفكير عميق، ولم يؤثر على تفكيره ما رأت عيناه. إنه غانسوك

المحارب الذي يسعى لأن يكون أفضل رامي سهام تحت قيادة غويوك. لقد كان غانسوك أول من تكلم، وقد بدا هادئا عندما قال: «سيدي سيسأل عنه أحد، لذا دعني أخرجه من هنا بما أن الليل لا يزال يرخي بسدوله، فإذا وضعته في زقاق في المدينة ستعتقد عائلته أن لصا هاجمه».

قال غويوك: «من الأفضل ألا يظهر لجثته أثر».

ثم مسح بقع الدم عن وجهه، وبذلك اختفت عن وجهه ملامح الغضب، وشعر بسلام تام.

ردّ غانسوك: «كما ترى سيدي، في الحارة الجنوبية تحفر أقنية لتصريف المياه...».

نظر غويوك إلى الرجال الآخرين قائلا: «حسنا... هل يستطيع غانسوك أن يتدبر أمره وحده؟ يجب على أحدكم أن يرسل خدمي بعيدا، وعندما تُسألون عن أوتشير قولوا إنه غادر باكرا».

ابتسم من خلف قناع الدم الذي يلطخ وجهه وقال: «أخبروا الجميع أنه وعدني بمنحي صوته في الاجتماع، ربما سيفيدني هذا الغبي في موته أكثر مما أفادني في حياته».

بدأ الرجال بالتحرك، وغادر غويوك متوجها إلى الحمام الذي يستطيع الوصول إليه من دون المرور بالرواق الرئيسي. بدا أن المشكلة التي أغضبته في ذلك المساء قد اختفت حيث كان يمشي خلي البال.

لقد استحم بمياه باردة، ولكن في شبابه كان يستحم بمياه الأنهار المتجمدة التي كانت تشد بشرته وتنشطه وتجعله يشعر بأنه على قيد الحياة.

وقف غويوك عاريا في مغطس حديدي مصمم على طريقة تشن، ذي تنانين ملتوية على الحواف. ولم يسمع الباب يُفتح بينما كان يحمل طاسة خشبية ليسكب الماء على رأسه.

جعله البرد يشعر بالقشعريرة، وأصبح جلده شبيها بجلد الإوز وتقلص عضوه الذكري. عندما فتح عينيه، أجفل من رؤية والدته في الحمام، ونظر إلى كومة الثياب التي رماها، وكانت الدماء قد اختلطت مع المياه، الأمر الذي جعل أرضية الحمام مليئة بخطوط حمراء.

وضع غويوك الطاسة بحذر، لقد بد وكأن توروغين بحجمها الضخم قد ملأت مساحة الحمام.

قال غويوك: «إن كنت تريدين رؤيتي يا أمي سأجهز في غضون دقائق».

رآها تحدق إلى الأرضية المغطاة بالمياه المختلطة مع الدماء، ثم نظر بعيدا والتقط الطاسة، ثم أعاد ملأها بالمياه الوردية في الحمام. كان للقصر مصارف مياه خاصة به بنيت من الآجر المشوي بالنار من قبل حرفيين من تشن. وعندما أزال السدادة اختفت المياه -التي يمكن أن تشكل دليل إدانة له- تحت المدينة واختلطت بالتراب والقذارة الناتجة من المطابخ مما جعل من المستحيل على أحد أن يعلم.

كانت القناة تمر في كاراكورم، فتوقع غويوك أن تختفي المياه فيها أو في حفرة حيث ستغرق، ولم يعلم أو يهتم لتلك التفاصيل.

سألته توروغين: «ما الذي فعلته؟». كان وجهها شاحبا وهي تلتقط سترته المجعدة والمبللة.

فأجاب غويوك: «فعلت ما يجب فعله». لم يكن في مزاج يتيح له تلقي مزيد من الأسئلة لأنه شعر بالانزعاج من مراقبتها له، ثم ألقى الطاسة وخرج من الحمام.

«سأحرق هذه الملابس لقد طلبت ثيابا جديدة يا أمي، يجب أن تكون في غرفة الضيوف الآن، فإن كنت لا ترغبين في الوقوف هنا ومراقبتي طوال اليوم يمكنك رؤيتها».

لكن توروغين لم تتحرك وقالت: «أنت ابني يا غويوك، لقد عملت لحمايتك، وجمع الحلفاء لك، فكم ضيّعت منهم هذه الليلة؟ هل تظن أني لا أعلم بأن أوتشير دُعي إلى هنا؟ ولم يره أحد يغادر، هل أنت أحمق يا غويوك؟».

فسألها: «حسنا، هل كنتِ تتجسسين عليّ؟». حاول الوقوف بثبات والتظاهر بعدم المبالاة، ولكن قشعريرته ازدادت.

ردت عليه: «من واجبي معرفة ما يجري في كاراكورم. يجب أن أعرف بكل اتفاق وخلاف، وكل خطأ، كالذي اقترفته الليلة».

توقف غويوك عن الادعاء، وأخذ يعبّر عن غضبه وسخطه وعدم رضاه على غطرستها وقال: «ولكن أوتشير ما كان ليدعمني، واختفاؤه قد يكون مكسبا وليس خسارة».

أجابته بغضب: «أتظن ذلك؟ أتظن أنك سهّلت مهمتي؟ يا لحظي العاثر؛ لقد ربيت غبيا، أتعرف ما سيكون رد فعل عائلته وأصدقائه؟ فهم يعلمون أنه أتى إليك أعزل واختفى».

«لكن ليس لديهم دليل، سيفترضون...».

«سيفترضون ما هو صحيح يا غويوك، سيفترضون إنك رجل لا يمكن الوثوق به، وسيُشاع بين الناس أن لا أمان لضيفك، وأنت لا تعدو كونك كلبا بريا يقتل من شرب وإياه النبيذ في قصره».

قالت ذلك، وخرجت من الحمام غاضبة، وبالكاد كان لدى غويوك وقت ليفكر في ما قالته قبل أن تعود وترمي ملابس جافة في وجهه. أردفت قائلة: «قضيت أيامي طيلة سنتين، محاولة كسب ودّ أولئك الذين يستطيعون دعمك، أولئك التقليديين الذين من الممكن أن ينظروا إلى أنك ابن الخان البكر، ويجب أن تحكم الأمة. لقد رشوت رجالا بالأراضي، والأحصنة، والذهب والفضة، وهددت بكشف أسرارهم إن لم يصوتوا لك. قمت بكل هذا لأني احترم والدك وكل ما بناه. يجب على أبنائه أن يستلموا الحكم لا أبناء سورهاتانا وباتو أو أي أحد من الأمراء».

أسرع غويوك في ارتداء ملابسه، ووضع الثوب تحت السترة، ثم طوّق خصره بحزام وقال: «هل تريدين أن أشكرك؟ إن مخططاتك لم تجعل مني خانا حتى الآن ولو أنها جعلتني لما اضطررت للتصرف لوحدي. هل ظننتِ أنني سأنتظر إلى الأبد؟».

أجابت: «لم أظن أنك ستقتل رجلا في قصر والدك، فهذا سيثبط جهودي بعد أن أوشكت أن أحقق هدفي. لا أعلم ما سيترتب على ما اقترفته يداك، ولكن إن مر هذا على خير...».

«لن يحدث هذا... لأنه إن مر على خير سوف تعززين ادعاءات الجميع، وسيقولون إنه لا حق لك في هذا القصر وهذه المدينة أكثر من حق باتو».

شد غويوك قبضته محبطا وقال: «دائما ما يكون هو، إني اسمع اسمه كل يوم، حبذا لو كان اليوم هنا، لكنت قتلته كما قتلت أوتشير».

أجابته والدته: «لن يأتيك أعزل يا غويوك، ولكن أيا يكن ما فعلته، من المؤكد أنه صعّب عليّ أن أُمكّنك من حقك».

قاطعها غويوك: «لم أفعل شيئا، لو أن أبي ذكرني في وصيته، كنت سأستند إلى وصيته. لكن إغفاله لاسمي سيجعلني أتقاتل مع الآخرين كمجموعة من الكلاب تتناهش قطعة من اللحم. لو أنك لم تفرضي وجود وصي على العرش، لكنت بين الناس انظر إلى مدينة والدي بحسد، لكنك لا تزالين حتى الآن تحترمينه، إني الابن البكر للخان يا أمي، ولكن عليّ أن أساوم وأرشو لأحصل على حقي».

عندما رأت توروغين الألم والمعاناة على وجه ولدها زال غضبها، فعانقته من دون تفكير محاولة التخفيف عنه وقالت: «لقد أحبك يا ولدي، ولكنه كان مهووسا بمدينته، وعاش والموت يتربص به لوقت طويل وقد أرهقته مقاومته. ليس لديّ شك أنه أرادك أن تكون خليفته».

ألقى غويوك رأسه على كتفها، وقد سرح تفكيره بأمور كئيبة، إنه لا يزال بحاجة إلى والدته التي تتمتع باحترام الشعب بسبب سنوات حكمها.

غمغم قائلا: «آسف لأنني فقدت الليلة السيطرة على أعصابي»، وتنهّد فضمته بشدة، عندها أردف قائلا: «إنني أنتظر بفارغ الصبر استعادة حقي، لم أعد أتحمّل نظرات الناس وابتساماتهم وتساؤلهم عن موعد الاجتماع الذي يتوقعون ألا يكون في مصلحتي».

مسّدت توروغين شعره بيدها قائلة: «لا ضير عليك، أنت لست مثلهم، فأنت لم تكن يوما رجلا عاديا يا غويوك، أنت مثل أبيك لديك أحلام عظيمة. لقد وعدتك أن تصبح الخان، وهذا ما سيكون وبأسرع مما تتوقع، فابن سورهاتانا مونغ إلى جانبك. لقد كنت ذكيا جدا بتقاسم الأرض معه، وإخوته لن يعارضوا والدتهم، وهذا ما يعزز موقفنا. أما في الجنوب فقد وصل المبعوثون إلى بيدور وأنا على يقين أنه سيصوت لك. هل تفهم الآن كم نحن قريبون من غايتنا؟ فعندما يحدد بيدور وباتو سعرهما سوف ندعو الشعب».

شعرت أنه غضب عندما ذكرت الاسم الذي كبر على كرهه فقالت: «اهدأ يا غويوك، باتو ليس سوى رجل واحد، ولم يغادر الأرض التي مُنحت له. ومع الوقت سيأتيك الأمراء الذين تحت قيادته عندما يرون أن لا طموح له، وسيطلبون منك قيادتهم يا ولدي. ثق بي، لن يكون هناك من خان سواك ما دمت حية».

انتفض جالسا، ونظر إلى وجهها، فرأت عينيه حمراوين.

«كم عليّ أن أنتظر؟ ما عدت أطيق صبرا».

أجابته مطمئنة: «لقد أرسلت المبعوثين مجددا إلى مخيم باتو، وحمّلتهم وعدا منك إليه بأنك ستعترف بحقه في أرضه له ولذريته».

غضب غويوك وقال: «لن أعترف، فوصية والدي لم تُكتب في السماء، أيفترض بي القبول بتجول شخص مثل بيدور بحرية بالقرب من حدودي ويعيش حياة الأثرياء من دون أن أُحرك ساكنا؟

أيفترض بي أن أدع محاربيه يعيشون برفاه ويتكاثرون في الوقت الذي أخوض فيه الحرب تلو الأخرى؟ لا يا أمي، إما أن يبايعني، وإلا سيسحق وقومه تحت سنابك جيشنا».

لم تتمالك توروغين نفسها، فانهالت على وجهه بصفعة قوية، دفعته من شدتها نحو الجهة الأخرى، فاحمر وجهه، ونظر إليها مستغربا.

قالت: «سبق وقلت لك ثق بي، اسمع وافهم بقلبك وعقلك وليس بأذنيك فقط. عندما تصبح الخان ستكون لديك قوة مطلقة وجيوش عظيمة، وما تأمر به سيكون بمثابة قانون، وعندها لن يعود لوعودك من قيمة، فلا تتجاهل نصيحتي، أتفهم؟».

بالرغم من أنهما كانا وحدهما في الغرفة إلا أن صوتها بالكاد كان مسموعا. «كنت لأعد باتو لا أخلاقيا إن كان سيحضر الاجتماع. فقد بقي لسنتين يرسل الأعذار لكاراكورم، لم يكن يجرؤ على الرفض المباشر لذا كان يرسل أخبارا عن جروح وأمراض قائلا إنه لا يستطيع السفر. وخلال كل ذلك الوقت كان يراقب ليرى ماذا سيحصل في المدينة البيضاء. إنه رجل ذكي يا غويوك فلا تنسَ ذلك. وابن سورهاتانا لا يملك نصف طموحه».

«أنت تفاوضين ثعبانا، فاحرصي ألا يلدغك».

ابتسمت توروغين: «لكل رجل ثمن، وأنا أسعى لمعرفة ثمنه».

قال غويوك مستفزا: «إنني أعرف باتو جيدا، ويمكنني أن أسديك النصح، فأنت لم تكوني معنا عندما ذهبنا غربا».

قالت توروغين بصوت ضعيف: «لا يفترض بي أن أعرف كل شيء يا غويوك، عندما أعرف الثمن الذي يريده باتو، سأضمن تأييد أكثرية الأمراء لإعلانك خانا في اجتماع الصيف. هل عرفت الآن لماذا يجب عليك ألا تتصرف من تلقاء نفسك؟ هل عرفت الآن بما خاطرت عندما أقدمت على قتل أوتشير؟ فما الذي يعنيه إن لم يؤيدك أحدهم، إن أيدتك الأكثرية؟».

أخفض غويوك رأسه وقال: «آسف، لم أكن مطلعا على ما تقومين به، وهذا ما أثار غضبي، يجب أن تخبريني بما تخططين إليه، فقد أستطيع مساعدتك».

بالرغم من معرفة توروغين بكل عيوب ابنها ونقاط ضعفه، إلا أنها كانت تحبه أكثر من حياتها.

فقالت: «ثق بأمك، ستصبح الخان، ولكن عدني الآن أنه لن يكون هناك مزيد من الثياب المبللة بالدماء تستدعي حرقها، ولن يكون هناك مزيد من الأخطاء».

أجابها: «أعدك». في الوقت الذي انصرف فيه تفكيره إلى الأمور التي سيعمد إلى تغييرها عندما تؤول إليه مقاليد الحكم ويُعلن خانا، فبما أن والدته كانت تعلم الكثير عنه فلن يكون مرتاحا بالقرب منها، لذا سيجد لها منزلا صغيرا بعيدا عن المدينة لتعيش فيه آخر أيامها. ضحك في سره على الأفكار التي راودته، وبالمقابل فرحت والدته لرؤيتها ذلك الشاب المطيع كما عهدته دائما.

2

بينما كان باتو يمتطي جواده ويتوجه عبر الحقول الخضراء نحو الخيم الموجودة في الوديان، كانت عيناه تبحثان عن المراقبين والكشافة. لم يكن قد أعلن عن زيارته لموطن شعب المغول، وكان يستطيع تسمية القليل ممن كانوا مهتمين بوجوده هناك. كانت سورهاتانا قد ورثت موطن جنكيز خان من زوجها منذ سنوات عدة. وقد أعادت الناس إلى السهول، حيث كانت توجد عشرات الآلاف من العائلات التي أرادت فقط أن تعيش كما عاشت سابقا في ظل الجبال والأراضي الواسعة.

لم يكن هناك ما يثير الشك حول خيمة تسوبوداي، الذي تقاعد من دون أي مراسم، ورفض كل التعظيم الذي كانت توروغين تريد منحه إياه، وكان باتو سعيدا لإيجاده بالرغم من أن الرجل المتقاعد لم يكن كثير التنقل. عندما اقترب باتو أكثر، رأى القليل من الأغنام والماعز ترعى العشب. لقد اختار تسوبوداي منزلا مريحا. بينما كانت الشمس تشرق وجد باتو نفسه معجبا بالرجل مرة ثانية. كان تسوبوداي أعظم قائد جيش في الأمة، فقد قاد مئات آلاف الرجال نحو الهضاب الإيطالية في الشمال، واعتقد باتو أنهم كانوا سيصنعون إمبراطورية تمتد من البحر إلى البحر، لكن موت الخان حال دون تحقيق ذلك، وحتّم عليهم العودة إلى الوطن. لقد شعر بالخزي عندما تذكر أنه استمتع بفشل الرجل العجوز، عندما ظن أنه وأبناء جيله سيتمكنون من إزالة السياسيين التافهين الذين أفسدوا العالم الذي عرفه.

أبطأ باتو من خطاه نحو تسوبوداي لعلمه أن مفاجأته لن تكون فكرة جيدة، فهما لم يكونا صديقين مقربين. ولكن منذ الرحلة العظيمة، أخذ احترامه له يزداد يوما بعد يوم، لكن باتو احتاج إلى نصيحة من شخص لم يعد طرفا في الصراع، شخص يمكنه الوثوق بكلمته.

من بعيد سمع باتو نباح كلب. ولكن عندما رأى أن كلبا ضخما يقف خلفه رافعا رأسه شعر بالخوف يسري في قلبه. لم يكن باتو محبا للكلاب وما زاد من خوفه أن هذا الكلب كان ضخما

وأسود اللون. صرخ باتو «نوخوي خور» مناديا شخصا ما ليمسك الوحش، لكن لم يكن هناك أثر لتسوبوداي أو زوجته. استنشق الكلب الهواء مديرا رأسه في كل الاتجاهات باحثا عنه، ثم انطلق عبر العشب. تغيرت ملامح وجهه عندما رأى تلك الأسنان البيضاء والعينين. بينما كان الكلب يقترب سقط القوس من يد باتو، لكنه لم يلتقطه، لأنه أدرك أن تسوبوداي لن يستقبله بالترحاب إن علم أنه قتل كلبه.

انزلق حافر الحصان، فصرخ باتو بغضب على الكلب، محاولا استخدام كلمات مختلفة من الأوامر، لكن الحيوان الضخم استمر بالتقدم، فاضطر للركض في دوائر والكلب يلاحقه. واستطاع رؤية زبد أبيض على فمه، فجأة أخذ الكلب ينبح عندما رأى باتو يهرب.

من بعيد رأى باتو امرأة تخرج من خيمة. بدت مستمتعة بالمأزق الذي وجدته فيه، فانفجرت ضاحكة. فهو لم يكن يقوم بشيء سوى الركض في دوائر في محاولة منه لتجنب الكلب الذي يتربص به ليعضه.

مجددا صرخ «نوخوي خور» ولكنها ظلت تنظر إليه بتعجرف، قبل أن تضع إصبعين في فمها، وتصفّر للكلب الذي توقف عن مطاردة باتو فورا، وجلس في مكانه، ولكن عينيه السوداوين لم تبارحا الرجل الرابض على صهوة حصانه الذي تجرأ ودخل أرض تسوبوداي.

قال باتو له «اجلس» وأخذ نفسا، لم يكن قد رأى في حياته كلبا بمثل حجمه، وتساءل عن المكان الذي عثر فيه تسوبوداي عليه. وبما أن عيني الكلب ظلتا تتابعان باتو، أبدى الأخير حذرا ولم يخطُ خطوات مفاجئة.

قال باتو: «إنني أبحث عن الأورلوك تسوبوداي».

كان قد سمع تذمرا صادرا من خلفه، وكان من الصعب عدم رؤية الابتسامة التي ظهرت على وجه المرأة عندما نظرت إليه وقالت: «ربما لا يريد رؤيتك أيها الغريب».

فأسرع باتو بالقول: «إنه يعرفني جيدا، فقد كنت معه في الغرب، أنا باتو ابن جوتشي».

شحب وجهها عندما سمعت الاسم، ونظرت إلى عينيه باحثة عن شيء ما.

ثم قالت: «لو كنت مكانك، ما كنت لأشهر السلاح، لأن الكلب كان ليمزق لحمك».

أجاب باتو: «إنني لا أسعى وراء الانتقام فقد أعلنت الاستسلام منذ زمن».

ردت المرأة: «يسعدني أن أحدكم فعل ذلك».

لمعت عيناها وهي تنظر إلى المنطقة خلفه، فأدرك أن الكلب يتقدم نحوه، ولكنه عندما نظر إلى الخلف رأى تسوبوداي قادما من بين الأشجار على صهوة حصانه، عندها فوجئ باتو بمقدار الراحة التي يشعر بها، ففي الماضي كان يبغض هذا الرجل، شأنه شأن كثيرين. ومع الوقت تعلم أن يحترمه. لم يكن باتو متأكدا من مشاعره ولكن بطريقةٍ ما شعر بالراحة عندما رأى أن تسوبوداي لا يزال حيا، ولكنه لم يكن واثقا كيف سيستقبله.

تزاحمت الأفكار في رأسه بينما كان تسوبوداي يقترب منه، عندما صفّر الرجل للكلب، شاهد باتو كيف اندفع راكضا نحوه مثل جروٍ صغير، وأخذ يهز كامل جسده وليس ذيله فقط، تعبيرا عن سروره.

ترجّل تسوبوداي ممسكا بلجام حصانه، وربّت على رأس الكلب، ولم يبتسم عندما نظر إلى زوجته وباتو.

فسأل زوجته: «هل قدمتِ له الشاي؟».

أجابته: «لا، فكرت أن أترك لك الأمر».

«حسنا، اذهب فليس لديّ ما أقوله لك».

قال باتو: «لقد أتيت من بعيد لرؤيتك، أيها الأورلوك».

أجابه تسوبوداي: «لم تعد الألقاب تعنيني فأنا متقاعد الآن».

ردّ باتو: «لقد أتيت سعيا وراء نصيحتك، ولم آتِ لأوليك أمر الجند».

توقف تسوبوداي قليلا وهو يعبر باب الخيمة ثم قال: «رافقتك السلامة». ودخل من دون أن ينظر إليه.

بإحباط شاهده باتو يدخل وكلبه الخيمة المظلمة، وقد أسقط في يده، قبل أن يلتفت إلى زوجة تسوبوداي التي ظلت واقفة راسمة على شفتيها ابتسامة ساخرة، رغم بلوغها سن اليأس إلا أنها بدت مفعمة بالأنوثة عندما حدقت إلى الشاب الخائب بنظرة أم وقالت له: «لا أرضى أن يغادر الضيوف من دون أن أقدم لهم شيئا، هل ترغب بشرب الشاي؟».

سمع باتو تذمرا من الخيمة، حيث كانت الجدران رقيقة كفاية لتُسمع كل كلمة، فأجابها: «سيكون شرفا لي».

لم يكن باتو قد غادر عندما حل الظلام، ولكن لم يبدُ أن تسوبوداي منزعج من وجوده. بقي الرجل العجوز صامتا، ومنهمكا بصيانة قوسه، أما باتو فلم يتوقف عن الحديث طيلة ساعات، وقد علم أن زوجة تسوبوداي تدعى أريونا وكانت لطيفة. لكن تسوبوداي أبدى تذمرا عندما تحدث باتو عن الأراضي التي منحت له في وصية أوجيدي.

لعلمه أن تسوبوداي كان يسمعه جيدا، أخبرها أن جزءا منها كان لوالده بعد رحيل جنكيز. بعدها لاحظ أن تسوبوداي يحدق إليه متيقنا أن ذكريات الرجل المسن لا تزال حادة، لكن باتو لم ينظر إليه. وبعد فترة وجيزة قام الرجل المسن إلى القدر الذي يوجد بداخله ماء، وصمغ، وقرون تغلي.

عندما أوشكت الشمس أن تغيب، مطّط تسوبوداي ظهره، وتنهد قبل أن يقول لزوجته: «سأطمئن على الحيوانات».

نظر باتو إليه وهو يهم بالذهاب، لكنه لم يأتِ بأي خطوة إلى أن قالت الزوجة له: «اتبعه». حينها نهض والابتسامة تعلو وجهه. كانت النساء أحيانا مفعمات بالحيوية عندما يتعلق الأمر بحديث الرجال.

كشّر كلب تسوبوداي عن أنيابه عندما رأى باتو، لكن تسوبوداي هدّأ من روعه، وتفقد الرجلان معا العِقد التي تثبت الحظيرة، قبل أن يتفقدا معزاة على وشك أن تلد، لقد كان الصمت بينهما مريحا، فعلى الأقل لم يشر إلى أن الضيف غير مرحّب به كما كان حاله عندما كان في الخيمة.

بدا الرجل العجوز في الخارج أكثر راحة، وأشار لباتو أن يعاين المعزاة، فضغط على بطنها وقال: «ستلد، تبدو مرتاحة».

فأجابه تسوبوداي: «إنها كذلك، وأنا أيضا. الحياة صعبة، ولكنها يمكن أن تكون بسيطة، وهي كذلك فعلا».

لقد زوى جسمه بمرور السنين، ولكنه لا يزال يتمتع بحضوره، ولن يخطئ أحد ويصدق أنه راعٍ، فقد شاهدت عيناه جنكيز شابا وعجوزا كما شهدتا قيام إمبراطوريات وسقوطها.

لم يجب باتو، بعد فتره تنهد تسوبوداي، ووضع يده على عمود الحظيرة الخشبي وقال: «قل لي أي رياح حملتك إليّ وجعلتك تقطع كل هذه الأميال، ولكن قبل أن تبدأ، اعلم أنني لا أعلم شيئا عن السياسة وشؤونها في كاراكورم. لم يعد لديّ شبكة جواسيس هناك، إن كان هذا ما تسعى إليه».

ردّ باتو: «لم آتِ إلا طلبا لنصيحة شخص أثق به».

وكما فعلت أريونا سابقا، تفحّصه تسوبوداي بعينيه ثم هدأ، واختفى التوتر الذي كان يخالجه، ثم قال: «اسأل يا فتى، لكنني لا أعلم إن كانت أجوبتي ستعجبك».

أخذ باتو نفسا عميقا ثم قال: «تعلم بشأن غويوك». لم يقل تسوبوداي شيئا. «لكن هل تعلم أنه لم يتم اختيار خان حتى الآن».

ردّ الرجل العجوز: «لقد سمعت بذلك، فأنا لا أعيش في الصحراء، والأخبار تردني».

أكمل باتو: يفترض أن يكون الخان واحدا من غويوك، أو مونغ أو بيدور، أو... أنا، وقد أعطى مونغ كلمته لغويوك بأن يدعمه، عندما سمع بموت أوجيدي».

حك تسوبوداي خده وقال: «الأمر بسيط، كن مع مونغ وغويوك وسينضم بيدور إليكم عندما يعرف بتحالفكم، وبهذا يصبح غويوك الخان وأترك وحيدا».

سأله باتو بجدية: «هل هذا ما كنت لتقدم عليه؟».

ضحك تسوبوداي ضحكة مليئة بالمرارة: «أنا؟ كلا. لكن أنا لست أنت».

فسأله باتو: «لماذا تريدني أن أدعم غويوك؟ لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعل؟».

لم يجب تسوبوداي بل حدّق إلى الحقول المظلمة، وجال بعينيه على جداول المياه والهضاب البعيدة، وظل باتو ينتظر منه جوابا.

أخيرا، قال تسوبوداي: «أنا لست في مكانك، ولا أعرف دوافعك، لكن إن كنت تريد أن تحصل على أفضل صفقة، انتظر قدر ما تستطيع، واستغل اللحظة التي تتحول فيها هداياه إلى تهديدات، ثم أمن أراضيك، ربما يكون باستطاعتك النجاة لفترة كافية لتستمتع بها».

لكن باتو قال: «وماذا يكون قولك عندما أخبرك أنني لا أسعى وراء الصفقة الأفضل؟ بل إنني أظن أن غويوك لا يصلح لقيادة الأمة؟».

أجابه العجوز: «لا أستطيع قول شيء، سوى أنه سيدمرك إن وقفت في طريقه». وكان على وشك قول شيء ما إلا أنه آثر الصمت.

سأله باتو: «ما الخطب أيها العجوز؟ لِمَ لا تفصح عما تريد قوله؟ ما هذه الأحجية التي تفوّهت بها؟ من جهة تقول إنك لا تدعمه، ومن جهة أخرى تقول إنه سيدمرني إن لم أدعمه».

ابتسم تسوبوداي وقال: «ليس في الأمر أحجية فهو في غاية البساطة». وتحدث للمرة الأولى بالخير عن غويوك فقال: «أنت لم تأتِ إلى هنا من أجل إجابات، فأنت تعرف كل شيء تحتاج إلى معرفته. هل أنت منزعج ممن يشارك غويوك الفراش؟ هل يملأك مرافقوه بالغضب، أو أنك تحسده؟». ثم ضحك.

أجاب باتو مفعما بالازدراء: «ليأخذ من يريد إلى فراشه وإن كانت جيفة معزاة، ما يهمني حقا أنه رجل صغير لا يملك أحلاما من أي نوع. وكل ما لديه هو الخداع بينما تحتاج الأمة إلى الذكاء. لا يمكنك أن تقنعني أنه يصلح ليكون الخان».

ردّ تسوبوداي: «سيكون خانا مريعا، وستتفكك الأمة عندما يحكمها. ولكن السؤال: إن لم تتصدَّ له فمن سيفعل؟ أيا يكن الأمر فقد فات الأوان، فأنت في طريقك إلى الاجتماع، وستصوت لغويوك ليكون الخان».

فوجئ باتو مما سمعه، فقد كان جنوده ينتظرونه في الوادي الذي يبعد مسير يوم كامل. ما كان لتسوبوداي أن يعلم هذا إلا إن كان يكذب في عدم امتلاكه مصدرا للمعلومات، لكن لربما كان هناك بعض الرجال المسنين الذين يمرون لاحتساء الشاي ومشاركة الأخبار مع الأورلوك.

قال باتو: «أنت تعرف أكثر بكثير مما يفترض أن يعرفه شخص يدّعي أنه راعٍ بسيط».

فأجاب تسوبوداي: «الناس يتكلمون مثلك تماما، ودائما ما يفعلون ذلك كأنه لا يوجد شيء أفضل للقيام به. هل كنت تريد مني أن أتخذ القرار الصحيح عنك؟ ربما كنت تريد ذلك، دعني بسلام».

كتم باتو غيظه وقال: «أتيت لأسألك كيف كان جنكيز ليتصرف في مثل هذا الموقف، فأنت خير من عرفه».

ابتسم تسوبوداي ابتسامة عريضة مظهرا أسنانه التي فُقد منها اثنتان الأمر الذي جعل خديه يتجعدان، وكان من السهل رؤية شكل عظام جمجمته، حيث بدا الجلد ممددا على العظم.

«لم يكن جدك رجل مساومات، أتفهم ما أقول؟ كثيرون هم الرجال الذين يقولون إننا نؤمن بهذا، ولكن هل سيبقون على إيمانهم هذا عندما يصبح أولادهم في خطر؟ لا أظن ذلك. ولكن جنكيز ما كان ليتزحزح عن إيمانه قيد أنملة، هدده بقتل أولاده، وسيقول لك إن استطعت فلا تتوانَ، ولكن عليك أن تعرف أولا عاقبة ما ستقدم عليه، والثمن الذي ستدفعه؛ فسيدمر مدنا ويشرد شعوبا، ولن يكون هذا الثمن كافيا. لم يقل كلمة وتراجع عنها، وقد أدرك أعداءه ذلك. والآن أخبرني أنت: أبرأيك سيدعم شخصا مثل غويوك؟».

تمتم باتو: «كلا...»

فأكمل تسوبوداي: «لن يدعمه مهما يطل الزمن. غويوك تابع، والتابع لا يستطيع أن يكون قائدا. لقد شاهدته وهو يترنح أمامك، أنت كالنجار، الذي يصنع السقالة لترميد السقف، عندما يحكم الكلاب القطيع سيتشرد القطيع». ثم ربّت على الكلب ما جعل لعابه يسيل وأخذ يهمهم له. فقال تسوبوداي للكلب: «أليس كذلك يا تيموجن؟ لا يمكن للجميع أن يكون مثلك، ألستُ محقا؟».

انبطح الكلب على بطنه، وأخذ يلهث بعد أن مدد قائمتيه الأماميتين.

فسأله باتو مندهشا: «أأسميت الكلب تيمنا بجنكيز؟».

ضحك تسوبوداي: «ولمَ لا؟ يسعدني أن أفعل ذلك». نظر إليه ثم أضاف: «إن رجلا مثل غويوك لا يمكن أن يتغير. لا يمكن أن يستيقظ في أحد الأيام، ويقرر فجأة أن يصبح شخصا جيدا وقائدا، فهذه ليست من شيمه».

وضع باتو يده على العمود الخشبي، حين كانت الشمس تتوجه إلى مخبئها الليلي خلال حديثهما، وأخذ الظلام يبسط جناحيه في الأرجاء شيئا فشيئا.

قال بتؤدة: «لكن إن تصديت له، سيدمّرني».

استهجن تسوبوداي قائلا: «ربما، كل شيء وارد. لم يوقف ذلك والدك عن سحب رجاله، لم يكن لديه حل وسط فقد كان مختلفا».

نظر باتو إلى العجوز الواقف أمامه وهو بالكاد يستطيع رؤية ملامحه وقال: «لم يجدِ ذلك نفعا».

ردّ تسوبوداي: «لا تزال يافعا وتنقصك الخبرة لتفهم ذلك».

ردّ باتو: «حاول أن تشرح لي!». وأحس أن العجوز يحدق إليه.

«يا بني، الخوف رفيق درب الناس، ربما يجب أن تكون أكبر سنا وأكثر خبرة لتعي ما أقوله. في بعض الأحيان أظن أنني عشت طويلا، ولكنني سأموت شأني شأن الجميع، جنكيز مات وزوجتي ستموت وأنت وغويوك وكل من عرفته أو ستعرفه، وفي يوم من الأيام سيسير الأحياء على قبورنا، ولن يعلموا أبدا أننا ضحكنا، أو أحببنا، أو كرهنا بعضنا بعضا، هل تظن أنهم سيهتمون؟ كلا، سيكون لديهم حياتهم القصيرة ليعيشوها».

بدا الإحباط في نبرة باتو وهو يقول: «لم أفهم».

فأجابه تسوبوداي: «بالطبع، لن تفهم لأنك لا تزال يافعا، ما من شك أن هذا الوادي يحتضن رفاة رجال ونساء ظنوا يوما أنهم مهمون، هل نفكر نحن بهم اليوم؟ هل تعني لنا أحزانهم وآلامهم شيئا؟ حتما لا، حتى أننا لا نعرف أسماءهم. في يوم من الأيام رغبت أن أخلّد أسمي، حيث يردّده الناس لآلاف السنوات، ولكن بعد أن بلغ بي العمر عتيا ما عدت آبه لذلك، لأنني أنا، ومن أحببت أن يذكروا اسمي، سنصبح غبارا، فكل ما أتمناه الآن أن تخلد روحي. عندما يتقدم بك العمر يا فتى، ستعلم أن أهم شيئين يمكنك أن تمتلكهما هما الشجاعة والشرف، وإن لم تمتلكهما لن يكون عمرك قصيرا، ولكنك ستكون أقل قيمة وأهمية من الغبار على النعل، ستكون غبارا وستهدر حياتك هباء. ربما لم يكن النجاح حليف والدك، لكن ما من أحد ينكر أنه كان قويا، وسعى لإنجاز الأفضل لشعبه، ولم يجعل حياته تضيع هباء، وهذا كل ما يمكن أن تسعى إليه». بدا أن الحديث أتعب العجوز، فبصق على الأرض وتابع: «أنت لم تتأقلم مع هذا العالم، إن هذه الجبال ستبقى هنا بعدي أنا وبعدك».

صمت باتو لوقت طويل قبل أن يقول: «أنا لم أعرف والدي، ولم تتح لي مقابلته».

رد تسوبوداي: «أنا آسف لما فعلته، هذا ما أفهم عن الشرف يا فتى. فقط عندما تخسره تعرف كم هي قيمته، ولكن عندها يكون الأوان قد فات».

قال باتو: «أنت رجل ذو أخلاق عالية إن كنت أفهم شيئا».

أجاب تسوبوداي: «ربما كنت كذلك، لكن ما كان يجدر بي أن أُنفّذ أمر جدك وأقتل ولده. لقد كان ذلك جنونا، ولكنني كنت شابا يهابه، ما كان يجدر البحث عن جوشي في سهول روسيا، لا أظنك ستفهم ما أقوله، ولكنني أعرف أنني يوما قتلت رجلا قل نظيره».

أجابه باتو: «أنت تعلم أنني أفهم».

عندها قال تسوبوداي: «لم أقتله في ساحة الوغى، بل عن قرب. كنت أنظر إلى عينيه».

هز باتو برأسه، فهمهم تسوبوداي وهو بالكاد يرى تحرك باتو.

«هل كان من الصواب أن تفعل هذا؟ أن تأخذ كل سني حياته التي كان سيعيشها؟».

أجاب: «اعتقدت هذا في ذلك الوقت».

فأجابه تسوبوداي: «أنت لا تزال شابا. في الماضي ظننت أنه يمكنني تحويل خطأي إلى شيء جيد. وأن خطأي سيكون القوة التي تجعلني أفضل من الرجال الآخرين، واعتقدت أنني سأتعلم شيئا من سني قوتي، ولكن بالرغم من كل ما قمت به، كان دائما موجودا في ذاكرتي. لم أستطع نسيانه يا باتو. ولم أستطع محو خطيئتي. هل تعلم هذه الكلمة؟ يقول المسيحيون إنها بقعة سوداء في الروح وهو وصف ملائم».

قال باتو: «ولكنهم يقولون إنك تستطيع محوها عن طريق الاعتراف».

أجاب تسوبوداي: «كلا، هذا ليس صحيحا. أي رجل سأكون عندما أمحو أخطائي من خلال الكلمات فقط؟ فالرجل يجب أن ترافقه أخطاؤه طيلة حياته، فربما تكون هي عقابه». ثم ضحك متذكرا شيئا قديما: «هل تعلم، نسي جدك أيامه السيئة، كأنها لم تكن. لقد كنت أحسده على ذلك، وما زلت أحسده في بعض الأحيان». ورأى باتو ينظر إليه ويهمهم فأكمل: «حافظ على كلمتك يا فتى، هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك».

ارتعش تسوبوداي عندما هب النسيم، وقال بصوت خافت جدا لم يستطع باتو سماعه: «إن كنت أنت يا جنكيز في هذا النسيم فلا أبالي، فهذا الشاب يستطيع الاعتناء بنفسه».

عندها دثّر العجوز نفسه بردائه، وقال بصوت أقوى: «لقد تأخر الوقت لتعود إلى رجالك، ابقَ اليوم في ضيافتي، وفي الغد تناول فطورك وامضِ في طريقك، ما رأيك؟».

بينما كان القمر يظهر في الأفق، شاهد العجوز باتو يمشي نحو الخيمة، فشعر بالسرور لموافقته، وأحس أنه يعرف ما الذي يجدر به أن يفعله.

كان من الغريب، رؤية بناء مثل يام، في مكان قصي يبعد ثلاثة آلاف ميل شمالي كاراكورم. لم تُبنَ محطات يام، إلا لتكون نقطة ربط بين المراسيل، الذين يجوبون الأراضي الشاسعة من أراضي تشن وغربي روسيا، وجنوبي كابول. كانت المعدات والإمدادات تأتي عبر هذه الطرق في عربات بطيئة وهذا هو السبب في ازدهار يام.

الآن هناك أبنية حجرية رمادية اللون ذات سطوح قرميدية، مكان الخيم القديمة. وحول هذه الأبنية هناك خيم، ربما تعود إلى عائلات الفرسان المتقاعدين الذين عملوا مراسيل. جال باتو بنظره في الأرجاء، وهو يتساءل إن كانت هذه المنطقة ستغدو قرية وسط هذه البراري الشاسعة، ففرسان يام، لم يعودوا قادرين على التنقل مع تبدل الفصول، بخلاف حالتهم السابقة قبل التقاعد.

لقد تجنب المرور عبر محطة يام، لأنه ما إن يرى أحدهم ظله، حتى ينتقل الفرسان بسرعة- وما من أحد أسرع منهم في التنقل- وبذلك ستصل أخباره إلى كاراكورم قبل وقت طويل من وصوله. لذا أخفى باتو جنوده في غابة بعيدة عن أشجار الصنوبر، حتى لا يُكتشف أمرهم، وأكمل طريقه، برفقة اثنين من فرقة الاستطلاع، إلى أن وصلوا إلى مكان ربط فيه حصانه، وأرسلهما وحدهما.

انبطح باتو على الأرض مشاهدا تقدمهما نحو محطة يام، فرأى الدخان يتصاعد من مدخنتها، ورأى أيضا خيلا ترعى العشب في الأفق، وعندما رأى رجليه يدخلان البناء، استلقى على ظهره، وأخذ ينظر إلى السماء الزرقاء.

لقد كان وقتا أراد فيه أن يصبح خانا ولو أن الأمر عُرض عليه وقتها لكان وافق بلا تردد. كانت الحياة أسهل وقتها حين كان يتجه غربا مع تسوبوداي، لكن موت أوجيدي فعل أكثر من إيقاف الرحلة العظيمة نحو الغرب. لقد فعل الخان الكثير ليجعل باتو مرشحا؛ فقد رقاه، حتى صار يقود فرقة من عشرة آلاف جندي يأتمرون بإمرته، ولم يكن من المفاجئ وضع اسمه في وصية أوجيدي، ولكن البعض تفاجأ بذلك. أما باتو فلم يتوقع شيئا. وعندما ذهب إلى أراضيه الجديدة، وجد آثارا لمخيم مغول، مثل خيم وأبنية خشبية قاسية. قام بالبحث فيها كلها، ثم وجد في إحداها سرجا قديما عليه علامة والده. كان أوجيدي قد قدم له الأراضي التي اختارها والده عندما هرب من جنكيز. أمسك باتو بالسرج، وبكى على الرجل الذي لم يحظ برؤيته، ومنذ ذلك الحين علم أن هناك شيئا قد

تغير. وعندما نظر إلى السماء الزرقاء، حاول البحث في نفسه عن القليل من الرغبة والطموح، لكنه لم يعثر على شيء، فعلم أنه لن يصبح خانا، ولكنه سعى إلى أن يوصل الأفضل ليحكم الشعب. عندها مد يده إلى الأرض التي يستلقي عليها، والتقط حفنة من العشب والتراب، ونثرها في هواء ذلك اليوم الدافئ، وشاهدها تطير.

حلق نسر فوقه في دوائر، ربما كان مهتما بالرجل المستلقي بكسل على العشب في السهل. رفع باتو يدا نحوه موقنا أن النسر قادر على رؤية أدق التفاصيل من ذلك الارتفاع.

في الوقت الذي عاد فيه رجلاه، كانت الشمس قد غادرت مركزها في السماء، وبما أنهما كانا حسني التدريب، فقد قاما بتمويه جيد، حتى وصلا إلى مكان لا يستطيع أحد من يام رؤيتهما منه، وعندما قادا حصانيهما بالقرب منه، لحق بهما، وهو ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر. لم يكن هناك حاجة للسؤال عن الرسالة لأنه كان يعلم أن فرسان يام كانوا ذوي كفاءة عالية، وبالتالي فإن الفارس المرسال سيكون في هذه الأثناء في طريقه إلى المحطة التالية التي تبعد خمسة وعشرين ميلا عن كاراكورم، وفي غضون ثلاثة أيام ستكون رسالته الممهورة بين يدي توروغين.

في الوقت الذي كان فيه باتو يمتطي حصانه فوق العشب، فكر وأدرك أن غويوك سيشعر بخيبة، ما بعدها خيبة، عندما ينفض الاجتماع، لأن الرسالة الثانية التي بعث بها ستصل إلى بيدور في الوقت نفسه، وإذا نفّذ ما وعد به، سيكون خانا أفضل من غويوك. لقد كان واثقا من ذلك ثقة عمياء، للحظات سمع صوتا كأنه آتٍ من البعيد يقول له إنه سيكون خانا جيدا، لقد كان صوت الابن البكر لجنكيز خان.

هزّ باتو رأسه، ليطرد ذلك الصوت من رأسه، وهو يفكر كم سيكون رائعا أن تعود هذه الأمة لتسلك الدرب الصحيح، بعد كل هذا الوقت. لقد أراد والده أن يجد دربه الخاص بعيدا عن الخان والرعايا. أتاح له حديثه مع تسوبوداي، رؤية الأيام الخوالي، من خلال منظور رجل عجوز. وقد سعى ليتمسك بتلك الرؤية.

فكّر باتو بكل الاحتمالات المستقبلية الممكنة، ولكنه استسلم وتوقف عن متابعة التفكير فيها، فما من رجل يستطيع التفكير في كل شيء، وفكّر إن كانت سنابك حصانه تدوس في هذه الأثناء ما كان سابقا رفات أشخاص ماتوا منذ زمن بعيد، فاقشعر بدنه، بالرغم من الدفء الذي تبثه أشعة الشمس.

3

لم تشهد كاراكورم اجتماعا كهذا منذ سنوات عديدة. وعلى مدّ النظر كانت الأرض مغطاة بالخيم والأحصنة، لقد أتت العديد من العائلات لتشهد على قسم الخان الجديد. أتى بيدور من الغرب برفقة عشرين ألف رجل وأقاموا مخيمهم بالقرب من نهر أورخون، حتى يؤمنوا جانبهم. أما مخيم أبناء سورهاتانا الأربعة فكان قريبا، واحتضن ثلاثين ألف عائلة، غطوا السهل الأخضر، وعندما وصل المتأخرون غطت خيمهم التلال العالية.

في ظل هذا الحشد الكبير، والأعداد الهائلة من الماشية، والخيول والجمال حول المدينة، كان السعي وراء الهدوء ضربا من الخيال، وخلال الأسابيع الماضية، تحولت ضفتا النهر، إلى منطقتين موحلتين، وكثرت الشجارات بين الناس، وقتل عدد لا بأس به منهم.

في ظل حشد كبير كهذا، بدا مستحيلا ألا يلجأ أشخاص كثر إلى أسلحتهم، سعيا منهم إلى إيجاد حلول لأمور مختلفة، ولكن يبدو أن الأيام، كانت تمر، بأقل قدر من التعارك، وبسلام نسبيا. لقد أتى كبار الشعوب من أماكن بعيدة، مثل كوريو، وشرقي تشن، بينما أتى آخرون من مستوطنات بلاد الفرس، بناء على دعوة أرسلت لهم من كاراكورم. لم يكن التجمع لينعقد قبل ثلاثة أشهر. وحتى يوم القسم، كان الشعب بأكمله يعتمد بغذائه على ما تقدمه كاراكورم.

لم تعد توروغين تذكر المرة الأخيرة التي نامت فيها، فقد غفت أمس وأول أمس لبضع ساعات فقط. ولقد أدركت من تشوش أفكارها، وألم مفاصلها أنها يجب أن تخلد للنوم وإلا ستصبح عديمة الفائدة، وكانت مدركة أن حماستها هي وحدها من تبقيها صاحية. كانت مهمة إطعام شعب بكامله من مخازن كاراكورم تحتاج إلى جيش من الخدم، فضلا عن تخصيص أكثر من أربعمئة أمير وقائد وعوائلهم بالحبوب واللحوم.

مسحت توروغين جبينها ناظرة بفخر، بينما كان غويوك يحدق خارج النافذة. كانت جدران المدينة تبدو أعلى من قبل، ورغم ذلك كان يستطيع رؤية بحر الخيم الممتد بعيدا في الأفق.

ثم قال لنفسه: «هناك العديد منهم».

أومأت توروغين: «سننتظر قليلا الآن، سيصل تشول غيتي قريبا، بالرغم من أني أظن أنه سافر كثيرا. وباتو لا يمكن أن يكون بعيدا من هنا، كما أن هناك العديد من الأسماء الأقل شهرة في طريقها إلى هنا، يا ولدي. كن متيقنا أنني أرسلت العديد من رجال الاستطلاع يتسقطون لي أخبارهم».

قال غويوك: «في بعض الأحيان شككت في حصول هذا الاجتماع، ولكن ما كان يجدر بي الشكّ فيك».

عندها تبسمت توروغين، وتألق وجهها في تعبير عن العاطفة تجاه ابنها، والفخر بما توشك على تحقيقه.

قالت: «حسنا، لقد تعلمت حسنات أن يكون المرء صبورا بعض الشيء، ولا أظن هذه الصفة ستكون سيئة بالنسبة للخان الجديد». قالت كلماتها تلك، وشعرت بالدوار. وعندما تذكرت أنها لم تتناول شيئا من الزاد اليوم، طلبت من الخدم، الإسراع في تحضير الطعام لها.

قال غويوك: «يبدو أن حضور بيدور، هو ما حمل باتو على تبديل رأيه، أيمكنك أن تخبريني، بما وعدت ابن عمي العزيز».

فكّرت توروغين لبرهة، قبل أن تومئ برأسها وتقول: «طبعا، فأنت ستعلم بكل شيء عندما تصبح الخان، لقد وعدت بيدور بعشرة آلاف قطعة من الذهب».

نظر غويوك إليها مندهشا، فهذا المبلغ يعادل كل ما في خزائنهم، والذي استغرق جمعه من الأرض سنوات، فسألها: «وهل تركتِ لي شيئا من الذهب؟».

استهجنت الأم سؤال ابنها وقالت: «سنظل نستخرج الذهب! كما أنه لا يجدر بالخان الركون إلى رغد العيش خلف جدران القصر». وأردفت قائلة: «كن لطيفا ولبقا بالتعامل معه بعد أن يؤدي لك البيعة، فهو رجل أغنى منك».

عندها سأل غويوك أمه: «كيف ستشترين بيعة باتو، بعد أن أفرغت خزائننا في جيوب بيدور؟».

عندما رأت توروغين الاستهزاء في عيني ابنها عبست وقالت: «كن لبقا ولطيفا عندما تقابله، ولا تدعه يدرك ما تضمره في سريرتك، فالخان يشعر كل من حوله بأهميتهم، وإن كانوا خلاف ذلك».

تنهدت عندما رأته يحدق إليها بخواء، وأردفت: «لقد تبادلت الرسائل معه من خلال فرسان يام، ولم يبدِ اعتراضا عندما أخبرته أن بيدور سيبايعك، وبالتالي لم أضطر لأن أعرض عليه شيئا، فبعد أن ضمنت أن بيدور يقف إلى جانبك لم أكن مضطرة للتواصل مع باتو، إلا لأشعره بأهمية رأيه، وأحفظ له ماء وجهه».

أجابها غويوك: «إنه يعطي نفسه أهمية أكثر مما يستحق، ولكن ذلك لن ينفعه، عندما يجد أمام الشعب بأكمله أن رأيه لا يقدم ولا يؤخر».

عندها شعرت توروغين بالإحباط ورفعت رأسها، باحثة عن حل، فكيف يمكنها أن تجعل ابنها يكتسب دهاء سياسيا، وهو يوشك أن يصبح خانا؟ قالت له: «إياك أن تشعره بما تفوّهت به للتو، لأنك بذلك تحوّله من تابع إلى عدو». ومدت يدها وأمسكت به من كتفه، بالرغم من أنه حاول منعها من ذلك: «اسمع ما أقوله لك، وتأكد أنه الصواب، إلا إذا كنت تظن أن حكمي الناجح لكاراكورم كان ضربا من الحظ. عندما تصبح الخان، يجب أن تتملق أصحاب السلطة، وتشعرهم بأنهم مهمون، وأنك تقيم لهم وزنا، وإن كان ذلك مجافيا للحقيقة، لأنك عندما تحط من قدر أحدهم، وتبقيه على قيد الحياة، فإنك بذلك تكسب عدوا إلى أن تغادر روحه جسده، لأنه لن يفوت فرصة لينتقم منك ويرد لك الصاع صاعين».

أجاب غويوك: «لم يقم جنكيز خان وزنا لهذا النوع من التملق السياسي».

فردّتْ توروغين قائلة: «لكن والدك فعل، لقد كان أكثر دراية من جنكيز في حكم الشعب. لقد أسس جنكيز إمبراطورية، ولكنه لم يحظَ بذراع يمنى كالتي تحظى بها، فلا تبتعد عما أنصحك به، كي لا تقع في الهاوية».

بدا غويوك متفاجئا مما تقوله والدته، ناسيا ما عانته لتحكم الأمة طيلة سنوات خمس بعد موت والده، وكان بينها سنتان بمفردها تقريبا، عندما كان الجيش في الأراضي البعيدة.

قال غويوك: «كلي آذان صاغية يا أمي، ولكنني أذكرك أنك وعدته باحترام سيادته على الأراضي التي مُنحت له، وربما عرضت عليه أن يكون قائدا للجيش».

فأجابت «لقد عرضت عليه الأمرين، ولكنه رفضهما. وعلمت وقتها أنه لن يكون خانا، فهو يفتقر إلى الطموح يا ولدي، وبالتي لا يُشكّل خطرا عليك، وعندما يبايعك يمكنك أن تعطيه بعض الهدايا عند مغادرته، وبعدها لن نسمع عنه شيئا».

في لحظة من الصدق المطلق، خاطب غويوك نفسه قائلا: «إنني لا أخشى سواه». أعادت توروغين وضع يدها على كتف ابنها وقالت: إنه حفيد الابن البكر لجنكيز خان، أنت محق في خشيتك منه، ولكن ليس بعد الآن، فأنت ستدعو القادة والأمراء إلى خيمتك وسيكون باتو بينهم، وبعد أن يبايعوك، سنزور مخيم كل واحد منهم على حدة، ونطلب منه أن يركع أمامك، وسيرى نصف مليون شخص ذلك، وهذا جل ما أستطيع تقديمه لك، وأنت تستحقه لأنك صبرت».

تبسمت سورهاتانا وهي تترجل عن حصان ولدها مونغ الذي مدّ لها يده ليساعدها. لقد سعدت عندما رأت كاراكورم مجددا، سيما وأن جبال التاي حيث تقيم بعيدة جدا عن مركز السلطة، ولكن هذا البعد، لا ينفي متابعتها لكل التفاصيل التي رافقت مساومة غويوك وأمه على السلطة، وعندما نظرت إلى مونغ، تمنت لو أنه لم يسرع في مبايعته لغويوك، ولكن الأوان فات الآن على تغيير أي شيء.

لقد رأى ولدها أباه تولوي يحفظ كلمته، حتى عند موته. ولم يكن مونغ ليحنث بوعده بعد ذلك. راقبته يمشي بكرامته، شاهدة على رؤية محارب مغولي في كل تصرف يقدم عليه. نظر مونغ في الأنحاء بوجهه الكبير وكتفيه العريضتين. كان يرتدي درعا بسيطا، وكان معروفا بالرجل الذي لا يستطيع مع تشن صبرا. لم يكن يوجد طعام للأغنياء في الخيمة في تلك الليلة، وكانت سورهاتانا تفكر بأسف، أن ابنها اتخذ نمطا من البساطة، ورأت نبالة في ذلك لم تستطع فهمها. وكانت السخرية أنه كان يوجد العديد من الشعب الذي سيتبعون ابنا كهذا، خاصة القادة المتقدمين في السن، والذين قال بعضهم في السر أن غويوك لم يكن رجلا ينتمي إليهم، وأنه لعب دور المرأة في قصر أبيه. وأكمل بعضهم الحديث بكره عن الطريقة التي أكمل بها غويوك ممارسات أبيه في إحاطة نفسه بالباحثين من تشن بخربشتهم اللا منطقية. لو أن مونغ أشار بيده لكان نصف الشعب تحت رايته قبل أن يعرف غويوك حتى أنه في خطر. لكن كلمة ابنها كانت من حديد، وكان قد أعطى قسمه منذ سنين عديدة. ولم يكن أبدا ليناقش المسألة مع والدته.

صرخت سورهاتانا بفرح عندما استدارت ورأت ابنها الثاني يتقدم نحوها. ما إن وصل كوبلاي حتى ترجل عن حصانه، واحتضن أمه ورفعها عن الأرض. لقد بعثت رؤية سورهاتانا لأبنائها رجالا القوة في نفسها، بالرغم من أن هولاكو وآريك بوك ما زالا محاربين صغيرين.

اشتمت رائحة تفاح لطيفه من كوبلاي عندما وضعها على الأرض، واستدار ليحتضن شقيقه. وكان تصرفه هذا، إحدى الإشارات العديدة على تأثره بحضارة تشن، فقد كان شديد الاختلاف عن مونغ. كان أطول منه وأنحف، رغم أن كتفيه زادتا حجما في الأشهر الأخيرة، كما أنه سرّح شعره وفقا لطريقة تشن، حيث جمعه في ضفيرة تبلغ ظهره، أما الباقي من شعره فكان ينسدل على رقبته، وكان شعره يتحرك مع كل خطوة يخطوها، كما لو أنه ذيل قطة غاضبة، وكان يرتدي ثوبا واسعا. ما من أحد نظر إلى مونغ وكوبلاي وعرف أنهما شقيقان.

وقفت سورهاتانا، ونظرت بفخر إلى أبنائها الأربعة الذين أصبحوا رجالا، لقد أحبت كل واحد منهم بطريقة مختلفة، رأت كيف أومأ كوبلاي إلى مونغ، الذي لم تعجبه هذه الإيماءة، بالرغم من أنها كانت أمرا عاديا بين الأشقاء المتقاربين في العمر. بالمقابل، استاء كوبلاي لاعتقاده أن مونغ يمتلك سلطة على أشقائه، لا لشيء إلا لأنه أكبرهم سنا، في النهاية، تنهدت، وشعرت بالراحة بسبب أشعة الشمس الدافئة.

قال مونغ مخاطبا والدته، وقد أشار إلى خيمة: «إنها لك يا أمي».

ابتسمت سورهاتانا له وقالت: «لاحقا يا مونغ، لقد سرت طويلا لأرى هذا التجمع، ولكنني لست متعبة. أخبرني عن الوضع في المخيم».

توقف مونغ قليلا، مفكرا بما سيقوله. في أثناء ذلك قال كوبلاي: «لقد وصل بيدور، وهو متصلب وجاد، ويقال إنه سيبايع غويوك، لكن معظم الأمراء لم يفصحوا عن نواياهم. عندما يصل باتو والآخرون أعتقد أنه سيصبح للأمة خان جديد».

نظر مونغ إلى شقيقه ساخطا لأنه تحدث، لكن كوبلاي بدا أنه لم ينتبه.

سألت سورهاتانا: «وأنت يا كوبلاي، هل ستبايعه؟».

زمّ كوبلاي شفتيه بكره وقال: «كما تريدين يا أمي، ليس لأنني أرى أن ذلك صائب، فلا أريد أن أقف وحدي ضده، سأنفذ ما تريدينه يا أمي».

قالت سورهاتانا باختصار: «هذا ما يجدر بك القيام به». واختفت كل الرقة في نبرتها، ثم أضافت: «لن ينسى الخان يوما من وقف إلى جانبه، ومن اختار الجانب الآخر، وهو يمتلك بيعة شقيقك، وإن ركع له باتو، وبيدور، سأبايعه بدوري نيابة عن أراضي والدك، لا يجدر بك أن تكون المعترض الوحيد، حتى لا تعرض نفسك للخطر، وإن كانت أخبارك صحيحة، فلن يكون له منافس على لقب الخان، وستجمع الأمة على اختياره».

قال كوبلاي وهو ينظر إلى شقيقه: «من العار أن مونغ أقسم على المبايعة خلال الرحلة العظيمة، لقد كان ذلك القسم العثرة الأولى في درب سيزدحم بالعثرات». رأى شقيقه ينظر إليه فأردف قائلا: «من المخجل يا أخي أن تكون راضيا عنه، لقد تسرّعت في مبايعته، بمجرد أن وصلك خبر موت الخان، كلنا نتفهم الوضع الذي كنت فيه، ولكن قل بصراحة، هل كنت لتبايعه لو كنت حرّا؟».

قال مونغ: «إنه ابن الخان». ثم نظر بعيدا، كما أن الأمر قد انتهى.

أجاب كوبلاي بسرعة: «الخان الذي لم يذكر ابنه في وصيته، ألا يعني ذلك شيئا؟ لقد تسرعت بمبايعتك، وجعلت غويوك يبدأ السباق متقدما بخطوة. أتمنى أن تكون راضيا عن قرارك. إذا أصبح غويوك خانا، فهو يدين لك بذلك».

بذل مونغ قصارى جهده كي لا ينجر إلى جدال، ولكن كالعادة استفزه كوبلاي.

فأجاب: «لو كنت يوما قائدا في إحدى المعارك، ربما كنت لتعي أهمية السلطة والتراتبية، فغويوك هو الابن البكر لعمي أوجيدي. إنه ولي عهد الخان، ولا أريد أن أطلع على إحدى وثائق تشن لأعلم ذلك».

لقد كان شيئا مؤلما بينهما ولم يستطع مونغ مقاومة الاستفزاز؛ فهو قاتل إلى جانب تسوبوداي، وباتو، وغويوك بالإضافة للبقية، في الوقت الذي كان فيه كوبلاي يتعلم الدبلوماسية في المدينة. لقد كانا شقيقين مختلفين كل الاختلاف، كما أن مونغ كان يحتقر المهارات التي يتمتع بها شقيقه.

أجابه كوبلاي: «وهل كان أبوه الابن البكر للخان، حتى يتبوأ الخانية، لا، فقد كان الابن الثالث. ستبايع غويوك، بالاستناد إلى أمر لا نعترف به، ولماذا؟ لأنك بكر أبينا، أتظن أن ذلك يجعلك الوصي علينا؟».

رد مونغ بسرعة: «لقد فُرض عليّ هذا الأمر، فأنت لم تكن موجودا عندما توفي والدك».

كانا يتجادلان، وكلاهما يستشيط غضبا.

فسأله كوبلاي: «وهل طلب منك والدنا أن تتولى زمام العائلة يا مونغ؟ هل قال لك: خذ بيد إخوتك يا مونغ؟ لم يسبق لك أن أخبرتنا بذلك».

أجابه مونغ: «لقد منحني زوجاته الأخريات، أظن أن ذلك يوضح ببساطة...».

فقاطعه كوبلاي: «أيها الغبي، إنه لا يوضح شيئا، ما من شيء بسيط في الأمر، سواك».

مست يدّ مونغ سيفه الموجود عند خصره، وفي ذلك تهديد لكوبلاي الذي توتر، وشعّت عيناه تحديا. لقد تقاتلا ألف مرة كصببين، ولكن السنين غيرتهما وإن تقاتلا هذه المرة، فلن ينتهي الأمر بالكدمات.

قالت سورهاتانا: «توقفا حالا، هل ستتعاركان أمام الشعب؟ هل ستجلبان العار لوالدكما ولاسمكما؟ تراجعا فورا».

كان هناك لحظة جمود، قبل أن يقفز مونغ رافعا يده اليمنى ليضرب كوبلاي، ويلقيه أرضا. حسب كوبلاي المسافة وركل شقيقه على فخذه بكل ما أوتي من قوة. لم يكن هنالك درع في تلك المنطقة، فانهار مونغ على الأرض من دون أن تصدر منه صرخة ألم. كانت ضربة عنيفة وسقوطا صامتا. عندما نظرت إليه سورهاتانا بغضب، جحظت عيناه، وتمتم، وهو ينهض، لا بد أن الألم كان رهيبا، ولكن غضب أخيه كان يهدر عبر جسمه. آلمته ساقه، وترنح من شدة الألم. ازدرد كوبلاي لعابه بتوتر، في الوقت الذي خطا فيه مونغ خطوة نحوه، وأمسك بمقبض سيفه.

تدخلت سورهاتانا بينهما، ووضعت راحة يدها على صدر مونغ. وللحظة كاد أن يبعدها جانبا. فقد رفع يده الضخمة ووضعها على ياقتها، ولكنه لم يقدر أن يدفعها عنه بسبب ألمه. وأخذ يلهث وهو ينظر إلى كوبلاي، وقد احتقنت عيناه بالدمع.

عندها قالت سورهاتانا برقة: «لقد قلت لك توقف، هل ستضربني لتصل إلى شقيقك؟ ألم تعد تستمع إليّ؟».

بدأت عينا مونغ تصفوان، فنظر إليها ثم إلى كوبلاي الذي كان مستعدا للهجوم. امتلأ فم مونغ بالازدراء عندما أدرك أسلوب قتال التشن الذي علمه مستشار الخان لشقيقه، وبعد أن أنزل يده

عن ياقتها، وضعت يدها على وجنته طالبة منه أن يصغي إليها. وقالت: «لن تتقاتلا يا مونغ، فأنتما ولداي، ما نوع القدوة التي تريدان أن تكوناها لهولاكو وآريك بوك؟ شاهدا كيف ينظران إليكما؟».

التفت مونغ إلى شقيقيه، فرآهما فاغرين فاهيهما. ثم همهم واستوى في وقفته مستعيدا هيبته.

قال بصوت أجش: «سيصبح غويوك الخان، حُكم والده ووالدته أبقى على وحدة الأمة، لا يستطيع أحد إنكار هذا. أنت الأحمق يا كوبلاي، على الأقل إن ظننت أن أحدا آخر يستحق أن يتولى مقاليد الحكم».

اختار كوبلاي أن يتحفّظ على الإجابة، عندما رأى أن شقيقه أصبح هائجا مثل الثور. ولم يرد أن يستفزه مجددا، فتجاهله، وابتعد. عندها انهار مونغ وكاد أن يقع.

لقد حاول أن يقف مستقيما، ولكن الألم كان ينتشر في جسمه على شكل موجات من فخذه إلى معدته، وشعر برغبة في التقيؤ. ما من شيء حال دون تصرفه كطفل إلا تواجد أمه أمامه.

قالت سورهاتانا بأسف: «أحيانا أشعر باليأس، هل تعتقد أني سأعيش إلى الأبد؟ سيأتي الوقت الذي يكون أشقاؤك هم كل من بقي لك، يا مونغ. وسيكونون الرجال الوحيدين الذين يمكن أن تثق بهم دون أن يضمروا لك شيئا».

قال مونغ: «إنه يبدو بملابسه وتصرفاته كإحدى عاهرات تشن». ثم بصق وأضاف: «كيف أثق برجل كهذا؟».

أجابته سورهاتانا: «إن كوبلاي شقيقك، إن دم والدك يجري في شرايينكما».

«لكنه، لا يفوّت فرصة دون أن يستفزني بها. أنا لست أحمق كما يدعي، لأنني لا أعرف الحركات السبع والعشرين الغبية الخاصة بتقاليد تشن».

«بالطبع أنت لست أحمق! أنتما تعرفان بعضكما جيدا، وهذا ما يجعلكما تعرفان كيف تؤذيان بعضكما عندما تكونان غاضبين. سأعتقد أنني فشلت كأم، إذا لم تصالحه يا مونغ، هذا إن كنت أعني لك شيئا».

أجاب مونغ: «ما من شك أنك تعنين لي» وكان على علم بأنها تتلاعب به، لكنه لم يكن يملك أي طريقة أخرى. «حسنا، ولكن يجب أن تخبريه...».

أجابت: «لكن بلا تهديد أو تبجّح يا مونغ. إن كنت تحبني يجب أن يسود السلام والوئام بينكما، وبعد عدة أيام أو أسابيع سوف تمتلك الخان الذي تريد، ولن يكون بوسع كوبلاي إلا أن يركع له عند الضرورة. كن محترما عندما تنتصر».

فقال لها: «إنه يلومني على ارتفاع مكانة غويوك».

أجابته: «هو يلومك، وسيكرمك آخرون، عندما يصبح غويوك خانا. ولا عجب إنه سيكافئك لأنك كنت أول شخص تحت رايته. فكر بهذا عندما تتشاجر وكوبلاي مثل الأولاد».

«حسنا يا أمي، أنت تمتلكين طريقتك بالإقناع كالعادة».

«جيد، ربما يجب أن تريني أين تقع خيمتي. فقد أتعبتماني».

بدت الوعثاء، على فارس يام، عندما كان يسرع الخطى ليلحق بالخادم في الرواق، كان يشعر بثقله في كل شرخ ودرزة من ثيابه، وحتى على جلده. وتعثر قليلا عندما التف عند الزاوية، اضمحلت قوته وشعر بإرهاق شديد. لقد كان على صهوة الحصان طوال اليوم، وهذا ما أشعره بالألم أسفل ظهره، وتساءل إن كان بإمكانه الاغتسال في أحد حمامات القصر. بينما كان يخطو، ذهب تفكيره إلى المياه الساخنة وخادمات يدلكن جسده، ولكن كل ذلك بقي خيالا. كان مسموحا لفرسان يام الدخول إلى حيث أرادوا، وإذا قالوا إن لديهم رسالة شخصية للخان، كان يُسمح لهم بالعبور حتى في وسط المعركة. وبالرغم من هذا كان الفارس متأكدا من أنه سيغتسل في النهر في ذلك المساء، قبل أن يبني خيمته ويشعل بنفسه نارا بالقرب منها. لم يحمل فرسان يام خياما، أو أي نوع من الأثقال التي قد تبطئ من سرعتهم. كان الفارس يستلقي على الأرض تحت النجوم ويضع يديه داخل أكمام ثوبه الواسع. قال له الفرسان الكبار منذ عشرين سنة تقريبا أن مفاصله سوف تؤلمه في الأيام الرطبة، ولكنه شك أن يحصل له مثل هذا الأمر.

لقد كان شابا ورشيقا، وكانت الحياة أمامه. وخلال سفره كان قد رأى العديد من أنواع التجارة بين الناس ليعلم ما هي الأشياء التي يرغبون بها، واعتقد أنه بعد سنوات سيكون قد ادّخر مالا كافيا لشراء عربة يتاجر فيها إلى بخارى. لن يكون هناك ألم مفاصل بعد ذلك، وسيجني ثروته الخاصة. بينما كان يمشي شعر بالقشعريرة، ناظرا إلى السقف فوق رأسه. لم يحلم أبدا بأن يمتلك

قصرا. لربما يمتلك في المدينة منزلا مناسبا لذوقه، مع زوجة تطبخ له، وبعض الأطفال، بالإضافة إلى إسطبل لأحصنة جيدة ليدرب أبناءه ليصبحوا فرسان يام. لم تكن تلك حياة سيئة.

أخذ الخادم استراحة عندما وصل إلى أمام باب نحاسي مشع، يقف أمامه حارسان تابعان لنظام الخان القديم بلا حراك، وهما يرتديان درعيهما الأحمر والأسود، كألوان الحشرات.

أعلن الخادم: «رسالة من يام إلى الوصي».

كسر أحد الحراس الصمت التام، وحرّك رأسه لينظر إلى الفارس الذي يعاني من الوعثاء، والذي تفوح منه رائحة العرق، فُتش وأُخذت منه سكينه الصغيرة، وعندما حاولوا أخذ الأوراق، شتمهم وهزّ الرسالة قائلا إنها ليست لهم كي يطلعوا عليها. ثم أكمل «أريد أشيائي عندما أغادر».

في الداخل، كانت كل قاعة تؤدي إلى أخرى، لقد سبق لفارس يام أن زار القصر، ولكن لم يسبق له أن توغل فيه إلى هذا الحدّ، ولاحظ أن لكل قاعة نمطها الخاص المختلف عن سائر القاعات، وكان هناك شخص يرافقه كلما دخل قاعة. لم يمر وقت طويل، قبل أن يرى في إحدى القاعات امرأة بدينة بعض الشيء، محاطة بمستشاريها، وكتبتها، الذين يدوّنون ما تقوله، وعندما دخل مجلسها نظرت إليه، عندها بادر بالركوع، بينما تقدم مرافقه، ولكنه دُهش عندما رأى رجلين يعرفهما من بين الرجال الذين يحيطون بالمرأة، لقد كانا فارسين من يام، وعندما تلاقت نظراتهم أومأا إليه.

حاول المرافق أخذ الرسالة من يده.

عندها أعاد الفارس: «لا تسلم هذه الرسالة إلا للوصي حصرا».

تغضّنت شفتا المرافق كما لو أنه تذوق شيئا مرّا، وتراجع إلى الخلف، مفسحا الطريق للفارس.

كانت توروغين مسترسلة في حديثها، ولكنها توقفت عندما سمعت ما قاله الفارس، لقد كان يحمل حزمة رفيعة من الجلد. ما إن سلمها إياها، حتى فكّت عقدتها، وسحبت الورقة المطوية، وشاهد الفارس تحرك عينيها إلى اليمين واليسار أثناء قراءتها، كان يفترض به أن يغادر ما إن يسلمها الرسالة، ولكن فضوله دفعه للبقاء، لقد كان أسوأ ما في عمله، أنه ينقل أخبارا مهمة، إلا أنه لا يعرف ما هي.

ولكن من سوء حظه، أنه بقي هناك وشاهد وجهها يصفر، وقد أزعجها أنه لم يغادر، وكأنها ستشاركه فحوى الرسالة التي جلبها.

قالت لمجموعة الرجال الذين كانوا يحيطون بها: «هذا يكفي اليوم، اتركوني جميعا، وأرسلوا ابني إليّ، وإن كان نائما فأيقظوه». وجعّدت الرسالة بين أصابعها.

4

كانت السماء صافية، والقمر يتوسطها، وينشر سناءه على كاراكورم.

لقد انتشرت الشائعات، وانتشر الهمس في الأرجاء كأنه النسيم. تحت جنح الظلام فتحت بوابة المدينة، وخرجت مجموعة فرسان إلى الطريق الغربية وهم يحملون المشاعل، ولمحوا وجوها تحدق إليهم من آلاف الخيم الرثة التي يمرون بالقرب منها. لقد توسط غويوك المجموعة، وقد وضع درعه المزخرف اللامع، تدلى إلى جانبه، سيفه الذي يزين مقبضه رأس ذئب. ولكن أكثر ما أثار دهشة الناظرين أن توروغين كانت تسير إلى جانبه وقد امتطت صهوة حصان، كانت تمتطي الحصان كما يمتطيه الفرسان، وكان ظهرها مستقيما، وربطت شعرها على شكل ذيل سميك. عندما أشارت إلى الحراس، التفوا، واندفعوا عبر السهل بين الخيم.

كان التحرك ليلا خطيرا، حتى أن الحيوانات، كانت تفر من أمام الموكب، كي لا تُسحق تحت سنابك الخيل. تعالت صرخات التحذير، وشيئا فشيئا ظهرت المشاعل على الهضاب المحيطة بهم، بينما كان الجميع ينهضون من فرشهم، ويلتقطون أسلحتهم.

صفّر غويوك بحدة، مشيرا إلى مقاطعة يغطيها الظل محاطة برايات سورهاتانا وأولادها. فغير ثلاثة من الحراس طريقهم، بينما تابع البقية تقدمهم عبر الخيم. وأخذوا اتجاها جديدا. أما البقية فقد أكملوا طريقهم عبر خيم الناس.

لم يكن هناك طرق مستقيمة في سهل الخيم، فحاول غويوك تحديد الرايات التي يريدها، وهو الذي يعلم المخطط الذي توزع فيه الشعب، ولكن كان من الصعب إيجاد طريقه في الظلام.

عندما وصل الفرسان أقسموا أنهم لا يعرفون المنطقة، ولكن في تلك اللحظة، صرخ أحد الحراس وأشار بسيفه، فتقدم الفرسان حتى وصلوا إلى الاستراحة في مخيم بيدور، وكانت الرايات تصفق فوق رؤوسهم بفعل الرياح. في الوقت الذي ساعد فيه غويوك والدته على الترجل عن صهوة

حصانها، رأى تجمع عدد من الرجال ينظرون إلى ما يحدث، وكانوا بكامل أسلحتهم. لقد استعاد غويوك، محاولة انقلاب تشاغاتي والد بيدور منذ سنوات، في ليلة ليلاء كهذه. ومن بين كل الرجال حامت شبهات الخيانة حول بيدور.

رأى غويوك الرجل الذي دعاه من قبل صديقا، يقف وكأنه يتوقع أن يُهاجم، فسحب سيفه ورفعه إلى كتفه. كانت عيناه الصفراوان باردتين تحت ضوء الشعلة، فأظهر غويوك يديه الفارغتين، وبالرغم من أنه يحمل إلى خصره السيف ذي رأس الذئب، فهو لن يستله في وجه أي من الرجال.

لقد كان بيدور خانا لمناطق واسعة في الغرب، فازدرد غويوك لعابه بمرارة، عندما أدرك أن عليه المبادرة في التكلم كالمتسول. لم يكن من المهم تعيينه خانا أمام الخانات الأصغر، ففي المساء كان مجرد ولي للعرش.

قال غويوك: «إنني أعزل يا بيدور. وما زلت أذكر صداقتنا، عندما كنا طفلين غير قادرين على حمل السلاح».

أجاب بيدور بجلافة: «أظن أننا اتفقنا، فلماذا أتيت تزعج منامي، وتثير الفوضى بين صفوف شعبي؟».

تراجع غويوك مستذكرا رأيه في الشخص الذي أمامه، وكاد أن يلتفت طلبا مشورة أمه، ولكنه أدرك أن تصرفا كهذا سيجعله يبدو بمظهر الضعيف، وتذكر المرة الأخيرة التي رأى فيها بيدور يمتطي حصانه، شاعرا بالخدر، لأنه يعلم أنه ينظر إلى والده على أنه خائن.

في وقت من الأوقات، كان لبيدور أن يكون خان كاراكورم، لو أن أب السماء غيّر حظ عائلته، ولكن انتهى به المطاف أن يعيش بهدوء في الخانية الغربية، ونادرا ما نظر غويوك إلى بيدور على أنه مصدر خطر، ولكن السلطة غيّرته.

لقد تحدث كشخص معتاد على رؤية الرجال يقفزون ليراهنوا عليه وكأنه لا يوجد بديل له. تساءل غويوك حينها إن كان هو أيضا يمتلك العادة نفسها، تشوشت أفكاره وضربته موجة شك.

قال غويوك: «لقد طلبت من مونغ الانضمام إلينا... أيها القائد». وعّض شفته. رأى أن بيدور قد لاحظ تردده، ولكنهم وقفوا أمام كاراكورم! وكان من المؤلم لغويوك أن يعطي الرجل لقبه وهو لا

يمتلك لقبه الخاص. ثم شعر بوالدته تلقي بعضا من وزنها على جانبه وتذكّر كلماتها. لم يكن خانا بعد، وحتى ذلك الوقت يجب أن يكون متواضعا.

وبدل الإجابة استجاب بيدور مباشرة للحركة وانحنى لتوروغين وقال: «اعتذر منك سيدتي. لم أكن أتوقع أن تكوني جزءا من مجموعة الفرسان في الظلام. أهلا بك في مخيمي. ربما كان الشاي باردا، ولكني سأطلب غلي أوراق جديدة».

فكّر غويوك، إن الترحيب بوالدته، لا يعني أن الجميع يقللون من تقديرهم له، وتساءل إن كان بيدور قد تعمد تجاهله، أم أنه كان يظهر الاحترام الذي تستحقه زوجة عمه الأكبر سنا من والدته. بعدها لحق بوالدته إلى خيمة بيدور، وقد بدا نافد الصبر وهو يشاهد جنود بيدور يحدقون إليها. ولكنه لم يكن أحمق إلى الحد الذي يدفعه إلى إشهار سيفه بوجود والدته.

لكنه فوجئ عندما رأى أحد جنود بيدور يتقدم نحوه وينحني، فما كان من مرافقي غويوك إلا أن طوّقوه. فسأل بشيء من التوتر: «ما الأمر؟». بدا هذا السؤال، وكأنه بمثابة طلب لم يتلفظ به ألا يحولوا بينه وبين سيدهم وخاطبه قائلا: «سيدي، أتساءل إن كنت تسمح لي بلمس سيفك، وعندها سيكون لديّ أخبار مشرفة أقولها على مسامع أولادي يوما ما».

فجأة فهم غويوك نظرات جنود بيدور إليه وابتسم بتعالٍ. فهو يحمل السيف الذي حُفر على مقبضه رأس ذئب، وهو السيف الذي سبق لوالده أوجيدي وجده جنكيز خان أن حملاه، ورأى رجالا آخرين يحدقون إليه برهبة. بالرغم من هذا، لم يرد أن يهدر وقته مع جنود عاديين، وقد اقشعر بدنه لمجرد أن فكّر في الأمر. فقال: «لديّ الكثير لأناقشه مع سيدك...»

من غضبه تقدم الجندي، محدقا إلى القبضة كأنها أحد آثار المسيحيين. تراجع غويوك خطوة، وفكر أن يبتر يد الجندي بالسيف ليريهم كم هو سيف بتّار، ولكنه حسب حساب الرجال الذين يحدقون إليه وجلّهم ممن يدينون بالولاء لبيدور.

فصرخ: «في مناسبة أخرى». ودخل خيمة بيدور قبل أن يُغضبه الجندي أكثر.

كان بيدور وتوروغين يجلسان بالقرب من بعضهما. لقد مرّ وقت طويل على المرة الأخيرة التي رأى فيها مثل هذه الخيم، وهذا ما أشعره بالضيق عندما رأى كم هي ضيقة، وتفوح منها رائحة الصوف ولحم الضأن، ورأى في وسط الخيمة قدرا تصفر، حيث تشرف إحدى الخادمات باهتمام على الأكواب، ولكن من فرط توترها ضربتها بعضها ببعض، وكانت الخيمة ضيقة إلى حدّ لا يتيح

لبيدور أن يظهر مقدار ثرائه، وكان من الأفضل العيش ببساطة بدل التعثر بإحدى قدور تشن التي تغلي، شعر غويوك للحظة بصراع داخلي، فالجلوس إلى جانب بيدور سيبدو تطفلا، وجلوسه إلى جانب والدته سيدعمه عندما يتحدث، ولكن بالرغم من ذلك وجد نفسه يجلس إلى جانبها.

قالت توروغين بصوت منخفض: «هذا لا يغير شيئا، لقد أتى كل الشعب إلى كاراكورم -كل رجل وامرأة من ذوي السلطة، باستثناء شخص واحد- وهذا يتيح لنا البدء بمراسم البيعة وأداء القسم».

أجاب بيدور: «هناك مخاطرة في ما تنوين الإقدام عليه، فأنا أعرف باتو جيدا يا توروغين. لا تقدمي على نبذه خارج الأمة».

باضطراب وتمعّن أخذ غويوك يراقب بيدور، ولكنه لم يرَ أي أثر للخيانة أو البهجة في ملامحه. سمع الجميع صوت حوافر تقترب، فوقف بيدور ونظر إلى القدر التي بدأت تغلي وقال: «ابقيا هنا. إيردين قدمي لهما الشاي المرّ».

خرج بيدور وتركهما، وبالرغم من هذا لم يكن غويوك ساذجا ليظن أنه لا يمكن سماعهما. فظل صامتا، وتناول كوب شاي من الفتاة. لقد قدمته وكأنها عبدة، فقد كان رأسها للأسفل بين ذراعيها الممتدين، مدّ غويوك ذراعه ليأخذه قبل أن يلاحظ أنها تقدمه لوالدته، فعضّ على فكه، وانتظر الشاي، ثم قال في نفسه: «المكانة مرة أخرى». حسنا، سيتغير كل شيء عما قريب، لن يتيح المجال لباتو ليدمّر فرصته في أن يصبح خانا.

دخل بيدور مع مونغ، فوقف غويوك على قدميه ليحييه، وبقيت توروغين جالسة في مكانها، تحتسي الشاي. لقد كانت الخيمة مزدحمة، وجعلها حضور مونغ تبدو خانقة. إنه يمتلك كتفان عريضتان وبطريقة ما وجد الوقت ليرتدي درعه. وتساءل غويوك إن كان مونغ ينام وهو يرتدي درعه، فلم يعد هناك شيء يحمله على الدهشة هذه الليلة.

ألقى مونغ التحية على توروغين، ثم على غويوك من خلال الانحناء له كما يجدر أن يفعل رجل بايع سيده، وهذا ما رفع من معنويات سيده. وعندما همّ بالتحدث، كانت والدته قد سبقته، وقالت: «لقد أبلغني باتو أنه لن يحضر التجمع».

بدا مونغ متفاجئا، إلا أن بيدور سألها: «وبماذا برر عدم حضوره؟».

فأجابت: «وهل يهم؟ يقول إنه أصيب خلال الصيد، ولا يستطيع تحّمل عناء السفر، وهذا لا يغير في الأمر شيئا».

فقال مونغ ببطء وحدّة، ما جعل غويوك ينحني ليسمع كل كلمه: «بل إنه يغير كل شيء، ويعني أنه لم يعد هناك من داعٍ لهذا الاجتماع، فلم يعد باستطاعتنا القيام بأي شيء، فباتو عضو ذو مكانة في العائلة، وصوته مسموع، ولرأيه تأثير كبير، بالرغم من أنه لا يستخدم هذا التأثير، إن أُعلن غويوك خانا من دون موافقة باتو، ربما يؤدي ذلك إلى اندلاع حرب في المستقبل، وهذا ما لا يريده أي منا، سأعود إلى شعبي وعائلتي، وأبلغهم أن تسمية خان جديد لن يحصل هذه السنة». ثم التفت إلى غويوك وقال: «لقد بايعتك ولن أنسى ذلك يا سيدي، ولكنك لن تُعلن خانا قبل أن تُدخل باتو في جلبابك».

أجاب غويوك: «لن أنتظر، فجميعكم وعدتم بمبايعتي، ولهذا أطلب منكم الآن أن تؤكدوا على ذلك، وسأتعامل مع باتو لاحقا. لا يمكن السماح لرجل واحد أن يسبب الفوضى للأمة، بغض النظر عن سلالته واسمه».

عندما رأت توروغين ولدها على وشك أن يأمرهما بإطاعته، تدخلت قبل أن يهين الرجلين.

«لقد عملنا جميعا بجد حتى لا يتم تحدي القسم، ولإعلان الخان بالإجماع، وهذا لم يعد متاحا الآن، ولكنني أوافق غويوك الرأي بأن الأمة أصبحت بحاجة ماسة إلى خان جديد، لقد مرت سنوات خمس على وفاة زوجي، ولم نكتسب أي أراضٍ جديدة. في الوقت الراهن، نحن أمة تنتظر بينما الأمم الأخرى تتحرك وتستعيد قوتها. في الفترة الماضية خسرنا كثيرا من قوتنا وسلطتنا، دعونا نستكمل البيعة، بغياب شخص واحد، وعندما نعلن غويوك خانا، سيستدعي باتو ويأخذ مبايعته على حدة، وعندها يكون غويوك بموقع يتيح له أمره بالمبايعة، بالاستناد إلى الشرعية التي منحته إياها مبايعتكم له».

أومأ مونغ ببطء، ولكن بيدور نظر بعيدا، وهو يحك منطقة داكنة أسفل إبطه. لم يكن أحد من الموجودين في الخيمة يعلم بأمر الرسالة التي تلقاها من يام، لو أفصح عن أن باتو يدعمه ليصبح خانا، كان شبه متأكد أنه سيتسبب بقتل صديقه، إلا إذا تدخل مونغ في الصراع. ففي تلك الليلة كان هو وغويوك وتوروغين تحت رحمته، فقد كان بين جنوده الذين يحيطون الخيمة بمن فيها. لقد كان باستطاعته القضاء على الجميع، وهذا ما تمناه باتو.

شدّ بيدور قبضته قليلا قبل أن يرخيها، وفكّر في أن والده ما كان ليتردد للحظة. كان دم جنكيز يجري في عروقهم جميعا، ولكن سبق لبيدور أن رأى كثيرا من الألم والدم الناتج عن الطموح العديم الرحمة، فحرّك رأسه متخذا قراره.

قال: «حسنا، لتكن مراسم البيعة، مع ولادة القمر الجديد بعد أربعة أيام، فالأمة يجب أن يكون لها خان».

كان التوتر في الخيمة المزدحمة قد بلغ أوجه، وعندما استدار غويوك إلى مونغ، أومأ الرجل محنيا رأسه إلى الأسفل.

لم يستطع غويوك إخفاء الابتسامة التي تعبّر عن ارتياحه؛ فلم يكن هناك أحد يمكنه أن يتحداه سوى من هم في الخيمة إضافة إلى باتو. وبعد أن انتظر لسنوات، أوشك أخيرا أن يحصل على لقب والده التليد، وتساءل إن كانوا يصدقون حقا أنه سيرحب بعد كل هذا بباتو كصديق، ربما كانت والدته تعتقد أنه سيتصرف كسيد نبيل عظيم ويظهر الرحمة تجاه أولئك الذين سعوا لإلحاق الأذى به.

بعد كل هذا التوتر، جلب بيدور الشراب، وجهّز الفناجين فعمت الضحكات الخيمة. ربّت مونغ على ظهر غويوك مهنئا إياه، فضحك غويوك مختالا بما أوشك أن يحدث. كاد باتو أن يدمر كل ما سعى إليه لسنوات، ولكن مخططاته باءت بالفشل. لقد قطع غويوك عهدا على نفسه أن يريه الموت الزؤام.

مع بزوغ الفجر، كانت الأمة جاهزة. فقد مرت أسابيع من التحضير لمراسم البيعة، من تجميع كميات كبيرة من الطعام والشراب، إلى إصلاح وتلميع كل قطعة ثياب ودرع، واصطف الجنود بصمت على شكل مربعات، بينما كانت بوابات كاراكورم تُفتح. ولم يكن هناك أثر للذعر في الأيام الأربعة السابقة، جلس غويوك بمهابة على صهوة حصانه في المقدمة، مرتديا ثوبا فضفاضا رماديا مائلا إلى الزرقة، وقد تعمد اختيار البساطة في الزي على البهرجة.

لم تُعقد اجتماعات كثيرة، منذ الاجتماع الذي دعا إليه جنكيز، وبالتالي لم يكن هناك من تقاليد يجب اتباعها في المراسم. لقد نصب سرادق أمام المدينة، وكانت أشعة الشمس تصلي بأشعتها الهضاب الشرقية.

ترجّل غويوك عن حصانه هناك، وأعطى اللجام لأحد الخدم. ثم سار إلى المكان المخصص له، ووقف أمام الخيمة التي يظللها الحرير، في الوقت الذي اقتربت منه المجموعة الأولى. ولو أنه لم

يشعر برغبة ملحة في التبول ما كان ليجلس يومها أو يدخل السرادق، ومهما اشتدت الحرارة، فعلى الشعب أجمع أن يراه خانا.

كان مونغ وبيدور في عداد المجموعة الأولى، بالإضافة إلى سورهاتانا، وكوبلاي وأخويه. لقد ضمت المجموعة الأولى أربعمئة شخص من العائلات المهمة، ومعظمهم كانوا يرتدون ملابس حريرية ملونة، ودروعا عادية، وفقا لما تقتضيه ظروف المناسبة، وقد أُخذت منهم الرموز التي تشير إلى مراكزهم، فقد كان عليهم المثول أمام غويوك في غاية التواضع، وأن ينحنوا ويبايعوه مقسمين بالولاء.

حتى في تلك المجموعة كان هناك هرمية، فقد تقدمت توروغين على سورهاتانا. لقد حكمت المرأتان الأمة وحدهما، وبقيتا سليمتين بعد وفاة أوجيدي خان. رأى غويوك الرضى في عينيّ والدته عندما ركعت له، لكنه لم يدعها تلمس الأرض وقام برفعها ومعانقتها.

لم يكن سريعا مع سورهاتانا، بالرغم من أن قسمها عنى إخلاصها، لم يكن مرتاحا مع المرأة التي حكمت أرضه. ومع الوقت فكّر في أن يعطي لقبها لمونغ، كما كان على والده أن يفعل، لقد استطاعت النجاة، لأنها كانت تمتلك الحظ، ولكن النساء كنّ متقلبات، ومن المحتمل جدا أن يرتكبن أخطاء خطيرة، لم يكن مونغ ليتخذ قرارات بلا تفكير، وكان غويوك متأكدا من هذا، وشاهد بسرور كيف تقدم مونغ، وأدلى بقسمه مرة ثانية بعد أن قدمه له في الأراضي البعيدة. لقد شكّل قسمه السريع في المرة الأولى المدماك الذي جعل الأمور تؤول إلى صالحه.

بعد مونغ أتى دور كوبلاي، وذُهل غويوك من مقدار الذكاء الذي كانت تشي به عينا الشاب الراكع أمامه وهو يقول كلمات عن الخيم، والأحصنة، والدم. وقال في نفسه يجب أن يكون له موقع مهم في السلطة الجديدة.

بعد سنوات من الانتظار حلم فيها غويوك أن يصبح الخان، ها هو يحقق حلمه، لقد رأى غويوك اليوم، كثيرا من الوجوه إلى حد لم يستطع التمييز بينها.

أتى الآلاف منهم إلى السرادق: من رؤوس العائلات، وحكام الأراضي التي تبعد آلاف الأميال. بعضهم طرح فكرة التزاوج، حيث يصبح لأبناء تشولجيتي ملامح كوريو. فغويوك أمرهم بالتناسل بشكل صحيح، ليحافظا على نقاوة العرق المغولي، قبل أن يشتت اختلاف الأعراق هذا النقاء. بعد هذا اليوم سوف تكون كلمته بمثابة القانون لملايين الناس الذين يخضعون لسلطته، وها هي الأمة تصبح كبيرة، حتى أكبر مما تخيل جنكيز خان.

عندما حل المساء، جال غويوك في المخيم الكبير. بعد أن أصبح خانا. لم يعد لديه وقت ليمضيه في احتفال كبير، لذا تنقل من خيمة إلى أخرى، متيحا لآلاف الناس أن يركعوا له ويقسموا بالولاء. كان برفقة جنوده المستعدين لقتل أي شخص لا يوافق على ذلك، ولكن لم يحدث شيء يحمل جنوده على تحريك ساكن، وعندما حل الظلام تناول الطعام، وعاد إلى القصر ليبدّل ملابسه، ويفرغ مثانته وأمعاءه، وقبيل الضحى خرج مجددا ليرى أفراد العائلات ذوي البشرة السمراء من الفلاحين والعمال الذين ينحدرون من شعوب مختلفة، وكانوا يشعرون برهبة اللحظة، فربما لن تتاح لهم فرصة أخرى لرؤية الخان، فوقفوا بصبر وشوق تحت الشمس ليلمحوه، وبذلك تصبح لديهم ذكرى عنه لا تُنسى.

عندما أشرقت الشمس تماما، شعر غويوك بالنشوة. لقد أصبح الخان، والشعب ينتظر أيام الاحتفال، حتى أنه لم يزعج نفسه بالتفكير بباتو القابع في خانيته الروسية. كان اليوم يوم غويوك، وها هو يصبح أخيرا خان الأمة. لقد أخذ يفكر بالاحتفال الذي سيأتي بحماس متزايد. وكان القصر مركز ذلك الاحتفال حيث كان يعبر عن جيل جديد من الشباب، جيل طويل وجميل يمسح رماد الماضي.

5

جلست توروغين على أحد مقاعد الحديقة، مستشعرة وجود روح زوجها بجانبها. كان الصيف قد حلّ منذ فترة طويلة على المدينة مما جعلها حارة جدا، ولشهور كانت الحرارة تتحول إلى قيظ، ثم يليها يومان من الجو المعتدل الجميل قبل أن يحصل الجفاف مجددا وتُعاد الكرة. كان الهواء بحد ذاته ثقيلا، وسميكا يعد بتساقط الأمطار، وكانت الكلاب مستلقية عند زاوية الشوارع تلهث، وكل صباح كان يُعثر على جثة أو جثتين.

قبل أن يصبح غويوك خانا، كان بمقدورها أن ترسل الحراس ليجعلوا عشرات الجنود يعترفون، أو ليطردوا عائلة أو لصوصا، ويرموا بهم في الشارع خارج المدينة. لكن منذ الليلة، لم يعد باستطاعتها أن تأمرهم، وكل ما تستطيع القيام به هو التقدم بطلب إلى ابنها شأنها شأن آلاف الآخرين. جلست توروغين بين الأوراق وهي تنشد السكينة لكنها لم تعثر عليها، حتى وهي برفقة سورهاتانا.

ربتت توروغين على المقعد بجانبها، ولكن صديقتها لم ترغب بالجلوس.

فقالت توروغين على مضض مرددة ما قاله غويوك المغرور في خطابه: «لا يجدر بالخان الشاب أن يري والدته كل حركة وكل خطأ، فعلى الكبار أن يفسحوا الطريق للشباب» وأردفت: «لقد بنى لي أوجيدي قصرا، وبما أنني أصبحت كبيرة، فسأنشد الراحة فيه، لا يمكنني أن أخبرك عن مقدار التعب الذي أشعر به».

قالت سورهاتانا: «إنه يسعى للتخلص منك». ثم أردفت بعد أن التقطت غصنا نحيلا رطبا عن الأرض لا بد أنه انكسر اليوم أو أن بستانيي تشن شذبوه حديثا، وحركته بيدها فانثنى مثل السوط. «يجب عليه أن يقدر ما قمتِ به لأجله، فقد حافظت على لُحمة الأمة، ولولا ذلك ما كان ليحلم أن يصبح خانا».

قالت توروغين: «لقد أصبح خانا، وقد استغرقني الأمر سنوات من العمل الدؤوب لأجعله يحكم الأمة، أيجدر بي أن أشتكي مما سعيت لتحقيقه؟ كم سأكون حمقاء إن اشتكيت؟».

أجابت سورهاتانا: «أنت أُمه. كلنا غبيات مع أبنائنا، نحن نرضعهم، ونعتني بهم ولا نريد منهم إلا أن يحتفظوا بهذا الجميل طوال العمر». ضحكت، وتغير مزاجها سريعا، وشاركتها توروغين الضحك، بالرغم من أنها كانت تشعر بالألم من أوامر ابنها.

علّقت توروغين: «هو لم يهدد بإبعادك يا سورهاتانا».

فأجابت: «كلا، لأنه لا يزال مهتما بمونغ ليكون قائدا للجيش، وهذا أكثر مما سعى إليه ولدي. أقسم إننا لم نخطط لذلك قط».

«أعلم، يبدو أن غويوك عمل بنصيحتي لمرة واحدة، مونغ من نسل جنكيز وستتبعه القبائل، وولدي يمحضه ثقته، وهذا في غاية الأهمية يا سورهاتانا».

لم تنبس سورهاتانا ببنت شفة. صحيح أن مونغ أصبح قائدا للجيش، مع تولي غويوك أمر الأمة، لكن كوبلاي لن يقود جيشا تابعا لغويوك. شيء ما في الرجلين كان يظهر أسوأ ما في داخلهما. لقد أُبعد كوبلاي مرتين، لأنه قد يدمر نفسه بحضور غويوك. لقد كانا يثيران حنق بعضهما كما لو أنهما قطتان مشاكستان، ولم تكن سورهاتانا وتوروغين قادرتين على إيجاد تفسير مرضٍ للأمر.

لبعض الوقت تمنت أن يرسلها غويوك إلى الوطن، بعيدا عن حرارة المدينة ورائحتها وزحمتها، بعيدا عن السياسة التي دمرت هدوء كل يوم، لكن الشكوك ساورتها بهذا الشأن، لم تعتقد أن غويوك يقدرها كمستشارة، وقد تذكرت شيئا يخص والده لا يزال يزعجها. منذ سنين عديدة، طلب منها أوجيدي أن تتزوج ولده وكانت الفكرة لا تزال تصيبها بالقشعريرة. كان أوجيداي شخصا جيدا، لم يجبرها على ذلك، ولكن غويوك لم يكن مثله. وقتها كانت أراضي جنكيز سوف تنتقل إلى مونغ عند موتها، أو أحد أولادها الآخرين إن تركت وصية، وأملت أن يكون غويوك راضيا عن حكم المقاطعات المتفرقة. ولكن لم يبدُ أن لديه مثل هذه الرؤية، في الواقع فاجأها بأنه أحمق جشع يسعى للاستئثار بكل شيء لنفسه. كانت رؤية شاب وسيم يحمل كل هذه الضغينة في قلبه أمر يفطر القلب، فالقوة تظهر أفضل ما في بعض الرجال، ولكن غويوك لم يظهر أي علامة من ذلك النوع.

في ذلك الوقت، لم يكن بإمكانها مناقشة الأمر مع توروغين فقد كانت تبكي زوجها، وتحضر ابنها لحكم الشعب، ولم يكن من حق سورهاتانا أن تظهر ضعفها أمامها. قبل أسبوع كان غويوك قد رفض رؤية وفد من أمير كوريو، مفضلا الذهاب للصيد مع مرافقيه.

تجهّمت سورهاتانا من دون قصد عندما أشارت إلى الاجتماع المتوتر مع رجال كوريو. لقد حاولت أن تخفف من الإهانة التي نشأت عن غيابه بالكلمات والهدايا، ولكنها استطاعت رؤية غضبهم من خلال الصمت الذي حل عليهم، وعندما عاد غويوك بعد أيام، أرسل مستشاره، ياو تشاو ليسمع طلاباتهم، وكان بإمكانها أن تفعل ذلك بنفسها لو أن غويوك ترك لها سلطة.

جعلت تلك الذكرى وجنتيها تحمران غضبا. في أحد الأيام تجاهلت خدمه، وشقت طريقها نحوه، متمنية أن تفهمه أن حياته لن تكون عبارة عن احتفالات وصيد مع أصدقائه، فعلى الخان أن يحكم كل يوم، ويتخذ القرارات التي لا يمكن لسواه أن يأخذها. لم يظهر غويوك أسفه عندما أخبرته، بل ضحك عليها، وأبعدها عن طريقه بطريقة مهينة، وهذا لم تستطع أن تذكره لتوروغين أيضا، فالمرأة ستترك كل ما تعبت من أجله وتغادر. أدركت سورهاتانا أنها ستشتاق لصديقتها، ولكن كان هناك أمور لا تستطيع مفاتحتها بها.

لو لم يكن لدى سورهاتانا كوبلاي، كانت لتجن، وهي تعيش مع هؤلاء الحمقى الكذابين، على الأقل كان ابنها يصغي لنصائحها، وكانت ترى فيه شخصا مدهشا. لقد بدا أن كوبلاي يعلم عن كل شيء في المدينة، حتى أنها شكت أن لديه شبكة جواسيس فعّالة مثل شبكتها، ولكن حتى كوبلاي كان في مشكلة في الأيام الماضية. فغويوك يخطط لأمر ما، ولم يكن يتوقف عن إغراق معاونيه بسيل من الأوامر، كما أن جنوده كانوا يتمرنون يوميا في السهول على المدافع، التي فاحت رائحة بارودها في شتى أرجاء المدينة.

نظرت سورهاتانا وتوروغين عندما سمعتا وقع أقدام حرس غويوك.

نهضت توروغين، ونظرت إلى الأفق، كما لو أنها ستتمكن من حمل ذكرى المدينة معها، وعندما وقف الحراس تعانقت وسورهاتانا. كان الخدم والعربات ينتظرونها لمرافقتها إلى مكان بعيد عند ضفة نهر أورخون، لقد كان الصيف في أيامه الأخيرة، ولم تتوقع سورهاتانا أن يُسمح لصديقتها بالعودة، لم يتمكن غويوك من إخفاء سعادته من هذا الأمر، وكل ما قام بفعله هو الحديث بكلمات جميلة وتقديم المديح.

قالت سورهاتانا وكانت كلماتها تفيض بالمشاعر: «سأزورك». وفي ظل وجود الحراس بجوارهما، لم تستطع أن تقول لها إنها ستطلعها على كل ما يجري، فكل كلمة ستقولانها لبعضهما ستنتقل إلى غويوك. ابتسمت توروغين، بالرغم من أن الدموع كانت تتلألأ في عينيها، لقد ربت ابنها، وبذلت قصارى جهدها ليصبح خانا، وها هو يرد لها الجميل بأن ينفيها، وإن لم يكن غويوك يسمي فعلته هذه نفيا.

شاهدت سورهاتانا توروغين تبتعد مع الرجال، ضعيفة، وكان شكلها المنحني يتناقض مع شباب وقوة سورهاتانا، التي خشيت أن تكون خسرت أحد أهم حماتها، وعندما فكرت بالمستقبل، لم تجد السكينة؛ فغويوك بالرغم من فسقه، ورحلات صيده التي لا تنتهي، كان مجدا في توطيد ركائز حكمه، لقد تاقت للعودة إلى ديارها، لكنها ما كانت تستطيع القيام بذلك ما لم يسمح لها، لقد بدا لها الأمر وكأنها تتشاطر غرفة النوم مع نمر جائع، لا تدري متى يقفز عليها ويمزقها إربا.

عندما سمعت صوت مدفع في البعيد، أخذت تحدق، لعله مونغ في السهل يشرف على تدريب رجاله على المهارات القتالية، فصلت بصمت ليُحفظ ابنها من كل سوء، في ظل حكم هذا الخان الجديد.

تمشى غويوك في رواق قصره الخالي، وكان يعلم أن أوامر ببقاء الخدم بعيدين عن نظره قد أرعبتهم، فمنذ أيام قليلة تعثر بامرأة شابة لم تبتعد من طريقه، فكانت النتيجة أن أمر بإعدامها، لقد اعتاد الخدم الآن على طريقة سيره المهيبة، إن رؤية غويوك للرجال والنساء يبتعدون عن طريقه عند كل منعطف أشعرته بمتعة كبيرة، لا سيما وأنهم يشعرون أن حياتهم مهددة إن لمحهم.

سرّع خطواته وهو يضحك بينما اندفع الخدم نحو الغرف الجانبية من أمامه، وانتقلت الكلمات بسرعة كما لو أن الخان كان في جولة. من دون توقف، دفع الباب النحاسي ودخل قاعة استقبال الضيوف.

كانت سورهاتانا هناك بالإضافة إلى ياو تشاو، أحد كبار المستشارين، وكان هناك عشرات ينتظرونه، ولم يحاولوا أن يظهروا له أنهم أمضوا نصف النهار بانتظاره قبل أن يزعج نفسه ويأتي. في طريقه إلى عرشه الذهبي اللامع بسبب أشعة الشمس الذي بلغته من النوافذ لم يعر انتباها لأحد. لقد كان الهواء الداخل من النوافذ منعشا، لاسيما وأن غويوك أصبح يطبق عادات تشن التي لا تحبذ الاستحمام كثيرا، وبفعل الهواء عبقت رائحته في الأرجاء.

درست سورهاتانا كل تفصيل خلال دخوله، متحكمة بملامحها بشكل حذر. كان بإمكانها التحدث أولا، ولكنها مع ياو تشاو أُمرا بالانتظار لساعات، وهذا ما أشعرها مجددا بالإهانة، وكأن لا شيء لديها لتقوم به سوى أن تنتظر غويوك حتى ينتهي من اللهو مع الخدم، ولكن لم يكن بإمكانها التعبير عن استيائها، وهي التي تعلم أن كلمته أصبحت قانونا، وأن باستطاعته أن يسلبها أراضيها وحتى روحها، بمجرد أن يلمح في وجهها أي إشارة على الغضب، لذا فضّلت أن تعطي أسبقية الكلام لياو تشاو، فهو ضليع بسلوكيات البلاط، ونادرا ما كان يعبّر عن مشاعره.

اقترب ياو تشاو من غويوك، وانحنى له وهو يحمل مجموعة من الأوراق- التي نظر إليها غويوك بازدراء- قبل أن يقول: «لديّ مجموعة من الأمور التي لا يمكن سوى للخان أن يبت فيها». نظر غويوك كما لو أنه سوف يجيب، ولكن ياو أكمل حديثة «حاكم كوريو الشرقية يطلب إرسال بعض القوات لتثأر من قراصنة البحر الذين يغزون الساحل، وهذه هي المرة الثالثة التي يرسل فيها مبعوثين إلى كاراكورم». توقف ياو لأخذ نفس، ولكن غويوك أخذ راحته أكثر في عرشه.

ثم قال مبتهجا: «أكمل يا تشاو، ماذا لديك أيضا؟».

«لدينا قوات في مقاطعات تشن، سيدي. هل أرسل عبر يام أوامرك إليهم كي يقدموا له المساعدة؟».

أشار غويوك بيده: «حسنا، أرسل اثنين، ماذا أيضا؟».

لم يصدق ياو تشاو أن غويوك في مزاج جيد. فأكمل بسرعة محاولا استغلال الفرصة قدر الإمكان.

«يقول حاكم شي شيا إن الضرائب عالية جدا بالنسبة إلى منطقته، لقد ضرب الطاعون مناطقه الريفية، ومات جراء ذلك أكثر من نصف المزارعين، إنه يسأل إن كنت تتكرم وتعفيه من الضرائب هذه السنة، حتى يتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها».

«كلا، إنه تابع لي».

«سيدي إن كان باستطاعتنا القيام بمبادرة، سوف يكون حليفا أقوى في المستقبل».

«أتريدني أيها المستشار أن أحتضن كل رجل يأتي متوسلا بابي من أجل أن يصبح حليفا قويا في المستقبل. لقد قلت لا. انتقل إلى التالي».

أومأ ياو تشاو، وقلّب أوراقه بسرعة.

ثم قال: «لديّ هنا أكثر من ثمانين طلب زواج يا سيدي».

«ضع الطلبات جانبا، سأقرأها في غرفتي، هل لديك أي ملاحظات خاصة؟».

أجاب ياو تشاو: «كلا يا سيدي».

«حسنا، أكمل».

بدأ ياو تشاو يشعر بالانزعاج، وتمكنت سورهاتانا من ملاحظة ذلك. في الماضي كان غويوك كسولا ولا يقدر أن يدعي الصبر حتى عندما كان مستشاروه يتخذون القرارات، مما جعلها تتساءل ما الذي يسعى لإظهاره لهم من خلال اتخاذه لقرارات بهذه السرعة. إن الاحتقار الذي تكنه لغويوك جعل معدتها تتشنج. ما كان والده ليتجاهل كلمة طاعون في أراضيه بهذه البساطة، كأن آلاف الموتى لا يعنون له شيئا على الإطلاق، وكأنه لن ينتشر. استمعت إلى ياو تشاو يطالب ببناء سفينة، رفض غويوك وبدا في صوته نغمة احتقار، كيف له أن يرفض فهناك سواحل في أرض تشن، وهناك شعوب ماهرة في ركوب البحر، أما المغول فهم قصيرو الباع في هذا الأمر.

غطى ياو تشاو عشرات المواضيع لأنه تلقى إجابات سريعة على كل منها. تأوهت سورهاتانا من بعض المواضيع، ولكن كان هذا اليوم أفضل من الركود في الأيام السابقة، لن يظل العالم متوقفا.

بينما اصطاد غويوك طيوره الصغيرة، تغير الضوء في الخارج، وأُحضر الطعام والشراب له، وتم تجاهل حاجات الحاضرين في مجلسه. في النهاية، وبعد مضي ساعات تراجع ياو تشاو وأصبح بإمكانها التحدث.

بينما كانت سورهاتانا تتقدم، رأت غويوك يحاول كبح تثاؤبه. ثم قال: «أعتقد هذا يكفي لليوم، ستكونين الأولى غدا يا سورهاتانا».

قالت سورهاتانا: «سيدي» وتلا ذلك موجة من الذعر والسخط انتشرت عبر القاعة المزدحمة.

كان هناك آخرون لم يكن مسموحا له تجاهلهم، رجال مهمون سافروا من بعيد لرؤيته. شجعت نفسها وقالت: «سيدي ما زال النهار في بدايته. أيمكنك أن تخبرنا إن استجاب باتو

لاستدعائه؟ هل سيأتي إلى كاراكورم لأجل القسم؟».

توقف غويوك وهو يغادر ليستدير إليها. ثم قال بنبرة موبخة: «هذا ليس من شأن مستشاري، يا سورهاتانا، هذا أمر يخصني». كانت ابتسامته غير مرضية، وتساءلت للمرة الأولى إن كان قد بعث بالأمر إلى باتو.

عندما وصل إلى الباب قال بتعالٍ: «أكملوا عملكم، إن الشعب لا ينام».

في صباح اليوم التالي، أيقظ الخدم سورهاتانا، في جناحها الخاص من القصر، الذي أُعطي لها عندما قدمت المساعدة لتوروغين في السنوات الصعبة التي أعقبت موت أوجيدي، ولم يكن غويوك قد تجرأ بعد على سلبها إياه، بالرغم من أنها تظن أنه سيقدم على ذلك عندما يوطد سلطته. جلست في سريرها إلى أن قرع الحاجب الباب، أحنى الحاجب رأسه قدر ما يستطيع كي لا يرى سيدته. لم ينم أحد من الشعب عاريا، ولكن سورهاتانا اعتنقت عادات تشن في النوم والمتمثلة بارتداء الحد الأدنى من الملابس الحريرية في السرير، وهذا ما أدى إلى حصول العديد من المواقف المحرجة قبل أن يعلم خدمها عاداتها.

علمت أن هناك شيئا سيئا حالما رأت رجلا يقف هناك بدلا من المرأة التي كانت تساعدها في الاستحمام واللباس.

فسألته ناعسة: «ماذا هناك؟».

«إنه ولدك كوبلاي، سيدتي، يريد التحدث إليك. لقد أخبرته أن يعود بعد أن ترتدي ثيابك، ولكنه رفض الرحيل».

ابتسمت سورهاتانا في وجه الرجل الطيب الذي حاول إخفاء توتره. كان لدى كوبلاي ذلك التأثير على الناس. فقط وجود حرسها الخاص قد يمنعه من الدخول.

سحبت رداء سميكا وشدته عند خصرها، ثم خرجت إلى الغرفة المضاءة بنور الضحى الرمادي، وشعرت بالقشعريرة لرؤية كوبلاي هناك، مرتديا ثوبا حريريا بلون أزرق داكن. نظر إلى الأعلى عندما دخلت ولمح شعاع الشمس من النافذة.

ثم قال: «أخيرا يا أمي!». وابتسم لها بينما لاتزال تشعر بالنعاس وشعرها مشعث، وأكمل: «الخان يُحرك القوات من المدينة».

وأشار من النافذة فلحقت به سورهاتانا ونظرت إلى السهول.

كانت غرفها عالية بما يكفي لترى بعيدا، وكان بإمكانها تمييز الكتل المظلمة من الفرسان المنتظمين. فكّرت في الطريقة التي غطت فيها ظلال الغيوم الأراضي في الصيف، ولكنها فجأة أغلقت فمها عندما توضحت لها الصورة.

سألها كوبلاي: «هل أخبرك غويوك إلى أين يأخذهم؟».

هزت والدته رأسها، فعدم ثقة الخان بها كانت تؤلمها.

قال كوبلاي بصوت رقيق: «هذا... غريب».

نظرت سورهاتانا إلى خادمها وأرسلته ليعد الشاي.

شاهد كلاهما رحيل الجنود، وشعر كوبلاي بالراحة لبقائهما وحيدين.

قال كوبلاي: «لو أنه يستعرض القوة، أو حتى يقوم بمناورة تدريبية، أعتقد أنه كان ليخبرك، إنه يعرف أن نصف سكان المدينة سوف ينهضون من أسرّتهم لمشاهدتهم، لا توجد طريقة لتحريك الجنود بالسر، وغويوك على علم بذلك».

«حسنا أخبرني، ما الذي يفعله؟».

«يقولون إنه يتجه إلى الجنوب ليختبر الرجال الجدد، وليتأكد من قوة تحملهم. لقد سمع كل تجار السوق الكلام نفسه، ولكنني أشك في ذلك، يبدو الأمر وكأنه شائعة أطلقها أحدهم».

انتظرت سورهاتانا بصبر بينما كان ابنها يدرس كل الاحتمالات قبل أن يستقر رأيه على أحدها، لقد كانت تعرفه جيدا».

أخيرا قال: «لا بد أنه ذاهب ليوجه ضربة سريعة لباتو لأنه لم يبايعه ويقسم له بالولاء».

أغمضت سورهاتانا عينيها لبرهة. لقد كانا وحدهما، ولكنها تعرف أن هناك من يتجسس عليها، فاقتربت من ولدها وهمست جملة واحدة.

«أستطيع تحذيره».

تراجع كوبلاي وهو يتلفت حوله.

وقال بعد أن وضع رأسه على رأسها حتى لو كان هناك مراقب متخفٍ ما كان ليعلم أنهما يتحدثان بينما كان يتمتم وهو يشتم رائحة شعرها: «ستعرضين حياتنا للخطر».

أجابته: «أتريدني أن أقف ساكنة وأشاهد ابن عمك يُقتل؟».

«إن كان هذا ما يريده الخان فما الذي نستطيع القيام به؟».

«لا أستطيع الوقوف مكتوفة اليدين ولا أعطيه فرصة للنجاة. إن فرسان يام أسرع من الجيش».

هزّ كوبلاي رأسه وقال: «من الممكن أن يكون هذا خطرا. الفرسان سوف يتذكرون أنهم حملوا الرسالة. وإن هرب باتو، سوف يلاحق غويوك الموضوع إلى أن يصل إليك. لن أسمح لك بذلك يا أمي».

«أستطيع جعل خادم يحمل الرسالة إلى إسطبل في المدينة».

«بمن ستثقين عندما يعود الخان غاضبا، وباحثا عن المصدر؟ يمكن شراء الخدم أو ضربهم إلى أن يعترفوا». ثم توقف قليلا ونظر بعيدا «يمكن فعلها، من قبل فارس قادر على استخدام حصان يام، ولكنه ليس منهم. لا يمكن لشيء آخر أن يكون سريعا لتحذير باتو. إن كنتِ واثقة أن هذا ما تريدينه».

قالت: «كان يجدر به أن يكون الخان يا كوبلاي».

أمسك ذراعها وقال بتوتر: «حتى هذا لا يجدر بك التفوه به، فالقصر لم يعد مكانا آمنا».

«صحيح يا كوبلاي، فالجواسيس منتشرون في كل مكان، منذ سنة، لم يكن عليّ أن أنتبه إلى كلماتي خشية أن يهمس أحد الخدم بكلماتي في أذن سيده. لقد أرسل غويوك والدته بعيدا، وأنا شخصيا لن أطيق البقاء لفترة طويلة تحت المراقبة، لذا دعني أتصدى له بهذا يا ولدي، ساعدني يا ولدي».

قال: «أنا من سينقل الرسالة، وبذلك لن يكون هناك ورقة أو دليل».

توقع منها أن تجادل في ذلك، ولكنها علمت أنها لا تستطيع الوثوق بسواه، فأومأت ثم ابتعدت عنه، وهي تنظر إليه بفخر، عندها عادت لتتحدث بشكل طبيعي.

«حسنا يا كوبلاي. اذهب إلى السهل وشاهدهم يذهبون. وأخبرني كل شيء عندما تعود هذا المساء. أريد سماع كل شيء». وبذلك لم يكن لدى من يسترق السمع شيئا ليبلغ عنه، بالرغم من أن الأم وابنها كانا يعلمان أنه متى ذهب فلن يعود.

قال كوبلاي: «سوف يكون مونغ مع الخان، كم أحسده على ذلك».

أجابته: «إنه قائد جيش الخان، وأكثر أتباعه وفاء». يجب إخفاء أمر التحذير، لا يجب على مونغ أن يعلم بشأن تحركهما لإنقاذ باتو. حيث لا يمكن الوثوق بالأخ الكبير بمثل هذا السر.

6

كان غويوك يعلم أنه يبدو وسيما عندما يمتطي صهوة الحصان الذي ورثه عن والده الخان. بغض النظر عن الاحتفالات والطعام الكثير، كان شبابه يجعله قادرا على حرق السعرات الحرارية الزائدة، لم يكن قد أحضر الدروع الكاملة والمواد التي يحتاج إليها لرحلة طويلة، مبقيا على أسطورة التدريب في الجبال قدر ما يستطيع.

بالرغم من ذلك جلب محاربوه جميعا مجموعة أو مجموعتين احتياطيتين، بما في ذلك مونغ الذي جلب حاجيات ولوازم راحة تجعل من الرحلة متعة أكثر من مهمة.

كان سهلا تخيل جده يجول في البلاد نفسها، مع فرق الاستطلاع أمامه والجيش خلفه، لقد كان لغويوك ذكرياته عن الرحلة العظيمة إلى الغرب برفقة تسوبوداي، ووجوده مع الجيش مجددا أيقظ في نفسه الحنين إلى تلك الأيام. لقد انطلقوا في الظهيرة بدل الفجر، وذلك لأن رأس غويوك احتاج إلى وقت ليتوقف عن الدوران ولتهدأ معدته، واستمر في التقدم بعينين حمراوين. لكن الجهد الذي قدمه صفى رأسه وجعله جائعا. وضع يده على خصره مستشعرا بدايات الألم، وكان أمر شد عضلات المعدة طبيعيا بعد قيادة ألفي ميل.

عندما حدق غويوك إلى السهول أمامه تعكر مزاجه جدا. كان عليه أن يتحفظ، بالرغم من أنه في ذلك الوقت اعتقد أن كل قادته علموا بنواياه، لم يكن مونغ بعيدا عنه بين القوات، بوجه عبوس جدي، ورأى غويوك كل تلك الوجوه التي ستدين ما هو مقدم عليه، وفكّر مرة ثانية بوالدة مونغ، تلك المرأة الماكرة التي تلاعبت بوالده لصالحها. لقد أراد أن ينفيها، لكنه خشي من رد فعل ابنها. كان عقله يفكر فيما هو يتقدم، غارقا في أحلام همسه لأحد المحاربين بما يرغب به، وعندها لن يعود لسورهاتانا وجود، فكثيرون هم المستعدون للتضحية بحياتهم إرضاء للخان، من دون مناقشة. لقد كانت قوته عظيمة، ولكنه ظل حذرا في استخدامها، وقام بمراقبة لسانه قدر ما استطاع، حتى أصبح ذلك صعبا.

استيقظ غويوك من أحلام اليقظة، على صوت أبواق المعركة. ونظر إلى الخلف ليرى مقاتلين قد تجهزا بالرماح كأنهما فعلا ذلك عشرات المرات في الصباح.

لقد قادا بجهد لثلاثة أميال، ثم أطلقا حصانيهما لكي يرعيا بينما قيدت البقية. كانا الوجه لحركات المناورة، ولم يكن غويوك قادرا على التذمر من أصوات التحطيم والصراخ. في أي مكان وقفا فيه كان آلاف المحاربين يضعانهما هدفا ويحاولان إصابته في مجموعات، وبهذا كانوا يستخدمون العديد من الرماح ويخسرونها، وبالرغم من أن رؤية استعراض لقوة محاربيه أمر أسعد غويوك لفترة، إلا أنه بدأ يفقد سحره بالرغم من جمال رؤية باتو محاصرا كهدف، ما جعل الدم يتدفق إلى وجنتيه. كان لديه شبكة من الجواسيس، وفي المدينة، كانت آلاف التقرير تقدم عن محادثات الرجال لرئيس الجواسيس الذي يرفع خلاصتها في نهاية كل يوم إلى غويوك، حتى أن الجواسيس كانوا منتشرين بين صفوف الجنود، وأي جندي غبي كان ينتقد الخان كان يعتقل، ولكن أحدا لم يتحدث عن باتو بأكثر من أنه كان المفضل لدى تسوبوداي، حفيد جنكيز الذي لم يضع يده في السياسة والصفقات. لقد صدمته التفاصيل التي سمعها. لقد اعتاد الجنود مراقبة أحاديثهم، حتى بين الأصدقاء. وكانت المحادثات قد تناقصت بعدما شاع أمر اعتقال المتحدثين، ولكن غويوك ظل يسمع البعض. أمر بقتل رجلين تحدثا عن عدم الامتثال لأوامر الخان وشاهد رجلا يقطع لسانه بكماشة حديدية قبل أن يُقتل، وابتسم لتلك الذكرى التي وضعت حدا للأحاديث الانتقادات.

لم يكن لدى غويوك شك في أن هذه الأحاديث لن تؤثر على حكمه وسلطته، فلا شيء يوثر سوى تصرفاته الهوجاء. في الحقيقة، لم ينزعج الرجال من رغبة غويوك بتوطيد سلطته من خلال البطش الذي اتبعه جده جنكيز، فالمحاربون يهابونه، وهذا شيء جيد، فقد بدأت تترسخ لديهم فكرة أن لا مفر لديهم فإما الموت في سبيل خدمة غويوك أو الموت بسيفه.

تقدم غويوك بجيشه مئة ميل نحو الغرب، ثم توقف ليومين ليتأكد من التشكيل ويسمع من المسؤولين، بعد ذلك انعطف بالجيش شمالا نحو الأراضي الروسية، التي منحها والده بكل حماقة للعدو، لقد أدرك غويوك أن النسل كان ملوثا فقد كان والد باتو خائنا وكذلك سلالته.

ما كان غويوك ليثق بباتو إن لبى استدعاءه إلى كاراكوروم وبايعه مقسما له بالولاء، فنسل عمه كانت الخيانة بدمه، ولن يتوانى باتو عن تسميم الأمة بأفكاره، والعمل على فك لُحمتها. لذا، لا بد من بتر النسل الخبيث واجتثاثه من جذوره.

لم يكن أحد يفهم أكثر منه الحاجة التي تكمن في إزاحة أعدائه، وبالتالي لم يكن خيار ترك باتو على قيد الحياة خيار خان عظيم، بل خيار خان ضعيف، يخشى التورط. لقد أراد أن يجعل من باتو عبرة لمن تسول له نفسه فكرة اختبار قوة الخان وبطشه، فلير الجميع، من أمير كوريو مرورا بالعرب ووصولا إلى شعوب الغرب، فعندما تصلهم الأخبار عمّا حلّ بباتو، سيفكرون ألف مرة قبل أن يقولوا لا أو يتمردوا على سلطة خان المغول. إن ما سيحل بباتو، سيكون ذكرى مروعة لكل من يفكر برفع الصوت أو السيف بوجه قرارات الخان العظيم، بعد أن تتناقله الألسن عبر الصحاري القاحلة والسهول الخضراء والجبال الوعرة. إن مصير باتو، سيصبح أشهر من نار على علم، سيكون رسالة من الرعب والموت تصل من تلقاء نفسها لكل تابع وولاية، وبهذا سيسدي باتو بموته خدمة للخان أكثر أهمية مما لو بايعه وأقسم له بالولاء.

لقد تمكن كوبلاي، وعن بعد ميلين، من رؤية عبور جيش الخان، لقد رأى صفوفا طويلة من الجنود والأحصنة ترتفع فوقهم سحابة من الغبار. كان من الخطر الاقتراب من مدى رؤيتهم، وبما أنه يعلم النمط الذي تتبعه فرق الاستطلاع قرر الالتفاف حولهم، تاركا قوات الخان خلفه، وقد ساعده في ذلك أنه لم يكن الرجل الوحيد في السهل، فقد تحرك عدد لا بأس به من الجنود والأحصنة بالإضافة إلى قطعان الماعز والعائلات الفقيرة التي يقودونها، وما كان هؤلاء بمخفيين عن أعين فرق استطلاع الخان، ارتدى كوبلاي ثوبا قديما فضفاضا، وكان لون وجهه ويديه أسود قاتما، وتمنى بشدة أن تظنه فرق الاستطلاع عندما ترصده واحدا من الرعاة.

بينما كان يتمدد على العشب الطويل، وضع يده على لجام الحصان فتمدد مثله على الأرض كما لو أنه دُرب على ذلك. توجب على كوبلاي إبقاء يده على حصانه ليبقى في هذه الوضعية غير الطبيعية، راقبت عينا الحصان البنية بانتباه كوبلاي، ولكن الحصان لم يستطع كبح تحرك ذيله، وكان من شأن ذلك أن يفضح عملية التخفي، أدرك كوبلاي صعوبة التخفي عن أعين الجنود وفرق الاستطلاع، ولكن عليه أن يبذل قصارى جهده، فإن افتضح أمره لن يموت وحده بل سيتسبب بموت أشخاص عديدين، وبالمقابل عليه أن يتأكد من نوايا الخان فإن حرك جيشه بعيدا عن أراضي باتو، كان يستطيع العودة بكل بساطة إلى المدينة وكأن شيئا لم يحدث، ولن يتحدث إلى أحد عما قام به، وسيصبح الأمر منسيا.

لكن في ذلك الصباح، تابعت القوات تحركها شمالا، وابتعد أكثر عن كاراكورم، وبالتالي لم يعد لدى كوبلاي شك بنوايا الخان، فاستشاط غضبا. ولكنه أعطى مجالا للشك، فربما كان الخان

يبحث عن بحيرة ليروي منها أحصنته، فقرر الانتظار، فهو يملك من اللحم والحليب ما يكفيه لضعف المسافة التي قرر اجتيازها، ولم يكن جيش الخان يعبر أكثر من أربعين ميلا في تقدم بطيء، عندما ابتعدت آخر فرق جيش الخان، ربت على حصانه ليقف وإياه بعد أن أنهكهما التمدد في هذه الوضعية طوال النهار، ولكن لم يكن بإمكانه الركض بسرعة في الليل ليتفادى أن تكسر ساق حصانه، ولا يتمكن من مجاراة الجيش وتحذير باتو.

في فجر اليوم الثاني، كان يبعد ستة عشر ميلا عن الجيش، وكان قد اقترب من قرية صغيرة تقع بالقرب من ينبوع عند أعلى هضبة صغيرة، كانت المياه في القربة التي يحملها توسك على النفاد، فاضطر ليأخذ قرارا بالتوقف وشراء المؤونة، بدت الهضبة دائرية وواضحة، وكان يعلم أن عليه المسير كل النهار.

قاد حصانه ببطء ليؤكد للرعاة أنه وحيد، لم يكن هناك سوى أربع خيم صغيرة، صنعت لتتمكن من تحمل الظروف الطبيعية لأطول فترة ممكنة، مرّ بالقرب من بعض حُفر الصرف، فعرف أن العائلات التي تقيم هنا فقيرة لكنها نظيفة، وعندما اقترب من قطيع ماعز تسبب بتفرقه، ونتيجة لذلك نبحت كلاب الحراسة منبهة السكان، وفي غضون دقيقتين وجد كوبلاي رجلين يصوبان سهميهما نحوه.

فصرخ قائلا: «سأدفع مقابل التزود بالطعام والشراب من ينبوعكم».

تبادل الرجلان النظرات وأومأ أحدهما. فربت كوبلاي على صرة المال الصغيرة التي كانت بحوزته جاذبا اهتمامهما إلى السيف الذي يحمله. حدق الرجلان إلى السيف، وتساءلا إن كانا قد شاهدا سلاحا ذا نصل طويل مثله، ازداد جشعهما وكان ظاهرا على وجهيهما، وتمكن كوبلاي من رؤية النظرة التي رمقا بها بعضهما، وأدرك أنهما يجنيان المال من سرقة أي شخص يحمله حظه العاثر على المرور بالقرب من مخيمهما، كانا يحملان السهام في الوقت الذي كان فيه قوس كوبلاي على ظهره. وقرر ألا يمسكه إلا إذا باغتاه.

قال: «احضرا لي ما يكفي لبضعة أيام وسأغادر».

ثم أخرج قطعتي فضه من صرته، فأخفض الرجلان سلاحيهما، واقترب أحدهما لأخذ القطعتين، بينما ظل الآخر مفعما بالشك.

أنزل كوبلاي قدميه عن ركاب السرج، ومدّ يده ليعطي الرجل قطعتي النقود، لكنه صُدم عندما حاول الرجل أن يمسك به من كميه ويسحبه أرضا، فما كان منه إلا أن ركله على عنقه، فابتعد مترنحا، والدم يسيل من فمه، لأنه عض على لسانه من شدة الألم، عندها رفع الرجل الآخر سهمه وصوّبه نحو كوبلاي، ولكن الأخير أسرع بوخز الحصان فتقدم، واستل سيف موجها مقدمته نحو حنجرة الرجل.

في تلك الأثناء، سمع كوبلاي صوت شخصين يطرحان أسئلة، واستطاع أن يلقي نظرة بالرغم من توجيه سيفه نحو الرجل الخائف، لقد كانا اثنين من كشافة غويوك يقتربان من مجموعة الخيم في الجانب الآخر.

أنزل كوبلاي سيفه، وترجل عن حصانه بسرعة، وأخذ يُفكّر. حيث لم يكن باستطاعته أن يسبق هذين الرجلين، فهما معتادان على المسافات البعيدة أكثر منه. لام نفسه على غلطته، وبعد ذلك وضع الأمر جانبا، محاولا الحصول على الهدوء كما تعلم من مستشار الخان منذ سنين، فالخوف لن يساعده، فما كان منه إلا أن اتخذ قرارا سريعا بينما كانا يقتربان.

كانا يقظين، لكنهما لم يريا سوى ثلاثة رجال يتعاركون، وفم أحدهم ينزف دما. عندما اقتربا على صهوتي حصانيهما، أرخى كوبلاي كتفيه، مخفيا تعاليه بعد أن ترجّل عن حصانه، كان يعاني من الوعثاء وثوبه ممزق مثلهما، لم يكن فيه شيء يميزه عنهما سوى سيفه، فعمل على ألا يلاحظاه، انحنى الرجلان لكشافة الخان، وكذلك فعل كوبلاي، وكانت تصرفاته تدل على خوفه منهما.

قال أحد الكشافين: «استقيموا».

اقترب أحد الرجلين بينما بقي الآخر في الخلف. علم كوبلاي أنه المشرف بينهما.

سأل الكشاف: «ما الذي يجري؟». لقد كان أطول من كوبلاي وأنحف.

تحدث كوبلاي بسرعة حانيا رأسه: «إنه خلاف يا سيدي حول بعض الماعز التي كنت أريد شراءها».

من زاوية عينه استطاع رؤية الرجل المصاب ينظر إليه. يستطيع الكشاف أن يشعر بالرضى من جعل أحد الرجال عبرة، وحتى يمكنه أن يأخذهم للخان من أجل العدالة، لكن خلافا تافها مثل هذا لم يكن يهمه، وتمنى كوبلاي أن يُبقي الرجلان فاهيهما مغلقين، ويتركاه يكمل الحديث ويجد مخرجا.

ثم أكمل كوبلاي قائلا: «أنا أضع مشبكين على آذان حيواناتي، كما ترى هناك». لم يلتفت الكشاف، فقد كان خبيرا بما يكفي، كي لا يشتت مثل هذا الكلام انتباهه، فأكمل كوبلاي: «وابني يفعل مثلي، وهذا ما قلته لهذين الرجلين، ولكنهما يصران على غيهما، ويستمران بالجدال، سيدي أرجوك هذه الحيوانات لي، أنا أعرفها من بين الآلاف، أنت رجل الخان. سأكون ممتنا إن حكمت بيننا». شعر الكشاف بالارتياح لتملق كوبلاي له، ثم نظر بقسوة إلى الرجلين الآخرين.

حاول الراعي نازف الفم أن يقول شيئا، لكن كوبلاي صرخ في وجهه: «أغلق فمك، هاخان، أنا أعرف أن الماعز البني كان لولدي».

حدق الرجلان بدهشة إلى الرجل المجنون الذي يخاطبهما بتلك اللهجة، ولكن الكشافين كانا قد فقدا اهتمامهما، فما كان من كوبلاي إلا أن تابع أداء الدور ببراعة، فنظر إلى الأرض بانكسار وتابع حديثه.

«سيدي، إن تكرمت عليّ وبقيت هنا حتى أستطيع جمع الحيوانات التي تعود لي، سأصلي مئة مرة للسماء من أجلك، زوجتي حامل، وأنا لا أملك الكثير من الحيوانات، وخسارتها الآن ستقصم ظهري».

قال الكشاف الأكبر لمرافقه: «هيا بنا».

كان قد خسر اهتمامه في الرجال الوضيعين الذين توقفوا ليتناقشوا في الطريق، بقي كوبلاي يستجير بهما إلى أن التفا وأكملا طريقهما، فشعر بالراحة. في النهاية، أصبح مجددا بمفرده مع الراعيين، اللذين كانا ينظران إليه كما لو أنهما ينظران إلى كلب هائج، وعندما سأله الرجل الذي ينزف دما من فمه: «من أنت؟».

أجابه كوبلاي: «مجرد مسافر». بعد أن شد قوامه مجددا مبرزا عضلاته، وتوقف عن التظاهر بمظهر المسكين المثير للشفقة «أحتاج إلى الماء والطعام، كما قلت سابقا، وإن كنتما لا تزالان تفكران في سرقتي، لن أكون رحيما مرة ثانية، فصرخة واحدة ستعيدهما».

نظر الراعيان إلى حيث اتجه الكشافان، وبدا أنهما لا يحبذان عودتهما، كان هناك القليل من العدالة في السهل، ويمكن لوجود كشافة الخان أن يودي بالمرء إلى حتفه.

بدل أن يلتفت كوبلاي إلى الرجلين امتطى صهوة حصانه، في الوقت الذي كانا يملآن فيه قربته الجلدية بالماء، ويجمعان له القليل من لحم الضأن المطهو وبعض الخبز. تبع أراضي باتو

أكثر من ألف ميل نحو الشمال، ولم تكن هذه الزوادة تكفيه حتى يصل إليه، كانت تكفي فقط حتى يصل إلى جيش الخان.

عندما انطلق مجددا، لم يكن متفائلا، وكان دائم التأهب لظهور أي كشافة في الأفق، لقد جعل حصانه ينطلق بأقصى سرعة، لأن باتو كان بحاجة إلى كل الوقت الذي يستطيع أنه يمنحه إياه.

7

بعد ثلاثة أيام متعبة على صهوة الحصان، كاد الحصان أن ينهار حتى أنه غفا وهو يأكل العشب، ولكن لسوء الحظ، لم يكن لديه وقت للاستراحة. في اليوم الرابع شعر بالألم وهو يمتطي حصانه. لم يكن يمتلك الأنسجة العضلية اللينة التي يمتلكها الكشافة، وهذا ما جعل التسلخات الجلدية تظهر في أماكن مختلفة من جسمه، وكان كل يوم يشعر بالمعاناة أكثر من اليوم الذي يسبقه، حتى انتهى به المطاف مصابا بالجرب، وأغمي عليه بسبب اجتماع التعب مع الألم، لم يكن يعرف المكان الذي وصل إليه، إلا أن جل ما كان يعلمه أنه سبق جيش الخان بمسافة لا بأس بها. عندما غادر باتو أخذ معه كثيرا من العائلات إلى الأراضي الجديدة، ولا بد أنهم مع الوقت تكاثروا وازدادت أعدادهم، ولم يعد بإمكانهم الاختباء بسهولة. توقع كوبلاي أن يكون على وشك العثور على أثر لهم، ولكنه ترك الأمر ليكون تحديا ليوم آخر.

المعضلة التي تواجهه الآن هي أن حصانه خسر كثيرا من الوزن بسبب كثرة تعرقه، وأصبح لون لعابه الذي يزدرده أصفر، وكل ذلك لم يكن مبشرا بالخير، فكّر كوبلاي أنه يجدر به الآن تطبيق الطريقة التي يتبعها فرسان يام، كانت الطريقة بالنسبة إليه سهلة عندما كان في كاراكورم، ولكن العبرة الآن في التنفيذ.

أخرج كوبلاي من حقيبة سرجه أجراسا كانت محاكة مع القماش، وألقى بها على سرجه، وأخذ يتقدم عبر الهضاب التي تحيط به من كل حدب وصوب، لم ير إشارة تدل أنه يسلك الدرب الصحيح، ولكنه قبل عشرين ميلا رأى محطة يام، فأدرك أنه يسلك الدرب ذاته الذي يسلكه فرسان يام، لقد حدد وجهته للمرة الأخيرة، وتقدم تاركا الهم خلفه.

تمثلت مشكلته في الوزن، ففرسان يام ما كانوا يحملون شيئا على ظهورهم، فألقى غصبا عنه، كل ما كان يحمله؛ ألقى بقوسه ووضع سيفه على قطعة جلد وقماش، والآن بعد أن تجرد من سلاحه، شعر بأنه طفل ولد من جديد في أرضٍ معادية، ولكن ما من خيار آخر أمامه، لم يحتفظ إلا

بحقيبة ظهر جلدية، فلم يعد معه من المتاع أكثر مما يحمل فارس يام تقليدي، وكتب رساله تبعث الرعب بنفس أي شخص قد يعترض طريقه ويفتشه، بالرغم من أن ذلك كان أمرا مستبعدا، لأنه ما من أحد يرغب بجلب المتاعب لنفسه، من خلال تدخله بشؤون أحد فرسان يام.

فكّر بأن يقطع حقيبته إلى أشرطة، ويستخدمها في تغطية سيفه، فالسيف كان قيما، وشك أنه سيتمكن من إيجاده يوما ما، فقد عزت عليه نفسه أن يتركه في الغبار، ليكون فريسة سهلة للصوص، أو من هم أشد خطرا مثل كشافة الخان الذين يسيرون خلفه.

توجه نحو واحة من الأشجار، واستلقى في ظلها، ريثما يخبو الغبار الذي خلفته حوافر حصانه، وقد قدّر أنه سيبلغ محطة يام مع الغروب، أو ربما في ساعات الليل الأولى، لقد كان جده جنكيز خان هو من اختار المسافة التي يجب أن تفصل بين كل محطة يام وأخرى، وحددها بخمسة وعشرين ميلا. كانت بعض المحطات قديمة، فبنت العائلات منازل طينية حولها. أسند كوبلاي جسده على جذع شجرة وظل ممسكا باللجام بيده.

عندما استيقظ، وجد أن الظلام قد خيّم، لم يعلم كم مضى عليه وهو نائم، وندم على الراحة التي أخذها، وعندما أمسك بالسرج ليمتطي الحصان أبدى الأخير امتعاظا، وحاول الابتعاد عنه، فما كان منه إلا أن ربت على رقبته ليبعث في نفسه شيئا من الطمأنينة، ويعلمه أنه هو مالكه ويحاول امتطاءه.

لم يمر وقت طويل، قبل أن يعود إلى الطريق، ويأنس بالظواهر الطبيعية، فالقمر كان محاقا، وسر أن الليل يلقي عليه سدوله، ويجعله مخفيا عن أعين فرق الاستطلاع والكشافة، لم يمر وقت طويل حتى رأى أضواء في البعيد.

كانت محطة يام صغيرة، وحولها بعض الأبنية التي شكلت فناء خلفيا لها، أُشعلت المشاعل عندما سمعوه يقترب، عندها جلس على صهوة الحصانة مظهرا ثقة بالنفس، عندما رأى رجلين ينظران إليه، كان أحدهما يحمل جعبة مياه كبيرة والآخر طبقا كبيرا من اللحم المطهو على البخار، الذي كان يقطر ماء من وعاء الغلي. وكان هناك حصان آخر أخرج من الإسطبل، وجهز للانطلاق.

سأله الرجل الذي يحمل طبق اللحم: «من أنت؟».

فأجابه بسرعة: «أنا من كاراكورم، وأنقل رسالة مستعجلة، لكن من أنت؟».

أجاب الرجل: «عذرا». وهو ينظر إليه بارتياب، عندها ترجل كوبلاي، ولم يكن أول شخص يفكر في سرقة حصان بتلك الطريقة، ولكن نوعية الأحصنة لديهم كانت تبعد اللصوص. رأى كوبلاي الرجلين يومئان إلى بعضهما، وعندما كان الرجل على وشك التحدث مجددا، تناول كوبلاي بعض اللحم من الطبق وأخذ يمضغه.

«إن كنت من كاراكورم، لا بد أنك تعرف رئيس يام هناك».

فأجابه كوبلاي، وهو يمضغ اللحم: «تيرايدن؟ النصراني ذو اللحية الحمراء الكثة؟ إنني أعرفه حق المعرفة».

لقد كان اختبارا سهلا لرجل ترعرع في المدينة، بالرغم من أن نبضات قلبه تسارعت عندما فكّر في أن أمره قد يُكشف. وكمحاولة لإخفاء توتره امتطى الحصان الجديد، وعلّق حقيبته على كتفه، وتناول بعضا من النبيذ المخلوط بالماء، لقد كان طعمه ماسخا، ولكنه بعث في جوفه شيئا من الدفء.

قال كوبلاي: «سأخبره أنكم تبقون على الأحصنة بحالة جيدة هنا». ثم أمسك اللجام، وتقدم نحو البوابة. في تلك الأثناء، كان الرجلان يفكان السرج عن الحصان المتعب، وعندما لم يكبّد أحد نفسه عناء الرد على كوبلاي انطلق مبتعدا عن الضوء، وشيئا فشيئا أخفاه الظلام. ابتسم كوبلاي وتابع طريقه نحو الشمال، لقد انطلت الخدعة عليهما، وستنطلي على غيرهما، فلم يكن لديه سوى الحيلة، إن أراد المضي قدما، وسبق جيش الخان، فلم يكن هناك أسرع من يام في إيصال الرسائل، إلا أنه لم يكن يثق بأحد ليخبر باتو عن الخطر المتوجه إليه.

بعد أن غادر كوبلاي، فكّر أحد رجلي يام، أنه لم يسبق له أن رأى عينين أشد صفارا، وتذكر أنه سمع أن عيني جنكيز خان كانتا شديدتي الصفار، عندها فرك الرجل جبينه، واستغرق في التفكير، إلا أنه بعد حين عاد ليكمل عمله.

* * *

راقب الرجال الأربعة الممر منذ أربعة أيام، وانقسموا إلى مجموعتين من أجل اصطياد أرنب يؤمن لهم عشاء في المساء، فهناك منطقة مكتظة بالأرانب بالقرب منهم، وهذا ما سهّل أمر وضع الفخاخ عند الحفر. إن موقعهم يتيح لهم رؤية جيدة للطريق، لذا أمضوا وقتهم يتكلمون، أو

يقامرون بعظام المفاصل، أو يصلحون بعض المعدات، وهم ينتظرون بفارغ الصبر مضي اليومين الباقيين لهما، قبل أن يغادروا موقعهم ويستريحون.

لقد شعروا بالحماسة عندما رأوا مجموعة من الباعة المتجولين تمر بالقرب منهم، ولكنهم لم يهتموا بأمر البضائع التي حمّلوها على عربة يجرها حصان أبيض هرم، فتركوهم يمضون في سبيلهم.

قال باريخ وهو الأصغر بينهم: «أرى شخصا يتقدم نحونا».

اقترب الثلاثة الآخرون من حافة موقعهم، ونظروا إلى الأسفل بحذر حتى لا يظهروا رؤوسهم، كانت أقواسهم ملفوفة جيدا لتقاوم الرطوبة، وملقاة من دون استعمال، لذا لم تتمدد الأوتار، وضع كل واحد منهم سلاحه في مكان يسهل الوصول إليه، ويتيح له إطلاق السهم بلمح البصر. جلسوا يترقبون لاعنين ضباب الصباح الذي صعّب عليهم الرؤية، والذي بدا أنه منبعث من الصخور الحارة.

بالرغم من الضباب، رأوا رجلا وحيدا يمشي ببطء، يجر حصانا هزيلا، بدا منكس الرأس، ومن ملامحه ظنوه صيادا عائدا إلى دياره بعد ليالٍ طويلة أمضاها في الصيد أو البحث عن حيوان ضائع. تاريل هو الأكبر بينهم والأكثر خبرة، وكان رفاقه يأخذون رأيه قبل أي شيء يقدمون عليه، فهو رأى الكثير في المعارك التي خاضها والأفخاخ التي نصبها، وبما أن صدى الأصوات يتردد بعيدا في الجبال تخاطب باريل مع باريخ بالإشارة، ليستطلع أمر الشخص الذي يتقدم نحوهم، انتظره الباقون حتى وصل إلى مكان يتيح له رؤية أفضل، عندها رفع باريخ يده، معلنا أن ما من خطر في الأرجاء.

عندها شعر تاريل بالراحة وقال: «رجل واحد فقط، ابقوا هنا ولا تسرقوا طعامي، سأذهب إليه».

نزل المنحدر الصخري بشكل ظاهر، وعمد إلى إحداث ضجة كي لا يوتّر الغريب، فقد سبق له منذ سنوات، أن رأى ضابطا مسؤولا يقتل في سمرقند عندما كان مختبئا في الظلال، وعندما مر بالقرب منه أحد اللصوص، رمى بجسده عليه، لكي يرعبه، ونجح في مسعاه، ولكن الرجل المرعوب طعنه بسكين كرد فعل على رعبه، في تلك الأثناء ابتسم تاريل لذكرى الضابط المقتول.

ما إن وصل تاريل إلى الطريق، حتى وجد نفسه على مقربة من الغريب، فتبين ملامحه كان فارع الطول، شديد التعب، إلى درجة أنه لم يكن قادرا على تحريك قدميه، وكان الغبار يغطيه بالكامل.

شعر كوبلاي بتاريل ينظر إليه، فرفع رأسه، وبادله النظرة، كانت يداه على خصره، ولكنه رفع ذراعيه متجهما ليريه أنه أعزل.

فسأله تاريل: «فارس يام؟».

فأجاب كوبلاي بسرعة: «أجل». وبدا عليه الغضب لأنه سار على غير هدى عبر الهضبة، وهذا ما أضاع عليه أياما لا تقدر بثمن، وجعل مصير كل ما حققه حتى الآن رهن مشيئة اللصوص، وندم أشد الندم لأنه تخلى عن سلاحه.

سأله تاريل: «لمن الرسالة؟». هناك شيء في الرجل أشعره بالارتياب، بالرغم من أنه لم يستطع أن يحدد ما هو. بالرغم من كل التجهم الذي كان فيه، لمعت عيناه الصفراوان، ولأكثر من مرة وضع يده على خصره حيث اعتاد أن يعلّق سيفه، وكان من الغريب أن يسافر فارس يام من دون سلاح.

قال كوبلاي: «لا أحد يوقف فارس يام، والرسالة ليست لك بغض النظر من أنت».

ابتسم تاريل ابتسامة عريضة، فلم يكن الرجل أكبر من باريخ بكثير، ولكنه تحدث بطريقة من اعتاد على سلطة إصدار الأوامر، وهذه الطريقة في التحدث غير مألوفة بالنسبة إلى فرسان يام، لقد بدا أنه لا يقبل أن يُستفز.

قال تاريل: «أخشى أن يكون أي جاسوس قادر على قول الشيء نفسه الذي تفوّهت به».

للحظة حدق كوبلاي إلى السماء وسأله: «جاسوس على حصان يام، يحمل حقيبة جلدية؟ ولا يحمل أي شيء قيم؟».

أجابه تاريل: «نحن لسنا لصوصا أيها الشاب بل جنود، وهناك فرق بين الاثنين، ولكن عليّ الاعتراف أن الفرق غير بيّن دائما». فاجأته الطريقة التي وقف فيها كوبلاي، والنبرة الآمرة التي سأله فيها: «أنت تحت إمرة أي ضابط؟».

أجابه تاريل: «الضابط يمكث على بعد مئة ميل من هنا، ولا أظن أنني أرغب أن أقلقه بأمرك أيها الشاب».

سأله كوبلاي: «ما اسمه؟». لقد كان هناك عشرة ضباط مشرفين في كل جيش، وكان تقريبا يعرف أسماءهم جميعا.

انزعج تاريل من النبرة الآمرة، بالرغم من أنه كان يتساءل عن سبب عنفوان هذا الشاب، سيما وأنه وحيد وأعزل ويبعد مئات الأميال عن أي مكان يمكن أن يستنجد به، لكن الهالة التي أحاطت بالشاب جعلت تاريل يعيد التفكير بكلماته.

فقال: «أنت لا تشبه رجال يام الذين سبق لي أن رأيتهم».

ردّ عليه كوبلاي: «ليس لديّ وقت لما تقوله، أخبرني عن اسم الضابط أو أفسح لي الطريق». وقبل أن يجيب تاريل، ربت كوبلاي على حصانه، الذي بدأ يتقدم نحو الجندي.

تردد تاريل، الذي قرر أن يسقط الرجل عن صهوة حصانه، عَلِم أنه لن يكون موضع لوم إن أقدم على ذلك، ولكنه شعر بشيء يلجمه عما نوى أن يقدم عليه، فقد بدت الأمور وكأنها في غير نصابها الصحيح منذ أن بدأا الحديث.

قال: «إنه خويل دار». عقد تاريل العزم على إسقاط الفارس إن قرر العبور من أمامه، لكن الفارس توقف، وأغمض عينيه، وأومأ.

«حسنا، الرسالة إلى سيده باتو من بورغيغين. وهي تُلقى على مسمعه فقط. لذا، خذني إليه».

سأله تاريل متجهما: «لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟».

«ها قد قلت».

8

لم يدر كثير من الحديث عندما كان تاريل وباريخ وكوبلاي يعبرون الجبال.

لقد تركوا رجلا واحدا خلفهم ليحرس الطريق، بينما عاد الرابع ليخبر الضابط. ارتاح حصان كوبلاي الواهن مع بقية الأحصنة، وأُعطي بدلا منه أصغر أحصنة فريق الاستطلاع، وقد كان حيوانا مزعجا يحاول العض متى ما شاهد إصبعا.

شارك باريخ المياه مع فارس يام الغريب، ولكن لم يكن أي من كوبلاي أو تاريل في مزاج يتيح لهما التحادث، فكانت جهوده بلا منفعة. وبوجود تاريل في المقدمة، اتبعوا طريقا عريضا يقود إلى الهضاب. لم يتمكن كوبلاي من رؤية الجبال في الأفق، وكان مكان وجوده غامضا حتى في الخريطة المرسومة في عقله. كان الهواء نقيا وصافيا، واستطاع الرؤية لمسافة أميال بينما كانوا يتقدمون.

قال كوبلاي: «لقد خسرت يوما بسبب الحصان الهزيل، لذا يجب أن نسرع».

سأله تاريل مباشرة: «لماذا؟» وحدق بالفارس الغامض الذي كان يأمرهم كما لو أنهم خدم لديه. وكلما نظر تاريل إلى باريخ لم يستطع أن يصدق الاهتمام الذي يمنحه للغريب، ولم يكن من المعتاد أن يتمتع فارس يام بمثل هذه السلطة، فأدرك تاريل أنه ضابط على رأس عمله، ويتخفى بصفة فارس يام، وظن أنه لن يحصل على جواب من كوبلاي إلا أنه في النهاية قال على مضض: «هناك جيش يسير خلفي، وسيكون هنا في غضون أسبوع أو عشرة أيام. لذا سيحتاج سيدك إلى كل دقيقة تحذير نعطيه إياها».

فغر باريخ فاهه وفقد تاريل تجهمه، وفجأة بديا قلقين.

وسأله: «أهو جيش جرار؟».

عندها ركل كوبلاي حصانه بكعبه وأجابه: «ستعلم ذلك عندما أوصل الرسالة إلى سيدك».

تبادل باريخ وتاريل النظرات، قبل أن يجعلا حصانيهما يعدوان.

بينما كان كوبلاي على صهوة حصانه، حاول تقييم الإمكانيات الدفاعية للأرض من حوله، وبدا كأن باتو قد صنع مخيما في وادٍ تحيط به سلسلة من الهضاب، وفكّر في التقارير التي كان قد قرأها في مكتبة كاراكورم، ففي عهد جنكيز دمر الجيش حصنا للقتلة، وفككوه حجرا تلو الآخر. لم يكن باتو ليبني حصنا يصمد أكثر من ذلك.

أحضر كوبلاي معه أسوأ الأخبار، ربما يجب على باتو أن ينقل شعبه بعيدا، فمع قدوم جيش الخان كان على باتو أن يهرب ويستمر في الهرب، وكان احتمال عدم القبض عليه وذبحه ضئيلا، فكشافة الخان وفرق استطلاعه تتقدم بثبات بين المرتفعات والوديان.

كانت الطريق عبارة عن منطقة غابات كثيفة، وكان هناك ممر صغير أنشأته الحيوانات فاتبعوه، ستبطئ الغابات من سرعة تقدم جيش غويوك، وتجبره على السير كفيلق واحد، وبما أنهم سيتوقعون الأفخاخ والكمائن، فسيزيدون من حذرهم، وهذا ما سيجعلهم متخلفين عن كوبلاي أياما.

هزّ كوبلاي رأسه مبعدا الكرب عن تفكيره خصوصا وأنه يسير في منطقة شبه مظلمة، شكّلت فيها الأغصان ما يشبه ستارة حاجبة لأشعة الشمس. فقد كوبلاي الإحساس بالوقت والمسافة، ولكن الشمس كانت توشك على المغيب عندما وصلوا إلى الحلقة الداخلية لمخيم الكشافة، فتوقف تاريل ليتزود بالمياه، ويفرغ مثانته بالإضافة لتبديل الأحصنة، وترجل كوبلاي عن حصانه ليقوم بالمثل، عندها أصدر حصانه صوتا بسبب التعب الذي حل به.

بشكل حذر امتطى كوبلاي حصانه الجديد، ولحق بتاريل وباريخ، مخلفين المعسكر الداخلي للكشافة وراءهم. حل الظلام بسرعة، وشعر بالضياع كليا. لو أن تاريل لم يقد الركب لكان كوبلاي تائها كليا ومن المستحيل أن يجد طريقه.

بدت الغابة بلا نهاية، حتى أن كوبلاي بدأ يغفو بينما الحصان يمشي، وأخذ رأسه يتحرك مع كل خطوة، لم يسبق له أن شعر بهذا القدر من التعب في حياته.

اختفت الممرات، وتساءل كوبلاي إن كان تاريل هو الآخر تائه، فهم لم يكونوا قادرين على رؤية النجوم ليعرفوا الوجهة. بدا الأمر وكأنه كابوس بينما كانت أحصنتهم تتسلق العوائق وتشق طريقها عبر الشجيرات من خلال أوامر حادة تصدر من الرجال الثلاثة الذين يقودونها، وكانت الأغصان والأشواك تخدشهم كلما تغلغلوا في الغابة أكثر.

شيئا فشيئا ظهر البدر، وأعاد ضوؤه الفضي الغابة إلى الواقع، كان كوبلاي مبللا بالعرق، ولم يكن يقوى على رفع رأسه، كما أن ظهره كان يؤلمه، وكان يتراجع أحيانا، محاولا أن يخفف من وخزات الألم. نظر تاريل إليه بازدراء، ولكن الجندي لم يكن قد امتطى حصانة طيلة شهر بشكل متواصل، محرقا ما خزّن جسمه، ومتناولا القليل من الطعام إلى أن أصبحت عظام جمجمته واضحة.

وصل كوبلاي إلى مرحلة جعلته يستاء من باتو بمرارة، من دون سبب. علم أن الرجل لن يقدّر أبدا ما مرّ به لينذره قبل وصول جيش غويوك، لكن مزاجه كان يتحسن مع الضوء وهذا ما أبقاه ثابتا.

عندما أشرقت الشمس، شعر كوبلاي أن الأشجار تبدو مثل الأشباح بسبب الظلال، ولكن ذلك أصبح مجرد ذكرى غريبة، تأتي على شكل ومضات غير متزامنة، رفع رأسه إلى السماء عندما أصبحت الغابة أكثر دفئا، وفتح عينيه ليرى أنهم قد عبروا الأشجار أخيرا.

كان هناك واد أمام الغابة. نظر كوبلاي إلى الأمام، فوجد جدارا جديدا من الأشجار. لم يكن هذا مرجا طبيعيا، بل عمل سنوات وعمل آلاف الرجال لتنظيف الأرض حتى تتمكن عائلات باتو من الاستقرار بسلام، فالغابات تمتد حولهم لآلاف الأميال في كل الاتجاهات، وللمرة الأولى فكّر كوبلاي كيف استطاع باتو إيجاد مكان كهذا، فقد كانت أشجار البلوط والزان تحجب رائحة نيرانهم.

لم يبقَ خبر وصولهم مجهولا لوقت طويل فحين خرج الرجال من الغابة كان هناك أصوات بكاء وصراخ، تأتي من بعيد، من جهة مجموعة المآوي والخيم، تجمع الجنود وتقدموا نحوهم. نحّى كوبلاي التعب جانبا، وعلم أنه يجب أن يبقى متيقظا إلى أن يحين موعد الاجتماع. أمسك بجعبة مياهه، وألقى بالماء الدافئ على وجهه، وأخذ يفرك الشعر الخشن على ذقنه وأعلى شفتيه، محاولا تخيل كم يبدو قذرا ورث المظهر، فهو لم يعد مضطرا للتنكر بزي فارس يام، لأنه لم يعد في الحقيقة شيء يميزه عنهم.

اقترب الجنود على أحصنتهم الجديدة، وبدا عليهم الحرص الشديد. فرك كوبلاي عينيه، وهم يقتربون محاولا تخفيف ألم رأسه، وعلم أنه يحتاج إلى بعض الطعام وإلا سيُغمى عليه قريبا.

عندما فتح الضابط فمه ليبدأ الحديث رفع كوبلاي يده.

«أنا كوبلاي ابن توروغين، ابن عم باتو وأمير الأمة». كان مدركا لوجود تاريل وباريخ اللذين لم يخبرهما شيئا. «خذوني إلى سيدكم حالا، لأنه يجب أن يسمع ما أنقله».

أغلق الضابط فمه، محاولا إقناع نفسه أن هذا المتسول القذر هو أمير، وعندما لمعت عيناه الصفراوان، تذكّر ما سمعه من وصف عن جنكيز خان فأومأ.

قال كوبلاي: «اتبعوني». وقاد حصانه. ثم أردف: «أريد طعاما وبعض النبيذ».

لم يجب الجنود، وتبعوه. راقبه تاريل وباريخ وبديا متفاجئين. لقد شعرا بالمسؤولية تجاه الرجل، ولكن كانا مجبرين على الرحيل والعودة إلى الهضاب.

بعد قليل قال تاريل: «ربما من الأفضل نبقى هنا لنرى ماذا سيحصل، كما يجب أن نأكل شيئا قبل أن نقدم التقرير».

في الوقت الذي دخل فيه كوبلاي المخيم، رأى القذارة في الطرق التي تفصل بين المآوي، بعضها كان خيما كالتي اعتاد عليها، بينما كان بعضها الآخر مبنيا من الأخشاب، التي حصلوا عليها من قطع الأشجار بهدف توسعة مساحة المخيم، رأى مئات من المآوي، لقد تكاثرت عشرات العائلات التي رافقت باتو في البدء، توقع أن يرى مخيما شبه فارغ، ولكن ما وجده مخيم يقطنه شعب نامٍ. إن وفرة الأخشاب أتاحت للعائلات تشيد منازل متينة تتألف من أكثر من طبقة، وعندها تساءل كيف يمكن لقاطنيها الهرب منها في حال شب حريق فيها، كما لاحظ باتو أن الحجارة نادرة، وأن رائحة الزان والبلوط تفوح في أرجاء المخيم.

عندما توقف الضابط أمام أحد المآوي الكبيرة، أدرك كوبلاي أن الأفكار بارحته، ولم يصدق عينيه، عندما رأى باتو أمامه يستند إلى عمود خشبي، مكتفا ساعديه أمام صدره. نبح كلبان عندما رأيا شخصا غريبا يدنو من سيدهما، حتى أن أحدهما بدا مستعدا لمهاجمة كوبلاي، قبل أن يربت باتو عليه، مهدئا من روعه.

بدت السعادة في عيني باتو وهو يقول: «كنت فتى أغرّ في آخر مرة رأيتك فيها، أهلا بك ضيفا في مخيمي».

لم تعد قدما كوبلاي قادرتان على حمله، وكاد يسقط أرضا لو لم تسنده يدان قويتان، فشكر من أسنده، عندها سمع باتو يأمر الرجل قائلا: «اجلبه إلى هنا قبل أن يسقط».

من الداخل بدا منزل باتو أكبر مما بدا عليه من الخارج، ربما لأنه كان مساحة كبيرة مفتوحة ليس فيها إلا قليل من الفواصل، بالإضافة إلى درج خشب يؤدي إلى ما ظنه غرف النوم. أما المساحة المفتوحة فكانت مليئة بالآرائك، والطاولات، والكراسي المبعثرة بشكل عشوائي، تقدم كوبلاي الجنود عند المدخل، إلا أنه توقف ليدع الكلبين يشمان رائحة يديه بالرغم من أن أحدهما كان يراقبه مثل الرجلين الذين كانا يقفان خلفه ليفتشاه، فوقف بصبر ليتيح لهما البحث عن أي سلاحه معه، وهما شبه متيقنين أنهما لن يجدا شيئا، في تلك الأثناء رأى أطفالا ينظرون إليه من الطابق الأعلى، وعندما ابتسم لهم اختفوا.

ما إن فرغ الجنديان من تفتيش كوبلاي حتى بادره باتو بالقول: «تبدو مرهقا».

لقد تدلى سيف من جانب باتو، ولاحظ كوبلاي، أنه كان مستعدا لاستلاله بمجرد أن يبدي كوبلاي أي تصرف مقلق. لم يكن باتو عديم الخبرة في أمور الأمن والسلامة الشخصية، وهو الذي يعرف القصة التي تتناقلها الألسن، عن جده الذي قتل ذات مرة بقطعة من درعه، وذلك بعد أن فُتش وتبين للجميع أنه أعزل. لكن كوبلاي كان أعزل بالفعل وما من شيء يحمل على الشك به، وهو الذي يرتدي ثوبا فضفاضا تفوح منه رائحة البول والعرق.

أجابه كوبلاي: «لا تشغل بالك بالأمر، لقد أتيت من كاراكورم، لقد كلفتني والدتي بنقل رسالة إليك».

شعر بالراحة، لأنه تمكن بعد كل هذه المشقة التي تكبدها من الوصول إليه، ثم سأله ابن عمه: «أتسمح لي بالجلوس؟».

أجابه باتو: «بالطبع، تفضل هنا».

أعطى باتو أوامره لإعداد الشاي وتحضير الطعام، فأسرع أحد الجنود لتنفيذ طلب سيده.

كان الشخص الآخر صغيرا ونحيلا، وبدا من ملامحه أنه من تشن. وقف الجندي عند الباب، ولاحظ كوبلاي كيف غمز بعينه المعطوبة إلى الأطفال قبل أن يعاود النظر أمامه.

قال كوبلاي: «شكرا لك، لقد كانت رحلة طويلة، وأتمنى أن تكون الرسالة التي أحملها مناسبة لك، لقد كلفتني والدتي بأن أحذرك أن غويوك في طريقه إليه، فقد تحرك بجيشه من كاراكورم، لقد تبعتهم لعدة أيام حتى تأكدت أنهم يتجهون شمالا، وحاولت أن أبقى متقدما عليهم، ولكن لا يمكن أن يكونوا على بعد أكثر من أسبوع، أعتذر لهذا».

قال باتو: «كم فيلقا معه؟».

«عشر، مع حمولتين أو ثلاثة لكل رجل».

«هل لديهم مقاليع أو مدافع؟».

«كلا، هناك العديد من الأفران فقط، وكل الحمولات كانت على الأحصنة الاحتياطية، على الأقل هذا ما رأيت يا ابن عمي، لقد خاطرت أمي بالكثير في إرسالي إلى هنا، وإن علم...».

أجاب باتو: «لن يصدر هذا مني، أعدك بهذا». ونظر بعيدا بينما كان يفكر بما سمع، وعندما انتبه إلى أن كوبلاي يحدق إليه بصمت، عاد وحاول التركيز.

«شكرا يا كوبلاي، لن أنسى هذا أبدا. أعتقد أنني بحاجة إلى أكثر من أسبوع حتى أصبح جاهزا، ولكن الوقت المتوفر سيكون كافيا».

صُدم كوبلاي وسأله قائلا: «إنه يملك مئة ألف جندي، قل لي إنك لا تفكر في محاربته؟».

ابتسم باتو: «لا أظن أنه يُفترض بي مناقشة هذا معك، يا ابن عمي. استرح هنا لعدة أيام، تناول الطعام واستعد قوتك، قبل أن تعود إلى المدينة مجددا. وإن نجوت، أبلغ والدتك تحياتي وشكري لها».

تابع كوبلاي: «أخي مونغ برفقة الخان، إنه قائد جيش غويوك، وأنت تعلم أنه ليس أحمق. فأين المنطق يا باتو! لقد أتيت محذرا إياك كي تهرب وتنجو».

نظر باتو إليه وهو يرى التعب المريع الذي بدا في الطريقة التي ضرب فيها كوبلاي على الطاولة.

«إن ناقشت الأمر معك، فلن يعود باستطاعتي تركك تغادر، هل تفهم هذا؟ إن رآك أحد كشافة غويوك واكتشف أنك تملك معلومات فهذا شيء سيئ».

قال كوبلاي: «لن يتجرؤوا على تعذيبي».

هزّ باتو برأسه.

«صحيح، ولكن إن أعطاهم غويوك أمرا بذلك سيختلف الوضع، أنت يا صديقي تعطي نفسك أهمية أكثر مما أظن أن غويوك يريد، أستطيع تقدير أن والدتك نجت لأن مونغ دعم غويوك

بإخلاص شديد».

كان كوبلاي قد حسم أمره، لأنه لا يستطيع تخيل نفسه يركب الحصان مرة ثانية، أو يستعيد ذلك الشعور.

«سأبقى معك إلى أن ينتهي كل هذا، والآن أخبرني أنك لا تفكر في مواجهة جيش الخان، الجيش الذي احتل ين كينغ، وحطّم حصن القتلة، وأذل قبائل الأفغان! ما الذي تملكه؟ اثنا عشر ألف محارب كحد أقصى، وبعضهم لا يزالون صبية غير مدربين؟ سوف تكون مجزرة».

وصل الطعام والشاي، بدأ كوبلاي بتناول الطعام، واذهب جوعه أي اهتمام آخر. فتناول باتو كوبا، وبدأ يشرب وهو يراقب بتمعن، فقد كان كوبلاي معروفا بذكائه، حتى جنكيز أشار إلى الطفل الأعجوبة، وقال لإخوته أن يعودوا إليه لإيجاد الحلول. لم يستطع باتو أن يتجاهل رأي كوبلاي بالرغم من أنه كان ضده بالكامل.

قال: «إن هربت فسأهرب إلى الأبد، لقد كنت هناك في المجر يا كوبلاي، أبعد عن الوطن خمسة آلاف ميل. لا يوجد العديد من الأحياء الذين يعلمون مثلي أن الخان لا يمكن تفاديه، سوف يطاردني غويوك إلى نهاية العالم بلا تفكير».

«حسنا، دع الناس يتفرقون في الاتجاهات، دعهم يتغلغلون بين الرعاة الروس، أخبرهم أن يدفنوا دروعهم وسيوفهم، على الأقل سوف ينجون. لا يمكنك أن تصمد يا باتو».

قال باتو: «الغابة واسعة...».

أنهى كوبلاي شرابه، وضرب بقبضته على الطاولة.

«ستبطؤهم الغابة إلا أنها لن توقفهم، لقد تسلق جنكيز الجبال حول جدار تشن مع رجال مثل هؤلاء، أنت تقول إنك تعرف الجيش. حسنا فكّر. إنه وقت الهرب. لقد قدّمت لك بعض الأيام، ما يكفي لتبقى متقدما عليهم. بالرغم من أنه ليس.... لكن هذا كل ما تملك».

«أنا ممتن لك يا كوبلاي، لقد سبق لي أن قلت لك إن هربت، ما هو عدد الأشخاص الذين سيتمكنون من العيش في هذا الوادي بعد سنة؟ بضعة آلاف، بضع مئات؟ لقد كرسوا حياتهم لي، هذه أرضي، لقد أعطاني إياها أوجيدي خان، ولا يحق لأحد أن يأخذها مني».

«لماذا لم تأتِ إلى كاراكورم؟ لو أنك انحنيت له، لو بايعته، ما كان ليتجه بجيشه إلى هنا».

تنهد باتو وفرك وجهه. وللحظة، نظر إلى كوبلاي بنفس الخوف.

«أردت البقاء وحيدا، لم أرد أن يأخذ غويوك مني محاربيّ، أنا أدعم بيدور، ابن تشاغاتي، ولكنه في النهاية اختار ألا يقاتل الخان. لا أستطيع لومه، لم أتوقع أن ينعقد الاجتماع من دوني، ولكنه انعقد. يمكنك القول إنه غرور، ربما غلطة. كان من المحتمل أن تسلك الأمور مسلكا آخر».

«ولكن وبعد ذلك يا باتو؟ عندما اختير غويوك خانا كان باستطاعتك أن تأتي».

شحب وجه باتو: «صحيح، كنت لأفعل ذلك من أجل إنقاذ شعبي. كنت لأركع أمام ذلك العلجوم، وألطخ شرفي».

قال كوبلاي: «ولكنك لم تفعل». عندها شعر بالقلق، عندما رأى غضب باتو يزداد.

«لم يطلب مني القدوم يا كوبلاي، أنت أول شخص أراه من كاراكورم منذ أن أصبح غويوك خانا. عندما رأيتك، ظننت في البدء أنه أرسلك ليطلب مني المثول أمامه، وكنت مستعدا للقيام بذلك». ثم لوّح بيده مشيرا إلى المخيم وأكمل «هذا كل ما أريده. لقد كان خيار أوجيدي جيدا. عندما منحني هذه الأراضي أتعلم هذا؟».

هزّ كوبلاي رأسه بصمت.

أكمل باتو: «عندما أتيت إلى هنا، وجدت القليل من الخيم المتعفنة والمنازل الخشبية في عمق الغابة. لقد دُهشت وتساءلت ماذا يفعل هذا الشعب هنا بعيدا عن الوطن؟ ثم وجدت سرجا مكسورا عليه رمز والدي. يا كوبلاي، كانت هذه هي الأراضي التي استقر فيها عندما هرب من جنكيز. لقد منحت هذه الأرض للابن البكر للخان العظيم. إن روح والدي هنا، وبالرغم من أن غويوك لن يفهم هذا أبدا، لكن هذا وطني، وإن بقي بعيدا فلن أُشكل خطرا عليه».

قال كوبلاي بصوت واهن: «ولكنه قادم، وسيحرق هذا المخيم».

أومأ باتو: «لهذا يجب أن أواجهه، ربما سيقبل تحديا شخصيا بين أحفاد جنكيز. أعتقد أن دراما كهذه ستمتعه».

قال كوبلاي: «لكن يمكن أن يغرز السهام في جسدك قبل أن يتيح لك التكلم. باتو ما أقوله لا يعجبني، ولكنك تعلم أنه لا يجدر بالرجل أن يخاطر بحياته، نحِّ هذ الخطط المثالية جانبا، أنت تقول هذا لأنك يائس، أتفهمك، ولكن يجب أن يكون لديك خيار آخر».

فجأة، توقف كوبلاي عن الكلام عندما خطرت فجأة فكرة في باله، ولاحظ أن باتو يفكر بشيء محدد، عندها نهض واحتضن باتو من دون أي تمهيد.

«ماذا هناك؟ ما خطبك؟».

قال كوبلاي وهو يهز قبضته: «لا شيء».

قال باتو: «دعني أحكم».

نهوض كوبلاي المفاجئ، حمل أحد الكلبين على النباح.

«كلا، لن أستعجل بطرح فكرتي، دعني أمحضها بعض التفكير».

بدأ يمشي في الغرفة. كانت الفكرة التي خطرت له عظيمة، وعلم أنها تستخدم في الحدود الآمنة للمدينة، من دون التفكير في العواقب. وما أن يطرحها لن يعود العالم كما كان. لذا، رفض أن يفصح عن فكرته حتى تتبلور بالكامل في ذهنه.

رأى باتو، كيف أن كوبلاي كان يتحرك بإيقاع ثابت في أرجاء الغرفة، فنظر إليه متأملا أن يكون طوق النجاة في الفكرة التي سيطرحها، عندما كان كوبلاي فتى صغيرا، كان الأثير بين مستشاري الخان، وعندما كان يتحدث، كان الرجال العظماء في مجلس جده يصغون إليه باهتمام.

عندما زحف أحد أولاد باتو تحت الطاولة وتتكور أسفل قدميّ والده، نظر إليه بعبوس، فبادله الطفل نظرة يستشف منها أن الولد يثق أن والده هو أقوى رجل في العالم، وتمنى باتو أن يكون عند حسن ظن طفله.

غادر كوبلاي منزل باتو، ليتحرر من الضغوط التي يمارسها عليه بطريقة غير متعمدة بسبب الآمال التي يُعلّقها على فكرته، فلحق به رجل تشن ذو العين المعطوبة وظل يراقبه. تجاهل كوبلاي التحديق، وتوجه صوب الطريق، ووقف في وسطه، وترك الناس يتجمهرون حوله. كان المخيم كالمدينة، بطرق عريضة تمتد في كل الاتجاهات. ابتسم عندما استوعب أنه ما من طريق مستقيم. وبسبب كثرة الخيم والمآوي، كانت الآثار تزول بسبب الذهاب والإياب عليها ما يجعل المتتبع محتارا. كان هناك طاقة حول هذا المكان، بفعل أصوات الباعة وأصوات أدوات البنائين، عندما كان كوبلاي واقفا في مكانه رأى رجلين يحملان جذعا خشبيا، ويتجهان إلى مكان يجهله،

وبدا أنهما يرزحان تحل ثقل وزن الجذع، وحام حوله رهط من الأطفال الصغار الذين كانوا خليي البال عن المشاكل التي تثقل كاهل الكبار.

عليه القيام بشيء، وإلا لن يكون أمام باتو سوى خيارين لا ثالث لهما، إما يحارب ويُسحق أو يهرب ويظل طريدا، وهو لم يكابد عناء سفر مئات الأميال ليرى باتو وشعبه يبادون، ولكن كوبلاي بايع الخان، وأقسم على حمايته بالخيم والأحصنة والملح والدم، كانت كلمته كالحديد، والآن يشعر بالتشتت والضياع بين قسمه ورغبته.

فجأة، ركل بغضب حجرا على الطريق، وأخذ يقفز، فصرخ أحد الأطفال متفاجئا من الحجر الذي أصابه، ونظر إلى كوبلاي وهو يمسد مكان الإصابة في الحجر، لكن كوبلاي لم يكن يعيره انتباها. لم يلتزم كوبلاي بقسمه عندما أخذ على عاتقه مهمة إنذار باتو بالخطر القادم إليه، ولكن ما كان ينتظره كان أشد.

عندما عاد، رأى باتو يقف عند الباب برفقة محارب تشن معطوب العين، ورأى الكلبين يستلقيان أسفل قدميه، فما كان من باتو إلا أن أومأ له فقال له:

«حسنا، يا باتو لديّ ما أقوله لك».

9

أحب غويوك ليالي الصيف الطويلة، كان الهواء منعشا ودافئا، وشعر بالأمان وهو يشاهد الشمس تبدأ بالتوجه نحو الغرب، محولة السماء إلى آلاف الأشعة الحمراء، والبرتقالية، والبنفسجية. وقف أمام باب خيمة صغيرة، وهو ينظر إلى معسكر جيشه. لقد كان الأمر نفسه دائما، يبنون قرية تصبح مدينة في البرية، وكانوا يحملون كل ما هم بحاجة إليه على ظهور الأحصنة الاحتياطية. شم رائحة اللحم المتبل في الهواء، واستنشق بعمق، شاعرا بقوة سلطته.

امتطى غويوك صهوة حصانه، وتحرك مستمتعا بشبابه وقوته التي بدت ملامحها من خلال لون وجهه الأحمر المفعم بالحيوية، رافقه جنديان، لا يكفان عن التجول بأعينهما في الأرجاء بحثا عن أي خطر داهم، أشار إلى خادمه آنار فتقدم نحوه مع النسر، وقد بدا التوتر على النسر والرجل الذي يحمله، عندها رفع الخان ذراعه اليمنى التي كان يغطيها قفاز طويل من أعلى الأنامل وصولا إلى أسفل المرفق، وحمل النسر.

على عكس الصقر دائما ما كان هذا النسر يطارد خوذته. إنه أصلع، وعينيه حادتين وتشعان حماسة. للحظة رفرف بجناحيه بشدة، مخلّفا عاصفة صغيرة جعلت بعض الريش يتطاير، فنظر إليه غويوك محاولا تجنب زوبعة الريش المتطاير، ثم ضرب رأسه، متجنبا المنقار الكبير الذي كان قادرا على تمزيق حلق ذئب.

عندما هدأ النسر، صفّر غويوك صفرة منخفضة، فاقترب منه أحد الضباط مخفضا رأسه، بدا أن الرجل يتمنى أن لا يرى شيئا، كي لا يعلم شيئا عما سيحدث، فابتسم غويوك بحذر، متفهما السبب، فقد كانت حياة الرجل متوقفة على إشارة أو كلمة قد لا تكون في مكانها.

قال غويوك: «سأصطاد شرقا اليوم، هل أحضرت الكشافة؟».

كان قلبه يدق بسرعه واختنق صوته، واكتفى بالردّ من خلال إيماءة، من دون أن ينبس ببنت شفة. سبق لغويوك أن اصطاد سبع مرات هذا الشهر، مفعما بالحماسة أكثر من حماسته لرؤية زوجته الشابة في كاراكورم.

«أرسل الرجال فورا نحو الشرق إن كان هناك حاجة لذلك».

انحنى الضابط من دون أن يرفع عينيه، ووافق غويوك في تعقل.

من دون أن ينبس بكلمة، أومأ الخان لآنار، وبدأ الرجلان يتجهان خارج المخيم. بخفة حمل غويوك النسر الذي كان ينظر بثبات إلى الأمام، وكلما عبرا أمام الجنود رأى غويوك الرؤوس تنحني. تحرك على صهوة حصانه شامخا إلى أن عبر إلى الأراضي العشبية الشاسعة. هناك رعت الأحصنة الاحتياطية إلى جانب آلاف الخيم، وغطى قطيع الأحصنة كثير العدد معظم الأرض، الذي بدا مثل ظل يغطي السهل العشبي، وسهر الجنود ليلا لحماية الحيوانات. رآهما رجلان من بعيد، فامتطيا حصانيهما وتقدما نحوهما حتى تأكدا أنه الخان. في تلك اللحظة تحولا إلى أعميين وأصمين، ثم عادا أدراجهما كأنهما لم يريا شيئا.

بدأ ضوء الليل ينجلي في الظلال عندما عبر غويوك القطيع، ومع كل ميل كان يعبره شعر بحمل ثقيل وجلس على السرج بشكل طولي، وعندما رأى ظلالا بعيدة أمامه تعدّل مزاجه، وقرر أن يطاردها كصبي صغير. من الجيد أن ينحي هموم الحياة جانبا لبعض الوقت، وكان ذلك شيئا يفتقده عندما يعود إلى المخيم، فقد كان يشعر بالمسؤولية تخنقه كعباءة ثقيلة. لقد كانت القيادة حافلة بالمناقشات التكتيكية، والقرارات والعقوبات. تنهد غويوك بعد تلك الأفكار. لقد أحب أن يعيش اللحظات الذهبية التي يستطيع فيها أن يكون على سجيته لبعض الوقت.

على بعد عشرات الأميال شرقي المخيم، وجد وآنار ينبوعا يمر عبر السهول، ينساب في مجراه ويكاد يجف، لم تكن الأشجار كثيفة عند ضفتيه، فاختار غويوك بقعة ظليلة، ليستمتعا بالعزلة.

هذه اللحظات عنت كثيرا للخان، الذي يجد نفسها على الدوام محاطا بالرجال والنساء، منذ أن يبدأ في المشي صباحا وإلى أن يمر أمام آخر شعلة قبل أن يذهب إلى السرير. الوقوف والاستماع بالينبوع والنسيم كانا فرحة بسيطة لا تُقدر بثمن.

أرخى الحبال التي قيدت رجلي النسر، وانتظر استعداد الطائر قبل أن يطلقه من يده ويرميه إلى الهواء. ارتفع النسر بسرعة بفضل جناحيه القويين، وحلق في دوائر افتراضية أعلى الخان

ومرافقه، تأخر الوقت على الصيد، وظن الخان أن النسر لن يبتعد، وأخذ يراقبه بفخر، ريشه الغامق مصبوغ باللون الأحمر، إنه من سلالة مرموقة مثله تماما، ينحدر من طائر كان يملكه جنكيز نفسه حين كان صغيرا.

بدأ النسر بالدوران، رأى غويوك اندفاع النسر وانقضاضه، ثم اختفاءه خلف الهضبة للحظة، ابتسم لأنه يعرف تكتيك الطائر. ولم يلبث النسر أن فاجأ الخان بالقدوم من جانبه بدل أن تأتي من المكان الذي كان يحدق إليه. رأى شيئا ضبابيا يحط إلى جانبه من دون أن يفرد جناحيه، وتوضع، ثم ألقى الحمل، وزعق. صرخ غويوك مادحا النسر، وأطعمه فضلات من اللحم الذي كان يحمله في حقيبته الجلدية، فتناوله النسر بشراهة بينما كان غويوك يعيد تقييده، لو كان هناك ضوء أكثر لاستمر بامتطاء حصانه ليلتقط النسر ثعلبا أو أرنبا بريا، لكن الليل كان على وشك الحلول، فأبقى النسر مربوطا إلى سرجه، فبقي صامتا مراقبا.

بينما كان يدرّب الطير، وضع آنار الذي بدا متوترا كعادته ملاءة حصان سميكة على العشب. في تلك الأثناء، نزع غويوك قفازة الجلدي، ووقف مراقبا آنار. وعندما أظهر الخان أسنانه، كشف عن ابتسامة مفترس، لكن عندما سمع غويوك صوت حوافر قادمه من بعيد وأصوات أجراس زالت ابتسامته. نظر غويوك، بغضب إلى الشخص الذي يحاول الاقتراب، فحتى فارس يام ما كان يجدر به أن يقاطعه في مثل تلك الأمسيات، وبقبضة مشدودة، وقف متأهبا لصاحب الأخبار. للحظة اعتقد أن أحدا أحمق استمتع بفكرة إزعاج الخان، لقد كان يعرف أسماء فرسان يام، وكان ليستمتع بمعاقبتهم.

في البداية، لم يميز باتو في الشفق المظلم، لأنه لم يره منذ أن عادوا من كاراكورم، اقترب الفارس وهو بالكاد يهرول. عندما رفع باتو رأسه شعت عينا غويوك. في تلك اللحظة، علم أنه كان أكثر وحدة مما كان عليه لسنوات، وكان جيشه الثمين بعيد المنال. رأى باتو يبتسم، ثم يترجل عن صهوة حصانه. طرح آنار بعض الأسئلة، لكن غويوك لم يسمع لأنه كان يحاول الوصول إلى حصانه ليستل سيفه الذي كان مربوطا إلى السرج. لقد أثار النسر صخبا لأن الشخص الغريب أزعجه. سحب غويوك الحبل الذي يقيد ساقيها قبل أن يمشي بهدوء، معطيا لنفسه بعض المساحة.

قال باتو حتى يتأكد بأن غويوك لن يحاول امتطاء حصانه ويهرب بعيدا: «ليس هناك داع للعجلة، يا سيدي. لقد كانت الرحلة طويلة ولن تضر بضع دقائق أخرى».

بفزع رأى غويوك أن باتو يضع سيفا عند خصره، وقد استله ليتفحص حده.

حمل غويوك سيف رأس الذئب الذي ورثه، وهو من الفولاذ الأزرق منقوش المقبض. لقد كان ملكا لعائلته منذ أجيال، متوارثا من خان إلى آخر، وقد استمد القوة من مقبضه وهو يلقي الغمد على العشب.

اقترب باتو ببطء، بتوازن محكم وبخطى واثقه. كان الضوء خفيفا والظلام على وشك الحلول، لكن غويوك رأى عيني باتو تتلألأن، كان أصغر من باتو وقد تدرّب على يد خبراء السيف، حرّك كتفيه بخفه، وهو يشعر بأول قطرة عرق تقطر على حاجبه بسبب ضربات قلبه التي تتزايد، لم يكن حملا ليتم تقطيعه من دون قتال، وكان باتو يشعر بالثقة فتوقف، وثبت نظره إلى آنار، مرافق غويوك الذي وقف مصدوما على بعد عشرات الخطوات، فاغرا فاهه كطائر عطش. أدرك غويوك أنه سيقتل إذا نجح باتو باستفزازه. فضبط فكه ورفع نصله.

«هل ستهاجم خان الأمه؟ ابن عمك؟».

قال باتو وهو يخطو خطوة إلى الأمام: «أنت لست الخان بالنسبة إليّ، فأنا لم أبايعك».

توقف باتو مرة ثانية، وسعد برؤيته قلقا، فقد كانت أي ميزة صغيرة مهمة. بالنسبة إلى رجلين لا يرتديان درعا علما أن المعركة ستدوم لبضع دقات قلب. ربما بإمكان شخصين محترفين أن يصمدا قليلا، ولكن بالنسبة إلى المحاربين العاديين، كان طول النصل الذي يحملانه قاتلا. ضربة واحده كانت قادرة على اختراق اللحم والوصول إلى العظم أو بتر أحد الأطراف.

تقدم باتو نحو حصان غويوك، الذي صرخ آمرا «اضرب».

ابتعد باتو عن الحيوان، متوقعا أنه سيركله. لقد رأى كلاهما حرب الأحصنة الخاصة بالفرسان، التي تم تدريبها لتكون سلاحا في المعركة، لكن حصان غويوك لم يفعل شيئا، وبدلا من ذلك هجم النسر فاردا جناحيه، فقفز غويوك في الوقت نفسه مزمجرا بأعلى صوته.

بخوف ضرب باتو الطائر بسيفه قبل أن تصل مخالبه إليه. أخفى الجناحان الجرح عن مرأى غويوك، ولكنه انحرف وحط عند قدمي غويوك. قبل أن يقترب من صدر باتو الذي أحس بلحظة فرح لأن نصله كان عالقا بالطير.

تراجع باتو إلى الخلف محاولا سحب نصله، ولكن النسر حط على ظهره، وكان منقاره يحاول الوصول إليه. للحظة، كانت ذراعاه بعيدتين عن جسمه وممتدتين إلى الأمام. استخدم باتو كل طاقته، وبالكاد استطاع استعادة توازنه.

ابتسم غويوك بالرغم من أنه كان داخليا حزينا على ما أصاب نسره، ولم يتجرأ أن ينظر إليه. كان صوته يضعف تدريجيا.

سخر غويوك من باتو قائلا: «هل اعتقدت أن هذا سيكون سهلا؟ أنا خان الأمة، يا ابن عمي. أحمل روح جنكيز وسيفه. لن يدعني أسقط أمام كلب خائن».

من دون أن يبعد ناظريه عن باتو قال: «آنار امتطِ حصانك، واذهب إلى المخيم لتحضر رجالي، وسأنهي أمر هذه الحثالة بينما أنتظرك».

إن كان يسعى لاستفزاز باتو للقتال فقد حصل على مبتغاه. عندما تحرك آنار إلى حصانه الأبيض، اندفع باتو إلى الأمام، وكان سيفه في يده، وضع غويوك نصله أمامه للحماية، وشخر عندما أحس بقوة الرجل خلف الضربة. انعدمت ثقته وتراجع إلى الوراء خطوة قبل أن يتمسك بالأرض. ومضت ذكرى له من دروسه السابقة: عندما تحاول التراجع، من الصعب التوقف.

كانت ضربة باتو أسرع من أن تُرى، وكان التدريب في طفولته هو الذي أنقذه حيث هرب بفضل غريزته مرتين. كانت الضربات تتوالى وشعر بوخزة في يده، وبدأ يتنفس بصعوبة من شدة تعبه، بينما أبقى باتو فمه مغلقا، وهو ينهال عليه بالضربات، تصدى غويوك لإحدى الضربات التي كادت أن تشطره إلى نصفين كما لو أنه معزاة، كانت رئتاه تصرخان ألما، بالمقابل لم يبدُ على باتو أنه يشعر بالتعب، بل كانت حركته تزداد سرعة. شعر غويوك بوخزة في قدمه عندما تمكن رأس نصل باتو من إصابتها، فخطى خطوة أخرى إلى الوراء، وكاد أن يقع عندما ضرب السيف السيف الآخر، تمنى أن يسرع آنار قدر ما يستطيع، بعد أن أيقن أنه لن يستطيع التغلب على هذا الرجل الذي يستخدم السيف كمن يستخدم الفأس، وأكمل الدفاع بيأس، وهو يشعر بالدم الدافئ يتدفق من قدمه، باحثا عن فرصة واحدة فقط.

نظر ولم يجد أثرا لآنار، وكان غويوك قد وضع نصله أمامه، وهذا ما جعله في موقف ضعيف.

في تلك اللحظة، قفز آنار نحو باتو، وأخذا يتدحرجان على العشب. استطاع غويوك سماع ضربات قلبه، كما لو أن العالم قد أصبح هادئا.

كان آنار أعزل، ولكنه حاول الإمساك بباتو عندما وقف الرجل على قدميه، ليعطي غويوك الفرصة. وجّه باتو ضربتين إلى جانب آنار، وكانتا ضربتين قويتين أزهقتا روحه، بالرغم من ذلك

كانت يدا آنار تمسكان ثوب باتو الواسع، مما أفقده توازنه. تقدم غويوك إلى الأمام غاضبا، فتصدى باتو لأولى ضربات غويوك من خلال وضع آنار أمامه بمثابة درع، قبل أن يتركه يسقط. نبض قلب غويوك بشدة، لكن حركته كانت بطيئة. مزقه سيف باتو قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه. وكان واعيا لكل إنش يتم تمزيقه بالمعدن الذي يخترق صدره من بين أضلعه. التفّ غويوك ومنحه غضبه القوة ليحاول أن يمسك النصل، وأصدر صوتا بينما كان يتمزق من الداخل. وحين لم يتمكن من ذلك لكم وجه باتو، فكسر أنفه وهشّم شفتيه. شعر غويوك أن قوته تضمحل، وكأن المياه تنسكب منه، وأصبحت ضربات قلبه أضعف، وبالكاد كان قادرا على رفع يديه.

سقط سيفه من بين أصابعه وجلس فجأة، كانت ساقاه بلا جدوى. ووقع سيف باتو المنغرس في صدره معه. كان آنار ملقى على الأرض، يختنق بالدم وهو يحاول التنفس. تقابلت أعينهما، ولكن غويوك التفت بعيدا غير آبه لمصير الخادم. أصبحت الرؤية سوداء لديه، وشعر أن باتو يقبض على السيف ويسحبه، من دون أن يشعر بأي ألم، وعندما خرج السيف في النهاية، شعر غويوك أن أمعاءه تخرج، لم تكن نهاية سريعة بل بقي إلى أن فرغت رئتاه من الهواء.

نظر باتو إلى ابن عمه الميت بازدراء. صمد مرافق الرجل لوقت طويل، ولم يقل باتو شيئا بينما جلس ينتظر توقف صوت الاختناق، وكانت العينان اليائستان لا تزالان تحدقان. عندما غادرت الروح جسد كل من غويوك وآنار، ركع باتو على إحدى ركبتيه، ووضع سيفه على الأرض بجانبه، ورفع يدا إلى رأسه ليتحسس الضرر الذي أصابه. كان الدم يفيض كينبوع لزج من أنفه فبصق على العشب ما كان في حلقه.

نظر باتو إلى سيف غويوك بمقبضه الذي على شكل رأس ذئب، فهز رأسه محييا نفسه، وبحث في العشب عن الغمد. تحرك بصعوبة، ثم نظّف النصل قبل إرجاعه إلى غمده ووضعه على صدر غويوك. كان ثوب الخان ثقيلا حينها، ورطبا يقطر دما. لقد كان السيف من حق باتو، ولكنه ترفّع عن أخذه.

قال لنفسه، وهو ينظر إلى وجه غويوك الثابت: «لقد قتلت الخان عدوي».

بفضل معلومات كوبلاي، علم باتو أن غويوك سيترك جنوده ومخيمه الآمن. لقد استلقى لثلاثة أيام وأخذ يراقب، مخاطرا أن يُكشف أمره من قبل الكشافة، وراودته الشكوك، التي كانت أشد وطأة عليه من الظمأ. ماذا لو كان كوبلاي مخطئا؟ ماذا لو كان يبدد أياما هو بأمس الحاجة إليها لينقل شعبه إلى بر الأمان؟ كاد باتو أن ييأس، لكنه أخيرا رأى غويوك يغادر مخيمه.

ظل باتو واقفا وهو ينظر إلى الأسفل، كان ليل الصيف قد أرخى سدوله- بالرغم من أنه كان موقن أنهما لم يتقاتلا لوقت طويل- عندما لمح النسر القتيل شعر بالندم، لعلمه أن سلالة الطائر أتت من جنكيز نفسه. مدّد ظهره، ووقف بشكل أطول، وهو يتنفس الهواء النقي، وبدأ يشعر بالألم جراء الإصابات التي تعرض لها، لم تكن إصابات بليغة، لقد شعر بالحياة تسري في شرايينه، وتنفس بعمق، مستمتعا بإحساس النصر. لم يندم على قرار مواجهة الخان بالسيف. كان يملك قوسا، وكان يستطيع قتل الرجلين قبل أن يعلما أنهما يتعرضان لهجوم، إلا أنه فضّل قتلهما بشرف، قبل أن يقهقه مستمتعا بأنه لا يزال على قيد الحياة، لم يكن مهتما لأمر كيف ستتابع الأمة حياتها من دون غويوك.

بل كان مهتما بأن شعبه سيتمكن من النجاة.

مسح سيفه بجزء نظيف من ثوب الخادم، ولم يحمل نفسه مشقة إخفاء ابتسامته، قبل أن يعيد السيف إلى غمده، ويمتطي صهوة حصانه مرة أخرى.

بذهول وصمت وقف الجنود ومعهم مونغ حول جثة الخان.

بدأت الغربان تنعق حولهم، بينما كانت الشمس تشرق. بدت الأغصان السفلية مليئة بالطيور السوداء ونزل أكثر من واحد منها إلى الأرض، فاردا جناحيه ناظرا إلى اللحم الميت. عندما ترجل مونغ عن حصانه، ركل أحد المحاربين غرابا، بالرغم من أنه طار قبل أن يصيبه.

كان غويوك مستلقيا حيث وقع، وسيف والده على صدره. مشى مونغ بين الرجال، وانحنى على جثة الخان، أخفى مشاعره خلف الوجه البارد الذي كان على كل محارب أن يتقنه، وقف هناك لوقت طويل، ولم يتجرأ أحد على الكلام.

أخيرا قال: «لو أنهم لصوص كانوا ليأخذوا السيف، نمّ صوته عن غضب، بعدها التقط السيف، وسحبه من النصل، ليتبين له أنه نظيف، قبل أن يلقي نظرة على قماش ثياب مرافق الخان القتيل.

فجأة سأل مونغ أقرب كشاف: «ألم ترَ أحدا؟».

ارتجف الكشاف وهزّ رأسه وهو يجيب: «لم أرَ أحدا سيدي، عندما تأخر الخان خرجت للبحث عنه، وعندما عدت وجدتك هنا».

نظر مونغ إليه بعينين يتطاير منهما الشرر، فما كان من الكشاف الخائف إلا أن أشاح بنظره بعيدا.

عندها قال مونغ بصوت واهن: «لقد كانت مهمتك اكتشاف الأراضي جهة الشرق».

قال الرجل من دون أن يجرؤ على النظر إلى الأعلى: «سيدي، لقد أمر الخان أن يعود الكشافة». تعرق الكشاف بشدة إلى حد أن إحدى القطرات نزلت على خده كما لو أنها دمعة، وارتعد عندما شهر مونغ سيفه، إلا أنه لم يتراجع ووقف منكسا رأسه.

تحرك مونغ بهدوء، وضرب عنق الرجل فاصلا رأسه عن جسده، فسقط ميتا، عندها نظر مونغ إلى الجثتين الأخريين، متمنيا لو أن كوبلاي كان هنا. بالرغم من احتقاره لملابس وعادات تشن، فقد كان واثقا أن كوبلاي برجاحة عقله، كان سيمن عليه بنصيحة لا تُقدر بثمن. شعر بالتوهان، فقتل الكشاف لم يعد عليه بنفع، سوى أنه فرغ بفعلته تلك الغضب والإحباط اللذين يشعر بهما.

لقد قُتل الخان وبصفته قائدا للجيش، انتقلت المسؤولية إليه، اعتصم بحبل الصمت لوقت طويل، قبل أن يتنفس بعمق، ويفكر. لقد ضحى والدي تولوي بحياته من أجل إنقاذ أوجيدي، لقد كان برفقة والده، وكان أكثر من أي شخص آخر يفهم معنى الشرف، والمتطلبات التي يفرضها عليه موقعه، وما كان ليتصرف بخلاف ما تصرفه والده.

ثم قال: «لقد فشلت في حماية سيدي، ستكون حياتي ثمنا لذلك».

اقترب أحد القادة بينما كان يقف قرب جثة الخان. إنه إليوجي أحد المحاربين القدامى في حملة تسوبوداي العظيمة إلى الغرب. إنه يعرف مونغ منذ سنوات، وبسرعة هزّ رأسه عندما سمع ما قاله مونغ، وقال: «إن موتك لن يعيده إلى الحياة».

التفت مونغ إليه، وقد أصبح وجهه أحمر من شدة الغضب. وقال: «يجب أن أتحمل المسؤولية».

أحنى إليوجي رأسه حتى لا تلتقي أعينهما، ورأى مونغ يقلب السيف في يده، وقد أمسكه باستقامة، متقدما منه بلا وجل.

«هلّا بترت رأسي يا سيدي أيضا؟ يجب أن تضع غضبك جانبا، لا يجدر بك أن تسعى إلى الموت، على الأقل ليس اليوم، فما من قائد للجيش سواك. نحن بعيدون عن الوطن، إن مت أنت أيضا فمن سيقودنا؟ لقد مات الخان والأمة بلا قائد، ومحاطة بالكلاب، ونحن لا نعلم إن كنا مقدمين على فوضى أم حرب أهلية؟».

شيئا فشيئا أجبر مونغ نفسه على أن يفكر أبعد من الجثث المستلقية أرضا.

لم يعش غويوك بما يكفي ليكون وريثا، كان مونغ يعلم بوجود زوجة شابة في كاراكورم بالرغم من أنه لم يستطع تذكره اسمها. فكّر في والدته سورهاتانا، وكان الأمر كما لو أنه سمع صوتها في أذنيه. لم يكن باتو وبيدور يحظيان بدعم الجيش، وبصفته قائدا للجيش كان الشخص المناسب لحكم الأمة، أخذ قلبه ينبض بسرعة، وتسارعت الأفكار في رأسه، وشعر بأن من حوله قادرون على سماع نبضات قلبه وصدى أفكاره. لم يسبق له أن حلم بذلك، ولكن الواقع فرض نفسه عن طريق الجثث التي كانت أمامه. نظر إلى الأسفل إلى وجه غويوك الشاحب.

همس مونغ للجثة: «لقد كنتُ مخلصا». وفكّر في حفلات غويوك في المدينة التي كانت تزعجه. وبعلمه بذوق الرجل لم يكن مونغ مرتاحا لغويوك، ولكن ذلك كان في الماضي. كان ينازع رؤيا مستقبلية، محاولا أن يتصوره. ومرة أخرى، تمنى لو أن كوبلاي هنا، بدل أن يكون في كاراكورم على بعد آلاف الأميال، فكوبلاي كان ليعلم ماذا يفعل، وماذا يقول للرجال.

قال مونغ لإليوجي: «سأفكر في الموضوع، لف الجثة وجهّزها للسفر». ونظر إلى جثة خادم غويوك التعس، وقد انتبه لبقعة الدم التي انسكبت من فمه. فأتته رؤيا وتحدث فقال: «لقد مات الخان بشجاعة، وهو يحارب قاتله. أعلِم الرجال بذلك».

قال إليوجي وعيناه تسطعان: «هل أترك جثة القاتل؟». لم يكره أحد الكذب مثل محاربي المغول. وكان من الممكن أن يكون هذا حقيقيا ولكنه كان يتساءل كيف تم تنظيفه ووضعه على الرجل الميت.

فكّر مونغ لبعض الوقت قبل أن يهز رأسه.

«كلا، قطّعه وارم القطع في الحفر ليلا، دع الذباب يحظى بوليمة صباحا».

انتحى إليوجي منفردا عند سماع الأمر. اعتقد أنه قد رأى شعلة طموح في عيني مونغ، وكان واثقا أن الرجل لن يرفض الحق في أن يصبح الخان، بغض النظر عن الطريقة التي حصل بها ذلك.

لقد احتقر إليوجي غويوك، وشعر بالراحة عندما فكّر أن شخصا مثل مونغ سيقود الأمه. لم يكن يملك وقتا لتأثير تشن الماكر الذي أصبح جزءا من ثقافة الأمة. سيحكم مونغ كما فعل جنكيز، بصفته خانا تقليديا للمغول، وحاول إليوجي ألا يبتسم، بالرغم من أن قلبه كان مفعما بالفرح.

قال بصوت ثابت: «لتكن مشيئتك يا سيدي».

10

استغرقت إعادة الجنود إلى كاراكورم شهرا، مشوا نصف الوقت متحررين من أوامر غويوك، كل يوم، وقبل الضحى، كان مونغ يحضّر الرجال ليمشوا في خطوات ثابتة، ويستغلوا كل توقف لتناول الطعام والنوم، وعندما رأوا سور المدينة الشاحب، كان من الصعب تحديد مزاج الرجال.

حملوا جثة الخان القتيل، وشعر العديد منهم بالخجل لفشلهم بقيامهم بواجبهم تجاه غويوك، إلا أن مونغ كان يمتطي صهوة حصانه، شاعرا بالفخر، وواثقا من سلطته. لم يكن غويوك خانا محبوبا، أما مونغ فقد أحب الرجال تلقي الأوامر منه.

وصلت الأخبار قبلهم بفضل فارس يام، ونتيجة لهذا أُعطيت سورهاتانا وقتا لتحضير المدينة. مع اقتراب الجيش ملئت المباخر بالأرز، واستخدم خشب الصبر الأسود كمشاعل، وتصاعد الدخان فوق مدينة كاراكورم، وغطت المدينة سحابة عطرة الرائحة، وللمرة الأولى حُجبت رائحة المجاري.

انتظرت سورهاتانا بالقرب من بوابة المدينة مع الحرس الذي ارتدوا أفضل الدروع، وأخذت تترقب وصول جيش ابنها. أحست بثقل السنين وهي تقف في مهب النسيم تحدق إلى الغبار المتصاعد من حوافر آلاف الأحصنة، نظّف أحد الحراس حلقه، وبدأ موجة من السعال التي لم يستطع إيقافها.

نظرت إليه سورهاتانا، وكانت عيناها تطلبان منه التوقف. لا يزال مونغ بعيدا، تقدمت نحو الجندي، ووضعت يدها على جبينه، كانت حرارته عالية جدا مما جعلها تتجهم، لم يستطع المحارب ذو الوجه المحمر أن يجيب على أي من أسئلتها، وبينما كانت تتكلم، رفع يده بعجز، فلوحت له سورهاتانا ليخرج من الصف.

شعرت سورهاتانا بحكّة في حلقها، وبلعت بصعوبة لتتحكم بها قبل أن تحرج نفسها. كان اثنان من خدمها في السرير بسبب نفس الحمى، ولكنها لم تكن تفكر بذلك الآن بسبب عودة مونغ إلى الوطن.

فكّرت بزوجها الذي مات منذ سنوات، مضحيا بحياته من أجل أوجيدي خان، ولم يتجرأ على التفكير في أن أحد أولاده سيستلم. الآن من يستطيع استلام منصب الخان بعد وفاة غويوك؟ كان باتو مدينا بكل شيء لها، وبالتأكيد لن يكون كوبلاي عائقا أما شقيقه. صلّت بصمت لروح زوجها، لتشكره على التضحية العظيمة التي جعلت من هذا شيئا ممكنا.

توقف الجيش، واستقر حول المدينة، أزالوا الحمولة عن الأحصنة، وتركوها تركض حرة على العشب الذي نما أثناء غيابهم. فكّرت سورهاتانا أنه لن تمر فترة طويلة قبل أن يعود سهل كاراكورم ترابا مرة ثانية. راقبت مونغ وهو يتقدم مع الضباط، متسائلة إن كانت تستطيع إخباره عن الدور الذي لعبته في قتل غويوك، ولكن الأمور لم تجرِ كما خططت لها هي وكوبلاي.

سعت لأن تحافظ على حياة باتو، ولكنها لم تشعر بالندم، سمعت العديد ممن كانوا مساندين له يعبّرون عن خوفهم من مقتل الشخص الذي كان يحميهم، كان من الصعب عليها ألا تسمع استغاثتهم، بسبب تحملها لوقت طويل هيمنتهم التافهة. صرفت الحراس الذين وضعهم غويوك لمراقبتها، لم يكن لديها السلطة لفعل ذلك، ولكنهم شعروا بتغير مجرى الرياح، فغادروا جناحها بسرعة.

ترجل مونغ عن حصانه، واحتضنها بطريقة رسمية غريبة، لاحظت أنه يضع السيف ذي رأس الذئب على الجهة اليسرى من خصره، ذلك السيف الذي يرمز إلى السلطة، لم تعطِ أي إشارة أنها رأته. لم يكن مونغ قد أصبح خانا بعد، وهذا يعني أنه سيواجه صعوبة في الأيام القادمة، إلى أن يدفن الخان أو يحرق.

لكن لا يزال عليه أن يقول: «أتمنى لو استطعت العودة بأخبار أفضل، يا أمي. لكن الخان قُتل على يد خادمه، عندما كان يصطاد بعيدا».

ردّت سورهاتانا برسمية: «إنه يوم أسود في تاريخ الأمة». أحنت رأسها، عندما شعرت بضيق في صدرها، لأنها كانت على وشك السعال، لكنها كتمت السعال بسرعة، وأكملت: «يجب أن يكون هناك اجتماع جديد للأمراء، سأرسل فرسان يام وأطلب من الأمراء القدوم في الربيع القادم، لأن الأمة يجب أن تحظى بخان، يا ولدي».

نظر إليها مونغ بحدة، ربما لو لم يسمع سوى تأكيدها على آخر الكلمات، لكانت عيناه تلمعان، لكنه لاحظ جزءا مفقودا في الإجابة، فالقادة كانوا قد وافقوا على أنه الخان، وكان عليه فقط أن يصرّح بالأمر.

أخذ نفسا عميقا، وهو ينظر حوله إلى الحراس ذوي المقام الرفيع الذين عينتهم سورهاتانا.

وعندما تكلم، بدا واثقا.

«ليس في هذه المدينة يا أمي ولا في هذا المكان ذي الحجارة الباردة. لقد أُخترت الخان الجديد، حفيد جنكيز خان، والقرار يعود لي. سأعيد الأمان إلى السهل حيث جمع جنكيز الأمة في البداية».

سالت دموع الفخر من سورهاتانا، وأحنت رأسها بصمت.

قال مونغ بصوت عالٍ ليصل إلى الضباط والحراس: «إن الشعب قد جُرف بعيدا جدا عن مبادئ جدي، وسأعيده إلى الطريق الصحيح».

نظر عبر البوابة المفتوحة للمدينة، حيث عمل عشرات الآلاف ليديروا الإمبراطورية، فهم كانوا يجنون أقل الضرائب إلى أهم العائدات ويديرون قصور الملوك. ظهرت على وجهه علامات الاستخفاف، وللمرة الأولى منذ وفاة غويوك شعرت سورهاتانا بالقليل من القلق.

عندما عاود الحديث تأكدت مخاوفها.

«يجب أن تعودي إلى غرفتك يا أمي، لبضعة أيام على الأقل. لقد أحضرت أغصانا إلى كاراكورم، وسوف أشاهد هذه المدينة القذرة تُنظف قبل أن أصبح خانا».

تراجعت سورهاتانا، وامتطت حصانها، وقادته عبر البوابة نحو القصر. كان رجال مونغ يرتدون الدروع، ورأت وجوههم القاتمة تحت ضوء جديد وهم يتبعون سيدهم الجديد نحو كاراكورم، بدأت بالسعال بينما كانت تعبر عبر الغبار الذي نتج من عبورهم، إلى أن فاضت عيناها بدموع جديدة.

عند الظهيرة، فاحت رائحة الأرز المحروق، وبدأت المدينة في فترة الحداد على الخان غويوك، الذي مددت جثته في قبو القصر، وجُهزت لتنظف وتكسى تمهيدا لمراسم الحرق.

تقدم مونغ إلى قاعة الاجتماعات عبر باب نحاسي. كان كبار الموظفين في كاراكورم قد اجتمعوا بأمر منه، وانحنوا عند دخوله، وقد لامست رؤوسهم الأرضية الخشبية. هذا التصرف أراح غويوك، ولكنه لم يكن تصرفا صحيحا».

قال مونغ وهو يعبر: «انهضوا، انحنوا إن كان الأمر واجبا، ولكن لن أتحمل رؤية تقاليد تشن في حضوري».

جلس على عرش غويوك المزخرف شاعرا بالقرف، وقف الموظفون بسرعة، وعبس مونغ عند رؤيتهم عن قرب، لم يكن هناك مغول أصليون في القاعة، وكان ذلك بسبب سنوات من حكم غويوك ووالده قبله. تسأل ما الشيء الجيد الذي سيحصل للشعب إن آل إليه مقام الخان؟ سيأتي الدم أولا، بالرغم من أن الصدق ضاع على رجال مثل غويوك وأوجيدي. لقد حكم الرجال الذين في القاعة الإمبراطورية، وفرضوا ضرائب جعلتهم أغنياء، بينما كان الشعب فقيرا. عندما فكّر مونغ بذلك اصطكت أسنانه، فشعر الجميع بالخوف، وعندما نظر إلى ياو تشاو مستشار الخان، والذي درّسه لبعض الوقت مع أحد رهبان تشن، وعلّمه البوذية، والعربية، والماندرينية.

بالرغم من أن مونغ احتقر أغلب ما تعلمه، إلا أنه أحب العجوز ياو تشاو، ولم يشعر أن له بديلا. نهض مونغ عن العرش ومشى في خط مستقيم، يشير إلى بعض الرجال بوضع يده على أكتافهم، وقال لهم قفوا بجانب العرش، فأطاعوه مباشرة. بعد أن اختار ستة منهم، توقف أمام ياو تشاو، فوقف باستقامة بالرغم من أنه أكبر الحاضرين في القاعة سنا، لقد عرف تشاو جنكيز في شبابه، وكان على مونغ أن يكرمه.

«يمكنك أن تحظى بهؤلاء ليعملوا تحت أمرتك، أما سائر موظفيك فيجب أن يكونوا من المغول حصرا، أحسن تدريبهم حتى يكونوا خير خلف لخير سلف، فلن أقبل أن يحكم الغرباء مدينتي».

بدا ياو تشاو شاحبا، ولم يتمكن من الانحناء.

ابتسم مونغ، وهو يرتدي درعا كاملا، وكانت تلك إشارة إلى أن أيام الحرير قد ولّت. لقد نشأت الأمة خلال الحرب وتم استلامها من قبل حكام تشن، وهذا لن يدوم.

سار مونغ نحو أحد الحراس، وهمس أمرا في أذنه، فخرج الرجل مسرعا، وانتظر الكتاب والوزراء بتوتر في الوقت الذي وقف فيه مونغ أمامهم يبتسم محدقا خارج النافذة إلى المدينة الممتدة

أمام ناظريه. عاد الحارس حاملا سوطا مصنوعا من الجلد، فأخذه مونغ ورفع كتفيه، وقال للرجال وهو يحرك السوط: «لقد كبرتم جدا بفضل المدينة التي لم تعد تحتاج إليكم بعد الآن، اخرجوا من وطني».

للحظة وقف الرجال مصدومين مما سمعوه.

«لقد أصبحتم أكثر بطئا تحت حكم غويوك وأوجيدي. عندما يأمركم رجل، أي رجل بالتحرك، يجب أن تتحركوا...».

انهال بالسوط على وجه أقرب الكتاب إليه، وتقصد أن يضربه بالجهة الخشبية. وقع الرجل إلى الخلف، فانهال مونغ عليه ضربا بالسوط، وتعالت صرخات الرعب ممن يحاولون الهرب منه. تجهم وجه مونغ بينما كان يضربهم مرارا وتكرارا جاعلا الدم يسيل أحيانا، ولاحقهم بعدما غادروا القاعة، ضاربا أقدامهم ووجوههم وأي مكان آخر يصل إليه السوط.

ثم قادهم نحو فناء القصر، حيث كانت الشجرة الفضية تقف مشعة في ضوء الشمس. وقع بعضهم مما جعل مونغ يضربهم على أقدامهم وهو يضحك الأمر الذي أدى لتعثرهم وهم يشعرون بالألم في أضلاعهم. كان محاربا بين نعاج، واستخدم السوط لينظمهم في مجموعات كما لو أنه يرعى قطيعا من النعاج.

ظلوا يتعثرون إلى أن أخذت بوابة المدينة تلوح في الأفق، راقب الحراس في الأبراج ما يحصل باستمتاع، لم يتوقف مونغ بالرغم من أنه كان يتصبب عرقا، وبقي يضربهم ويركلهم ويمزقهم إلى أن أصبح آخر رجل منهم خارج سور المدينة. عندها توقف وأخذ يلهث في ظل البوابة، وقال لهم: «لقد أخذتم ما يكفي من الشعب، وحان الوقت لتعملوا وتجنوا لقمة العيش، أو تضوروا جوعا، وإن تجرأتم على دخول مدينتي مرة ثانية سأقطع رؤوسكم».

انتشرت موجة كبيرة من الضيق والغضب من المجموعة، واعتقد مونغ للحظة أنهم سيندفعون نحوه. حيث كان للعديد منهم زوجات وأطفالا لا يزالون في المدينة، لكنه لم يولِ اهتماما لذلك، كانت رغبته في معاقبتهم قوية جدا، وتمنى أن يتجرؤوا على مهاجمته، ليكون قادرا على إعمال السيف فيهم، لم يكن يخشى الكتاب والباحثين، فقد كانوا رجال تشن وبالرغم من كل غضبهم وذكائهم لم تكن لديهم القدرة على فعل شيء. عندما تراجعت المجموعة وكانت ضعيفة جدا نظر مونغ إلى الحراس الذين يقفون أعلى رأسه وأمرهم:

«أغلقوا البوابة، واحفظوا وجوههم فإن رأيتم أحدا منهم داخل السور أطلقوا عليه سهما».

بعدها ضحك على الرعب والخوف اللذين رآهما لدى الحاشية، وما كان أحد منهم يمتلك الشجاعة ليعصى أوامره، انتظر إلى أن أغلقت البوابة. في الخارج، بدأوا بالصراخ والبكاء بينما أومأ مونغ للحراس، ورمى السوط، ومشى وحيدا إلى القصر. في طريق العودة رأى آلاف الوجوه العائدة لأناس يعودون بأصولهم لتشن تنظر من المنازل إلى الرجل الذي سيغدو خانا في الربيع، وتشوش تفكيره عندما تذكر مرة أن المدينة قد انحدرت بعيدا عن أصولها. لم يكن مونغ لينتظر طويلا من أجل تحقيق طموحه فقد غدت الأمة له.

تلاشت رائحة خشب الصبر، وذكرته المدينة بخيمة شفاء بعد المعركة. لقد فكّر في الجروح الملتهبة التي رآها، وقد كانت كبيرة ومتقيحة. كانت تحتاج إلى الشجاعة وإلى يد ثابتة لتستأصل الألم وتبدأ مرحلة النقاهة. ابتسم وهو يمشي قائلا إنه سوف يكون تلك اليد.

عندما حل الظلام ملأ الضجيج المدينة بأكملها، فقد دخلها الجنود بناء على أوامر مونغ في مجموعات من عشرة أو عشرين يمشون في كل شارع يفتشون ملكيات آلاف العائلات، وعند ظهور أولى علامات المقاومة، كانوا يجرون المالكين إلى الشارع ويضربونهم علانية، ثم يتركونهم على الحصى إلى أن يتجرأ أحد من أقربائهم على الخروج واستعادتهم. بقي بعضهم طوال الليل على الأرض.

بُحِث في أسرّة المرضى للتأكد من عدم وجود ذهب أو فضة مخفيين، حتى أن الجميع أجبروا على الوقوف عراة في البرد حتى يتأكد الجنود من أنهم لا يخفون شيئا، وكان العديد منهم ممن يسعلون ولايزالون يعانون من الحمى. عانت عائلات تشن أكثر من بقية المجموعات، بالرغم من أن تجار المجوهرات المسلمين فقدوا كل ممتلكاتهم في ليلة واحدة، من المواد الخام إلى المواد الجاهزة للبيع. من الناحية النظرية كان يمكن حساب كل الأشياء، ولكن في الواقع اختفى كل شيء قيّم وصغير في الحقائب التي يحملها الجنود فوق دروعهم.

لم يجلب الفجر معه أي نوع من الراحة بل كشف عن الدمار. فقد كان هناك على الأقل جثة في كل شارع، وكان من الممكن سماع بكاء النساء والأطفال في شتى أنحاء كاراكورم.

كان القصر هو المركز، وبدأ البحث فيه عن الغرف الفاخرة التابعة لحاشية الخان والمفضلين لديه. أخذ ضباط مونغ ما يريدون من زوجات أفراد الحاشية المطرودين، ورموا من لا يريدونهن خارج سور المدينة لينضممن إلى أزواجهن، لوحق أصحاب المكانة، وصادر الجنود كل

شيء من الأقمشة إلى تماثيل بوذا. رأى مونغ مقدار الكنوز التي جمعت ووضعت في المخازن في الأسفل، أما الأشياء التي لم يجدها قيمة فقد أحرقت في الشوارع.

عندما حل مساء اليوم التالي على المدينة، استدعى مونغ أكثر قائدين يثق بهما إلى قاعة الاستقبال في القصر. إليوجي ونويان رجلان قويان ترعرعا والقوس لم يفارق يديهما، لم يظهر أي من الرجلين تأثرا بثقافة تشن. كان اتبع تشن يحلقون شعور رؤوسهم، ويحضرون أنفسهم لواقع الأمة الجديد. لقد توضّحت رغبة قائد الجيش بما يكفي عندما ضرب كُتّاب تشن بالسوط وأخرجهم من المدينة.

كانت مقابلة ضباطه ببساطة من دون وجود كتّاب تشن تعتبر استراحة من كشافي غويوك، علم مونغ أن ياو تشاو ينتظر في الخارج، ولكنه ترك الرجل ينتظر حتى ينهي كل العمل الحقيقي، ولم يكن متحمسا لمقابلة ودائع غويوك.

كان الإله وحده يعلم كيف استطاع الخان اقتراض الكثير من المال وظلت خزائنه فارغة. كان هناك وفد من التجار قادم إلى القصر ليأخذ كل تاجر منهم ذهبا مقابل السندات التي يحملها. تشوش مونغ عندما فكر بذلك، فمع الثروة التي جمعها من الغرباء في كاراكورم، كان بمقدوره أن يسدد الديون التي رتبها غويوك، ولكن ذلك سيتركه من دون أموال لأشهر طويلة لقد حتم عليه كبرياؤه أن يفعل هذا، مع أخذ الجانب العملي بعين الاعتبار، حيث أنه يحتاج لأن يثق به التجار. لقد تبين له أن دور الخان يتضمن أكثر من ربح المعارك.

لم يكن مونغ متأكدا من أنه تصرف بشكل صحيح في إخراج عمال القصر من مواقعهم البسيطة، ولم يشك أن ياو تشاو سيحضر له كل مشكلة صغيرة ليثبت له أن ما قام به كان خاطئا. بالرغم من هذا، كانت ذكرى إخراجهم من المدينة أمرا مرضيا للغاية. اضطر أن يظهر لهم أنه على عكس غويوك، وأنه سيعهد للمغول حكم المدينة.

سأل مونغ نويان: «هل أرسلت الرجال إلى تورغين؟».

وقف القائد أمامه بفخر مرتديا ثوبا تقليديا، وكان ذا بشرة مدهنة، ولم يكن يرتدي درعا، لقد سمح له مونغ بالاحتفاظ بسيفه في الاجتماع، فهو لم يكن ليخشى رجاله كما فعل كل من غويوك وأوجيدي.

«لقد فعلت يا سيدي، وسوف يقدمون تقريرا بمجرد أن ينهوا عملهم».

سأل مونغ، وهو ينقل عينيه إلى إليوجي: «وماذا عن زوجة غويوك، أوغل خميش؟».

زمّ الرجل شفتيه قبل أن يجيب: «لم يسوَّ الأمر بعد يا سيدي. لقد أرسلت رجالا إلى جناحها، لكنهم منعوا من الدخول، وأظنها تريد أن تعامل بهدوء، فهي ستخرج غدا».

وقف مونغ بثبات، وكان إليوجي قد بدأ يتصبب عرقا بسبب تحديق عيني مونغ الصفراوين إلى أن أومأ قائد الجيش أخيرا.

«إن كيفية تنفيذ أوامري هي أمر خاص بك، يا إليوجي. ولكن أحضر لي الأخبار عندما تصلك».

قال إليوجي: «حاضر، سيدي». تنفس براحة، عندما نظر مونغ بعيدا، تكلم إليوجي مجددا وقال: «إنها مشهورة في المدينة، يا سيدي، وأخبار حملها في كل مكان، ومن الممكن أن يكون هناك اضطرابات».

نظر مونغ إلى الرجل المتعرق: «حسنا إليوجي خذها في الليل، واجعلها تختفي، إني آمرك بذلك».

عضّ إليوجي على شفتيه وقال: «أمرك سيدي. لكنها لا تتواجد أبدا من دون مرافقيها، وسمعت شائعات تفيد أن الزوجة الأولى ضليعة بعلم الأعشاب والطقوس القديمة. أتساءل إن كانت قد أثرت على أوغول خميش بتعاويذها وكلماتها؟».

قاطعه مونغ: «لم أسمع أي شيء... ولكن هذا سيساعد، اكتشف حقيقة الأمر». إن تهمة السحر لها عقاب كبير، ولن يرغب أحد بالوقوف إلى جانب أوغول خميش عندما يتم الشك بهذا.

وجد مونغ نفسه ضجرا عندما صرف قائديه وأدخل ياو تشاو. كانت الأيام طويلة على الشخص الذي سيصبح خانا، ولكنه وجد هدفه. سينزف الجرح قبل أن يلتئم، وفي أشهر قليلة، سيحكم إمبراطورية المغول بعد أن يتخلص من فساد تشن. لقد كان حلما جميلا، وكانت عيناه تلمعان بالرضا عندما ركع ياو أمامه.

11

جلست توروغين صامتة في إحدى قاعات قصر زوجها الصيفي التي ينيرها مصباح صغير أنيق. ارتدت ثوبا أبيض أنيقا، وانتعلت حذاء جديدا. كان شعرها الأبيض مربوطا بإحكام، بحيث لا يمكن لخصلة أن تفلت منه، ولم تكن ترتدي أي مجوهرات لأنها تخلصت منها.

في ذلك الوقت، كان من الصعب عليها النظر إلى حياتها السابقة، ولكنها لم تكن قادرة على التركيز في الحاضر. بالرغم من أن عينيها لا تزالان تبكيان غويوك، إلا أنها وجدت شيئا من السكينة، بتسريح كل خدمها، وعندما سمعت أن هناك جنودا قادمين من كاراكورم، شعرت أن قلبها على وشك أن يخرج من صدرها، كان لديها اثنا عشر خادما، رافقها بعضهم منذ عقود. أعطتهم كل ما عثرت عليه من ذهب وفضة، وأرسلتهم بعيدا والدموع تملأ عينيها.

كانت واثقة أنهم سيُقتلون بمجرد وصول جنود مونغ. فقد وصلتها أخبار مذابحه، مع بعض التفاصيل عن عمليات الإعدام التي حصلت في المدينة. لقد نحى مونغ كل من دعم غويوك كخان، ولم تستغرب أنه أرسل الجنود إليها.

عندما غادر آخر خدمها، مبتعدا عن كاراكورم، وجدت توروغين نفسها في مكان هادئ في القصر الصيفي تشاهد غروب الشمس. كانت كبيرة جدا على الهرب، بالرغم من أنها فكّرت أن باستطاعتها الهروب ممن يطاردها. كان من الغريب أن ترى أن لا مفر من الموت، ولكنها اكتشفت أن باستطاعتها أن تضع كل خوفها وغضبها في وجهه.

لم يكن جرح فقدان ولدها الحبيب قد التأم بعد، لربما كان غائرا جدا لدرجة أنه لم يكن لأي أسى أن يحتل مكانه. بدت منهكة مثل شخص نجا من عاصفة، فاستلقى على الحجارة، شاعرا بالدوران مما جعله غير قادر على فعل أي شيء أكثر من التنفس والتحديق.

سمعت في الظلام أصوات رجال مونغ في الخارج بينما كانوا يترجلون عن أحصنتهم. سمعت كل همسة صوت، من وقع خطوات أقدامهم على الحجارة، إلى صوت قرقعة سيوفهم ودروعهم. فرفعت رأسها، وعادت بذاكرتها إلى سنوات عزها التي ولّت.

لقد كان زوجها أوجيدي رجلا طيبا، مات باكرا بسبب قدر سيئ. لو بقي على قيد الحياة... تنهدت. لو بقي على قيد الحياة لما كانت وحيدة تنتظر موتها في قصر كان في يوم من الأيام منزلا سعيدا. فكّرت في الأزهار التي أعطاها أوجيدي إياها، كانت أزهارا برية نمت من دون أن يعتني أحد بها، وأخذت تنتقل من ذكرى إلى أخرى، وهي تسمع أصوات الخطوات تدنو منها.

في النهاية، لم تكن تعلم إن كان أوجيدي فخورا بغويوك. لم يكن ولدها رجلا عظيما، وعندما رأت مستقبلها يُسلب منها، رأت الماضي بوضوح أكثر، وأفعمت بالهم، كان هناك العديد من الطرق التي تمنت لو أنها لم تسلكها، لقد كان من الحماقة أن تتذكر الماضي، وتتمنى لو أن الأشياء كانت مختلفة، ولكن لم يكن الموضوع بيدها.

عندما سمعت صوت خطوات خارج باب القاعة، بدأت أفكارها تتمزق كالخرق، فنظرت إلى الأعلى بوجل. ضمت يديها في حضنها، بينما دخل الجنود القاعة، واحدا تلو الآخر. مشوا بخفة، مجهزين أسلحتهم في حال حدوث هجوم. كادت تضحك على حذرهم، وقفت ببطء، وهي تشعر أن ركبتيها وظهرها لا يريدان ذلك.

تقدم الضابط منها وهو ينظر إلى عينيها محتارا.

وسأل: «هل أنت وحدك سيدتي؟».

وللحظة لمعت عيناها.

«أنا لست وحيدة، ألا تراهما؟ زوجي، أوجيدي خان، يقف إلى يميني، وابني غويوك خان، يقف إلى يساري. ألا ترى أن هذين الرجلين يشاهدان ما تفعل؟».

شحب وجه الضابط قليلا، وهو ينظر إلى اليمين واليسار كما لو أنه يستطيع رؤية الأرواح تعتني بها. تنبه إلى أن مرافقيه يسمعون كل كلمة، ويمكن أن يخبروا مونغ بكل ما يسمعون.

قال بما يشبه الاعتذار: «إنني أُنفذ الأوامر سيدتي».

رفعت توروغين رأسها أكثر، ووقفت باستقامة بقدر ما تستطيع.

وقالت بصوت واهن: «سيقتلني الكلاب، هناك ثمن لكل شيء أيها الضابط». بالرغم من انخفاض صوتها إلا أنه كان يشي بالثقة والقوة، نظرت إلى السقف كإشارة إلى أنها تستطيع أن ترى ما هو خلفه، وتابعت قائلة: «سيسقط مونغ خان، وستمتلئ عيناه بالدمع والدم، ولن يعرف الراحة حتى أنه لن يستطيع النوم بسلام، سيرافقه المرض والألم وفي النهاية سـ...».

استل الضابط سيفه، وفصل رأسها عن جسدها بحركة سريعة. سقطت على الأرض، وبدأ الدم يتدفق منها ويتطاير على جلد أحذيتهم. لم يقل الرجال شيئا، وهم يرون روحها تفيض، بعد ذلك غادروا مستائين، ولم ينظر أي منهم إلى الآخر عندما سعوا لامتطاء أحصنتهم.

وجد القائد إليوجي نفسه في ورطة عندما واجه مونغ، كان شعورا غريبا عليه. لقد علم أنه نوع من التكتيك أن يتخلص القائد الجديد من كل مؤيدي خلفه. ومن الجانب الآخر، كان من البديهي التخلص من أي شخص له صلة دم بالنظام القديم، ليضمن أنه لن يكون هناك تمرد في المستقبل من أولاد ترعرعوا منسيين وتعلموا الكراهية. لقد تعلم دروس جنكيز ممن خلفه.

استمتع إليوجي في تدوين أسماء أعدائه على اللائحة التي يحضّرها لمونغ، لقد كان نوعا من القوة التي لم يختبرها من قبل. ففي غضون يوم على الأكثر، بعد أن يملي الأسماء على الكاتب، سيتتبعهم أتباع الخان المخلصين ويعدمونهم، ولم يكن هناك أي اعتراض على اللوائح.

لكن ما رآه إليوجي في ذلك الصباح أقلقه، وبدت ملامحه مختلفة. لقد رأى العديد من الأطفال حديثي الولادة، فقد أحضرت زوجاته أربعا منهم عبر السنين. ربما كان ذلك السبب الذي جعله يتألم لرؤية جثة صغيرة. وتوقع أن يعتبر مونغ ذلك نقطة ضعف لديه، لذا أبقى صوته هادئا محاولا جعله طبيعيا وهو يُقدم تقريره.

قال لمونغ: «أعتقد أن زوجة غويوك جُنت، يا سيدي. لقد بكت وصرخت كالأطفال، وكانت تحمل الطفل الميت وكأنه لا يزال على قيد الحياة».

عض مونغ شفته السفلى، وهو منزعج من أن شيئا سهلا كهذا أصبح معقدا. كان الوريث هو المشكلة الوحيدة، ومن دونه كان يستطيع إرسال الزوجة إلى منزل والديها، لقد ذكّر نفسه أنه الخان فعليا بالرغم من أن أحدا لم يسمه بعد، ولكن بالرغم من ذلك امتدت سلطته كثيرا. لقد لعن إليوجي بصمت بسبب التدخل إلى هذا الحد في جرائمها، فتهمة ممارسة السحر لا يمكن تجاهلها، شدّ قبضته، وهو يفكر في آلاف الأشياء التي قام بها اليوم، لقد أعدم ثلاثة وأربعين شخصا من أتباع

غويوك المقربين خلال الأيام القليلة الماضية، ولم تجف دماؤهم بعد، وهناك آخرون كثر سيلحقون بهم قريبا، وهذا ما جعل كاراكورم تغلي.

أخيرا قال: «دعك من ذلك، ودوّن اسمها في اللائحة».

أحنى إليوجي رأسه مخفيا إحباطه وقال: «كما تشاء سيدي».

12

وقفت أوغول خميش على ضفة نهر أورخون، تشاهد تدفق المياه. وكانت يداها مقيدتين خلفها، وكانت سمينة ومخدرة، ووقف رجلان إلى جانبها ليمنعاها من رمي نفسها قبل الوقت المحدد، وبسبب برودة الفجر، شعرت بالقشعريرة تسري في جسدها وهي تحاول التحكم بخوفها الذي هدد بتجريدها من كرامتها.

وقف مونغ هناك مع بعض المقربين منه، رأته يبتسم على شيء قاله أحد ضباطه. لقد ولّت تلك الأيام التي كان فيها المشهد أجمل وأكثر حيوية، لرجل كان جنوده ورجال المناصب العليا لديه يرتدون ثيابا بسيطة، تقتصر زخرفتها على بعض القطب. وأغلبهم كانت لديهم قصة شعر مونغ، وفروة رؤوسهم محلوقة، ووجوههم سمينة، ولم يكن سوى ياو تشاو وبعض كتاب تشن لا يمتلكون أي سلاح. أما من تبقى فكانوا يحملون سيوفا طويلة تصل تقريبا حتى كعوبهم، لقد كانت أنصال أسلحة الفرسان مصممة للقطع. كانت كاراكورم تمتلك معادنها الخاصة، وتصنع الأسلحة على مدار السنة. ولم يكن سرا أن مونغ كان يحضر للحرب بعد أن ذبح آخر داعم وصديق لغويوك.

لم يبدُ الأورلوك مستعجلا، فقد كان رجلا ثابتا في وسطهم، وكان حجمه تقريبا ضعف أضخم محارب في حاشيته. وبالرغم من جسمه كان يتحرك بسهولة، كرجل واثق بقوته ولا يزال شابا يستطيع الاستمتاع بها. وقفت أوغول وحلمت أنه يُقتل أمامهم، ولكن كان ذلك مجرد حلم. لقد كان مونغ غافلا عن تعاسة السجناء الجاثمين، بينما كانت تراقبه، أخذ فنجانا من العرق من خادمه وأخذ يضحك مع أصدقائه. بطريقة ما، كان ذلك مثيرا للغيظ أكثر من أي شيء آخر، فقد كان عليه أن يهتم لمصيرهم أكثر وإن كان هذا اليوم هو آخر يوم لهم. رأت أوغول أن أحد الرجال المقيدين فقد السيطرة على مثانته، لذا غطت بقعة من البول بنطاله وانسالت إلى ساقيه. لم يبدُ عليه أنه لاحظ ذلك، فقد كانت عيناه خاليتين من التعبير. نظرت أوغول بعيدا باحثة عما يشجعها. خاف الرجال من السيف أما هي فخافت من بطء عملية الإعدام.

لم يكن من الجيد بالنسبة إليها أن يعتبر مونغ زوجة الخان من السلالة الملكية، نظرت إلى القناة المظلمة التي بناها أوجيدي فاقشعر بدنها مرة ثانية، وشعرت بالحافز لتفريغ مثانتها، بالرغم من أنها كانت حريصة على عدم الشرب في الصباح. كانت يداها باردتين وكذلك وجهها بسبب تسرب الدم وكانت ضربات قلبها آخذة في التسارع. بالرغم من ذلك، كانت تتعرق وكان تحت إبطيها رطبا، ركزت على التغيرات الصغيرة التي تحصل في جسمها بينما كانت تنتظر، باذلة قصارى جهدها لتشتت انتباهها.

أنهى مونغ فنجان العرق، وأعاده إلى الخادم، ثم أومأ لأحد ضباطه الذي أصدر أوامره بصوت مرتفع. انتصب كل الرجال هناك وحتى بعض السجناء أيضا. حركّت أوغول رأسها متأسفة على الحمقى، هل توقعوا أن يعجبوا من يعدمهم وينالوا رحمته؟ لم يكن هناك أي رحمة.

حضر ياو تشاو، وفكرت أوغول أنها قادرة على رؤية قوة في الرجل العجوز. سمعت أن المستشار كان غائبا في الإعدام الأول، مدعيا المرض، وبإحساس جميل من الوحشية، شعر مونغ بعدم الراحة. الآن بدأ ياو تشاو يتلو الأسماء، فاستمعت للائحة وهي تشاهد بصمت كيف كان كل سجين يرفع رأسه عندما يسمع اسمه.

بعد طول انتظار، بدأت العملية بسرعة، ركع المساجين على ركبهم، وتقدم محارب شاب من جنود مونغ مستلا سيفه. علمت أوغول أنه كلف بهذه المهمة بسبب خدمة قدمها لمونغ، رغب العديد من المحاربين بالحصول على شرف تنفيذ هذه المهمة ممن لم يشاركوا بالحرب بعد، وتذكرت أوغول أن جنكيز قتل عشرات الآلاف في مدينة غريبة فقط من أجل تدريب رجاله على القتل.

لم تستمع إلى صوت ياو تشاو المرتجف وهو يتلو التهم التي يقرأها من الصفحة التي أمامه. ثبّت منفذ الإعدام نفسه عندما ركع أول شخص، مقررا أن يقدم عرضا جيدا أمام مونغ.

نظرت أوغول نحو النهر عندما بدأ القتل، متجاهلة صراخ الموافقة والضحك القادم من مجموعة مونغ. بايرمان كانت الرابعة في الصف، وكان على أوغول إجبار نفسها على النظر عندما أتى دور المرأة المسنة، كانت جريمتها مرافقتها لأوغول خميش، وسميت بالشخص الذي لوث زوجة الخان بالسحر الأسود.

لم تحنِ بايرمان رأسها أو تمد رقبتها، فخاطبها السياف بطريقة فظة، لكنها تجاهلته، ونظرت صوب أوغول، تشاركت معها النظرة قبل أن تزهق روحها بضربتين من سيف السياف.

نظرت أوغول مجددا إلى المياه المظلمة إلى أن انتهي الأمر، وعندما قتل آخر شخص فيهم، التفتت لترى المحارب الشاب يتفحص نصله بقلق. لا شك في أنه أصبح أقل حدة بسبب كثرة العظام التي بترها، اقترب منه مونغ وربت على كتفه، ثم وضع فنجان عرق في يده بينما كانت أوغول تنظر إليه بكراهية وتجهم. عندما نظر مونغ إليها، شعرت بالرعب يتسرب إلى قلبها، وحركت معصميها اللذين يطوقهما الحبل.

تلفظ ياو تشاو باسمها، هذه المرة كان هناك بالتأكيد ارتعاش في صوته حتى أن مونغ عبس في وجهه. لقد أمر جنكيز ألا يريق أحد من العائلة الملكية دماء أحد أفرادها، ولكن البديل جعل أوغول تمتلئ رعبا.

«أوغول خميش، جلبت العار لاسم الخان بتهمة ممارسة السحر الأسود، حتى... قتل ولدها».

أحكمت أوغول قبض راحتي يديها، ووصلت إلى مرحلة من برودة الأعصاب لتستطيع الوقوف على قدميها. عندما انتهى ياو تشاو من قراءة التهم، سأل إن كان هناك أحد سيتقدم للدفاع عنها، لقد فاحت رائحة الدم بشدة، ولم يحرك أحد ساكنا ردا على سؤاله، فأومأ مونغ إلى الجندي الذي يقف إلى جانبها.

وقفت أوغول مرتعشة وبعدها رفعت ومددت على حصيرة من اللباد، شعرت بعضلات ساقيها تخزها، وكان الأمر خارجا عن سيطرتها. لقد سعى جسدها إلى الهرب، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا، وفجأة بدأ ياو تشاو يصلي لأجلها، كان صوته مرتجفا، وعندما نظر مونغ لم يتوقف الرجل عن الصلاة.

لفها الجنود في حصيرة اللباد، حتى تضغط المادة العفنة أمام وجهها وتملأ رئتيها بالغبار. تغلل الرعب فيها، وبدا تنفسها يتقطع. شعرت بحركتهم وهم يجرونها ويضعون طوقا جلديا على القماش ويشدونه جيدا، لم تكن لتبكي وتطلب الصفح من مونغ، ولكن لم تتمكن من التأوه خوفا، وكأنها حيوان وقع في فخ. لقد بدا الأمر كأنه سيستمر للأبد. لقد كان بإمكانها سماع ضربات قلبها، وكأنها طبل يُقرع.

فجأة ألقيت إلى المياه الباردة. فاضت المياه الباردة، وقاومت بقدر ما أتيح لها، وهي ترى فقاعات فضية تحيط بها. غرقت حصيرة اللباد بسرعة شديدة. وحاولت أن تحافظ على نفسها قدر ما تستطيع.

كانت سورهاتانا مستلقية، وبالرغم من برودة الليل كانت مدثرة بغطاء، وعندما انحنى كوبلاي إلى جانبها وأخذ يدها دهش من شدة حرارتها وكاد أن يفلتها. انتشرت الحمى في أرجاء كاراكورم، وكل يوم كان يُبلغ عن حالات جديدة. تكرر الأمر كل صيف، العشرات يُصابون بالوباء، وفي أغلب الأوقات يصاب الناجون بالضعف والهزال.

شعر كوبلاي بالدموع تتدفق من عينيه عندما سعلت والدته، واستمر الصوت إلى أن كادت تختنق. تقوس ظهرها، وتشنجت عضلاتها، وانتظر ليرى إن كانت قادرة على أن تسحب نفسا متقطعا. بدت محرجة لأن ولدها رآها تتألم فابتسمت له بضعف، وكانت عيناها زجاجيتين من الحمى.

قالت: «أكمل».

«لقد حبس ياو تشاو نفسه في غرفته، لم أره أبدا شديد الاضطراب هكذا. لم يكن موتا جيدا».

قالت سورهاتانا: «الموت ليس بالأمر الجيد، يا كوبلاي. كل ما نستطيع فعله هو أن نتجاهله حتى يأتي الوقت المناسب». لقد كان الكلام يجهدها، لذا حاول كوبلاي إيقافها، ولكنها لم تصغِ إليه. «الناس يفعلون ذلك بشكل جيد يا كوبلاي. يعيشون وهم يعلمون أنهم سيموتون، ولكن بغض النظر عن عدد المرات التي يرددون بها هذه الكلمات، هم لا يصدقونها حقا، يعتقدون بطريقة ما أن الموت سيتركهم، وأنهم سيعيشون من دون أن يشيخوا». سعلت مرة ثانية فجفل كوبلاي بسبب الصوت، وانتظر بفارغ الصبر حتى تستطيع التنفس مجددا.

«حتى الآن أعتقد أني... سأعيش، يا كوبلاي. أنا حقا امرأة عجوز حمقاء».

قال بلطف: «لستِ حمقاء، أو عجوزا. وأنا لا أزال بحاجة إليك، ما الذي سأفعله من دون التحدث إليك؟». فرآها تبتسم مرة ثانية، لكن بشرتها تجعدت كقطعة قماش قديمة.

«لا أخطط... للانضمام إلى والدك الليلة. أود أن أخبر مونغ عن رأيي في لوائح الإعدام التي لديه».

تعكرت ملامح كوبلاي.

«لقد أثار إعجاب الأمراء والقادة كما سمعت. يبدو أنهم يحبون الذبح، حيث يقولون إنه جنكيز جديد، يا أمي».

قالت مختنقة: «ربما... هو». مرر كوبلاي فنجانا من عصير التفاح إليها، فارتشفت منه وعيناها مغمضتان.

قال كوبلاي: «كان بإمكانه أن يعاقب أوغول وخادمتها المسنة». لقد درس حياة جده جنكيز، وكان يشك في صحة رأي والدته، ولكن هذا لم يزل طعم المرارة. لقد حقق أخوه سمعة بالقسوة بعدد قتلى أقل من مئة. ولم يؤثر ذلك في رأي الشعب فيه، حيث نظروا إليه كشخص سيجلب حقبة جديدة من الفتوحات والتوسع، وبالرغم من كل الكراهية التي شعر بها كوبلاي اعتقد أنهم محقون.

«سيكون الخان يا كوبلاي. لا يجب أن تتساءل عما يفعل، تذكر أنه ليس غويوك. إن مونغ قوي».

ردّ قائلا: «وغبي...»

ضحكت، ولكن نوبة السعال التي تلت ذلك، كانت من أسوأ ما رآه. واستمر ذلك مرارا وتكرارا، وعندما مسحت فمها بمنديل قماش، رأى عليه بقعة دم، ولم يستطع أن يبعد نظره عنها. عندما توقفت نوبة السعال، هزت رأسها وكان صوتها همسا.

«مونغ ليس أحمق يا كوبلاي، إنه يفهم أكثر مما تعتقد. لا يمكن أن تعود جيوش الخان الكبيرة لتكون رعاة، ليس بعد الآن. إنه يقود النمر الآن، يا بني. ولا يتجرأ على النزول».

عبس كوبلاي، منزعجا من دعم والدته لشقيقه في كل شيء، لقد أراد أن يشاركها غضبه، لا أن يسمع تبريراتها لأفعال أخيه.

قبل أن يتحدث مجددا، استوعب الأمر. لقد كانت سورهاتانا صديقته، بالإضافة إلى أنها والدته، لكنها لم تكن قادرة على الحكم بشكل جيد عندما يتعلق الأمر بأولادها، وبكل حزن، علم أن كل ما يستطيع فعله هو عدم أذيتها. أغلق فمه عن كل الخلافات التي كان قد حضرها وبقي صامتا.

قال: «سأفكر في ذلك، الآن يجب أن تتحسني، يجب أن تكوني هناك، لتري مونغ خانا».

أومأت بوهن لما قاله، ومسحت العرق عن وجهها قبل أن يتركها.

أُحرقت جثة غويوك خارج كاراكورم، وأوشكت أيام الحداد على الانتهاء، لقد تأخر إحراق الجثة التي كانت تقبع في قبو القصر بالرغم من أن المحرقة كانت مليئة بالزيت، راقب جسد غويوك يتداعى مع أول شعلة من النار لامسته. كان نصف الشعب ثملا، بالطبع كانوا بحاجة لعذر فقط،

ليقيموا احتفالا بمناسبة انتقال روح الخان إلى العالم الآخر، والآلاف منهم قدموا إلى النار ثملين وهم يسكبون العرق من بين أصابعهم أو من فمهم.

غامر أكثر من شخص بالاقتراب، ولكنهم تراجعوا عندما احترقت ملابسهم فاضطروا للتخلص منها. في الظلام، طقطق كل من العث والحشرات اللاذعة في اللهيب، بعد أن جذبها ضوء النار من المدينة ومن الخيام. لقد مات الملايين منها، وتشكلت بقع سوداء حول المحرقة ووقعت في اللهيب. فكّر مونغ بالفتيات، والجنود، والخدم الذين دفنوا مع جنكيز، فابتسم لأنه لم يشارك في احتراق جثة غويوك سوى الحشرات.

عندما بدأت المحرقة تصغر وتتحول إلى كومة مضيئة، أرسل مونغ لإخوته. كوبلاي، وهولاكو، وآريك بوك ليتقدموا خطوة إلى جانبه، وسارت المجموعة الصغيرة عبر المدينة الهادئة، تاركة الشعب يكمل عربدته.

تلك الليلة المعربدة، ستزرع كثيرا من الأجنة في أرحام كثير من النساء، ويمكن أن يُقتل كثير من الرجال والنساء بسبب شجارات تنجم عن الثمالة، ولكن تلك هي الطريقة التي تسير وفقها الأمور: فالحياة والموت يسيران دائما جنبا إلى جنب.

بدت المدينة فارغة عندما مشوا معا. وعن غير عمد تقدم مونغ وكوبلاي المجموعة، وبدا جليا أنهما مختلفان في الشكل والهيئة. وخلفهما كان هولاكو الذي يملك نفس جبهة مونغ وطوله بينما كان آريك بوك الأقصر، لقد كانت عيناه تتنقلان من رجل إلى آخر وهو يسير، وميزته ندبة تعبر وجهه وهي خط يتدرج لونه من الزهري الغامق إلى لون النسيج الأصفر، تشكلت الندبة بسبب حادث تعرض له منذ سنوات تركه من دون هيكل أنف، لذا كان يسمع صوت تنفسه من فمه أثناء سيره، يمكن لأي أحد غريب أن يعرف أنهم إخوة، ولكن كان هناك توتر أكثر من الصداقة بين أفراد هذه المجموعة الصغيرة. لقد بقوا صامتين في انتظار معرفة ما خطط له مونغ.

شعر كوبلاي بالضغط أكثر من الآخرين. فقد كان الوحيد الذي رفض أن يتخلى عن نمط تشن، من قصة شعره إلى ثوبه الحريري. لقد كان تمردا صغيرا، ولكن مونغ لم يجعل منه مشكلة.

كان هناك حراس ليليون في القصر، يسهرون واقفين بصمت وترقب تحت ضوء المشاعل. عند اقتراب مونغ، جعلوا أنفسهم كالتماثيل. لم يبدُ أن مونغ انتبه لهم، فقد كان غارقا بأفكاره، مشى نحو الفناء، بينما أكمل آريك بورك ليبقى مع الآخرين حتى عبروا الممرات إلى قاعة الاجتماعات الرئيسية، حيث انتظر هناك مزيد من حراس الخان، بالقرب من الباب النحاسي.

ربما لم يصبح مونغ الخان بعد، ولكن أوامره كانت بمثابة قانون في المدينة، وكانت كلها قاسية. راقب كوبلاي بانزعاج دخول مونغ وعبوره القاعة، وكيف أزال القماش عن إبريق النبيذ، وسكب لنفسه فنجانا، قبل أن يكرعه بسرعة. لم يكن هناك مكان للجلوس. لقد كانت القاعة خالية تقريبا، فلم يكن هناك إلا طاولة طويلة مغطاة بلفائف ومخطوطات موضوعة بشكل عشوائي، بعضها لُف بخيوط ملونة. لقد اختفى لمعان عرش غويوك وأوجيدي، ما من شك أنه نُقل إلى أحد المخازن.

قال مونغ: «اشربوا إن كنتم تريدون».

تقدم كل من هولاكو وآريك بوك إلى الطاولة حيث يقف، وتركا كوبلاي يقف وحيدا منتظرا أن يخبره أحد عن سبب وجودهم هنا.

لم يكن الجواب بعيدا.

من دون تبجح قال مونغ، معبرا عن الأمر كحقيقة: «في الربيع، سأصبح الخان فأنا الأورلوك قائد الجيش وحفيد جنكيز. لن يتحداني بيدور، وباتو كتب مؤكدا دعمه لي».

توقف قليلا عندما حرّك كوبلاي قدميه. لقد مُنح الأميران صاحبا المقام الرفيع أوسع الأراضي في وصية أوجيدي، ولن يتحديا ابن أخيه، كل ما قاله مونغ يعد منطقيا، لقد تفوق عليهم، وقد أمن مكانه، فهو الشخص الوحيد الذي سيقبل به الجيش.

قال كوبلاي موافقا على كلام مونغ: «حسنا، ستكون الخان يا أخي، سيكون والدنا فخورا بأن أحد أولاده أصبح خانا».

حدق مونغ إليه محاولا العثور على أي علامات للسخرية، ولكنه لم يجد شيئا فشعر بالرضا عن قوته.

خاطب مونغ إخوته قائلا: «بالرغم من ذلك لن أتخلى عنكم». لاحظ كوبلاي أن مونغ يوجه حديثة لهولاكو وآريك بوك، لكنه هز رأسه في الوقت الذي كان فيه مونغ يتابع كلامه.

«سوف تنهضون معي، كما كان والدنا يريد، وسنناقش والليلة مستقبل عائلتنا».

شك كوبلاي أنه سيكون هناك شيء للمناقشة. فقد كان مونغ واثقا بسلطته الجديدة، إنه يتصرف كوالد يوزع الحكمة على أولاده، بدل أن يكون أخا. ثم ربت على كتف هولاكو مما جعل

كوبلاي يفكر كم هما متشبهان. بالرغم من أن مونغ كان يملك كتفين أعرض من كتفي هولاكو، إلا أنهما كانا يتشاركان النظرة الباردة نفسها.

قال مونغ: «لن أنتظر حلول الربيع لأبدأ الحملات، لقد انتظر العالم طويلا موت الخان الضعيف، وقد ازدادت قوة أعدائنا من دون أن نقوم بخنقهم، أو وضع سكين على أعناق من يحبون، لقد حان وقت تذكيرهم بأسيادهم».

أحدث هولاكو بعض الضجة تعبيرا عن تقديره لما سمع عندما كان يسكب فنجانا آخر من النبيذ الأحمر ويشربه. نظر مونغ إليه برضا، حيث رأى نفس المقومات التي رآها كوبلاي.

«هولاكو، لقد كتبت أمرا بتوليك جيش بيدور في الغرب، مع ثلاث مجموعات أخرى من كاراكورم، وجعلتك أورلوك لمئة ألف، وأعطيتك ثلاثا من أفضل الرجال لدي، بيجو، وإليوجي، وكيتبوا».

أكثر ما أحرج كوبلاي هو ركوع هولاكو وإحناء رأسه. قال وهو ينهض: «شكرا يا أخي. إنه شرف كبير لي».

«ستغزو شرق الأرض ومغربها، وستكون مدينة سمرقند مقرا لك، لن يعترض بيدور على أوامري، عليك يا هولاكو إكمال العمل الذي بدأه جدنا. اذهب أبعد مما فعل، يجب أن تجعل من منصبك الجديد يدر عليك الثروات».

أعطى مونغ مخطوطة لهولاكو، وشاهده يفتح خريطة المنطقة، وهي منسوخة بعناية ومعلمة بنقوش ونقاط بيد فارسي توفي منذ وقت طويل. حدق كوبلاي إليها بإعجاب، وهو يقترب من دون أن ينتبه إلى نفسه. كان في مكتبة كاراكورم العديد من العجائب التي لم يرها.

فرد هولاكو الخريطة على الطاولة، وثبتها بفنجاني نبيذ عند طرفيها. لمعت عيناه لرؤية الأرضي التي كانت موجودة، حينها ربّت مونغ على ظهره، بينما انحنى إلى الأمام مشيرا بيده الحرة.

«إن المدينة العظيمة هناك يا أخي، على ضفتي النهر، جنكيز نفسه لم يصل إلى هناك، إنها مركز دين يدعونه الإسلام. ستأخذها لي وتجعل منها مقرا لك».

قال هولاكو برحابة صدر: «اعتبر الأمر منتهيا يا أخي».

رأى مونغ سعادته فابتسم، معيدا ملء فنجان ليعطيه إياه.

ثم قال وهو ينظر إلى كوبلاي: «وصل آل تولاي إلى الحكم، ولن ندعه يفلت منا، بعد الآن. لقد بدأ جنكيز الطريق ونحن من سيكمله. لا بد أنه القدر، يا إخوتي. لقد ضحى والدنا بحياته من أجل الخان، وحافظت والدتنا على وحدة المدينة والوطن، في الوقت الذي كان من السهولة أن ينهار كل شيء». لمعت عيناه وهو يرى المستقبل «كل ما مرّ من قبل كان من أجل هذه اللحظة، من أجلنا نحن الأربعة الموجودين في هذه القاعة الذين ينتظرهم العالم أجمع».

راقب كوبلاي بصمت بينما ابتسم كل من هولاكو وآريك بوك لوقع كلمات مونغ. لم يشعر بالراحة بوقوفه بعيدا عنهم، فاندفع ليملأ فنجانه بالنبيذ، فما كان من إخوته إلا أن اندفعوا ناحية الإبريق ليبلغوه قبله، بالرغم من عبوس مونغ بعض الشيء، بينما كان كوبلاي يشرب رأى كيف كان آريك بوك ينتظر أن يقال له قدره، وقد تحولت الندبة على وجهه إلى اللون الأحمر.

اختار مونغ اللحظة التي أمسك بها يد أصغر إخوته وقال: «آريك، لقد استشرت والدتنا، وقد وافقتني الرأي».

نظر كوبلاي بشكل حاد، فهو لم يعتقد أن سورهاتانا كانت بحالة جيدة بما يكفي لمناقشة أي شيء. أكمل مونغ بطريقة أثارت شكوك كوبلاي.

«لقد اتفقنا على منحك كل الأراضي باستثناء كاراكورم، حيث ستبقى ملكية للخان، بالرغم من أنني لا أريد هذا المكان، ولكن قيل لي إنه ذو قيمة معنوية للناس. أما ما تبقى فهو لك وستحكمه باسمي».

كاد النبيذ أن يراق عندما انحنى آريك بوك على الأرض حيث وصل إلى قدمي أخيه، لكن مونغ أمسكه من الخلف وهزه بلطف.

«هذه الأراضي كانت لوالدنا، يا آريك، ولجنكيز قبله. اعتنِ بها واجعلها نضرة ومليئة بالقطعان».

أجاب آريك بوك باقتضاب: «سأفعل يا أخي». لقد أُعطي ثروة هائلة. كان هناك قطعان وأحصنه تنتظره بالملايين، بالإضافة إلى مكانة مرموقة في الأمة. لقد جعل منه مونغ رجلا عالي المكانة بعبارة واحدة نطق بها.

أكمل مونغ: «سأتحدث إليكما أكثر غدا، عودا عند الفجر، وسأشارككما بكل مخططاتي».

عندما التفت إلى كوبلاي وقف الأخوان الأصغران بثبات لعلمهما بالتوتر السائد بين الرجلين. بدا مونغ محاربا مغوليا في كل إنش من شكله بينما وقف كوبلاي بثوب تشن ذي التباين الحاد، وكان أطول من مونغ.

قال مونغ بلطف: «اتركنا الآن يا هولاكو وآريك بوك، أود التحدث إلى أخي على انفراد».

لم ينظر أي من الرجلين إلى كوبلاي عندما غادرا، حيث كانا مستغرقين في التفكير بطموحهما العظيم. كاد كوبلاي يحسدهما على ثقتهما وكيف أُخذت منهما بسهولة. عندما أصبحا وحيدين، ملأ مونغ فنجانين بحذر، وأعطى أحدهما إلى كوبلاي.

«ماذا أفعل بك يا أخي؟».

«يبدو أنك خططت لكل شيء، لماذا لم تضعني بالصورة؟»

«أنت بالكاد غادرت المدينة يا كوبلاي، بينما كنت مع تسوبوداي في الغرب، كنت تلهو بالكتب والريش، وعندما كنت أحتل كييف، كنت تتعلم أن ترتدي مثل نساء تشن وتستحم مرتين في اليوم». عندها انحنى مونغ صوب أخيه واستنشق الهواء المحيط بكوبلاي. «ربما تناسب وظيفة في مكتبة المدينة رجلا... مثقفا مثلك». تشنج كوبلاي مدركا أن مونغ يتعمد إغاظته، وقد بدا على وجنتيه الاحمرار جراء الإهانة التي تلقاها.

فأجابه مبتسما: «ليس هناك شيء من العار في أن يكون الرجل مثقفا، وبما أنك ستكون الخان يسعدني أن أبقى هنا في المدينة».

شرب مونغ نبيذه بصعوبة، وبالرغم من أن كوبلاي شك في أنه قد وصل إلى قرار قبل الاجتماع بوقت طويل، لم يكن أخوه يملك ذكاء كبيرا، ولكنه كان صارما وصبورا، وكانت تانك الصفتان تخدمان الرجل جيدا».

«لكنني وعدت والدتي أن اعتني بالعائلة، يا كوبلاي. أشك أنها تريد مني أن أتركك مع مخطوطات يغطيها الغبار». رفض كوبلاي أن ينظر إلى يديه، بالرغم من أن الأمر كان صحيحا. «أقدر أنها أرادت منكم أن تصبحوا محاربين يا كوبلاي لا كتّاب تشن».

«يا أخي، عندما كنا صغارا، أخبر جنكيز رجاله شخصيا أن يلجؤوا إليّ إن واجهتهم مشكلة، لقد أخبرهم أني أستطيع الرؤية عبر كومة من الأشواك. هل تسألني عما أريد منك؟».

ابتسم مونغ ببطء وقال: «كلا يا كوبلاي. أنا أعرف ما أريد. سيدمر هولاكو أولئك الذين يؤمنون بالإسلام، وسيبقي آريك بوك الوطن آمنا، وسأكون أنا خان الأمة، ولكن أنت لديك مسار آخر لتسلكه، عليك إكمال ما لم ينهِه أوجيدي وجنكيز».

قفز عقل كوبلاي إلى الخاتمة، وابتلع بشكل غير مريح. تمتم كوبلاي: «سونغ».

«نعم سونغ، يا كوبلاي. عشرات المدن، وعشرات آلاف الفلاحين سيكونون عمل حياتك. وباسمي، سوف تضع نهاية لما بدأه جنكيز».

سأل كوبلاي بهدوء وهو يحاول إخفاء توتره بشرب القليل من النبيذ: «وكيف ستحقق حلمك العظيم؟».

«لقد بدأ جنكيز غزو تشن من منطقة تشي تشي. لكن مستشاري وجد بوابة أخرى لسونغ، أريدك أن تأخذ الجيش إلى الحدود الجنوبية الغربية، يا كوبلاي، إلى إقليم يونان. هناك مدينة واحدة، وبالرغم من أنهم قادرون على استدعاء جيش يوازي جيشي. إلا أنني أعتقد أننا نستطيع الانتصار بسهولة على رجل لم يسبق ليديه أن تلطختا بالدم».

ثم ابتسم: «أريدك أن تصبح الحفيد الذي أراده جنكيز، أريدك أن تكون الفاتح المغولي، وأنا أعرف أن لديك الوسيلة والقدرة على تغيير حياتك، بايعني وسأمنحك سلطة لقيادة الجيوش، وسأجعل من اسمك اسما يُخشى نطقه في سونغ».

شرب كوبلاي كأسه وارتعش، كان عليه أن يُعبر عن أولى شكوكه أو يجعلها تسيطر عليه للأبد.

«هل تتوقع أن أُقتل يا أخي، عبر إرسالي لمواجهة جيش كهذا؟ هل هذه خطتك؟».

أجابه مونغ ضاحكا: «لا تزال تبحث عن حبكات وألاعيب وراء الحديث، لأنك كنت تحت رعاية ياو تشاو لوقت طويل يا أخي، في بعض الأحيان تكون الأشياء بسيطة، كما يجب أن تكون. سأضع تحت تصرفك أفضل قادتي، أتظن أنني سأرسل أويانغ خاداي إلى الموت؟ هدئ من روعك، أخي. بعد بضعة شهور سأصبح الخان، هل تعلم ما يعني هذا؟ أنا أتذكر جنكيز. الوقوف في مكانه...

أكثر مما أستطيع الوصف، لا أريد أن أقوم بالألاعيب أو حبك الخطط المعقدة. لقد تقدم السونغ نحو منطقة تشن، أكثر مما يجب. وإن لم أوقفهم قريبا، سيستعيدون ما احتله جنكيز، تلك خطتي الوحيدة، يا أخي. وهدفي الذي أسعى وراءه».

رأى كوبلاي الصدق في حركات مونغ وإيماءاته، وأدرك أن أخاه يؤدي الدور الذي حصل عليه بجدارة. احتاج الخان لبعض الرؤيا، ليكون قادرا على الترفع عن بعض مشاكل الشعب والعائلة، وهو يبذل قصارى جهده للقيام بذلك، لكنه كان مؤثرا وببعض الجهد استطاع كوبلاي أن يزيح الشكوك عنه. في النهاية سأله: «ما القسم الذي كنت تريده؟». كان مونغ يراقبه عن قرب، وكانت مشاعره مخفية.

«أقسم لي إنك ستنحي عادات تشن جانبا، وأنك ستتصرف وترتدي مثل الجنود المغول، وستتدرب على السيف والقوس صباح كل يوم حتى تُنهك، وأنك لن تقرأ الكتب خلال حملاتك، أقسم وسأمنحك الجيش اليوم، وسأضع أويانغ خاداي تحت تصرفك على أن تكون القيادة لك». كاد أن يعطس «إن كان هذا كثيرا عليك، بإمكانك العودة إلى المكتبات هنا وانتظر مضي السنين، وأنت تتساءل دائما ما كان بإمكانك أن تفعل في حياتك».

تجمدت أفكار كوبلاي، لقد خطط مونغ ليصبح الخان، وظن بأن تغيرا مشابها يمكن أن يحصل لأخيه. فكّر كوبلاي بياو تشاو والسنين المليئة بالسلم التي عاشها في كاراكورم. أحب صمت الدراسة، وجمال البصيرة، ولكن جزءا منه أحب قيادة الرجال في الحرب. إن دم جده يجري في عروقه كما يجري في عروق مونغ. بعد مضي وقت طويل بدا دهرا قال كوبلاي: «لقد وعدت هولاكو بالمنصب، إن احتل بغداد».

ضحك مونغ بصوت عال، وكان هناك صدى. لقد بدأ يشعر أن أخاه الباحث يرفضه، وشعر أنه ثمل ولا يستطيع الوقوف فوصل إلى كومة الخرائط والوثائق. استقر إصبعه على الأراضي الشاسعة في شمال الصين ووضع الخنجر عليها.

«هناك منطقتان هنا، يا أخي. نان تشيان وتشينغ تشاو، وهما لي وأستطيع منحهما لمن أريد. اختر أي واحدة منهما، وسأبارك لك، ستكون لك حصتك في أراضي تشن، وستكون ملكية خاصة لك. إن وافقت على هذا، دعني أرى أنه بإمكانك ربح هذه المعركة». ظل مبتسما في الوقت الذي كان فيه كوبلاي يتفحص الخرائط.

«هل اتفقنا؟».

قال كوبلاي: «أعطني ياو تشاو مستشارا ونحن...» وترك كوبلاي الكلمات تتسرب من فمه من دون التفكير أنها يمكن أن تؤدي إلى موته. لكن كان هناك أوقات حيث يجب اتخاذ القرار بسرعة، وامتلأ جزء منه بالإثارة نفسها التي رآها في إخوته الصغار.

قال مونغ بسرعة: «إنه لك، وأقسم إنه يمكنك امتلاك كل علماء تشن في كاراكورم إذا قلت نعم على هذا. سأرى عائلتي تنهض، يا كوبلاي. وسيعرف العالم أسماءنا، أقسم على ذلك».

نظر كوبلاي بتمعن إلى الخرائط. كانت نان تشان قريبة من النهر الأصفر، وذكر أن السهل كان عرضة للفيضانات. كانت المنطقة مكتظة بالسكان وتوقع مونغ منه أن يختارها. بينما كانت تشينغ تشاو أبعد إلى الشمال من ينكينغ، على حدود الوطن المغولي. ولم تكن أي من هاتين المدينتين ملحوظتين. وتمنى لو أن ياو تشاو كان هناك ليقدم رأيه.

أخيرا قال: «بعد إذنك، سوف أحصل على تشينغ تشاو».

تتبع مونغ الخطوط على الخريطة وقال: «الصغيرة؟ هل تكفي، سوف أعطيك. يا أخي هيو مينغ أيضا، وهي ولايات واسعة تشكل خانيات تقريبا، وستحصل على كثير غيرها إن كنت ناجحا، لا يمكنك القول إنني لست كريما».

قال كوبلاي بصراحة: «لقد منحتني أكثر مما كنت أتوقع. حسنا يا أخي، إنني أمنحك قسمي، سأحاول أن أكون الرجل الذي تريده». وأمسك بيد أخيه الذي ضغط عليها وهو يشعر بالفخر والرضا. كان كل منهما متفاجئا من قوة الآخر.

في الربيع، اجتمعت الأمة في سهل في عمق أرض الأجداد. لا يزال الرجال والنساء المسنون يتذكرون كيف جعل جنكيز القبائل ترابط هناك، واستبدلت راياتها الخاصة بواحدة عليها ذيل الحصان الأبيض. كان السهل واسعا ومسطحا، لذا كان من الممكن الرؤية لأميال في أي اتجاه، وكان هناك نهر يجري في جزء منه. شرب مونغ الماء من المكان الذي وقف فيه جنكيز منذ سنوات.

ترك باتو ولايته الروسية ليأتي مع حراس الشرف، وصورة والده، جوشي. لقد شعر بالحزن لرؤية سورهاتانا نحيلة جدا ومتعبة، ومثقلة بالسعال الذي يزداد سوءا يوما بعد يوم. كانت تتعرض للحمى مرارا مما جعل كوبلاي يعتقد في بعض الأحيان أنها متمسكة بالحياة لترى مونغ خانا.

من الغرب أتى بيدور، ابن تشاغاتاي. لقد بدا ثراءه جليا من خلال الذهب الذي تزين به وآلاف الأحصنة التي رافقته. وبصفته خانا لأرض الوطن نظّم آريك بوك كل شيء، بعد شهرين وصل الجميع واحدا تلو الآخر، وأنشأ الأمراء والقادة مخيمات حتى غطى اللون الأسود معظم السهل بسبب ازدحامه بالناس والحيوانات.

جاء الرهبان المسيحيون من روما وفرنسا، وأتى أمراء كوريو الذين سافروا آلاف الأميال لحضور تنصيب الرجل الذي سيحكمهم، وكانوا من آخر الواصلين، تبادل الناس السلع والخيول، وعقدوا صفقات جعلت البعض غنيا والبعض فقيرا لأجيال. تدفق العرق والنبيذ بكميات كبيرة، وذبحت آلاف الحيوانات لإطعام الجميع.

عندما حان الوقت، قاد مونغ عبر الحشود التي ركعت له وبايعته ومنحته قسمها. لم ينافسه أحد، فهو حفيد جنكيز وأثبت أنه من سلالته، ومن حقه القيادة، وترك وراءه سنوات حكم غويوك بكل ما حملته من مرارة.

ركع كوبلاي مع الآخرين، وهو يفكر في الجيش الذي سيقوده إلى أراضي سونغ، وتساءل إن كان مونغ قد فهم التحدي الذي وضعه. قضى كوبلاي معظم حياته في المدينة، وقد شحذ ذهنه بمؤلفات أعظم الفلسفات من لاو تزو وكونفوشيوس إلى بوذا، لكن كل شيء أصبح خلفه.

زكّي مونغ خانا، وارتعش كوبلاي لذلك، لكنه قال لنفسه إن هذا بسبب الترقب وليس خوفا.

القسم الثاني
«النار هي اختبار الذهب،
ومحنة الرجال الأقوياء»

13

كان سليمان كبيرا في السن، ولكن الجبال والصحاري قوّت جسده، بحيث يمكن رؤية الأوتار والعضلات تحت جلده. في سنته الستين، بقيت عزيمته قوية، وأصبحت بصلابة الألماس بسبب الحياة التي عاشها. عندما تكلم، كان صوته يوبخ بلطف.

«لم أسأل عن هذا يا حسن أليس كذلك؟ لقد سألت إن كنت تعرف من سرق طعامنا من المطبخ، وليس إن كنت الفاعل».

ارتجف حسن بوضوح، وتمتم بإجابة غير مفهومة. وركع على الأرض الحجرية أمام كرسي سليمان. كان سيده يرتدي ثيابا سميكة، أما حسن فكان يرتدي ثوبا كتانيا، وفي ظل جبل هودجان، كانت الغرفة لا ترى الشمس إلا بعد الظهر، ولأجل ذلك كانت تستخدم لحفظ اللحم.

قال سليمان ضاحكا: «اقترب يا حسن».

انتظر إلى أن أصبح على ركبتيه فضربه على ذراعه، ثم ضربه بقفا يده على وجهه. تراجع حسن، وأخفى وجهه بيديه، وعندما سال الدم من أنفه وقف بصمت مخيف وهو يرى القطرات اللامعة. بينما كان سليمان يشاهد الشاب الذي مد إصبعه ولطخ الحجر بخط أحمر. امتلأت عيناه بالدموع، فضحك سليمان عليه بصوت عال.

«أتستحق سرقة بعض الفطائر كل هذا؟».

تجمد حسن، غير متأكد إن كان السؤال فخّا أم لا، وهز رأسه ببطء، فتعجب سليمان في سره.

«أتمنى لو أن كل الرجال سيئون في الكذب مثلك، يا حسن، لكان العالم أفضل، ولاختفى كثير من المشاكل. هل هناك جزء من دماغك يفهم أنه لا يجدر بك أن تسرقني؟ فأنا دائما ما أكتشف الأمر وأعاقبك؟ وبالرغم من ذلك تكرر الأمر، أحضر عكازي يا حسن».

نظر الشاب إلى سيده وبدا شديد البؤس، وهز رأسه، ولكنه تعلم أن الأمر سيكون أسوأ إن رفض. مع مراقبة سليمان له وهو مستمتع، تعثر بقدميه وهو يعبر الغرفة وجسده يتألم بسبب الكدمات. مرت أيام من دون أن يتعرض للضرب. لم يفهم لماذا كان سيده يؤذيه، وتمنى لو أنه قاوم كعكات العسل، ولكن الرائحة كانت تدفعه للجنون. وعبر السنين، كسر له سليمان الكثير من أسنانه حتى لا يأكل دون ألم، وكانت كعكات العسل ناعمة، تذوب على لسانه بشيء من النشوة.

ضرب سليمان يد الشاب عندما أعطاه العصا. كانت من قصب السكر برأس موزونة وشفرة خنجر مخبأة في المقبض، مناسبة في كل الطرق للشخص الذي قاد عشيرة القتلة الإسماعيليين في ألموت. رأى حسن يبكي فوضع ذراعه حول كتفه عندما وقف.

لقد كان صوته لطيفا: «اصمت، يا فتى. هل تخاف من العصى؟».

أومأ حسن ببؤس.

«أنا أفهم. أنت لا تريد أن تُربّى. ولكن إن لم أفعل سوف تسرق مرة ثانية، أليس كذلك؟».

لم يفهم حسن، ونظر بعينين خاويتين إلى العجوز ذي الوجه القاسي. كان حسن أصغر وأعرض من سليمان، وكانت كتفاه قويتين بسبب العمل بالحدائق. من الممكن أنه وقف باستقامة لوقت أطول، وبالرغم من ذلك تعثر عندما قبّل العجوز خده.

«من الأفضل أن تتقبل عقابك كفتى جيد، هل يمكنك فعل ذلك لي؟ أيمكنك أن تكون شجاعا؟».

أخفض حسن رأسه، والدموع تنهمر من عينيه.

«الأمر كذلك. الكلاب والفتيان والنساء، يا حسن. يجب أن تضرب، أو تفسد». أحضر سليمان العصى فجأة، وكسرها على رأس حسن، فصرخ الشاب وسقط بينما كان سليمان يقترب منه، ويوسعه ضربا.

غطى حسن وجهه يائسا، ولكن سليمان ضرب صدره بسرعة بقبضته، في منطقة أعلى المعدة وأسفل الحجاب الحاجز فتكور حسن على نفسه، وهو يئن، محاولا أن يلتقط أنفاسه.

راقبه سليمان بدهشة، وفوجئ أنه كان يلهث بعض الشيء. كان التقدم في السن بمثابة لعنة، لربما كان سيواصل معاقبة الأحمق لو أن ولده لم يختر تلك اللحظة ليصعد الدرج إلى الغرفة. بالكاد

لمح ركن الدين حسن عندما خطا إلى الغرفة.

«لقد أرسلوا الجواب يا أبي».

ساء مزاج سليمان عند سماعه تلك الكلمات، ووقف يفكر وهو يفرك بقعة دم عن العصا بإبهامه.

«وماذا يقولون يا بني؟ هل ستتركني أنتظر؟».

قال ركن: «لقد أعادوا رجالنا سالمين، ولكن الرسالة تنص على أن نتخلّى عن الحصن».

أشار سليمان إلى حسن بالنهوض، وأعطاه العصا ليضعها جانبا. كان غريبا، ولكنه كان يفضل مرافقة الأحمق على ولده في بعض الأوقات، مثل كلب الصيد المفضل. ربما لأن حسن لم يكن أبدا مخيبا للآمال، بما أن سليمان توقع القليل منه.

قال سليمان: «لا شيء آخر؟ ليس هناك تفاوض، أو عرض مضاد؟ ألم يقم أخ الخان هذا، هولاكو، بإعطائي أي شيء بسبب الألم الذي تعرضت له».

«كلا يا أبي، أنا آسف».

لم يشتم سليمان أو يظهر أي ردّ فعل. اعتبر أن مثل هذه العروض غير مجدية، أو أسوأ فقد كانت ميزة لأعدائه. عندما كان غاضبا من ضرب حسن، كان قادرا على التكلم بهدوء ولطف، وكما اعتقد، كانت كؤوس البورسلين تصعد الدرج المتعرج إلى البرج، فابتسم منتظرا.

«إنه موعد شرب الشاي، يا ركن. أترغب بالانضمام إليّ؟».

أجاب ركن: «بالتأكيد يا أبي». لم يسمع المرأة تقترب مما جعله ينظر بدهشة عندما دخلت مع صينية ثقيلة.

التفت حسن بسرعة عندما سمع خطواتها. كانت كاميليا جميلة جدا كما عنى اسمها، شعرها أسود وبشرتها ناعمة. وكان خصرها يتمايل عندما تمشي ولم يكن بمقدور حسن إبعاد نظره عنها.

ضحك سليمان لمنظر حسن الدائخ. كانت عشيقته قبل أن يعطيها منذ سنتين إلى حسن كزوجة. كان سليمان يستمتع بالارتباك والخوف الذي يظهر على حسن، فهو لم يكن مع امرأة من

قبل وهذا ما شكل تسلية كبيرة لسليمان الذي يستمتع بميزة إيجاد نقاط الضعف لدى الرجال الآخرين، وكان حسن ليفعل أي شيء كي لا تتعرض كاميليا للأذى.

قدمت كاميليا الشاي له من دون أن تنظر إلى زوجها، وراقب سليمان ببهجة كيف تتحكم بأعصابها. حيث يمكن تعليم الكلب بعض الحيل، ولكن البشر كانوا معقّدين. كان يعلم أنها لن تتجرأ على أن تعطي اهتماما لحسن بوجوده.

لقد رماه سليمان عند قدميها مرات عديدة مغطى بالدم، لمجرد كلمة أو ابتسامة. علم أن الأحمق سيقع في حب فتاة جميلة، ولكن الأمر العجيب أنها بدت معجبة به أيضا، أمسك سليمان فنجان الشاي بيديه النحيلتين، مراقبا حافة الفنجان وهو يستنشق رائحة الشاي المنعشة، وتمنى لو كان بإمكانه أن يجعل قادة المغول يرتجفون بهذه السهولة مثل خادمته.

عندما انحنت كاميليا مرر سليمان أصابعه ببطء على وجهها.

وقال: «أنت جميلة جدا».

أجابته ورأسها لا يزال للأسفل: «أنت تشرفني، يا سيدي».

فرد عليها: «نعم».

ثم أظهر أسنانه الصفراء بينما كان يحتسي الشاي وقال: «يا زهرتي خذي حسن معك، يجب أن أتحدث مع ولدي الآن».

انحنت كاميليا عند خروجها، وراقب سليمان الطريقة المتثاقلة التي مشى فيها حسن خلفها، ويداه ترتجفان. لقد نوى أن يصرخ لهما مرة أخرى، ولكن ركن الدين بدأ بالتحدث مجددا قبل أن يصرخ لهما، فنظر إلى ولده منزعجا.

«يمكن أن يأخذ حصن شيرات، وهو دليل على قوتنا. إنه غير آمن، ومليء بالسحالي والحجارة المحطمة. إن عرضنا عليه تدمير الحصن، سنكسب سنة على الأقل. وربما حينها، تكون جيوش المغول قد ابتعدت».

راقب سليمان ولده، وهو يتمنى مرة أخرى لو أنه أنجب ولدا ذكيا، تمنى سليمان لسنين أن ينجب وريثا كما يتخيل، ولكن هذه الأحلام تبددت منذ زمن.

قال سليمان: «لا ترضِ النمر بإطعامه لحمك». بينما كانا يتحدثان تمكن حسن وكاميليا من الهروب مما جعله ينزعج من ركن لمقاطعة متعته. ثم أكمل «إن كان شيء بغيض مثل هذا يحصل لتراثي، فيجب أن يحصل بالقوة، يجب أن نكتشف ماذا يريد هذا القائد، ونصلي ألا يكون مثل جده جنكيز، بالرغم من أنني لا أعتقد ذلك، فالرجال من أمثاله نادرون».

قال ركن: «أنا لا أفهم».

«بالطبع، لأنك رجل ضعيف، وذو شهية كبيرة، لهذا تمتلك بطنا ويتوجب عليك أن تزور أطبائي ليحرقوا تلك الدهون».

توقف سليمان قليلا، وهو ينتظر إن كان ولده يجرؤ على رد الإهانة. بقي ركن الدين صامتا، فأصدر سليمان صوت سخرية قبل أن يكمل.

«عندما أتى جنكيز إلى موطن والدي، لم يكن يسعى سوى إلى الدمار، فهو لم يكن يسعى وراء الثروة بقدر بحثه عن القوة والسمعة. لذا عليك أن تكون شاكرا لعدم وجود رجال مثله في العالم، يا ولدي. أما بالنسبة إلى ما تبقى، فيوجد دائما شيء. لقد عرضت على هولاكو السلام لكنه رفض. اعرض عليه الذهب الآن، وانتظر رده».

قال ركن: «كم أعرض عليه؟».

تنهد والده: «لا يجب أن تقدم أي عملة، فإذا ذهبت إليه بعربات من المجوهرات، سيتساءل كم لدينا هنا. وسيبذل قصارى جهده ليرى الحصن مدمرا. حتى جنكيز نفسه أخذ الجزية من المدن لأن من حوله كانوا يستمتعون بكل ما يلمع سواء من معادن أو مجوهرات. قدم له... نصف ما نملك من كنوز هنا، لنتمكن من مضاعفة العرض عندما يرفض».

سأل ركن منذهلا: «أتطلب مني أن أقدم له كل شيء؟».

صفع سليمان وجه ركن، مما أوقعه أرضا وتركه يتألم. كان صوت سليمان هادئا عندما أكمل الحديث.

«ما الجيد في إبقاء الذهب لدينا إن ذهب كل من حصن شيرات وألموت؟ لم يجرؤ أحد في العالم على تهديدنا سوى هؤلاء المغول. لذا لا يجب عليهم القدوم إلى هنا يا ولدي، لا يمكن لأي

حصن أن يصمد إلى الأبد، ولا حتى ألموت. يمكنني أن أقدم له أي شيء حتى الملابس التي أرتديها إن كان ذلك يدعنا بسلام، ربما يمكن شراؤه بالذهب، سنرى ذلك».

قال ركن وخده لا يزال أحمر من الصفعة: «وماذا بعد ذلك؟ ماذا سنفعل إن رفض؟».

هز رأسه وقال: «إن رفض الذهب، سنهدم شيرات، بالرغم من قيمته الكبيرة بالنسبة إلينا. هل تعلم أنني ولدت هناك، يا ولدي؟ وبالرغم من ذلك سأضحي به إن كان ذلك ينقذ البقية، وإن طالب أمير المغول بالمزيد، لن يكون لديّ خيار سوى إرسال أفضل رجالي لتسميم طعامه ونبيذه، وقتل ضباطه واغتياله في سريره، لقد حاولت تفادي هذا الأمر، يا ولدي. فأنا لا أريد أن أُغضب مدمر القرى، وسفاح النساء والأطفال».

أحكم سليمان شد قبضته، عندما تذكر أن والده أرسل رجالا إلى الخان العظيم، لكنهم فشلوا. وكانت النتيجة زوبعة من الدمار تركت المدن في خراب، وملأت المنطقة بالقتلى، حتى اليوم لا يزال هناك صحارٍ في المكان الذي مر فيه جنكيز».

«سآخذ حياته إن لم يترك لي خيارا آخر، فمن يهدد وجودنا لن يكون أعظم من الراعي الذي يرعى قطعاني، فالموت سيكون جزاء لهم».

راقب هولاكو الجثث تتطاير، وكان متأكدا من أن مونغ سيكون فخورا به. لم يظهر أي رحمة بينما كان يتقدم نحو جنوبي وغربي سمرقند. لقد انتشرت الأقاويل حول وجود خان جديد يجب أن يهابه الجميع، فهم هولاكو مهمته، واستمتع في الحصول على موافقة أخيه الكبير. لم يبقَ على قيد الحياة سوى تسعة رجال في المدينة بعد أن ذبح جنود هولاكو كل الكائنات الحية، وتحول النهر إلى اللون الأحمر بسبب الجثث التي ألقيت في مجراه. لقد استمتع هولاكو بالمنظر، وهو يتخيل أن ذلك اللون سينتقل إلى مئات الأميال، وينشر الذعر في قلب من يراه، ولن يكون هناك بوابات مغلقة في وجهه عندما يتقدم مرة أخرى.

لقد أحرق ثلاث مدن صغيرة، وعشرات القرى بينما كان يتقدم غربا. قتل البعض، لكنه ترك بعض السكان على قيد الحياة، ولكن بفقر شديد بعد أن أخذ رجاله الخبز، والزيت، والملح. لم يعرف اسم المدينة ذات السور التي حاولت المقاومة عن طريق وضع الحديد على البوابات والتراجع إلى القبو بينما حاول جنودها حماية الأسوار. لكنها دُمرتْ في يوم واحد، بالرغم من أنه لم يمتلك عدد المدافع التي أعطاها مونغ لكوبلاي، لكن كان هناك ما يكفي. في صف مكون من ثمانين جنديا، دمرت الصخور التي ألقيت بالمنجنيقات البوابات بضربتين، ولكنه لم يتوانَ عن مهاجمة المدينة،

وطالب بأن يستمر الإطلاق، محولين الحجارة إلى حطام وجاعلين من المدافعين أشلاء متطايرة، وراقب الجنود منتظرين أوامره.

لم يمنعه من إيقاف إطلاق النار إلا رغبته بعدم تبديد مخزونه من البارود، لقد كان مستمتعا بالرعد الذي كان يستحضره من حركة يده. كانت فكرة قول كلمة «أطلقوا» ورؤية الجدران تتحول إلى حطام أمرا يحمل على الإدمان، وفي المساء أرسل رجاله لجمع الغنائم.

اغتصبت الفتيات الصغيرات قبل أن يقيدن في مجموعات ويتم المقامرة بهن، أما حيث وجدوا الأطفال والعجائز فكانوا يقتلون، أما الرجال فلم يكن لهم أي قيمة بالنسبة إلى المغول، وكانت الفضة والذهب تجمع من كل المنازل وتكدس في كومة وسط المدينة قبل أن توزن.

رافق هولاكو الحدادين الخاصين به، الذين اعتادوا إذابة المعادن الثمينة والتخلص من الشوائب، وكان الكيميائيون الفرس هم من يشرفون على هذه الأعمال، وسُمح لهم بالاحتفاظ بعشر ما يجمعونه، يتقاسمونه في ما بينهم، وبالرغم من ذلك أصبح هناك العديد من الأثرياء الأمر الذي حمل هولاكو على قطع مئات الأشجار من أجل صنع عربات لحمل الثروات.

كان العديد من المدافعين ينسحبون عند انهيار الأسوار، بسبب السعال والاختناق الناتج عن الغبار. حاول بعضهم الاستسلام، ولكن هولاكو لم يكن يشعر سوى بالاحتقار نحوهم، ويستمتع بالنظر إلى جثثهم، حيث لم يقم بتعليقهم من رقابهم، حتى لا يموتوا بسرعة، بل علّق بعضهم من أرجلهم ولكن الغالبية علقوا بحبال من إبطهم وبقرت بطونهم لينزفوا حتى الموت، قاوموا الموت لفترة طويلة، وسُمع صوت بكائهم عبر الهضاب. عندما أُحرقت المدينة أشار هولاكو للقائد إليوجي بقطع أيدي الأسرى. لم يتحدث اللغة المحلية، لذلك ترجم كلماته أحد الخيميائيين، إلى رجل مسلم معمم يدعى أبو كريم.

قال هولاكو: «سأعطيك أحصنة، وستمشي نحو الغرب أمام جنودي وعرباتي وأسلحتي وتخبر الجميع أنني قادم، وأخبر كل شخص تلتقيه أنه يجب أن يفتح بابه لي، ويجب أن يعطيني زوجاته وبناته ليصبحن لي بالإضافة إلى ثروته، وبذلك فقط يمكنه أن يحافظ على حياته، وأخبرهم إن أغلقتْ مدينة أو قرية أو حتى منزل بابه سيحل الدمار بالجميع، إلى أن تبكي الأرض من شدة الألم».

أشاح بنظره بعيدا عنه من دون أن يهتم لانتظار انتهاء المترجم. كانت بغداد في الجنوب الغربي والخليفة هناك أرسل الكثير من التهديد والأكاذيب الصاخبة باتجاه الشمال، شعر هولاكو

برغبة في تدمير معاقل القتلة، ووقف بانزعاج يفكر بأي المكانين يجب أن يبدأ.

14

رأى كوبلاي عددا وفيرا من الحفر التي تستخدم كمرحاض، وجنودا يقودون الأحصنة ونساء يجهزن النار لكي يطهين لأزواجهن وأولادهن. لم يعرف يوما حياة التنقل التي تعيشها القبائل، ولكن جزء منه شعر بالسلام. ونظر إلى الأفق متسائلا مرة أخرى حول الأمة التي أحضرها نحو الجنوب. لا بد أن هناك أكثر من مليون روح عبرت حدود أراضي سونغ، حتى أنه لم يكن متأكدا من العدد.

مدّد ظهره متنهدا بينما كانت زوجته وابنه ينصبان الخيمة له. حاول كوبلاي ألا يضحك عندما رأى الفتى يسرق فتات من اللحم من الحفرة التي صنعتها تشاباي لتجعل منها مخازن، لم تبارح عيني زوجته الحفرة إلى للحظات، لكن يدي الصبي كانتا سريعتين. لقد حشا زين جين فمه قبل أن تعود. عشقت تشاباي ولدها الأول، ولكن ذلك لم يعن أنها كانت متبلدة الذهن. بينما كان جين زين ينازع ليتكلم قامت بنخزه في معدته مما جعل الطعام يتناثر من فمه وهو يضحك.

ابتسم كوبلاي، وتفاجأ كيف تجيش مشاعره عندما ينظر إلى عائلته. لم يكن الطفل وحده من أسعده، ولكن لحظة مع عائلته كانت تجعله يفهم والديه. لقد ضحّى والده بحياته لإنقاذ الخان، وقدّر كوبلاي أخيرا تلك التضحية. لقد تصرف الرجل من أجل الأمة، وهو على علم أنه لن يرى أولاده أو زوجته مرة أخرى. بطريقة غريبة، ترك ذلك دينا لن يستطيعوا أبدا رده كيفما عاشوا حياتهم، لن يقدروا أبدا على تصرف يوازي آخر فعل قام به والدهم. شعر كوبلاي أن مونغ يشعر بالحمل نفسه. حاول أخوه الكبير أن يكون مثاليا، لكن لن يعرف السلام أبدا وهو يبحث عن رضى الموتى.

لم يبخل مونغ عليه بالجنود والمعدات، فمع مرافقه أويانغ خاداي كقائد للجيش وبايار وهما من كبار القادة، سافر كوبلاي ومعه مئتي مدفع، وآلاف العربات المحملة بالبارود والمعدات يغطيها قماش عازل للماء. لقد كان لديه أربعة وتسعون رجلا وامرأة ليعتنوا بالشعب الذي ينتقل، وبينما وقف هناك مستغرقا في حلم اليقظة، رأى البعض منهم على مقربة منه. تنهد عندما فكّر بما ينتظره،

ولكن المهمة لم تكن صعبة عليه، حتى الآن. كانت ينام كل ليلة، ولكن يستيقظ قبل الفجر ليتدرب على السيف والقوس، وعندما بدأ يشعر بخفة الدرع فوق جسمه أحس بالامتنان لمونغ بسبب التغييرات التي حصلت له بفضله. كان الخان يعرف كيف يصبح الشخص محاربا أكثر من أخيه، ولكن للأسف كان ذلك كل ما يعرفه.

شعر كوبلاي بحكة تحت إبطه، فمرر إبهامه تحت الدرع ليحك الالتهاب هناك، وشعر بالقليل من المتعة بسبب ذلك. كانت الحياة جميلة، فقد رأى ولايات تشن حيث تنمو النباتات من الأرض السوداء. استأجر ياو تشاو العديد من الأراضي عن طريق الدفع مع أول موسم. فإن نجح فلاحو تشن كان كوبلاي ليحصل على الخمس، وسيذهب المال لإنشاء مدينة في الشمال.

كان حلما يستحق العمل لأجله، وكان شيئا أكبر من مجموعة المحاربين والأحصنة التي كانت تملأ الأفق. بالرغم من أنها كانت أكثر بقليل من مربع محدد بالأراضي العشبية، بدأ رجاله يسمونها شانغدو، وتعني «العاصمة العليا». أما من لم يكن يتحدث لغة تشن فدعاها زانادو، وقد قال الكلمة بصوت عال.

مسحت تشاباي جبينها متنهدة، وطلبت من زين جين أن يحمل الطبق الكبير للداخل من أجل الفرن، كان اللعاب يملأ فم كوبلاي، وكان طوال الوقت يشعر بالجوع، وقفت زوجته ومددت ظهرها، فنظر إليها وتقابلت أعينهما مزيلة الإرهاق عنهما. كان يتخيل القصور بينما كانت معدته تقرقع.

قال كوبلاي: «هل أحضرتِ لي النبيذ؟».

أجابت: «بالطبع، بالرغم من أنني آمل ألا تفرغ الإناء اليوم وتشتكي في الصباح من ألم رأسك، لأنني عندها لن أتعاطف معك».

قال: «أنا لا أشتكي أبدا، فأنا كالحجر أبقى صامتا».

«ربما أخطأتُ في الرجل الذي كان يتعثر في الصباح أمام الخيمة يشتم ويطالب بمعرفة من سرق قبعته، لقد ظننته أنت، في الحقيقة، لقد تمنيت أن يكون أنت لأنه كان نشطا وبارعا جدا ليلة أمس».

«لقد كنت تحلمين يا امرأة».

نظرت إليه، وأبعدت شعرها عن وجهها، وأخذت تربطه محركة يديها بسرعة. فحدق كوبلاي إلى ثدييها بينما كانا يتحركان تحت ثوبها، فسعلت.

«هناك دلو من الماء عند الباب اغتسل به أيها الماعز العجوز، ولا تستغرق في أحلام يقظتك، فيبرد الطعام، فأنا أعلم أنك ستتذمر أيا يكن الأمر، ولكنني سأتجاهل تذمرك».

دخلت الخيمة وسمعها كوبلاي توبخ زين جين بسبب ما سرقه من الحفرة، فضحك كوبلاي في سره. لم يتوقع كم ستستغرقه الرحلة إلى سونغ، فقد مرتْ سنتان على مونغ خانا، وسنة على مغادرته كاراكورم ناقلا شعبه جنوبا، يوما تلو الآخر. لقد كان جنوده مع عائلاتهم، فلم يكن هناك إحساس بعدم الصبر، ولم تتوقف حياتهم. كانت الرحلة ممتعة لهم بقدر المتعة التي سيشعرون بها عندما يصلون إلى وجهتهم. في المساء، كانوا يلعبون مع أولادهم ويغنون ويرقصون ويقامرون ويمارسون الجنس، وفي النهار يهتمون بآلاف الأمور الصغيرة، وهذا ما بدا غريبا بالنسبة إلى شخص عاش جل حياته في كاراكورم.

حافظ كوبلاي على قسمه لأخيه مونغ، ولم يفتح كتابا أو مخطوطة منذ أن غادر المدينة. لقد عرض عليه ياو تشاو أن يقرأها له كل مساء، بالرغم من أن كوبلاي لم يكن مرتاحا بالحنث بوعده، ولكنه لم يستطع أن ينكر أن قراءة ياو تشاو تريحه. حتى ابنه زين جين كان يستمتع بصوت الدندنة، ويجلس في وقت متأخر للاستماع بينما يُفترض به أن يكون نائما. عانى عقل كوبلاي كما تعاني الصحراء وقت الجفاف، إلا أن تدفق الأفكار كان ينعشه.

كان جسده أيضا قد اشتد من شهور السفر، وكانت القروح من سرج الحصان ذكرى مؤلمة، فقد فعل مثل المحاربين ذوي الخبرة ووضع غمدا أصفر داكنا أسفل عاموده الفقري، تقريبا بعرض يد رجل. وقد انزعج من البقع الزيتية الناتجة عن التعرق التي تبقى على جلده بغض النظر عن المرات التي يستحم بها. لم يكن مونغ قد اعترض على موضوع الاستحمام، وبالرغم من أن كوبلاي كان يرتدي الدرع فقد عانى بشكل أقل من رجاله. في رطوبة الصيف، كانت رائحة لحم كريهة تعم المكان بالإضافة لرائحة الصوف والأحصنة. وافتقد كوبلاي عباءات تشن التي كبر على حبها.

كانت خيمة الأورلوك قبالة خيمة كوبلاي، وفيها ثلاث نساء، ومجموعة من الخدم يلبون حاجاته. حدق كوبلاي ليرى أن أويانغ خاداي يقف أمام أحدهم ويعطيه بعض التعليمات حول إصلاح سرج. كان ظهر الأورلوك مستقيما دائما. سخر كوبلاي من الأمر لأنه كان قد قرر بالفعل أن أويانغ خاداي هو أحد رجال مونغ، وهو بمثابة عيني الخان في تلك الحملة. فقد كان ضابطا

متمرسا من النوع الذي يبغي إثارة إعجابه، حتى أنه كان يملك ندوبا على خديه منعت لحيته من النمو. وهي التي أثبتت أنه ينظر إلى الواجب على أنه أكثر أهمية من سلامة الجسد.

بينما كان كوبلاي يشاهد، شعر أويانغ خاداي بحب لمواجهته، وعندما ضبطه يحدق إليه، رفع كوبلاي يده كما لو أنه يحييه، ولكن الأورلوك تظاهر بأنه لم يرَ شيئا، والتفت نحو خيمته، التي كانت عالمه الصغير في المخيم.

شك كوبلاي بأن الرجل ينظر إليه على أنه باحث، منحه أخوه السلطة التي لم يستحقها عن جدارة، وعندما كانا يتقابلان كل يوم، كان يستطيع رؤية استمتاع أويانغ خاداي وهو يشاهد الخطط التي يضعها كوبلاي. كان هناك بعض الجفاء بينهما، ولكن لم يكن الأمر مهما، طالما أنه يستمر في تنفيذ الأوامر. تثاءب كوبلاي وشعر برائحة الطعام مع النسيم مما جعل فمه يشتهي النبيذ الذي يهدئ من أفكاره. إنها الطريقة الوحيدة لتخفيف ما يدور في رأسه، وليخفف من تفكيك كل فكرة لصنع أشياء جديدة بالأجزاء. من خلال نظرة في الأرجاء، استوعب أنه قادر على الاسترخاء. لقد ذهب بعض التوتر عنه، حالما دخل الخيمة ورأى زين جين ينتظره.

لم تكن القوات وحدها من يتجه إلى الجنوب، فهذا الحشد الكبير والبطيء لم يكن بمقدوره أن يعتمد على عنصر المفاجأة تجاه شعب سونغ، لذلك كان هناك كشافه يراقبون من الهضاب القريبة. لقد كانت الكلمات تسبقهم، لذا كانت القرى التي مروا بها مهجورة، وكان هناك بعض بقع الدم الغريبة على الطرق. تساءل كوبلاي إن كان المواطنون قد ذبحوا حتى لا تتاح لهم فرصة تقديم المساعدة للعدو، ولم يصدق ذلك.

بالرغم من أنه أحب الثقافة، إلا أنه لم يكن يملك أدنى فكرة عن طبيعة الجيوش التي سيواجهها رجاله. كان عدد جنود السونغ يفوق عددهم بالآلاف، وكانت مدنهم مسورة، ومجهزة بالمدافع والأسلحة النارية، ولديها أصناف من المعادن الصلبة، بالإضافة إلى رماة مهرة، وبينما كان يخب بحصانه، دوّن لائحة نقاط قوتهم وضعفهم وكانت قوتهم مخيفة، ومستحيلة. أما نقطة الضعف الوحيدة التي كان يستطيع التفكير فيها أن لديهم فرسانا وأنهم يختارون ضباطهم من أصحاب السلالة النبيلة، أو عن طريق بعض الاختبارات في مدنهم. ومقارنة برجال مثل أويانغ خاداي وبايار، تمنى كوبلاي أن يكونوا مجرد باحثين تسهل هزيمتهم.

لمح بطرف عينه أحد الكشافة عائدا إلى أويانغ خاداي ليقدم تقريرا. ظل كوبلاي ينظر إلى الأمام، بالرغم من أنه شعر بقلبه ينبض بسرعة أكثر من المتوقع. فمنذ أربعة أيام عبرت صفوف

المغول حدود سونغ، وبدأت تتحرك نحو الشرق.

مهما يكن ما يفعله جيش سونغ في تلك الأشهر كان عليه أن يرد. كان يتوقع التواصل، كما قام بكل ما يجب عليه القيام به من ناحية التشكيلة وخطط المعركة، لكن كل هذا سيتغير عندما يلتقي العدو في النهاية.

ابتسم كوبلاي عندما مرت ذكرى أحد الكتب في عقله، لم يكن بحاجة إلى قراءته مرة ثانية ليتذكر ما كتب فيه. فقد حفظ عمل صن تزو منذ سنين، ومن سخرية القدر أن الكتاب كان عن فن الحرب، ومن تأليف قائد من تشن، وكان قيما جدا، ويفترض أن يكون شعب سونغ قد اطلعوا عليه.

قاد أويانغ خاداي ببطء نحوه، متعمدا عدم الإسراع، وبالرغم من أن آلاف الأعين كانت تراقب تقدم الأورلوك، وصل إلى كوبلاي وأحنى رأسه.

قال بصوت جاف ونبرة متقطعة: «إن الأعداء في الساحة يا سيدي، إنهم يتمركزون عند الضفة الأخرى من النهر، على بعد عشرين ميلا نحو الجنوب الشرقي، ورد في تقرير الكشافة وجود مئتي ألف من جنود المشاة وعشرة آلاف فارس».

تعمد أن يظهر عدم ارتياحه، ولكن كوبلاي شعر بقطرات العرق تسيل من إبطه، لقد كانت الأعداد مرعبة، ولم يظن أن جنكيز سبق له أن واجه مثل هذا العدد، باستثناء معركة في الشمال.

قال أويانغ كاسرا الصمت: «إن كنت تسمح لي يا سيدي؟». أومأ كوبلاي له ليكمل، وهو يكظم غيظه من لهجة الرجل المليئة بالغرور.

«إن عبروا النهر سنصبح لقمة سائغة لهم، ولكن من حسن حظنا أنهم لم يفعلوا، لذا اقترح أن نكمل، فبإمكاننا أن نجبرهم على العودة بالرغم من الأفخاخ والخنادق التي أعدوها، كما أن يونان التابعة لتاي على بعد مئة ميل نحو الجنوب، إن تقدمنا نحوها لن يكون لديهم خيار سوى اللحاق بنا».

انتظر أويانغ بهدوء في الوقت الذي استغرق فيه كوبلاي بالتفكير، لم يمانع الأورلوك تدخل كوبلاي اللامتناهي بالتشكيلة والمعدات. كانت هذه الأشياء متوقعه من رجل جديد. لكن المعارك كانت من مسؤولية الأورلوك. لقد وضّح مونغ هذا الأمر بنفسه قبل مغادرتهم. فقد قال له الخان وقتها: اعتنِي به، لا أريد أن يقتل نفسه وهو يغط في أحد الأحلام. لقد كان الوقت ملكه الآن وسيقود كوبلاي ليتذوق طعم أول حرب له.

بينما كان ينتظر، حكّ ذقنه بعض الشيء، حيث هناك بعض الشعر الأشيب الذي صمد عبر الزمن، لم يكن متأكدا أيجدر به قصه أو اقتلاعه عندما يصبح بالطول الكافي.

بينما كان كوبلاي يتأمل، لف أويانغ خاداي شعرة على إصبعه واقتلعها.

فجأة قال كوبلاي: «يجب أن نجتاز النهر». لقد تخيل الخرائط في عقله، وكان ما استرجعه مثاليا تقريبا. تفاجأ أويانغ خاداي لكن كوبلاي أومأ له واتخذ القرار.

«إن النهر الذي ذكرته أيها الأورلوك. يقع بيننا وبين المدينة التي قيل لي أن آخذها، ويجب أن نعبره في مرحلة ما. بما أنهم يعرفون الأرض، عليهم أن يجتمعوا في هذا الجانب. إنهم مرتاحون في صدنا بغض النظر عن المكان الذي نقرر أن نعبره. وحتى لو وجدنا نقطة عبور سوف يذبحوننا في المياه، ملحقين فينا خسائر فادحة».

هز أويانغ خاداي رأسه، محاولا إيجاد الكلمات الصحيحة لإقناع الباحث الذي لم يسبق له أن غادر كاراكورم في حياته.

«سيدي، إنهم يملكون الأفضلية بالأصل، لا يمكننا أن نعطيهم خيار الأرض أيضا، سنخاطر بإبادتنا. دعني أجرهم لمسافة ثلاثين ميلا عبر ضفة النهر، في الوقت الذي يبحث فيه الكشافة عن مكان نعبر منه، لا بد أن هناك أكثر من واحد، ويمكن أن نضع رماة ليغطوا تلك المعابر ثم يمكننا أن نأتي من خلفهم».

شعر كوبلاي بالضغط الصامت الذي يُطبقه عليه أويانغ خاداي لدفعه بعيدا، لقد كان ذلك واضحا، وهذا ما أزعجه.

«كما تقول أيها الأورلوك، لكنهم اختاروا أرضهم بعناية، وسيتوقعون منا أن نندفع نحو النهر كرجال قبائل متوحشين ثم نموت بالآلاف».

ثم فكر فجأة بطريقة لجعل عدد كبير من الرجال يعبر بسرعة وابتسم لهذا.

«كلا، سنحضرهم إلى هنا. وسنفاجئهم».

تلعثم الأورلوك قليلا.

«سيدي لا بد أن أعارض قرارك. أنا...»

«أرسل لي القائد بايار، وعد إلى الجنود أويانغ خاداي».

«كما تريد سيدي».

امتطى حصانه بظهر مستقيم أكثر مما كان من قبل، في الوقت الذي كان كوبلاي ينظر إليه بنظرات ثاقبة. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يقف بايار مكان الأورلوك، وبدا عليه القلق، فلم يكن رفيع المقام مثل أويانغ. رجل في الثلاثينات، وعلى عكس أويانغ كان ذا وجه أملس، ولم يبلغ الشيب لحيته بعد، وكان تفوح منه رائحة نتنة. لقد اعتاد كوبلاي عليها وقبل تحية الرجل، ولم يكن في مزاج يسمح له بتخفيف هواجس بايار.

«سأكلفك بمهمة أيها القائد. وآمرك أن تنفذها من دون شكوى أو اعتراض، هل تفهم؟».

أجاب بايار: «نعم، يا سيدي».

«عندما كنت صبيا صغيرا، قرأت عن جنود عبروا النهر مع جنكيز مستخدمين قاربا، هل سمعت بمثل هذا؟».

هز باير رأسه، وهو متفاجئ قليلا.

«لا يا سيدي، فأنا لا أجيد القراءة».

«هذا ليس مهما، فقط كنت استذكر الفكرة. يجب أن تذبح ستمئة من الأغنام لتنفيذ ما أفكر فيع، واحرص على ذبحها من أعلى أعناقها حتى لا يصاب الجلد بأي ضرر عندما تنزف، يجب جز صوف الأغنام قبل ذبحها، أعتقد أن هذا العمل يحتاج إلى الدقة، لذا، كلف به رجالا ونساء يعملون بحرص وتأنٍ».

نظر بايار باستغراب إلى كوبلاي الذي تنهد.

«إن معرفة شيء من التاريخ لا يضر أيها القائد، لا يفترض بكل جيل أن يتعلم كل المهارات، وخصوصا تلك التي بذلت جهود كبيرة في السابق للحصول عليها، تتمثل فكرتي بحياكة الفتحات في جلود الأغنام، وترك فتحة العنق مفتوحة، وعندها نطلب من رجال أشداء أن ينفخوا داخل الجلود المحاكة، وبعدها نستخدم صمغ الأشجار والقطران لسد الفجوات التي تبقى بعد الحياكة، أتفهم ما أقصده؟ اغلي كل المكونات، وعندما تمتلئ جلود الأغنام بالهواء وتغلق ستطفو، وإذا وضعناها جنبا إلى جنب على أغصان رفيعة سنصنع عبارات تستطيع حمل عدد من الجنود في

الوقت نفسه». توقف لإجراء بعض الحسابات في رأسه، الأمر الوحيد الذي كان كوبلاي قادرا على فعله بسرعة.

«للحصول على ثلاث عبارات، نحتاج إلى جلود ثمانين من الأغنام، سنتمكن من نقل.. ألف ومئتي جندي عبر النهر في الوقت نفسه، وفي غضون نصف يوم نستطيع نقلهم إلى الضفة الأخرى، وأعتقد أننا نحتاج لنصف يوم لنقل الأحصنة سباحة عبر النهر، وبالطبع نحتاج أن نربط حبالا حول أعناق الأحصنة حتى نتمكن من قيادها بعكس التيار. كل ما نحتاج إليه هو يوم واحد إن لم نتعرض لحوادث. كم تحتاج لإنشاء العبارات؟».

اتسعت عينا بايار عندما رأى أن الأمير عاد للتحديق إليه مجددا بعد أن انتهى من التفكير.

قال بثقة زائفة: «يومان يا سيدي». لقد أراد أن يحظى بإعجاب الرجل الذي كلفه بالمهمة لم يكن بايار يريد أن يكون مثل أويانغ فيتحمل استياء شقيق الخان.

أحنى كوبلاي رأسه مفكرا.

«حسنا، لا تقم بأي شيء آخر حتى تنهي ما كلفتك به. سأنتظرك ليومين أيها القائد. والآن أعطي الأمر في إيقاف تقدم الصفوف، واجعل الكشافة يعودون إلى المنطقة حيث ينتظر العدو، أريد أن أعرف كل تفاصيل النهر، الضفاف، والتضاريس. ما من شيء يخبرنني إياه يمكن أن يكون تافها، يجب أن يقدموا تقريرهم بعد العشاء».

«حاضر سيدي».

بتوتر ازدرد بايار لعابه وغادر. لم يسبق له أن سمع باستخدام جلود الأغنام بهذه الطريقة، لقد كان بحاجة إلى مساعدة، ولم يظن أنه يجدر به سؤال أويانغ خاداي، عند سماع صوت البوق توقف الجنود، وترجلوا عن أحصنتهم، وبدؤوا ببناء الخيام، عندها رأى بايار العربة التي تحمل كبير مستشاري كوبلاي راهب تشن العجوز المدعو ياو تشاو. بدا بايار متأكدا من أنه يعلم عن أشياء غريبة مثل العبارات.

مع بزوغ شمس اليوم التالي، كان بايار مشغولا في تحدي المهمة، تم تحضير أولى الجلود البصلية الشكل في المساء، وحملت على الأحصنة إلى النهر القريب، وبمراسم رائعة وضعت الأشياء المتمايلة على الماء، مع متطوعين لقيادتها. لكن الرجلين غرقا قبل أن يصلا إلى نصف الطريق، وسحبا بالحبال المربوطة على خصريهما. لقد بدا الأمر مستحيلا، لكن وفقا لياو تشاو لقد

نفذت هذه العملية من قبل ولكن على نطاق أضيق. حاولوا وضع الزيت على الجلود بعد أن جزوا الصوف، ثم نفخوها وختموها بسرعة، وتركوها لتجف. عندما عاد بايار إلى الضفة صلى لإلهة الأرض. إن فشلت الدفعة الأخيرة لن يتمكن من أن ينتهي بالوقت الذي حدده لنفسه، بينما كان يقف بكآبة نظر إلى ياو تشاو الذي أعطاه بعض الثقة بصمت. استلقى رجال، لُفت الحبال على خصورهم، على الجلود المنفوخة الطافية، ودفعوا بعيدا عن الضفة. لم يكن أي من الرجال قادرا على السباحة فبدوا قلقين وهم يجذفون الماء.

في منتصف الطريق، كان التيار قويا جدا لدرجة أن من كانوا يمسكون بالحبال على الضفة وجدوا أنفسهم ينجرفون مع الرجال الذين يطفون، وبسبب تعرضهم للمياه أطلق بايار صوتا عندما رأى أحدهم يقف ويرفع ذراعه من المياه، قبل أن يقوموا برحلة العودة. تم ذلك بشكل أسرع، بوجود العديد من الأيادي التي تسحب الحبال.

ربّت بايار على ظهر ياو تشاو، وشعر بالعظام تحت ردائه.

قال القائد: «سيفي هذا بالغرض». محاولا التعبير عن راحته. لم يكن أويانغ خاداي هناك لأن الأورلوك قرر ألا يحضر العمل المفاجئ الذي عم المخيم كله. بينما كانت العائلات تعمل على حياكة الجلود وتزييتها، كان الأورلوك يدرّب رجاله على الرماية ورجال فريق المدافع يتعرقون من التدريب الشاق في محاولة منهم لزيادة سرعتهم باستخدام السلاح. لم يكن بايار مهتما، فقد وجد أن العمل مذهل.

في مساء اليوم التالي ذهب إلى خيمة كوبلاي، محاولا ضبط نفسه وعدم الابتسام إلى أن يسمح له بالدخول.

قال بفخر: «لقد تم الأمر، سيدي».

ابتسم كوبلاي مجيبا بذلك على رضا الرجل الواضح.

«لم يكن لديّ شك في ذلك، أيها القائد».

15

شعر هولاكو بالحر والعطش الشديدين بينما كان يتجه نحو الشمال. كان معظم جيشه قد ذهب من دونه، مستعدين لحصار بغداد. لقد كانت مركز الإسلام ومدينة حصينة على نهر دجلة، وكانوا يعلمون أنها لن تنهار بسرعة. كان القرار صعبا، ولكنه فكر في أن الالتفاف على حصن ألموت سيكون ضربة قوية، فلم يكن الأمر أكثر من قتل حية بكعب الحذاء قبل الانتقال إلى العمل الحقيقي. عانى خلال مئات الأميال في البلاد المعادية التي رآها، وكانت حرارة الشمس تزيد من غضبه الذي رافقه لأسابيع. وضع هولاكو يده ليحجب أشعة الشمس بينما كان يحدق إلى الجبال، حيث رأى ثلجا على إحدى القمم التي عرفت بمقعد سليمان.

في أحد الأماكن حيث الصخور النائية كان هناك أقوى حصن للقتلة الإسماعيليين.

لقد أصبحت القرى والبلدات خلفهم، وأكمل الجنود التقدم عبر السهل شديد الحرارة، الذي كان سطحه مليئا بالصخور والحجارة التي جعلت العديد من الأحصنة تعرج، ولم يكن هناك مراعٍ في تلك المناطق، خسر هولاكو وقتا في تأمين الحبوب والمياه للرجال والحيوانات، وقد رافقته ثلاث فرق نحو الشمال، ولكنه أرجع إحداها إلى بغداد، وكلّف أخرى بجلب المياه بعد أن رأى كم هي قاحلة هذه المنطقة، لأنه لم يرغب برؤية أفضل أحصنته تموت من العطش. لم يكن هولاكو شخصا تردعه المشاكل، وإن كان أي شيء يطمئنه فهو أن أي هدف عظيم لا يمكن الوصول إليه بسهولة، وكان يقول لنفسه إن المعاناة تعطي قيمة للشيء.

في الماضي، تعهد جنكيز بإبادة جماعة القتلة، ربما اعتقد الخان العظيم أنه فعل ذلك، ولكنهم عادوا ليظهروا كما ينبت العشب من بين الصخور.

عندما نظر هولاكو إلى المجموعة التي بقيت معه، جلس باستقامة أكثر على السرج، وبدا أكثر شموخا، وبما أنه تربى على قصص جنكيز فقد شعر بالرضى لأنه سيواجه أحد الأعداء

القدامى، فهو سيأمر بهدم حصنيهم، ويرمي حجارتهما في الوادي، ولن تتمكن سوى السحالي والثعابين من الزحف حيث سبق للقتلة أن مشوا، وقد أخذ عهدا على نفسه أن ينفذ كل ما فكر به الآن.

أدرك هولاكو أن مونغ لن يغضب منه إن تأخر في إنجاز المهمة، فمن المؤكد أن سقوط بغداد لم يحن موعده بعد، لذلك وجد أن لديه وقتا لإقفال حساب عائلته السابق مع المسلمين الذين يقطنون ألموت.

كان هناك مرشدون يتقدمون فرقة الجنود عبر السهل، لقد جنّدهم من آخر بلدة عبروها، وكان لديه جواسيس في المدينة يزودون بالمعلومات، واستطاع أحدهم أن يزوده بالموقع الدقيق للحصن، بالرغم من أن الرسائل التي تبادلها مع القتلة كانت تمر من خلال التجار التي ينقلها تابعوهم. أفضل ما حصل عليه من معلومات أشار إلى سلسلة من الجبال ليس أكثر، بالرغم من أن ذلك كلفه مبلغا من الفضة واستغرق منه يوما كاملا من تعذيب رجل تخلى عنه أصدقاؤه، إلا أنه لم يهتم، فهو يعلم أنه سيصل في النهاية إلى حصن القتلة، وسيذيقهم طعم الموت، لذلك لم يكف عن استجواب المرشدين بشكل يومي، ولكنهم كانوا يتحدثون إلى بعضهم باللغة العربية مستهجنين ويشيرون إلى الجبال. لقد مرت فترة طويلة لم يرَ فيها هولاكو أي كائن حي، حتى وصل الكشافون وهم يمتطون أحصنتهم والعرق يبللهم.

عبس هولاكو عندما رآهم يتقدمون تجاهه عبر الصفوف. من بعيد، شعر بالحالة الخطرة من الطريقة التي جلسوا فيها على أحصنتهم، وأجبر نفسه على إبقاء وجهه عديم التعابير كعادته.

قال أول كشاف: «هناك رجال أمامنا سيدي». ووضع يده اليمنى على جبهته، وعلى فمه ثم قلبه كنوع من الاحترام. «لقد رأيت على بعد اثني عشر ميلا أو أكثر ثمانية أحصنة ومظلة حريرية، لذا اقتربت، بينما بقي مرافقي بعيدين، جاهزين للعودة إليك».

سأله هولاكو: «هل تحدثت إليهم؟». كان العرق يسيل على ظهره من تحت الدرع، وتحسن مزاجه لفكرة أنه يجب أن يكون قريبا إن كان هناك أشخاص غريبون مجتمعون في التلال لينتظروه.

أومأ الكشافة له.

«لقد قال قائدهم إنه ركن الدين، يا سيدي. وادعى أنه يملك السلطة للتحدث نيابة عن الإسماعيليين. أخبرني أنه حضّر خيمة جيدة وشرابا من أجلك سيدي».

قطّب هولاكو جبينه وفكّر. لم تكن لديه نية بالجلوس مع قتلة تلطخت أيديهم بالدم، فهو بالتأكيد لم يكن قادرا على الأكل أو الشرب معهم، وفي الوقت نفسه لم يرد أن يظهر لجنوده أنه يخاف جنودا قليلي العدد.

قال: «أخبره أنني قادم». مشى الكشاف عبر الصفوف ليختار حصانا جيدا، في تلك الأثناء استدعى هولاكو القائد إليوجي، عن طريق الإشارة إليه فاقترب.

«لقد أنشأوا مكانا للقاء، أيها القائد. أريد تطويقهم، حتى يعرفوا ما قد يترتب على الخيانة، سأذهب إليهم، ولكن إن لم يدعوني أخرج، دمرهم، إن قتلوني، فأنت يا إليوجي من سيمزق صفحتهم بشكل نهائي من تاريخ العالم، ويترك بصمة تشير إلى الخطيئة التي اقترفوها، أتفهم؟ أنا لا أقول هذا من أجلي بل من أجل من سيأتي بعدي».

أحنى إليوجي رأسه.

«لك ما تشاء يا سيدي، ولكن بما أنهم لا يعرفونك، دعني أذهب بدلا منك، منتحلا شخصيتك، وأعرف ما ينوون عليه، وإن كانوا يسعون للقتل، فيشرفني أن أفديك».

فكّر هولاكو بالأمر لدقيقة، ثم هز رأسه، وشعر بالخوف في معدته مما جعله يستشيط غضبا من حرارة الشمس، لم يكن قادرا على إيقاف خوفه، ولكنه كان قادرا على التحكم به.

«ليس هذه المرة يا إليوجي، إنهم يعتمدون على الخوف الذي سوف يبثونه، إنه جزء من قوتهم، وربما هو جل قوتهم، فمع القليل من القتلى كل سنة، بثوا الرعب في قلوب الرجال، ولكنهم لن ينجحوا بهذا معي».

جلس ركن الدين مرتديا ثوبا خفيفا واحتسى شرابا باردا. إن تأخر القائد المغولي، فلن يتاح له الاستمتاع بالثلج الذي أحضره من القمة، عندها نظر إلى الثلوج الموجودة في الدلاء الخشبية، وطلب أن يضاف شيء منه إلى شرابه، على الأقل كان قادرا على الاستمتاع بالرفاهية بينما كان ينتظر.

منذ نصف يوم، كان جنود المغول يجولون بأحصنتهم حول مجموعته، ويهتفون ويسخرون منهم، إلا أن ركن الدين تجاهل استفزازاتهم، لقد كان تحريك عشرة آلاف جندي يستغرق وقتا، وتساءل ركن الدين إن كان سيتاح له رؤية أخي الخان قبل أن تغرب الشمس. لم يتبين لديه وجود قوات مغولية كامنة، بالرغم من أنه كان واثقا أنهم نشروا رماتهم على الهضاب، وللمرة الألف راجع

العرض الذي كان سوف يقدمه باسم والده، لم تكن لائحة طويلة، فقد كان هناك الذهب والحصن اللذين سيعرضهما بطريقة لم يكن موافقا عليها. تجهم ركن، وتمنى لو أن والده كان هنا ليدير عملية التفاوض. كان الرجل قادرا على أن يبيع ظله، ولكن ركن كان يعلم أنه قد لا يخرج حيا من الاجتماع، فما من أحد يمكنه توقع الطريقة التي قد يتصرف وفقها المغول، فقد كانوا خطرين خطورة الأطفال الذين يحملون سيوفا.

يمكن أن يعاملوه برقة ولباقة ويمكن أن يقطعوا حلقه ويكملوا العبور بلا مبالاة. وبغض النظر عن الهواء والشراب الباردين وجد ركن الدين نفسه يتعرق. لم يكن يعلم ماذا سيفعل إن رُفض عرضه، لم يتوقع أحد أن يظهر المغول في المنطقة، بينما كانت المصادر تقول إنهم متجهون إلى بغداد التي تبعد مئات الأميال عنهم. بالرغم من أن العوائق الموجودة في السهل كانت تبطئهم إلا أن ركن كان خائفا، فقبل الغروب يمكن أن يصبح جثة يغطيها الغبار.

لم يدرك في البداية أن هولاكو قد وصل، ولم يكن ركن الدين معتادا إلا على عظمة الخليفة، لذا توقع أن يكون هناك نوع من الاستعراض العسكري وبعض الحاشية، ولكنه رأى ترجل رجل مغطى بالغبار مع العديد من الجنود.

راقبه ركن، ولاحظ عرض منكبيه عندما وقف للتحدث إلى اثنين أو ثلاثة من الجنود الذين يحيطون به. كان المغول يحبون المصارعة، وقد كانت إحدى الأشياء المتحضرة التي تمتعوا بها. تساءل ركن الدين إن كان قادرا على جذب انتباه شقيق الخان عن طريق عرض تحد بينما كان الرجل يقترب نحو الخيمة، فنهض ووضع شرابه.

«السلام عليكم، على الرحب والسعه. أعتقد أنك الأمير هولاكو، أخو الخان مونغ. أنا ركن الدين، ابن سليمان الدين».

ترجم المترجم الكلام للقائد بلغته الأم، مما جعل هولاكو ينظر إليه، فاختار ركن تلك اللحظة لينحني. طلب منه والده الانحناء، بالرغم من أن ركن الدين استاء من الفكرة. نظر المحارب نحوه ببرودة، وراقب ركن بينما كانت عيناه تتجولان حول الخيمة، متفحصا كل تفصيل. أوشك هولاكو على دخول الخيمة، ولكنه وقف عند العتبة، ونظر إلى الداخل بينما كان جنوده العشرة آلاف لا يزالون ينشرون الرعب حولهم. كان الهواء مليئا بالغبار، وواضحا بسبب ضوء الشمس، فوقف ركن ينازع للحفاظ على هدوئه.

أكمل ركن الحديث، وهو يتمنى أنه لا يبالغ في تكريم رجل الرمال: «لا بد أنك عطش يا سيدي، أرجوك اجلس في الظلال. لقد أحضر رجالي الثلج من أجل تلطيف الجو».

تنهد هولاكو، فهو لم يكن يثق بالرجل صاحب الوجه الضعيف الذي يقف أمامه، لقد فكّر في عرض إليوجي بالقدوم مكانه، وتساءل إن كان الشخص الغريب هو من يدّعي. بسبب إلحاح ركن عليه بالدخول إلى الخيمة انحنى هولاكو ودخل، ولكنه تجهم لرؤية ظهر كرسيه مواجها لخدم ركن، لذا أشار لأحد رجاله، فدخل الخيمة، وبث الذعر في قلوب الآخرين مع كل حركة قام بها. ظل ركن ثابتا بينما انتقلت الكرسي إلى مكان يقابل الجدار القماشي، وحينها جلس هولاكو. قال هولاكو وهو يضع يديه على ركبتيه، جالسا باستقامة: «لقد طلبت أن تدمروا حصونكم، هل تم ذلك؟».

ازدرد ركن ريقه، وارتشف من شرابه بينما كان المترجم يترجم ما قيل، لم يكن معتادا على مناقشة الأمور بسرعة فارتبك. فقد تأمل أن يبدأ مفاوضة تدوم كل الليل وربما معظم اليوم التالي، ولكن في ظل التحديق القاسي، وجد نفسه يقدم عرضه دفعة واحدة، وكانت تحذيرات والده قد ذابت كالثلج في شرابه.

«لقد علمت أننا سندمر حصن شيرات في الربيع القادم سيدي، وفي نهاية السنة القادمة سيكون الأمر قد انتهى وستتمكن من إخبار الخان أننا نفذنا ما طلبته».

توقف لتتم الترجمة، ولكن هولاكو لم يتحدث، وكان ركن يعاني لإيجاد الكلمات ليكمل. فقد أخبره والده أنه يجب عليه أن يشرح للمغول أن تدمير أطنان من الحجارة يأخذ شهورا، وإن قبلوا العرض سيؤجل العمل مرارا وتكرارا، وسيكون هناك كثير من الجهد، ولكن تدمير الحصن سيستغرق سنوات. وربما حينها، يكون الخان قد توفي، وربما تكون جيوش الخان قد تحركت نحو أهداف أخرى.

«شيرات حصن مرتفع في الجبال يا سيدي، وتدمير شيء صمد لآلاف السنين ليس بالأمر السهل، ولكن نحن نفهم أنك تريد إبلاغ الخان بأن أوامره قد نفذت. لذا حضرنا هدايا من ذهب ومجوهرات». للمرة الأولى رأى بارقة اهتمام في عيني هولاكو مما جعله يطمئن بعض الشيء.

قال هولاكو: «أرني». بلمح البصر ترجم المترجم كلامه.

«إنها ليست هنا يا سيدي، أنا وأنت ننفذ أوامر رجلين قويين، أنا لست سوى مبعوث من والدي، وأنت أيها القائد تتحدث بالنيابة عن الخان، وبالرغم من هذا طلب مني أن أقدم لك أربعة

آلاف سبيكة من الذهب بالإضافة إلى دنانير تملأ عربتين». لقد كانت الكمية كبيرة وبمجرد أن تلفظ بمقدارها شعر بنفسه يتعرق. لكن المغول بالكاد حدقوا إليه بينما كان المترجم يفسر الكلام.

قال ركن: «أنت تقبل الثناء من حلفائك أليس كذلك؟». وكان هولاكو ينتظر انتهاء المترجم بفارغ الصبر.

أجاب هولاكو: «كلا، نحن نقبل المديح ممن يخدموننا، تحدثت وأوصلت ما كلفت بنقله يا ركن الدين، والآن استمع إليّ». توقف قليلا ليتمكن المترجم من اللحاق به، وهو يراقب ركن بتمعن طوال الوقت. «إن اهتمامي منصب على مركز الإسلام، وهي مدينة بغداد التي سآخذها، هل تفهم؟».

أومأ ركن بعدم ارتياح عند سماعه تلك الكلمات.

«وبالمقارنة يعد والدك وطائفتك شيئين صغيرين بالنسبة إليّ وإكراما لجدي، كنت أريد أن أراهما يتحولان إلى رماد، ولكنك عرضت عليّ الذهب والصداقة، لذا سأقبل ضعف كمية الذهب وتدمير حصنيكما، وسأقبل قسمكم بأن يكون ولاؤكم لي ولعائلتي». ترك المترجم يصل إلى النهاية، ليتمكن من مراقبة رد فعل ركن الدين. «ولكنني لن أعطيك كلمتي، فكما قلت كلانا لديه شخص يطيعه. وعندما أعود إلى أخي سيسألني إن كنت تحدثت إلى سليمان، ولا شيء غير ذلك سيكون كافيا، هل تفهم؟ سيكون هناك سلام بين عائلتينا، لكن فقط بعد أن أتحدث إلى سليمان. خذني إلى حصن ألموت، لأقابله».

بذل ركن قصارى جهده كي لا يظهر سعادته، فقد كان خائفا من أن يرفض المغول عرضه، وأن يصل بهم الأمر إلى قتله في الخيمة، لذا أفرحه هذا الحديث المفاجئ. أمكن لقائد المغول أن يرى إيجابية في إيصال جنوده إلى الحصن، ولكن لم يعلم ركن إن كان دليلهم يستطيع بمفرده أن يجده. فكّر في الحصن المنيع وطريقه الوحيد عبر الحجارة، لذا كان مطمئنا من تركهم يذهبون إلى هناك ويحدقون إليه، لم تكن منجنيقاتهم ومدافعهم لتصل إلى مكان بذلك الارتفاع، حيث يمكنهم أن يعانوا لمئات السنين قبل الوصول إلى القمة حيث الحصن.

كانت علامات الخداع ظاهرة في عينيه، وهز رأسه آسفا: «سأفعل كما تقول يا سيدي، أرسل أحدا أمامنا لتتلقى ترحيبا يليق بصديق وحليف. أما بالنسبة إلى الذهب، لا أعتقد أن هناك هذا الكم في العالم، لذا إن قبلت هذا القسم كهدية سنؤكد إحضارنا المزيد كل سنة».

ابتسم هولاكو، للمرة الأولى عندما أدرك أن الشاب لم يفهم أن حياته أصبحت بين يديه.

تنفس سليمان بعمق، مستمتعا برائحة الأغنام في الهواء، لقد كان المرج الموجود إلى جانب حصن ألموت معجزة واختبارا خارقا لمهارة أسلافه، وكانت الأشجار الصغيرة تظلل القطيع، وكان سليمان يذهب إلى هناك عندما يحتاج أن يفكر بسلام. امتد المرج على مسافة هكتارين، وهي مسافة كافية لرعي عشرة من الأغنام وستة من الماعز التي بدت بصحة جيدة وهي ترعى، وكان ثغاؤها بلسما لروحه. اقترب بعضها نحوه، ووقفت من دون خوف آملة أن يطعمها، فابتسم وهو يظهر يده الفارغة، وكان يفكر بنفسه كراع للرجال بالإضافة للحيوانات.

مشى عبر العشب إلى أن وصل إلى الصخور عند حافة المرج، كان هناك كوخ صغير هناك، تخزن فيه حقائب من أجل الشتاء وقوالب من الملح لتلعقها الحيوانات، تفقّد الحقائب جيدا، وهو حذر من العث الذي يمكن أن يسمم قطيعه، لبعض الوقت نسي نفسه وهو يحمل الحقائب ليتفقد محتواها في الضوء.

لقد كان من الصعب التفاوض مع أولئك الذين أرادوا تدميره، وتمنى أن يعود ولده بشيء، لكنه شك في ذلك. لقد أصر قائد المغول على رؤية حصن ألموت وبمجرد أن يجد طريقه عبر متاهة الوديان والممرات، سيحاصرهم ويجعلهم يموتون جوعا. نظر سليمان إلى مرجه الصغير بأسف، لن تتمكن الحيوانات من إعالة شعبه لوقت طويل. فقد كان هناك ستون أو سبعون رجلا في حصن ألموت ومثلهم من الخدم، ولم يكن قادرا على مقاومة المغول أكثر مما فعل والده مع جنكيز. تشوّشت أفكار سليمان، عندما أدرك أنه ما من خيار أمامه. كان هناك ثلاثة من رجاله في الخارج، يتوقعون أن يدفع لهم. بصمت سجل أسماء التجار الذين يجب عليهم أن يقتلوهم، ولم يكن يريد أن يسمع عنهم شيئا قبل أن ينهوا عملهم.

كان هناك ثمانية عشر رجلا على قمة ألموت، تدربوا على طرق الاغتيال، وكان من المغري إرسالهم جميعا، ولكنهم عندها سيعيقون بعضهم بعضا. حيث إن تدريبهم لم يكن يتضمن عملية القتل الجماعي، فكل ما تدربوا عليه هو القتل من خلال عمليات فردية إما باليد أو باستخدام سلاح قبل أن يختفوا. في شبابه، قضى سليمان على أحد التجار الأغنياء عن طريق دس المخدر في نبيذه، ثم أغلق فمه وأنفه أثناء نومه، لم يكن هناك علامات على الجثة، وكانت مثالا عن إتقان الحرفة، تنهد لذكرى تلك الأيام السعيدة.

لم يكن لدى المغول احترام للتقاليد، وبدا أنهم لا يخافون مواجهة العواقب. كان عليه إرسال القتلة إلى الخان نفسه، حين يحاصر ألموت، ولم يكن سليمان يشك بغضب الخان على أخيه، إن فشل بغض النظر عن طبيعة الموضوع. حسب الرجل المسن الرحلة في رأسه عدة مرات، محاولا إيجاد أفضل اتفاق، وتمنى أن يستطيع رشوتهم أو خداعهم، ولكن دوره كراع لشعبه وقطيعه حتم عليه التفكير والتخطيط لكل الاحتمالات.

كان سليمان مستغرقا في التفكير، فلم يرَ تقدم حسن نحوه من خلف الكوخ، حيث كان يراقب عبر المرج غروب الشمس.

اقترب الشاب منه، وضربه على جانب رأسه بحجر. أحدث الحجر شرخا في رأسه فصرخ من الألم والصدمة، تعثر ثم وقع بعد أن تشوشت رؤيته. اعتقد أن حجرا سقط عليه من الجرف وشعر بالدوار، وأحس بالدم يغطي وجهه عندها ضربه حسن مرة أخرى.

كان بمقدور سليمان أن يتذوق الدم الذي يمر في حلقه من فمه المكسور. نظر إلى الأعلى مصدوما وغير قادر على فهم ما حصل، وعندما استوعب أن حسن كان يقف هناك، حدق إلى الحجر الذي يحمله حسن والذي كانت الدماء تغطيه.

فقال وقد بدت الصدمة جلية على وجهه: «لماذا، يا ولدي؟ لماذا تفعل هذا؟ ألم أكن والدا لك؟» ورأى أن حسن كان منفعلا ويلهث كالكلب الذي ترك في الشمس. بدا مرعوبا مما فعل، وكأن العالم توقف عن الدوران، عندما رفع سليمان يده صوب حسن، وقال برقة: «ساعدني لأقف، يا حسن».

تقدم الشاب نحوه، وللحظة اعتقد أنه سيفعل ما طلب منه. ولكن في اللحظة الأخيرة، رفع حسن الحجر مجددا وأسقطه على جبين سليمان، محطما جمجمته. ولم يعرف سليمان شيئا مما حصل بعد ذلك، كما أنه لم يسمع بكاء الأحمق في طريق عودته إلى الحصن.

كان على هولاكو الاعتراف أنه أعجب بحصن ألموت فقد كان مبنيا من حجارة مختلفة من الجبال المحيطة به. ولم يستطع تخيل الجهد الذي بُذل لنقل الحجارة إلى الشقوق الأصلية في الصخور وكيف تم توسيع المكان بالمطارق والحفر، قبل وضع كل حجر فوق الآخر إلى أن بدت كل الأحجار كما لو أنها جزء طبيعي من المكان.

لقد استغرق الوصول إلى الحصن أياما، وأدرك هولاكو أنه سيواجه صعوبات جمة للعثور عليه لولا مساعدة ركن الدين. كان يمكن لجنوده العشرة آلاف أن يمسحوا الوديان والمناطق النائية في السلسلة الجبلية، ولكن كان الأمر ليستغرق منه شهورا.

في الطريق صادفوا مجموعة من الرجال الذين كانوا قادمين للتحدث إلى ركن، ترجل هولاكو عن حصانه وتقدم نحوهم بينما كانوا راكعين له.

سمع أحدهم يقول: «سيدي لقد توفي والدك». مما جعل ركن يصرخ بألم وحسرة، أما هولاكو فأخذ يضحك.

«يبدو أنني أملك سيد حصن ألموت ليدلني على الطريق، يا ركن الدين. إن رجالي سيتقدمون موكبنا فأبقَ إلى جانبي في هذا الوقت الحزين».

استهجن ركن الدين، وأغمض عينيه بحسرة. وكانت كتفاه قد أصبحتا بمستوى سيف هولاكو، وبدأ يمشي كأنه فاقد للوعي. لقد اتبع الجميع رجال المقدمة الذين سيشقون طريقهم نحو الحصن في الأعلى.

16

كانت أشعة الشمس ذهبية اللون عندما أوقف كوبلاي قواته العظيمة عند ضفة النهر.

استكشف المنطقة قبل أن يسحبهم جميعا نحو المعبر الذي يظهر في خريطته، وانتظر قائد سونغ عند حافة المياه المظلمة. علِم الرجال أنه سيعبر النهر في النهاية، ربما تلك الليلة، وتحت جنح الظلام. ابتسم كوبلاي ابتسامة عريضة عندما رأى صفوف سونغ تناور بالقرب من مكان العبور، مستعدة لأي نوع من الهجوم. حدق الجيشان إلى بعضهما عبر النهر، وتخيّل كوبلاي حالة الحيرة في خيمة قيادة سونغ، لأن محاربي المغول لم يهاجموا، وشك في أنهم حصلوا على قسط وافٍ من النوم.

قبل زوال شعاع الشمس الأخير، كان فريق المدافع قد أنهى استعداداته، محددا المواقع. في الليل، وقبل أن يظهر القمر، رُفعت المدافع إلى الأماكن المحددة، وحركها عشرات المحاربين، في تلك الأثناء، تراجعت القوات الرئيسة، مبتعدة عن النهر. لم يجد كوبلاي أية إشارة لأعمال مشابهة تحصل في مخيم سونغ، ولكنه لم يرد أن يتفاجأ بضابط مقدام قد تخطر في باله الفكرة نفسها. للمرة الأولى قضى جنوده الليل على أسرجتهم أو على العشب بالقرب من أحصنتهم، أما العائلات فكانت على بعد ميل من النهر، بمنأى عن أي خطر.

في تلك الأثناء تساءل كوبلاي عما تفعله تشاباي، إنها تعلم أن الليلة خطيرة، ولكنها لم تُظهر قلقا، وادعت أنه ما من رجل على وجه البسيطة يستطيع إزعاج زوجها، كان يعرفها جيدا ويفهم تصرفاتها، كانت رغبته في الظهور بمظهر البطل أمام زوجته وولده، أقوى من كل الحوافز المادية التي عرضها عليه مونغ.

وقف كوبلاي يشاهد ارتفاع القمر البطيء في السماء، ويحك براحة يده أسفلَ الدرع متمنيا لو أنه يرتدي ثوبا أخف. مع أن الظلام كان مدلهما إلا أنه لم يشعر بالثقة من إخفائها بشكل كامل،

كانت المدافع مغطاة بأغصان لإخفاء شكلها، وكان التوقيت مهما، لذلك أخذ يحدق في الظلام محاولا العثور على إشارة.

لم يتحدث إلى أويانغ خاداي منذ أيام، باستثناء بعض المجاملات. لقد احتقر قائد الجيش السلطةَ التي يمارسها كوبلاي عليه، وكان يتصرف من تلقاء نفسه، ويرى أن الواقعية أفضل من الرسمية التي لا معنى لها.

لاحظ كوبلاي أن أويانغ خاداي يضبط نفسه، منتظرا الخطأ الأول الذي سيرتكبه، وبما أن المعركة القادمة كانت مهمة لأكثر من سبب فقد شعر بالتوتر، إذ لم يكن عليه أن يقضي على جيش سونغ فقط بل عليه أن يُظهر لقادته أنه يستحق القيادة. شعر كوبلاي بالألم خلف عينيه، وفكّر في زيارة شامان لطلب بعض قشور الصفصاف أو أعشاب الآس، ولكنه لم يجرؤ على مغادرة مكانه قبل أن يحين الوقت المحدد.

شاهد بايار ظهور القمر، وبدأ يخبو بحصانه ببطء، مقدّرا أنه لم يكن يبعد أكثر من عشرة أميال عن جيش سونغ، على الجهة المقابلة من النهر. اتفق مع كوبلاي على خسارة يومين آخرين، ليتمكن من نقل ما يكفي من الرجال بواسطة العبّارات المصنوعة من جلود الأغنام، أدت العبّارات الغرض منها على أكمل وجه، وبالرغم من ذلك فقد شعر بايار بالارتباك في الصفوف. بقليل من الحظ، لن يعرف سونغ أنهم تركوا جيش كوبلاي، تقدّم بايار على الوتيرة نفسها، مفكرا في السرعة المطلوبة ليغطي الأرض ويُبقي الأحصنة بحالة جيدة. لم تكن الأميال العشرة مسافة كبيرة بالنسبة إلى أحصنة المغول، فباستطاعته اجتياز هذه الأميال العشرة قبل أن يبلغ القمر أعلى نقطة له في سماء هذه الليلة.

إنه بعيد عن ضفة النهر، وهناك عقبات تعترض طريقه، وبما أن أحدا لا يحب قيادة الأحصنة في الظلام فقد كان بايار وفرسانه حذرين من العقبات التي قد تلحق إصاباتٍ في صفوفهم، لكن بالرغم من حذرهم كانوا مبتهجين، فما من أحد يحب الهجوم المباغت أكثر من محاربيه، وهذا ما جعله مفعما بالسعادة، ولم يزعجه وجود أويانغ خاداي مع كوبلاي عند الضفة الأخرى من النهر. نظر قائد الجيش بازدراء لفكرة العبّارات، وهذا ما جعل بايار مسرورا لأنه بعيد عنه، لقد شعر القائد الشاب بمودة متبادلة وغير متوقعة مع كوبلاي، كان شقيق الخان يواجه أحد أشد أعداء المغول قوة،

وكانت لديه فكرة خاصة في كيفية التعامل معهم. بينما كان فرسان بايار يتقدمون، تبسم عاقدا العزم على ألا يخذل كوبلاي.

رأى كوبلاي شعلة في الأفق تشق طريقها عبر السماء، لقد بدت من بعيد مثل إبرة من ضوء، اختفت بعد فترة وجيزة من ظهورها. خاف أن يفوّت الإشارة، ولكن أصبح بإمكانه الآن أن يريح عضلاته المتشنجة بعد أن كان متأهبا لوقت طويل. كان بايار في المكان المحدد، واستخدم مفرقعات نارية خاصة بالتشن يمكن إشعالها وإطلاقها في الهواء، عندما التفت كوبلاي ليعطي أوامره، ظهرت شعلة أخرى، أطلقها بايار للتأكيد فربما غفل كوبلاي عن رؤية الأولى، عندها بدأت الأصوات الصاخبة تهدر في الجانب الآخر من النهر.

صرخ كوبلاي: «ابدؤوا الإطلاق عند إشارتي». ثم نزل ليمسك أداته الخاصة المكونة من أنبوب أسود طويل مثبت على حامل حديدي، وأحضر مصباحا وأشعل الشمعة الرفيعة، ووقف بعيدا ريثما تشتعل إلى أن انطلقت في الهواء مُصدرة ضوءا.

انتظر جنود فرق المدافع بصبر أن يحين دورهم، وعندما رأوا الإشارة، بدأت الأسلحة المعدنية الكبيرة تقصف وترعد عبر النهر، وعمّ وميضها ضفتَي النهر، مخلفة أشكالا على هيئة أشباح في عيون من كان يحدق إلى الظلام. لم يستطع رجال المدفعية رؤية المكان الذي تسقط فيه قذائفهم، ولكن عندما سمعوا الصرخات ضحكوا وهم يعيدون تذخير الأسلحة بالبارود ويملؤون الفوهات بالكرات. كانت النار تندلع من فتحات المدافع، ولكن الكرات لم تكن مرئية في أثناء اجتيازها النهر.

لاحظ كوبلاي التأخر بين كل إطلاقة وأخرى، وتساءل عن الطريقة التي يمكن أن تختصر الفوارق الزمنية بين كل إطلاقة وأخرى، ولكن في الوقت الحالي لم يكن عليه أن يقلق فقد امتلك أفضل مئة مدفع مصطف على الضفة، وكانت كلها موجهة نحو مواقع سونغ، وكانت الكرات المتتالية تهدم خيامهم.

كان جنود سونغ سيتراجعون بسرعة في أية ليلة أخرى، تمنى كوبلاي لو أنه يستطيع سماع جنود بايار، ولكن دوي المدافع كان عاليا في أثناء تتالي الضربات، وانتظر بقدر استطاعته، ثم أرسل شعلة أخرى نحو السماء. عندما رأت الفرق الشعلةَ توقفَ دويُّ المدافع، بالرغم من أن التوقف لم يكن نهائيا في الوقت نفسه، لأن بعض الفرق اضطرت لإطلاق آخر ما كانت قد أعدته، بعد صخب قصف المدافع عاد السكون فجأة ليخيم على سماء الليل، وعاد الظلام حالكا.

حاول كوبلاي الإصغاء ليسمع أي صوت قد يصدر عن تحركات تتقدم بثبات، ولكنه أطلق ضحكة مجلجلة عندما أدرك أنه صوت طبول المغول، لقد كانت الوحدات تعبر النهر.

لم يسبق لبايار أن خاض معركة في الظلام، ما إن رأى الإشارة حتى راقب بدهشة كيف امتلأت ضفة النهر بأضواء من ذهب، وكانت عبارة عن موجات متتالية من الدمار. لقد سبق له أن رأى البرق في سماء عاصفة غير ممطرة، حيث أضاء البرق كامل السماء، وها هو ذا يرى أن قصف المدافع شبيه بالبرق.

بدأت الفوضى في مخيم سونغ، وكان بايار يثق في أن كوبلاي سيوقف وابل النيران قبل أن يصل جنوده ويلتحموا بالعدو. أعطته شعلات النار نطاق السهام، فبدأ بصببٍ وابل من السهام عليهم. لم يستطع تحديد الهدف إلا عن طريق ومضات الضوء، ولكنه كان يملك آلافا من الرجال يطلقون السهام على العدو.

لقد سمع جنود سونغ صوتَ اقتراب المغول، ولكن الجثث كانت ملقاة في أرجاء المخيم، فقد كان كوبلاي ناجحا أكثر مما يتصور. كان سونغ متجمعين على ضفة النهر ومستعدين لهجوم الليل الذي كانوا يتحضرون له. لكن المدافع شقت طرقا حمراء. لقد قُتل الآلاف، واختفت الصفوف الأولى بسبب الرعب المطلق، لقد ركضوا ليهربوا من مدى المدافع وكان بعضهم يرمون السيوف والدروع والأحزمة، لكن سهام محاربي بايار طالتهم في الظلام ممزقة إياهم.

علق جنود سونغ في الفخ، وتدافعوا بسرعة محاولين فتح ممر خارج الدمار. ضرب أولُ صف لبايار مجموعة من الجنود، ودمروهم بسرعة كبيرة، وعندما التحم فرسان الجيشين وقع حصان بايار عندما اصطدم بمجموعة من الجنود وحطمهم، وقع بقوة وتزحلق نحو شخص صرخ في أذنه، في تلك اللحظة كانت نيران المدافع قد توقفت، فوجد بايار نفسه يصارع رجلا لا يستطيع رؤيته، وقد خسر سيفه عندما وقع، ولكن قبضتيه كانتا جاهزتين فأخذ ينهال بالضرب على الشكل المظلم.

عمّت فوضى عارمة جيش سونغ، وصرخ بايار بغضب عندما تعرض له رجل آخر مما جعله يهرب فورا. لم تكن لديهم أدنى فكرة عن حجم القوات التي تتقدم نحوهم في الظلام، لذا فقدَ ضباط سونغ سيطرتهم على جنودهم. بقيت القوات في مواقعها، في حين كانت الأحصنة تتقدم وتتراجع، قاتلة كل من تصادفه في طريقها.

في ضوء القمر، رأى بايار حصانا وفارسا أمامه، فصرخ قبل أن يهبط السيف المرفوع: «أعطني حصانك، وإن ضربتني فسأقطع أذنك».

ترجل الفارس عن حصانه في الحال، مسلما إياه اللجام. كانت هناك مجموعة أخرى أمامهم، ومرة أخرى كان على بايار أن يصرخ ليعرفوه، انتبه بايار إلى أنه لا يستطيع أن يترك الفارس حيث هو لأن رجاله سيقتلونه، لذا جعله يمتطي الحصان خلفه. شخر الحصان بسبب الحمل الزائد، ففرك بايار أذنه ليهدئه قبل أن يندفع به نحو الأمام. انتشر رجال بايار في معسكر سونغ، ولاحظ القائد أن بعض الرجال أخذوا المشاعل، وبدؤوا بإشعال خيم سونغ، أعادت النيران إحساسه بميدان المعركة الأمر الذي جعله يشعر بالروعة والبهجة. كان جيش سونغ يفر من أمام محاربيه الذين مشوا فوق سجادة من القتلى المرميين فوق بعضهم بالآلاف. لا تزال صفوفه الأمامية تقتل من في المقدمة، وأصبح الأمر ثأرا لمن خلفهم، فأعطى أمرا بتراجع الصفوف الأمامية.

ما إن أطلق صوت البوق مرة واحدة، حتى استُجيب لأوامره في الحال، توقفت الصفوف الخمسة الأولى، وتقدمت الصفوف التي خلفها، وكان بايار في أحد هذه الصفوف، تقدم وهو يربت على أكتاف الرجال، الملطخين بدماء أعدائهم. جلسوا منحنين على أسرجة أحصنتهم، يريحون أذرعهم التي أنهكها حمل السيوف، واستُدعي العديد منهم إلى المقدمة ليُسألوا عن المكان الذين كانوا يقاتلون فيه، لقد كانت المعنويات مرتفعة، وهذا ما أبهج بايار عندما مرّ بينهم. كلما احترقت خيم أكثر أصبح الضوء أكثر سطوعا، ورأى بوضوح أمامه مجموعة من الجنود، تحاول الهرب من الأحصنة السوداء، وعندما رأى حصانا من دون فارس توقف ليتيح لمرافقه أن يمتطيه.

كانت هناك جثة على مقربة منهم، وسعد لرؤية جعبة تحتوي ستة سهام، فقفز وقلب الجثة، وأخذ سكينا طويلة من الأرض، إلا أنه لم يجد سيفا، كانت صفوفه تتابع تقدمها من دونه، وكان حصانه يخبو في الوقت الذي عادت فيه عمليات القتل.

انتظر كوبلاي بشوق، وهو يسمع صوت المعركة الدائرة من الظلام، وصراخ الرجال والحيوانات قبل أن يسلموا الروح. لم تكن لديه وسيلة ليعرف أي شيء عن بايار، وكانت أمنيته في أن يكون لديه ضوء تفوق أي شيء آخر تمناه في حياته. وتساءل عما إن كان بالإمكان إضاءة كافة شعلات الألعاب النارية لإنارة ساحة المعركة، لكن لم يكن لديه إلا عدد قليل منها.

قال لنفسه: «هذا وقت كافٍ». أخذ إحدى شعلات الألعاب النارية، ووضعها على الحامل وأطلقها نحو السماء. أصدرت صفيرا عاليا في أثناء ارتفاعها يشابه رأس السهم الذي يستخدمه المغول، عندها تحركات قواته التي كانت على أهبة الاستعداد عند ضفة النهر، لو كان سونغ في مواقعهم، ما كانت قواته لتعبر من دون تغطية جيدة، وكان الرماة سيضطرون لإرسال وابل من السهام عبر الضفة، لقد كان من المستحيل التصويب في ظلمة الليل فاستل كوبلاي سيفه مفضلا أن يشعر بوزنه في يده.

خطا حصانه في الماء عند منطقة العبور مع آلاف آخرين، وحاول الجميع العبور من الوسط، عندما أحس كوبلاي أن حصانه ينزلق في حفرة، أمسك سيفه بكلتا يديه كي لا يفقده، لكن عندما وقع شعر بخديه يحمران خجلا.

شخر حصانه وصهل وهو يتسلق الضفة، واختلط مع الآخرين من دون أن يستريح. لم يكن كوبلاي قادرا على كبح جماح الحصان فوجد نفسه يتوجه نحو المعركة. لقد اختفت كل مخططاته عندما خسر موقع الجنود ولم يعرف الاتجاه الذي يجب عليه أن يسلكه. مستنيرا بالضوء المنبعث من إحدى الخيم المشتعلة، رأى مجموعة من الرجال، وتمنى ألا يكون قد وصل إلى قوات بايار. لم تكن هناك فائدة من سماع صوت المغول أو دق الطبول. ولم يعد يستطيع سماع ضجيج المعركة بسبب المياه التي دخلت إلى أذنيه، في أثناء عبوره النهر.

على بعد مئة ياردة، تصدى أول صفوف سونغ لجنود بايار الذين عبروا النهر. لم يستطع المغول تجهيز أقواسهم وبالكاد كان لديهم الوقت لسحب سيوفهم قبل أن يلتحم جنود الجيشين. لم يستطع كوبلاي التوقف أو الاستدارة جانبا، وبسبب ضغط الأحصنة المتحركة أخذ يتقدم نحو الأمام، ثم ضرب مؤخرة رأسه من أجل تصفية أذنه من الماء، واشتم رائحة الدم القوية في الهواء. أدى الهجوم الليلي إلى فوضى عارمة في صفوف الجيشين. ثم سمع أصوات صراخ في الأمام؛ إنه صوت جنود المغول الذين يحتفلون بالنصر. حاول كوبلاي أن يقدّر كم بقي من الليل من خلال لون القمر الفضي، وتساءل أين ذهب أويانغ خاداي. فهو لم ير قائد الجيش منذ أول طلقة أطلقتها المدافع، وازدادت أصوات الاحتفال، فتوجه نحوها، وساعده على ذلك نار الخيم المحترقة التي سرعان ما انتشرت على طول ضفة النهر.

توقف كوبلاي عند ثلاث عربات تحترق أمام بعضها. وارتاح جدا لرؤية بايار هناك، يصرخ معطيا الأوامر، معيدا النظام للصفوف.

عندما رأى كوبلاي، تقدم إليه وقال: «لقد استسلم نصفهم، على الأقل». كانت تفوح منه رائحة الدم والحريق، ولكنه بدا سعيدا. بذل كوبلاي قصارى جهده كي لا تظهر أية تعابير على وجهه، مذكرا نفسه أن هيئته يجب أن تعبر عن السلطة وتبث الذعر، ولكن يبدو أن بايار لم يلحظ ذلك.

أكمل بايار: «لقد أَبدنا أفضل تشكيلاتهم، واستسلم من لم يهرب منهم، لن تكون لدي معلومات تفصيلية قبل طلوع الضوء، ولكنني أشك في أنهم سيشنون هجوما مضادا الليلة. لقد تحقق النصر لك يا سيدي».

أعاد كوبلاي سيفه النظيف إلى غمده، لقد شعر بشعور غريب عندما نظر حوله، عد القتلى، لقد نجح، ولكن كانت هناك عشرات الأشياء التي كانوا يستطيعون فعلها بشكل مختلف.

قال: «أريدك أن ترى إن كانت الشعلات قادرة على إنارة ساحة المعركة».

نظر بايار إليه باستغراب، فقد كان يجلس ويداه مرتاحتان على سرج الحصان، وسرواله يقطر ماء، ولاحظ أن كوبلاي ينظر حوله باهتمام.

«حسنا، يا سيدي. سأبدأ بالاختبارات غدا، الآن يجب أن أنتهي من أمر الأسرى. إننا نمزق ثيابهم لنتمكن من جعلهم ينحنون».

أجاب كوبلاي: «نعم، بالطبع». وحدق نحو الشرق، ولكن لم يكن هناك أثر للضحى.

خطرت له فكرة، فابتسم عندما عاود التحدث: «ابعث لي بأويانغ خاداي. أود أن أسمع تقييمه».

أخفى بايار ابتسامته، وأحنى رأسه.

«سمعا وطاعة يا سيدي، سأرسله لك حالما أجده».

بزغت الشمس كاشفة عن مشهد كامل من الخراب والدمار، كان بإمكان كوبلاي أن يقارن المنظر بما وُصف في كتاب قرأه عن معركة فم الغرير في شمالي أراضي التشن. تجمع الذباب بالملايين، وكان هناك كثير من جثث القتلى، أكثر مما يمكنهم أن يدفنوا أو يحرقوا، ولكن كان بالإمكان تركها إلى أن تشرق الشمس.

بعد قليل من الوقت، اشتعلت الحماسة بحلول الضحى، حين جرت ملاحقة أحد أفواج جيش سونغ، في الوقت الذي كانت فيه العائلات المغولية تعبر النهر بروية، أما الجنود فقد بدت عليهم نشوة الانتصار، وهم يتفحصون بدقة جثث الأعداء المنتشرة في الأرجاء في حين أُجبر آلاف من الأسرى على النزول إلى النهر، وجُردوا من أسلحتهم ودروعهم وقيدوا مع آخرين، مشت نساء المغول والأطفال بينهم فرأوا الرجال المخيفين الذين قام أزواجهم، وإخوتهم، وآباؤهم بإلحاق الهزيمة بهم.

في أثناء المعركة، بقي ياو تشاو بالخلف في المخيم الرئيسي، وعبر الممر مع العائلات عندما كان هناك ضوء كافٍ للعبور من دون أن يقع. عند الظهيرة كان في خيمة كوبلاي. كانت تشاباي هناك، وبدا القلق في عينيها على زوجها، وكانت تجول حوله وتحضر له الثياب الجديدة، وتعد الطعام الكافي لتُطعم كل من يأتي ليتحدث إليه. أومأ ياو تشاو لها عندما تلقى إناء من الحساء الذي تناوله بسرعة كي لا تنزعج، وقد راقبته إلى أن أنهاه. جلس ياو تشاو على سرير منخفض مع مخطوطات تنتظر أن تُقرأ للخان، ولم يكن قادرا على فعل شيء، أو قول شيء، إلى أن أُعطي الإذن. حتى بعد المعركة ظلت قوانين اللباقة ثابتة.

دخل زين جين الخيمة راكضا، وانزلق إلى أن توقف، وقد توسعت عيناه. فابتسم ياو تشاو للصبي.

قال زين جين: «هناك العديد من الأسرى يا والدي. كيف استطعت التغلب عليهم؟ لقد رأيت أضواء ورعدا طوال الليل. فأنا لم أنم طول الليل».

تمتمت تشاباي: «لقد نام، وكان يشخر كوالده».

التفت زين جين إلى والدته ونظر إليها معاتبا.

«لقد كنت متحمسا جدا ليغلبني النعاس، فقد رأيت رجلا مقطوع الرأس! كيف تغلبنا على هذا العدد؟».

أجابه كوبلاي: «بالتخطيط. خطط جيدة ورجال جيدون يا زين جين. اسأل أويانغ خاداي. سيخبرك».

نظر الصبي الصغير إلى والده برهبة، ولكنه هز رأسه:

«إنه لا يحب أن أتحدث إليه، وهو يقول إنني كثير الأسئلة».

قالت تشاباي: «أنت تسأل كثيرا، خذ.. تناول الحساء، ولكن في مكان آخر، فعلى والدك التحدث إلى كثير من الرجال».

كان صوت الصبي حزينا عندما قال: «أريد أن أستمع، أعدك بأن أكون هادئا».

ضربت تشاباي رأسه، ووضعت إناء في يده، فغادر غاضبا، أما هي فتجاهلته تماما.

جلس كوبلاي وأخذ حصته من الحساء، وأنهاه بسرعة، وعندما أصبح مستعدا قرأ له ياو تشاو إحصائيات الرجال القتلى والمشوهين إضافة إلى الغنائم التي حصلوا عليها، كان صوته يدندن في الهواء الكثيف، وبعد قليل من الوقت لوّح له كوبلاي ليتوقف، كانت عيناه متورمتين وصوته خشنا.

«هذا يكفي، لا أستطيع المتابعة. عد في المساء، بعد أن أنال قسطا من الراحة».

نهض ياو تشاو وانحنى. لقد درّب كوبلاي منذ أن كان صغيرا، ولم يكن يعلم كيف يُظهر افتخاره به. لقد دمروا جيشا يبلغ عدد جنوده ضعفَ عدد جنودهم.

كانت الأخبار في الطريق إلى كاراكورم مع أسرع الكشافة. كانوا سيتسابقون إلى حدود يام في منطقة التشن وبعدها كانت الرسائل ستتحرك بشكل أسرع، وتصل إلى كاراكورم في غضون أسابيع.

توقف ياو تشاو عند باب الخيمة: «إن أويانغ خاداي ينتظر رأيك بشأن الأسرى، يا سيدي. فنحن نملك...»

نظر إلى مخطوطة تحتوي نقاطا، وفتحها بالكامل على ذراعه ليتمكن من قراءتها. «اثنان وأربعون ألفا، وسبعمئة، العديد منهم جرحى».

نظر كوبلاي إلى الأرقام وفرك عينيه.

قال عندما دخل زين جين إلى الخيمة وكان وجهه شاحبا ويلهث: «أطعمهم، وسأقرر ماذا سنفعل بهم».

سألت تشاباي: «ما الأمر؟». لكن زين جين اكتفى بالنظر إليها.

سأل كوبلاي: «حسنا يا فتى. ما الأمر؟» وتقدم نحوه وعبث بشعره، مما كسر الرعب، فبدأ زين جين يتحدث وكأنه يبتلع كلماته مع كل نفَس.

قال زين جين: «إنهم يقتلون الأسرى». وبدا أنه مريض، وكانت عيناه تحدقان إلى الحقيبة قرب الباب وكأنه قد يحتاج إليها.

بدأ كوبلاي باللعن، فهو لم يعطِ أمرا كهذا، ومن دون أن يقول شيئا تخطى ابنه وخرج، كان القائد بايار هناك يتجه صوب خيمة كوبلاي، وبدا عليه الارتياح عندما وجده، بإشارة من كوبلاي أحضر حصانين فامتطياهما بسرعة.

امتطى ياو تشاو حصانه بصعوبة، فهو لم يكن يوما فارسا جيدا، بعد أن ذهب كوبلاي وبايار، خرج زين جين من الخيمة وركض خلفهما من دون أن ينظر إلى الخلف، وصرخ الرجل لجندي شاب ليساعده على امتطاء الحصان.

بدأ كوبلاي يتخطى صفوف الأسرى الطويلة قبل أن يرى أويانغ خاداي. لقد رأى صفوفا تضم أربعين ألف أسير راكع، ينظرون إلى الأرض وينتظرون مصيرهم، تمتم بعضهم بصوت خافت في أثناء مروره، وقد بدت الهزيمة والتعاسة الناجمة عنها بوضوح على وجوههم.

بدأ كوبلاي باللعن، عندما رأى قائد الجيش يشير إلى مجموعة من المحاربين الصغار، ورأى عشرات الجثث الممددة بانتظام وقد قُطعت رؤوسها، فاقترب ورأى السيف يلوح ورؤوس رجال تلقى على الأرض، واستطاع سماع نحيب منخفض من الرعب يصدر عن أولئك الذين كانوا بالقرب منه فملأه الصوت بالغضب. ثم تأكد بنفسه عندما نظر أويانغ خاداي له. لم يكن ليقوم بإذلال قائد الجيش أمام الرجال، بغض النظر عن مدى رغبته في الموضوع.

قال: «أنا لم أعطِ أمرا بأن يُعدم الأسرى». وبقي كوبلاي على السرج متعمدا، ليتمكن من النظر إلى الرجل بفوقية.

قال أويانغ خاداي: «لم أرد إزعاجك بالتفاصيل يا سيدي». ونظر بحيرة، كما لو أنه لا يستطيع أن يفهم لمَ يجب أن يزعج أخا الخان بهذه التفاصيل. فشعر كوبلاي بالغضب مجددا.

«إن مئة وأربعة وثمانين ألف رجل ليسوا بتفصيل يا قائد الجيش. فقد استسلموا لي وحياتهم تعود لي الآن لأحميها».

وضع أويانغ خاداي يديه خلف ظهره، وزم فمه.

«سيدي إنهم كثر يجب ألا تسمح لهم بالذهاب، لأننا في هذه الحالة سنواجههم مجددا».

«أطعمهم يا قائد الجيش، واعتن بالجرحى منهم، وبعدها أطلق سراحهم، سأراك في خيمتي».

استمع أويانغ خاداي بصمت إلى كوبلاي. وبعد وقت طويل، أحنى رأسه، أمام كوبلاي راضخا.

قال قائد الجيش: «لك ما شئت سيدي، وأعتذر إن بدر مني شيء لم يعجبك».

تجاهله كوبلاي، في تلك الأثناء كان بايار وياو تشاو قد وصلا، فنظر قبل أن يتكلم إلى ياو تشاو ثم خاطب الأسرى الذين كانوا على مرمى السمع بلغة الماندرين ثم الكانتونية.

«سيُطلق سراحكم، وسيُسمح لكم بالعودة إلى وطنكم، مرروا هذه الكلمات، وانقلوا أخبار المعركة، وأبلغوا عن المعاملة الرحيمة التي عاملناكم بها، أنت الآن تحت حماية الخان».

أومأ ياو تشاو لكوبلاي علامة على رضاه، في الوقت الذي كان يلتف فيه بحصانه، وينكزه بكعب قدمه، حتى يتقدم، لقد شعر بنظرة أويانغ خاداي الساخطة خلفه كل الطريق، ولكنه لم يُعره اهتماما، فقد كان يملك خططا لمدن سونغ، وهي خطط لا يمكن البدء بها بذبح رجال عزل.

في طريق عودته إلى الخيمة، رأى ولده يركض ورأسه إلى الأسفل وينفخ الهواء.

كبح كوبلاي جماح حصانه، وانحنى إلى الأسفل، فأمسك الفتى بيد والده الذي رفعه وأجلسه خلفه على السرج، وتابعا الطريق معا، لكن بعد قليل لاحظ كوبلاي أن ولده غير مرتاح، فهو مرعوب مما رأى اليوم، لذا التفت إلى ولده وربّت على ساقه.

سأل زين جين بصوت ضعيف: «هل منعتهم من قتل الرجال؟».

أجاب كوبلاي: «نعم، نعم، لقد أوقفتهم». وشعر بالوزن يزيد على ظهره عندما ارتاح ولده.

* * *

كانت ألموت مكانا هادئا، وقد وجد هولاكو في حياته القليل من الحب للمدن، ولكن هناك شيء في الحصن الاسبرطي جذبه، واستغرب أنه يشعر بالندم لأنه يريد تدميره. وقف أعلى السور

تحت أشعة الشمس، ونظر إلى المنظر الطبيعي في الأسفل المليء بالجبال التي تمتد حتى الأفق.

تساءل لوقت قصير عما إن كان بإمكانه أن يترك العديد من العائلات ليبقى المكان للخان، ولكن ذلك مجرد خيال، فقد رأى المرج الصغير خلف الأبنية الرئيسة، ولم يكن هناك إلا القليل من الحيوانات. إنه حصن معزول بالكامل، وقدّر أن التجارة لن تحصل هنا أبدا، ولن تكون هناك أية وسيلة للتواصل مع العالم، لم يكن حصن ألموت يحمي طريقا، ولم تكن لموقعه أية مكانة استراتيجية، فقد كان مكانا ممتازا للقتلة، ولم يكن مناسبا لأي شيء آخر.

مشى هولاكو، وخطا على جثة امرأة شابة، وكان حذرا من ألا يمشي على بقعة الدماء المحيطة بيدها. نظر إليها وعبس، لقد كانت جميلة جدا، وفكّر أنه ما من شك في أن الرامي صوّب سهمه على رقبتها من مسافة بعيدة، فلو أنه رآها ما كان ليقتلها.

لقد استغرق إيصال مئتي رجل إلى الحصن يوما كاملا، وكان كل جندي يمر عبر الممر الضيق يرشد الذي خلفه. لم يستطع ركن الدين القيام بأي شيء، ولم يمتلك الشجاعة ليرمي نفسه عن الجرف، وما كانوا ليسمحوا له بذلك، ولكن ربما كانت محاولة جيدة. لقد انتشروا في غرف ألموت وممراته بهدوء. وقف القتلة الإسماعيليون مراقبين، منتظرين أن يستلم ركن الدين السلطة. عندما بدأ القتل انتشروا محاولين حماية عائلاتهم. ابتسم هولاكو عندما تذكر شيئا، وفتش كشافوه القلعة غرفة تلو الأخرى وطابقا تلو الآخر مطلقين سهامهم على أي شيء يتحرك. وفي إحدى المرات حبس مجموعة من القتلة أنفسهم في غرفة، ولكن الجنود أسقطوا الباب عليهم.

شاهد هولاكو القتال من فناء في الأسفل، ورأى جثث جنوده تسقط بسبب النصول المسمومة. قُتل ستة وثلاثون منهم، وهو عدد كبير بالنسبة إليه. معظمهم قتل بسبب السم، الذي لولاه كانوا سينجون بالرغم من جراحهم البليغة، وعند الضحى كان ركن الدين لا يزال حيا، جالسا في الفناء بيأس.

لقد حان الوقت لإنهاء الأمر. نهض هولاكو وترك بعض الرجال خلفه، فقد كان من الأفضل تدمير الحصن بدلا من الإقامة فيه، سيستغرق هدم الحصن أشهرا، ولم يكن بمقدوره الانتظار وبغداد تقاوم جيشه، كان بحثه عن حصن القتلة مخاطرة، ولكنه ما كان ليندم عليه، خصوصا وأنه يسير على خُطا جده جنكيز خان.

كان تفكيك حجارة الدرج داخل الجدار سيستغرق دهرا. أخيرا نهض هولاكو نحو الضوء، وهو يرمش بعينيه بعد الظلام الذي كان غارقا فيه. كان ركن الدين جالسا ويداه مقيدتان إلى ركبتيه،

وعيناه حمراوان، وعندما اقترب هولاكو نظر إلى الأعلى وبدا في غاية التوتر، بعد أن تأكد من أنه قاب قوسين أو أدنى من الموت.

قال هولاكو له: «قف».

ركل أحد رجاله ركن الدين بقوة، فوقف على قدميه مترنحا من شدة التعب، فقد خسر كل شيء.

قال هولاكو: «سأترك رجالا هنا ليدمروا الحصن حجرا تلو الآخر، فأنا لا أستطيع تمضية مزيد من الوقت هنا. في الواقع، لم يكن عليّ أن أستغرق كل هذا الوقت في القدوم إلى هنا. عندما أعود، أتمنى أن تكون هناك فرصة أخرى لزيارة الحصن الآخر الذي كان والدك يتحكم به». ثم ابتسم، مستمتعا بهزيمة عدو بنفس قوته: «من يعلم؟ فقط الجرذان تعيش في ألموت وسنحرقه حتى ينهار».

قال ركن الدين بصوت أجش: «لقد حصلت على ما تريد، أطلق سراحي».

أجاب هولاكو: «نحن لا نريق دم العائلة المالكة، لقد كانت قاعدة لدى جدي وأنا أحترمها». رأى ومضة أمل في عين ركن الدين، بعد أن حطمه مقتل والده، ولم يقل شيئا عندما مزق الرجال ألموت، على أمل أن يطلقوا سراحه، ثم رفع يده.

فسأله: «إذن سأعيش؟».

ضحك هولاكو: «ألم أقل إنني أسير على خطا الخان العظيم؟ لن تقطع جسدك نصالُنا، ولن تخترقه سهامنا». ثم التفت هولاكو إلى محاربيه الذين يحيطون بركن الدين وقال: «أمسكوا به».

صرخ الشاب عندما وضعوا أيديهم عليه، كانوا كثرا فلم يستطع المقاومة. أمسكوا بذراعيه وساقيه ومدوها كي يستلقي بلا قوة.

ركل هولاكو أضلاع ركن بقوة، وسمع صراخه الذي ترافق مع تحطمها. ثم ركله مرتين وهو يشعر بالأضلع تظهر وقال لركن وهو يلهث: «كان يجب عليك أن تقطع حلقك، كيف سأحترم رجلا لم يفعل ذلك من أجل شعبه؟». ثم أومأ لمحارب فبدأ بضرب الصدر المكسور، راقبه هولاكو لبعض الوقت، ثم ابتعد راضيا.

17

شعر ياو تشاو بمزيج من المشاعر وهو يتمايل في العربة التي تأخذه إلى أراضي سونغ، عندما كان راهبا شابا تعرف إلى جنكيز قبل أن يصبح أول خان لشعب المغول، فوضع ياو تشاو الحياة الطبيعية جانبا، ورافق الرجل المميز في أثناء توحيده للقبائل، وخلال مهاجمته إمبراطورية التشن، وحتى في أيام الشباب تلك، طمح ياو تشاو لأن يؤثر على الخان كي يجلب نوعا من الحضارة إلى السلطة.

بمرور السنوات نسي ياو تشاو طموحه الأول. غريبة هي قدرة المرء على نسيان نفسه في خضم آلاف المهام خلال اليوم. لطالما كانت هناك مشاكل بحاجة إلى حل، وبعض العمل الذي يجب القيام به. رأى ياو تشاو حياته تنسل من بين أصابعه، لذا كان ينظر إلى التفاصيل كل سنة، كان قد مر وقتٌ كتب خلاله رغباته وطموحاته على مخطوطة، ولكنه لم يعد واثقا مما إن كان خسر قدرته على التفكير بوضوح، أم أنه كان ساذجا.

بالرغم من كل هذا لا يزال هناك أمل، عندما توفي جنكيز، عمل ياو تشاو مع أوجيدي خان، ثم مع توروغين بوصفها وصية على العرش. لقد ظل في كاراكورم مستشارا خلال حكم غويوك القصير والمرير. عندما يفكر في الماضي، يرى أن أوجيدي كان واعدا، فالابن الثالث لجنكيز كان يمتلك رؤيا إلى أن توقف قلبه وترك ابنا ضعيفا يتولى الحكم. تنهد ياو تشاو وهو يحدق إلى صفوف الأشخاص المحيطين به، لقد كبر وهو يخدم كل من تولى منصب الخان.

كان نهوض غويوك ضربة مريعة، فقد كان عديم الرحمة ومن طينة جده جنكيز، وبسبب ذلك كان الأعداء يحيطون به عازمين على تدميره. لقد أحب الصراع والحروب، ابتسم ياو تشاو بحزن لذكرى ذلك الرجل النذل. لقد كانت فلسفة جنكيزخان تصدم معلمي البوذية وتُفقدهم الوعي.

لم يقابلوا أحدا مبتهجا مثل مدمر المدن ذلك، لقد فهم كل الأشياء، فقد أبقى على فراخ الشعب بمأمن عن طريق ذبح كل أعدائهم، لكنه كان يستمتع في أثناء قيامه بذلك، وتذكر ياو تشاو كيف أن

جنكيز خاطب أحد أسياد التشن في موضوع الفدية.

لقد أخبر كل شخص أن كل من يمسك محمديا يستطيع شراء حريته لقاء أربعين عملة ذهبية، ولكن بتحرير أحد أسياد التشن يحصل حمار واحد.

ضحك ياو تشاو في سره، لكن مونغ لم يكن قد ورث حس الفكاهة. لقد انجذب الرجال إلى جنكيز عندما شعروا باهتزازات الحياة فيه التي لم يرها ياو تشاو في أي مكان آخر، وبالطبع ليس في أحفاده، فقد أظهر مونغ عدم تفهم في جهوده للوصول إلى منصب الخان. وفي التفكير عبر الأجيال، كان ياو تشاو قلقا من أنه أضاع حياته واقتيد كالعث نحو الضوء، ملقيا سنين شبابه دون جدوى.

لقد انطفأت الشعلة عندما مات جنكيز. في تلك اللحظة، تذكّر ياو تشاو عدد المرات التي فكّر فيها في العودة إلى وطنه، فقد انتهى حلمه. وكان بإمكانه أن ينصح غريبا بالقيام بذلك، ولكن عوضا عن ذلك انتظر ليرى ماذا يمكن أن يحصل، وقد أخذ مهاما على عاتقه إلى أن وثق به أوجيدي في كل شيء.

حدّق ياو تشاو إلى صفوف الفرسان المنتشرة حوله. ها هو ذا أخيرا يتخذ القرار، وسيغادر البلاط. في الحقيقة لم يكن ليتخذ هذا القرار، لو أن مونغ لم يطرد كل باحثي تشن من كاراكورم، معلنا بذلك أنها لم تعد مدينة ترحب بالمتحضرين. لقد كان من المريح البدء بالتحضير لرحلة العودة إلى الوطن الطويلة. لم يكن ياو تشاو يمتلك الكثير، فقد منح معظم ثروته للفقراء في كاراكورم. لم يكن بحاجة إلى الكثير، وهو العالم بأنه هناك أديرة كثيرة ستقبل به على أنه شخص تائه.

لقد جذبته فكرة أن الرهبان البوذيين سيستمتعون بقصص مغامراته، فهو سيخبرهم قصصا من التاريخ لن يسمعوا عنها من سواه، موسعا بذلك معارفهم عن عالم سمعوا به من دون أن يروه، متأكدا من أنهم لن يصدقوا نصف ما سيخبرهم عنه.

في كاراكورم نظر ياو تشاو بحزن إلى مجموعة كتبه عندما وصل رسول يحمل أخبار وجهة كوبلاي. ابتسم الرجل العجوز، لأنه أدرك أن القدر يقف إلى جانبه في مسعاه للعودة إلى بلاده، فإن رافق كوبلاي، فإنه يضمن بذلك سفرا آمنا لآلاف الأميال.

فبإمكانه مرافقة كوبلاي، باتجاه أراضي تشن، وسيبتعد في إحدى الليالي عن النار، ويمضي في سبيله تاركا ذكرياته خلفه، فهو لم يقسم على الولاء إلى أي مخلوق، لذا ما من شيء يربطه بأحد،

ورأى أنه من الإنصاف أن يوصله المغول إلى مسقط رأسه مثلما جلبوه من قبل.

لكن هذا لم يحصل، فبعد أشهر من النقاشات والسفر، سحرته شخصية كوبلاي، فبدا ياو تشاو مهتما به من خلال أحاديثهما في أثناء عبور الولايات الجديدة في أرض تشن، لقد أسرَته أحاديث الشاب، وأدرك العجوز أن الشاب ذكي، لقد ألهبت أفكاره وفضوله مخيلة الراهب البوذي.

في غضون عدة أشهر سيطروا على مناطق واسعة احتوت على آلاف المزارع، ورغم أن كوبلاي أصبح حاكما على هذه المناطق، إلا أنه لم يستأثر بكامل عائدات الأراضي بل اكتفى بالحصول على حصة منها تاركا المجال لشعبه كي يزدهر. لم يصدق ياو تشاو في البدء أنه عثر في سلالة جنكيز على شخص محب لثقافة تشن.

في مساء ربيعي، وصلوا إلى مكان حيث علمَ يا تشاو بوجود دير بوذي يقع على بُعد ثلاثين ميلا، وبالرغم من ذلك فقد أمضى الليل في عربته ولم يخطُ خطوة واحدة خارجها، لقد فكر أنه إذا أمضى سنة أخرى برفقة هذا الشاب الواعد فلن توثر كثيرا على قرار عودته إلى مسقط رأسه.

إنهم يتجهون الآن إلى تا لي، وهي إحدى مدن سونغ، ومرة أخرى تبرعمت أزهار الأمل في صدره، لقد رأى كوبلاي يعفو عن آلاف الأسرى، وشك ياو تشاو في أن الشاب فهم غرابة الحدث. إن عفوه عن الأسرى أذل قائد جيشه أمام رجاله، فاعتزل القائد العالم وقبع في خيمته، غير مدرك للسبب الذي دفع كوبلاي للقيام بذلك. هزّ العجوز البوذي رأسه، وأملَ ألا يُخيب هذا الشاب ظنه فيه. لقد تمنى ياو تشاو أن يجد شخصا من سلالة الخان العظيم لا يرغب في مقارنة نفسه بالخان والتشبه بأفعاله، فالخان العظيم كان يدمر المدن ليرسل رسالة بالغة القسوة والوحشية لأي شخص آخر يفكر في مقاومته والتصدي لمحاربيه.

لم يكن بمقدور ياو تشاو الرحيل الآن، فللمرة الأولى منذ سنوات طويلة شعر بأن لديه هدفا، وشعر بالإثارة، إنه يريد أن يعرف كيف سيتصرف كوبلاي وماذا سيفعل بالمدينة التي يتوجهون للاستيلاء عليها. كان متيقنا من أنه مختلف عن شقيقَيه مونغ وهولاكو، ورأى أن هناك أملا في أن يشذ هذا القائد عن عادة أهله في القتل والتدمير.

إقليم يونان هو الأكثر كثافة بالسكان بين أقاليم إمبراطورية سونغ، لقد كانت هناك مدينة واحدة محاطة بالقرى أما سائر المدن فكانت متناثرة، وكان يقطن فيها وفي البلدات المحيطة بها عشرات الآلاف، لقد نعمت هذه المنطقة بالازدهار لقرون وبدت فوائد السلام جلية من خلال ما رآه

كوبلاي خلال مروره عبر ملايين الهكتارات المزروعة بالأرز والمحاصيل البعلية، ورأى أيضا سلالات نادرة من الأبقار ذات القرون الطويلة ترعى فيها..

أحاط بمدينة تا لي سور عال ذو بوابات، وكانت تحتوي على ضاحية سكنها التجار وانتشرت فيها منازلهم كما تنتشر الطحالب على الصخر، إنها جزء من إمبراطورية سونغ، تبعد كثيرا عن الأراضي التي احتلها جنكيز خان، ولم يسبق لأحد فيها أن رأى جنديا مغوليا أو جيشا غير جيش الإمبراطور.

حدّق كوبلاي إلى المشهد أمامه بثبات وهدوء، وكان جيشه قد وسع انتشاره في المكان، رأى الدخان يتصاعد من مداخن المنازل، ولاحظ أن المزارعين تركوا محاصيلهم ودخلوا المدينة ليحتموا بها، وكانت القرى المنتشرة على مد النظر مهجورة، والأراضي جافة، لقد أصبح جيش كوبلاي قريبا من المدينة، ومما لا شك فيه أن من ينظرون إليهم من داخل المدينة شعروا بالرعب. أصدر كوبلاي أوامره إلى بايار الذي يقف إلى جانبه، مرّر القائد الأمر، ورأى كوبلاي كيف ترجل المغول وبدؤوا ببناء مخيمهم.

راقب كوبلاي نصب خيمته، بدءا من الأقسام الخشبية التي شُبكت مع بعضها، لقد خُصصت مجموعة من المحاربين لبناء خيمته، وجعلهم تكرارُ بنائهم لها سريعين في إنجاز المهمة، لقد رفعوا عمودا أساسيا، ومدوا عوارض رفيعة من أجل السقف، ثم أخرجوا أوتارا رطبة من الحقائب لربطها ببعضها. في النهاية جمُعت حصر اللباد التي وُضعت على شكل طبقات، ثم وُضع الباب الصغير، وبعدها أُدخل الفرن إليها. في غضون وقت قصير، ظهرت الآلاف الأولى من الخيم على الأرض، وكانت مقاومة للمياه ودافئة. وصل كل من تشاباي وزين جين على نفس الحصان، وكانت يدا الصبي ممسكتَين بوالدته. فتح كوبلاي يديه، في الوقت الذي كانت فيه تشاباي تقود حصانها ليستطيع زين جين الانحناء نحو والده.

عندما قفز الفتى تراجع كوبلاي بعض الشيء إلى الخلف.

قال وهو يحمله: «لقد أصبحت كبيرا على هذا». ثم أنزله إلى الأرض. لقد بدت على زين جين علامات الطول مثل أبيه. تمدد زين جين ليقف بأطول ما يستطيع، جاعلا والده يضحك.

«أحضر قوسك من الخيمة لأدربك».

ابتهج زين جين، واختفى عبر الباب، وأبقى كوبلاي الابتسامة مرتسمة على شفتيه. في الواقع، لقد شعر بمسؤولية كونه أبا، إنه واثق بأنه خلال فترة وجيزة سيصبح زين جين شابا يُعتمد عليه. لكنه الآن لا يزال طفلا، طويل الساقين، وقد بزغ سنان في مقدمة فمه، شعر كوبلاي بالسعادة لأن عائلته ترافقه في الحملة، بخلاف أويانغ خاداي الذي ترك زوجته وأولاده آمنين في كاراكورم، لم يرغب كوبلاي في ترك زين جين في رعاية مونغ طيلة سنوات، لأنه عندما يعود إلى الوطن، سيعتبره ولده مجرد شخص غريب.

أومأ كوبلاي للجنود، فانحنوا له، وتابعوا أعمالهم ليفرغوا منها قبل حلول الظلام. عندما ترجلت تشاباي عن حصانها طبعت قبلة على رقبة زوجها، بعد ذلك دخل خدمه الخاص يحملون أدوات الطهي ووعاء شاي معدنيا كبير الحجم. سمع زين جين وهو يسألهم عن سهامه، تجاهل كوبلاي الأصوات، واختار أن يقضي آخر لحظات النهار محدقا إلى المدينة التي عليه أن يختارها، لتكون أول مدينة له.

وضعت تشاباي يدها على خصره بلطف وقالت: «أنا حامل».

التفت كوبلاي، وأمسك بذراعيها وعانقها في الوقت الذي أخذت فيه ضربات قلبه تتسارع.

لقد توفي أخ زين جين الكبير في طفولته، وتوفي آخر خلال ولادته، لقد انفطر قلبه عليها وهو يشاهد الأمل والخوف مجتمعَين في عينيها.

قال: «سيكون المولود صبيا قويا، وسيولد ونحن في الحملة؟ سأحضر الشامان ليلقي العظام. إن كان صبيا فلدي بعض الأسماء له».

قالت تشاباي: «تمهل». واغرورقت عينيها بالدموع: «عندما يولد نختار له اسما، إذ لم تعد لديّ رغبة في دفن طفل آخر».

«لن يحصل ذلك مرة أخرى يا امرأة، لقد حصل ذلك في كاراكورم عندما كان الأب مجرد باحث، أما الآن فقد أصبح قائدا قويا أوامره من حديد وكلمته من نار، سأتذكر دائما ما قلته لي قبل أن أحصل على أولى مُدُني، سأسميه تا لي حتى وإن كان المولود أنثى».

وضعت تشاباي يدها أمام فمه.

«توقف يا زوجي. لا أسماء، صلِ فقط لأن يعيش، وبعدها سأتناقش معك بالأسماء قدر ما تشاء».

عانقها مجددا، ووقفا معا وسط المخيم الذي يُشيد حولهما، شعرت تشاباي بكوبلاي وهو يفكر في المدينة التي سيقدمها للخان.

تمتمت له: «ستقوم بعمل جيد». ووضعت يدها على كتفه.

أومأ كوبلاي، وبقي صامتا. وتساءل عما إن شعر جنكيز يوما بالهلع نفسه. فقد كانت أسوار تا لي صلبة ومنيعة.

عندما كانا يدخلان إلى الخيمة، اقترب العجوز ياو تشاو ورفع يده محييا كوبلاي، فرد عليه التحية بمثلها. لقد عرف ياو تشاو طيلة حياته تقريبا، وكان وجوده محل ترحيب دائم.

سأله: «أتريدني أن أقرأ لك اليوم يا سيدي؟».

«لا، إلا إذا كان لديك ما يستحق أن يُسمع». لم يستطع كوبلاي أن يقاوم التأكد من ذلك، فياو تشاو كانت لديه موهبة في كشف النصوص، وتغطية كل المواضيع من الاقتصاد إلى إعداد الحساء.

استهجن الرجل العجوز.

«لدي بعض الكتابات عن طريقة إدارة الخدم لمنازل أسيادهم، ولكن ذلك يمكنه أن ينتظر إلى الغد، إن كنت تعبا. أنا... كنت أتمنى أن أتحدث معك في مشكلة أخرى سيدي».

لقد أمضى كوبلاي طيلة النهار على صهوة الحصان، وبالرغم من أن أخبار تشاباي أنعشته، إلا أن الحماس بدأ يتلاشى، وكان ينطفئ من التعب، لكن ياو تشاو لم يكن الشخص الذي يزعجه بتفاصيل غير مهمة.

«تفضل وتناول الطعام معنا، إنني أمنحك حقوق الضيف يا صديقي القديم».

انحنيا ليعبرا بوابة الخيمة، جلس كوبلاي على السرير إلى جانب الجهة المقوسة من الجدار، فأصدر درعه صريرا، وكان بإمكانه براحة أن يتنشق رائحة اللحم الذي يُطهى مع التوابل في مقلاة كبيرة، فسال لعابه، لم ينبس ببنت شفة حتى قدمت له تشاباي كوبا من الشاي، في تلك الأثناء عثر

زين جين على قوسه وسهامه، وجلس متململا، تجاهل كوبلاي نظرات ولده، وشرب الشاي الساخن الذي أنعشه.

أخذ ياو تشاو كوبه، وشعر بعدم الراحة لأنه مجبر على التحدث أمام زوجة كوبلاي وولده، لقد كان كوبلاي آخر تلاميذه إذا أخذنا بعين الاعتبار عمر المعلم.

في النهاية سأله: «لماذا عفوت عن الرجال؟».

أخفض كوبلاي كوبه، ونظر إليه مستغربا، في حين نظرت تشاباي إلى الأعلى وهي تقدم الطعام، أما زين جين فكفّ عن التململ ونسي أمر القوس.

«من الغريب أن يطرح راهب بوذي مثل هذا السؤال، أكنت تريدني أن أعدمهم؟ كان أويانغ خاداي مقتنعا بوجوب ذلك».

«كان جنكيز سيقول إن موتهم بمثابة تحذير لأي شخص آخر يفكر في الوقوف ضدك. لقد كان رجلا يفهم القوة التي تكمن في الخوف».

ضحك كوبلاي بمرح.

تجهم وجهه ونظر إلى زين جين: «أنسيت أنني سافرت أنا ومونغ معه عندما كنا صغيرين لا نستطيع امتطاء الأحصنة. لقد رأيت الخيمة البيضاء تعلو فوق المدن، ورأيت الخيمتين السوداء والحمراء وما تبعهما».

«لكنك عفوت عن جيش، ربما سيستفيد منه أعداؤك».

استهجن كوبلاي، ولكن عينَي ياو تشاو لم ترفا، وفي ظل الصمت المُخيم تابع حديثه:

«أنا لست جدي أيها العجوز. لا أريد أن أخوض معركة في كل خطوة أخطوها على الأرض، لقد امتلك تشن بعض الولاء لقادتهم، وأتمنى أن أجد الأمر نفسه هنا». ثم توقف، لأنه لا يريد أن يكشف عن آماله، وعندما لم يتحدث ياو تشاو أكمل بصوت منخفض:

«عندما يواجهون قواتي سيعلمون أن الاستسلام ليس النهاية بالنسبة إليهم، وهذا سيساعدني على الانتصار، وإن رموا أسلحتهم، فسأحررهم. ومع الوقت سيعلمون أن كلمتي محل ثقة».

فجأة قال ياو تشاو: «والمدن؟ الناس فيها رهائن قادتهم. لا يستطيعون الاستسلام لك، حتى لو أرادوا ذلك».

ردّ كوبلاي بهدوء: «عندها سيدمرون، هذا كل ما أستطيع فعله».

قال ياو تشاو: «ستقتل الآلاف بسبب حماقة بعض الرجال». لقد بدا من نبرة صوته أنه حزين، حدق إليه كوبلاي وقال:

«ليس لديّ خيار آخر عندما يغلقون البوابات في وجهي، فعلى أخ الخان أن ينجز المهمة».

انحنى ياو تشاو إلى الأمام، ولمعت عيناه.

«حسنا، أثبت لمونغ أن هناك طريقة أخرى. أرسل مبعوثين إلى تا لي وعِدهم بأنك ستعفو عن الناس، فما يهمك هو جيش سونغ وليس التجار والمزارعين».

ضحك كوبلاي: «لن يثق التجار والمزارعون بحفيد جنكيز، يا ياو تشاو. لو كنت مكانهم هل كنت ستفتح بوابة مدينتك لجيش المغول؟ لا أظن ذلك».

«ربما لن يفعلوا، ولكن من يليهم سيفعل، وأيضا الجنود الذين حررتهم وذلك من خلال إيصال مدى رحمتك عبر أراضي سونغ». ثم توقف ليدع كوبلاي يفكر. «في تاريخهم كان هناك قائد يدعى تشاو بين، أخذ أرض نان جيانغ من دون أن يزهق روحا واحدة، فقامت المدينة الأخرى بفتح بواباتها له بأمان لعلم الناس أنه لن يكون هناك ذبح. إنك تملك جيشا قويا، يا كوبلاي، لكن قمة القوة ألا تضطر لاستخدامه».

شرب كوبلاي الشاي مفكرا. لقد استهوته الفكرة بعض الشيء، لقد كان جزء منه يريد إسعاد مونغ. هل سيكون سعيدا بالذبح الذي يتوقعه مونغ؟ ارتعش قليلا، لأنه لن يكون كذلك. لقد استوعب أن الفكرة كانت عبئا عليه، وستُثقل كاهله مما جعله يشعر بأن الدرع الذي يرتديه ثقيل جدا. فكرة وجود طريقة أخرى كانت الضوء الذي يكمن في نهاية نفق مظلم. وضع كوبلاي كوبه جانبا.

«ماذا حل بتشاو بين في النهاية؟».

ارتجف ياو تشاو: «أعتقد أنه تعرض للخيانة، لقد سممه رجاله، ولكن هذا لا يقلل من شأن ما فعله. أنت لست جدك، يا كوبلاي. لم يكن جنكيز يهتم بثقافة تشن، أما أنت فترى أنها قيمة».

فكّر كوبلاي في أدوات التعذيب التي وجدها مهجورة في أماكن الجيش، وفي الشوارع المملوءة ببقع الدم، وجثث المجرمين المتعفنة. فكر في الناس الذين انتحروا على جدران ين كينغ، حيث رمت ستون فتاة أنفسهن للموت بدلا من رؤية المدينة تقع في قبضة جنكيز. لقد كان العالم مكانا قاسيا، أينما ذهبت. لم يكن تشن أسوأ من الرهبان المسيحيين الذين أبقوا على شهيتهم مفتوحة وهم يبقرون بطون الزنادقة، وبينما كانت عينا ياو تشاو ثابتتين عليه، فكّر في الأعمال المكتوبة التي قرأها، والمجموعة الواسعة من الرسائل المنقوشة التي وُضعت فقط لنشر أفكار مدن تشن. فكّر في طعامهم، وألعابهم النارية، ونقودهم الورقية، والبوصلة التي أبقاها معه والتي كانت دائما تشير إلى الاتجاه نفسه، لقد كانوا عباقرة وقد أحبهم.

سأل برقة: «هل أخذ المدينة من دون قتل أي شخص؟».

ابتسم ياو تشاو وأومأ.

«أستطيع فعل ذلك، أيها العجوز. أستطيع المحاولة على الأقل. سأرسل مبعوثين إلى تا لي وسنرى».

في صباح اليوم التالي، طوّق جيش كوبلاي أسوار المدينة. لقد حاصروا مدينة تا لي من الجهات الأربعة، وبقوا بعيدا عن نطاق المدافع. حتى يرى أولئك الذين خلف الأسوار أن لا مهرب لهم، وإن لم يكونوا على علم وقتها، سيدركون أن جيش الإمبراطور لا يريد المساعدة أو لن يتمكن من القدوم لتقديمها. لقد أراد كوبلاي أن يروا قوته قبل أن يرسل رجالا للتفاوض، أراد ياو تشاو أن ينضم للمجموعة الصغيرة التي ستدخل المدينة، ولكن كوبلاي منعه.

«أعدك بأن تذهب في المرة القادمة أيها العجوز. ربما لم يسمع الناس في تا لي بقصة تشاو بين».

كانت غرفة القيادة في تا لي مكانا مكشوفا ولم تكن مريحة، وكانت جدرانها مطلية بالأبيض، وصُنعت الأرضية من خشب الزان، وغطت النقوش المنحوتة كامل السقف. لقد استطاع الحاكم رؤية المطر في الأعلى كسحابة في السماء الرمادية التي عكست لون المدينة بإتقان.

ارتدى الحاكم الملابس الفخمة التي تدل على مكانته الملكية، لقد كانت ملابس سميكة مطرزة بالذهب، وشعر بالراحة لارتدائه هذه الملابس واعتمار القبعة التي يعلم أنها استُعلمت من قبل رجال

أوفر حظا منه. جال بنظره مرة أخرى في أرجاء الغرفة، تاركا السلام الذي يعمها يتغلغل في أعماقه. لقد كان الصمت بمثابة عباءة أخرى يتدثر بها، وكان على عكس المغول تماما الذين يتمتعون بغضب طفولي وضجة دائمة. لقد سمعهم وهم قادمون من مكان بعيد، يتقدمون من دون نظام في ممرات مبنى القيادة من دون تفكير بكرامة من يحيطون بهم أو أعمارهم. صر مينغ غوانغ على أسنانه بصمت، لقد كان شديد الانتباه ما جعله يشعر بتوتر حرسه المنتصبين ككلاب صيد شرسة ينظرون إلى الدخلاء، لم يكن قادرا على إظهار نفس المشاعر، استشار نفسه، وتبين له أن جيوش الإمبراطور قد خذلتهم، وترُكت المدينة تحت رحمة الغرباء الهمجيين، لقد استعد للموت، ولكن قائد المغول أرسل عشرات الرجال على أقدامهم إلى داخل أسوار المدينة.

بدلا من ضربات المدافع، تلقى مينغ غوانغ طلبا مهذبا من أجل اجتماع. لم يكن على علم بعد إن كان نوعا من السخرية، فقد كان المغول سيبتهجون عندما يرونه ذليلا، إذ لم تكن تا لي قادرة على مقاومة الجيش الذي يحيط بها بصفوفه السوداء، وهو لم يكن الرجل المثالي الذي يخدع نفسه بآمال زائفة. لو أن المغول تأخروا سنة، فهو يعلم أن هناك جيشا سيدافع عن إقليم يونان، ولكن كانت المسافات بعيدة، وصعب عليه التعبير عن الغضب الذي شعر به. لقد ظل كل شيء مثاليا طيلة سبع وثلاثين سنة نعمت المدينة خلالها بالسلام والازدهار. قبل المغول كان مينغ غوانغ بخير، لم يكن ليذكر التاريخ اسمه، وكان هذا أفضل إنجاز يقدمه لبناته، أما الآن فقد أصبح يشك في أنه سيكون له مكان في التاريخ، ما لم يقرر حكام المستقبل أن يضعوا اسمه في السجلات الرسمية.

عندما دخل مبعوثو المغول الغرفة، حاول أن لا يفكر في أن أحذيتهم ستفسد الأرضية الخشبية التي كانت تلمع في ضوء الصباح، وما أثار دهشته أن رائحة المغول كانت كريهة جدا لدرجة أنها غطت على رائحة الطلاء. اتسعت عيناه عندما اقتحمت الرائحة أنفه، وكان هذا كل ما يستطيع فعله كي لا يظهر إشارة تشير إلى امتعاضه، لقد كانت رائحة اللحم العفن والصوف الرطب خانقة كما لو أن لهما كيانا ماديا يضرب في الغرفة. وقد تساءل عما إن كانوا يدركون الأمر ويعلمون الضيق الذي تسبب وجودهم فيه.

تمتع رجلان من بين الرجال العشرة بوجه تظهر عليه ملامح تشن، ويبدو أنه كان نتيجة زيجات مختلطة، إذ قُدر أن يكون أحد ذويهما من شمال تشن، أولئك الضعفاء الذين خسروا أرضهم أمام جنكيز.

أحنى كل واحد من الرجلين رأسه لفترة وجيزة، في الوقت الذي راقبهما فيه مرافقوهما المغول. أغمض ميونغ جيانغ عينيه للحظة، مجهزا نفسه لتحمل الإهانة التي سيواجهها، لم تكن لديه

مشكلة مع الموت.

بدأ أحد التشن قائلا: «أيها السيد المعظم، أنا المبعوث المتواضع الذي يدعى لي أونغ. لقد أتيت لأنقل لك رسالة من كوبلاي بورغيغن؛ حفيد جنكيز خان وأخي مونغ خان. لقد أرسلنا سيدي لنناقش أمر استسلام تا لي لجيشه، وقد قطع وعدا بأنه لن يُلحق الأذى بأي رجل، أو امرأة أو طفل إن قبلت تا لي به حاكما لها. لقد قيل لي أن أوصل لك إرادة الخان بالحصول على هذه المدينة، وإنه لا يرغب في رؤية لون مياه النهر تتحول إلى الأحمر، إنه يسعى للسلام ويعرض عليك فرصة إنقاذ حياة من ينظر إليك بوصفك قائدا».

بدأ الدم ينضب في عروق مينغ غوانغ، حينما كان لي أونغ ينطق بإهانته المسمومة، وكان الحراس يراقبون رد فعله ممسكين بقبضات سيوفهم، ولكنهم لم يحركوا ساكنا.

لم تكن المجموعة المنغولية الصغيرة مسلحة، وتاق مينغ غوانغ إلى جعل رجاله يقطعون المتغطرسين بضربات سريعة، وقد رأى كيف نظر المغول حولهم متمتمين لبعضهم بلغتهم البربرية. شعر مينغ غوانغ بالقوة لحضورهم وكان عليه إجبار نفسه على الصمت. كان الخائن الصغير من التشن يراقبه منتظرا الإجابة ولاحظ مينغ غوانغ المتعة في عينيه، وكانت كبيرة.

قال مينغ غوانغ: «عن أية مدينة تتحدث؟ نحن لسنا أغبياء أيها الفلاح، نعيش بشرف ونموت في ظل راية الإمبراطور، إن كل ما تراه ملكه، وأنا لا أستطيع تسليم ما لا أملك».

وقف لي أونغ صامتا، واستمع الآخرون في حين كان مرافقه يترجم كلامه، هزوا رؤوسهم وزمجر أكثر من شخص بينهم بكلام غير مفهوم. ببطء وقف مينغ غوانغ، وبإشارة منه استل رجاله سيوفهم الطويلة، راقب المغول العرض بلا مبالاة.

قال لي أونغ: «سأنقل كلامك إلى سيدي، وسوف يكون كوبلاي خائبا لأنك رفضت رحمته».

شعر مينغ غوانغ بالغضب، مما جعل الدم يتدفق إلى وجهه الشاحب.

نطق خائن تشن بأشياء مستحيلة، وبمفاهيم لم يكن لها مكان في مقاطعته. وللحظة، لم يكن مينغ غوانغ قادرا على التعبير عن استخفافه. لم يكن مهما إن كان هناك مليون رجل خارج المدينة، إذ لم يكونوا موجودين في القدر الذي اختاره، إن أنقذ الإمبراطور تا لي، فإن مينغ غوانغ سيكون شاكرا، لكن إن اختار ترك المدينة للدمار، فذلك هو قدرها. لم يكن مينغ غوانغ ليرفع يديه من أجل

إنقاذ نفسه، فكّر في زوجاته وبناته وعلم أنهن سيخترن الموت على العار الذي كان هذا الأحمق يفكر فيه. لم يكن هناك مجال للقبول بما يُعرض.

أخيرا قال: «خذوهم وقيدوهم».

لم يكن لدى مترجم تشن وقت لإعادة كلامه، فحدق لي أونغ وفتح فمه بدهشة. وتحرك حراس مينغ غوانغ قبل أن يتمكن من الحديث.

في الوقت الذي كانوا يتعرضون فيه للهجوم تحول المغول من حالة الملل والهدوء إلى الفوضى، وأخذوا يضربون ويركلون بطريقة وحشية، مستخدمين أحذيتهم، ومرافقهم، وأي شيء. كانت حركاتهم دليلا على طرقهم الفظّة، وهذا ما زاد من احتقار مينغ غوانغ لهم، ورأى أحد حراسه يترنح إلى الخلف عندما ضُرب على أنفه، وكان عليه أن ينظر بعيدا بدل أن يقوم بإخجال الرجل أكثر.

عندما أخفض مينغ غوانغ رأسه، رأى أن ثلاثة من المجموعة كانوا ملقين على الأرض وغائبين عن الوعي، وكان الباقون يلهثون متوترين، وكانت أسنانهم تصدر صريرا كالحيوانات التي كانوا يشبهونها. لم يبتسم، وفكر في المكتبات ودور المحفوظات التي كانوا يهددونها وشعر بالازدراء، فهم لم يفهموا أبدا أن الاستسلام لا يمكن أن يكون أحد خيارات الشخص المتحضر، بغض النظر عن العواقب.

قال: «خذوهم إلى الساحة العامة، عندما أنعش نفسي، سأحضر جلدَهم وإعدامهم».

فاحت رائحتهم عندما تعرقوا إلى أن ملأت الغرفة، وكان مينغ غوانغ يكافح كي لا يتقيأ وهو يعبر. لقد كان بحاجة إلى تغيير ملابسه قبل أن ينهي عمله القذر، وكان سيطلب حرق ثيابه المتسخة بينما يستحم.

18

قُيد الأسرى إلى أعمدة حديدية في الميدان الكبير لتا لي، نُصبت تلك الأعمدة قبل وقت طويل من القبض عليهم. وعند وصول مينغ غوانغ، كانت الشمس مرتفعة وساخنة فوق المدينة وكان الحشد هائلا، وقد ملأ الساحة في كل الاتجاهات. وكان على بعض القوات من حرسه أن تفسح له الطريق ليتمكن من مشاهدة العقاب، ثم أحضروا كرسيا مريحا ليتمكن من إراحة عظامه.

أعد عدد من الرجال مظلة لإبقاء أشعة الشمس بعيدة عن رأسه، خلال احتسائه لشرابه البارد، ولم تكن هناك أية مشاعر تعلو وجهه.

أخيرا، عندما أصبح جاهزا أشار مينغ غوانغ إلى الرجال الذين كانوا يقفون جانبا، ويحمل كل واحد منهم سوطا ثقيلا. لقد كانت أسواطا مصنوعة من الجلد، وكانت بعرض إصبع طفل، وكانت تصدر أصوات عالية وقوية ما إن ترتطم باللحم، تمنى مينغ غوانغ أن يصرخ المغول ليلحقوا العار بأنفسهم، ولكنهم كانوا يتحدثون إلى بعضهم، ليمدوا أنفسهم بالشجاعة، كما اعتقد رجال مينغ غوانغ، أما مترجم تشن فكان يتحدث مع الحشود، وكان الصغير لي أونغ ينشر آراءه بينهم.

هزّ مينغ غوانغ رأسه، إذ إن الخائن لن يفهم أبدا فلاحي سونغ، فالنبلاء بالنسبة إليهم يعيشون في عالم آخر. راقب الأسرى الذين كانوا يحدقون إلى الناس، بوجوه شاحبة. فما كان من أحد الموجودين إلا أن التقط حجرا عن الأرض وألقى به على لي أونغ فأجفله، عندها سمح مينغ غوانغ لابتسامة صغيرة بالظهور على وجهه وقد أخفتها الكأس التي كان يحملها بيده.

بدأت الضربات الأولى، مترافقة مع ضرب إيقاعي على الطبل. وكما توقع فقد صرخ رجلا تشن محاولَين التخلص من القيود، مقوسين ظهريهما ومحاولين انتزاع العمودين المعدنيين معتقدين أنهما قادران على سحبهما. تحمل المغول بلا مبالاة وهذا ما جعل مينغ غوانغ يستشيط غضبا، فأرسل أحد حراسه ينقل للجلادين الأمر بضربهم بشدة أكثر، في حين أنه كان يستريح على كرسيه ويسمع صوت الضرب يشتد. بالرغم من ذلك فقد وقفوا هناك يتحدثون إلى بعضهم، وما فاجأه أكثر

رؤية أحدهم يضحك على تعليقاته، فهز مينغ غوانغ رأسه قليلا، وقد كان رجلا صبورا. كانت هناك سياط أخرى مع أسنان حادة معلقة بالجلد، وكان يعلم أنهم سيصرخون عند استعمالها.

لقد خدم لي أونغ كوبلاي لمدة سنة تقريبا، وكان قد تعهد بخدمة أخي الخان عندما قدمت قواته إلى أراضي تشن الشمالية، وجعلت من آلاف الأراضي الواسعة صالحة للزراعة، كان يعلم أن كل مشروع يحمل في طياته مخاطر خاصة، ولكن الأجر كان جيدا، وكان يملك مهارة اللغة، ولكنه لم يكن يتوقع أن يُقيّد ويُعذّب من قبل أحمق في مدينة تا لي.

لم يعد يحتمل الألم، حتى إنه لم يعد قادرا على الوقوف، ولكنه بذل قصارى جهده ليصمد، فهو مقيد إلى عمود، وليس لديه مفر، مع كل جلدة من السوط كان يبكي وينزف، أما المغول فلم يعيروه انتباها وشعر بالحرج من صراخه وبكائه، حتى إن بعضهم صرخ عليه ليقف، لكن ساقيه لم تقويا على ذلك، فكان ينحني على العمود، الذي قُيد معصماه إليه. لقد تاق للإغماء، أي شيء يمكن أن يبعده عن الألم، ولكن جسمه رفض ذلك وبقي متنبها. وأصبحت حواسه متنبهة أكثر للألم إلى أن وصل مرحلة لم يصدق فيها أن هناك شيئا أكثر إيلاما.

سمع الحاكم يُصدر أمرا عبر الساحة بإيقاف الجلد، فكافح لي أونغ مرة ثانية ليقف، ثم نظر حوله، وبصق الدم الذي نتج من عضه للسانه. كان الميدان جزءا من سوق قديمة بالقرب من سور المدينة، واستطاع رؤية البوابة التي تحجب الرؤية عن جيوش كوبلاي. تألم لي أونغ لفكرة أن منقذيه قريبون جدا، ولكنهم لا يرون. لقد كان صغيرا جدا ولا يزال أعزب.

رأى لي أونغ السياط الملوثة بالدماء تُنظف في الدلاء، ثم تُمرر لرجال آخرين، ليقوموا بوضع الزيت عليها ولف مقابضها بقطعة من الزيت. وفي ظل الخوف الآخذ بالازدياد، رأى لفات مختلفة تجلب وتوضع على الأرض، وقف على أصابع قدمه متوترا ليرى ما في داخلها، عندما ألقى الجنود قماشا ثقيلا على ظهره. تمتم الحشد في دهشة فصرخ لي أونغ عليهم مجددا، وكان صوته أجشا.

صرخ: «هناك مئات المدافع خارج هذا السور، جاهزة لدكه. هناك جيش ضخم سيهاجمكم، ومع ذلك وعد الأمير بالحفاظ على حياة كل من هم داخل تا لي، لقد عرض عليكم الرحمة والكرامة، لكنكم قبضتم على جنودهم وتقومون بجلدهم، أتتوقعون ما الذي سيفعله عندما لا نعود إليه؟ عندما تريقون دماءنا ستكون دماؤكم هي التالية، وعندها عليكم أن تعوا أنكم أنت من استجلبتم ذلك على أنفسكم، بالرغم من أن الفرصة كانت متاحة لكم بفتح بواباتكم والحفاظ على حيواتكم».

رأى معذبه يكشف عن سوط طويل، وشعر باليأس عندما رأى المعدن المصقول في الجلد. لقد رأى لي أونغ كيف يُعذب شخص بهذا السوط قبل أن يقتل، فقد رأى ذلك عندما قبضت السلطة في مسقط رأسه على مغتصب، عندما تذكر ما حصل بذلك المغتصب جف فمه، أخذ جسده يرتعش، وأصابه الشلل حتى إنه فقدَ السيطرة على مثانته، لم تكن الطريقة التي أرادوا أن يقتلوه بها مُذلة، ومن مكان بعيد سمع لي أونغ صفرة منخفضة.

استيقظ نصف الحشد من حلم اليقظة عندما سمعوا صوتا قويا لشيء ضخم يضرب البوابة الكبيرة المواجهة للساحة، عندها قال لي أونغ: «لقد أتى، المدمر هنا. ألقوا بأسيادكم وانجوا بحياتكم، وإلا ستكون الشوارع حمراء قبل غروب الشمس».

ثم صدر صوت مدفع آخر تلاه اثنان آخران، وبدأ كوبلاي الهجوم. حلقت كرة فوق رؤوسهم، وحطمت السور بالكامل، وهدمت سقف الساحة فوق رؤوسهم. وارتعد الحشد بعد اختفاء الغبار.

صرخ لي أونغ مرة ثانية: «إنه قادم». وبدا عليه السرور والراحة. سمع أحدهم يصرخ بأمر السكوت، ولكنه ظل يرفع عنقه محاولا النظر إلى البوابة عندما اقترب أحد الحراس وقطع رقبته بحركة سريعة. صرخ المغول غاضبين عندما سال دمه على الأرض الجافة. وبدؤوا برمي ثقلهم على الأعمدة، عندها تحدث مينغ غوانغ مرة ثانية. في الوقت الذي تحطمت فيه البوابة، استل جنود آخرون سيوفَهم.

من خلال الغبار الذي نتج عن انهدام السور، رأى الحشود صفا من فرسان المغول، كانوا سودا حتى تحت ضوء الشمس الساطع. عندما دخل فرسان المغول في صفوف منظمة تفرق الحشد وهرب الناس خائفين.

عندما فرغت الساحة، وقف مينغ غوانغ ببطء، وبدا وجهه شاحبا على نحو غير طبيعي، تعرق وهو يشاهد عالمه يتحطم أمام عينيه. لقد حاول أن يقنع نفسه بأن الجيد خارج أسوار تا لي غير موجود، وبأن العدو لا يستطيع التأثير عليه بأي شيء. لكنهم دخلوا، وأجبروه على رؤيتهم. وقف مينغ غوانغ بدهشة، وهز رأسه في محاولة منه لإنكار ما يجري، وكأنه ينكر دخول الجيش إلى تا لي.

استهجن مينغ غوانغ عندما رأى كوبلاي يقف قرب مجموعة من الرجال المسلحين، مستنكرا تهديدهم. يعلم كوبلاي أن مجموعته قادرة على التحرك بمجرد أن يأتي بإشارة من يده،

بخلاف حراس مينغ غوانغ الذين شعروا بالتوتر بسبب تقدم المغول البطيء، نظر مينغ إلى المتقدمين كما لو أنه أعلى مكانة منهم متجاهلا حقيقة أنهم أقوى منه، وباستطاعتهم تهديده، وبسبب نظراته الحادة نظر العديد من الجنود إلى الأسفل كما يفعل من تحرق أشعة الشمس أعينهم.

رأى كوبلاي رجلا عجوزا يرتدي ثوبا نظيفا يقف أمامه، بعد أن هربت الحشود، وخيم الصمت على الساحة، في ظل هذا الصمت تمكن أحد المغول من اقتلاع أحد الأعمدة الحديدية، وصرخ صرخة نصر، وحمل العمود بمثابة سلاح وتقدم نحو مينغ غوانغ بشكل واضح. رفع كوبلاي يده فتوقف الرجل مباشرة، وكانت مشاعر الغضب تجيش في صدره.

قال كوبلاي بلغة الماندرين: «لقد قلت إنني سأعفو عن تا لي. لماذا لم تستمع إليّ؟».

حدق مينغ غوانغ إلى الأفق، وشعر بعدم قدرته على التفكير فلم يستطع الإجابة. لقد عاش طويلا، وحافظ على مدينته طيلة عقود، كانت حياة جيدة. لم يكن المغول قادرين على فهم ذلك، وحضّر نفسه للموت، وأخذ نفسا عميقا ثم أطلقه ببطء، حتى تتباطأ ضربات قلبه.

عبس كوبلاي لأنه لم يجد جوابا من مينغ غوانغ، ورأى الخوف في عيون جنود مينغ غوانغ والغضبَ في وجوه رجاله، لكن مينغ وقف ينظر إلى المدينة، وكأنه الرجل الوحيد هناك، عندها هب نسيم، هزّ كوبلاي رأسه ليكسر اللعنة، لقد رأى في خياله جثة لي أونغ معلقة من معصميه لقد اتخذ قراره.

قال كوبلاي: «أنا من عائلة نبيلة، وكانت أراضي في الشمال تابعة لسونغ تحت حكم إمبراطور واحد، وستعود مجددا، أنا أعتبر هذه المدينة مدينتي، ومن حقي، ومنذ هذه اللحظة أنتم تحت حمايتي، استسلموا لي وسأريكم الرحمة، التي يبديها الأب لابنه».

لم يقل مينغ غوانغ شيئا بالرغم من أنه رفع عينيه أخيرا لتلتقيا بعيني كوبلاي.

هزّ رأسه، وكأن رعشة أصابته.

قال كوبلاي: «حسنا، يبدو أنني سأخيب ظن صديق. خذوا هذا، وعلقوه على السور، أما البقية فسيبقون أحياء».

راقب بحذر كيف اندفع المغول مع العمود الحديدي ودفع مينغ غوانغ إلى الأمام، تقدم الرجل العجوز من دون أن يحتج، ولم يأتِ حراسه بأي فعل، لم يتجرؤوا على النظر إلى بعضهم. أخيرا،

فهموا أن حياتهم متوقفة على كلمة واحدة من الأمير الغريب الذي يتحدث لغة السلطة.

بينما كان مينغ غوانغ يؤخذ بعيدا، قال كوبلاي للحراس: «إن كلمتي من حديد، وسيعرف شعبكم هذا مع الوقت».

كان هولاكو يلهث عندما قرر التوقف ووضع النسر على المقبض.

زعق الطائر ورفرف، لكن الرجل كان يعرفه جيدا، فوضع يده على عنقه ليهدئه. حمل القائد كيتبوا عاسوقا أبيض على ذراعه اليمنى، ولكن كانت لديه حمامتان على حزامه، ابتسم له هولاكو، وترجل عن حصانه وأعطاه غزالا صغيرا. لقد كان طباخه فارسيا، رجلا محليا يدّعي أنه خدم الخليفة يوما ما. لقد أُلقي القبض عليه عندما كان عائدا إلى المدينة من سوق بعيدة، واتخذه هولاكو واحدا من عماله. لقد كان يُسعده أن يأكل الوجبات نفسها التي كان يستمتع بها الخليفة، بالرغم من أنه جعل بعضهم يتذوقونها أولا.

ساق الرجل داكن البشرة الحيوان المتقلب، وهو يحدق إلى النسر الغاضب، لقد أحب شعبه الصيد، وكانت الصقور والعواسيق كنوزا، ولكن النسر الضخم لم يكن معروفا في المنطقة. لقد كان الطائر الذهبي الغامق يعادل ثروة.

نظر هولاكو إلى بغداد التي تبعد ميلين إلى الشمال، لقد حاصر جيشه أسوار المدينة القديمة، حتى إنهم سدوا نهر دجلة بالقوارب التي بنوها في غيابه، وحيثما نقّل عينيه رأى كتائب جنوده مثل البقع السوداء. لا يزال هولاكو يحمل الرسالة في أحد جيوبه، لقد كانت كلماتها في غاية الوضوح، ولكنها بقيت لغزا بالنسبة إليه. لقد كتب الرجل لأتباع محمد متأكدا من أنهم سيهبون ليدافعوا عن مقر خلافتهم. تساءل هولاكو أين كانوا في حين أن جيشه يحاصر المدينة. في السابق، كان لطلب الخليفة أن يكون فعالا، لكن جنكيز شق طريقه بالذبح عبر المنطقة، ليس مرة فقط بل مرتين. استمتع هولاكو عندما تذكر أن الناجين كانوا يزحفون من تحت الأنقاض فقط لمقابلة جنكيز في طريق عودته إلى منطقة شي شيا في آخر حملة له. لم تعد بغداد تتمتع بالمكانة التي كانت تتمتع بها سابقا، ولكن يبدو أن الخليفة غافل عن هذه الحقيقة.

تناول هولاكو عصير البرتقال، الذي بُرّد في النهر طوال الليل، وأعاد الكأس إلى الخادم من دون أن ينظر إليه ليتأكد من أنه التقطها. لم يشارك البغداديون ثقة أسيادهم وإيمانهم في أن النجدة

آتية. كل ليلة، كانوا ينزلون بالحبال عبر السور معرضين أنفسهم لخطر كسر العظام، ولم تكن لدى هولاكو أية فكرة عن عدد الرجال في الداخل، ولكن فجر كل يوم، كان جنوده يقبضون على المئات، هذا ما أصبح بمثابة لعبة بالنسبة إليهم، لقد تركهم يتمرنون بإطلاق سهامهم على المجموعات الفارّة، وأصدر أوامر بذبح الرجال والأطفال، وسبي النساء والفتيات ومنحهن للضباط، لم يكن يبدو أن الخليفة يفكّر في الاستسلام قبل أن يُقضى على الجميع.

سمع هولاكو الأزيز، عندما وضع الطباخ لحم الغزال الطازج في مقلاة مليئة بالدهون.

فاحت رائحة اللحم والثوم، فسال لعابه وهو ينتظر، لقد كان الرجل مدهشا. لم تكن حمامات كيتبوا لتضيف كثيرا من اللحم إلى وجبة القائد، وهذا ما يفرق النسر عن العاسوق، لقد كان النسر قادرا على جعل الذئب يرتعد خوفا، فكّر برضى أنه مثل النسر فليست هناك من حاجة إلى الرحمة عند التعامل مع المفترسين، لم تكن لديه مخاوف أو هواجس، فما من شيء يمكنه أن يؤرق عقلا مكرسا للقتل.

نظر إلى بغداد مجددا، وزم شفتيه فبدتا كما لو أنهما خط رفيع، فبالكاد تمكنت مدافعه من خدش الحجارة. لقد صُممت أسوار المدينة بسطح زلق، أُرسلت الكرات بعيدا دون أن تُحدث بالأسوار إلا قليلا من الضرر. مرّ الوقت، ولم يتوقفوا عن دك الأسوار، ولكنهم فقدوا تأثيرهم المرعب، بصفتهم عقوبة أرسلها الخالق.

كانت المناطق التي تحيط ببغداد خالية من الصخور على مدى أميال، وهذا ما انتبه له الجنود، فجمعوا الصخور ونقلوها بواسطة العربات في طريق تقدمهم، ولكن كانت ستنفد منهم في النهاية، وسيضطرون لجمع المزيد منها.

ابتسم هولاكو في سره، لما فكّر فيه، كانت الأيام تمر بطيئة، وكان بإمكانه في أي يوم هدم الأسوار، بالرغم من أنها لا تزال متينة، ولكن المدافعين سيقتلون خمسة من رجاله مقابل كل رجل يسقط منهم، لقد كان الهدف من الأسوار الحيلولة دون عبوره من دون أن يلحقوا خسائر فادحة بالمهاجمين، من خلال سكب الزيوت الحامية ورمي الصخور على كل من تسول له نفسه تسلُّقَها، قد يكون هجومه دمويا، ولم يرغب في خسارة الآلاف من جنوده من أجل مدينة، أيا يكن مقدار الثروات التي يمكن أن يغتنمها منها، سيجعل الحصار الخليفة يستعيد وعيه، وكان ذلك أكثر فعالية من هدم الأسوار حسبما رأى هولاكو.

تمتم هولاكو وهو يحدق إلى المدينة البعيدة «إن جعلتني أنتظر أكثر، فسيصبح الأمر أشد قسوة عليك».

نظر القائد كيتبوا إلى هولاكو وهو يتحدث، فأدرك أن الرجل لا يزال ينتظر دعوة ليشاركه وجبة الغداء. فابتسم وتذكر أن لحم الغزال كان كثيرا على رجل واحد، ولكنه لم يعرض المشاركة. لقد ذكّر نفسه بأن الصقور والنسور لا تحلق معا، لقد كانت من سلالتين مختلفتين جدا.

كان الخليفة المستعصم رجلا حذرا. قام أسلافه بتأمين إمبراطورية صغيرة حول بغداد دامت لخمسة قرون، وكانت المدينة كالجوهرة، نجت من غزوات جنكيز التي اجتاحت المنطقة منذ عقود. لقد آمن المستعصم بأن الله أعمى خان المغول عنها عندما مرّ بالقرب منها من دون أن يتوقف ليهاجمها.

ربما كان الأمر صحيحا. فالمستعصم لم يكن من نسل الخلفاء العباسيين فقط، بل كان خليفة للمسلمين في شتى أصقاع الأرض، وكانت مدينة بمثابة المنارة لهم جميعا، وما من شك في أن هناك جيوشا ستتحرك لنجدتها.

صفق الخليفة براحتي يديه، لقد كان رجلا ضخمة الجثة، ولكن سنوات من الراحة جعلت عضلاته لينة، شعر بالتعرق تحت إبطه، فأشار بإصبعه فأتت الجواري الحسان ليمسحن المساحة البنية التي كشفت خلف طبقات الحرير. لقد اخترن لجمالهن، ولكنه لم ينظر إليهن اليوم، وبالكاد لاحظ أن إحداهن أطعمته حلوى لزجة من وعاء.

بينما كان مستلقيا هناك، كانت مجموعة من الأطفال يضحكون ويركضون في القاعة فنظر إليهم بإعجاب، لقد جلبوا الضوضاء والحياة بما يكفي لاختراق اليأس الذي أثقله.

طلب ابنه: «القمرة[1]!» فنظر إليه بأمل، في حين انتظر الأطفال الآخرون لرؤية وجه المستعصم يصبح ألطف.

قال: «حسنا، فقط لوقت قصير قبل أن تعود إلى دراستك».

لوّح بيده، فتجمعوا حوله وهم يقفزون بحماس. بُني الجهاز حسب مواصفات العالم المسلم، ابن الهيثم.

لقد كانت القمرة تشير إلى «الغرفة المظلمة». ذهبت معه بعض الجواري، كان يمشي عبر الممر إلى الغرفة التي بنيت فيها القمرة. ركض الأطفال أمامه بحماسة، قائلين لمن لم يرها من قبل كل ما يتذكرونه عنها.

لقد كانت غرفة، وكان هناك قطعة كبيرة من القماش الأسود كالليل في الداخل. حدق المستعصم في المكعب الأسود بإعجاب، كما لو أنه هو من اخترعه.

سأل: «من منكم سيكون الأول؟».

قفزوا وصرخوا بأسمائهم، فاختار إحدى بناته، فتاة صغيرة تدعى ثريا. وقفت ترتعش بغبطة عندما وضعها على الجهة اليمنى. وعندما نزلت الستارة عمّ الظلام، وصرخ الأطفال بتوتر. أحضر الخدم شعلة وحالما أضاءت ثريا بسبب نور المصابيح الموزعة، نظرت باهتمام فابتسم لرؤيتها.

«فليذهب من تبقى منكم عبر الحاجز الآن. أغمضوا أعينكم ولا تفتحوها إلى أن أقول لكم».

أطاعوه، متلمسين طريقهم عبر طبقات من القماش الأسود عن طريق اللمس.

سألهم: «هل أنتم جاهزون؟».

كان الضوء من المصابيح التي على ثريا يمر من خلال فتحة صغيرة في القماش. لم يكن يفهم كيف يمكن للضوء أن يحمل صورتها، ولكنها كانت هناك، في الغرفة في الضوء والظلال. لقد كانت ساحرة، فابتسم وقال لهم افتحوا أعينكم.

لقد سمعهم يهمسون باستغراب لبعضهم لينظروا.

قبل أن يتمكن من معرفة الشخص الذي سيأخذ مكان ثريا، سمع صوت مستشاره أهرمان يتحدث للخدم في الخارج. تجهّم المستعصم، فقد تم إفساد لحظة الفرح البسيط. لن يتركه الرجل بسلام.

«أنا آسف على إزعاجك، أيها الخليفة. لكنك يجب أن تطلع على ما لديّ من أخبار».

ترك المستعصم الأطفال يلعبون، وهم يتفرقون في الغرفة المظلمة.

رمش بعينيه عندما خرج من الغرفة المظلمة إلى ضوء الشمس، وبعد لحظة أرسل اثنين من جنوده إلى الداخل، ليتأكدا من أن الصبية لن يكسروا شيئا.

«حسنا؟ هل تغير أي شيء منذ البارحة، أو اليوم الذي قبله؟ أما زالت جيوش الكفرة تحاصرنا؟».

«صحيح يا مولاي، عند الفجر أطلقوا وابلا من السهام صوب السور».

أمسك أحد السهام وكان يحمل لفيفة. فكها لكي يقرأها. لوّح المستعصم بإبعادها وكأن لمسها سيقوم بتلويثه.

«طلب آخر للاستسلام، أنا متأكد. كم أُرسل منها حتى الآن؟ إنه يهدد ويعد، ويعرض السلام ثم الإبادة. هذا لا يغير شيئا. يا أهرمان».

«في هذه الرسالة يقول إنه سيقبل الجزية، أيها الخليفة. لا يمكننا أن نستمر في تجاهله. هولاكو هذا مشهور بجشعه. في كل بلد يدمره يسأل جنوده «أين الذهب؟ أين المجوهرات؟». لا يهمه مقدار قداسة بغداد، بقدر ما يهمه كم في خزائنها من كنوز».

«أتريدني أن أسلمه ثروة أجدادي؟».

«نعم يا مولاي، فهو لن يغادر قبل ذلك أو يحرق المدينة، إنه يحب رائحة الدم، والناس يخشونه، وصلتني أخبار أن العرب يتعاملون معه ويخبرونه عن ممرات المدينة السرية».

قال المستعصم بصوت مرتفع: «ليست هناك من ممرات سرية، كنت سأعلم لو كان هناك».

«لقد انتشرت الأقاويل في السوق. إنهم يتوقعون قدوم رجال المغول زحفا إلى بغداد، يقولون إن هذا الرجل لا يريد إلا الذهب. لماذا لا يعطيه الخليفة ما يريد، وننقذ المدينة وأرواحنا؟».

«انتظر يا أهرمان، أين الحلفاء والأصدقاء؟».

هزّ المستشار رأسه: «إنهم يتذكرون جنكيز، أيها الخليفة. ولن يأتوا لإنقاذ بغداد».

«لا أستطيع الاستسلام. فأنا شعلة الإسلام! المكتبات وحدها... حياتي لا تساوي نصا واحدا. سيدمر المغول كل شيء ما إن يضعوا أولى خطواتهم داخل المدينة».

لقد شعر بالغضب يتزايد عندما عبس وجه أهرمان، وابتعد عن القمرة كي لا يسمع الأطفال هذا النقاش، فقد كان مثيرا للغضب. لقد كان على أهرمان أن يدعم خليفته، ويخطط لهزيمة أعدائه، لم يستطع المستشار أن يقترح شيئا غير رمي الذهب على الذئاب.

راقب أهرمان سيده بغضب. لقد كانا يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة، وكان يفهم خوف الرجل، ولكن الأمر لم يكن خيارا بين النجاة والدمار، لقد كان خيارا بين الاستسلام والحفاظ على بعض الكرامة، أو المخاطرة في إثارة أكثر عرق مدمر عرفة أهرمان في حياته.

قال أهرمان بهدوء: «لقد قاومهم شاه خوارزم حتى النهاية، لقد قاتل مع جنوده البواسل، ولكن أين هو اليوم؟ لقد تحطم شعبه وأُحرقت مدينته، وقُتل أفراد شعبه أو أصبحوا عبيدا، دائما ما تطلب إلي أن أقول الحقيقة دون تملق، من أجل ذلك اسمع ما أقوله، افتح البوابات، وأنقذ حياة أكبر عدد ممكن من الناس، فكل يوم ينتظره هولاكو تحت أشعة الشمس اللاهبة، يزيد من غضبه».

قال المستعصم بوضوح: «سيهب أحد لإنقاذ المدينة، وعندها سيرى هولاكو من نحن». لم يصدق الخليفة كلامه، حتى إن أهرمان سخر منه في سره.

نهض المستعصم عن أريكته، ومشى نحو النافذة. كان قادرا على شم رائحة الصابون في الأسواق، الذي كان الآلاف يصنعونه في الجزء الغربي من المدينة، تلك المدينة التي كانت مدينة الأبراج والعلم والغرائب، وبالرغم من ذلك فقد كانت تحت تهديد بارود المغول وحرابهم، رجال لم يفهموا ما تعنيه هذه المدينة وما تكتنزه. خلف السور، رأى جيوش المغول، تتناوب كالحشرات السوداء. لم يكن المستعصم قادرا على الكلام من شدة الحزن والدموع التي كانت على وشك أن تسقط من عينيه. فكر في الأطفال شاكرا، وغير مدرك للخطر الذي كان يحيط بهم. لقد كان يشعر باليأس.

جف حلقه، وشعر بالاختناق عندما تكلم: «سأنتظر شهرا آخر، إن لم يأتِ أحد لنجدتنا، فسأخرج إلى الأعداء، وأفاوضهم على الاستسلام.

19

راقب هولاكو البوابة تفتح وتصدر صريرا، بعد أن دفعتها مجموعة من الرجال. لقد كان ينتظر، وشعر بلهيب الشمس على بشرته، لقد أصبحت بشرته داكنة بشكل لا يُصدق، ولم يكن يعرف شيئا عن حروق الشمس قبل نهاية أسابيع الحصار حول بغداد. لقد أصبحت قبلة الشمس الأولى كل يوم كأنها مكواة وضعت على جلده. شعر هولاكو بالعرق يلسعه، ويقطر على حاجبيه ورموشه ليُزعج عينيه، لقد بذل قصارى جهده ليبقي على القوات رشيقة ومتنبهة، ولكن الملل الهائل الناتج عن الحصار كان كالطفح الذي ينتشر ببطء عبر الجلد لدى الرجال الأصحاء. حك فخذه وهو يفكر، لقد كانت هناك بقع ملتهبة على جلد فخذه. لقد كان من الخطر السماح للشامان بقطعها، إذ إن العدوى هي ما كان يتبع هذا الأمر، ولكن في خيمته الخاصة، كان هولاكو يعتصر أسوأ ما فيها كل ليلة، إلى أن جعله الألم يتوقف، لا يزال القيح على أصابعه، وكان يستطيع شم رائحته النتنة هو لا يزال ينتظر الخليفة.

عبس هولاكو عندما شاهد حاشية الملك خارج أسوار المدينة. فقد طلب الاستسلام مرة أخرى، ولكن الخليفة لم يجب، مفضلا انتظار انتهاء الاجتماع بينهما. انتظر هولاكو إلى أن وصل الموكب الصغير. مئتان، وربما ثلاثمئة أو أربعمئة. ما إن انتهى مرور الموكب حتى أغلقت البوابة خلفه، وتوجه موكب الخليفة إلى حضرة هولاكو.

في الليلة السابقة، استعد هولاكو للقاء الخليفة، لم يشيد خيمة، بل مهد بقعة من الأرض وغطاها بالسجاد السميك الذي غنمه من المدن التي دخلها قبل أن يصل إلى هناك، ووضع عند حوافه صفوفا من الوسائد ومقعدين خشبيين شبيهين بما رآه في الكنائس المسيحية في روسيا، مع اختلاف بسيط أنه لم يكن في مجلسه هذا مذبح، بل طاولة ومقعدان ليجلس عليهما هو والخليفة.

لقد وقف قادة هولاكو واضعين أيديهم على مقابض سيوفهم مستعدين لاستلالها مع أول إشارة للخيانة.

كان هولاكو على علم بأن رجال الخليفة قد أبلغوا خليفتهم بالترتيبات التي أعدها فقد رأوها من سور المدينة. جلس الخليفة في عربة يجرها حيوانان مخصيان. تفاجأ هولاكو بحجم الخليفة الذي حكم المدينة ودعا نفسه نور الإسلام. لم يبدُ أنه محارب. لم يقل هولاكو شيئا عندما ساعد الخدم الخليفة في النزول من العربة، لأنه كان مستغرقا بالتفكير في ما يريده من الاجتماع، لقد مضغ الجزء الداخل من وجنته في حين أخذ رجال الخليفة أماكنهم. لم يكن هناك داعٍ لكل هذه الترتيبات، لقد كانت مجرد وهم ليحافظ على بعض من كرامة الرجل الذي اعتقد أنه لا يستحقها، لم يمانع هولاكو ذلك، فكل ما كان يهمه أن الرجل سيفاوض، لأن ما من أحد يحق له أن يفاوض سوى الخليفة، ولم يكن يهم هولاكو من المفاوضات إلا أن يعلم مقدار الكنوز الموجودة في هذه المدينة التي يطلقون عليها درة العالم، فحتى عندما كان بعيدا عن بغداد سمع قصصا عن دروع قيّمة وسيوف من العاج، وتماثيل من الذهب الخالص، يتجاوز ارتفاعها ثلاثة أضعاف الرجل العادي، لقد تاق لرؤية القطع التي من شأنها أن تثير إعجاب أخويه مونغ وكوبلاي. قرر الاحتفاظ بالمكتبة، فهو يعرف كم تهم كوبلاي.

في الوقت الذي جلس فيه الخليفة على المقعد، شد هولاكو قبضته، وجلس محدقا إلى عيون مرافقي الخليفة المئتين. شعر هولاكو بالشمس تلدغ رقبته من الخلف، وفكّر في طلب مظلة إلى أن رأى الوهج الكامل في وجه الخليفة.

بغض النظر عن دمه الفارسي، لم يكن الخليفة السمين مرتاحا بسبب الحرارة. أومأ هولاكو للخليفة، وقال: «ما الذي تنوي أن تعرضه عليّ أيها الخليفة، مقابل حياتك ومدينتك؟».

قاد كوبلاي نحو الشرق عبر الغابة الكثيفة التي بدت بلا نهاية، ولم يكن قلقا من التعرض لأي هجوم، فكشافته منتشرون في كل الاتجاهات في دائرة قطرها ثلاثون ميلا، ولكن كثافة أغصان الغابة جعلتها مظلمة، أُخبر كوبلاي أن الغابة ستصبح أقل كثافة مع تقدمه.

أمضوا نصف النهار وهم يسلكون دربا ترتفع بلطف، إلى أن وصل كوبلاي إلى مرتفعات عالية حيث لامست الشمس الأفق، ونظر إلى واد شديد الانحدار حيث رأى حوض ماء، أبدى حصانه سروره وامتنانه عندما رأى الماء فهو يشعر بالظمأ مثل فارسه. ترك كوبلاي القيادة لبايار، سعيدا باتباع المسار الذي يختاره. ووجّها الأحصنة نحو الماء، فوجدوا مجموعة مصابيح أمامهم مثل مجموعة يراعات.

لم يبدُ بايار تعِبا مثل كوبلاي، بالرغم من أنه ليس أصغر منه بكثير، إلا أنه كان أكثر رشاقة من كوبلاي الذي أمضى سنوات طويلة بين الكتب في كاراكورم. بغض النظر عن الطريقة الذي يحاول بها تمرين جسده، لم يكن جسده قادرا على التحمل مثل جنوده. كان نصف جيشه أمامه، ونام كثيرون بالقرب من الخيم، أما الباقون الذين لم يجدوا مكانا للإقامة، فقد ناموا تحت ضوء النجوم.

تنهد كوبلاي عندما فكر أنه بالكاد يتذكر المرة الأخيرة التي نام فيها ليلا. كان ينام ويحلم قبل أن يستيقظ فجأة ويبدأ بالتفكير في المستقبل، عندها تعمد تشاباي إلى تهدئته من خلال وضع يدها الباردة على جبينه، لكنها سرعان ما تعاود النوم، وتتركه مستغرقا في أفكاره. كانت يترك أوراقا بالقرب منه ليتمكن من كتابة الأفكار التي تخطر له، وأيقن أنه مع تقدم الأيام سيتمكن من تدوين يومياته على ورق أفضل، لقد أراد أن يوثق يومياته في بلاد سونغ، فهذه اليوميات ستكون قيّمة على رفوف مكتبة كاراكورم إذا استمرت الحملة كما بدأت.

بعد سقوط مدينة تا لي تبعتها في غضون شهر ثلاث مدن أخرى، لقد أرسل الكشافة أمام قواته، لينشروا أخبار رحمته، لقد كانوا رجالا من تشن التحقوا بجيش المغول عبر السنين، لقد فهموا ما أراده منهم أن ينشروه، ووافقوا على المهمة، لذلك لم يشك أبدا بما سينشرونه من أخبار عن قائد المغول الذي يتصرف كما لو أنه قائد من تشن.

في الأشهر الأولى، فكّر في أنه سيتمكن من التقدم عبر أراضي سونغ من دون مقاومة حيث ستستسلم له الجيوش والمدن حتى يصل إلى مواجهة مباشرة مع الإمبراطور وهذا ما حصل.

عندما تقدم منه قائد الجيش أويانغ خاداي، عبس كوبلاي لأنه يعلم أن قائد الجيش المخضرم يجد متعة في نقل الأخبار السيئة، فقال أويانغ خاداي: «لم يتقاض الرجال رواتبهم، وكنت قد طلبت إليهم بناء على أوامرك ألا يأخذوا غنائم من المدن التي يدخلونها، إنهم غاضبون، ولم يسبق لي أن رأيتهم غاضبين إلى هذا الحدّ سيدي، ربما لم تدرك أنهم سيستاؤون من الرحمة واللطف اللذين تُظهرهما لأعدائنا».

لاحظ كوبلاي عينَي قائد الجيش وهما تبثان غضبه المكبوت قبل أن يتابع: «أعتقد أنه سيكون من الصعب ضبطهم إذا تابعت في هذه السياسة، فهم لا يفهمونها، ويظنون أنك سلبتهم الحلي والمجوهرات».

بينما كان كوبلاي يقود حصانه عبر الشجيرات الكثيفة، زفر ببطء بعض الهواء، إن القرارات الجيدة لا تُتخذ خلال الغضب. لقد علمه ياو تشاو ذلك منذ سنين. ربما استمتع أويانغ خاداي

بقول شيء واضح، لكن المشكلة كانت حقيقية. لقد قدّم الجنود حياتهم وقوتهم للخان من دون أي سؤال، أو أيا يكن من يأمرهم باسمه. بالمقابل، كان يفترض به أن يسمح لهم بأخذ الثروات والعبيد أينما وجدوهم. لقد تخيل كوبلاي جشعهم عند التفكير في بلدات سونغ الغنية، التي كانت بمنأى عن الحرب واغتنت عبر القرون من التجارة. لكنه لم يوافق على حرقها، فهو لم يكن يقتل سوى العشرات في كل مدينة، فقط أولئك الذين رفضوا الاستسلام. في المدينة الأخيرة، أخرج الناس الحاكم ورموه على التراب أمام رجال كوبلاي. لقد فهموا المعادلة التي عرضها عليهم؛ الحياة والازدهار أفضل من المقاومة والدمار.

ترجل كوبلاي عن حصانه غاضبا، وأومأ لبايار فأخذ القائد الحصانين بعيدا. لقد كانت الليلة هادئة، مع بومة تطلق تحذيرا في مكان قريب، ما من شك في أنها انزعجت من الرجال الذين يصطادون في أرضها. انحنى وتناول بعض الماء البارد، وفرك به وجهه ورقبته، متنهدا في تعبير عن تقديره لهذه النعمة. كان لديه حل للمشكلة، فقد دفع للعديد من الرجال الذين رافقوا الجنود، وكان لديه فضة وذهب بما يقدر بمئة ألف، واستطاع أن يدفع للجنود أيضا، على الأقل لمرة واحدة. بالرغم من تجهمه، وضع كوبلاي الماء على شعره، في غضون أشهر ستنفد صناديق المال التي أعطاه إياها مونغ، وعندها لن يكون لديه مال للرشاوي ما لم يحصل على مصدر دخل جديد. لقد أكد له ياو تشاو أن المزارعين في أراضيه الشمالية سيكون لديهم محصول، ولكنه لم يكن قادرا على تقدير دخله المستقبلي طالما أنه لم يقدر على معرفة المحاصيل التي ستُجنى في المستقبل عبر كميات غير معروفة. لقد أحب أن يدفع لجيوشه الفضة، ولكن عليه في البدء أن يمتلك ما يكفي منها.

وقف هناك وحدق إلى المياه الهادئة، ثم رفع يديه إلى السماء وقهقه. إنه في أرض يدفع فيها الإمبراطور رواتب جنوده بالفضة، وعليه أن يفعل مثله، ولكن في البدء عليه العثور على المناجم واستخراج الخام منها. إنه متعب وجائع، لكن للمرة الأولى لم يشعر أن العثور على المناجم هو مهمة مستحيلة، ربما كانت كذلك قبل سنة، قبل أن تبدأ المدن تفتح أبوابها لقائد مغولي يتصرف كما لو أنه قائد من تشن. في الوقت التي تنفد منه الفضة التي زوده بها مونغ، سيكون قادرا على جمع الضرائب من أراضيه الجديدة، وإن فشل في العثور على الإمبراطور فستكون مدنه قادرة على تمويل تقدمه.

لم يشعر بياو تشاو قادما من خلفه، استطاع الرجل العجوز التحرك من دون أن يثير ضوضاء بالرغم من تقدمه في العمر، في البدء تفاجأ كوبلاي به، قبل أن يبتسم له. قال ياو تشاو:

«يسعدني أن أراك سعيدا، وكنت سأبدو أكثر سعادة لو اختار بايار بقعة غير موبوءة بالبعوض».

مع ذلك ظل كوبلاي يشرح أفكاره. تكلم بلغة الماندرين بسرعة، غير مدرك أن طلاقة لسانه باللغة جعلت الرجل العجوز فخورا. وعندما أنهى كلامه أومأ له ياو تشاو.

«إنها خطة جيدة، فمنجم الفضة سيجد عملا لكثيرين، ليس من الصعب إيجاد شخص سمع بهذه المناجم أو عمل فيها.

قال كوبلاي: «إنها فكرة جيدة. سأُرسل الكشافة غدا في مهمة، وحتى نعثر عما نبحث عنه لديّ ما يكفي من عملة تشن لأدفع للرجال. هل ستحسب المبلغ الذي نحن بحاجة إليه؟».

ابتسم ياو تشاو: «بالطبع، يجب أن أنطلق في حسابي، من خلال معرفة كم تتقاضى عاهرة رخيصة في إحدى القرى بدلا لخدماتها، لأنه يجب أن يكون لدى الجندي ما يتيح له الإنفاق على مثل هذه الرفاهية ليوم أو يومين، وهذا المبلغ سيعيد للجنود الانضباط، يا لها من فكرة جيدة كوبلاي».

تبادلا الابتسامات.

تابع ياو تشاو: «اذهب إلى زوجتك الآن، تناول الطعام، واستمتع بالحميمية أو خذ قسطا من الراحة، إذ يجب عليك أن تبقى بصحة جيدة». لقد أعادت لهجته الصارمة ذكريات كوبلاي إلى غرفة الدراسة القديمة، وتابع: «في مكان ما بعيد يتميز إمبراطور سونغ غيظا من التقارير التي تصله. لقد خسر جيشا وأربع مدن، وعلى الأرجح أنه ينتظر وصولك بفارغ الصبر، متأملا في أن ينهك المسير عبر أراضيه جنودك، ولكن يجب أن يسمع أن قوتك تزدهر، وأنك تلتهم الأراضي التهاما، وأنك لا تزال جائعا للمزيد».

ابتسم كوبلاي ابتسامة عريضة للصورة التي رسمتها كلمات ياو تشاو.

فقال وهو يتثاءب: «أنا متعب، ولا نية لديّ بليلة أخرى من الأرق، للمرة الأولى أعتقد أنني بحاجة إلى ليلة من النوم الهانئ».

«أبق أوراقك بالقرب منك فأنا أستمتع بقراءة ما تكتب».

فتح كوبلاي فمه محتجا. «إنها يوميات خاصة، أيها العجوز. هل سمحت لك تشاباي بالنظر إليها؟ أليس هناك من خصوصية؟».

«أنا أخدمك بشكل أفضل عندما أعرف ما يجول في خاطرك، وأكثر ما يثير اهتمامي ملاحظاتك عن قائد الجيش أويانغ خاداي».

شخر كوبلاي عندما سمع ما قاله الرجل العجوز.

«إنك ترى الكثير، أيها الصديق القديم. خذ قسطا من الراحة».

استمتع هولاكو بالشعور بقوته التي فرضها على الخليفة، فقد تلاشت ذرائع الرجل الأكبر سنا خلال ساعات الصباح. راقب هولاكو بصبر المستعصم يتكلم إلى مستشاريه ويتفحصون أوراقا لا تحصى، مقدمين عروضا ومحتجين على عروض، والتي تجاهل هولاكو معظمها إلى أن فهم الرجال واقع الأمر، فعندما حل الصباح، كانت مدافع هولاكو موجهة على فرق المقاليع المصفوفة بالقرب منهم، مما جعل المستشارين متوترين. حدق الخليفة إلى الأفق صوب صفوف الجنود، وعلى الخيم التي انتشرت لأميال في كل الاتجاهات. كان جيش المغول الكبير يطوق المدينة، ولم تأتِ أية قوة لفك الحصار عنهم، إن معرفته بضعف موقفه كانت جلية على وجهه، ومن خلال الطريقة التي جلس بها إذ كانت كتفاه متهدلتين.

شعر هولاكو بالخزي عندما رأى مقدار يأس الخليفة الذي أدرك شيئا فشيئا أن كل ما يعنيه سيصبح بيد رجل لم يكن يهتم لأمر شعبه وثقافته. في النهاية، قدم هولاكو عرضه الأخير، فهو يعلم أن الناس في المنطقة يحبون التفاوض. لم يكن الخليفة قادرا على تقديم أي شيء خلال التفاوض، فهولاكو لا يريد إلا أن تُفتح له أبواب المدينة ليدخلها وينهب كنوزها، ومع ذلك انتظر حتى يتأكد المستعصم من نفاد أمل لديه.

عند الظهيرة، توقفت النقاشات، لأن الخليفة ورجاله أدوا الصلاة. استغل هولاكو هذا الوقت وسار بين قادته، متأكدا من أنهم لا يزالون في حالة تأهب، فلا يجب ترك أي مجال للمفاجآت، فهو يريد أن يعرف بشأن تحرك أي جيش على بعد ستين ميلا، لأنه عندها سيقتل الخليفة قبل أن يشعر بأي أمل، فالأمر محسوم بالنسبة إليه.

هزّ هولاكو رأسه مستمتعا، وهو يسمع هتافهم، فبالنسبة إليه كان أب السماء دائما فوق رأسه، والأم الأرض أسفل قدميه. وإن كانا يراقبانه، إلا أنهما لا يتدخلان بحياته. صحيح أن أرواح الأرض يمكن أن تكون شريرة، فهو لم ينس قدر والده الذي اختير ليحل محل حياة أوجيدي خان المطلوبة. في ضوء الشمس ابتسم لفكرة وجود مليون روح تشاهده في هذا المكان.

جاءت اللحظة التي انتظرها منذ الظهيرة: قال الخليفة المستعصم: «لقد عرضت عليك كنوز قورش، وهي أكثر مما يتصور أي رجل. لقد قلت لي أن أقدر شعبي، ومدينتي، وهذا ما فعلته. ولكنك ترفض مرة ثانية؟ ما الذي تريده أكثر؟ لماذا أنا هنا حتى، إن كنت لن تأخذ شيئا مني في المقابل؟».

كانت عيناه ضعيفتين، عاد هولاكو إلى مقعده مجددا، ووضع سيفه على فخذه.

لم أكن لأبدو أحمق أيها الخليفة، وآخذ حمولة عربات وأترك الرجال يقولون إنني لم أعرف ما يوجد في المدينة القديمة. لن تضحك عندما نذهب».

نظر الخليفة إليه في حيرة شديدة.

«لقد رأيت القائمة التي هي عبارة عن سجلات الخزنة الرسمية. إنها قائمة قد يكون الكتّاب لديك قد كتبوها قبل مجيئك بأسابيع. أنا من سيحدد فدية بغداد، ولست أنت».

وقف الخليفة وهز رأسه: «ماذا؟...». ومرة أخرى نظر إلى الجيش حوله، لم يشك في أنهم قادرون على تدمير المدينة إن أتاح لهم الفرصة. شعر بالألم يعتصر فؤاده، وكان قادرا على شم تعرقه بقوة.

«أنا أحاول التفاوض على وضع نهاية سلمية للحصار. أخبرني ماذا تريد؟».

أومأ هولاكو بما أن الرجل طرح نقطة جيدة. وحك ذقنه، وشعر بالشعيرات تنمو.

«دع شعبك يتخلون عن السلاح، دعهم يرمون كل سيف، وكل خنجر، وكل فأس خارج المدينة، ليتمكن رجالي من جمعه. وعندها سأتقدم وإياك إلى المدينة، وسنتحدث مجددا».

«هل تطلب إلي أن أترك شعبي أعزل»

قال هولاكو: «إنهم عُزل أصلا». لوّح بيده قبل أن يجلس ويمد ساقيه على الطاولة. «انظر حولك مرة أخرى، أيها الخليفة وقل لي إن الأمر ليس هكذا. أنا أحاول أن أجد حلا سلميا، فعندما يفتش رجالي قصورك سأتأكد من أنك لا تخفي عني شيئا. لا تقلق، سأترك لك بعض الذهب، ما يكفي لتشتري بعض الثياب على الأقل».

ضحك الرجال الذين يحيطون بهولاكو في حين حدق إليهم الخليفة بعجز وغضب.

«أتعدني بأنه لن يكون هناك عنف؟».

تجاهله هولاكو لبرهة قبل أن يقول: «إن لم تجبرني. لقد قلت لك شروطي؟».

قال المستعصم: «حسنا، سأعود إلى المدينة».

فكّر هولاكو قليلا.

«أنت ضيفي. أرسل الرجال مع الأمر. وستبقى في الخيمة الليلة، لتتعلم طرقنا. هناك مسلمون في المخيم، وسيقدرون ما تقدمه لهم من إرشادات».

حدقا إلى بعضهما، قبل أن يشعر الخليفة أن لا خيار أمامه، كان كسمكة عالقة في صنارة، وهولاكو يستمتع بسحب خيطها، لقد أراد التمسك بأي أمل يحول دون سفك المغول للدماء في شوارع بغداد. فأومأ وقال بلطف: «يشرفني ذلك».

20

لم تكن مهمة نزع سلاح المدينة بالأمر السهل، لأن العائلات استطاعت رؤية جيش المغول حول الأسوار. قرأ المنادون باسم الخليفة الأوامر في كل زاوية شارع، ولم يطل الأمر قبل أن تُلقى الأسلحة إلى الشوارع من أجل جمعها، كان من الشائع أن تمتلك العائلات رماحا أو سيوفا في المنازل، من أجل الدفاع عن المنزل أو لأنها ذكرى من حروب سابقة شارك فيها أبٌ أو جد. لكن لم يكن من السهل حملُ الجزارين، والنجارين، والبنائين على التخلي عن معداتهم الثمينة. مع مضي ساعات الصباح الأولى، أصبح مزاج المدينة سيئا، واستعادت بعض العائلات الأسلحة قبل أن تُجمع، وواجه آلاف الحراس غضب الناس، وكانوا يفوقونهم عددا. استنجد رجال الخليفة طالبين دعم مجموعات من زملائهم عند كل نقطة قبل أن يتمكنوا من المضي قُدما. ونتيجة لذلك، أصبحت المجموعات أكثر بطئا، ولم تكن بداية واعدة، ومع حلول الليل أصبحت الصدامات أكثر حدة.

كان على الحراس الاحتفاظ بأسلحتهم من أجل تنفيذ أوامر الخليفة، ولكنهم كانوا يتميزون غيظا. فكل رجل وابن أبديا امتعاضهما عند تسليم الأسلحة، ولم يمرّ الحراس في شارع من دون أن يرشقهم الفتية بالحجارة والخضار المتعفنة ويشتموهم.

مع مرور الأيام الحارة، كان الصراخ هو السلاح الذي واجه به سكان المدينة جنود الخليفة، وهذا ما أغضبهم، وحاولوا تجاهل مشهد السكان الذين يفرون من أمامهم وهم يحملون السيوف والخناجر.

في اليوم الرابع، رُشق أحد رجال الخليفة بشيء انزلق على رأسه، ودعي بالخائن والجبان، وسخر السكان منه وبصقوا عليه، فالتفت إلى مجموعة من المراهقين الذين يضحكون عليه، وعندما استل سيفه عليهم، تفرقوا، ولكنه تمكن من الإمساك بأحدهم، وأنهى حياته بطعنة من سيفه. شعر الحارس بالهلع عندما رأى جثة الفتى المقتول، لقد كان أصغر الفتيان. نظر الحارس إلى وجه الرجل ضخم الجثة الذي استُخدم لحمل الأنصال، وعندما رأى الحمال الفتى المقتول، ألقى ما بيده وابتعد،

عندها أخذ كثيرون يستدعون السكان ليروا ما حصل، فازداد السكان غضبا، عندها عرف الحارس القاتل ما سيؤول إليه مصيره، فأخذ يتراجع، وقد اعتلت على وجهه ملامح الهلع، تراجع بضع خطوات قبل أن يتعثر ويقع. فتجمع حوله الحشد الهائج، ومزقتْ الأظافر جسده، وحُطمتْ عظامه من الركل والدوس.

أتى عشرات الحراس من نهاية الشارع، وما إن رآهم الحشد حتى تفرقوا، وركض الناس في كل الاتجاهات، وتركوا جثة الحارس الممزقة والتي بالكاد تظهر ملامحها إلى جانب جثة الفتى.

في فجر اليوم التالي انتشر الشغب في شتى أنحاء بغداد، وعندما علم الخليفة المحتجز في مخيم المغول بما حصل فقدَ صبره، لقد كانت لديه ثماني ثكنات للحراس تحوي ثلاثة آلاف حارس، أرسل الخليفة أوامر جديدة، تتيح للحراس قتل مثيري الشغب، وشدد على ضرورة قراءة أوامره عند نواصي الشوارع، تلقى الحراس الأخبار بسعادة، فشحذوا سيوفهم، صحيح أنهم خسروا أحد رفاقهم، إلا أنهم عقدوا العزم على ألا يتكرر الأمر ذاته مع أي واحد منهم، فتحركوا في مجموعات مؤلفة من مئتي حارس، ورافقهم مئات من الحمالين كُلفوا بجمع الأسلحة وإلقائها من الأسوار، وإن اعترض أحدهم على ما يقومون به، كانوا يضربونه بعصي غليظة، ولا يبخلون عليه ببعض الركلات القوية، ومن يغضب من السكان، ويشهر سيفه بوجه الحراس، كانوا يقتلونه ويتركون جثته لتكون عبِرة لغيره، لم يخجلوا بما يقدمون عليه، ولم يخشوا انتقام السكان.

تقلصت الاعتراضات نتيجة البطش الذي أبداه الحراس، ومع عودة الهدوء أخذ الناس يرددون همسا اسم الفتى المقتول.

بعد أحد عشر يوما، ومع نفاد صبر هولاكو، وصلت رسالة مفادها أن نزع الأسلحة قد انتهى، فأصبح بإمكانه دخول المدينة وتفتيشها، لقد كان مقدار الأسلحة التي نزعت كبيرا، وهذا ما جعله يستعين بالغالبية العظمى من جنوده لجمعها من الأماكن التي ألقيت فيها أسفل السور، كان قسم كبير منها صدئا، ووجدت القليل من القطع ملاكا جددا بين ضباط المغول، وللمرة الأولى ف التاريخ، أصبحت بغداد مدينة منزوعة الأسلحة، سُر هولاكو للفكرة، وامتطى حصانه، استعدادا للتقدم إليها، أما الخليفة فقد جلس في عربته بثيابه المتسخة، وقد غطت وجهه لدغات البراغيث. ضحك هولاكو عندما رأى الرجل، ثم أعطى أمرا بالمضي قدما.

بالرغم من نزع سلاح المدينة، إلا أن إمكانية وجود بعض الأقواس المخفية، أبقى على شيء من الخطر، لذلك ارتدى هولاكو درعه، واعتمر خوذته، فأشعره الثقل بالقوة، عندها وخز حصانه

بكعب قدمه، وتقدم نحو البوابة. كانت قواته مستعدة لمهاجمة المدينة، ومع ذلك ترك رجالا عند كل بوابة فُتحتْ، متمنيا أن يكون قد فكّر في كل الاحتمالات، وبينما كان يسير في طريق رئيسي فارغ تعثر، فتردد صدى تعثره في الأرجاء.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يلاحظ أنه توغل بعيدا عن سور المدينة، لاحظ هولاكو أن المدينة بُنيت بحجارة بنية اللون، وذكّره هذا بمدينة تقع إلى الشمال منها، وتدعى سامراء، حيث خاضت قواته فيها معارك شرسة قبل أن تنهبها، وتريق دماء قاطنيها في المزاريب، وتتحول المدينة إلى أثر بعد عين. لكن بغداد أكبر من سامراء بكثير، وكانت مساجدها مزخرفة ومُبلطة ببلاط أزرق فاتح، وتعكس أشعة الشمس، فبدت مثل كتلة مشعة. عَلِم هولاكو أن المسلمين حُرم عليهم تزيين أبنيتهم بالتماثيل ذات الأشكال البشرية، لذا صنعوا أنماطا من الأشكال المتشابكة. وقد قيل إن الرياضيات لديهم نشأت من الفن، من رجال أُجبروا على استخدام الزوايا والتناظر لعبادة آلهتهم. وما أدهشه أنه أُعجب بأسلوب الزخرفة هذا أكثر من مشاهد المعارك التي صممها أوجيدي في كاراكورم.

شعر هولاكو أن الأشكال المكررة والخطوط التي تغطي الجدران الواسعة والأفنية تبعث شيئا من الراحة في النفس، وأبدى إعجابه بالأبراج والمنارات التي ترتفع في سماء المدينة، وعندما نظر إلى الأعلى شاهد رجالا، وما من شك في أنهم يستطيعون من أماكنهم تلك رؤية جيشه المنتشر خارج المدينة.

تخطى بيت الحكمة الشهير، وانحنى على سرجه ليتمكن من اجتياز ممر نحو الفناء الأزرق الداكن. نظر العلماء المتوترون من كل النوافذ، وعندها تذكّر أنهم يملكون أعظم مكتبة في المنطقة، وخمن أن كوبلاي كان سيدخل إلى بيت الحكمة لو كان معه، ولكنه شخصيا سعى لرؤية أشياء أخرى.

تبع رجاله مجموعة من حرس الخليفة عبر المدينة، ثم اجتازوا نهر دجلة عابرين جسرا من الرخام الأبيض، لم يكن باستطاعة الناظر إليها من خلف السور معرفة مقدار اتساعها.

عندما وصلوا إلى بوابة القصر، كانت الشمس تتوسط كبد السماء فعبروا الحدائق الخضراء المحمية، وشخر هولاكو لرؤية الطاووس يركض بين الرجال المسلحين وقد فرد ذيله.

بقي معظم الجنود خارج حرم قصر الخليفة، ولكن هولاكو أذن لهم بالتجول في شتى أرجاء المدينة، فهو لم يكن يهتم بما يفكر فيه الخليفة، ففي الوقت الذي ترجل فيه عن حصانه، كان عشرات

الآلاف من الجنود يدخلون المدينة في موكب بطيء، كانوا رجالا منضبطين يبحثون عن الثروات المخبأة من دون أن يقوموا بأعمال تخريب.

شعر هولاكو بارتفاع في معنوياته عندما قاده الخدم عبر الغرف الجميلة إلى المكان الذي كان ينتظره فيه سيدهم. لقد علم أنه يمكن أن يكون كمينا، ولكنه اعتمد على تهديد رجاله في إبقائه آمنا، فالخليفة لم يظهر حدا أدنى من الدهاء والحكمة عندما سمح له بدخول المدينة مع عدد كبير من المغول في الوقت الذي كان فيه حراسه عُزلا. لم يشك هولاكو للحظة بوجود أنصال مخبأة في بغداد، لأنه من المستحيل إيجاد كل سكين، وسيف ورمح مع السكان بوجود سراديب وغرف مخفية. لقد كان الهدف من تجريد المدينة من الأسلحة رمزيا، فهو يزيد من إحساس الضعف الجماعي في المدينة في الوقت الذي ينتظر فيه الخليفة وشعبه أن يحقق مراده ويغادر.

نظر الخليفة المستعصم أسفل الدرج الحجري الذي يقود إلى طابقين سفليين، حيث كانت الخزنة عميقة في الأرض ومضاءة بالمشاعل لأن نور الشمس ما كان يصل إليها، إنها قاعة مغبرة ورطبة، لقد بدا الخليفة بالرغم من ثيابه المتسخة أكثر ثقة بنفسه هنا عما كان عليه في مخيم المغول. انتظر هولاكو أي دليل على الخداع في حين كان حرس الخليفة يزيلون قطع الحديد الثقيلة، التي كانت إحداها ثقيلة جدا وبالكاد تمكن رجلان من حملها.

تقدم المستعصم، وضغط على الباب فاتحا إياه بهدوء من دون أن يثير ضجة، فاندفع من دون تردد إلى الأمام ليلقي نظرة. راقبه الخليفة، ورأى الطمع في عينيه.

لقد كانت الخزنة عبارة عن سرداب طبيعي أسفل القصر، ما إن دخل هولاكو حتى غادر الخدم، كان المكان مضاء بمصابيح مدلاة من السقف. ابتسم هولاكو عندما استوعب أن الأرض تفتح من أجله.

ما رآه أكد له أنه يستحق الوقت الذي أمضاه خارج السور منتظرا، شع الذهب بلونه الفريد في أكياس من بين القضبان التي كانت بسماكة إصبع الرجل، ولكن لم يكن ذلك إلا جزءا صغيرا مما يحويه الكهف، جف لعاب هولاكو وهو يرى اتساع السرداب، ولم يكن باستطاعته إلا أن يتساءل عن مقدار الكنوز التي أخرجت قبل ذلك اليوم، فما من شك في أن الخليفة أراد الاحتفاظ بقسم من الكنوز، وكان هولاكو يعلم أنه سيتكبد عناء كبيرا حتى يجد الخزائن الأخرى. لكن بالرغم من كل شيء كان المنظر أمامه آسرا، إذ إنه وجد في مكان واحد كنوزا أكثر مما يمتلك المغول، إنه يعلم أن عليه

إعطاء نصف هذه الكنوز لأخيه، ولكنه يعلم أيضا أنه أصبح أحد أغنى الرجال في العالم. فضحك وهو يقف هناك أمام ثروة جمعتها شعوب.

ابتسم بتوتر عندما سمع صوت الخليفة.

«عندما تتفقد اللائحة التي أعطيتك إياها، سترى أنني دوّنت فيها كل شيء. لقد تعاملت بشرف من أجل مدينتي».

التفت هولاكو إليه ووضع يده على كتفه وقال: «أنت محق، يا لها من كنوز رائعة، ولكن عليك أن تُريني الكنوز الباقية، أقصد ثروة بغداد الحقيقية».

نظر الخليفة بخوف إلى الرجل المبتسم، وهز رأسه من دون أن يتكلم. عندها مدّ هولاكو يده وأمسك بخد الخليفة بلطف، وسأله: «هل أنت متأكد؟».

أجاب الخليفة: «أقسم على ذلك». وخطا بعيدا عن القبضة المهينة في حين تحدث هولاكو مرة ثانية لأحد جنود المغول.

قال: «أخبر القائد كيتبوا أن يبدأ بإحراق المدينة». فصعد الرجل الدرج وراقب الخليفة برعب مغادرته.

«مهلا، هناك خزنة للذهب مخفية أسفل بركة الحديقة، صدقني ما من شيء سوى ذلك».

قال هولاكو: «لقد تأخر الوقت الآن، فقد طلبت إليك أن تحدد موقع الكنز بشكل دقيق، ولكنك لم تفعل، لقد جنيت أيها الخليفة على نفسك وعلى مدينتك».

سحب الخليفة خنجرا من طية ثوبه، وحاول مهاجمة هولاكو، لكن هولاكو تنحى جانبا، وترك حراسه يتدخلون، فأسقطوا السلاح من أصابع الرجل. فالتقطه هولاكو وأومأ لنفسه، وقال: «لقد أخبرتك ألا تحمل سلاحا، ولكنك لم تفعل، خذوه إلى غرفة صغيرة، واسجنوه ريثما نكمل عملنا. لقد تعبت من وعوده».

لم تكن مهمة سحب الخليفة عبر الدرج سهلة، لذا ترك هولاكو حراسه، ودخل إلى السرداب ليتفحص ما ربح. علم كيتبوا ماذا سيفعل. فقد خطط هو وهولاكو منذ أسابيع. والصعوبة الوحيدة كانت في إخراج الكنوز قبل تدمير المدينة.

كان الشتاء معتدلا في تلك المنطقة، استقرت قوات كوبلاي آمنة في خيامها. ومن خلال ما قرأه كوبلاي في كتابات تسوبوداي عن الحملة الروسية، علم أن الشتاء هنا لا يُهزم. تحركت جيوشه على مدار الفصول، ولم يكن قادرا على الراحة من الحرب، ولا بد من أن أعداءه يشعرون بعدم الراحة أيضا، فقد دخل المغول أرضهم، ولا يعلمون أين ستكون ضربتهم التالية.

توقع كوبلاي أن يحارب في كل خطوة يخطوها عبر أراضي سونغ، ولكن بعد المعركة الأولى، بدا الأمر كما لو أن الإمبراطور يتجاهله، وتساءل عما إن كان إحساس الصدمة قد شله، لقد مرت قرون منذ أن هاجم أحد أراضيه، ولكن دروس تشن كان من الصعب تجاهلها. لو كان كوبلاي في السلطة، كان سيسلح كل السكان من أجل الحرب، مجبرا ملايين الرجال على مقاومة المغول والدخول في حرب استنزاف لا تنتهي، وهذا ما كان يخشاه، وكانت راحته الوحيدة أن إقليم يونان كان معزولا بسلسلة هضاب وجبال عن باقي منطقة سونغ. للوصول إلى مدينة سونغ رئيسة، كانت خرائطه تُظهر أراضي فارغة على بعد مئتي ميل، من دون أية تفاصيل.

مع مرور كل أسبوع كان يشعر بالقلق، فبالرغم من إرساله الرجال والمال للعثور على مناجم الفضة لإمبراطور سونغ. إلا أنهم عادوا خاوي الوفاض، وبعد مرور شهرين من دون تحقيق أي تقدم وجد نفسه مجبرا على الذهاب شرقا نحو الهضاب، تاركا مجموعات صغيرة من الجنود في مدنه ليؤمنوا سلامة خطوط الإمداد.

تحركت عشرات الفرق من القوات وأتباعها ببطء عبر الأرض. أعطى كوبلاي أوامر لأويانغ خاداي ليشتري الطعام بدلا من أخذه، ولكن النتيجة كانت أن ثروته كانت تتضاءل. أصر قائد الجيش على القول إنه من غير الحكمة إنفاق النقود الفضية على مزارعي القرى، ولكن كوبلاي رفض مناقشة الأمر. كان يعلم أنه يستمتع في مضايقة الرجل الأكبر منه، ولكنه لم يكن بوارد أن يشرح لشخص لن يفهم المغزى مما يقدم عليه، إن تدفق النقود الفضية على البلدات الواقعة خلف صفوف المغول. أبقاها هادئة.

كانت الحركة بطيئة، بالرغم من وجود ممرات عبر الهضاب. لم تكن هناك جبال عظيمة، فقط أفق بعيد من القمم التي أصبحت خضراء بفعل المطر الكثيف. استمر انهمار المطر لأيام، محولا التراب إلى طين لزج أبطأ حركتهم وجعل عجلات العربات تنغرس في الوحل.

مع كل تقدم لهم كانت النساء والطفال يصبحون أكثر نحفا، لأن القطعان كانت تُذبح لتغذية الرجال ليبقوا أشداء، عدا الرعي لم يسر أي شيء على ما يرام.

أمضى كوبلاي المساء في خيمة تتسرب إليها المياه مع تشاباي وزين جين يستمعون إلى ياو تشاو يقرأ عاليا من شعر عمر الخيام.

في كل بلدة مروا بها سأل جنوده عن مناجم الفضة. في تلك الأماكن النائية نادرا ما ذهب أحد إلى المدن، وهذا ما أشعر كوبلاي بالراحة، وعندما أخبره الكشافة عن عثورهم على أحد جنود سونغ المتقاعدين في حقله شعر بالسعادة، يدعى الرجل أونغ شانغ، وعندما رأى أونغ شانغ الجنود أمامه، باح بما يعلم، وقد تبين أنه كثير، أخبر الجندي المتقاعد كوبلاي عن مدينة غويانغ، التي بالكاد تبعد أربعين ميلا عن ثكنات جيش الإمبراطور ومناجم الفضة. لم تكن مصادفة وجود الثكنات بالقرب من المناجم لأن آلاف العمال عاشوا في بلدة مخصصة لعمال المناجم، وكانت الثكنات لحمايتهما.

تحدث أونغ شانغ الذي عمل هناك لفترة بلباقة وانضباط، وأرى كوبلاي يدا فيها إصبعان ليوضح فكرته. وكما قال، أن تولد في بلدة حول غويانغ يعني أن تموت في المناجم. لقد كان مكانا فقيرا للعيش، ولكنه يُنتج ثروة كبيرة. لم يكن من المستغرب أن أونغ شانغ لم يحظ طيلة حياته بجمهور يصغي إليه بمثل الطريقة التي يُصغى بها إليه الآن. استقر في منزله الصغير، في حين كان كوبلاي يستمع إلى كل كلمة.

«هل رأيت التربة تُحضر إلى السطح وتُصهر؟».

أجاب أونغ شانغ وهو يشعل غليونه ثم يسحب نفسا طويلا: «إنها تصهر في أفران ضخمة، كانت تهدر طوال اليوم الأمر الذي يجعل العمال صُما بعد بضع سنوات فقط. لم أرغب في الاقتراب من هذه الأشياء أبدا، ولكنني كنت هناك لحراستها».

«وقلت إنهم يحصلون على الرصاص...»

«الرصاص الخام مخلوط بالفضة. إنهما يوجدان معا، ولكنني لا أعرف لماذا. الفضة معدن نقي، ويمكن أن يتم تذويب الرصاص. لقد رأيتهم يصبون قوالب من الفضة في الموقع، وكان علينا العمل لنتأكد من أن عمال المنجم لا يسرقون شيئا من الفضة».

عندما بدأ يتحدث عن طرفة بشأن رجل حاول أن يبتلع قطعا حادة من الفضة، شعر كوبلاي أنه على وشك أن يتقيأ. تبين لكوبلاي أن الجندي لا يعرف أكثر منه بكثير عن عملية الصهر والتحويل، لكن ما أدلى به كان مهما وذا قيمة بالنسبة إلى كوبلاي. لقد كانت المناجم في غويانغ

موبوءة، مدينة وجدت لهدف الحفر وإخراج الخام فقط. لقد تخيل كوبلاي شيئا على نطاق أصغر، ولكن أونغ شانغ تحدث عن آلاف العمال، يطرقون ويجرفون ليلا نهارا ليملؤوا صناديق الإمبراطور. لقد حدد مواقع سبعة مناجم أخرى في أراضي سونغ، التي توقع كوبلاي أنها من بنات أفكاره.

في النهاية صمت الرجل، وجعلت قارورة من القمارص أخرجها كوبلاي من ثوبه الجميع يشعرون بالراحة، بعد ذلك نهض كوبلاي وابتسم من دون أن يظهر أسنانه. فسأل أونغ: «أتمتلك الفضة الكافة لتدفع لدليل؟».

أومأ كوبلاي فنهض الرجل معه، محركا ذراعيه إلى الأعلى والأسفل. «سأكون الدليل، فمن دون دليل لن تجد شيئا».

قال كوبلاي: «ماذا عن مزرعتك، وعائلتك؟».

«الأرض هنا سيئة، ليست إلا كلسا وحجارة. وعلى الرجل أن يجني المال، وأشعر أنني سأجنيه منك».

تفحصت عينا أونغ شانغ ثياب كوبلاي النظيفة، وارتعشت يده المشوهة عندما حاول لمس الثياب جيدة الحياكة. لقد كان كوبلاي مستمتعا، وقد رأى زوجة المزارع تنظر إليه من مدخل الباب، فتلاقت نظراتهما لبرهة، فما كان منها إلا أن أخفضت عينيها ونظرت إلى الأسفل، خائفة من الرجال المسلحين الذي يحيطون بمنزلها.

قال كوبلاي: «كيف أعلم أنني أستطيع الثقة بك؟»

«أنا أونغ شانغ المزارع الآن، ولكن في السابق كنت أونغ شانغ الضابط المسؤول عن ثمانية رجال، قبل أن أخسر أصابعي بسبب أحمق يحمل مجرفة، لقد طلبوا إلي أن أُسلم درعي وسيفي وأعطوني مرتبي، وانتهى كل شيء. خدمت لعشرين سنة، وكانت النتيجة أن أُبعدت عن العمل من دون أية مكافأة، لا تخش من أن أسبب لك المتاعب. فأنا لا أستطيع أن أحمل سيفا، ولكنني سأدلك على الطريق. أود أن أرى وجوههم عندما يرون رجالك يقودون نحوهم». بدأ أونغ بالثرثرة ثم امتص غليونه مرة ثانية، كما لو أنه حلوى منحته الراحة.

قال كوبلاي: «أنا أدفع للرجال أربع قطع فضية في الشهر، وستحصل على مكافأة عندما تجد لي مناجم الفضة».

أضاء وجه أونغ شانغ: «أربعة! كل هذا، سأمشي ليل نهار، في أي مكان تريده».

تمنى كوبلاي ألا يكون تقديره لمرتب الجنود أكثر مما ينبغي، وهو أمر من أمور قليلة لم يكن الراهب البوذي يمتلك خبرة فيها. لقد كان كوبلاي يخسر نصف مليون من العملات الفضية كل شهر من أموال حملته وبالرغم من أن مونغ كان أكثر من كريم، فقد كان كوبلاي لا يزال يعاني لفهم تأثير مثل هذه القرارات.

بعيدا نحو الشمال، كانت شانغدو تُبنى من قبل عمال تشن الذين افترضوا أنه سيعود مع مرتباتهم. كانت العاصمة الجديدة التي تخيلها ستُترك كآثار إن لم يجد مصدرا آخر للفضة.

«حسنا، منذ اليوم أنت الدليل أونغ شانغ. هل يجب أن أحذرك مما سيحصل لك إن ضللتنا؟».

قال الرجل: «لا داعي لذلك».

21

بكى الخليفة على بيت الحكمة الذي كان يحترق. فقد أصبحت علوم العصور وفلسفتها رمادا جافا، وانتشرت النيران في كل مكان، تلك النيران التي اشتعلت جحيما وانتشرت إلى المباني القريبة والمحيطة بها. تركه مرافقوه المغول وحده، ليشاركوا في نهب المدينة القديمة. فانتظر المستعصم لفترة من الزمن، ثم خرج من قصره، يمشي فوق الجثث المرمية، تجاوز البركة في الفناء حيث خبأ الذهب، لم تعد تلك البركة جميلة كما كانت بعد أن قُتلت أسماكها في أثناء سحب الذهب.

سار الخليفة في الشوارع التي كانت فيها سواقي من الدماء، وفي أكثر من مرة رأى جنود المغول والدماء تقطر من سيوفهم، عرفوه لكنهم تجاهلوه، وهذا ما جعله يشعر بالرعب في أثناء تقدمه، لم يصدق ما تراه عيناه، وظن أنه في وسط كابوس، لقد أمر هولاكو جنوده بعدم التعرض للخليفة، لكن أوامر هولاكو لم تشمل إلا الخليفة فقط الذي أخذ يبكي عندما رأى الدمار الذي حل بمدينته التي غطت الجثث شوارعها حيث عبقت فيها رائحة الدخان.

لم يكن الحريق في بيت الحكمة، إلا واحدا من مئات الحرائق إن لم نقل آلاف الحرائق، وبعد أن وقف مشدوها لبعض الوقت، تحولت عيناه إلى اللون الأحمر بفعل الدخان.

ربما كان هناك أكثر من مليون شخص يعيشون في بغداد في الفترة التي حاصرت فيها جيوش هولاكو المدينة. ففي بغداد خُصصت مناطق بأكملها للعطور، وأخرى للكيمياء والحرفيين من آلاف الأنواع المختلفة، ولكن ألسنة النار كانت تلتهمها الآن. وقف المستعصم لبرهة ينظر إلى المئات من الأحواض الحجرية التي تمدد فيها رجال ونساء وقد لطخت الأصباغ وجوههم، وكانت عيونهم جاحظة. تابع الخليفة سيره، على غير هدى، متقبلا إرادة الله، وهو الذي يعلم أن بعض الأشرار يمكن أن يسببوا ضررا شديدا لكن ما رآه صدمه، فسار مثل المتسول في شوارع مدينته، فحيثما نظر رأى القتلى، وحيثما سار شم رائحة الدماء والحرائق، وسمع صرخات متفرقة، فأدرك أن عمليات القتل لم تنته بعد، ولم يستطع أن يتخيل ما الذي يفكر فيه رجل مثل هولاكو يأمر بإبادة

مدينة بأكملها وكيف لا يخجل من نفسه. عندها تأكد له أن هولاكو لم يسعَ منذ البداية إلا وراء الدمار، وأن مفاوضاتهما لم تكن إلا خدعة. لم يستطع الخليفة تقدير مقدار الشر الذي يحمله هذا المغولي.

تعثر المستعصم لأميال في أنحاء المدينة، وفقدَ حذاءه عندما تسلق كومة من الجثث اعترضت طريقه.

مع تقدم ساعات النهار، ما شاهده من دمار وألم وتعذيب جعله يظن أنه في الجحيم، لقد مزقت الحجارة قدميه العاريتين فأخذتا تنزفان إلا أنه لم يلاحظ ذلك.

فأتت كلمات القرآن على خاطره حينها: « {...فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}. لم يكن المغول بمسيحيين أو هندوس أو يهود، لكنهم سيعانون في الوقت المناسب، كما عانى أهل مدينته. لم يكن له من عزاء سوى هذا.

كان المستعصم يمر على جسر من الرخام الأبيض، وضع ذراعيه على حافته وهو ينظر إلى النهر الذي يعبر المدينة وقد تلوّنت مياهه بلون دماء الجثث المكدّسة، لقد كانت فاغرة أفواهها كالسمك. وعلى الرغم من أن معاناة هؤلاء قد انتهت إلا أن قلبه امتلأ حزنا حتى شعر أنه يكاد أن ينفجر في صدره.

وجده القائد كيتبوا غارقا في يأسه في وقت الأصيل، فهزه ليعيده إلى الواقع. رفع المستعصم بصره محدقا إلى عيني القائد المغولي دون أن يفهم ما الذي يريده منه. ولكن حركة جسده وجذبه إياه كانا كفيلَين بأن يعلمَ مراد القائد فسار معه متجهما نحو القصر.

كان القصر متلألئا من بعيد، تمنى المستعصم في اللحظة التي فكر فيها في نسائه وأولاده المقيمين في جناح الحريم أن يموت. ولما كانت رائحة الدم نفاذة بشكل غير معتاد طوال الطريق، فقد تقيّأ من دون سابق إنذار في مياه النهر الجارية. إلا أن القائد دفعه مشجعا إياه على التحرك، لتخلف قدماه العاريتان طبعاتٍ على الدم الذي يغطي أرضية الجسر الرخامية.

كان هولاكو في القاعة الرئيسة يشرب من كأس ذهبية، وقد وقف بعض من خدم الخليفةِ على خدمته ورعايته. وفي الوقت الذي رأوا فيه الحال التي أضحى عليها سيدهم السابق فوجئوا بشدة وشحبت وجوههم.

هزّ هولاكو رأسه وقال:

«طلبت منك أن تبقى في القصر، ولكنك لم تستمع، سأدخل إلى جناح حريمك الليلة، لقد قيل لي إن الباب الذي يُفضي إلى ذلك الجناح يُدعى باب السرور».

عندما علم المستعصم أن زوجته وأولاده لا يزالون على قيد الحياة، شعر ببصيص من الأمل يغمر قلبه، وقال بهدوء:

«أرجوك، أرجوك أبقِ على حياتهم».

سأله هولاكو باهتمام: «كم عدد النساء هناك؟».

أجابه المستعصم: «سبعمئة امرأة، العديد منهن أمهات، أو يحملن أطفالا».

فكّر هولاكو لبعض الوقت وقال: «بإمكانك أن تحتفظ بمئة منهن، وستُوزع الباقيات على قادة جيشي. لقد عملوا بجد، ويستحقون المكافأة».

نهض هولاكو بعد ذلك، وألقى بكأس الخمر على الأرض فتشظّت، وبدت السعادة بوضوح على وجوه الرجال المحيطين به. ثم شق طريقه عبر الممرات والقاعات إلى أن وصل في النهاية إلى الباب الذي يحجب الرؤية عن جناح الحريم. نظر بحذر وترقب إلى الخليفة الذي لم يكن يمتلك المفتاح أو يعلم مكانه، لذا أومأ هولاكو لرجاله فما استطاع الباب الصمود أكثر من ثوان معدوداتٍ أمام ركلاتهم.

«مئة فقط، أيها الخليفة، إنه كرم زائد مني، وذلك بسبب مزاجي الجيد هذه الليلة».

انسابت الدموع من عينَي الخليفة، وانقبض قلبه بعد أن سمع ما قاله هولاكو، أما النساء داخل الجناح المُقتحَم فبدأن بالصراخ والعويل، لكن الخليفة عمدَ إلى تهدئتهن فتوقفنَ وأحنين رؤوسهنّ. أخذ هولاكو يتفقدهنّ كما يتفقد الماشية ممتِّعا نفسه بلمسهنّ، ثم أتاح للخليفة أن يختار مئة منهن وعهد بالباقياتِ إلى رجاله المتلهفين للنساء، الأمر الذي جعلهم يستقبلونهنّ بصيحات الابتهاج. أما الأطفال فقد ظلوا في الخلف متمسكين بالنساء اللواتي يعرفونهن، في حين بدأ الآخرون بالبكاء عندما انتُزعت منهم أمهاتهم.

أومأ هولاكو برأسه للمستعصم، قائلا:

«لقد أحسنت الاختيار، ستكون النساء اللواتي اخترتَهن ملكي، أما الأطفال فلا حاجة بي إليهم».

تحدث بفظاظة إلى الحراس الذين بدؤوا بسحب النساء واحدة تلو الأخرى، وضربوا الأطفال أيضا وأسقطوهم عندما كانوا يحاولون التمسك بأمهاتهم. لقد أصابت الخيانةُ المستعصمَ بالصدمة بالرغم من توقعه إياها، فقرأ على مسامع النساء والأولاد آيات من القرآن تعِدهم بالجنة دون أن يتمكن من النظر إليهم.

انتظره هولاكو حتى انتهى من قراءته، وقال لرجاله:

«ليس هناك من شيء آخر هنا، خذوا الرجل السمين واشنقوه خارجا».

سأله أحد رجاله: «ماذا عن الأطفال يا سيدي؟».

نظر هولاكو إلى الخليفة، وقال:

«طلبت إليك تسليم كل الكنوز ولكنك لم تفعل، لو استجبت وقتها لكنتُ سأعاملك برحمة».

ثم خاطب رجاله:

«اقتلوا الأطفال أولا ثم اشنقوه. لقد حصلت على كل ما تملكه بغداد، ما من شيء آخر يمكنني الحصول عليه».

استلقى كوبلاي على بطنه وأخذ يلعن في سره، فقد أرسل كشافته للبحث عن الفضة، وقد دفعوا للرجال الذين صادفوهم في طريقهم الممتد لأميال من دون أن يلقي بالا إلى أنّ إمبراطور سونغ سيعلم في نهاية المطاف بما يقوم به، وسيتصرف ليحول دون تمكنه من تحقيق مبتغاه.

أدرك كوبلاي أنه لم يتصرف بحكمة، وبالرغم من اشمئزازه من تصرفه الساذج، إلا أنه لم يستطع أن ينسى الجيش المعسكِر حول مناجم غوبيانغ، في الوقت الذي لا تزال فيه فيالقه على بعد عشرين ميلا وربما أكثر إلى الغرب، إذ لم يكن معه هنا في هذا الموقع المتقدم سوى أونغ شيانغ واثنين من الكشافة.

حدّق كوبلاي عبر التلال إلى المعدات والرجال كثيري العدد وهو يكشر بغضب، فلم يكن هؤلاء الرجال مجرد فرقة حراسة، بل جيش صغير مكتمل التسليح مزود بالمدافع، إضافة إلى المشاة والرماة المسلحين بالرماح الذين لا يقل عددهم عن عشرة آلاف حسبما قدّر، لذا لم يعد بإمكانه التفكير في مفاجأتهم وأخذِهم على حين غرة، ولكن حاجته الملحّة إلى الفضة التي تُستخرَج من المنجم الواقع تحت سيطرتهم هي ما زادت الأمور تعقيدا.

لقد تبين لكوبلاي أن الإمبراطور يعطي أهمية كبيرة لهذا المعدن، وفكّر في أن يستبعدَ فكرة الهجوم، ولكن ما إن خطر في باله احتمال وصول خبر تراجعه إلى مونغ حتى عاد إصراره للمضي في مخططاته قُدما.

كان المنجم في وادٍ شبه أجرد، الأمر الذي من شأنه أن يتيح لجنوده التقدم بسرعة.

إذا تمكن جنوده من إيصال مدافعهم إلى حافة الوادي فسيمطرون قوات سونغ بالمقذوفات، وسيكون رد قوات سونغ عليهم أمرا صعبا لأنهم سيضطرون للقذف باتجاه الأعلى، فلو كان هناك مجال لأفضلية واحدة صغيرة ضد هذا الحشد الكبير، فلا بد من أخذها بعين الاعتبار.

حدّق كوبلاي كما يتمعن الرجل دقيق الملاحظة إلى الخرائط وهو يفكر في إمكانية الاستفادة من كل ميزات التضاريس، فهو كان يعلم أن الكلمة الفصل في هذه المعركةِ ستكون لسلاح المدافع التي لم يسبق له أن شاهد كيفية استخدامها في القصف عندما لا يكون الجنود في وضع التحامٍ، على الأقل لم يشاهد ذلك في وضَح النهار، إضافة إلى أنه لم يشك للحظةٍ في خبرة قادة جيش سونغ التي تفوقُ خبرته، ولم يكن بمقدوره أن يتخيل أنهم وصلوا إلى مناصبهم القيادية هذه بسبب صلات القرابة التي تربطهم بالإمبراطور أو بسبب تخطّيهم للامتحانات الإمبراطورية، وذلك بغضّ النظر عن الشائعات التي سمعها.

فكّر مرة أخرى في كل ما قرأه عن حروب عائلة سونغ، وكيف أن الصينيين، عندما يخوضون المعارك، فهم يخوضونها وفقا للأساليب المعاصرة التي تتضمن ضربات وضربات مضادة، ونادرا ما يحاربون بقصد الإبادة، فالقتال يستمر إلى أن يستسلم أحد الفريقين. إنّ هذا الأمر بمثابة ورقة رابحة له؛ فجنوده يقاتلون بقصد التدمير والتحطيم وكسر إرادة العدو إلى أن يصبح غبارا تحت أقدامهم.

نظر كوبلاي عبر العشب الكثيف إلى أونغ شيانغ، الذي كان يحدق إلى خطوط سونغ الدفاعية، وعندما شعر المزارع بنظرة كوبلاي إليه، نظر إلى الأعلى وتجاهله، وقال:

«كان هناك حديث عن دفعة إضافية عندما أجد المنجم، يا سيدي».

بينما كان يتكلم، بدأ في البحث في جيوبه عن غليونه، فسارع كوبلاي بالاقتراب منه والإمساك به من يده قائلا:

«لن يكون من الجيد أن ينبعث خيط من الدخان من موقعنا». وهمس متابعا: «لديّ معركة لأخطط لها، وما إن تنتهي المعركة حتى أعطيك الكثير من العملات. بإمكانك أن تأخذها من أمين المخازن لديّ».

نظر أونغ شيانغ مرة أخرى إلى المعسكر الضخم حول موقع المنجم، وزمّ شفتيه قليلا كما لو أن غليونه بينهما، وقال:

«أُفضّل أن أحصل عليها قبل المعركة، فربما لم تجرِ الأمور كما تشتهي».

ولكنه عندما رأى كيف أصبحت ملامح وجه كوبلاي عندما سمع ما قاله، استدرك مسرعا:

«أظن أن الأمور ستجري على خير ما يرام، ولكنْ حبذا لو تسمح لي بأخذ دفعتي والعودة إلى عائلتي».

نظر كوبلاي برهة إلى أونغ شيانغ والكشافة، قبل أن يزحف على بطنه إلى الوراء، حتى أصبح متأكدا من أنه بمنأى عن أعين كشافة سونغ، فهو لم يتمكن من رؤية أي منهم في أثناء تقدمه، ولم يعرف سبب ذلك. أهي براعتهم في التخفي؟ أم أن مواقعهم حجَبت رؤيتهم عنه؟

لم يضع كوبلاي أية علامة على ملابسه تشير إلى رتبته، فهو يعلم أن من سيعرف هويته من الأعداء فإنه سيصمم على مطاردته وأسرِه، وكان قد سبق أن خاطر بما فيه الكفاية، بتوغله عشرين ميلا في أرض العدو. ولكن لم يكن لديه خيار آخر، فهو يريد أن يرى بأم العين أرض العدو.

عندما عاد كوبلاي إلى فيالقه، أجزلَ العطاء لأونغ شيانغ، الذي فرح عندما أمسك بكيس الفضة بين يديه. دفع أونغ قطعتين فضيتين ثمن الفرس التي كان قد استعارها، ثم مضى في طريقه من دون أن ينظر إلى الخلف.

ابتسم كوبلاي عندما شاهده يغادر، واعتقد أنه إذا تمكن من الظفر بالمنجم، فسيعوض ما دفعه لهذا المزارع أضعافا مضاعفة.

عندما حل الصباح، جمع كوبلاي قادة جيشه. بدا بايار مسرورا، أما أويانغ خاداي فقد تخلى عن نظرته المتعجرفة، وذلك بعد النجاح الذي حققته خطة كوبلاي في المعركة السابقة، واستمع الجميع لوصف كوبلاي الدقيق لما شاهده.

قال كوبلاي:

«يجب على الإمبراطور إطعام عدد كبير من الجنود، ولا يمكن للأراضي المحيطة بالمنجم توفير الطعام لمثل هذا العدد الكبير. لذا أرسل يا بايار عددا كافيا من الجنود ليعثروا على خط إمدادهم، أو المكان الذي يخزنون فيه الطعام، فالجنود الجياع لا يقاتلون مثل السباع».

أومأ بايار في إشارة لفهمه ما قيل له، لكنه بقي في مكانه.

أكمل كوبلاي حديثه:

«إنّهم يفوقوننا عددا، لكن بما أنّه طُلب إليهم حماية المنجم، فإنهم سيقاتلون بأسلوب دفاعي، بدلا من أن يخرجوا لملاقاتنا عندما يتعرضون للهجوم، وهذا ما سيعطينا أفضلية. لذا يجب عليك يا أويانغ خاداي أن تضع مدافعنا في مجالات قصيرة، لتصب النيران عليهم. قم بتسديدات يبدأ مداها من حافة التل، ثم حرك المدافع بسرعة بالشكل الذي يمكّننا من الوصول إلى مواقعهم، فإن أتى أي أحد ليواجه مدافعنا فلا بد من الإطاحة به، الأمر الذي سيسمح لي بالتخلي عن جميع الرجال في الخلف تقريبا واستخدامهم لدعم جناح الجيش».

أومأ أويانغ خاداي على مضض، وسأل: «كم عدد الفرسان لديهم؟».

أجابه كوبلاي: «لقد رأيت ما لا يقل عن عشرة آلاف حصان، ولكنني لا أعلم كم عدد الأحصنة الاحتياطية، فمن المحتمل أن يكون لديهم خمسة آلاف فارس. يجب أن لا نسمح لهم بمحاصرتنا من الجانبين، لدينا ما يكفي من الرماة المهرة لإجبارهم على التراجع». أخذ كوبلاي نفسا عميقا وقد شعر بضيق في المعدة بسبب الترقب والتوتر.

وأكمل: «تذكروا أنهم لم يخوضوا حربا منذ أجيال، أما جنودنا فلم يكفوا عن القتال منذ أجيال، وهذا ما سيشكل فارقا كبيرا. أما الآن، فمهمتكم هي أن تحركوا الفيالق بأسرع ما يمكن،

وحركوا المدافع بشكل أسرع من أي وقت مضى، ستبقى العائلات هنا مع العربات الثقيلة والإمدادات. عنصر المفاجأة حاسم، لذا يجب أن تكون حركتنا سريعة، ويجب أن يكون خط الجبهة الأمامي حصينا، إن كنا سنهاجمهم من الجانبين، فسأزودكم بأوامر جديدة ما إن نلتحم بهم، وحتى ذلك الحين تضرعوا كي لا تمطر».

ما إن قال كلماته هذه حتى كانت أعينهم شاخصة إلى السماء، فرأوا في سماء الربيع سحبا بيضاء مرتفعة.

نظر إلى خاداي وبايار وعلم أنه يمكنه أن يعتمد عليهما، بالرغم من أن شخصيتيهما مختلفتان.

ألقى مونغ مجموعة من التقارير في كدسة كبيرة تعادل ارتفاع كرسيه، وفرك عينيه بقوة. إنه يرزح تحت الضغط منذ أن أُعلن خانا، وأدرك أنه يفقد رشاقة جسده وقوته الهائلة اللتين تمتع بهما طيلة سنوات، فالزمن يمر، وهو يسرق كثيرا من الأشياء من الرجال وبأشكال مختلفة دون أن يلاحظوا فعلته إلا بعد فوات الأوان. شدّ معدته وهو جالس مذكرا نفسه للمرة الألف أن عليه أن يواظب على التمرن بالسيف والقوس، حتى لا يخسر ما بقي له من قوة وحيوية.

لم تكن مشاكل خان الإمبراطورية شبيهة بالمشاكل التي خبرها عندما كان قائدا للجيش، لقد كانت حياته بسيطة عندما شارك بالحملة العظيمة إلى الغرب تحت قيادة تسوبوداي، إذ لم يُجبر على تخطي سوى عقبات بسيطة. وقتها لم يكن يعتقد أنه سيضطر يوما لحل النزاع بين البوذيين والطاويين، أو أنه ستصبح للنقود الفضية أهمية في حياته كالتي بلغتها الآن. لقد أبقاه فرسان يام على اطلاع بما يجري في أرجاء الإمبراطورية من خلال دفق شبه دائم من الرسائل، وهذا ما أربكه بعض الشيء، فعلى الرغم من عدد الخطاطين المغول الذين عملوا في المدينة، فقد كان مونغ يتعامل مع مئة مشكلة صغيرة كل صباح، ويقرأ عددا من التقارير أخذ يزداد يوما بعد يوم، ويتخذ قرارات قد تؤثر على حيوات أشخاص لم يسبق له أن رآهم أو سمع بهم. ففي كدسة التقارير التي ألقاها كان هناك طلب من آريك بوك للحصول على الأموال؛ بضعة ملايين من القطع النقدية الفضية.

ربما حسد مونغ أخاه الأصغر على الحياة البسيطة في موطنهم الأم، ولكنه اكتشف في قرارة نفسه أنه يحب ما يقوم به، فهو يشعر بالرضى لقدرته على حل المشاكل التي تعترض سبيل رجاله، وكونه مرجعهم الذي يطلبون مشورته عندما تلمّ بهم مصيبة. من حدود سوريا حتى حدود كوريا، كان جميع القادة يتطلعون نحو كاراكورم بالطريقة التي تمنى أوقطاي خان أن ينظر بها الناس إلى

هذه المدينة، فكل من يعملون في أرجاء بلاده يمكنهم تحويل النقود الفضية من دون أن يخشوا عليها، بفضل الأمن والأمان اللذين أرساهما الخان، وفي حال تجرأ اللصوص وقطاع الطرق على تعكير صفو هذا الأمان، فإن لديه شبكة من المخبرين القادرين على التبليغ عنهم لتسحقهم قواته بلمح البصر، وهناك الآلاف من الأُسر التي كرست نفسها لإدارة أراضي الخان، وباسمه، مدعومين بسلطته. ربّت على معدته بحزن، لقد كان للسلام والأمان ثمنهما، وعليه أن يدفعه.

عندما همّ بالوقوف أصدرت ركبتاه صوتا، فأنّ بهدوء عندما رأى أوريغ كبير مستشاريه يأتيه بمزيد من التقارير.

قال مونغ: «إنه وقت تناول الطعام، سأعاينها بعد الأكل».

كان سيستمتع بساعة مع أولاده الذين عادوا إلى المنزل من مدرستهم في المدينة. لقد أصبح أولاده قادرين على التحدث باللغتين الفارسية والمندرينية بالسهولة نفسها التي يتحدثون فيها بلغتهم الأم. إنه يُعدُّهم حتى يصبحوا خانات عندما يكبرون، تماما كما عملت والدته على تهيئته.

وضع أوريغ معظم التقارير التي حملها وهي عبارة عن حزمة من اللفائف الملفوفة بخيوط وظل ممسكا بأحدها، عندها تنهد مونغ، فهو على معرفة تامة بهذا الرجل، وقال:

«حسنا، أخبرني، ولكن بسرعة».

قال أوريغ: «إنّه تقرير من منطقة أخيك كوبلاي في أراضي الصين، لقد أصبحت تكاليف مدينته الجديدة هائلة. الأرقام هنا توضح كل شيء».

ما إن أنهى جملته حتى سلم اللفافة لمونغ، الذي عاود الجلوس ليقرأ، قال مستهجنا وقد عقد حاجبيه:

«عندما ينفد منه المال، سيتعين عليه التوقف».

بدا أوريغ غير مرتاح في مناقشة أمور شقيق الخان، فمشاعر مونغ اتجاه هولاكو وآريك بوك وكوبلاي معقدة ولم يرغب أحد في أن يتدخل بينهم، بغض النظر عن مدى تذمر مونغ منهم.

قال أوريغ: «سيدي يمكنك أن ترى أنه قد أنفق كل ما قدمتموه له من أجل الحملة تقريبا، ولديّ تقارير تشير إلى أنه كان يبحث عن مناجم الفضة في أرض سونغ، فهل من الممكن أن يكون قد وجد أحدها ولم يبلغك بذلك؟».

قال مونغ: «كنت سأعلم بذلك، فلديّ رجال مقربون منه يبلغونني بكل حركة يقوم بها. أتتني الرسالة الأخيرة قبل أسبوع عبر يام تخبرني أنّه لم يعثر على منجم بعد، لا يمكن ذلك».

فقال أوريغ: «ماذا عن المزارع الجديدة التابعة له؟ فقد حرر الآلاف من الأراضي قبل عامين. يجب أن تكون قد حُرثت وزُرعت مرتين حتى الآن، بل أكثر من مرتين إن كانوا يزرعون الأرز في السهول المغمورة، فذلك سيكسبه في سوق الصين ما يكفي من الفضة للاستمرار في بناء قصوره».

قطّب مونغ حاجبيه وهو يفكر في كلماته، وتحقق من تفاصيل الحسابات في شانغدو، فقد تمّ طلب مخزونات ضخمة من الرخام بما يكفي لتشييد قصر لا يقل عظمة عن قصره في كاراكورم، شعر بالشك بدأ يتسلل إلى قلبه، فقال:

«لم أتدخل في حملته، أو حملات هولاكو».

قال أوريغ: «لقد أرسل هولاكو عائدات ضخمة يا سيدي، فالذهب والفضة اللذان جُلبا من بغداد وحدها يكفيان كاراكورم لمئة عام».

سأل مونغ: «وكم حصّلنا من كوبلاي؟».

عضّ أوريغ شفته وقال: «لا شيء حتى الآن يا سيدي، افترضت أنه أنفق الأموال في مدينته الجديدة بعد أن أعطيتَه الإذن بذلك».

اعترف مونغ: «أنا لم أُمانع ذلك، لكن أراضي سلالة سونغ غنية، ربما نسي أنه يتصرف لصالح الخان».

«أنا متأكد من أن هذا غير صحيح يا سيدي». قال أوريغ في محاولة للسير بطريق حذر، فهو لم يستطع انتقاد شقيق الخان، لكن عدم وجود حسابات صحيحة من أراضي سونغ أقلقته لشهور عدة.

قال مونغ: «ربما يجب عليّ أن أرى شانغدو بنفسي يا أوريغ، فقد كبرت وأصبحت رجلا سمينا يعيش بسلام، وربما كبر إخوتي وأصبحوا واثقين من أنفسهم جدا من دون أن يشعروا أن عينيّ عليهم. أعتقد أن أفعال كوبلاي قد بلغت الحدّ». توقف عن الكلام وفكّر لبرهة، وأكمل: «لا، إنّ هذا ليس بأمر عادل. لقد أجاد العمل في الأمور التي كلّفته بها على نحو فاق توقعاتي. أما الآن،

فسيكون قد اكتشف أنّه يحتاج إليّ للقضاء على سلالة سونغ، وربما تعلّم بعض التواضع، والقليل مما يتطلبه الأمر لكي يقود الفيالق في المعركة. لقد كنت صبورا، يا أوريغ، ولكن ربما حان الوقت للخان كي ينزل إلى الميدان».

ربت على معدته وابتسم بحزن وقال: «أرسل رجالك إليّ عندما يعودون مع تقاريرهم، سيكون من الجيد أن أتحرك مرة أخرى».

22

توقف كوبلاي لمشاهدة أفواج الصينيين تخرج من خيامهم، وتصطف في خطوط منظمة بشكل جيد.

لقد دُهش من المسافة التي اقتربت فيها قواته من المنجم قبل أن يدق النفير لدى الأعداء. فعندما أصبحت المسافة التي تفصله عن المنجم أقل من ميلين، صدح صوت بوق نحاسي منذرا بوصول الأعداء.

كان يُفترض بقادة سونغ أن يوزعوا مزيدا من الكشافة على مسافة أبعد، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم كانوا يقومون بتبديلهم بين الحين والآخر برجال من المعسكر الرئيسي. صلّى كوبلاي بصمت لكي يكون هذا الخطأ الأول من بين العديد من الأخطاء التي قد يرتكبونها.

استمد كوبلاي القوة من الخط الطويل من الفرسان على جانبيه، وبينما كانوا يتقدمون، كان رجال بايار قد قطعوا خطوط إمداد جيش سونغ منذ أربعة أيام، وانتظروا ناصبين كمينا لكل ما يُرسل عبر الطريق، لذا لم يستطع رجل واحد من بين المئات أن يعود إلى المعسكر. أملَ كوبلاي في أن يكونوا يتضورون جوعا، لقد كان بحاجة إلى كل ميزة تجعله يتقدم خطوة عليهم.

انتهت الأرض المنحدرة التي كانت توصل إلى المنجم بحقل مسطح يبلغ طوله أقل من ميل. حاول كوبلاي أن يضع نفسه مكان قادة سونغ، لم يكن الموقع مناسبا من أجل معركةٍ دفاعية إذ ليس هنالك قائد واحد قد يختار مكانا لا يستطيع من خلاله السيطرة على المرتفعات القريبة، ومع ذلك فقد كانت بالضبط معركة من تلك المعارك التي يأمر إمبراطور عن بُعد آلاف الأميال أحدَ كبار قادته بخوضها من أجل الحفاظ على مكان ما، ولن يكون هناك مجال للتراجع مهما بلغت قوة خصمه، هذا ما عقد العزم عليه.

رفع قبضته فتوقفت صفوف المغول، وبدأ الجنود يسيرون بشكل قوس عندما بلغوا حافة الوادي. كانت الشمس عالية فوقهم والطقس دافئا، وهذا ما أتاح له الرؤية لمسافة طويلة، خلف المنجم ذاته، وصولا إلى مدينة الأكواخ التي زودته بالعمال كل صباح، فالهواء نفسه كان يلمع فوق جزء من الموقع المترامي الأطراف، كاشفا أماكن أفران الصهر.

أثلج صدر كوبلاي واقع أنّهم لا يزالون يعملون، فربما ستكون هنالك فضة في المستودعات بعد كل شيء.

واستطاع أن يرى سيلا من العمال يغادرون المنجم، وبينما كان ينتظر لكي تظهر مدافعه، توقف التلألؤ البعيد. لقد أغلق المنجم، وأصبح الهواء هادئا جدا خلفه.

كانت فرق المدافع تجلد الخيول التي تجر المدافع الثقيلة لحثها على بذل الجهد الكافي لتوليد سرعة كفيلةٍ بالوصول إلى حافة التل.

جرّب كوبلاي وبايار هذا الأمر بالثيران والأحصنة، وحتى بالجمال، في محاولة للحصول على المزيج الأفضل من السرعة وقوة التحمل. كانت الثيران بطيئة جدا، لذا تُركت في المخيم مع العائلات، واستُخدمت مجموعة من الخيول مؤلفة من أربعة لجر المدافع.

بمجرد أن تدور عجلات العربات الناقلة للمدافع، بإمكانها أن تضاعف السرعة من مرتين إلى ثلاث مرات، على الرغم من أنّ تكلفة الخيول هائلة إذ إن المئات منها ستصبح عرجاء أو قد تكسر سيقانها وهي تسحب المدافع، إضافة إلى أنّ العربات مليئة بالحشوات والبارود.

راجع كوبلاي أوامره في رأسه في حين اصطف جنود سونغ بسرعة في سهل الوادي، ورأى الأشكال الداكنة لمدافعهم التي يدفعونها إلى الأمام وقد جُهزت بمجامر لتشعل المسحوق الأسود. إذ إنه من أجل السيطرة على هذا المعسكر يجب عليهم أن يمروا عبر وابل من المقذوفات. أحس كوبلاي حينها بانكماش في معدته خوفا مما فكر فيه، وعبس عندما رأى أفواج سونغ ثابتة في أماكنها، مما يشير إلى أنها تنتظر فيالقه.

أرسل كوبلاي عددا من المحاربين أمام فيالقه، وحدقت إليهم آلاف العيون من الجانبين وهو يمتطون أحصنتهم إلى أسفل المنحدر. انتظر المحاربون المغوليون لمعرفة ما إن كان هؤلاء الفرسان سيتعثرون بخنادق أو مصائد في العشب، أما أفواج سونغ فقد بقيت تشاهد طلائع الغزاة الذين يتقدمون في مهمتهم الانتحارية هذه.

أصدرت المجامر بالقرب من مدافع محاربي سونغ دخانا كثيفا عندما قام مشغلوها بتزويدها بالفحم، حتى تبقى ساخنة، وشعر كوبلاي بانقباض في قلبه وهو ينتظر سقوط أول فرسانه المتقدمين، وشعر بمزيج من المشاعر عندما وصلوا إلى أسفل المنحدر بسلام مقتربين من مرمى أسهم جنود سونغ، كانوا شبانا ولم يتفاجأ عندما توقفوا لكي يغضبوا العدو، ولكن ما فاجأه وأقلقه أكثر أنّ قادة سونغ لم ينصبوا الفخاخ. أراد الرجل منهم أن ينطلقوا بسرعة وبقوة، إلى المكان الذي بإمكانه أن يدمرهم، فالأمر إما ثقة بالنفس مبررة وإما حماقة كاملة. تعرق كوبلاي من دون أن يعرف أيّا من الأمرين كان.

عاد فرسانه إلى صفوفهم، وسط صيحات وضحكات أطلقها رفاقهم. كان التوتر في أوجه، ولكن كوبلاي لمح أربعة من مدافعه قد أصبحت جاهزة، مجامرها مشتعلة في حين أنها خلت تماما من أكوام أكياس البارود وكرات النار، أما المدافع الأخرى فكانت لا تزال مربوطة بمجموعات الخيول التي تجرها، وكانت تتقدم.

اعتقد أن جنود سونغ لم يتوقعوا وجود أعداد كبيرة من الأسلحة الثقيلة.

كان لا يزال يأمل في أن يفاجئهم، فقد أنتج الكيميائيون الفرس العاملون في كاراكورم مسحوقا محسنا من البارود، يحتوي على كمية من نترات الصوديوم أكثر مما احتواه خليط الصينيين. فهمَ كوبلاي القليل من هذا العلم، فقد كانت الحبيبات الأصغر تدفع الكرات لمسافة أبعد. كان المفهوم واضحا بدرجة كافية لأي شخص سبق له أن قلى قطعة من اللحم، أو رآها تُقطع إلى قطع صغيرة للطبخ.

راقب كوبلاي بقلق تحرير المدافع الأربعة من حواملها، ووضعها على عوارض خشبية جديدة لرفع هذه المدافع السوداء إلى أقصى ارتفاع يمكنها أن تصل إليه.

لطالما تحطمت العوارض خلال إطلاق النار لتقوم الفرق بإعادة وضعها مستخدمين عوارض بديلة قطعوها بأيديهم من أشجار البتولا. لقد كانت فرق المدفعية تحشو أكياس البودرة في المدافع، وكان رجل قوي البنية يُدخل كرة حجرية في فوهة المدفع.

بالترافق مع الصيحات العالية، وُضعت الكرات في الفوهات في حين تأكد آخرون من أنها لن تقع.

وللحظة، كان كوبلاي سيطلب إضافة كيس آخر من البارود، لكنه لم يتجرأ على المخاطرة بأن تنفجر المدافع خلال إطلاق مقذوفاتها مودية بحياة الرجال الذين يشغلونها، فهو سيحتاج إلى كل رجل متوفر.

على بعد ثلاثة أرباع الميل أسفل الوادي، كانت أفواج سونغ تنتظر بشكل منتظم وبصفوف متألقة. ربما كان بإمكانهم أن يروا ما يحدث على حافة التل، إلا أنهم لم يبدوا أي حراك كالتماثيل وتسمروا تحت راياتهم الخفاقة.

سمع كوبلاي فرق مدافعه تصيح بالتعليمات، وهم يستخدمون الأعلام ليكتشفوا اتجاه الرياح. بدؤوا يهتفون، مع التركيز على الهتاف الرابع.

أصبحت الأسلحة الحديدية مثبتة كأنها قطعة واحدة ترفعها القوة الرئيسة والرجال الذين تعالت أصواتهم.

ستُطلق الضربات بشكل مستقيم باتجاه الرياح.

رفع كوبلاي يده، فأُضيئت أربعة مشاعل واستعد حملَتُها للمس القضبان المملوءة بالمسحوق الأسود، لإطلاق الشرارة التي تحرق الكيس في الداخل وتقذف الكرات في الهواء.

أخفض كوبلاي يده، لم يكن للصوت الذي سمعه مثيل، حتى الرعد بدا أقل قوة. انبعث الدخان واللهب من جميع الفوهات الحديدية وانتشر الدخان في الأعلى، تابع مسار الكرات، وشعر بتسارع ضربات قلب عندما تأكد من أنها ستبلغ جنود سونغ، انطلقت عاليا وحطّت بعيدا ففغر فاه عندما لم يعد باستطاعته رؤية ما أحدثته من أضرار.

عمّت لحظة من السكون، قبل أن يصيح الرجال، ورأى رجال المدفعية يجلدون خيولهم لكي يحثوها على المضي قُدما وبسرعة، بعد أن أيقنوا أن قوات سونغ في مرمى مقذوفاتهم، لم يكن هناك خيار ثالث غير الخيارين الآتيين: إما أن قادة سونغ أخطؤوا في تقدير أهمية التلال، وإما أنّ البارود المغولي أفضل بكثير من ذلك الذي لديهم.

صرخ كوبلاي مُصدرا أوامر جديدة، وهو يشعر بضرورة الاستفادة من هذه الأفضلية الجديدة. وشاهد التعديل البطيء المتعب فقد حملت الفرق المطارق الثقيلة وبدأت بإزالة العوارض، ورفع آخرون المدافع الحديدية ليفسحوا مجالا.

في قاع الوادي، صدحت الأبواق، وصدرت أوامر متضاربة وبدا الارتباك جليا. رأى كوبلاي أنّ بعض قادة سونغ يريدون الانسحاب ناحية المنجم في حين صرخ قادة آخرون وهم يرون الكرات تمر فوق رؤوسهم بضرورة التقدم نحو التلال، فلم يكن هناك مكان آمن لهم ليقفوا فيه، ولم يكن لديهم من خيار سوى التقدم أو التراجع إلى خلف مدى المدافع، وهذا يعني تخليهم عن المنجم، وإن فعلوا ذلك قرر كوبلاي أنه سيقود قواته ليستولي على أسلحتهم.

شعر بالتوتر في الوقت الذي كانت فيه فرق مدافعه تستعد لإطلاق وابل جديد من المقذوفات المدمرة، وعندما نفذوا الضربة حلّقت كرات الحجر المصقول، وشقت طريقها نحو صفوف قوات سونغ، فانهار الرجال والحيوانات كما لو أن قطعة من الحديد الساخن قد وُضعت عليهم، وأصيب مدفعان من مدافع سونغ، فانقلبا وسحقا أسفلهما الرجال.

شعر كوبلاي بالسعادة في الوقت الذي تابعت فيه فرقه عملها، وأخذ يتصبب عرقا. وأخذت المقذوفات تنطلق بشكل أسرع، وبدا جليا أن رجال المدافع يتفوقون على أنفسهم بتشغيلها على أفضل نحو ممكن.

صُدم كوبلاي وأخذ ينظر حوله عندما انفجر أحد مدافعه موديا بحياة الجنود الذين كانوا بالقرب منه، وقُتل رجل آخر عندما فشل زميله بتبريد المدفع عن طريق دكه بالإسفنجة، فاندفع كيس البارود إلى الأعلى في الوقت الذي كان زميله يدفعه إلى الأسفل، فتمزق إربا، وبما أنه لم يكن للهب الناجم عن انفجار كيس البارود طريقٌ آخر، فقد أحرق الرجلَ وصيّره أشلاء. بعد هاتين الحادثتين خفّت وتيرة إطلاق الفرق الأخرى التي رأت بأم العين ما حصل نتيجة الحماسة الزائدة.

كان كوبلاي بعيدا جدا ليرى تعابير وجه بايار، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان بإمكانه أن يتخيلها. فهو يملك أسلحة مصمَّمة لتدمير سور مدينة، وهو أيضا يملك الفرصة لاستخدامها ضد صفوف العدو الواقفة.

ذُهل المحاربون المحيطون به من مقدار الدمار الذي سببته المدافع، وتساءلوا عمّا إن كانوا سيسرعون في الهجوم للاستيلاء على أسلحة سونغ، بعد أن رأوا في ضوء النهار ما يمكن للمدافع أن تسببه من قتل ودمار.

أعادت قوات سونغ تشكيل صفوفها، ولكن كوبلاي لم يظن أنهم سيستطيعون الصمود لفترة طويلة أمام وابل مقذوفات مدافعه، وما كان كوبلاي ليحسدَ قائد سونغ على الموقف الذي وجد نفسه فيه.

انتظر أن يتراجع جنود سونغ، لكنهم وقفوا بثبات في حين كانت الكرات الملتهبة تدمر صفوفهم.

نظر كوبلاي إلى كومة الكرات الحجرية الأقرب إليه، وزمّ شفتيه عندما رأى أنّ أعدادها قد انخفضت إلى ما يقارب العشرة، إذ إن ثقل وزنها صعّب عليهم نقل كميات كبيرة منها، حتى إن المدافع بحدّ ذاتها دُمرت في أثناء نقلها.

تحسر كوبلاي وهو يشاهد كيف أخذت كومة الكرات الحجرية تتضاءل حتى لم يبقَ منها إلا واحدة، وعندما أُطلقت آخر مقذوفة من المدفع غطت سحابةٌ من الدخان الرجال المحيطين بالمدافع، فأخفَت التل بأكمله، وأيضا حجبت الرؤية للحظات الأمر الذي أغضب كوبلاي.

بعد أن انطلقت المقذوفة الأخيرة، وقفت فرق المدفعية بفخر لا يُخفى على أحد، بعدها صدر صوت قصف المدافع التي وصلت متأخرة، لكن ضرباتها كانت من دون جدوى لأن القصف السابق دمر العدو وحول ميدان المعركة إلى مذبحة حقيقية.

كان الهواء مشبعا بالدخان ورائحة البارود، فانتظر حتى أبعدتهما الرياح، وعندما انقشعت الرؤية رأى فداحة الخسائر التي مُنيت بها أفواج سونغ.

عمل آلاف الرجال على سحب الجثث، وتحرك القادة بين جنودهم في محاولة منهم لرفع روحهم المعنوية، وأشاروا ناحية التل، بدا أنهم يخبرونهم أن الأسوأ قد انتهى.

ازدرد كوبلاي لعابه عندما تبين له أنهم لم يُهزموا بعد، خصوصا حين رأى أن فرق المدافع لديهم تأخذ مواقعها بالقرب من أسلحتها، فشعر وكأن الوقت قد توقف، وأصبح يسمع ضربات قلبه بوضوح.

عندما رفع يده، كان على الرجال البدء بالتقدم لعبور ربع ميل من الأرض الجرداء، وبلغت ضربات قلبه مئة وعشرين ووصلت إلى مئة وثمانين، وكان بإمكانه الشعور بكل ضربة منها. صرخ معطيا الأمر، فانطلق الفرسان يحثون خيولهم على التقدم بأسرع ما يمكن، حافظ كوبلاي على هدوئه لأنه يعلم أنه يفترض به أن يكون كذلك حتى يتمكن من تتبع جنوده بعينه، ويقرأ المعركة جيدا، ويتصرفَ وفقا لقراءته تلك.

انطلقوا نحو صفوف سونغ في حين تعالت صيحات من الغضب والتحدي من أولئك الذين اضطروا لاختبار أكثر اللحظات المرعبة في حياتهم.

صاح كوبلاي بحاملي الرايات التابعين له، فرفعوا راياتهم في إشارة منهم لبيار وأويانغ خاداي كي ينطلقا بسرعة ويضربا جناحي العدو.

لم يكن يثق في دقات قلبه ليحكم على الوقت، فعندما لمس بإصبعه عنقه، لم يجد دقات القلب في البداية، ثم شعر بنبضه السريع يتباطأ.

تعالت أصوات صهيل الخيل في السهل القصير أسفل الوادي، وقد تمكن من رؤية السهام السوداء تسبقهم إلى الأمام، لتشكل نوعا مختلفا من الرعب لأولئك الجنود التابعين لسونغ الذين ما زالوا يقفون ويتحدون مقاتليه كي يقتربوا.

أجفل عندما أطلق أول مدافع سونغ، واستطاع أن يرى مسارات الكرات، التي ضربت فرسانه المسرعين.

غطت فيالقه الساحةَ بسرعة متهورة وبينما أعادت فرق سونغ حشوَ مدافعها، أرسل رجاله وابلا من السهام ضرب الجنود الذين يعيدون الحشو، فسقط رجال المدافع بشكل سريع، ولم يكن هنالك مجال لاستبدالهم.

امتطى بايار وأويانغ خاداي حصانيهما على الجناحين وقادا جنودهما، ثم توقفا على بعد مئتي خطوة ليتفاديا عشرة آلاف سهم أطلقها نبّالة كوبلاي، لتندفع بقوة كبيرة، وكان من المخزي أن تصيب نيران صديقة جنود بايار وأويانغ خاداي إن هما تابعا تقدمهما. لم تكن هناك مدافع على الجانبين، لكن معظم رماة كوبلاي كانوا يستطيعون إصابة بيضة على بعد خمسين خطوة، وبإمكانهم أيضا أن يصيبوا رجلا على بعد مئتي خطوة، والأفضل بينهم يمكنه أن يحدد المكان في جسد الرجل الذي يريد إصابته.

لا يزال آلاف الجنود يتدفقون خلفه عبر التل بسرعة كي لا يبقوا خارج المعركة مشكلين فيلقا كاملا، كان رجال فرق المدافع يحفزونهم بإطلاق صيحات تشجيعية وذلك بعد أن أدوا دورهم في المعركة، ولم يعد بوسعهم سوى الهتاف والتشجيع.

شعر كوبلاي بالقشعريرة تسري في جسده مع تحرك آخر جندي من التل، فلم يعد معه سوى عشرين رجلا يحرسونه إضافة إلى فتى يجلس على جمل ويقرع الطبول لإعطاء التعليمات، فقد كان

باستطاعة كل قادته في الأسفل النظر إليه والاستماع إلى التعليمات التي يصدرها من خلال قرع الطبل، إنه الشخص الوحيد القادر على رؤية كامل ساحة المعركة والحكم عليها.

لقد عانى كوبلاي لكبح رغبة لديه في إعطاء تعليمات جديدة، لأنها في هذه المرحلة قد تربك قادته، فما كان منه إلا أن امتطى صهوة حصانه على نحو يجعله أعلى بعض الشيء، الأمر الذي يتيح له رؤية أفضل. لقد كانت أفكار كثيرة تدور في رأسه بشأن الخطط الحربية، إضافة إلى إعداد مراكز للحدادين يقومون فيها بصنع مقذوفات جديدة مصقولة بحرفيّة بدلا من المقذوفات الحجرية التي يعلق بعضها في المدافع فيجعلها تنفجر أو تنطلق في مسار منحرف، ولكن لإعداد مثل هذه المقذوفات يجب صهر الحديد ليصبح سائلا مثل الماء، وهذا يتطلب درجات حرارة عالية لم يمكن بوسع مراكز الحدادة المتنقلة بلوغها بعد.

فكّر في صنع مقذوفات من الرصاص، إلا أن الحرارة يمكن أن تشوه هذا المعدن الطري، وهنا خطرت له فكرة استخدام مصهر المنجم لصهر الحديد.

تُعدُّ عملية صقل الحجارة لتحويلها إلى مقذوفات عملية أسهل، ولكن ذلك يستغرق وقتا طويلا، وحسب ما رآه اليوم فإنه يمكن أن ينفد مخزون عام كامل من المقذوفات في غضون ساعات. أفكار كثيرة كانت تجول في رأسه الذي حرّكه يمينا ويسارا في محاولة منه لإبعادها وتصفية ذهنه.

كانت أفواج سونغ تتقهقر في حين كانت فيالقه تهاجم من كل الجهات، لقد قُتل نصف جنود سونغ، ولم يبقَ أحد من قادتهم حيا.

راقب كوبلاي باعتزاز إطلاق جناحيه لآخر ما تبقى من أسهم لديهم، وراقب أيضا التقدم السريع لفرسان الصفوف الأمامية الذين صوبوا رماحهم إلى الأمام مسبِّبين ثغراتٍ في صفوف العدو تتيح لمن خلفهم إعمالَ سيوفهم في جنود سونغ. من مكانه البعيد تمكن كوبلاي من سماع صيحات المعركة.

بعد أشهر من إحراقه لبغداد، انشغل هولاكو بإدارة منطقة شاسعة، الأمر الذي أرهقه، إذ إنه دخل سوريا بعد بغداد واستولى على حلب ليدمر جيشا صغيرا، ويذبح ثلاث قبائل من الأكراد الذين هاجموا المدن المحلية مثل قطاع الطرق. ولكن نظرا لما قاسته بغداد، فقد قرر أعيان دمشق أن يقدموا إليه قبل أن يهاجم مدينتهم بفترة طويلة ليعلنوا استسلامهم ويحموا مدينتهم من الدمار، لذا عيّن

عليها هولاكو حاكما جديدا يحكم باسمه، وباستثناء بعض الإعدامات التي نُفذت من أجل بثِّ الخوف والرعب في قلوب من يفكر في المقاومة، فقد بقيت المدينة محمية نوعا ما.

لقد فوجئ عندما علم أن كيتبوا كان مسيحيا، ولهذا لم يكن رؤوفا بالمدن المسلمة، إذ إمعانا منه في المهانة أقام القداديس في مساجد المدن التي استولى عليها قبل حرقها.

ابتسم هولاكو عندما تذكر ذلك، فلقد استحوذا معا على ثروة تفوق ما استحوذ عليه تسوبوداي أو جنكيز أو أوقطاي، وأرسل جزءا كبيرا منها إلى أخيه في كاراكورم، واستخدم جزءا آخر لإعادة بناء المدن التي نصَّب عليها حكاما جددا بعد احتلالها.

هزّ هولاكو رأسه فرحا بهذه الأفكار، فهو لا يزال متفاجئا من قدرته على كسب الامتنان بمثل هذه الطريقة. لم يستغرق منه كل ذلك وقتا طويلا، وربما كان مردّه إلى إقدامه على قتلِ كل من اعترض طريقه.

لقد أعاد بناء بغداد بجزء من الثروة التي سلبها منها، ولكنها أصبحت مدينة مختلفة تحت حكم المغول، وتدفقت إليها العائلات المغولية كالسيل يوميا، لتحظى بمنازل رحبة. فجأة، أصبحت أراضي بغداد ومنازلها رخيصة. ازدهرت الأعمال التجارية وجُبيت أولى الضرائب منها، بالرغم من أن المدينة لم تسترجع جزءا من الألق والأهمية اللذين كانت عليهما سابقا.

في تلك الليلة، استراح هولاكو في نُزل على جانب الطريق، وتناول الطعام ببطء، متمنيا لو أن المسلمين يستخدمون براعتهم المدهشة في إعداد الطعام لصنع النبيذ، وعندما تذوق قهوتهم وجدها مرة المذاق، ولم يعتبرها مشروبا مناسبا للرجال.

بعد أن نفدت مخزوناته من النبيذ والقمارص، شعر جيشه بالعطش وأصبحت أعصاب جنوده مُستثارة وتكدرَ صفوُ بالهم، ولكنهم في النهاية تمكنوا من العثور على إمدادات جديدة، عندها أدرك هولاكو أن عليه جلب مئات من العائلات من أجل خلقِ جو أليف في المدينة يبعث فيها بعضا من الحماسة التي كان قد استمتع بها في الطفولة.

كان سعيدا بالأراضي التي ظفر بها، وبذلك سيكون أبناؤه خاناتٍ على أراضٍ يملكونها، وأدرك أن ما أنجزه سيزيد من دعم مونغ له. ضحك هولاكو متململا وهو يأكل، فقد أدهشه مدى اهتمامه بنيلِ رضى مونغ، إذ إنه في مثل هذا العمر، يجب ألا يشكل فارق بعض السنوات أمرا مهما، لكن بطريقة ما أصبح مهما.

كرع كوبا من عصير الفاكهة، وكشّر بسبب الحلاوة الشديدة الممزوجة بطعم قوي مركز.

سأله الخادم، وهو يحمل الإبريق: «أتريد المزيد من ذلك، يا سيدي؟».

لوّح هولاكو بيده مبعدا إياه، محاولا ألا يفكر في طعم القمارص اللذيذ الذي سيزيل طعم الحلاوة هذا ويجعل حلقه يلتهب. أحس بداية بألم في معدته، فقام بتدليكها بأصابعه الخشنة القصيرة.

شعر بالتوتر لبرهة، ولكن لم يكن هناك ريح فازداد الألم، وأخذ وجهه يتصببُ عرقا.

قال متذمرا: «أحضر لي الماء».

ابتسم الخادم وقال: «لقد فات الأوان على ذلك، يا سيدي. بدلا من ذلك، أحضرت لك تحية من ألموت وسلاما لا تستحقه بالتأكيد».

نظر هولاكو إليه مذهولا، ثم حاول أن يقف. شعر بضعف في ساقيه وتعثر، ولكنه استطاع أن يصرخ: «أيها الحراس تعالوا إليّ»، وانهار على الطاولة.

دُفع الباب بقوة، ودخل حارسان وقد استلا سيفيهما.

زمجر هولاكو قائلا: «أمسكا به».

تسللت إليه موجة من الضعف، فجثا على ركبتيه، دافعا اثنين من أصابعه في حلقه. فنظر إليه الحارسان بارتباك وخوف. تقيأ هولاكو مقدارا كبيرا مما احتوته معدته، وبما أنه تناول كثيرا من الطعام، فقد تقيأ مرارا وتكرارا، ففاحت رائحة القيء في الصالة، لقد خفّت حدة ألم رأسه، لكن ألم معدته كان يزداد.

لم يقاوم الخادم، ووقف ببساطة بين الحارسين، يراقب عن كثب متجهما بقلق.

بدا هولاكو كثور هائج، فتسارعت دقات قلبه، وتصبب وجهه عرقا كما لو أنه كان يركض ليوم كامل.

سالت قطرات العرق من أنفه على الأرض الخشبية وهو ينهار، فدمدم قائلا:

- «الفحم. ضع... في الماء قَدر ما استطعتَ إيجاده، أحضره من المواقد، وأحضر طبيبي إلى هنا».

قاوم بإصرار موجة من الدوار قبل أن يتمكن من التحدث مرة أخرى:

- «إذا غبت عن الوعي، فأجبرني على أخذ الفحم، قدر المستطاع».

رأى الحارسين متردِدَين، إذ لم يرغب أي منهما في ترك الخادم. فزمجر هولاكو، وازداد الغضب داخله ممزوجا بالألم.

«اقتله واذهب». صرخ قبل أن يسقط أرضا.

سمع صوتَ شخص يختنق عندما قطعا حلق الرجل، ثم غادرا الصالة.

حاول هولاكو أن يتقيأ مرة أخرى، لكن معدته أصبحت خاوية، وكانت كلُّ محاولة فاشلة للتقيؤ تجعل الأضواءَ تومض أمام عينيه. شعر أنه يُحتضر، وقد تلطخ بالدماء التي خرجت من فمه. تسارعت دقات قلبه بشدة، فشعر بالدوار والوهن، ولم يكن واعيا لعدد الرجال الذين اجتمعوا محاولين حثَّه على شرب سائل أسود من وعاء خشبي، ما إن دخل هذا السائل معدته حتى تقيأ بسرعة وبشكل غزير.

أجبر نفسَه على الشرب مرة أخرى، وعاء بعد وعاء حتى شعر أنّ معدته ستنفجر، وأخذت أسنانه تصطك وهو يحاول أن ينظف فمه وحلقه لاهثا بين الرشفات.

كان هناك أكثر من عشرة رجال في الغرفة، وقد كانوا منكبين جميعا على تحطيم رقائق الفحم وتحويله إلى غبار باستخدام أية أداة استطاعوا إيجادها. وبعد قليل، غاب عن الوعي في الظلام تغطيه إفرازاتُ معدته.

كان المساء قد حل عندما استيقظ مرة أخرى، وكان قد غطى عينيه شيءٌ ما، لذلك التصقت جفونه ببعضها. فرك إحدى عينيه بيده، وأحسّ برموشه تتمزق، وما إن رأى الرجال حركته هذه حتى تعالت أصواتهم فرحا باستيقاظه.

تأوّه هولاكو، لكن الألم في معدته كان قد خمد، وأحس بأنّ جلد فمه قد سُلخ عنه، وهو لا يزال يشعر بذرات الفحم بين أسنانه، هذا الفحم الذي أنقذه. إنها القذارة نفسها التي أنقذت جنكيز ذات مرة، فشكر هولاكو بصمت روحَ الرجل العجوز لأنها أعطته المعرفة اللازمة.

في البداية، بدا القاتل واثقا من موت هولاكو، لو بقي الرجل صامتا لكان هولاكو سيموت من دون أن يعرف السبب.

لم يستطع أن يصدق مدى الضعف الذي شعر به.

ها هو ذا القائد كيتبوا يدور حوله، لكن هولاكو لم يستطع النهوض. شعر بأنه يُرفع، ورأى أنه قد أصبح في غرفة أخرى من المنزل، مستندا إلى أغطية سميكة تحت رأسه وكتفيه.

قال كيتبوا: «لقد حالفك الحظ».

زمجر هولاكو، غير راغب في التفكير مرة أخرى في اللحظات المروّعة التي سبقت فقدانه الوعي. لقد تحول الأمرُ فجأة من تناول وجبة لذيذة إلى كفاح ليحافظ على حياته في الوقت الذي كان فيه قاتله ينظر إليه بعينَي الرضى. اعتقد أن يدَيه لا تزالان ترتجفان لذا أخفى قبضته الكبيرة تحت الغطاء حتى لا يراه كيتبوا.

تمتم: «لقد أفادني الفحم».

فعلق كيتبوا: «أنت رجل صلب، حتى الموت لم يقدر عليك، أخبرَني طبيبك أنك ستتبرز برازا أسود لعدة أيام. ولكن نعم، لقد أصدرتَ الأوامر الصحيحة».

سأله هولاكو بسخرية: «هل صلّيت لأجلي؟».

تجاهل كيتبوا هذه السخرية، وقال: «قمت بذلك، بالطبع. فها أنت ذا حي تُرزق، أليس كذلك؟».

حاول هولاكو الجلوس مرة أخرى بشكل مستقيم، في حين لمعت أفكاره فجأة.

قال: «يجب أن تحذر إخوتي، وبالأخص مونغ، أرسل عشرات الكشافة السريعين على طول خطوط يام».

قال كيتبوا: «إنهم في طريقهم بالفعل، لقد أرسلتهم بالأمس، فأنت نائم منذ البارحة».

استرخى هولاكو مرة أخرى، فقد أرهقه ما بذله من أجل التفكير والنهوض، لكن ها هو ذا حي يُرزق بعد أن توقّع الموت. ارتجف وهو يرقد هناك، وميض من الذكريات أقلق سكونه، هل أرسل قائد ألموت رجالا لقتله حتى قبل أن يرى القلعة؟

كان أمرا واردا، بالرغم من أن المرجح لديه أنه كان هناك بعض من رجاله في الخارج يقومون بعملهم بالفعل، رجال عادوا إلى ألموت ووجدوها في حالة خراب.

استطاع هولاكو أن يتخيلهم يُقسمون على الانتقام من الذين دمروا طائفتَهم وقتلوا قادتها. أغمض أجفانه بعد أن أثقلها النعاس، وتساءل كم هو عدد هؤلاء القتلة الطلقاء؟ ربما كان هناك واحد فقط، ذلك الشخص الذي أصبح الآن جثة أخرى في الطريق.

نظر كيتبوا إلى الأسفل، وقد سُعد برؤية شيء من اللون والحيوية يعودان إلى وجه صديقه، وتمنى أن يكون هذا الهجوم هو آخر محاولات هذه الطائفة المحتضرة. ومع ذلك، فقد علم أنّ هولاكو لن يذهب إلى أي مكان من دون وجود مجموعة من الحراس حوله، وسيستمر ذلك لسنوات، فطالما أن هناك قاتلا واحدا لا يزال على قيد الحياة، فسيكون هناك خطر دائم.

تمنى كيتبوا بقاءَ الرجل الذي سمم هولاكو على قيد الحياة، ليتمكن من استجوابه بالنيران والحديد.

23

أصدر كوبلاي أوامر صارمة بألا يُمس أحد من بلدة عمال المنجم. وللمرة الأولى لم يكن لدى أويانغ خاداي ما يقوله بشأن هذا الموضوع، فقد كان يجب على شخص ما مواصلة استخراج المعادن من الأرض، وما من أحد من رجال كوبلاي يعلم كيفية القيام بذلك، فقد تملّكتهم الدهشةُ عندما رأوا المصاهر وأكياس المساحيق الغريبة في المباني التي تحيط بها.

كانت هناك كومةٌ هائلةٌ من الرصاص الأسود والمعادن المفتتة التي شكّلت جزءا من الموقع المترامي الأطراف، إضافة إلى أن رائحة المواد الكيماوية الواخزة كانت تفوح بشكلٍ دائم في الهواء، مجففة الحلق بطريقة أو بأخرى، مما جعل الجنود يسعلون.

أخبره بايار بنفسه، عن عثوره على الفضة الجاهزة. واستشفّ كوبلاي من تعابير وجهه أن الأمر استحق هذا العناء وأن الواقع قد أدهشه.

ملأ المعدن المستخرج مبنى حجريا طويلا خلف باب حديدي قاموا بتحطيمه عندما لم يتمكن أحد من العثور على المفتاح.

في الداخل، وُضعت سبائك رفيعة من الفضة على الحوامل، ملوثة ببعض الغبار وجاهزة ليتم تحميلها في العربات ونقلها إلى عاصمة الإمبراطور.

لم يحصِ بايار عددها، فكان لكوبلاي شرف إعطاء أول تقدير لها، فقد أحصى مئتين وأربعين قطعة على حامل ثم ضرب العدد بعدد الحوامل الذي هو ثمانين ليحصل على مجموع مذهل، إذ يمكن أن تُذاب كل سبيكة وتتحول إلى ما لا يقل عن خمسمئة قطعة نقدية صغيرة إذا ما وجدت المعدات المناسبة.

وقف كوبلاي في المبنى الهادئ صامتا لبعض الوقت، ثم ظهرت ابتسامة على وجهه وضحك بايار. وصلت محتويات البناء إلى ما يقارب عشرة ملايين قطعة نقدية، وهو ما يكفي للدفع

لجيشه - كما يفعل الآن- لمدة عامين.

تجهمت ملامحه عندما فكر في إرسال عُشر الكمية إلى مونغ في كاراكورم، ولكنه شيء يمكن تأجيله آخذا في عين الاعتبار رد فعل أونغ تشيانغ على عرضه. تساءل كوبلاي عما إذا كانت هناك طريقة لتخفيض الدفعات الشهرية من دون أن يفقد ثقة رجاله، فهو لن يستطيع أن يدعي أنّ هنالك ضائقة مالية بعد هذا الاكتشاف، إذ لا شك في أن الأخبار انتشرت في المخيم كما تنتشر النار في الهشيم.

قال لبايار: «ابحث عن أكبر رجل في البلدة، أو أيّ كان من يدير المنجم، أحتاج إلى معرفة إن كان هذا إنتاج شهر أم سنة، وسأحتاج إلى رجال يبقون هنا للدفاع عن هذا المكان والحرص على استدامة الإنتاج».

أجاب بايار وهو لا يزال يتلفت حوله في حالة من الدهشة: «سوف يقاتل الإمبراطور لاستعادة المنجم، طالما أنه يستحق ذلك».

فقال كوبلاي: «آمل ذلك، أريده أن يرسل أفضل قادته. إذ وفق المعدل الذي أسير به، فإنني سأكون رجلا عجوزا حينما أبلغ عاصمته، دعهم يأتون، وسنضم أراضي غنية جديدة إلى إمبراطوريتنا.

لوهلة، شعر بألم يعتريه، وغصة لأن كل شيء قد حظي به، وكل ما أنجزه، سيكون لزيادة مجد مونغ وكاراكورم. لكنه توقف عن التفكير في ذلك، فقد كان مونغ يهبه بكرمٍ الرجالَ والقادةَ والمدافعَ وحتى الأراضي.

أدرك كوبلاي أنه لن يفتقد بعد الآن لحياة الباحث في كاراكورم، فقد خطط مونغ لتغييره ونجح بشكل كبير في تحقيق ذلك. إن كوبلاي لن يستطيع أن يعود الرجل الذي كان عليه من قبل، لقد أصبح معتادا على درعه الثقيل، ووجد أنه يتطلع إلى المعارك القادمة والاختبارات والتجارب التي سوف يواجهها مع نخبة فيالق أمته.

ربّت كوبلاي على كتف بايار وقال: «إنّني متأكد من أنّ مدينة مناجم مثل هذه لا بد أنها تحتوي على شيء ما لنشربه، وعلينا أن نتحرك بسرعة قبل أن يشرب الرجال كل شيء».

أجابه بايار: «من أول الأشياء التي أقدمت على فعلها أنّني وضعت حراسا على خانات البلدة».

ابتسم كوبلاي له، وقال: «أحسنت، أرني هذه الخانات».

التفت الرجلان إلى الخلف عندما سمعا صوت الخطوات المسرعة نحوهما، شعر كوبلاي أن فمه بدأ يجف عندما نظر إلى أحد الكشافة وهو يتصبب عرقا وقد غطاه الغبار.

كان الرجل على وشك الانهيار، فاتكأ على أحد المحامل، وهو بالكاد قد لاحظ الثروة الموضوعة عليها، ليبلغ رسالته بأنفاس متقطعة:

- «هناك جيش لإمبراطورية سونغ يا سيدي، إنه يتقدم بسرعة نحونا».

تلوّن وجهه للحظة كما لو أنه كان سيتقيأ.

أمسكه كوبلاي من كتفه، وسأله: «كم يبعدون؟».

تنفس الكشاف بعمق في حين كان جسده يرتجف تحت يدي كوبلاي، وقال:

- «خمسين ميلا، وربما أقل. فقد قطعت الطريق دفعة واحدة وبسرعة».

فسأله كوبلاي: «كم عددهم؟».

أجابه الكشاف: «أكثر من فيلق. لستُ متأكدا، فعندما لمحتهم عدت بأسرع ما يمكن».

بحثت عيناه عن أي ملمح يدل على رضى كوبلاي، لقد كان قلقا من احتمال وجوب بقائه في مكانه لفترة أطول.

أراحه كوبلاي قائلا: «لقد أحسنت عملا، فلتتناول بعض الطعام، واعثر على مكان في عربة كي تنام، فلن نبقى هنا».

استدار إلى بايار، الذي اختفت كل معالم الراحة عن وجهه. وأكمل:

- «لن يتوقف الأمر الآن، أيها القائد. كنت آمل في أن نحظى بوقت أطول بعض الشيء، لكن بما أننا قد وضعنا يدنا في عش الدبابير، فإنهم سيلقون كل ما يملكونه علينا، وسيرسلون لقتالنا كل جيش بإمكانهم جمعه».

قال بايار: «سندمرهم».

أومأ كوبلاي موافقا، لكن الترقب بدا جليا في عينيه، وقال:

- «يجب أن ننتصر في كل معركة، أما هم فيكفيهم الانتصار في معركة واحدة».

قال بايار مستهجنا: «لقد مررنا بأوضاع أسوأ وأشد».

غمزه كوبلاي وضحك، فانزاح بعض التوتر عنه، وقال:

- «لقد دخلنا معقل إمبراطورية سونغ يا بايار، لا أظنك مررت بوضع أسوأ».

أجابه بايار غير خائف أو مبالٍ: «لقد هزم شعبنا مدن الإمبراطور، واحدة تلو الأخرى، وهزم جيوشه، جيشا تلو الآخر، ثق برجالك يا سيدي، فنحن لن نخذلك».

للحظة، لم يكن كوبلاي قادرا على الكلام، فقد قاد الفيالق في البداية لكنها قيادة تدريبٍ فكري، مستمتعا بتحدي المناورات والتكتيكات، وذلك بهدف إيجاد طرق للتغلب على أعدائه. أما كلمات بايار فجعلته يعيد التفكير في كل شيء. بإمكانه أن يطلب إليهم أن يموتوا من أجله، ومن أجل عائلته. إنه ذلك النوع من الجنون الذي سيجعلهم يتبعونه في كل الأحوال، فكوبلاي نفسه تأثر بما رآه على وجهَي بايار والكشاف.

توقف عن الشرح، مذكرا نفسه، ولكن بعد فوات الأوان، بأن عليه أن يُبقي مسافة بينه وبينهم، يبدو أنه لم يكتسب مهارة قيادة الرجال بعد.

ما حدث كان نوعا من الانسجام في الكيمياء الشخصية، فالأمر يتخطى موضوع الرتب والانضباط وهيكلية الجيش الذي بنته عائلته وأسطورة جده، فبعضهم تبعه لأجل ما تقدم، وتبعه آخرون لاستمتاعهم بحياة فيالق المغول، أما النوع الثالث منهم -وهم الأفضل بين الفيالق- فقد قرروا المخاطرة بكل شيء لأنهم عرفوا كوبلاي وأحبوه، وعرفوا قيمته ومن أجل ذلك جعلوا حيواتهم رهن إرادته.

لم يتمكن كوبلاي للمرة الأولى من التعبير عما عناه الأمر بالنسبة إليه، وبدلا من ذلك أصدر أوامر سريعة وقال:

- «أيها القائد، فلتعبئوا الفضة، في حين أنني سأرسل الكشافة إلى المخيم ليعلموهم أنهم سيبقون بمفردهم لفترة طويلة. اطلب إلى رجالك أن يجدوا مكانا جيدا لنا كي نقف فيه

ونواجه جنود سونغ هؤلاء، سوف نسير أمامهم جميعا».

ابتسم بايار، عندما رأى النار تتقد في روح كوبلاي مرة أخرى.

كانت تشاباي خارج خيمتها عندما وصل كوبلاي ممتطيا حصانه، وضعَت جلد الماعز الذي كانت تقطعه وتخيطه جانبا عندما رأته، وفي اللحظة نفسها شاهد زين جين والده فاندفع إلى باب الخيمة في المكان الذي وضع فيه خشبة ليقف عليها.

ريثما وصل كوبلاي إلى الخيمة وترجل عن حصانه، تسلق ولده باب الخيمة عن طريق هذه الخشبة وتدلى متأرجحا على الباب.

تجمعت النسوة في كل مكان حولهم لمعرفة الأخبار، من المؤكد أنهن لن يقاطعن أخا الخان، لكن تشاباي علمت أنهن سيُكثرن الأسئلة في اللحظة التي يغادر فيها.

قال كوبلاي: «جيش آخر في الطريق إلى هنا». كان يلهث قليلا، فأعطته إناء من القمارص، عبَّ منه وأكمل:

- «أنا بحاجة إلى أن أبدل ملابسي، وأيضا حان الوقت لتفكيك المخيم».

سألت تشاباي محاولة التزام الهدوء: «هل هناك ما يهددنا؟».

هز كوبلاي رأسه قائلا: «ليس بعد، لكن إن كان على الفيالق أن تتحرك بسرعة، فلا بد لي أن أحافظ على أمنكم وأضمنَ حمايتَكم. يجب أن أُبقي العائلات في نطاق قريب منا».

نظرت تشاباي إلى الأعلى عندما انهارت خيمة فجأة في مكان قريب، متحولة من منزل إلى ساريات ولباد ملفوف خلال لحظة. لم يأتِ كوبلاي بمفرده، بإمكانها سماع صيحات في شتى أنحاء المخيم وقد انتقل الوضع من السكون السلمي إلى التفكيك السريع. تم تصميم كل شيء ليتم نقله بسرعة، كان لديها خدم لهذه المهمة، رأت اثنين منهم يأتيان حاملَين زماما وأسرجة على أكتافهما من أجل عربة الثور.

نادى كوبلاي مخاطبا ولده: «انزل يا زين جين».

لقد علم أن الفتى كان ينتظر مروره بباب الخيمة لكي يقفز عليه، ولكن لم يكن هناك وقت للعب. عبس زين جين في وجهه، لكنه نزل متحسرا.

قالت تشاباي بهدوء: «تبدو قلقا».

هزّ كوبلاي كتفَيه نافيا مزاعمها، وابتسم لها قائلا:

- «رجالنا أفضل المحاربين، لكن الأعداد لا ترحم يا تشاباي، فإن تجمع سادة سونغ مع بعضهم، فإنهم سيؤلفون جيشا يجعل من جيشي محضَ مجموعة من اللصوص الذين بالكاد يستطيعون تنفيذ هجمات بسيطة».

قالت زوجته: «لكنهم لا يمتلكون رجلا مثلك».

أومأ برأسه، وأجابها مبتسما: «حسنا، أنت محقة، فأنا رجل غير عادي».

كان بإمكان تشاباي أن تشعر بأن انتباهه مشتت، إذ راح ينظر حول المخيم، منتبها لكل التفاصيل، فقالت:

- «لا داعي للقلق بشأننا».

استدار كوبلاي ببطء، في محاولة للاستماع إلى زوجته وحل بعض المشاكل في الوقت ذاته، لكنه فشل في الأمرين كليهما، وقال: «همم، ماذا؟».

أجابته: «لسنا من دون حماية، يا كوبلاي. هناك ما يقارب الثلاثمئة ألف شخص في المخيم، إنها مدينة، إضافة إلى أنّ الجميع مسلَّحون». أخرجت خنجرا طويلا من حزامها، وأكملت: «بمن فيهم أنا. لا تنس أن هناك رجالا مصابين يكفون لتشكيل فيالق أخرى، فالعديد منهم لا يزال بإمكانه ركوب الخيل أو استخدام القوس».

أعاد كوبلاي تركيزه إلى زوجته، ورأى أنها كانت تحاول التخفيف عنه، فكبت رغبته الشديدة في وصف الرعب الوحشي الذي قد يسببه الهجوم على معسكر، لأن إخافتها لن تفيد بشيء، والآلاف من الأرواح تقع على عاتقه وعلى قدرته على حمايتها، فالكلمات والوعود كالرمال لن تعني شيئا في مواجهة مثل هذا العبء، لذا اكتفى بهز رأسه، وهذا ما أشعرها بالراحة.

قالت تشاباي: «هنالك لحم ضأن بارد وبعض البصل الأخضر في الوعاء. سأقطع لك بعض الشرائح، ولديّ أيضا خبز يمكنك استخدامه للفها وتناوله في طريقك».

فقال: «ماذا بشأن الثوم؟».

أجابته: «سأحضره لك في أثناء تحدثك إلى ولدك، إنه ينتظرك منذ ثلاثة أيام ليقفز على كتفيك، وكلما مرّ أحدهم على حصانه بالقرب من الخيمة، هرول ليمسك بعارضتها مستعدا للقفز».

تنهد كوبلاي وقال: «زين جين، تعال إلى هنا».

عاود الصبي الظهور مرة أخرى، وكان عابسا، أشار كوبلاي إلى الخيمة وقال:

- «اذهب إلى هناك، فليس لدي متّسع من الوقت».

ضحكت تشاباي كثيرا عندما تغيرت ملامح زين جين وعلَت شفتيه ابتسامةٌ، سارع الفتى كي يتدلى من عارضة الخيمة وانتظر مرة أخرى مثل العنكبوت فوق الباب.

قال كوبلاي: «أعتقد أنني أستطيع رؤية ابني، ربما هو في الداخل». وتباطأ بالدخول فقفز زين جين عليه، ترنح كوبلاي إلى الخلف بفعل وزن زين جين، وزمجر مدعيا أنه متفاجئ.

بعد لحظة، أنزل الفتى إلى الأرض، وقال له: «هذا يكفي الآن، اذهب لتساعد والدتك والخدم، فنحن ننقل المخيم».

سأله زين جين: «هل يمكنني المجيء معك؟».

أجابه كوبلاي: «ليس هذه المرة، أعدك بذلك عندما تكبر».

قال زين جين: «أنا أكبر سنا الآن».

أجابه كوبلاي محاولا إقناعه: «هذا صحيح، ولكن عندما تصبح أكبر من ذلك».

بدأ زين جين بالتذمر بصوت عالٍ في حين أتت تشاباي حاملة صرّتين من الطعام.

في الفترة التي تلت وصوله، فُككت المئات من الخيم وحُمّلت على العربات، وذلك على مدّ النظر وفي كل الاتجاهات.

قالت تشاباي: «ستهزمهم يا كوبلاي، أنا واثقة من ذلك، ستثبت لمونغ أنه لم يُخطئ بإرسالك لمواجهة إمبراطور سونغ». بعدها اقتربت وقبّلت عنق زوجها.

راقب كوبلاي بصمت وتوتر اصطفاف الرجال أمامه، وبما أنّ رجال سونغ سيبحثون عنه أينما اختار أن يتموضع، فقد اختار سهلا عشبيا يطل على المكان من خلال تلة صغيرة، وشاهد أفواجا تلمع تحت الشمس وهي تزحف عبر الأرض نحو رجاله.

عرف كل واحد من جنوده أنه هناك، فهو اليد التي حملت السيف لتوجّههم، وهم لن يخيبوا ظنه وسيقاتلون بشكل جيد أمامه.

كانت الشمس مشرقة، لكن مزاجه كان عكرا، لم يستطع فهم تكتيكات العدو فقد أخبره كشافته بوجود أكثر من جيش يتجه نحو معسكره الرئيسي، لكنهم لم ينضموا إلى بعضهم بعضا.

أتى كل منهم بشكل مستقل كما لو أنهم ليسوا جزءا من أمة أعظم، فشكر أب السماء على هذا الأمر، لكنه شتم ولعن عندما تخيل الأعداد التي يمكن أن يأتوا بها إليه.

أومأ كوبلاي إلى فتى جالس على جمل بالقرب منه، ووقف يراقب كيف رفع الفتى بوقا طويلا إلى شفتيه ليطلق صوتا رهيبا تم الرد عليه من قبل بايار وأويانغ خاداي، فقد تسلّم كلٌّ منهما أربعة فيالق يتألف كل منها من أكثر من عشرة آلاف مقاتل يتقدمون في ساحات الأعداء.

بقي عشرون ألف رجل في الخلف بمثابة احتياط يمكن زجه في المعركة عند الضرورة، اصطفوا منتظرين وقد أبقوا أعينهم على الساحة. أخرج كوبلاي حجرا من جيبه، ودعك به إبهامه على خطوطه المنحنية، فقد قال له ياو شو إنّ ذلك سيُطمئِنه..

انقسم قادة جيشه للسير على طول صفوف قوات سونغ، ووجدوا المسافة الأمثل للوقوف خارج نطاق رماة السهام. بينما وقف كوبلاي يشاهد، عبرت رشقة من السهام المسافةَ بين القوات مثل ظل سحابة يتحرك عبر الأرض المفتوحة. تبعت رشقة الأسهم الأولى رشقات أخرى، لتفصل بين الرشقة والأخرى ثمانٍ من ضربات قلبه. تجمع محاربو سونغ في المقدمة في الوقت الذي اقترب فيه جناحاه إلى الداخل، ودنت الخطوات شيئا فشيئا، وخلّفوا وراءهم رجالا يصرخون وقتلى.

لم يتمكنوا من الرد على الفيالق، فشد كوبلاي قبضة يده، وهو يرى أفواج السيافة تحاول التقدم تحت وابل السهام التي تنهمر عليه وتستقر في التروس والدروع. تراجع أويانغ خاداي إلى الخلف في الوقت الذين كانوا يستعدون فيه للضرب من جديد، ولم تتوقف عاصفة السهام، فانهار الرجال الحاملون السيوفَ.

أخذ محاربو هذا القائد يدخلون واحدا تلو الآخر في نطاق مدى هذه السهام، وبينما كان كوبلاي ينتظر ازدادت وتيرة ضربات قلبه، وارتفعت السهام القليلة الأخيرة فوق الصينيين، وقبل أن ينزل السهم الأخير منها بدؤوا بحثّ أحصنتهم على الإسراع. وأنزلت الرماح، لكن جنود سونغ أخفضوا رماحهم، وتكدسوا بالقرب من بعضهم متمسكين بالأرض. هاجم جنود بايار من الجهة الأخرى فبدا محاربو كوبلاي مثل فكّين يغلقان على الجنود.

هز كوبلاي رأسه وهو يفكر في الرجال والخيول الذين ركضوا صوب الأسلحة المعدنية الفاتكة، لكن لم يكن هنالك أي تردد، كانوا حينها قريبين بما فيه الكفاية، كي يتمكن من رؤية خطوط الدماء الحمراء عندما طُعنت الخيول والرجال.

أصدر كوبلاي أمره بوضوح: «ادفع برجال الاحتياط».

كان الفتى قارع الطبل يحدق إلى ميدان المعركة فاغرا فاه، لذلك وجب على كوبلاي إعادة تكرار الأمر قبل أن يرفع الفتى بوقه.

مرة أخرى، هرول فيلقان، وأسرعا نحو العدو.

نجحت فرق الرماحة، فقد أبلت جيدا ضد الحراب، إذ إنها نُصبت بوجه الخطوط الأمامية لجنود سونغ، ولكن وجب على كوبلاي أن يكافح كي لا يرفع سقف التوقعات. لم يحسد رجاله في تلك اللحظة. رأى أفواج سونغ محاصَرة وقد طُوقت من الجناحين بعد أن أوقف تقدمَهم هجومٌ جديد. لم يستطع رؤية ما يحدث في الخلف، لكنه أمل في أن يهرب بعضهم هلعين.

عندما سمع صوت الخيول، نظر إلى الخلف، فجحظت عيناه. كان هناك أربعون فارسا أتوا مسرعين من الغابة أسفل التل. بإمكانه أن يرى رؤوس الخيول وهي تتدفق في أثناء انطلاقهم.

لم يتكاسل حراسه، فقبل أن يصدر كوبلاي الأوامر، وجد حراسه العشرين يتسابقون لمواجهة التهديد، مسرعين على أحصنتهم أسفل المنحدر في محاولة منهم للانطلاق بأسرع ما يمكنهم.

التفت كوبلاي حوله، وهو على صهوة حصانه، باحثا عن تهديدات محتملة أخرى.

جرت المعركة على بعد ثمانمئة خطوة من مكان وقوفه، لكنه بقي فجأة وحده مع فتى الطبول الذي تغير لونه وأصبح مثل لبادة بيضاء.

استل كوبلاي سيفه غاضبا من نفسه، لأنه لم يستكشف هذه الغابة الصغيرة. وأحس حينها أنّ كرامته قد امتهنت وهو يفكر في الثقة التي تكلم بها في ذلك الصباح بشأن اختيار أفضل بقعة لتؤمن رؤية جيدة. لقد توقع بعض قادة سونغ المكان الذي سيقف فيه، وأخفوا رجالا بانتظار اللحظة المناسبة.

احمرّ وجه كوبلاي لأنهم فاقوه ذكاء في هذه الناحية. رأى السهام الأولى ترتفع، واستقر عدد كبير منها على دروع فرسان سونغ، ومع ذلك، فقد بدأ ثلاثة من الخيول تركل وتصهل ألما. ضرب الحراس المغول مرة أخرى، فانهار المزيد من فرسان سونغ، لكنهم لم يتركوا الأقواس إلا بعد وقت متأخر، وبالكاد كان لديهم الوقت الكافي لرميها واستلال السيوف قبل أن يشتبكوا. تواجهوا حينها بسرعة، وبذلك اصطدم الرجال والخيول ببعضهم بعضا فسقطوا بقوة أو قتلوا. كان بإمكان كوبلاي سماع صرخات عالية، وأخذ يتصبب عرقا وهو لا يزال ينظر إلى المعركة المستمرة، لكن لم يكن هناك مجال لإرسال إشارة من أجل استدعاء التعزيزات إلى موقعه.

ها هم أولاء مرافقوه يقاتلون بجنون على بعد مئة خطوة، وعلى طول المنحدر لإيقاف العدو ومنعه من الاقتراب.

ازدرد كوبلاي ريقه، وأحس بثقل في أطرافه. هذا هو الخوف، لقد أدرك ذلك، ولا بد من أنّ قائد جنود سونغ قد أرسل أفضل رجاله لمثل هذه المهمة. لم يتوقع هؤلاء الرجال أنّ يبقوا على قيد الحياة بعد هذه المهمة، لكن من المحتمل أن يصلوا إليه. كان حراسه سيافين ورماة سهام ماهرين منذ الصغر، لذا فهُم لن يسقطوا بسهولة.

فوجئ كوبلاي عندما التف خمسة رجال حول رجاله، وانطلقوا على صهوات أحصنتهم نحوه بسيوف ملطخة بالدماء، وصاحوا عندما رأوه على حصانه، يرافقه فتى وسيم وحيد.

رمى أحد الحراس سيفه بقوة وبسالة، فاستقر في ظهر أحد جنود سونغ، مما جعل الرجل يصرخ من الألم وسقط على الأرض ممسكا بلجام حصانه الذي سقط معه.

رأى كوبلاي الحارس يأتي مسرعا بلا سلاح، بفعلته هذه أصبح أعزل وعرضة للموت في أية لحظة، لكن ما قام به لم يكن كافيا، فقد بلغ أربعة من فرسان سونغ قمة المنحدر، وأسرعوا مُشهرين سيوفهم، على أمل أن يحصدوا رأسه.

شاهدهم كوبلاي، جعله الرعب يتسمر مكانه من دون أن يأتي بأية حركة، إذ لم يكن بوسعه أن يهرب بالرغم من أن هناك شيئا في داخله أخبره أن أفضل طريقة للحفاظ على حياته هي الهرب، ولكنّ موقفا كهذا قد يحطم صورته بصفته قائدا إلى الأبد، فالجبن هو الخطيئة التي لا تُغتفر، هو يعلم أنه لن يقود فيالق المغول مرة أخرى إن هرب الآن، لا يزال بعض حراسه يناضلون ضد العدو أسفل التل، لكن اثنان منهم أدركا التهديد الذي تعرض له وتحركا باتجاهه.

شاهدهما كوبلاي يصعدان التل بسرعة ويلاحقان جنود العدو الأربعة. أصبح بإمكانه أن يشعر بكل نبضة من نبضات قلبه في حين عمل دماغه بوضوح على تقييم الفرص المتوفرة، هزّ رأسه، ورأى احتمالية مقتله على أيدي الرجال الذين أتوا لكي يقضوا عليه. رفع سيفه فاختفى الخوف فجأة، وهذا ما جعله مشوش التفكير بعض الشيء.

أخذ نفسا عميقا مرة أخرى، بدت لحظة من السعادة عندما أحس أنّ الرعب قد انجلى عنه، وأن بإمكانه أن يتحرك، إضافة إلى أن أصوات المعركة تناهت إلى مسمعه من جديد واستيقظت حواسه.

صرخ الفرسان الأربعة وهم يتقدمون نحوه، فتحرك فتى الطبول فجأة، صارخا ومسرعا على دابته، فانحنى الجمل إلى الأمام مصدرا صوت أنين قوي وهو يتجه مباشرة إلى العدو، وبضربة عنيفة، ضرب الرجلُ الذي كان في الصدارة الجانب الأشعث من الجمل فسقط فوق الصبي، وحطم الحصان الجمل مما جعله يجثو على ركبتيه ويهدر بصوت عالٍ، وتمايلت عنقه عندما سقط.

استل الرجال على يسار كوبلاي أسلحتهم، وشتموا عندما فاتتهم فرصة ضربه. واجه كوبلاي أحدهم فقط، فقد تحركت ذراعه من دون تفكير للتصدي السيف الذي رآه كظل رمادي متجه نحوه. صدح صوت رنة اصطدام فتراجع الرجل إلى الخلف في الوقت الذي أحس فيه كوبلاي باهتزازات الضربة تصل إلى كتفه.

أيا كان الرجل، فقد حافظ على السيطرة على حصانه، وكبحه بسرعة، وانطلق محاولا القضاء عليه بضربة قوية تصدى لها كوبلاي بهدوء. كوبلاي الذي بدا قويا كانت كل حواسه متنبهة، وهذا ما أعطاه سرعة الحركة.

لم يكن الرد قرارا ناتجا عن وعيه، لكن جسده تحرك بسبب آلاف من ساعات التدريب الطويلة، وعندما تلامست النصلان، عرف غريزيا كيف يزيح النصل ويضرب بشكل مستقيم.

ارتعش جندي سونغ عندما دخل رأس نصل كوبلاي في حلقه ممزقا غضاريفه، واندفع الدم من الجندي فرمشت عينا كوبلاي بشدة عندما أصابهما هذا الدم.

وقف الجمل على قدميه مصدرا ضوضاء شديدة، وبدأ يركل بهلع مما جعل حصان كوبلاي يتحرك مفسحا المجال.

أتى فارس آخر بعد انهيار الأول وسقوطه قتيلا، شعر كوبلاي به، فاقترب أكثر من المهاجمكما علمه ياو شو من قبل، وفتح ذراعه التي يحمل بها السيف نصف فتحة، ضاربا طرف الرجل مما جعله يفقد توازنه. لكن حصانه تحرك في اللحظة الخاطئة، متراجعا إلى الخلف ساحبا كوبلاي، وبدلا من توجيه لكمة إلى ذقنه المكشوفة عندما تقدم رأس الجندي إلى الأمام، لم يستطع إلا أن يتمسك بالرجل ويسحبه عن سرجه.

لاحظ كوبلاي أنّ الرجل بقي معلقا من ركاب السرج عندما أفلته، فالتوت ساق الرجل وانكسرت.

صرخ الجندي عندما اقترب رأسه المدلى من الأرض بلا حول ولا قوة، وعندها كانت كل حركة من الحصان تسبب طحنا لعظامه.

صرخ كوبلاي من الألم عندما أصاب شيء ما ذراعه، فالتفت إلى الخلف ليرى الرجل الذي ضرب جانب الجمل الأشعث رافعا سيفه ليضرب مرة أخرى.

كان وجه الرجل ملطخا بالدماء جراء اصطدامه بالأرض وأخذ يعرج في أثناء تراجعه للخلف، أخرج كوبلاي قدمه من ركاب السرج، وضرب الرجل على فكه. وبينما تحرك، شعر بإبهام على درع صدره كأنّ هنالك أحدا يحاول الوصول إليه بقوة، فترنح كوبلاي عن السرج ملوحا بسيفه بلا فائدة، لكنه لاحظ أنّ مهاجمه قد ابتعد بلمح البصر، وبدا له أن أحدهم سحبه أرضا، فنظر كوبلاي بتمعن، وإذ بحارس من حراسه يركل أحد المهاجمين بحذائه بوحشية مرارا وتكرارا حتى تكسرت أضلاع الرجل الذي بدأ يلهث كأنه ركض لأميال، التقت عينا كوبلاي بعيني الحارس، فأومأ له الرجل ليس كما يومئ المحارب لقائده، ولكن كما يومئ رجلان نجيا للتو من القتل.

تنهد كوبلاي ببطء، ونظر حوله. فوجد جنود سونغ جميعهم قتلى، لكن لم يبق سوى أربعة فقط من حراسه على أقدامهم. ثلاثة منهم يقفون بين الجثث أسفل التل، يضربون بسيوفهم بقوة أي

رجل يتحرك من جنود سونغ الجرحى، أما كوبلاي فقد بقي وحده مع الحارس الأخير الذي مازال واقفا على قدميه، ذلك الحارس الذي أنقذه.

اهتاج الجمل مرة أخرى بسبب الألم. رأى كوبلاي أن ساقه مكسورة ومعلقة كما لو أن الجلد وحده قد أبقاها متصلة ببعضها. بعد أن صفي ذهنه نظر حوله باحثا عن فتى الطبول الذي ألقى بنفسه على المهاجمين.

أغمض كوبلاي عينيه للحظة عندما رأى شخصا ممددا على الأرض، فترجل عن صهوة حصانه، وتأوّه جراء كدماته التي آلمته حينها. يجب أن يخاط الجرح الذي على ذراعه، وكان بإمكانه أيضا أن يشعر بشيء يقطر من أصابعه، رفع يده فجأة ليتحقق فلا بد من أن هناك المزيد من الجروح التي أدت إلى هذا النزيف الأحمر كله.

لقد ضُرب الصبي وأغمي عليه، وهنالك جرح كبير ظاهر على جبينه. فتح كوبلاي إحدى عينيه بطرف إبهامه، فارتعشت بسبب الضوء. كان على وشك التحدث عندما تجمد للحظة وتذكر المعركة التي من المفترض أنه يقودها.

آلمه ظهره وساقاه عندما وقف مرة أخرى، لم يحاول أن يمتطي حصانه، بدلا من ذلك ظلل عينيه بيده وأخذ يُحدق إلى البعيد.

لقد هزم جنود سونغ. وقف الآلاف منهم في صمت، يرفعون أيديهم إلى الأعلى مظهرين تخليهم عن أسلحتهم، وقد كان عدد كبير منهم قد قُيدوا ورؤوسهم مطأطئة من شدة التعب.

ومن مكانه، شاهد عددا قليلا منهم يتسابقون للخروج من ساحة المعركة الدامية في حين كان جنود المغول يطاردونهم. زال الحِمل عن كوبلاي، فتنفس مرتاحا بحزن.

تأوّه الفتى وتحرك، فعاد كوبلاي إليه.

سأله كوبلاي: «ما اسمك؟». كان يجب على كوبلاي أن يعلم ذلك، لكن عقله بدا مشوشا وبطيئا.

أجاب الولد: «بران يا سيدي». لكن صوته بدا ضعيفا. كانت إحدى عينيه حمراء وتنزف، لكنه سيعيش.

قال كوبلاي للفتى: «شجاعتك أنقذتني ولن أنسى هذا. عندما تكبر بما يكفي، تعال إليّ وسأوكل إليك قيادة مئة رجل».

نظر الفتى بفرح بالرغم من ألمه، بدأت الابتسامة ترتسم على وجهه قبل أن يتحرك إلى إحدى جانبيه ويتقيأ على العشب.

ساعده كوبلاي على الوقوف، وشاهد كيف نظر بران إلى الجمل، وقد بدا الذهول على وجهه مما رأى.

قال كوبلاي مخففا عنه: «سأجد لك جملا آخر، أيها الفتى، فهذا الجمل يُحتضر».

أجفل الفتى، بالرغم من أنه فهم.

للحظة، شاهد كوبلاي نظرة الحارس الذي يقف بالقرب منه، فقد بدت تعابير الرجل غير مناسبة بطريقة ما، فهو أيضا قد تعرض للأذى في القتال. لم تكن لدى كوبلاي كلمات للتعبير عن شكره، وأراد أن يكافئه أيضا، لكن في الوقت ذاته، لم يقم الرجل بأكثر من واجبه.

فقال كوبلاي موجها الكلام له: «تعال وقابلني الليلة، في خيمتي. أعتقد أن لدي سيفا سيعجبك، شيئا لتتذكر به معركتنا الصغيرة هذه على التل».

ابتسم الحارس له، كاشفا عن فمه الدامي والعديد من الأسنان المفقودة، وقال:

«شكرا لك، يا سيدي. من بعد إذنكم، أود أن أعيد ابني إلى والدته، لا بد من أنها قلقة عليه».

أومأ كوبلاي بحزم وقد فتح فمه من هول المفاجأة. وضع الحارس فتى الطبول على كتفه، وسار به بعيدا إلى أسفل التل.

لم يستطع كوبلاي إلا أن يتساءل عما إن كان هذا الرجل سيقاتل بهذه الطريقة لو أنه لم يرَ ابنه يسقط، لكن الجواب لن يغير في الأمر شيئا.

وقف كوبلاي بمفرده بجانب حصانه، فقد نجا. بدأت يداه تهتزان فرفعهما، ورأى آثار الدم الذي سال من كل أصابع يده اليمنى الدامية. لن تعود أصابعه ملطخة بالحبر بعد الآن. وللمرة الأولى، شعر كوبلاي براحة حقيقية وهو غارق في الدرع الذي أنقذ حياته.

أخذ يضحك وهو يتكئ على حصانه، ومد يده وربت على رأسه، تاركا بقعة حمراء من الدم، قام الحصان بمسحها.

24

شوان؛ وهو ابن السماء ووريث إمبراطور الصين، نظر إلى السطح اللامع لبحيرة هانغتشو، واستمع إلى ضحكات أولاده وهم يرشون بعضهم بالماء تحت أشعة الشمس.

استطاع أن يرى التموجات التي نتجت عنهم في المياه الضحلة وهي تنتشر إلى المياه العميقة، إلى المكان الذي وقف فيه صياد بمركبه يصطاد أسماك السلمون المرقطة محدقا إلى المكان الذي توجد فيه عائلة إمبراطور الصين. تنهد شوان، فلم يكن من المرجح أن يكون هذا الرجل جاسوسا لبلاط سونغ، لكن لا بد من قطع الشك باليقين. خلال سنواته في المنفى، تعلّم شوان ألا يثق بأحد خارج نطاق زوجته وأطفاله، فقد كان هنالك دائما أحد ما يشاهد كل تحركاته ويسمع كلماته وينقلها، وقد اعتقد أنه سيكبر ويعتاد على هذا الأمر مع مرور الوقت، لكن في الحقيقة كان العكس صحيحا.

في كل مرة أحس فيها أنّ هنالك أعينا تراقبه، بدا كبشرة حساسة يتم حكها مرارا وتكرارا، فتنتابه رغبة في توبيخهم والصراخ عليهم، وقد سبق له أن قام بذلك، إذ إنه طرد الرجل غير المحظوظ الذي أثار غضبه وريبته، ولكنه استبدل به رجلا آخر قبل نهاية اليوم. لم تكن هنالك خصوصية حقيقية. أتى شوان إلى أراضي سونغ هربا من جيش المغول، الذين لم يكونوا على دراية بما يجب عليهم القيام به تجاهه، فقد كان ابن عم إمبراطور سونغ بالدم، ووجب أن يعامل باحترام. في الوقت ذاته، لم يكن الفرعان التوأم من العائلة حلفاء أو أصدقاء طيلة سنوات، والأكثر أهمية أنه قد خسر أراضيه وثروته وقوته- وهي إشارة مؤكدة إلى أن النحس قد أصاب عائلته- ولكن الحقيقة هي أنّ الحظ قد أدى دورا ضئيلا في المأساة التي أصابته.

فقد استولت جيوش جنكيز على يانكينغ عاصمة إمبراطوريته، بعد أن خانه قائد جيشه، فأُجبر على الخضوع للخان، لا تزال تلك الذكريات المؤلمة مخفية وراء ملامح وجهه الهادئة. لقد أُحرقت يانكينغ، لكن ذئاب جنكيز تعقبوه ليصطادوه من دون شفقة وبوحشية.

لقد أمضى شبابه هاربا منهم، إلى مدينة تلو مدينة، وسنة تلو سنة. مزق أولاد جنكيز وإخوته أراضيه إلى أجزاء حتى لم يبق مكان آمن إلا خلف حدود إمبراطورية سونغ، وكانت الخيار الأسوأ من بين كل الخيارات، لكن ما باليد حيلة.

في البداية، توقع شوان أن يُغتال، وهو ينتقل في مناطق سونغ من حماية إقطاعي إلى حماية آخر، اعتاد أن يقفز من سريره عند سماع أي صوت في الليل، واثقا من أنهم قد أتوا من أجله لينهوا الأمر، فقد كان متيقنا من أنهم سيجعلون السرقة مبررا لموته، وسيشنقون بعض الفلاحين لاحقا بعد أن يلبسوهم التهمة.

مع أنّ العقد الأول قد انتهى من دون أن يشعر بسكين واحدة تقترب من عنقه، فإنّ إمبراطور سونغ العجوز قد توفي، وهو أيضا لم يكن متأكدا إن كان ابن هذا الرجل العجوز يتذكر وجوده. نظر إلى التجاعيد التي على ظهر يديه وجمع قبضته. هل مضى حقا ستة عشر عاما منذ أن عبر الحدود مع جيشه؟ كان في الخامسة والأربعين ولا يزال بإمكانه أن يتذكر الفتى الفخور الذي كان عليه، ويتذكر كيف ركع لجنكيز أمام عاصمته، وما زال يتذكر الكلمات التي قالها له الخان: «كل الرجال العظماء لديهم أعداء أيها الإمبراطور. وسيسمع أعداؤك أنّك ركعت وسيفي على عنقك ولن يكون بإمكان كل جيوش الصين ومدنها أن تزيح نصلي».

بدت الذكريات جزءا من عصر آخر، حياة أخرى. فقد مرت أفضل السنوات في المنفى، ينتظر أن يتذكره أحد القتلة، رأى كيف ذبل شبابه، واختفى مع الرياح الهادئة. مرة أخرى، نظر إلى البحيرة مراقبا الرجال والنساء الشابات وهم يستحمون فيها.

كبر أبناؤه وبناته، وأصبحوا في سن البلوغ. تغبشت الأشكال أمامه، فنظره لم يعد ثاقبا كما كان. تنهد شوان، غارقا في الكآبة التي بدت جزءا من نسيج حياته، وهذا ما جعله في كثير من الأحيان ينسى أنه يعيش في هذا العالم، وفي أحيان كثيرة، لم يكن يبدي اهتماما بهذا العالم. لقد كان حزينا على مصير أولاده أكثر من حزنه على مصيره، ففي النهاية، سبق له أن عاش حياته حرا، لفترة من الوقت على الأقل. كان ابنه الأكبر ياو جين شابا صعب المراس وسخيفا مقارنة بأخيه وأختيه. لم يلم شوان ولده ياو جين على نقاط ضعفه، فقد تذكر كيف أنّ إحباطه قد أثر فيه، قبل أن يقرر في النهاية أن يتناسى ما حصل معه، وهذا ما ساعده على القراءة، فقد وجد نسخا جديدة من مخطوطات التأمل الخاصة بماركوس أوريليوس في المكتبة. وعلى الرغم من أنه لم يفهمها بالكامل، لكن كان هنالك جزء من تقبل الشخص لقدره، الأمر الذي ناسب حالته.

لا يزال شوان يفتقد زوجته التي توفيت بعد أن عانت من المرض؛ ذلك المرض الذي نهش جسدها من الداخل. كتب العديد من الرسائل حينها، وكسر حاجز الصمت متوسلا بلاط سونغ ليعينوه الأطباء من أجل إنقاذها، لكن أحدا لم يأت من أجلها، وفي كل مرة سُمح له بزيارتها بدت أضعف من المرة السابقة.

طارت مجموعة من طيور البط فوق رأسه، فنظر إليها شوان حاسدا إياها على قدرتها على الطيران والهبوط في أي مكان ترغب فيه. إن الحرية أمر بديهي لا يقدّر قيمتها أولئك الذين ينعمون بها. أُعطي شوان راتبا شهريا من أجل اللباس والمعيشة الفارهة، وكان لديه خدم، ودائما ما كانت غرفه مؤثثة بشكل جيد، على الرغم من أنه كان من النادر السماح له البقاء في مكان واحد لأكثر من عام. سُمح له أيضا بأن يعيش مع أولاده حتى بعد أن توفيت زوجته. كانت حياته نعمة من ناحية، لكن من ناحية أخرى كان ممنوعا عليه أن يعرف أي شيء عن العالم الخارجي، أو عن سياسات بلاط سونغ. لقد عاش في عزلة كاملة.

خرج لياو جين من البحيرة، والماء يتقاطر من جسده النحيل، كشف صدره العاري عن عضلاته الجيدة، قست بشرة الشاب من الهواء، فارتعش وحرك شعره الطويل الأسود. جفف نفسه بالمنشفة بسرعة وهو ينظر إلى والده بتجهمه المعتاد. إنه ابنه البكر الذي يبلغ من العمر عشرين عاما وهو أحد الأولاد الأربعة الذين جلبهم شوان عبر حدود سونغ قبل سنوات عديدة، أصغرهم فتاة أصبحت الآن في عمر الثانية عشرة، لم تر إلا هذا النمط من الحياة منذ أن وُلدت. ابتسم شوان لها عندما لوّحت له من الماء. كان أبا شغوفا بابنته على نحو جعله يجد صعوبة في التعامل مع أولاده الآخرين.

تحرك لياو جين وربط شعره إلى الخلف. كان بإمكانه أن يصبح صيادا شابا من دون أية إشارة للرتبة أو الثروة. راقبه شوان، متسائلا عمّا سيكون عليه مزاجه بعد السباحة. شاهد بطرف عينه ابنه يتقدم نحو الشاطئ الصغير المغطى بالحصى متجها إليه. أحيانا يستطيع أن يتذكر بصعوبة الفتى اللامع والنشيط الذي كان عليه لياو جين سابقا، لا يزال شوان يتذكر عندما استطاع ولده أن يفهم حقيقة وضعهم للمرة الأولى، ومنذ ذلك الحين أصبح هناك دموع وحزن وصمت وغضب. لم يستطع شوان توقع تصرفاته.

جلس لياو جين على الحصى ورفع ركبتيه للأعلى، وطوقهما بذراعيه ليبقى دافئا.

وسأل فجأة: «هل كتبت إلى البلاط كما قلت؟».

أغمض شوان عينيه للحظة، قلقا من هذه المحادثة قبل أن تبدأ حتى.

أجابه شوان: «لم أقل إنّني سأفعل ذلك، فهم لم يردوا على رسائلي منذ وقت طويل».

بدا من ملامح لياو جين أن إجابة والده لم تسرّه.

قال: «حسنا، لمَ قد يجيبون على رسائلك؟ فأنت لا تعني لهم شيئا».

التقط الفتى الشاب مجموعة من الحصى وألقى بها في الماء بغضب، فصرخت إحدى أختيه بالرغم من أنها لم تُصب. عندما رأت من رمى الحصى، هزت رأسها تلومه، وغاصت إلى مكان أعمق.

حين تحدث لياو جين مرة أخرى، بدت نبرة صوته أشبه بالنحيب، إذ قال:

- «أنت تعلم أنه لا يوجد قانون يمنعني من الانضمام إلى جيش إمبراطورية سونغ يا أبي. مهما كانت أفكارهم عنك، فبإمكاني أن أترقى، وربما بإمكاني أن أحصل على منزل خاص بي وزوجة».

وافقه شون بحزن: «أتمنى ذلك».

أجابه لياو جين: «أنت ترغب في ذلك حقا؟ ولكنك لم تكتب إلى الشخص الوحيد الذي يُحتمل أن يوافق، ولم تفعل شيئا، كالعادة، فكل يوم يمر ببطء شديد ولا يمكنني تحمل ذلك. لو كانت أمي على قيد الحياة...».

قاطعه شوان: «لكنها ليست على قيد الحياة». وعلا صوته ليصبح مماثلا لصوت ابنه. وأكمل: «وليس هنالك شيء بإمكاني فعله إلى أن ينتقل هذا الحاكم إلى منصب آخر، أو أن يموت. فأنا لا أصدق أنه يقرأ رسائلي. لم يجب على رسالة واحدة منذ ثماني سنوات، بل منذ عشر سنوات». بدا مزاجه عكرا، فقد قضت تصرفات ابنه الساخطة على السلام الذي كان ينعم به اليوم.

همس ولده له: «كنت أفضّل أن أكون في السجن بدلا من أن أكون معك هنا، على الأقل في السجن بإمكاني أن أحلم بأنني سأتحرر يوما ما. أما هنا، فما من أمل على الإطلاق. هل يجب أن أكبر؟ هل تتوقع مني أن أهتم بك عندما تشيخ في حين أكون كبيرا وبلا فائدة؟ لن أفعل ذلك. سأُغرق نفسي في البحيرة أولا، أو ربما أضع حبلا حول عنقي أو عنقك يا أبي، ربما سيدعونني حينها أرحل من هنا وأتخلص من منفاي».

قال شوان بحزن: «هنالك خدم ليهتموا بي عندما أشيخ».

لقد كره أن يسمع هذا من ولده، ولكنه فهمه بشكل جيد. لقد أحس بالأمر ذاته لوقت طويل، ولا يزال جزء منه يشعر بذلك. كان لياو جين كعصا تحفر الأعماق الموحلة في روحه، وهو يرفض أن ينبش في ذلك العمق. انهار جسديا وجثا على ركبتيه بدلا من أن يسمع المزيد.

رفع رأسه ليصيح لابنتيه، ثم توقف، عندما رأى أبراج هانغتشو حول البحيرة، فالبحيرة صنعتها أسرة حاكمة قديمة منذ ما يقارب الألف عام. خلال الأيام القليلة التي سُمح له بأن يبقى هناك، نادرا ما كان يزعجه أحد، مع ذلك فقد رأى الآن مجموعة من الجنود يسيرون على شواطئ البحيرة، وبينما وقف ينظر إليهم محتارا انطلقوا باتجاهه، وعندما استعاد شوان وعيه، بدأ يصرخ لأولاده: «اخرجوا من الماء، جميعكم، بسرعة الآن، هنالك رجال قادمون نحونا».

صرخت ابنتاه في حين خرج شيون وهو أخ لياو جين من البحيرة بسرعة يقطّر ماء على الأحجار الجافة. انطلق الفرسان حول الشاطئ المقوس، وتأكد شوان من أنهم قادمون من أجله. لم يكن بإمكانه أن يكبح الخوف الذي شعر به، وحتى لياو جين وقف صامتا، وبدت تعابير وجهه صارمة إذ ليس من المستبعد أن يكون الجنود قد أُمروا بقتلهم بعد كل هذه السنين.

سأل شوان ولده، من دون أن يزيح نظره عن الغرباء المتجهين نحوهم: «هل راسلت أحدهم من دون أن تخبرني؟».

تردد لياو جين بالإجابة لفترة كافية، فأدرك والده أنه فعل ذلك، كتم غضبه وتابع: «أتمنى ألا تكون قد لفت انتباه أحد يضمر لنا الشر، فنحن يا لياو لم نكن أبدا بين أصدقاء لنا».

توقف الفرسان على بعد عشرين خطوة من الفتاتين اللتين بدا أنهما ترتعشان قبل أن تتحركا لتقفا بالقرب من أبيهما وأخويهما. أخفى شوان خوفه عندما ترجل قائد الجنود، الذي كان رجلا قصيرا، ممتلئ الجسد، رماديَّ الشعر، ذا وجه عريض أو مربع تقريبا متورد اللون.

وضع الرجل يده فوق رأس الحصان، وقاده نحو المجموعة الصغيرة التي كانت تشاهده.

لاحظ شوان رمز الأسد الصغير المحفور على درع المحارب عندما انحنى. لم يكن يعلم بشأن الرتب الخاصة بجيش سونغ، لكنه علم أن الرجل قد أثبت نفسه بوصفه راميا للسهام وسيافا، إضافة إلى اجتيازه امتحانا في التكتيكات في إحدى ثكنات المدينة.

قال الرجل: «أنا الجندي المتواضع هو هونغ تسايو وين، أُمرت بمرافقة جلالة شوان، ابن السماء، إلى ثكنات ليوبارد ليتم تزويده بدرع».

سأل شوان متشككا: «ماذا؟ ما هذا؟».

نظر إليه تسايو وين من دون أن يرف له جفن وأجاب: «تم تجميع رجال جلالته هناك». ملتزما بالمصطلحات الرسمية التي لن تسمح له بمخاطبة شوان بشكل مباشر. وأكمل: «سيرغب جلالته في أن ينضم إليهم هناك». فرفع يده ليشير إلى رجاله، ورأى حينها شوان أنهم قد أحضروا حصانا إضافيا، مجهزا وبانتظاره. فأكمل الجندي: «سيرغب جلالته في أن يأتي معي الآن».

أحس شوان بجليد في صدره، وتساءل عما إن أتت اللحظة التي سئم فيها الإمبراطور من وجوده. ربما سيقودونه إلى مكان يُعدم فيه بسرعة وبسرية، وعلم أنه من الأفضل ألا يجادل. لقد عرف شوان العديد من جنود سونغ خلال الستة عشر عاما التي قضاها في المنفى، فهو إن طالب بأسباب أو شروحات، فإنّ تسايو وين سيكرر الأوامر التي أُلقيت عليه بلا مبالاة وبهدوء وبكل تهذيب، فقد كبر شوان معتادا على أخلاق سونغ الثابتة، ولكنه تفاجأ عندما تكلم ولده.

قال له لياو جين بهدوء: «أريد أن آتي معك يا أبي».

أجفل شوان حينها، فإن كان هذا أمرا بإعدامه، فإنّ وجود ولده لن يعني أكثر من وجود جثة أخرى في نهاية اليوم.

هز رأسه رافضا، وتمنى أن تكون إجابته كافية. ولكن بدلا من ذلك، استدار لياو جين لمواجهته وقال: «لقد سمحوا لرجالك بأن يجتمعوا، بعد كل هذه الفترة، إنّ هذا أمر مهم يا أبي. دعني أرافقك، مهما يكن الأمر».

من الممكن القول إن جندي سونغ قد صُنع من الحجر ففي أثناء وقوفه هناك، لم يعطِ لشوان أية إشارة بأنه سمع شيئا.

نظر شوان خلف ولده وسأل: «لماذا يحتاجونني الآن، بعد هذه الفترة الطويلة؟».

بقي الجندي صامتا، وعيناه مثل الزجاج الأسود، ولكن لم يُبدِ وقوفه أية عدوانية. لقد مضى زمن على آخر مرة حكم فيها شوان على تصرفات رجل مقاتل، ولكنه لم يشعر بأية عدوانية لديه

ولدى فرقته الصغيرة. اتخذ قراره قائلا: «لياو جين، إنّني أعينك قائد جنود صغيرا لينزان، وسأشرح لك مهامك ومسؤولياتك في وقت لاحق».

بدا ولده سعيدا جدا، فركع على ركبته وأحنى رأسه. وضع شوان يده على مؤخرة عنق ولده للحظة. فمنذ سنوات مضت، كان سيقاوم أية إشارة تعلّق، ولكنه لم يكترث إن رآها بعض جنود سونغ.

قال شوان موجها كلامه إلى تسايو وين: «نحن مستعدان».

هزّ الجندي رأسه قليلا قبل أن يتكلم، وقال: «لديّ حصان واحد إضافي فقط، وأوامر بإحضار جلالته إلى الثكنة، وليست لديّ أوامر بإحضار أي شخص آخر».

بدت نبرة الرجل حادة، فأحس شوان بغضب قديم مستعر في داخله؛ غضب لم يسمح لنفسه بأن يشعر به منذ سنوات. فرجل بموقفه من الممكن ألا يملك أي شرف، وربما لن يسمح لنفسه بأن يشعر بأي فخر. مع ذلك فقد تقدم نحو الجندي وانحنى باتجاهه، كانت عيناه تستعران غضبا، وقال: «من أنت حتى تتكلم معي بهذه الطريقة؟ من أنت، أيها الجندي الوضيع الذي لا يملك اسم عائلة؟ فما أريد أن أقوم به ليس من شأنك. أخبر أحد رجالك بأن يترجل عن حصانه، ويعود سيرا على الأقدام، أو أعطِه حصانك».

لقد عاش تسايو وين ملتزما بالتسلسل الهرمي، فاستجاب إلى أوامر شوان كما اعتاد أن يستجيب إلى أي جندي أعلى منه رتبة. أحنى رأسه ولم ترتفع عيناه أو تُظهرا أي تحدٍّ بعد ذلك. تأكد حينها شوان من أنّ ذلك لم يكن أمرا قد يحصل في ظل ترتيبات الإعدام.

شعر بتشوش في أفكاره في حين أعطى تسايو وين الأوامر لرجاله، فترجل أحدهم عن حصانه.

قال شوان للياو جين بصوت عالٍ: «أخبر أخاك بأن يصطحب أختيك إلى المنزل، فأنت سترافقني إلى الثكنة، وسنرى ما هو الأمر المهم إلى هذه الدرجة حتى تقلق راحتي».

بالكاد استطاع لياو جين أن يخفي سعادته الممتزجة بالرعب وانطلق ليخبر أخاه بما طلبه أبوه. لقد امتطى الحصان عدة مرات، لكنه لم يمتطِ صهوة حصان عسكري مدرب من قبل. لقد خاف أن يحرج والده. عندما توجه إلى الحصان، وتمسك بسرجه صهل الحصان بسبب الراكب الغريب، ففكر شوان للحظة، وقال فجأة: «انتظر قليلا».

ونقل ناظريه بين الأحصنة ووجد أحدها واقفا بطواعية وبلا حراك، لا يبدو عليه أي أثر من التوتر والغضب مثل الحصان الأول. نظر شوان إلى تسايو وين فوجد الرجل يكظم غيظه. ربما لم يتعمد قائد الجنود هذا اختيار أكثر حصان لم يُروض من بين مجموعته، ولكنه شك في ذلك. لقد مضى وقت طويل منذ أن قاد شوان جنودا، لكن أساليبه القديمة عادت إليه. فعبر بسرعة إلى فارس آخر ونظر إليه وهو متأكد تماما من أنّ أوامره ستكون مُطاعة.

قال له: «ترجل عن حصانك».

بالكاد نظر الرجل إلى تسايو وين قبل أن يحرك قدمه ويقفز إلى الأرض.

نادى شوان ولده وقال: «امتطِ هذا الحصان».

لم يفهم لياو جين سبب ما قام به والده، لكنه ترجّل وأتى إليه، وامتطى الحصان.

أومأ شوان له من دون أن يشرح شيئا، ثم رفع يده بسرعة ملوحا إلى بقية عائلته، الذين وقفوا بيأس يشاهدون كيف أنّ أباهم وأخاهم قد امتطيا حصانين وانطلقا متجهَين نحو مدينة هانغتشو.

25

كان هناك العديد من الثكنات التابعة لجيش الإمبراطور في هانغتشو. احتوى أفضلها على أراضٍ للتدريب وحمامات، حيث بإمكان الجنود أن يتعلموا ويتدربوا، ويقووا أجسادهم، ثم يناموا ويأكلوا في مهاجع كبيرة.

بدت ثكنات ليوبارد وكأنها هُجرت منذ سنوات. فقد بدت الأسقف متهدمة، والعشب قد نما في أراضي التدريب بين الرمال والحجارة. انطلق شوان عبر طريق ملتوٍ مغطى بالنباتات، ثم توقف مع تسايو وين ورجاله في فناء مفتوح. لقد بدا متوردا جراء الركوب كل هذه المسافة، وشعر بالألم في عضلات ساقيه وأسفل ظهره، فهو لم يجهدها منذ سنوات، وبالرغم من ذلك شعر أنه أفضل حالا مما كان عليه طوال سنوات، إنها أعراض الحرية والقيادة.

ترجّل تسايو وين من دون أن ينبس بكلمة أو أن ينظر إلى الرجلين اللذين أحضرهما معه. تمكن شوان من رؤية مقدار غضب تسايو وين وهو يتقدم بخطوات كبيرة عبر البناء الأول.

نظر شوان إلى ابنه، وأشار إليه كي يترجل عن حصانه.

لم يعلم ما الذي عليه أن يتوقعه، لكن لم يكن هنالك سوى القليل من النُبل خلال السنوات التي مضت، الأمر الذي جعل أي شيء أمرا مرحَّبا به.

وقفت مجموعة الفرسان بصمت، في حالة ترقب.

بعد قليل من الوقت خرج تسايو وين، وأمسك بلجام حصانه، مفاجئا شوان، الذي ترجل، وأعاد حصانه إلى البوابة. جمع اثنان من رجاله لجامي الحصانين اللذين امتطاهما شوان وابنه، واقتاداهما بعيدا.

سأل شوان: «ما هذا؟». لقد علم أنّ تسايو وين قد سمعه بسبب الطريقة التي وقف بها، ولكن قائد الجنود قرر أن يثأر لنفسه من دون إخلال بالأدب، لذلك لم يجب.

انطلقت المجموعة بعيدا، تاركة الأب وابنه يحدقان إلى بعضهما محتارين.

تعالت صيحات من مكان قريب فالتف شوان، وإذا به يرى وجوها كان يعرفها، وذكريات من حياة مختلفة تركض تجاهه.

تشنج لياو جين كما لو أنهما سيتعرضان إلى هجوم، لكنّ والده سرعان ما وضع يده على ذراعه وقد اغرورقت عيناه بالدموع. وقال: «أنا أعرف هؤلاء الرجال يا لياو جين، إنهم شعبي». وابتسم، مدركا أنّ ابنه لن يتذكر أيا من الرجال الذين أتوا باتجاهه وتجمهروا حوله، فقال: «هؤلاء هم شعبك».

جاهد شوان لإبقاء الابتسامة التي تعلو وجهه وهو يقابل رجالا لم يرهم منذ ستة عشر عاما. لم يكن الزمن لطيفا، ولم يجعل كبرُ السن أي رجل أقوى أو أسرع أو أكثر حيوية. وهذا ما آلمه وصدمه.

استمر برؤية وجوه يتذكرها منذ الصبا، ولكنهم أصبحوا كبارا ومنهكين. ربما لو بقوا في أرضهم لما بدا عليهم التقدم في العمر على هذا النحو، ظن شوان أنهم عانوا من الجوع، ولم يتح لهم الحفاظ على رشاقتهم.

احتشدوا بالقرب منه حتى إن بعضهم اقترب محاولا أن يلمس ثيابه ربما للتأكد من أنّه حقيقي. صاحت أصوات لم يسمعها منذ زمن طويل مصدرة الأوامر، فتراجعوا إلى الخلف. استمر الفناء بالاكتظاظ مع خروج المزيد والمزيد من المهاجع، فألقى هؤلاء الأشخاص الذين كانوا قادة عليهم الأوامر ليشكلوا صفوفا من أجل التفتيش. اتبع الرجال الأوامر مبتسمين، وطرحت هذه الأعداد الغفيرة أسئلة عديدة، لم يستطع شوان الإجابة عنها، فهو بالكاد استطاع التكلم بسبب المشاعر الجياشة التي اعتملت في صدره. وقف باستقامة وعيناه تلمعان في حين اصطف الرجال في مجموعات غير منتظمة تتألف من المئات منهم وساروا إلى الخارج، ليأخذوا أماكنهم على أرض الثكنة العشبية.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يكتشف أن أعداد الرجال الذين يخرجون من المهاجع أخذ في التضاؤل شيئا فشيئا. شعر بحرقة في قلبه؛ كان قد أحضر معه ما يقارب الأربعين ألف جندي إلى أراضي سونغ. لا بدّ من أن بعضهم قد توفي لأسباب طبيعية، فقد كان أكبرهم سنا يناهز السبعين عاما، لكن عندما أحصى من وجد في الساحة، فإن عدد الموجودين قارب الثمانية آلاف رجل فقط.

همس لنفسه: «أين اختفيتم جميعا؟».

كان أحد الرجال الذين يصيحون بالأوامر يرتدي ثيابا رثة، وبدا هزيلا، وكانت بشرته ملطخة بالأوساخ التي بدت موشومة عليها. إنّ رؤية شخص كهذا يحاول أن يقف شامخا أمر مثير للشفقة. لم يستطع شوان التعرف إليه، لكنه سار باتجاهه، وتلاقت أعينهما. لمعت عينا الرجل الذي كان يحدق إليه بالأمل، في الوقت الذي لم تكن فيه الظروف توحي بأي أمل.

قال شوان: «لقد مضى وقت طويل». كان على وشك أن يسأل الرجل عن اسمه، عندما تذكره وتذكر رتبته، بعد كل هذه السنوات، فهو: «القائد الميداني بوهاي».

طرفَ شوان بألم في حين ابتسم بوهاي ليكشف عن زوج من الأسنان الصفراء الطويلة داخل فمه الفارغ. لقد سبق لهذا الرجل أن قاد آلاف الرجال، فهو من أمهر قادته المخضرمين، لكنه لم يكن من السهل أن يتذكره عندما نظر إلى هيئة الشخص الهزيل الذي يقف أمامه.

سأله شوان: «أهؤلاء هم كل الرجال؟».

أحنى بوهاي رأسه، ثم ركع على الأرض، فقلده الرجال في ما فعله، وبذلك لم يبقَ أحد واقفا على قدميه سوى شوان وولده.

أمرهم شوان قائلا: «قفوا جميعا». حبس دموعه، فقد أدرك أنه لا يجدر به أنه يُظهر مزيدا من المشاعر لهؤلاء الرجال، فهم لا يسعون وراء مشاعر الرجل بل وراء قيادته.

وأردف قائلا: «حسنا أيها القائد بوهاي، فأنت لم تجب عن سؤالي. بإمكانك أن تتحدث بحرية معي».

في البداية، بدا صوت الرجل أجش، فرطب شفتيه وفمه بلسانه كي يتمكن من تركيب الكلمات وقال:

«لقد هرب بعض الرجال، معظم الهاربين أُعيدوا إلى هنا وقتلوا أمامنا، أما الباقون فلم يعودوا».

قال شوان وهو يهز رأسه: «هل كانوا كثرا؟».

قال بوهاي وهو ينظر باتجاه إمبراطوره: «لا داع جلالتك لأن تزعج نفسك بشكاوى الجنود».

قال شوان بهدوء: «لقد أمرتك بأن تخبرني». وانتظر ريثما رطب الرجل شفتيه مرة أخرى.

أجابه بوهاي: «لقد انتشرت الحمى في صيف إحدى السنوات، وقضى جنود آخرون نحبهم بسبب الجوع، وفي إحدى السنوات أُخذ ستة آلاف رجل منا لكي يعملوا في المناجم، وكان الحراس يقتلون بعضا منا كل شهر، إضافة إلى أن الإقطاعيين لم يتوانوا عن قتل بعض الرجال في محاولة منهم للترفيه عن أنفسهم، جلالتك لم أرَ جنودنا مجتمعين منذ ست عشرة سنة، ولم أعلم أننا خسرنا كثيرين منهم إلا منذ ثلاثة أيام». ومضت عيناه المتعبتان وأكمل: «لقد قاسينا كل هذا على أمل رؤية جلالتك لمرة أخيرة قبل أن نموت، وها قد تحقق ما أملنا به، وإن لم يكن هنالك أي إنقاذ أو تحرير فإن رؤيتك كافية».

استدار شوان إلى الخلف ليرى ولده واقفا وقد اعتلت وجهه تعابير الرعب.

قال برفق: «أغلق فاك يا بني، فهؤلاء رجال جيدون، رجال من دمك، فلا تجعلهم يشعرون بالخزي بسبب شيء ليس بإمكانهم أن يتحكموا به». علت نبرة صوته فاستطاع بوهاي والأشخاص القريبون منه أن يسمعوا كلماته.

«إنهم متسخون لأنهم لم يُعطوا الماء، وهم هزيلون لأنهم لم يُعطوا الطعام. تجاوز غضبك يا بني. فهم رجال نبلاء وأقوياء، وهذا ما أثبتته قدرتهم على التحمل، إنهم شعبك وقد قاتلوا لأجلي من قبل».

لم يشعر شوان باقتراب القائد تسايو وين من خلفه حتى تكلم الأخير قائلا: «كم هذا مؤثر! أتساءل عما إن كان إمبراطورهم سيعانقهم مع قذارتهم وقملهم».

استدار شوان واقترب جدا من تسايو وين. بدا منتبها إلى السيف المعلّق على حزام تسايو وين، وقال: «أنت مرة أخرى؟ ألم أعلمك التواضع؟». تفاجأ تسايو وين أكثر عندما نخزه شوان على صدره بإصبعه القاسي، وأكمل: «لقد كان هؤلاء الرجال حلفاء لإمبراطورك، لكن كيف عاملتموهم؟ جوّعتموهم، وتركتموهم قذرين من دون طعام مناسب؟ كان أعدائي سيعاملونهم بشكل أفضل مما فعلتم».

صُعق تسايو وين للحظة، فوضع يده على سيفه. حينها اقترب شوان منه أكثر لدرجة أنّ وجهيهما تلاصقا، وأحس الرجل بغضب شوان حين قال: «لقد عشت طويلا بما فيه الكفاية، أيها الدنيء، فارفع سيفك في وجهي وشاهد ما سيفعله بك هؤلاء الرجال العزّل بأيديهم العارية».

نظر تسايو وين خلفه، فانتبه للرجال الغاضبين الذين وقفوا يشاهدون ما يحدث، فتراجع بحذر إلى الخلف. وسعد شوان برؤية خيط من العرق يسيل من جبينه.

قال تسايو وين: «شخصيا، كنت سأدعكم تعانون جميعا من الجوع، لكن بدلا من ذلك سيتم إرسالكم لمواجهة فيالق المغول. فلا عجب في أنّ الإمبراطور سيفضل رؤية سيوف المغول تخترق أجسادكم بدلا من أن تخترق أجسادَ جنود سونغ».

وأعطى شوان رزمة من الأوامر، فتسلمها محاولا أن يخفي ذهوله.

كسر الختم الإمبراطوري الذي تذكره بشكل جيد، وبدأ بالقراءة بسرعة في حين استدار تسايو وين وانطلق. لم يمشِ قائد الجنود هذا سوى أربعين خطوة مبتعدا، حتى أشاح شوان ببصره عن الورقة وصاح قائلا: «توقف».

أكمل الجندي طريقه لكن ظهره الذي تصلب أظهر أنّه غاضب. عاد شوان ورفع صوته قائلا: «أنت مذكور في هذه الأوامر يا هونغ تسايو وين».

توقف جندي سونغ بصعوبة حينها، واحمرّ وجهه من الغضب، وعاد أدراجه. تجاهله شوان، وأكمل القراءة في حين وقف الرجل يتميّز غيظا.

قال شوان: «يبدو أنّ ابن عمي الإمبراطور ليس أحمق تماما». استهجن تسايو وين الإهانة لكنه لم يتحرك، أكمل شوان: «فقد ذكر أنّ هنالك مجموعة واحدة في أراضيه قد واجهت المغول واستطاعت إيقافهم، وها أنت ذا ترى هؤلاء الرجال أمامك، يا تسايو وين». من حسن حظه، فإنّ الصفوف الأولى أصدرت صوت استعداد عندما سمعت ما قاله، ثم قال: «تفيد الأوامر في هذه الورقة أنّني يجب أن أستلم دروعا ومدربين لجعل رجالي مستعدين مرة أخرى من أجل الحرب، فأين هم المدربون وأين هي الدروع؟».

قال تسايو وين مكشرا بغضب: «إن المدربين في طريقهم إلى هنا ومعهم الدروع، لكن أين ذُكر اسمي؟».

قال شوان: «هنا»، وأراه الورقة المليئة بأشكال صغيرة سوداء. لقد فوجئ بأنّ قائد الجنود هذا بإمكانه أن يقرأ، فالأمور تغيرت عمّا عهدها سابقا.

قال تسايو وين وهو ينظر إلى الورقة باحثا: «إنّني لا أراه».

أجابه شوان: «هناك، في المكان الذي تقول فيه الأوامر إن بإمكاني أن أختار قادة من جنود سونغ للمساعدة في تأمين المؤن والتدريبات. لذلك أختارك يا تسايو وين، فأنا أستمتع جدا برفقتك ولا يمكنني أن أدعك تذهب».

أجاب تسايو وين: «لا يمكنك ذلك». ووضع يده مرة أخرى على مقبض سيفه، ولكن ما لبث أن أخفضها عندما زمجر الرجال الذين يحيطون به بقوة.

قال شوان: «إمبراطورك قال إن بإمكاني القيام بذلك يا تسايو وين، فاختر إمّا أن تمتثل لأوامره وإما أن تشنق، ولا يعنيني أيّ منهما تختار. لقد قال الإمبراطور إننا سنسير مرة أخرى إلى الحرب، ربما سندمر وربما سنحظى بالنصر، وأعتقد أن تحديد أيهما سيحل بنا مرتبط بمقدار تغذيتنا وقدرتنا على تقوية أجسادنا، فهل اتخذت قرارك يا هونغ تسايو وين؟».

قال الرجل، المستعد للموت كما بدا من عينيه: «سأمتثل لأوامر إمبراطوري».

فقال شوان: «أنت رجل حكيم لتظهر مثل هذه الطاعة وذلك التواضع، وستكون مثالا لنا جميعا. أما الآن فالرسالة تشير إلى وجود موارد كافية ووفيرة، لذلك أرسل رجالا إلى المدينة لإحضار الطعام، فرجالي جائعون، وأرسل الأطباء ليداووا المرضى والضعفاء، ووظفْ بعض الخدم لتنظيف الثكنات وعمالا لتجديدها، وجِد بعض عمال البناء لإصلاح الأسقف المدمَّرة، ونجارين لإعادة بناء الحظائر، إضافة إلى جزارين لملء القبو باللحوم. ستكون مشغولا يا تسايو وين، لكن لا تيئس، فإنّ أعمالك تفيد آخر جيش لإمبراطورية تشن ولا يوجد هدف أسمى من هذا».

اتجهت نظرات تسايو وين إلى الأوراق التي حملها شوان بيديه، فمهما يكن مقدار الإذلال وعدم الإنصاف اللذين حلا به، فهو لن يجرؤ على الرفض، إذ إن كلمة واحدة من قادته الأعلى رتبة منه عن عدم امتثاله لأوامر قانونية ستقضي عليه. أحنى تسايو وين رأسه بصعوبة كما لو اضطر لكسر عظامه كي يقوم بهذه الحركة، ثم استدار وسار مبتعدا.

استدار شوان ليقابل الابتسامات التي كان يعلوها الشك وقد ارتسمت على وجوه رجاله. ولم يكن بإمكان ابنه سوى أن يشاهد ويومئ برأسه من الدهشة.

قال شوان: «لم يتوقع أحد مثل هذه النهاية لهذا اليوم، سنصبح أقوياء في غضون أشهر، سنأكل بشكل جيد، ونتدرب بالسيوف والرماح والسهام مرة أخرى، سيكون الأمر صعبا، فنحن لم نعد شبابا مثلما كنا. وعندما نصبح مستعدين، سنغادر هذا المكان للمرة الأخيرة، فلا فرق إن نحن ذهبنا لمواجهة المغول، أو ذهبنا إلى الجحيم، لكن ما يهم هو أن نغادر هذا المكان».

خشن صوته عندما قال كلماته الأخيرة، ثم صاح الرجال مشجعين له، علت أصواتهم أكثر وأكثر إلى أن وصلت إلى كل شبر في الثكنات، بل إلى ما بعد ذلك.

في خيمة العلاج الخاصة بالمعسكر، جلس كوبلاي بصمت في الوقت الذي كان فيه معالج متمرس يضمد جروحه، بدت حركة يد المعالج المتمرس سريعة، وكأنها تعمل بطريقة فطرية. تلوى كوبلاي من الألم عندما ربط المعالج الرباط، ثم انحنى بسرعة قبل أن يخرج.

كان القائد بايار على بعد سريرين من كوبلاي، مبديا عدم مبالاة في الوقت الذي كان فيه أحد المعالجين يخيط جرحا في قدمه تقطر منه قطرات حمراء قانية، اقترب ياو تشو حاملا حزمة من الأوراق احتوت أخبارا عاجلة.

فجأة طرح كوبلاي سؤالا على بايار: «أين هي مدافع سونغ؟». فهو لم يكن يرغب في أن يعرف أعداد الجرحى والقتلى التي حملها ياو تشو، على الأقل ليس في تلك اللحظة وهو لا يزال يحاول التعافي من قتاله على التل، الذي ترك رعشة في أعماقه استمرت لفترة أطول مما يمكنه أن يصفه بصراع ذاتي سريع.

وقف بايار ليجيبه، وقد ثنى ساقه ببطء وقال: «لقد وجدناها على بعد ميل أو نحو ذلك، وهي تُنقل الآن يا سيدي، ويقوم رجالي بتفحصها».

فسأله كوبلاي: «كم عددها؟».

أجاب بايار: «أربعون فحسب، لكن وجدنا ما يكفي من البارود والكرات لنطلق أكثر من عشرة مقذوفات من كل واحدة منها».

قال كوبلاي: «إذن دع مدافعنا، وامسحها بالزيت، وغطّها بكتان مبلل بالزيت، لكن دعها في مكانها حتى ننال قسطا من الراحة، ونصنع مزيدا من المقذوفات والبارود».

نظر بايار إليه بقلق، فقد وصلتهما أخبار تفيد بأنّ هنالك جيشين يقتربان من المنطقة، يسيران بسرعة ليدعما الجيوش التي هُزمت سابقا. كان أملهم الوحيد الانطلاق إلى أول جيش وتدميره قبل أن يضطروا للقتال في معركة على جبهتين.

سأل كوبلاي: «هل استعدت السهام؟».

ترنح بايار عندما وقف، فقد بدا منهكا تماما، شاهد كوبلاي ما بذله من جهد كي يجيب، الأمر الذي جعله يتأوه قائلا: «لديّ قرابة الألف رجل في الميدان يجمعون كل ما يمكن إعادة استخدامه من بين الموتى، اعتقد أنّنا سنسترجع نصفها. وسأرسل المزيد إلى المعسكر ليتم إصلاحها، وسنستعيدها ما إن تُصلح».

قال كوبلاي: «أرسلها مع الرجال الجرحى الذين لم يعد بإمكانهم القتال. وتحقق من المخازن هناك. فإنني أحتاج من العمال أن يعملوا ليلا ونهارا. ليس بإمكاننا الهرب».

شد قبضة يده ونظر إلى ياو تشو الذي انتظر بصبر وقال: «حسنا، كم خسرنا من الرجال؟».

أجابه ياو تشو: «تسعة آلاف وبضع مئات من الرجال؛ ستة آلاف قتيل في حين أصيب الباقون بجراح تحول دون إمكانية معاودتهم القتال، يقول المعالجون إن كثيرين منهم سيموتون بحلول الغد، وسيموت آخرون الأسبوع القادم على أبعد تقدير».

ما إن سمع بايار بأرقام الخسائر حتى أخذ يشتم، أما كوبلاي فأخذ يرتعش، وتسارعت ضربات قلبه من هول الصدمة، وشعر بقواه وقد خارت، فهو مصدوم ومتألم ومتعب، وهو الذي يعلم أنه سيخوض قتالا جديدا مع جنود جدد، وأملَ أن يكون جنود سونغ قد تعبوا بفعل المسير الطويل والسريع.

قال كوبلاي: «أخبر الرجال أن يأكلوا ويستريحوا قدر الإمكان. فإنّني أحتاج إلى أن يكونوا جاهزين عند الفجر، ومستعدين لكل ما قد يواجهنا. وأرسل أويانغ خاداي إليّ».

قال ياو تشو: «لكن يا سيدي، أنت مصاب ويجب أن تستريح».

أجابه كوبلاي: «سأستريح بعد أن أتأكد من أنّ الكشافة قد انطلقوا جميعا إلى أماكنهم، وأنّ الجرحى قد نُقلوا إلى المخيم الرئيسي. سيكون الغد يوما شاقا».

زمّ بايار شفته، ثم قرر أن يتكلم مرة أخرى قائلا:

«يجب أن تستعد من أجل الغد يا سيدي. بإمكاني أنا وأويانغ خاداي أن نتحقق من كل شيء، أرجوك استرح».

حدّق كوبلاي إليه، بالرغم من أنّ جسده منهك وقدميه متعبتان وغير قادرتين على حمله، إلا أنه لم يستطع حتى أن يتخيل النوم. فهنالك الكثير مما يجب القيام به.

وعده كوبلاي: «سأحاول، لكن بعد أن أتكلم إلى قائد الجيش».

فقال بايار: «حسنا يا سيدي».

أتى أحد الكشافة إلى المخيم يبحث بين المصابين والذين يعتنون بهم. أول من رآه هو كوبلاي فهبط قلبه من مكانه، شاهد الرجل بطرف عينه يسأل أحد الرجال الذي أشار باتجاه كوبلاي. عندما وصل الكشاف إليه صاح به كوبلاي:

«ماذا هناك؟».

أجابه الرجل: «هنالك جيش ثالث يا سيدي، قادم من الشرق».

فسأل كوبلاي: «هل أنت متأكد من أنّه ليس الجيش نفسه الذي سبق أن أُخبرت عنه؟».

شحب وجه الرجل عندما رأى كوبلاي غاضبا وحاول أن يتمالك نفسه، قال: «لا يا سيدي، لقد تم تمييزه، فهذا جيش جديد، تعداده يقارب الستين ألفا».

همس بايار بجانب كوبلاي: «عش الدبابير». فأومأ له.

أراد كوبلاي أن ينطلق على الفور، لكن أويانغ خاداي أتاه وهو يتناول وعاء من الحساء البارد ويحاول مضغه، لمعت عيناه عند رؤيته.

عندما وقف أمام كوبلاي، بدت ملامح وجه قائد الجيش مختلفة عن العادة، فقد نجوا من ثلاث معارك كبيرة خلال أقل من أسبوع، وكان أعداؤهم يفوقونهم عددا في كل مرة، لكنّ كوبلاي دائما ما كان هناك، يصدر أوامره بهدوء وحكمة، يساند أية جبهة تسقط، ويرسل التعزيزات في الوقت المناسب. رأى قائد الجيش التعبَ الذي بدا على أخي الخان، وكيف أنّه لم ينكسر رغم الإجهاد، على الأقل حتى الآن، فقال: «سيدي، إنّ الجيش الثالث أصغر، ولن يصل قبل الغد أو بعد

غد. فإن انطلقنا باتجاههم الآن، فإنه بإمكاننا أن نستريح قبل المعركة. وسيكون الرجال أكثر نشاطا، وإن اضطررنا أن نقاتل مرتين غدا، فستكون لديهم فرصة أكبر لينجوا من هذا القتال».

بدا التوتر على أويانغ خاداي وهو ينتظر الإجابة، فقد اعتاد أن يتجاهل الخانُ الشاب نصائحه، لكن بسبب حسّ المسؤولية لديه استمر في إعطاء النصائح، وقد كان مستعدا للرفض.

قال كوبلاي مفاجئا إياه: «حسنا، سنسير نحو الشرق، وسننسحب من مواجهة القوات الضخمة».

«أجل يا سيدي». هذا ما قاله أويانغ خاداي، متلعثما بإجابته التي لم تبدُ كافية بالنسبة إليه فأتبعها بقوله: «شكرا لك».

وضع كوبلاي الوعاء الفارغ جانبا، ومسح وجهه بكلتا يديه. يبدو أنه لم يكن مدركا للتوقيت، فهو لم يستطع أن يتذكر متى غفا للمرة الأخيرة، وشعر بالدوار والمرض.

«من الممكن أنني لا أستمع دائما يا قائد الجيش. لكنك تملك خبرة أكثر مني. وأنا لا أنسى ذلك، إضافة إلى أنّنا سننقل المخيم الرئيسي بعيدا عن مداهم. أنا بحاجة إلى مكان آمن لهم، غابة أو واد بإمكانهم الاستراحة فيه، علينا متابعة المسير، وبذلك لن يستطيعوا أن يتبعوا خطانا».

دمدم أويانغ خاداي مستجيبا، واسترخى قليلا بشكل كاف لينحني. أراد أن يقول شيئا ليرفع معنويات الشاب الذي جلس ممددا ساقيه، ولم يجد لديه العزيمة للتحرك، ولكن شيئا لم يخطر في ذهنه، فانحنى مرة أخرى، قبل أن ينصرف.

رأى بايار ما حصل، وأخذ يتحرك جيئة وذهابا، بدأ يدمدم وهو يرى أويانغ خاداي يوزع الأوامر الجديدة وقال: «إنّه معجب بك، هل تعلم ذلك؟».

أجابه كوبلاي من دون تفكير: «إنّه يعتقد أنّني أحمق». ثم زمّ شفتيه بانفعال. لقد صعّب عليه التعب أن يبقي فمه مغلقا، ولكن القيادة تحتاج إليه ألا يظهر الضعف، لا أن يقول ما يجول في خاطره.

أجابه بايار: «لا، إنّه لا يعتقد ذلك». وأومأ وهو يتابعُ إصدار أويانغ خاداي للأوامر.

أكمل: «هل رأيته هذا الصباح عندما اجتاح جنود سونغ أجنحة الجيش؟ لم يذعر، تراجع فقط، وأعاد تشكيل الصفوف، وثبت في مكانه، لقد كان عملا جيدا».

تمنى كوبلاي أن يتوقف بايار عن الكلام، فآخر ما يريده هو أن يدع أحد قادته يتكلم عن الآخر.

فقال بايار: «أويانغ خاداي ليس بالقائد العادي».

عندها أغمض كوبلاي عينيه، وأخذ يرى ومضات من الضوء الأخضر عبر الظلام.

أكمل بايار كلامه: «إنّ الرجال يحترمونه، فقد لاحظوا كفاءته. صحيح أنّهم لا يبجلونه، لكنهم يعلمون أنّه لن يضحي بهم بثمن بخس، وهذا يعني الكثير بالنسبة إلى الرجال».

فقال كوبلاي: «هذا يكفي أيها القائد، إنّه رجل جيد وأنت أيضا، كلنا جيدون. أما الآن فامتطِ حصانك، وحرّك الفيالق عشرين ميلا لنعترض طريق جنود سونغ».

ضحك بايار في سره على النبرة التي تكلم بها، ولكنه ركض باتجاه حصانه، وامتطاه معطيا الأوامر قبل أن يتمكن كوبلاي من فتح عينيه مرة أخرى.

منذ أن أصبح مونغ خانا، ازداد عدد أفراد أمته أكثر مما تخيل، وأكثر مما توقع جنكيز. فقد استفاد أخوه آريك بوك من السلام فازدهرت سهول أرضهم الأم، وهذا ما انعكس على عدد الولادات، وأيضا أصبحت كاراكورم مدينة مستقرة، وازداد تعداد سكانها، وأُنشئت خارج أسوارها مناطق جديدة من الحجارة والخشب، وبذلك أصبحت المدينة الرئيسة مخفية الأنظار. كانت التربة خصبة، وشجّع مونغ العائلات على زيادة الولادات، فهو يعلم أن الأولاد سيكبرون وسيصبحون جنودا يزيدون من عدد جيوشه. عندما غادر المدينة في الربيع، حرّك معه ثمانية وعشرين فيلقا في كل منها عشرة آلاف مقاتل، أي ما يزيد على ربع مليون رجل يتحركون بسرعة وخفة. لم يأخذوا أية مدافع، بل الحد الأدنى فقط من المؤن. فمع فرسان مثل هؤلاء، استطاع جنكيز وتسوبوداي أن يجتاحا قارات، وقد استعد مونغ لفعل المثل.

لقد حاول أن يكون خانا متحضرا، وأن يكمل العمل الذي بدأه أوكتاي، وينشئ حضارة مستقرة في المناطق الشاسعة لإمبراطوريته، وكافح لسنوات الرغبة التي اجتاحته في أن يكون في الميدان وأن يقود الجنود ويغزو. كل غريزة فيه كانت تبعد أفكاره عن الحكم السخيف للمدن، لكنّه تخلّص من كل شكوكه، وأجبر نفسه على الحكم في حين انطلق قادة جيشه وأمراؤه وإخوته في طرق جديدة للغزو. لقد انتصرت الإمبراطورية المغولية بسرعة، وذلك خلال ثلاثة أجيال فقط. لم

يستطع التخلص من الشعور الذي اعتراه بأنّهم يمكن أن يفقدوا كل هذا بشكل أسرع مما كسبوه ما لم يضع قوانين تستمر طويلا، لذا أسس الطرق التجارية ومراكز يام وعززها؛ تلك الخطوط في مختلف مناطق البلاد التي ربطت الرجال ببعضهم، وبذلك علم أفقر مزارع أو راع تابع له بأنّ هنالك خانا يحكمه.

ارتأى مونغ أن تكون لكل منطقة كبيرة حكومة خاصة بها ترسل تقارير بأحوال المنطقة له، وبذلك سيستطيع مَن يعاني أن يرسل شكواه الخاصة.

اعتقد مونغ أن ما خططَ له سيصعب فهمه، ولكنه نجح بطريقة ما، وحيثما ظهر الفساد اقتلعه من جذوره، وعزل المسؤولين عنه من ذوي المناصب المرموقة، وعندما علم حكام المناطق أنهم سيخضعون لاستجواب سلطة أعلى منهم حاربوا الفساد، ولكنه لم يعرف إن كانوا قد أقدموا على ذلك بدافع الخوف أم الأمان، ومع ذلك لم يأبه لمعرفة الإجابة.

لقد استخدم مونغ دفق الضرائب لبناء المدارس، والطرق، والمدن الجديدة لأمته، بدل أن يكدس هذه الأموال في المستودعات. لقد كان السلام يحتاج إلى جهد أكثر من الحرب، وهذا ما اكتشفه مونغ في بداية حكمه.

فالسلام يسحب الرجال إلى القاع والكسل، أما الحرب فتعطيهم القوة وتُشعرهم بالحياة. في بعض الأحيان، اعتقد أنّ إخوته سيعودون إلى كاراكورم، وسيجدونه وقد أذبله الهم جرّاء المقدار الهائل من المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

عندما انطلق مونغ مع فيالقه، شعر بأنه يتخلص من ثقل سنين. كان من الصعب عليه ألا يفكر في رحلته مع تسوبوداي لمواجهة الفرسان المسيحيين، وكيف تمكنوا من سحق الجيوش الأجنبية التي رضخت لهم. كان تسوبوداي سيستغني عن أصابع من يديه مقابل الحصول على جيش مثل هذا الجيش الذي يقوده مونغ. وقتها كان مونغ شابا، ولكن العودة الآن إلى امتطاء صهوة حصانه، وقيادة هذه الصفوف التي تحيط به من كل حدب وصوب أعادت إليه شبابه. إن الجلوس في المدينة لوقت طويل ضيقَ من أفقه، لقد أراد رؤية مدينة شانغدو، وأراد أن يتأكد إن كان كوبلاي لا يزال يأتمر بأوامره. لم يتخيل يوما أن يدير كوبلاي له ظهره، ولكن لطالما كان كوبلاي يحب الاستقلال، إن هذه النوعية من الرجال يجب أن تعرف دائما أنها تحت المجهر، وبما أن مونغ لم يستطع التخلص من شكوكه، فقد أراد ردعه عن التصرف لفترة طويلة بمفرده.

كانت رسالة هولاكو إليه، والتي عليها ختمه الشخصي، الأمر المرير الوحيد خلال شهور التجهيز كلها. قال مونغ لنفسه إنّه لا يخاف القتلة المأجورين الذين أثروا بأخيه بسبب لا مبالاته، لكن ماذا عليه أن يفعل؟ فقد علم أنّ بإمكانه السيطرة على أعصابه في المعركة، وبإمكانه أن يؤدي المهمة ويواجه الرجال في حال تدهور الأمور من حوله، فشجاعته أمر لا جدال فيه. وعلى الرغم من ذلك فإنّ التفكير في قاتل مقنع يضع السكين حول عنقه في أثناء نومه جعله يرتجف. فإن كان هنالك قتلة مكرسون لقتله فبالتأكيد قد تركهم خلفه لسنة أو سنتين.

أتى آريك بويك إلى كاراكورم ليستلم إدارة البلاد في فترة غيابه، وتأكد مونغ من أنّ أخاه قد فهم تماما خطر القتلة، لكنّ أخاه الأصغر ضحك وهو يشير إلى الحراس والخدم الذين أمّنوا كل مكان في القصر والمدينة، إذ ليس بإمكان أحد أن يدخل خفية، وذلك ما خفف عن مونغ، فقد علم أنّ أخاه سيكون بأمان، وأنّ بإمكانه أن يترك المدينة وينطلق.

خلال أربعة عشر يوما فقط، وصلت فيالقه إلى مشارف شانغدو، التي تبعد أقل من مئتي ميل عن ينكينغ وأراضي تشن الشمالية، لم يكن متوسط أعمار نصف جيشه يتجاوز العشرين عاما، لذلك قطعوا هذه المسافة بسهولة في الوقت الذي عانى فيه مونغ من قلة رشاقته، لكنّ كبرياءه وحده هو ما جعله يستمر في طريقه رغم أنّ عضلاته كانت تتمزق من الألم. سرعان ما مضت الأيام الصعبة، وبدأ جسده يسترد سابق عهده بعد تسعة أو عشرة أيام من امتطاء حصانه.

هز مونغ رأسه بصمت وصدمة عندما رأى منظر المدينة الجديدة التي كانت تكبر في الأفق، لقد بنى أخوه شيئا ضخما، جعل من الخيال حقيقة.

وجد مونغ نفسه فخورا بكوبلاي، وتساءل عما قد طرأ عليه من تغييرات عندما يراه، ولم يستطع أن ينكر رضاه عما حققه أخوه. فقد أرسل كوبلاي في هذا العالم، ولم يكن راغبا في ترك كتبه المغبرة، علم مونغ أنّه من غير المرجح أن يكون كوبلاي ممتنا، لكن هذه هي الحال معه.

توقفوا في شانغدو لوقت طويل وكاف بالنسبة إلى مونغ حتى يتجول في أرجائها، وينهي أعماله المتعلقة بعشرات الرسائل التي أتته عن طريق يام مسبقا أو خلال مسيره.

تذمّر عندما اضطر للتعامل مع هذا الكم من الرسائل، ولكن ها قد وجد في النهاية بعض الأماكن التي بإمكانه أن يمتطي حصانه فيها دون أن يجده فرسان يام. لكن الخانات لم يهدؤوا لأن مونغ في الميدان، فقد وجد نفسه في أحد الأيام يعمل كما اعتاد أن يعمل في كاراكورم ويستمتع بالأمر كما اعتاد هناك.

جرّد مونغ شانغدو من الطعام والملح والشاي خلال الوقت القصير الذي قضاه هناك. سيعاني سكان المدينة الجوع لفترة من الزمن، لكنه لم يهتم، فالأولوية لسلامة جنوده، لم يستطع العديد من المحاربين أن يبحثوا عن الطعام في مسيرهم. وللمرة الأولى كما يتذكر، اضطر مونغ لأن يُبقي طريقا للمؤن مفتوحا خلفهم، لذلك دائما ما كانت هنالك مئات العربات تنطلق ببطء نحو الجنوب خلف جنوده. لقد تم تعبئة المؤن عندما توقف في شانغدو، ولكن عندما ترك المدينة انتشرت مرة أخرى، وانطلقت لآلاف الأميال بعيدا عن كاراكورم ومدن تشي الشمالية.

ابتسم مونغ عندما فكّر في مدى نفوذه، فالطعام سيلحق بهم إلى أي مكان يتوقفون فيه، وشكّ في أن يخاطر قطاع الطرق بمهاجمة قوافله مع انتشار كشافته في كل مكان حول القوافل.

قاد الفيالق نحو الجنوب مستمتعا بالمسافات التي بإمكانهم أن يقطعوها على نحو يفوق أي شخص آخر سرعة، باستثناء فرسان يام القادرين على تبديل أحصنتهم في كل محطة لهم. فالفيالق ستزحف إلى نهاية العالم من دون أي شكوى من أجل الخان العظيم. لقد تخلص بالفعل من الدهون التي التصقت بخصره وازدادت أيضا قدرته على التحمل، ما جعله يشعر بحال أفضل.

بينما كانت الرياح تعصف على طول طريق الفرسان في يوم خريفي بارد، اجتاز مونغ حدود سونغ الشمالية.

تبعد هانغتشو نحو خمسمئة ميل إلى الجنوب، ولكن هنالك ما لا يقل عن ثلاثمئة مدينة بين عاصمة الإمبراطور وفيالقه، كل واحدة محصنة أكثر من الأخرى.

ابتسم مونغ وقد امتطى حصانه مسرعا ومستمتعا باندفاع الهواء إلى وجهه. فقد أعطى كوبلاي مهمة بسيطة، لكن أخاه ما كان لينجح وحده. إلا أن الفيالق الثمانية والعشرين التي أحضرها مونغ ستكون بمثابة المطرقة التي ستحطم إمبراطور سونغ. فهو جيش أكبر من أي جيش زج به جنكيز في الميدان، وبينما انطلق في الطريق المغبر أحس مونغ أنّ سنواته في كاراكورم أصبحت من الماضي مما جعله يشعر بالانتعاش والحرية، إضافة إلى أنّ رسل يام أصبحوا خلفه للمرة الأولى، فهُم من دون مراكز الانطلاق الخاصة بهم ليسوا أسرع من رجاله. شعر للمرة الأولى منذ سنوات بالحرية، وفهمَ أخيرا حقيقة كلام جنكيز، لم تكن هنالك طريقة أفضل من هذه لتمضية الحياة.

26

جلس كل من بايار وكوبلاي مستندَين إلى جلمود الصخر الأبيض المائل إلى الرمادي، رآهما أويانغ خاداي، وبدت ملامح وجهه غير قابلة للتفسير. هنالك زوج من الصخور الضخمة يلوح في الأفق القريب، يوجد بينهما مأوى لا بد من أنّ الماشية هناك قد استخدمته في أوقات هطول المطر، فالأرض مغطاة بالروث لدرجة أن الأعشاب قد طُمرت تحتها، وأيضا كل من مشى هناك وجد حذاءه يصبح أثقل فأثقل.

غادرت الماشية، لكن رجال كوبلاي جمعوا ما يقارب الثمانين منها، وسيكون هنالك بعض اللحم الطازج لبعض الجنود المحظوظين، أما البقية فسيجب عليهم أن يكتفوا بما لديهم على أحصنتهم، إضافة إلى حليب الأفراس أو الجبن أو أي شيء لديهم.

كانت الأحصنة ترعى حولهم وتشخر وتصهل وهي تأكل العشب الذي نما بكثافة جعلت التقدم على هذه الهضاب بطيئا، لم يكن بإمكانهم الهرولة حتى على مثل هذا السطح غير المستوي، ووجب على الأحصنة أن تسير ببطء. ولذلك اجتاحهم القلق.

قال بايار: «بإمكاننا التراجع إلى موقعنا السابق، فلن يتوقعوا ذلك، إضافة إلى حاجتنا إلى تلك السهام».

أومأ أويانغ خاداي بقلق. فعلى الرغم من أنّه رافق تسوبوداي إلى الغرب، فهو لم يشهد معارك متتالية كالتي تواجههم الآن. لقد تجاهل أويانغ ذات مرة تقارير تتحدث عن مدن لامبراطورية سونغ تحشد ضدهم، لكن الحقيقة بدت في كل تفاصيلها بالسوء الذي نقلته التقارير.

نجت فيالق كوبلاي من البارود والضربات والسهام إضافة إلى أعداد العدو التي فاقتهم، والآن بالكاد يستطيع أويانغ خاداي أن يصدق أنّهم أُجبروا على التراجع، لكنّهم أُنهكوا بسبب كثرة الجيوش التي هزموها، في حين كان الجيش الذي على وشك ملاقاتهم جديدا وقويا. ولم تعد رماح

الجنود التي استُخدمت مرارا وتكرارا صالحة للاستخدام. انطلق كوبلاي بسرعة يبحث عن أرض مرتفعة بمواجهة الحشود الجديدة التي تتسابق لملاقاتهم.

سأل كوبلاي: «هل مازالوا هناك؟».

وقف بايار متأوها بسبب الألم في ساقيه، يتكئ على الصخرة الكبيرة. كان بإمكانه أن يرى في الأسفل حشود سونغ تسير في الساحات محاولة أن تشق طريقها عند سفح الجبل، وقال: «إنّهم يتقدمون نحونا»، أما كوبلاي فقد اتكأ مرة أخرى على الجلمود وشتم بالرغم من أنّ الأمر لم يكن أفضل مما توقع. أكمل بايار: «ليس بإمكاننا القتال على هذه الأرض، أنت تعلم ذلك؟».

أجابه كوبلاي: «أعلم، لكن بإمكاننا أن نسبقهم، سنجد طريقا للخروج من هذه التلال عندما تغيب الشمس، وننطلق بعيدا عنهم. لن يستطيعوا اللحاق بنا، على الأقل ليس اليوم».

قال أويانغ خاداي: «لا أحبّذ فكرة ترك المخيم الرئيسي من دون حماية طيلة هذه المدة، فإن وصل أحد هذه الجيوش إليهم فسوف يُذبحون جميعا».

انقبض فكّ كوبلاي غاضبا من أويانغ خاداي عندما ذكّره بذلك، وقال لنفسه مرة أخرى إن تشاباي وزين جين بسلام، إذ إنّ فرقة كشافته وجدت مكانا آمنا في غابة تمتد لمئات الأميال، ولا بد من أنّ العائلات ومن هم في المخيم قد توجهوا إلى أعمق نقطة في هذه الغابة، وابتعدوا عن الطريق قدر الإمكان. لكنّه علم أنّ كل ما يحتاجه الأمر هو رجل كشافة واحد يلاحظ دخان نار يشعلونها أو يسمع ثغاء القطعان، ومع ذلك فهم سيقاتلون بالطبع، فشجاعة تشاب وهدوءها جعلا قلبه يعتصر عندما تذكر ذلك، ووافق أويانغ خاداي بشأن ما سيحصل لهم إن وصل الأعداء إليهم.

هنالك صوت بداخله لا يقل خوفا على السهام الموجودة في المخازن هناك، فمن دون هذه السهام، سيبدو رجاله مثل الذئاب التي اقتلعت أنيابها.

قال كوبلاي بغضب: «جد لي طريقة لأهزم جنود سونغ هؤلاء، وأقضي عليهم، وسأعود إلى المخيم وأرى ماذا يحصل هناك. حتى ذلك الحين، سنبقى أمامهم، ونرجو ألا نكون في طريقنا إلى أيدي أحد قادة سونغ الآخرين الذين يبحثون عنا ليقضوا علينا».

أحصى كوبلاي الأعداد في رأسه، ثم زفر الهواء ببطء. لم يكن لديه أدنى شك بشأن نجاة كشافته في الخارج، لكن العودة إلى هنا محملين بحزمات من السهام في أيديهم، وأخرى على ظهورهم إضافة إلى مجموعة أخرى محملة على الأحصنة، أمر سيجعلهم غير قادرين على الدفاع

عن أنفسهم، وفريسة سهلة لأول مجموعة من فرسان سونغ قد ترصدهم. احتاج كوبلاي إلى أكثر من ألفي سهم، فهو بحاجة إلى نصف مليون على الأقل. وكانت أفضل المخازن التي تحتوي على السهام الخفيفة والرماح المصنوعة من أشجار البتولا موجودة في ميدان المعركة على بعد خمسين ميلا خلفهم، معزولة بشكل كامل عن الرطوبة ومخبأة، وهذا ما أثاره.

لطالما شعر بالفخر بسبب القدرة التنظيمية التي يتمتع بها، لكن جيوش سونغ لم تتوقف عن التدفق نحوه جيشا تلو الآخر، ولم تعط وقتا لاستراحة جنوده.

قال كوبلاي: «نحتاج إلى أن نجد مدينة أخرى، مدينة تحتوي على ثكنات ضخمة، لديهم ما نحتاج إليه. أين هي الخرائط؟».

أدخل بايار يده إلى جيب ردائه، وأخرج قطعة مبللة وقذرة من جلد الماعز، ذات لون أصفر غامق ومطوية عدة طيات، ولذلك ظهرت خطوط بيضاء عندما فتحها. كان هنالك العشرات من المدن على الخريطة، موضحة برسوم توضيحية نفّذها أحد الخطاطين الذين عفا عليهم الزمن.

أشار بايار إلى مدينة تقع خلف سلسلة الجبال التي التجأ إليها المحاربون المغول متعبين.

أشار إليها بإصبعه وقال: «شاويانغ». فقطر العرق منه عندما انحنى، وظهرت بقع على الخريطة، جعلت بايار يشتم ويمسح وجهه بكلتا يديه.

قال كوبلاي: «هذا واضح، يجب علينا أن ننطلق إلى هذه المدينة، ونتجاوز حاميتها، ونصل بطريقة ما إلى مخازن أسلحتها قبل أن يبلغنا الجيش الذي يتعقبنا، أو أن يقاوم السكان ويقضوا علينا». ثم ضحك بمرارة.

عندما اتكأ كوبلاي إلى الخلف قال أويانغ خاداي: «هنالك احتمال أن تكون الحامية هناك خارج المدينة حقا». قال ذلك بحزم وأكمل: «وفقا لما نعلمه، فربما سبق لنا أن هزمنا هذه الحامية في إحدى المعارك، ومن الممكن أنهم يبحثون عنا، مثلما يفعل كل جندي تابع لسونغ في المنطقة».

جلس كوبلاي باستعداد يحاول التفكير بالرغم من الإرهاق الذي يشعر به، وقال: «بإمكاننا أن نستدرجهم إلى الخارج إن كانوا في أماكنهم. فإن أرسلنا بعض الرجال إلى السوق هناك وبحوزتهم معلومات ليبيعوها، فمن المحتمل أن شائعات عن وجود جيش مغولي على بعد خمسين ميلا في الاتجاه الخاطئ ستُخرج الحامية من المدينة بالتأكيد. فنحن نعلم الآن أنّ هنالك أوامر لمهاجمتنا أينما وجدونا، ومن المحتمل ألا يبقوا في المدينة إن ألقينا لهم الطعم المناسب».

وافق أويانغ خاداي على كلامه مضيفا: «إن كانوا هناك بالأصل».

«لكن إن تجاهلوا هذه الأخبار، فسنخاطر بالانتظار لدخول مدينة معادية، مع وجود جيش آخر ينطلق مسرعا خلفنا محاولا اللحاق بنا». هذا ما أشار إليه بايار. وبدا متفاجئا بأنّه الرجل الذي يدعو إلى الحذر في حين بدا أويانغ خاداي مأخوذا بهذه الفكرة.

قال كوبلاي: «أنت تعلم أنني أتمنى أن أدخل إلى مخازنهم، لكن حتى وإن كانت حاميتهم في الخارج، فإنّ حاكم المدينة لن يدعنا ندخل ونأخذ ما نريد بهذه البساطة».

فقال أويانغ خاداي: «إنّ سكان شاويانغ لا يعلمون كيف تسير الحرب في الخارج، فإن أعطيتهم الفرصة فقد يستسلمون لك».

نظر كوبلاي باحثا عن أية إشارة للسخرية، لكنّ وجه أويانغ خاداي بدا كالصخر بلا أية تعابير، عندها ابتسم كوبلاي للحظة ووافقه قائلا: «من الممكن أن يوافقوا على الاستسلام، سأفكر في الأمر في طريقنا، تعال الآن، فإنّ الذين يتتبعوننا أصبحوا قريبين جدا. فما اقتراحك لنتجاوز العشرة أميال نحو القمة بسرعة وندع مسافة بيننا؟».

أصدر كل من سمع النقاش الذي جرى بعضَ الضجيج الناتج عن التململ بسبب ما ينتظرهم، لكنّهم أكملوا الطريق وترنحوا في أثناء سيرهم، ففي هذه الأرض الوعرة جدا هذا كل ما كان بإمكانهم فعله لإيقاف حشود سونغ التي كانت تسرع من الأسفل.

كره مونغ الحصار، فقد واجه المشاكل ذاتها التي واجهها جنكيز من قبل، بسبب غياب القوة الضاربة للمقاليع والمدافع. إذ إن المدن صُممت لإبقاء الجيوش المهاجمة مثل جيشه بعيدة عنها، لذلك وللمرة الأولى لم تكن هدفه الرئيسي. في مكان ما نحو الجنوب، كان كوبلاي يشتبك مع جيوش سونغ. أراد مونغ أن يحطم أسوار المدن التي تجاوزها، لكنّ هدفه الأساسي كان الوصول إلى كوبلاي، فقد ناسبه تماما أن تغلق المدن أبوابها في وجهه، مما ضمن بقاء حامياتها بأمان فيها. مشكلته الوحيدة هي خطوط الإمداد التي تصبح غير محمية بشكل أكبر كلما توغلوا ميلا إضافيا نحو الجنوب، فالمدن التي اختبأت من جيش يتجاوز تعداده النصف مليون مقاتل لن تمانع مهاجمة قافلة طويلة من العربات، يحميها عدة آلاف من الجنود. عندما انقطعت خطوط الإمداد خلفه اضطر لأن يقلص حصص الطعام، وأرسل كشافته مئات الأميال ليخبروه عن القطعان التي بإمكانه أن يغتنمها،

فهي المورد الوحيد الذي ليس بإمكان مدن سونغ أن تحميها خلف الأسوار. عثر مونغ عندما دخل منطقة غنية بالمراعي على العديد من قطعان الماشية الأمر الذي جعله بغنى عن خطوط إمداده، لعدة أيام، تناول رجاله الطعام من لحم البقر المشوي الطري واستعادوا الوزن الذي فقدوه خلاله رحلتهم الصعبة.

بدت المشاكل التي ظهرت في مخيمه مماثلة للمشاكل التي تعامل معها مونغ في كاراكورم، لكنه شعر بالرضى بشكل أكبر جراء العواقب البسيطة التي واجهته وتجاوزها.

بينما تقدم، لاحظ مونغ المدن التي سيعود إليها عندما ينتهي من اكتساح الأراضي الجنوبية مع كوبلاي. إنه يتشوق لرؤية أخيه أكثر وأكثر، يتخيل تعابير وجه كوبلاي عندما سيرى الحشود التي أحضرها معه لدعمه.

بدت البلدات فريسة أسهل من المدن الضخمة، فبإمكان رجال مونغ أن يقطعوا الأشجار ويتخلصوا من الأغصان خلال صباح واحد، ويستخدموها بمثابة سلالم لتسلق الأسوار المتوسطة الارتفاع. بالرغم من ذلك، فقد ترك مونغ العديد من البلدات تنجو حين تجاوزها رجاله في طريقهم، ففي النهاية لن تتحرك من مكانها حتى يعود.

مضى أكثر من شهر منذ دخوله أراضي سونغ عندما أخبره كشافته عن وجود جيش ضخم لسونغ يسير نحو الشمال رافعين الرايات. انتشرت الأخبار بين الجنود بمجرد أن علم مونغ بالخبر، لذلك كانوا مستعدين للانطلاق عندما أسرع باتجاه حصانه، فما من قوة تستطيع أن تجاريهم، إضافة إلى أنّ محاربيه كانوا متلهفين للقتال.

تبعت فيالقه الثمانية والعشرون الكشافةَ بأقصى سرعة، ولمحوا العدو في مساء اليوم الثالث من انطلاقهم. بدا مونغ سعيدا عندما رأى أنّ أعداد العدو لا تتجاوز نصف عدد جيشه، وللمرة الأولى لم يكن يجب على قادة جيشه أن يخططوا لمجابهة جيش قد فاقوه عددا. لطالما كانت هذه خطته؛ وذلك بإحضار جيش إلى أراضي سونغ أكبر من أي جيش قد أحضره أحد من قبل، فقد نجت إمبراطورية سونغ من جنكيز وأوكتاي وغويوك. ولكنها لن تنجو هذه المرة.

عندما حل المساء، وضع جنود المغول أحصنتهم الإضافية خلفهم. فإن هاجم العدو في الظلام، فمن الغالب أن تفزع الحيوانات وتفر، أو أنّها ستكون عقبة في طريق الهجوم المباغت.

تناولوا قطع اللحم المجفف، ومضغوها بشدة إلى جانب القمارص أو الماء أو كل ما استطاعوا أن يحصلوا عليه. ربط الجنود اللجامات حول أحذيتهم، واستلقوا على العشب الرطب كي يناموا. فقد علموا جميعا أنّه سيجب عليهم أن يتجهزوا قبل الفجر لأنهم سيقاتلون عند مطلع النهار.

عندما استقر المخيم نصب خدمُ مونغ خيمة له، وبينما أخرجوا السواري واللباد كي ينصبوا الخيمة تحت ضوء القمر، ذهب مونغ إلى الخارج، ووضع غطاء خفيفا على الأرض وجلس عليه، سحب رداء ووضعه عليه كي يبقيه دافئا. رأى أنفاسه على شكل بخار، وهذا ما هدأ من روعه، وترك هموم اليوم وراء ظهره. تحت السماء الصافية المليئة بالنجوم اغتنم مونغ هذا المنظر ليرفع صلاته إلى أب السماء، ودعا أن تجري المعركة بشكل جيد، وأن يكون كوبلاي سليما، ولم ينس أن يصلي لتزدهر الأمة، فحتى في لحظاته الخاصة فكّر في إمبراطوريته.

لم يرغب في الدخول إلى الخيمة التي جهزوها له، فهو لم يكن يشعر بالنعاس بعد، بل على العكس شعر بالقوة والسكينة. تجمد الندى على العشب، لذلك أصبح بإمكانه أن يسمع كل خطوة -ولو كانت صغيرة- يخطوها حراسه وهم يتناوبون على حراسته، فقد أحيط بأناسه، بإمكانه أن يسمعهم يشخرون ويتحدثون خلال نومهم ويدمدمون إلى أنفسهم.

تمدد على البطانية وهو يضحك، وقرر أن يقضي الليل تحت النجوم شأنه شأن سائر الجنود.

استيقظ بهدوء ورأسه مخبأ تحت ذراعه، وبدا عليه أنه تصلب من البرد، لأنه بالكاد استطاع أن يتحرك، أحس بعنقه يؤلمه لذلك جلس وأخذ يدعكه.

تحرك شبح بالقرب منه، فاندفعت يده اليمنى بسرعة إلى سيفه، وقبل أن يخرج نصفه من غمده، اكتشف أن الشبح يعود إلى أحد رجاله الذي جلب له إبريقا من الشاي، وجد صعوبة في الابتسام، بعد أن تنبهت أعصابه وتوترت.

ها هي ذا الحياة تعود إلى المخيم حوله، بالرغم من أنّه لا يزال هنالك وقت على بزوغ الفجر. شربت الأحصنة من أوعية الماء التي حملت لأجلها، بالرغم من أنّه ربما تكون قد ارتوت من الندى المتجمد.

عمت الحركة شتى أرجاء المكان، ارتشف مونغ الشاي، وزادت تطلعاته، فهو لن يُبقي على أحد حيا من قوات سونغ التي تسير أمام قواته، على الرغم من أنّه أمر مغرٍ أن يترك بعضهم ينجون لينشر الرعب، ويخبروا عما رأوا، ولكنه احتاج إلى كل السرعة لينهي المعركة، فقد كانت مهمته

تقتضي بأن يدفع بالرجال والأحصنة لأقصى حدودهم كي يقضي على القوات وينطلق برحلته السريعة جنوبا إلى أن يصل إلى مشارف هانغتشو، حينها لن يكون لدى جنود سونغ الوقت الكافي ليتحصنوا ويتجهزوا لملاقاته. جهز كوبلاي المدافع، ما يقارب المئتي مدفع مصنوع من الحديد الصلب، بإمكان مونغ أن يستخدم هذه الأسلحة ليدمر مدينة الإمبراطور.

وقف مونغ على قدميه، وتمطط مستغربا من السبب الذي دفعه كي ينام على العشب المتجمد في الخارج. مازال هنالك بعض الجليد على شعره، فأزاله بيده وأنهى شُرب شايه، أحسّ بالملوحة والسخونة التي أصابت معدته الفارغة، وتنهد عندما خطر على باله أن يتناول اللحم البارد لينهي به صيامه هذا.

جهّز خدمه حصانه، فقد أُطعم وأُشرب ونُظف سرجه، ذهب مونغ باتجاهه ليعاين حوافره وهي عادة قديمة له.

امتطى بعض الرجل أحصنتهم وانتظروا، يجلسون بشكل مستقيم على صهوة أحصنتهم ويتكلمون مع أصدقائهم. أخذ مونغ قطعة خبز قديمة مع لحم بارد إضافة إلى كوب من القمارص ليبلل به حلقه.

«هل ترغب في أن نراجع التكتيك يا سيدي الخان، أم يجب علينا أن نتوجه إليهم فقط؟». هذا ما قاله قائد جيشه سيريانك مبتسما. فضحك مونغ، ونظر إلى السماء الصافية وتنفس بعمق وقال: «سيكون صباحا جيدا يا سيريانك، أخبرني ماذا يدور في ذهنك؟».

مستفيدا من كونه القائد الأعلى رتبة، أجاب سيريانك بلا تردد، فهو معتاد منذ زمن طويل أن يتخذ القرارات، وقال: «سنهاجم خاصرة جيشهم، فلا أريد أن أحاصرهم وأجعلهم يحاولون التغلغل. بعد إذنك سأطوقهم على شكل مربع من ثلاثة جوانب وأجاري خطاهم. وعندما يحاول فرسان سونغ كسر الطوق سنهاجمهم في البداية بالرماح. أما بالنسبة إلى المشاة فبإمكاننا مهاجمتهم من الخلف، ونشق طريقنا إلى المقدمة.

أومأ مونغ وقال: «إنّ ذلك أمر مُجدٍ، استخدموا السهام أولا قبل أن يشتبك الجيشان، ودع الشباب المتحمسين في الخلف حتى يتقهقر العدو. فليس هناك كثير من الأعداء، ويجب أن ننهي هذه المعركة قبل الظهيرة».

ابتسم سيريانك لما سمعه، فمنذ مدة ليست ببعيدة كانت قوة تتكون من مئة ألف مقاتل تحملهم على معركة دامية لا تنتهي قبل أن يبيدوها عن بكرة أبيها، فالجيش المغولي الذي قاده مونغ لم يُر له مثيل من قبل، واستمتع كل القادة الكبار بهذه القوة التي تسير خلفهم.

سمع مونغ صوت أجراس سرج من مكان قريب، فشتم. فها هو ذا أحد رجال يام قد لحق به. من دون وجود محطات توقفٍ ليبدل حصانه، فلا شك في أنّه قد انطلق متعبا على حصانه ليوصل رسالته فحسب.

دمدم مونغ بعصبية: «ألا يستطيعون تركي وشأني؟».

سمعه سيريانك وقال: «بإمكان فارس يام أن ينتظرك في الخلف حتى تنتهي المعركة».

هز مونغ رأسه وقال: «لا، فالخان يجب ألا ينام، أليس هذا ما يقولونه؟ أعلم أنّني أنام، لذلك هذا لغز بالنسبة إليّ، فلتنظم الصفوف يا قائد الجيش. إنّ القيادة لك الآن».

انحنى سيريانك بشدة وانصرف، بدأ في الحال بتوزيع الأوامر على مساعديه الذين سينقلونها إلى جميع الجنود.

بدا أن فارس يام عانى بشدة من وعثاء السفر.

عندما ترجّل عن حصانه ظهرت بعض الملامح من بين الطين الذي غطاه. وقد حمل حقيبة جلدية صغيرة معلقة على كتفه وكان هزيلا جدا، تساءل مونغ متى تناول الرجل الطعام للمرة الأخيرة، إذ لم تكن هنالك محطات يام لتساعده على الاستمرار بالتنقل في أراضي سونغ، ولم يكن هنالك أي شيء تقريبا أو ربما القليل فقط ليقتات عليه خلف فيالقه، وهذا شيء مؤكد.

اقترب اثنان من حراس الخان نحو الفارس، الذي بدا متفاجئا، لكنّه وقف بانتصاب ورفع يديه تاركا راحة كفه ظاهرة في حين فتّشه الحارسان بعناية، وفتشا الحقيبة الجلدية التي كانت مفتوحة، بعدها سلما مجموعة الأوراق الصفراء إلى الفارس قبل أن تلقى الحقيبة أرضا، راقب مونغ بصمت هذا المشهد، مستمتعا بالتأكيد. في النهاية، أنهى الحارسان عملهما وانطلقا ليلحقا بالبقية. انتظر مونغ بصبر ويده ممدودة ليتلقى الرسائل.

بدا فارس يام هذا أكبر من بقية فرسان يام الذين رآهم فربما قد اقترب من نهاية مهنته.

بالتأكيد بدا متعبا جراء رحلته الطويلة والشاقة.

أخذ مونغ حزمة الأوراق منه وبدأ يقرأ، قطب حاجبيه من الحيرة، وقال: «هذه قوائم المخزونات في شانغدو، هل أحضرت الحزمة الخطأ؟».

اقترب منه فارس يام، ينظر إلى الأوراق ووصل إليها. لم يلحظ مونغ الشفرة الرفيعة التي أبقاها هذا الرجل مخفية بين أصابعه. إذ لم تكن أعرض من إصبعه نفسه، إلى أن لمع طرفها عندما نحر الرجل عنق مونغ بحدة، ذهابا وإيابا مما أدى إلى فتح اللحم وكأنها قطب فتقت نتيجة الضغط، واندفعت الدماء من فمه ملطخة الرجل.

اختنق مونغ ورفع يده اليمنى إلى الجرح، ودفع الرجل بعيدا بيده اليسرى، فسقط أرضا وتدحرج. تعالت أصوات الرعب والغضب، ورمى أحد الجنود نفسه عن صهوة حصانه على مهاجم الخان الذي حاول أن يقف مرة أخرى فبطحه على الأرض.

أحس مونغ بأن الدفء يتسلل إلى خارجه، ولحمه مثل الحجر. وقف لكنّ قدميه تسمرتا فركع على الأرض. لم تستطع أصابعه أن تبقي الجرح مغلقا، وبدا الإحباط في عينيه.

كان الرجال يصرخون في كل مكان، ويتجولون في كل مكان وينادون سيريانك والطبيب المعالج.

تمكن مونغ من رؤية أفواههم المفتوحة، لكنه لم يستطع سماع أصواتهم، فقد ملأت أذنيه أصواتُ قرع الطبول وهدير يشبه صوت الماء. جلس ليريح نفسه وأخذ يئن، أحسّ بأحدهم يلفه بقطعة من الثياب حول عنقه ويده، ويضغط بشدة على الجرح لدرجة أنّه لم يعد قادرا على التنفس، حاول أن يقاوم لكنّ قواه خارت، وبدأت رؤيته تنعدم وهو غير مصدق لما حدث. فعلى أحدهم أن يوقف ذلك، يجب على أحدهم مساعدته. شحب لونه بعد أن نزف كثيرا من الدم، فانهار على جانبه مغمضا عينيه.

وقف سيريانك أمامه، وقد جحظت عيناه من الصدمة، فقد كان يتكلم مع الخان منذ لحظات.

استدار سيريانك ببطء ليرى فارس يام، وقد تحطم وجهه من اللكمات في الوقت الذي كان فيه مونغ يفارق الحياة، كُسرت أسنان الفارس وأنفه، حتى إن أحد الرجال اقتلع إحدى عينيه، وبالرغم من كل ما أصابه كان ينظر إلى سيريانك ويضحك، ويقول كلاما بلغة لم يفهمها القائد، لكنّ كلامه غير المفهوم بدا كخطاب نصر. بدت وجنتاه شاحبتين تحت الأوساخ، هذا ما رآه سيريانك، كما لو أنّه قد حلق لحيته مما أظهر جلدا بقي مخفيا عن الشمس لفترة طويلة. كان القاتل يضحك

عندما ربطه سيريانك كي يعذبه. نسي سيريانك أمر جيش سونغ، وطلب أن يجهزوا له المباخر والأدوات الحديدية. لقد فهم المغول كلا من العذاب والعقاب، وسيبقونه على قيد الحياة بقدر ما يستطيعون.

27

تابع كوبلاي الطريق بنظره وقد أسرع متجها إلى شاويانغ. كانت المدينة في عمق أرض سونغ ووجد أنها لم تتعرض للهجوم منذ عقود، فبدلا من أن يكون لها سور متين، امتدت المدينة على مساحة واسعة، وتكونت من مركز رئيسي محاط بالعديد من البلدات الأصغر التي تلاقت ببعضها عبر السنين. حجمها الكبير جعل من شانغدو تبدو بمثابة بلدة تابعة لمقاطعة حتى إنّ كاراكورم قد تختفي فيها، حاول تقدير عدد السكان الذين يعيشون في مثل هذه الأراضي المليئة بالمنازل والمتاجر والمعابد، ولكنها كانت كثيرة ليتم إحصاؤها.

بدا التعب على جنوده، فقد أجبروا أنفسهم على التحرك بسرعة على امتداد أكثر من سبعين ميلا، محاولين ترك مطارديهم خلفهم قدر الإمكان. أرسل كوبلاي كشافة ليستطلعوا الأمر لكنه لم يكن يظن أنهم سيكونون بعيدين لأكثر من مسير يوم، وبحسب الإيقاع الذي يسيرون فيها فقد أصبح الرجال والخيل على وشك الانهيار.. إنهم بحاجة إلى شهر من الراحة، والغذاء الجيد للجنود، والمرعى المناسب للخيول قبل أن يستعيدوا قدرتهم الطبيعية على القتال، ولكن هذه الحاجة كانت بعيدة المنال في ظل انتشار الأعداء في كل مكان حول شاويانغ.

لم تظهر أية إشارة على خروج حامية المدينة لملاقاتهم، فقد حقق في ذلك الحين كشافة كوبلاي مع السكان بطرق اختلفت بين الرشوة والتهديد. لقد كان محظوظا ولكنه استحق الحظ بعد أشهر من القتال العنيف. بدا أن حامية المدينة موجودون في ميدان المعركة؛ عشرة آلاف رجل من أفضل السيافين ورماة السهام في الإمبراطورية. تمنى لهم كوبلاي الصيد الطويل في أماكن تبعد أميالا وأميالا عنهم.

سمع أويانغ خاداي يصدر إشارة من البوق فقد أرسل فريقين كل منهما يتألف من ثلاثين ألف جندي على طرق واسعة إلى مركز المدينة، وبذلك لن يسير الفريقان في الطريق ذاته. إذ ليس صعبا

تخيل رماة السهام يظهرون بشكل مفاجئ، ويطلقون السهام باتجاه الرجال الذين ليست لديهم مساحة كافية للمناورة. ومرة أخرى بدا ممتنا للدرع الذي جعله مونغ يرتديه.

بدت شاويانغ مهجورة، لكنّ كوبلاي أحسّ أنّ هنالك أعينا تراقبه، إضافة إلى أنّ التوتر بدا على القادة المحيطين به، فقد كانوا يحركون رؤوسهم عند أدنى حركة، وأوشكوا على استلال سيوفهم عندما سمعوا صراخا قريبا تبين أنه يعود لطفل يبكي خلف باب منزله المغلق.

الفيالق التي سارت مع كوبلاي حملت راياته، وساروا ببطء خلال طريقه الهادئ. فقد أصبح حينها قائدا لكل من يشاهده أو يتابعه وأحسّ أن نبضات قلبه تتسارع، يحاول أن يقنع نفسه أن هذا الهدوء هو مجرد فخ. فبينما تجاوز كلا جانبي الطريق، رفع رأسه متوترا ليراقب الطريق أمامه خلف المزاريب الحجرية والمحلات المغلقة والمباني الحجرية التي بدت أحيانا بارتفاع ثلاثة أو أربعة طوابق. لم يندفع أحد بسرعة ليوقع رجاله عن أحصنتهم. عندما سمع أصوات حوافر مسرعة أمامه، افترض أنّ الصوت آتٍ من بعض رجاله، فقد كان بعض رجاله يستكشفون المدينة بعيدا عنه، لكنّ الشوارع بدت كمتاهة، ولم تكن هنالك أية إشارة تدل إليهم في حين أنه رأى فرقة صغيرة من الفرسان أمامه.

لم يرتد هؤلاء الفرسان الغرباء الدروع، وإنما ارتدوا سراويل ضيقة وسترات بسيطة في حين بدا اثنان منهم شبه مدرعين ويقودان حصانيهما بسهولة. حاول كوبلاي أن ينظر حوله ويدقق في التفاصيل ليكتشف كمينا ما، ولكنه لم يلحظ أية حركة على الأسطح الفارغة. أما فرسان سونغ فقد جلسوا على صهوات أحصنتهم واكتفوا بالتحديق، ثمّ تحدث أحدهم إلى الآخرين فانطلقوا على أحصنتهم بهدوء نحو الأمام.

استل كل جندي من الجنود المحيطين بكوبلاي سيفه من غمده خلال لحظة واحدة وبصوت واحد، وشُدت حبال الأقواس معلنة جاهزيتها. تحرك الغرباء بسرعة ولكن بحذر شديد، فقد بدوا موقنين من أنّ هذه الشوارع ستكون مكان نهايتهم إن هم أتوا بأية حركة خاطئة.

دمدم كوبلاي للرجال المحيطين به قائلا: «دعوهم يأتون فأنا لا أرى أية أسلحة».

ازداد التوتر وقد اقتربت هذه المجموعة الصغيرة من صفوف جنود المغول. سعى أحد رجال سونغ ليقابل كوبلاي ضمن هذه الصفوف، كاشفا عن هويته من خلال الرجال الحاملين الرايات على جانبيه. وعندما سمع صوت كوبلاي رفع ذراعيه ببطء شديد وأمسك بلجام الحصان، رفع إحداها أولا ثم الأخرى لكي يريهم أنّه لا يحمل شيئا معه.

قال كوبلاي لجنوده: «استريحوا».

فقد تعبت الأذرع من حمل الأقواس المشدودة ومن الممكن أن تنزلق الأصابع، ولم يرغب في أن يقتل الرجل الذي عانى كثيرا من أجل أن يتكلم معه فحسب. أُنزلت السيوف والأقواس حول كوبلاي وعاد رجال سونغ للتنفس مرة أخرى.

قال كوبلاي عندما أصبحا على بُعد عشرات الخطوات: «لا تتقدم أكثر من ذلك».

نظرت مجموعة سونغ هذه بترقب إلى الرجل الذي امتطى حصانه مقتربا من كوبلاي، وقد بدت ذراعاه مفتولتي العضلات بالرغم من أنّ شعره أبيض ووجهه مليء بالتجاعيد.

قال الرجل: «أنا أدعى ليو يين سان، حاكم مدينة شاويانغ، وأنا الرجل الذي قابل كشافتك».

فقال كوبلاي: «حسنا، أنت الرجل الذي سيسلم شاويانغ إليّ».

ما فاجأه أنّ ليو يين سان هز رأسه بالرفض، فلم يكن هناك آلاف الرجال المدرعين الذين يمتدون من نقطة التقائهم إلى البلدات الخارجية للمدينة. انتابت كوبلاي رؤيا مفاجئة فقد شبّه ما يحصل بسكين قد طعنت شاويانغ وقد وقف هو في مقدمة هذه السكين، بل كانوا ثلاث سكاكين باحتساب بايار وأويانغ خاداي إذ لا بدّ من أنّه يوجد خلفهم محاربون لم يدخلوا المدينة بعد، في انتظار إشارة من المقدمة.

قال ليو يين سان: «لقد أتيت أعزل لأقول لك إنه ليس بإمكاني أن أسلم المدينة، فقد أعطى الإمبراطور الأوامر لجميع المدن. فإن استسلمت لك، فستُحرق شاويانغ لتكون عبرة لباقي المدن».

سأله كوبلاي: «هل قابلت الإمبراطور؟».

أجابه ليو يين سان: «لم يزر شاويانغ».

فسأل كوبلاي: «إذن كيف يأمرك بالولاء؟».

اكفهر وجه الرجل، وتساءل عما إن كان بإمكانه أن يشرح مفهوم الولاء إلى رجال قيل له إنّهم أفضل بقليل من الحيوانات. لكنّه استمد الأمل من أنّ كوبلاي يتكلم المندرينية بطلاقة وإتقان، بلغة الطبقة النبيلة لشين وأسلوبها.

فقال: «لقد أقسمت عندما أصبحت حاكما لهذه المدينة، والأوامر التي أتتني واضحة، ليس بإمكاني أن أعطيك ما ترغب فيه».

بدأ الرجل يتصبب عرقا، ولاحظ كوبلاي ورطته بوضوح. فإن استسلم فستُدمر المدينة من قبل سيد غاضب، وإن رفض الاستسلام فهو يتوقع أن تعاني مدينته المصير ذاته من قبل حشود المغول. تساءل كوبلاي عما إن كان لدى ليو يين سان أي حل، أم أنّه أتى إليهم وتوقع أن ينهي الأمر.

فسأله كوبلاي: «إن أصبحت أنا الإمبراطور فهل ستنتقل قسمك بالولاء لي؟».

تسمّر ليو يين سان في مكانه وهو يفكر في ما قاله كوبلاي وأجاب: «لمَ لا؟ لكن يا سيدي أنت لست بإمبراطوري».

توتر جدا عندما تكلم فهو يعلم أن حياته تتأرجح بين كفّتي الميزان. حاول كوبلاي ألا يبتسم لرد فعله، فربما كان سيتخذ رد فعل مختلفا لو علم أنّ هناك جيشا لسونغ يسير باتجاه المدينة في أثناء حديثهما. لم يسمح كوبلاي لنفسه بأن يُحاصر في شاويانغ. فنظر إلى الشمس وفكّر في أنّه يجب عليه أن ينطلق من هنا قريبا.

قال: «لم تدع لي الكثير من الخيارات يا ليو يين سان». فشحب وجه الرجل، إذ إن هذه الكلمات عنت أنه موشك على الموت. أكمل كوبلاي كلامه قبل أن يتمكن الرجل من الرد قائلا: «لم أرغب في أن أتوقف في شاويانغ، فلدي معارك أخرى. لذلك كل ما أحتاجه منك ببساطة هو إمدادات لرجالي، لكن إن لم تسلّم المدينة، فأنت تجبرني على إعطاء هذا الأمر».

استدار كوبلاي على صهوة حصانه ورفع يده ليستل رجاله سيوفهم ويرفعوا أقواسهم مجددا.

«انتظر». صرخ ليو يين سان، وقد بدا صوته يرتجف، وأكمل: «... أستطيع» مترددا، فقد كان يتخذ بعض القرارات بينه وبين نفسه، وقال: «أستطيع أن أقودك إلى الثكنات الموجودة على بُعد أقل من ميل أسفل هذا الطريق تماما».

استدار كوبلاي إليه ببطء، ورفع حاجبه بتساؤل صامت.

فقال ليو يين سان والعرق يتصبب منه، وقد لاحظ كوبلاي هذا: «لن أسلّم شاويانغ، سوف آمر شعبي بأن يقفلوا على أنفسهم في منازلهم، وسأصلي كي تمر هذه العاصفة على المدينة من دون

إراقة الدماء، وبذلك سيكون بإمكانك أن تأخذ كل ما تريده وترحل».

ابتسم كوبلاي وقال: «إنّ ذلك قرار حكيم يا أيها الحاكم. امتطِ حصانك نحو منزلك خلف الثكنات وتأكد من أن تقاتل إن هوجمت، ولكنني لا أعتقد أنك ستُهاجم، على الأقل ليس اليوم».

بدت يد ليو يين سان ترتجف وهو يستدير بحصانه إلى الخلف وينطلق به.

قاد رجاله أمام جيش المغول، لذلك مشوا بشكل غريب، كما لو كانوا يتوقعون أن تنهمر السهام عليهم من الخلف في أية لحظة. ضحك كوبلاي، لكنه تابعهم عن قرب ثم قاد أرتال جنوده إلى أن وصلوا إلى ثكنات حامية المدينة.

وجدوا ساحة كبيرة فارغة مما خفف عن المحاربين المغول، وعند أحد جوانب الساحة وجدوا مباني مكونة من طابقين، تكفي لإيواء آلاف الرجال.

وقف ليو يين سان حينها مرتابا واستطاع كوبلاي أن يرى كيف أنّ حاكم المدينة لا يزال يعتقد أنّه سيُقتل.

فقال له كوبلاي: «سيأتي الوقت الذي سأقف فيه أمامك مرة أخرى وسأطلب إليك أن تستسلم وتسلّم شاويانغ، ولن ترفض ذلك حينها. أما الآن فاذهب إلى المنزل، فلن يموت أحد اليوم».

غادر ليو يين سان مع مجموعته الصغيرة في حين نظر العديد منهم خلفهم مرارا وتكرارا إلى أن بدؤوا يغيبون عن النظر، في النهاية اختفوا تماما في طرق المدينة. لم يكن هناك من شخص آخر على مد النظر، فأدرك كوبلاي أنّه لا بد وأنّ سكان المدينة قد اختبؤوا في منازلهم خلف الأبواب الموصدة بدلا من مواجهة غزوه لمدينتهم.

بدأ رجاله باقتحام أبنية حامية شاويانغ، كاشفين عن إسطبلات واسعة ودروع ومهاجعَ ومطابخَ. وضع أحد الرجال أصابعه في فمه وأطلق صافرة قوية ليجذب انتباه كوبلاي.

انطلق كوبلاي على حصانه عبر أراضي التدريب ليرى أويانغ خاداي ورتل الجنود التابعين له يدخلون من الجهة المقابلة، فاستدار كوبلاي نحو الكشافة المرافقين له وقال:

«فلينطلق أحدكم إلى قائد الجيش، ويخبرْه أن يرسل لي تقريرا عن آخر المستجدات، ولينطلقْ آخر إلى القائد بايار ويجده».

فاندفعا بسرعة عبر أراضي التدريب.

صدرت أصوات ثرثرة تبدو عليها السعادة قادمة من الأبنية خلف الفناء المكشوف. فترجّل كوبلاي عن حصانه ومشى في ممر طويل وبدأ يبتسم بسعادة وهو يمشي خطواته الأولى هناك، إذ بإمكانه أن يرى الآلاف من الحراب، وعندما مشى إلى الأمام أكثر، وجد دروعا مكدسة فوق بعضها محفوظة في إطارات خشبية، سار باتجاه الأقواس التي لم تكن تشبه الأقواس التي امتلكها، وتنقلَ من غرفة إلى أخرى. عندما وصل أويانغ خاداي إلى الغرف الخارجية كان كوبلاي يقف في قاعة صانعي السهام التي تشبعت برائحة الصماغ والخشب والريش. أظهرت العشرات من المقاعد مكانَ عمل الرجال على تصنيع السهام، وكانت النتائج واضحة من خلال حزم السهام المتقنة المرصوصة على جانبي القاعة. سحب كوبلاي إحدى هذه الحزم، وتفحصها، وتحسس هذه السهام بإبهامه، لاحظ أنّه لدى أفواج سونغ أفضل الحِرفيين.

انتزع كوبلاي قوسه من أنشوطته الموجودة على ظهره وجهّزه بحركة سريعة. سمع حينها صوت لهاث من خلفه فاستدار ليرى أويانغ يقف هناك وقد اعتلت وجهه تعابير الرضى. أومأ كوبلاي له وأنزل القوس بعد أن أطلق سهما باتجاه جدار بعيد، فضرب هذا السهم الخشب واختفى خلفه، تاركا بقعة من الضوء بعد أن سقط على الأرض الخشبية. وللمرة الأولى منذ أيام شعر كوبلاي أنّ قلقه قد زال.

قال: «أويانغ خاداي أخبر رجالك أن يتجمعوا بسرعة، وأرسل الكشافة ليجدوا أماكن بإمكاننا أن نأكل وننام فيها، أماكن بعيدة عن المدينة، فالاستراحة إلى الغد كافية لنشق طريقنا مرة أخرى».

ابتسم كوبلاي وهو يجول بنظره في القاعة، ولكنه كان يعلم أنّه على أحدهم أن يعمل على إخراج ما يوجد هنا، فلا بد وأن هناك قرابة المليون من السهام الجديدة مازالت في حزمها بل ربما أكثر من ذلك، فقال: «ها قد استرددنا الأنياب مجددا، لنستخدمها يا قائد الجيش».

لم يرَ شوان؛ ابن السماء، رجال سونغ في الحرب سابقا، فقد كانت أعدادهم هائلة، لكن تقدمهم بطيء جدا، وقد استغرق الأمر منهم شهرا لينظموا له اجتماعا مع سادة سونغ في المدينة. حضر الاجتماع أكثر من مئة منهم، وتمركزوا تبعا لرتبهم بشكل متدرج، وبذلك حظي الأقوى بينهم بمكان له على طاولة النقاش الرئيسة في حين اتكأ الأقل قوة على شرفة القاعة للاستماع. عمّ الصمت عندما دخل إلى الغرفة، محاطا بقادة سونغ.

أول ما لفت انتباهه هو ملابسهم السميكة الملونة بالأخضر والأحمر والبرتقالي، وقد كانت أنماط لباسهم مختلفة بمقدار عدد الرجال الموجودين في الغرفة. فقد ارتدى بعضهم ستراتٍ بسيطة مطرزة باللؤلؤ، واكتسى آخرون بألبسة ملونة وقبعات مزينة بأي شيء قد يخطر على البال ابتداء من ريش النعام وصولا إلى الجواهر الضخمة. لم يكن إلا عدد قليل منهم يشبهون المحاربين، فقد شابه العديد منهم الطيورَ المزخرفة التي بالكاد يمكنها التحرك بسبب طبقات الحرير والأناقة المفرطة.

أربك حضور شوان الحراسَ الذين لم تكن لديهم أية تعليمات محددة. فاق في مركزه رتبة كل الرجال في القاعة، لكنه كان نبيلا لأمة أجنبية وبالاسم فقط، إضافة إلى كونه يقود جيشا صغيرا من الجنود المتقدمين في السن. وجد له الحراس مكانا على الأرضية الرئيسة لكن في الخلف، بوصفها تسوية ملائمة.

في البداية، أراد شوان أن يرى ويسمع، ليعرف عن شخصياتهم وأساليبهم السياسية، تعرّف إلى بعض أوجه الذين التقاهم خلال وجوده في أراضي سونغ وإلى أصواتهم، ولكنّ الأهم من ذلك أنه كان يعلم أن بإمكان هؤلاء الرجال أن يضعوا أكثر من مليون مقاتل في الميدان إن أرادوا ذلك، أو إذا أتاهم أمر مباشر من الإمبراطور. لم يكن شوان قد رأى ابن عمه بعد. فالإمبراطور العجوز نادرا ما يغادر قصره تاركا الأمور الخاصة بالحرب إلى هؤلاء السادة فهي من مهامهم. بالرغم من أنّ الإمبراطور قد أصر على حضور شوان إلى المجلس، بما أنّه واحدٌ من الرجال القلائل الذين واجهوا حشود المغول ونجوا منها، فقد كان وجوده مقبولا نوعا ما إذ لم يكن مرحَّبا به كالابن الضائع منذ فترة طويلة، حتى أنّ نبلاء سونغ الفخورين توقفوا عن التفكير فيه وتجاهلوه بشكل كامل، لكن وجب عليهم أن يتحملوا وجوده، وعندما لم يطلب شوان وضع اسمه على لائحة طالبي الكلام، بدا العديد منهم سعداء سرا، فقد افترضوا أنّه خائف من المجموعة القوية.

اجتمعوا مرتين في كل شهر، بالرغم من أنّه كان من النادر أن تمتلئ الأماكن كما حدث في المرة الأولى التي أتى بها.

من خلال الحضور المنتظم الذي التزم به أكثر من نصف السادة هناك، علم شوان بأمر الجيش الضخم الثاني الذي قاده مونغ خان في أراضيهم. في أحد الصباحات، اجتاح التهديد السياسيين المثيرين للشفقة في المجلس، وتكلم اثنان من السادة الذين تجاورت أراضيهما من دون الاستياء الذي اعتادا أن يظهراه، لكن لم يستمر السلام إلى ما بعد الهدنة الأولى التي اتخذوها، فعند

الظهيرة غادر أحدهما غاضبا متبوعا بخدمه، وتجمد الآخر وقد اعتراه الغضب بسبب الإهانة التي تلقاها.

بالرغم من الفوضى بسبب نقص القيادة، فقد حدثت اشتباكات فعلية بينهم. علم شوان أنّ رجال كوبلاي في الجنوب قد دمروا أحد عشر جيشا، أي ما يعادل جيشا من ثلاثة أرباع مليون رجل. إضافة إلى ما نتج عن هذا الأمر من ازدياد قوة كوبلاي بسبب الأسلحة التي اغتنمها، لم يكن أمامهم من حل سوى إرسال المزيد من الحشود لمواجهة المغول، حتى يبقى كوبلاي في قتال مستمر يضعفه.

خلال أيامه في قاعة الاجتماعات، شاهد شوان أربعة من النبلاء يودعونهم وينطلقون للقتال. لم يعد أي من هؤلاء الرجال، وبعد ذلك أُخبر أن أسماءهم أُضيفت إلى قائمة القتلى.

في مطلع الشهر الثالث، دخل شوان القاعة ورأى أنها شبه فارغة، لكن بعد أن جلس لحق به عدد من الرجال وجلسوا في أماكنهم المعتادة. انطلق شوان نحو أحد الخطاطين الذين دونوا النقاشات وأداروها، ووقف أمامه إلى أن نظر اليه وقال: «سأتكلم اليوم».

اتسعت عينا الخطاط بعض الشي، لكنه أومأ له، وأحنى رأسه وأضاف اسم شوان الرسمي إلى القائمة. استغرقت كتابته لاسم شوان بعض الوقت، لكنّه كان يعلم ما يجب عليه أن يفعل لذا لم يراجع المخطوطات. لم يفوّت السادة المجتمعون هذا الحدثَ، فقد راقبه العديد منهم وهو يعود إلى مكانه، وانطلق الآخرون ليجلسوا قرب حلفائهم. بينما كان شوان ينتظر بصبر، أتى العديد والعديد من السادة من منازلهم في المدينة حتى امتلأت القاعة كسابق عهدها

تساءل شوان عما إن كان أي منهم يعلم أن الإمبراطور استدعاه في الليلة الماضية، فقد أُخذ من الثكنات التي بقي فيها مع رجاله. لقد كان لقاء قصيرا، لكنه سعد عندما وجد أنّ ابن عمه الأكبر سنا لم يكن غافلا عن هذه الحرب، أو عن ضعفِ الموقف الذين هم فيه. كان إمبراطور سونغ محبطا شأنه شأن شوان وصرفه معطيا إياه أمرا واحدا فقط، وهو أن يخرج هؤلاء السادة من قوقعة الرضى الزائد عن النفس. أما بقية الليلة فقد أمضاها مع خطاطي سونغ، وللمرة الأولى سمح لشوان أن يرى أية مخطوطة أراد أن يراها متخليا عن النوم ليعلم كل ما استطاع. وبينما جلس بسلام في غرفة النقاش، كان رأسه يمتلئ بالحقائق والحيل.

انتظر انتهاء المراسم الرسمية لافتتاح الجلسة، بالرغم من أنّ الشكليات استمرت لوقت طويل. واستمع بتهذيب إلى رجلين تحدثا قبله، وما تلا ذلك من نقاشات فرعية.

كان أحد المتناقشَين يعلم أن شوان سيتكلم فاختصر نقاشه، أما الآخر فلم يكن يبدو أنه على علم بذلك، فاستفاض بالحديث عن الحديد الخام في الأقاليم الشرقية.

عندما انتهيا من النقاش، أعلن الخطاط أن الدور في الكلام لشوان فوقف. شخصت إليه الأعين وهو يتحرك ليقف في وسط القاعة، وبذلك استطاع الجميع رؤيته. وجّه نظره إليه قبل أن ينظر إلى أولئك الذين يقفون على الشرفات، عندها خيم الصمت على القاعة، وبعد أن استحوذ على اهتمامهم قال:

«تبعا للسجلات الإمبراطورية في شانغدو، هنالك أكثر من مليوني جندي يحملون السلاح، ولكن لا تدخل في هذه السجلات أعداد الجنود الذين خسرناهم مؤخرا. ولدى السادة النبلاء في هذه القاعة أحد عشر ألف مدفع، ومع ذلك فقد جعلَتكم فيالق المغول التي لا يتعدى عددها المئة ألف جندي تبدون مثل الأطفال».

سيطر جو من التوتر والقلق على القاعة، ولكنهم أدركوا أن ما يقوله من الأرقام قد استقاها من سجلات الإمبراطور الذي ما من أحد غيره يمتلكها، فصمتوا، وأكمل شوان كلامه متجاهلا تذمرهم:

«في الوقت الذي آمنت فيه أنّ الأعداد الضخمة ستؤدي إلى النجاح بدلا من قيادة موحدة، ولكن يبدو أن إيماني هذا كان خاطئا، ويبدو أن آخر أخطائي كان افتراضي أن جيش كوبلاي في الميدان سيعود في النهاية إلى موطنه ليتزود بالمؤن، إلا أنه تبين أنهم ليسوا بحاجة إلى العودة، يا سادتي، لأنهم ليسوا في الميدان؛ فهُم بكل بساطة في مكان جديد، كما كل الأماكن الجديدة بالنسبة إليهم.

ولن ينتظروا ليبقوا بعيدين عنا هنا، كما يناقش بعضٌ ممن هم في هذه القاعة وببلاغة، إن لم ندمرهم فإنهم سيأتون إلى هانغتشو بعد سنة أو سنتين أو عشر سنوات، فقد استغرق الأمر منهم وقتا أطول من ذلك للسيطرة على أراضي شين في الشمال، أراض أكبر بكثير من أراضي سونغ».

أراد أن ينتظر لكن صدحت بعض الأصوات التي علت صوتَه، ومع ذلك فقد أراد الأغلبية أن يستمعوا لما أراد أن يقوله، واختفت النقاشات الحادة بسبب قلة الدعم. فأكمل:

«بالرغم من ذلك، فإنني أرجح أن حشد سونغ سيهزمهم، لكن خان المغول أحضر جيشا جديدا إلى أراضي سونغ، أكبر من أي جيش قد جمعه من قبل.

تقول التقارير إن أعدادهم تتجاوز الربع مليون مقاتل، وليست لديهم أية مدافع وبذلك أصبحت استراتيجيتهم واضحة».

كانت الصمت مطبقا حينها في حين استمع كل السادة هناك بتوتر، فأخفض شوان صوته عمدا، وبذلك لن يجرؤ أحد على مقاطعته مرة أخرى وأكمل كلامه:

«لقد تجاهل مدن سونغ، وتوغل لمسافات شاسعة، لو أنني لم أقرأ تقارير الكشافة في مكاتب الإمبراطور، ما كنت لأصدق ذلك، لكنّهم يجتازون مناطق شاسعة من الأراضي كل يوم، يتجهون نحو الجنوب. هدفهم واضح جدا وهو أن ينضموا إلى قوات كوبلاي، يطهرون الميدان من أي جيش في طريقهم. إنّها استراتيجية جريئة؛ فهي تظهر الاحتقار لجيوش سونغ. سيقضي مونغ على الجنود في الميدان، وبعدها يستولي على المدن إما من خلال دكها بمقذوفات المدافع التي سيستولي عليها، وإما من خلال محاصرتها، إن نحن لم نتصد له فسنجده عند أبواب شانغدو خلال أقل من عام».

بدأ السادة المجتمعون يصرخون معا بسخط بسبب الإهانة التي أصابتهم ونالت من شجاعتهم وقوتهم.

فهم لم يتحملوا أن يخطب بهم بهذه الطريقة المهينة إمبراطور سابق فاشل، ولكن بعض الرجال ممن يتمتعون بعقول راجحة، وضعوا بحسبانهم أنه لا بد وقد لاقى آذانا صاغية من قريبه الإمبراطور، لذلك خفت الهمس بعد برهة، وعاد الرجال ليستكينوا في مقاعدهم، بالرغم من أن الغضب بدا جليا على ملامحهم، فتابع شوان كلامه، وكأن أية مقاطعة لم تحدث.

«يجب ألا يتحرك أي واحد من القادة الموجودين في هذه القاعة بمفرده بعد الآن، فالتحركات المنفردة لم تعد تُجدي نفعا، فكل ما نحن بحاجة إليه هو التعبئة العامة لجميع جنود سونغ».

نهض اثنان من سادة سونغ من مكانيهما بصمت، وأشارا إلى مستشار الإمبراطور متمنيين أن يتكلم، ولكن شوان تابع كلامه: «قد حانت اللحظة كي نضرب بقوة، إن خان المغول وجيشه في الميدان، إن تمكّنا من إيقافه حينها فسيأتي الوقت الذي سنستطيع فيه السيطرة على أراضي كل من شين والمغول».

وقف أربعة رجال آخرين يريدون التكلم لكنه تابع كلامه: «أيها السادة، لا يجدر أن تكون هذه الحرب دفاعية بعد الآن، فإن وحدتم جيوشكم تحت راية واحدة وقيادة واحدة، فحينها ستكون لدينا الفرصة لنوحد شين وسونغ مرة أخرى».

توقف عن الكلام، عندما لاحظ أن عشرة من سادة سونغ قد وقفوا، وقد نقلوا أعينهم بينه وبين مستشار الإمبراطور، الذي كانت مهمته فرض بعض الأوامر ليتم مناقشتها، لكن ليس بإمكانه مقاطعة شوان بشكل رسمي، جلس بعد أن أنهى كلامه، بالرغم من أنّ هذه القاعدة غالبا ما كان يتم تجاهلها. ولكن للمرة الأولى انتظروا مدركين أهمية النقاش الذي سيأتي بعدها. عبس شوان فقد علم أنّ الرجال الذين سيتحدثون بعده لن يكونوا من النوع الذي من المحتمل أن يضيف أي حل واضح، فقال:

«لا يمكن أن تُخاض هذه الحرب بشكل فردي بعد الآن، عينوا قائدا يقود الجيش ويتمتع بسلطة كاملة، أرسلوا نصف مليون مقاتل خلف كوبلاي، ومثلهم ليواجهوا خان المغول، حاصروا جيوشهم الصغيرة واسحقوها، قاتلوا بهذا، فبهذه الطريقة لن تروا هانغتشو تحترق. فقد رأيت يينكينغ تحترق أمام عيني، ولا أريد المصير ذاته لغيرها».

جلس مرة أخرى تحت ضغط الأعين الكثيرة التي كانت تحدق إليه في صمت، متسائلا عن مدى وصول أفكاره إلى أي أحد في هذه القاعة.

صدح صوت مستشار الإمبراطور الذي قال:

«سيستمع المجلس إلى السيد سونغ وين».

أخفى شوان توتره عند سماعه الاسم وانتظر، لكنه يملك الحق في أن يجيب قبل النهاية.

قال السيد وين: «أيها السادة، أريد أن أطرح سؤالين على السيد الكريم وهما: هل لديه أمر مباشر من الإمبراطور لتوحيد الجيوش؟ وهل يسعى لأن يكون قائد الجيش الموحد؟».

انطلقت موجة من السخرية من بقية الرجال في القاعة قابلها شوان بالعبوس متذكرا الدموع في عينَي ابن عمه خلال لقائهما القصير. بدا الإمبراطور رجلا ضعيفا، فمازال بإمكان شوان أن يشعر بقبضة يده عليه. لقد طلب إليه ورقة لتدل على السلطة المفوضة له، تفويض إمبراطوري، لكنّ الرجل أشار له بيده كي ينصرف.

إن السلطة تكمن في ما يقبله السادة، أيقن شوان عندها أنّ ابن عمه خشي أن يعطيه مثل هذا الأمر، ولكن لماذا استدعى عدوا قديما إلى غرفته الخاصة؟ فإن أمر الإمبراطور بهذا ومن ثَم رفضَه هؤلاء السادة، فإن ضعفه سيُفتضح وعندها ستتداعى الإمبراطورية وتنقسم، وستحصل حرب أهلية، وهذا ما لم يستطع المغول القيام به.

خطرت كل هذه الأمور في رأس شوان وقد وقف بتصنع مرة أخرى وقال:

«إنّني أملك ثقة الإمبراطور بأنّكم ستستمعون، أيها السيد سونغ وين، لديّ ثقة الإمبراطور بأنّك لن تسمح بأن يتم تدمير سونغ بسبب بعض السياسات السخيفة، فأنا متأكد من أنّ سادة سونغ الأوفياء سيتعرفون إلى التهديد الحقيقي. إضافة إلى أنني لست الشخص الذي سيقودكم لمواجهة المغول يا سيدي، ولكن أيا من كان سيتولى القيادة فيجب أن يخصه كل من في هذا المجلس بكامل ثقتهم، وإن أُخذت هذه المسؤولية على عاتقك، فتأكد من أنني سأكون من الداعمين لك».

وقف القائد سونغ وين ونظر إليه شزرا، متسائلا عما إن كان شوان قد فوّت عليه فرصة قيادة الجيش.

لم يكن شوان إلا شوكة في طريق سادة سونغ هناك، ودعمُه لأحدهم لم يكن ذا قيمة، فقال السيد وين مُبديا عدم الإعجاب:

«لقد أملت في أن أرى ختم الإمبراطور الشخصي، لكن بدلا من ذلك، ها أنذا أسمع كلمات عديمة المغزى، ومن دون أية طريقة لتأكيد صحتها».

خيّم الصمت على القاعة، وأدرك السيد سونغ وين أنّه تمادى كثيرا عندما اتهم شوان بالكذب، لكنّه تذكّر تدني مكانة شوان، فاستعاد هدوءه مجددا، فشخص مثله يتمتع بقوة كقوته المحدودة لن ينال اعتذارا ولكن يستطيع أن يفرض عليه عقابا.

إن تردّد سونغ وين كلّفه سماع المستشار الإمبراطوري له، هذا المستشار الذي يعلم أكثر من أي شخص في هذه القاعة عما دار بين الإمبراطور وابن عمه بالأمس، فقال بصوت مرتفع: «ليستمع المجلس إلى السيد جين آن».

أغلق سونغ وين فمه خلال لحظة، وجلس مكانه في حين أومأ سيد أصغر منه إلى المستشار. قال السيد جين آن بصوت واضح ومفعم بالثقة:

«هل يستطيع أحد أن ينكر وجود جيش الخان وأخيه الأصغر في الجنوب والغرب؟ هل بإمكان أحد أن ينفي فكرة وجود تهديد لنا جميعا؟ يجب أن نصوّت قبل أن نجد هذه الجيوش تزحف أمام بوابات هانغتشو. أنا أقترح اسمي لقيادة أحد الجيشين اللذين يجب أن نرسلهما».

للحظة، زال عبوس شوان ونظر إلى الأعلى، لكنّ صوت السيد الشاب اختفى بسبب الضجيج العالي، فحتى عدد الجيوش بدا أمرا لا يحظى بالإجماع، لذا شعر شوان بالحزن عندما أدرك أنّه من غير الممكن إخراجهم من اللامبالاة هذه.

خلال لحظات كان السيد جين آن يصرخ بغضب ويقول إنّه سيسير برجاله لمواجهة كوبلاي، وإنّه سيتصرف بنفسه إن لم يرَ أحد غيره حاجة إلى الهجوم.

فرك شوان عينيه بعد أن شعر بالنعاس لأنه لم ينم بما فيه الكفاية ليلة أمس.

لقد قاسى مثل هذه النقاشات العقيمة أربع مرات من قبل، وذلك عندما تجهز القادة الشباب لمواجهة فيالق المغول. حماستهم العسكرية لم تكن كافية، وتم تبادل التهديدات والاتهامات، وأخذ القادة يصرخون على بعضهم، لن يكون هناك حل اليوم، وربما لن يكون هناك حل أبدا، وفي غضون ذلك ستقترب جيوش المغول أكثر فأكثر. هز شوان رأسه بسبب الفكرة المجنونة التي اجتاحته، وتمثلت في محاولته مقابلة الإمبراطور مرة أخرى، لكنّ الرجل كان محاطا بحاشية ضخمة مكونة من الآلاف، تلك الحاشية التي ستفكر في مثل هذا الطلب ولا يعلم حتى ما إن كانت ستنقله للإمبراطور. رأى شوان الأمثلة الكثيرة على البيروقراطية في أراضي سونغ خلال سنوات أسره الأمر الذي لم يُبق لديه شيئا من الأمل.

عند الظهيرة ومع انتهاء الاجتماع، اقترب شوان من السيد الشاب الذي كان يتكلم بغضب مع رجلين آخرين. ما إن اقترب منهم حتى صمتوا، عندها استدار جين آن ناحيته وانحنى له بشكل فطري بسبب مكانته.

قال شوان: «كنت أتمنى أن نصل إلى نتيجة أفضل».

أومأ السيد جين آن بأسف، وقال: «لديّ أربعون ألف محارب، يا بن السماء، إضافة إلى وعد بالدعم من أحد أبناء أعمامي». تنهد وأكمل: «ولديّ أيضا تقارير مثبَتة عن كونِ كوبلاي هذا قد شوهد بالقرب من شاويانغ، ما كان يجب عليّ البقاء في هذه القاعة والجدال مع مجموعة من الجبناء، إنّ مكاني هناك في القتال، أُجابه الجيش الأضعف بين الجيشين، لأن الأربعين ألفا سيُهزمون أمام جيش الخان الكبير في الشمال».

زمّ شفتيه في تردد وضرب راحتَي يديه ببعضهما وقد قصد بكلامه السادة المتفرقين قائلا: «ربما عندما يرى هؤلاء الحمقى خان المغول وهو يسير في شوارع هانغتشو، سيدركون الحاجة

الماسة إلى التحرك».

ابتسم شوان بسبب تعابير الشاب الساخطة، وقال: «ربما لن يدركوا ذلك حينها، أتمنى لو كان لديّ جيش قوي لأرسله معك أيها القائد جين آن. مع ذلك فإنّ جنودي الثمانية آلاف تحت إمرتك، إن أردتنا معك».

لوّح السيد جين آن بيده، نظرا لعدد الجنود القليل. في الحقيقة، لن تصنع قوات شوان تغييرا كبيرا وهذا ما أدركه الرجلان. منذ سنوات عندما كان الجنود شبانا كانوا سيحدِثون فرقا، ولكن بعد سنوات من الجوع والظروف الصعبة، بالكاد استطاعت عدة أشهر أن تجعلهم يستعيدون بعضا من قوتهم.

بالرغم من ذلك، بدا السيد الشاب لطيفا، وقال:

«سأغادر مطلع الشهر، وسيشرّفني أن يرافقني هؤلاء الرجال، وأتمنى أن يكون لديك وقت لتسدي لي النصائح».

ظهرت ابتسامة عريضة على وجه شوان، فقد مضى وقت طويل جدا منذ آخر مرة عومل فيها بلباقة ولطف من قبل أي قائد من قادة سونغ وقال:

«أنا جاهز لأية خدمة أيها القائد جين آن، وأتمنى أن تكون قد حظيت ببعض السادة الذين يشاركونك أفكارك في الوقت الذي ستغادر فيه».

نظر القائد جين آن مرة أخرى إلى القاعة الفارغة ودمدم قائلا: «ربما». أما ملامحه فقد كانت تدل على الشك في ذلك.

خطا قائد الجيش سيريانك خطوات سريعة ليخاطب قادة فيالقه المجتمعين، فقد وقف أمامه ثمانية وعشرون من قادة الفيالق واصطف خلفهم مئتان وثمانية قائد مجموعات.

«لقد أرسلت الكشافة باتجاه الشمال لينطلقوا عبر طريق يام». قال سيريانك وقد اختفى صوته تقريبا بسبب إصدار المئات من الأوامر، فقد حاول أن يقي الجيش من الانهيار والدخول بحالة من الفوضى الناجمة عن تجادلِ ألف شخص بما يجب عليهم فعله. فالخان مونغ يرقد ميتا

ووحيدا، ملفوفا بقطعة قماش داخل إحدى الخيم، وقد وضب باقي الجيش أشياءهم واستعدوا كي يكملوا طريقهم في أي اتجاه حالما يعطي سيريانك الأوامر.

قال سيريانك: «سيعلم القائد هولاكو بمقتل الخان خلال شهر أو شهرين على الأكثر، وسيعود حينها. وأخو الخان آريك بوك، ستصله الأخبار بشكل أسرع في كاراكورم.

«سيُعقد مجلس جديد لقادة المغول، وسيُختار الخان القادم في هذا اللقاء. لديّ عشرات الرجال ينطلقون نحو الجنوب لإيجاد كوبلاي وإخباره بالمستجدات. فهو أيضا سيعود إلى أرض الوطن، يوشك وقتنا هنا على النفاد، وذلك إلى أن يتم اختيار الخان العظيم الجديد».

تقدم قائده الأكبر سالسانان إلى الأمام، فالتفت قائد الجيش ليعرف من تقدم، وقال: «أيها القائد سيريانك، سأتطوع لأقود قوة تدعم كوبلاي خلال انسحابه، فهو لن يشكرنا لتخلينا عنه في الميدان». ثم توقف الرجل للحظة وأكمل: «فربما كان الخان الجديد».

قال سيريانك بتذمر: «انتبه لكلامك أيها القائد، ليس من شأنك أن تخمن مثل هذه التخمينات وتنشر الشائعات». تردد وهو يفكر في قوله، فلدى مونغ العديد من الأبناء، لكن انتقال الخلافة لخان جديد لم يعد أمرا بسيطا منذ وفاة جنكيز خان. فقال: «لندعمه خلال انسحابه، لقد خسرنا خانا، لكن القائد كوبلاي قد خسر أخا. فلتأخذ ثمانين ألف جندي ولتخرجه بأمان من أراضي سونغ، أما أنا فسأعيد الخان إلى المنزل».

28

جلس كوبلاي في الهواء الطلق تحت أشجار السنديان، تحمّل الألم بصمت عندما غسلت تشاباي جرحا على يده اليمنى ببعض القمارص، وأخذ بعضها لنفسه ليبقى دافئا. لقد عرف كلاهما رجالا خرجوا من المعركة بخدش بسيط فقط، ثم ماتوا بسبب الحمى التي جعلتهم يهذون طيلة أيام وأسابيع. أنّت تشاباي عندما انحنت باتجاه يديه فتجعد أنفها من الرائحة الوخزة. صرّ كوبلاي على أسنانه حين عصرت تشاباي الحواف المزرقة، فنزل خيط من القيح من يده.

قال كوبلاي بمودة: «لديّ معالجون من أجل هذا الأمر، تعلمين ذلك».

أجابته: «إنّهم مشغولون، وأنت لن تزعجهم بهذا الأمر إلى أن تصبح يدك خضراء».

قرصت تشاباي جلده مرة أخرى وبقوة ما جعله يرتعش، وتحول القيح الذي كان يسيل منه إلى اللون الأحمر فأومأت برضى، وأراحت يدها على معدتها كما لو أنّها قد أُحييت من جديد. اقترب كوبلاي منها وربّت على يدها بلطف وهي تربط جرحه بقطعة قماش نظيفة. بينما كان يقاتل قوات سونغ، توغلت العائلات والخدم في الغابة، وأخفوا كل الإشارات التي من الممكن أن يجدها عدو يبحث عنهم.

أُجبر كوبلاي أيضا على إرسال المئات من رجاله إلى أعماق الغابة الخضراء. لقد حارب جيشين من جيوش سونغ في طريق عودته ليصل إلى هذه المنطقة فقط، إضافة إلى أنّه رأى مخازنه من السهام والرماح تنفد يوما بعد يوم، بالرغم من أنّه أنقذ أكبر قدر ممكن منها، وتُوفي كذلك عدد من رجاله الجرحى كل يوم بسبب عدم وجود المعالجين وقلة الراحة.

نظر إلى أعلى، وأحس إحساسا غريبا بعدم الراحة وقد أخفت الأغصان الكثيفة أرضية الغابة وحجبت الضوء مما جعلها كئيبة. لكنهم كانوا مخفيين على الأقل. بقيت العائلات وأتباع المخيم بسلام بسبب هذه الغابة الكثيفة، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من تفكيره في أن هذه الغابة يمكن أن

تخفي جيشا يزحف باتجاههم أيضا. وحتى بالنسبة إلى رجل من كاراكورم، فإنّ الغابة بدت خانقة مقارنة بالأراضي المفتوحة.

نظر بتمعن إلى زوجته وهي تقف، ورأى هالات سوداء تحت عينيها، كما بدت هزيلة، فشتم نفسه لأنه لم يقم بالتجهيزات الكافية. أدرك أنّه وجب عليه أن يعلم أنّ العائلات ستكون قد أُجبرت على ذبح القطعان في أثناء انتظارهم عودته.

عادة ما تزداد أعداد القطعان الكبيرة مرة أخرى في كل ربيع، لكنّ الشيء الوحيد الذي افتقرت له هذه الغابة هو المراعي الجيدة. فقد كُسيت الأرض بأوراق عفنة، أما الخَضار القليل الذي وُجد فقد جُرّد وتحول إلى أرض عارية خلال الشهر الأول فقط، لذلك تناولت العائلات الأرانب والغزلان وحتى الذئاب عندما وجدوها، لكن لم يمض وقت طويل حتى جردت الغابة من كل هذا في نطاق خمسين ميلا.

تقلصت قطعان الخراف والماعز إلى الحد الذي جعل الجميع يتناولون وجبة واحدة فقط في اليوم، حتى هذه الوجبة الوحيدة كانت فقيرة باللحم.

في النهاية عندما عاد كوبلاي، لم يفرح لرؤية شعبه على هذه الحال.

وعندما عاد الجنود مرة أخرى اجتمع مَن كان في المخيم، وحياهم كوبلاي على صلابتهم ونجاتهم، بالرغم من أنّه اهتاج غضبا بسبب حالتهم التي يرُثى لها بعد أن تركهم هناك، فبإمكانه عد الأضلاع الظاهرة على الثيران السمينة، وتساءل كم منها يملك ما يكفي من القوة لجر العربات بعد الآن عندما يحين وقت مغادرة هذا المكان. بالكاد أُعطي ابنه وزوجته الحامل اللحم الكافي للنجاة، وأراد كوبلاي أن ينفجر غضبا حينها على باقي الموجودين، كان سيفعل ذلك لو لم يكن الجميع أيضا بهزالة تشاباي.

قالت تشاباي بهدوء: «يجب أن ننقل المخيم، لا أريد أن أتخيل ما كان ليحدث لو بقيت بعيدا لمدة أطول».

أجابها كوبلاي: «لا أستطيع أن أخرجكم من هنا، فهم يستمرون بالقدوم. لم يسبق لك أن رأيت شيئا مثل هذا يا تشاباي. يبدو أن تدفقهم لا نهاية له».

زمّت شفتيها، وقالت:

«بالرغم من ذلك فإننا لا نستطيع البقاء، لا يوجد أرنب واحد حتى على بعد عشرين ميلا من هنا، وعندما ينتهي القطيع سنتضور جوعا. وقال بعض الرجال أيضا إنّهم سيخرجون من هنا بمفردهم إن لم تأتِ في وقت قريب».

فسألها: «من؟».

هزت تشاباي رأسها وقالت: «رجال لديهم عائلات على عاتقهم، لا يمكنك لومهم، لقد علمنا أننا في ورطة يا كوبلاي».

قال كوبلاي: «سأجلب قطعانا من هضاب سونغ وقراها، إضافة إلى حيوانات جديدة لتجر العربات».

شتم في سره الحالة التي وصلوا إليها، فقد علم أنّ ذلك لن ينجح. فحتى لو استطاع أن يحضر قطيعا باتجاه الغابة، فإنّ آثار مرور القطيع ستكون واضحة لأي من كشافة سونغ وسيُفتضح أمرهم، فهو قد عرّض موقعهم للخطر بالفعل بإعادة محاربيه مرة أخرى إلى المخيم. دلّك بيده زوايا عينيه، محاولا التخفيف من التعب الذي شعر به.

دعم المخيم المحاربين بكل شيء بدءا من حزم السهام والمأوى وصولا إلى الطعام الساخن، لكنّهم وصلوا إلى حالة حرجة.

أكمل كلامه قائلا: «سأرسل الجنود لجمع الطعام وإحضار الحيوانات لتُذبح، أو استبدال الأضعف من مخازننا...». مرة أخرى شتم في سره وتابع: «لا أستطيع التفكير في ذلك يا تشاباي، فقد شققت طريقي ضمن أراضي سونغ، ويجب أن أكمل طريقي وإلا سيضيع كل ما عملت لأجله».

فسألت تشاباي: «هل من الصعب أن تستريح خلال الشتاء؟ وبذلك تكون إلى جانبي حين يولد الطفل. أرسل رجالك ليحضروا كل شيء بإمكانهم إيجاده إلى هنا، وأغِر على البلدات المحلية، ومع حلول الربيع ستكون جاهزا لإعادة الانطلاق».

عبس كوبلاي وهو يفكر، فجزء منه يتوق لفكرة التوقف والاستراحة، إذ لم يسبق له أن شعر بمثل هذا التعب من قبل.

قال: «لقد فتحت الطريق إلى شاويانغ وما بعدها يا تشاباي، إن تمكنت من متابعة التقدم فسأصل إلى عاصمتهم بحلول الربيع أو الصيف، ولكن إن توقفت الآن، فستهاجمني عشرات

الجيوش وكلها تتمتع بالقوة والنشاط.

ردت قائلة: «لكن إن تابعت طريقك فستخسر المخيم، وصانعي السهام، ودابغي الجلود، وصانعي السروج، إن هؤلاء الرجال والزوجات الذين يكدون في العمل هم من يبقونك في الميدان، فهل سيستمر الجنود بالقتال في حين أن عائلاتهم تتضور جوعا خلفهم؟».

فقال كوبلاي: «لن تتضوروا جوعا».

أجابته تشاباي: «الكلام وحده لن يشبعنا، لقد كاد الوضع أن يتحول إلى مأساة قبل أن يجدنا كشافتك. وقد بلغ الأمر ببعض الرجال الأقوياء أن عبروا عن رغبتهم في الاستيلاء على مخازن الطعام لأنفسهم، وتركِ من هم أضعف يتضورون جوعا».

وقف كوبلاي وقد تصلبت عيناه من الصدمة وقال: «هذه المرة ستخبرينني بأسمائهم يا تشاباي، سأشنقهم من أغصان الأشجار».

«إنّ ذلك إلهاء، وليس بالأمر المهم الآن. جِد طريقة لتحل هذه المشكلة يا زوجي، أنا أعلم مقدار الضغط الهائل الذي ترزح تحته، أو ربما أعتقد أنني أعلم، لكنني واثقة بأنك ستجد حلا لهذا».

سار بضع خطوات مبتعدا عنها يحدق إلى الأشجار المتشابكة في كل مكان ثم قال: «هذه الأراضي غنية يا تشاباي، وأنا أحتاج إلى شهر واحد لأجد قطعانا جديدة. نجلب هذه القطعان إلى هنا، ثم نرسل نصف المخيم إلى كاراكورم». رفع يده ليمنعها من الكلام عندما فتحت فمها لتتكلم وأكمل: «إنّ هذه المعارك ليست كمعارك جنكيز، عندما كان بإمكانه أن يصطحب الأمة كلها، ويُبدل بين المحاربين. إن أعداد جنود سونغ كثيرة، وهم يتوافدون جيشا تلو الآخر. يجب ألا أنسى أنني أنا من يتوغل في أراضيهم، وأنني أتحرك بإمدادات قليلة. يجب أن يعود الأطفال والنساء إلى أرضنا برفقة عدد كافٍ من الرجال ليحافظوا على سلامتهم، وستكونين وزن جين في عداد المغادرين، أنتِ سألتِ ما الذي سأفعله وهذا ما سأفعله في غضون شهر».

«لك أن تفعل ما شئت، ولكنني لن أغادر، فلست راغبة في فقدان طفل آخر في أثناء رحلة قاسية إلى الوطن، سأبقى هنا حتى ألد».

رأى الإصرار في تعابير وجهها فتنهد وقال: «لقد تعبت من النقاش معك يا امرأة».

فقالت: «حسنا».

تحسر كوبلاي على كل يوم يخسره، أما جنوده فانطلقوا بحثا عن القطعان على بُعد مئات الأميال. ففي الشتاء، يستغرق الأمر المزيد من الوقت، أكثر مما تمنّى، وقد شهد مرتين اكتمال القمر قبل أن يُخرج العائلات من الغابة. وبدت الأشهر المظلمة أبرد من السنة السابقة.

تشكل الجليد على أغصان الأشجار بشكل جميل، التي لم تكن فيها حياة، وتوفر الحطب دائما من أجل المواقد، وأحيطت الخيم بحطب للنار كُدس فوق بعضه حتى أصبح ارتفاعه أعلى من أطول الرجال.

كانت الأرض متجمدة عندما وضبوا المخيم وغادروا عمق الغابة، تاركين خلفهم العلامات المعتادة ابتداء من الأراضي الجرداء التي نُصبت عليها الخيم، وصولا إلى قبور الأشخاص الذين فارقوا الحياة هنا، أغلبهم رجال أصيبوا في المعركة ولم يستطع المعالجون إنقاذهم، لكن كان هنالك قبور أصغر أيضا، قبور تخص أطفالا لم ينجوا خلال سنتهم الأولى.

لم يكن هنالك جبال ليضعوا عليها الموتى، بوصفه إحدى شعائر الدفن السماوي، حيث تتمكن الطيور التي تأكل الجيف من أن تتغذى عليها، إضافة إلى احتمال انتشار النار الناتجة عن إحراق جثث الموتى أو رؤيتها من قبل العدو، لذلك تم حفر الأراضي المتجمدة بشكل كاف ليتم دفنهم وتغطيتهم بترابها.

جمع كوبلاي المخيم على سهل مفتوح، وتمت استعادة المئات من الثيران التي غُذيت بشكل أفضل مقارنة بما كانت تتغذى عليه عادة. أمر كوبلاي بإعادة مئتي ألف شخص من شعبه إلى أرضهم، معظمهم من الزوجات والأطفال. وسيرافقهم أيضا ما يقارب العشرة آلاف رجل، أغلبهم من الذين أُصيبوا بجروح أو فقدوا أحد أعضائهم في المعارك السابقة، إلا أنه لا يزال بإمكانهم القتال إن اضطروا لذلك.

تمسك الرجال بعائلاتهم عندما حان موعد تنفيذ الأمر وذلك تبعا للعادة، لكنّهم بعدما رأوا جيوش سونغ، بدا عليهم الارتياح خلال العناق الأخير. سيتحتم على العائلات أن تنطلق بسرعة إلى حدود أراضي تشن، وتعبر خلال الربيع إلى أراضٍ أكثر أمانا، ومن هناك يرسل كوبلاي كشافة إلى مقاطعاته، وسيكونون بأمان خلال رحلتهم نحو الشمال.

لم يترك كوبلاي سوى الحرفيين، والرعاة، والحدادين، وصانعي الحبال، ودابغي الجلود الأكثر مهارة. وستُرحل أغلب الخيم، وبذلك سينام الجنود المغول بلا غطاء تحت المطر وفي الغابة.

اضطر كوبلاي لأن يترك بعض العربات من أجل أعمال الحدادة وإمدادات المعدات، وسترافقه الفضة التي امتلكها إلى الشرق. أدرك أنّ المخيم سيبدو أقل بهجة، فلن يبدو الأمر بعد ذلك كما لو أنهم أمّة تنتقل إلى أماكن جديدة، بل أصبح مجرد مخيم حرب، وكل الرجال هناك مكرسون للقتال في فيالقهم.

افترق الفريقان الضخمان ببطء وسلك كل منهما دربه، وبدأ العديد منهم يصرخ بكلمات الوداع الأخيرة، بينما شاهد الفرسان المحاربون عائلاتهم تختفي في الأفق رويدا رويدا. بقي كل من تشاباي وزين جين مع خدمهما، ولكن لم يجرؤ أحد على أن يعترض على قرارات أخي الخان. فقد أرسلوا الكشافة إلى حدود تشن، ولم يجدوا جيوشا في ذلك الاتجاه.

ليس هنالك خطر باتجاه الشرق، وعلم كل محارب من المحاربين أنّ عملهم لم ينته بعد. من الصعب أن تكون مبتهجا في يوم كهذا، فهم لا يزالون الغرباء الذين ينطلقون في أراضي سونغ، لكنهم أحسوا بأنّهم تخلصوا من العبء الذي كان يُثقل كاهلهم، وهذا ما سيتيح لهم التقدم بخطا سريعة، صحيح أنّه لم يكن هنالك أي صوت غناء في الليل، لكن هذا سيجعلهم مصممين ومركزين على هدفهم. تغذى المحاربون من دون زوجاتهم كل ليلة على الأطباق التي تُصنع لجميع رجال المخيم؛ أطباق مترعة بحساء اللحوم السميك.

عندما بدأ النهار يصبح أكثر طولا، تجاوز كوبلاي مواقع معاركه التي خاضها سابقا، امتطى حصانه بين حقول من الجثث المتعفنة فاعتلاه الرعب. تغذت الذئاب والثعالب والطيور على هذه الجثث وقد نُزع لحمها عن عظامها، لقد كانوا أعداء وأصدقاء ملقَون فوق بعضهم بعضا وقد تحللت جثثهم بتأثير المطر وأشعة الشمس.

انطلق جنوده عبر هذه الأراضي بلا مبالاة مطلقة، ما جعل كوبلاي يتساءل عن قدرتهم على عدم استفراغ الطعام من أمعائهم عند رؤيتهم هذا، وعندها فكر في أنه يمكن أن يُقتل في ميدان قتال غريب وتُترك جثته فيه، لم يعلم إن أزعجت مثل هذه التساؤلات رجالا مثل أويانغ خاداي، أو إن كانوا سيصرحون بالحقيقة إن سئلوا.

أخبره كشافته أنّهم سيلاقون قوة من الفرسان على بعد أربعين ميلا من شاويانغ، بدأ محاربو كوبلاي بزيادة سرعتهم كل يوم من دون أن تُعطى لهم أية أوامر بذلك، وتراجعت العربات إلى

المخيم المصغر، الذي يبعد عشرين ميلا، ولكنها ظلت في متناول المهاجمين.

في الأيام شديدة البرودة شرب الرجال الدم الدافئ من الأحصنة، إذ تشاركوا الجروح الطفيفة بين ثلاثة أو أربعة من الأحصنة الإضافية، وبذلك لن يصبح أي منها ضعيفا جدا. لقد انطلقوا في مسار المعارك نفسها الذي ساروا عليه من قبل، ولكن لم تكن لديهم أية إمدادات جديدة إلى أن يتجاوزوا شاويانغ. فتساءل كوبلاي عما سيكون رد فعل الحاكم هناك عندما يراهم عائدين، هل سيقول إنه سيتجاوز عن مرورهم من هناك للمرة الثانية؟ فلا يمكن إلا لقلة من الرجال أن يقولوا ذلك.

في النهاية، فهم كوبلاي أنّ لديه عددا قليلا من الرجال وهو لا يريد أن يخسرهم في حصار أسوار سونغ، لأنه يمكن للعدو المحتشد أن يطحن محاربيه، ويجعلهم هباء منثورا. لكنه اتخذ قراره، وتساءل إن كان هو الرجل ذاته الذي دخل أراضي سونغ بثقة الشباب، والذي لم يكن ليقوم بمثل هذه المقامرة حينها، أما الآن فها هو ذا يقود رجاله إلى قلب الإمبراطورية باندفاع كبير. ولن يقف من أجل شاويانغ، بل لن يقف من أجل أي شيء.

استطاع كوبلاي رؤية رجال على أسطح أبنية المدينة المترامية الأطراف في الوقت الذي سار على حصانه بالقرب منهم. فرفع يده نوعا من التحية أو الوداع، لم يعلم أيا منهما. سيقتلع قلب تنين سونغ بضربة واحدة ولذلك لا يوجد سبب يدعو المدن الأخرى للخوف منه.

لم يسلب الأراضي الواقعة وراء شاويانغ من كل شيء، لكنّه اغتنم فقط ما يكفي لإطعام جنود جائعين، فسُلبت المدن الأولى الصغيرة من أجل الطعام، وبالرغم من ذلك فقد منع كوبلاي تدميرها.

بالعودة إلى المخيم الذي نصب في الغابة، فقد رأى رجاله المخزون الضخم من الفضة الذي سيطر عليه وهو يُفرغ من ألف حصان، وتم نقل القطع الفضية من رجل إلى آخر ثم وُضعت على أكوام من الأوراق الرطبة. فعلى الرغم من أنّ المحاربين المغول لم يتقاضوا المال منذ شهور، لكن على الأقل علموا أنّ أموالهم موجودة لذلك لم يتذمروا كثيرا من ذلك.

لم يتوقع أن يرى أيّا من فرسان يام هناك، فهم بعيدون جدا في أقصى الجنوب إضافة إلى أنّ خطوط مراكز يام قد انتهت في أراضي تشن، لذلك تفاجأ عندما رأى اثنين منهم بدلا من واحد، بالكاد يبدوان مثل الفرسان الذين عرفهم؛ سريعين وشديدين. أحضر كشافته هذين الاثنين، فأمر

كوبلاي بالتوقف في سهل واسع عندما سمع أصوات الأجراس المعلقة في سراجيهما. وأومأ إلى أويانغ خاداي، فأمرهما قائد الجيش أن يترجّلا عن حصانيهما ويستريحا.

همس بايار إلى كوبلاي الذي كان يسير محاطا بكشافته قائلا: «إنهما يبدوان شبه ميتين».

لقد بدا ذلك جليا، واستغرب كوبلاي كيف استطاع هذان الرجلان إيجاد الطعام من دون وجود محطات يام لتقديم الطعام وتزويدهما بأحصنة جديدة.

بدا أحدهما أشعث في حين بدا الألم على الآخر عندما تحرك، كان يتأوه مع كل خطوة يخطوها حصانه. أوقفا حصانيهما وأمرهما بايار بالترجل، فانزلق الأول عن السرج وترنح قليلا عندما هبط.

بينما تم تفتيشه، نظر بايار إلى وجه صديقه الذي بدا شاحبا.

قال فارس اليام بضعف: «هنالك سهم في مكان ما على ظهري، إنّه مكسور هناك، ولا أعتقد أن بإمكاني أن أنحني». لاحظ بايار أن يده اليمنى معلقة من كتفه تتخبط بلجام الفرس الذي ربط حولها. فاستدعى أحد رجاله ليحرر الرجل من اللجام. حاول فارس يام ألا يصرخ، لكنّ الصوت المكبوت الذي صدر عنه نتيجة الألم المبرح الذي عاناه بدا أسوأ من الصراخ.

على الأرض، ساعد بايار الرجل لينحني ويركع على ركبتيه، ونظر إلى السهم الذي استقر في كتفه. لا بدّ من أنّه يتألم عند كل نفس يتنفسه، تنهد بايار بهدوء واقترب من الإصابة وهزّ الجزء العالق من السهم مما جعل الرجل يرتعش وهو يحبس الشتيمة.

قال بايار: «إنّه يفسد اللحم، أستطيع أن أشم رائحته من مسافة، سأحضر معالجا ليخرج هذا الجزء من السهم، ويختم مكانه بالنار. لقد أحسنت صنيعا أيها الفارس».

فسأل الرجل: «هل وصل إليكم أحد قبلنا؟». واتكأ على ذراعه يلهث مثل كلب تعب. هز بايار رأسه بالنفي فتجهم وجه الرجل وقال: «لقد أُرسل اثنا عشر رجلا منا، لقد بحثت عنكم لوقت طويل». بدت النظرات غاضبة في حين وقف بايار غاضبا ومتفاجئا ثم أجاب:

«لقد كنا نمتع أنفسنا بمشاهدة أجزاء من هذا البلد. لكن ها قد وجدتنا في النهاية، والآن هل ترغب في أن تسلم رسالتك أولا أم تريدني أن أخرج ذلك السهم منك قبل ذلك؟».

في تلك الأثناء، انتهى تفتيش فارس يام الآخر، وسُمح له بالاقتراب من كوبلاي، ففتح حقيبته، وأخرج منها ورقة مطوية مختومة بختم مونغ الشمعي وسلمها له. وقف كل من بايار والرجل المصاب يشاهدان بصمت كوبلاي وهو يكسر الختم، وبدأ يقرأ الرسالة.

قال الرجل المصاب لبايار: «لا حاجة إلى ذلك الآن، فها قد وصلته الرسالة»، ثم انهار، فحمله بايار وأرخاه على كتفه متجاهلا الرائحة الكريهة للعرق والبول التي فاحت من الرجل. بإمكانه أن يشعر بالحرارة التي تنبعث من لحم الرجل الذي من المؤكد أنه يعاني من الحمى. في تلك الأثناء تفاجأ بايار أيضا من خفة وزن الرجل، يبدو أن الفارس تضور جوعا من أجل إتمام مهمته بإيصال الرسالة وتساءل عن الأمر المهم إلى هذا الحد ليتم إرسال اثني عشر فارسا يحملون الرسالة ذاتها، لكن بايار أدرك أهمية الأمر لأنه لم يسبق أن اتُبعت هذه الطريقة من قبل. صاح بايار لأحد قادته قائلا:

«أحضروا له معالجا. فإن أردنا أن يبقى على قيد الحياة فإنه يجب إخراج رأس السهم من كتفه وتنظيف الجرح. خذوه عني». ثم سلم الفارس المصاب بالدوار لجنوده ووقف يمسح يديه بسرواله.

بدا كوبلاي شاحبا وهو يقرأ الرسالة، وبقيت الرسالة بختمها المكسور منسية في يده وهو يحدّق إلى البعيد، وغرقت عيناه بالسواد. قلق بايار أكثر، وبدا منزعجا، فاقترب منه وسأله بهدوء: «هل الأمر بهذا السوء؟».

فأجابه كوبلاي مؤكدا كلامه بصوت أجش حزين: «أجل إنه بهذا السوء».

للمرة الأولى منذ سنوات، أحسّ شوان بأنّه على قيد الحياة عندما انطلق نحو الغرب. مازال يمتلك مهاراته القديمة، وبإمكانه أن يرى أنّ رجاله قد أحسوا بالشيء ذاته. لقد كبروا في المنفى بعد أن ضاعت أفضل سنوات حياتهم أمام أعينهم، لكن كلما ابتعدوا ميلا عن هانغتشو بدا الماضي أبعد خلفهم. إن الأهم من كل هذا هو الأخبار التي وصلت في أثناء مغادرتهم المدينة، فقد أُمسك بكشافة مغول منطلقين نحو الجنوب، حمل كل منهم الرسالة ذاتها مخطوطة بلغتهم الأم.

رأى شوان رسالة من الرسائل الأصلية التي كانت ملطخة بدم حاملها.

فقط من يملك عقلا شكاكا بإمكانه أن يرى أنّ هنالك فائدة أو خدعة من إعلان موت الخان الذي انطلق جنوبا. وقد امتلك شوان هذا العقل، الذي أصبح كذلك بسبب سنوات المنفى. رغم ذلك فضّل أن ينتظر ليتأكد من أنّ المعلومات صحيحة.

لقد علم العادات التي اتبعها المغول بشكل وضيع جدا. فإن هم عادوا إلى موطنهم فلا بد من أنّ ذلك استجابة لصلواته، وبالطبع صلوات أمّة سونغ.

هز رأسه وهو ينطلق على حصانه، محاولا أن يزيل هذه الأفكار بحركته هذه. فهو لم يكن يعلم إن كان سيبقى على قيد الحياة بعد أن يقابل محاربي كوبلاي، لكنّه متأكد من أنّه لن يعود إلى هانغتشو على الإطلاق.

نظر باتجاه ولده البكر الذي يسير على يمينه، فرأى لياو جين مغمورا بنشوة الحرية بغض النظر عن مكان وجهتهم أو طبيعة ما سيواجهونه، فقد رمى بنفسه في ساحات التدريب بكل طاقة الشباب لديه. ابتسم شوان بينه وبين نفسه، يبدو أنّ الرجال قد أحبوه، وكان سيصبح إمبراطورا جيدا لو بقيت له إمبراطورية ليحكمها، لكن أيا من هذا ليس بالأمر المهم، فها هم الآن أحرار، وكلمة أحرار أشبه بالاستمتاع بالصيف الجميل بالنسبة إلى كل الرجال هناك.

خلال الحركة الفوضوية لتجهيز ثمانية آلاف رجل للتحرك مع حشود سونغ، لم يكن من الصعب إخراج أولاد شوان الآخرين من المنفى. بكل بساطة أرسل شوان اثنين من رجاله على حصانين عبر طرق المدينة يحملان الأوامر. فلم يجرؤ أحد على أن يشكك بسلطته الجديدة، وإن تجرؤوا على ذلك فإنّ الإجابة ستكون متأخرة جدا لإيقافه. حتى إنّ شوان استخدم خدما لهم بالفضة التي أخذها من ابن عمه، وسيرسلهم إلى الشمال برفقة عدد من أفضل رجال تشن في ليلة غير مقمرة، وسينجون بطريقة ما في أراضيهم القديمة. لم يكن قد أخبر لياو جين أنّه سيسافر معهم، بعيدا عن فيالق المغول التي تتجه نحو الشرق.

انطلق قادة سونغ على كلا جانبي قوات تشن. فالسيد جين آن كان عند كلمته، وأمّن ما يقارب الخمسين ألف جندي، نصفهم من الفرسان. لم يعلم شوان أنّ السيد الشاب رجل بمثل هذه القوة، لكن يبدو أنّ عشيرته قادت الجنود في الميادين لأجيال عدة. وحاول السيد جين آن أيضا أن يقنع أحدا آخر لينضم إليه؛ وهو ابن عمه الذي أحضر معه أربعين ألف جندي. بدا الأمر بالنسبة إلى شوان كجمهور ضخم بالرغم من أنّ قائدي سونغ لا يزالان غاضبَين من نقص الدعم من المجلس أو من الإمبراطور ذاته.

أحضروا معهم مئات المدافع التي خفضت من سرعتهم إلى الثلث، لكن شوان استمد القوة عندما رأى هذه القطع السوداء التي تتدحرج على طرق سونغ الجيدة.

مرّت أوقات حلم فيها شوان بتدمير جيش المغول الذي انطلق بطريقه في مقاطعات سونغ. فذلك الفوز الصعب قد يوحّد مجلس القادة وبذلك من الممكن أن يتحركوا معا لمواجهة التهديد الأكبر الكامن في الشمال. في أيامه الأكثر تفاؤلا، سمح شوان لنفسه بأن يتخيل أنه استعاد أراضيه، لقد بدت أفكارا جميلة، لكنّه ضحك على سذاجته، إذ لم يهزم أحد المغول منذ أجيال، لكنّه تمنى لو كان تسايو وين موجودا ليرى فقط رجال تشن وهم ينطلقون بفخر؛ ذلك الجندي العابس من سونغ الذي اختفى في الوقت الذي طلب إليه أن يرسل تقريرا للثكنات كي يستعدوا، لقد كان رجلا جبانا.

وذلك لم يكن مهما أيضا.

لم تكن شاويانغ تبعد أكثر من بضعة أميال إلى الأمام، فانطلق الكشافة يبحثون عن أول إشارة لرؤية حشود كوبلاي. كان المغول في المنطقة منذ شهور، ولم يتوقع شوان أن يكونوا قريبين، لكنّه سيجدهم، ويطاردهم ويقضي عليهم.

ربّت شوان على رقبة حصانه وشعر بالنشوة لوجوده خارج هانغتشو مرة أخرى. استدار إلى لياو جين، وصاح بصوت يعلو صوتَ الضجيج الصادر عن الرجال والأحصنة:

«أخرج الرايات يا لياو جين، دع سونغ يرون من نحن».

رأى الابتسامة التي ظهرت على وجه ولده وهو ينقل الأوامر إلى حاملي الرايات في كلا الجانبين. فخلال طريقه كله كانت هذه هي المهمة الأصعب خلال الأشهر الفائتة، صحيح أنّ إيجاد الأقمشة ليس بالأمر الصعب، لكن شوان أُجبر على أن يترك هذه المهمة لرجاله، وذلك خوفا من أن تصل هذه الأخبار لقادة سونغ أو ابن عمه الإمبراطور الذين قد ينهونه عن فعل هذا قبل أن ينطلق برحلته.

لقد صنعوا الرايات الطويلة وخاطوها، ووضعوا الحرير الأصفر الذي شكّل شعار إمبراطورية شوان، وجد شوان نفسه يحبس أنفاسه في الوقت الذي رفع فيه الرجال الرايات، فرفرفت الرايات الكبيرة مع الرياح مزينة بخطوط من ذهب.

ها هم جنود آخر جيش لشين يرفعون رؤوسهم بفخر وقد اغرورقت أعينهم بالدموع عند رؤيتهم شيئا لم يتوقعوا أن يروه مرة أخرى، فهتفوا يلوحون برايات إمبراطورية تشن في حين أحسّ

شوان بالحزن والفرح يغمرانه في الوقت نفسه.

29

بقي جنود المغول في مكانهم إلى أن حلت الظهيرة، على بعد بضعة أميال شرق شاويانغ.

رأى الجنود أنّ خيمة كوبلاي قد جُهزت، وفي الحال زال التوتر الطفيف الذي ساد بينهم. فلن تكون هنالك أية أوامر للركوب والانطلاق طالما أن الخيمة البيضاء بقيت قائمة. لدى الرجال الثمانين ألفا ما يقارب الثلاثمئة حصان إضافي بدأت تجري بينهم في مرعى يشبه بأوراقه الغابة، تعالت أصوات تلك الأحصنة القيّمة ذات الألوان البنية والرمادية وغيرها، فإضافة إلى أنّها توفر الدم والحليب للجنود، حملت المهور أيضا بعض المعدات ابتداء من الدروع الإضافية والحبال والصمغ وصولا إلى قطع الجبن. وذلك هو سر نجاحهم خلال إغارتهم على مختلف المناطق، بالرغم من ابتعادهم مئات الأميال عن المخيم الرئيسي.

بدا كوبلاي مصدوما وقد وقف في السهل الفارغ محاطا ببحر من الرجال والأحصنة. بالإمكان رؤية العربات التابعة لمخيمه من مسافة قريبة وهي تقترب منهم ببطء. انتبه إلى أنّ بايار يتجه نحوه راغبا في التحدث إليه، لكنّه لم يجِبه، بل وقف بصمت فقط، وبقي بمفرده تماما غارقا في أفكاره.

بايار هو من أمر بتثبيت خيمة كوبلاي، يبدو أنّ القائد يعتريه الخوف. أيا كان ما قرأه كوبلاي فقد جعل منه رجلا كئيبا وشاحبا يحدق بذهول إلى السهول العشبية.

إنّ سؤال فارس يام عما تحويه رسالته يعتبر جريمة تستحق العقاب، لكن بالرغم من ذلك، راقب بايار بتمعن قبول هذا الفارس الشاي وبعض الخبز واللحم، بدا أنّ الفارس تناول طعامه وقد اعترته التعابير ذاتها التي اعترت كوبلاي لذلك قرر القائد بايار أن يتمشى ويحاول أن يكتشف الحقيقة.

وصلت العربات من دون أي ترحيب مبهج بها كالعادة، فلم تكن في المخيم زوجات أو أبناء ليبتهجوا، لقد فُكت قيود الجمال والثيران كي ترعى، وجُهزت أماكن للحدادين على أراضي السهل وزُودت بالفحم إلى أن توهج الحديد الصلب باللون الأحمر. أما الجنود الذين احتاجوا إلى أي شيء فلم يكن عليهم أن يتحركوا بسرعة كالعادة. انتشر آخرون وجلسوا في كل مكان في السهل الواسع، محاولين إراحة أقدامهم وظهورهم في حين عمد غيرهم إلى شحذ أسلحتهم وتفقدِ سهامهم وحرابهم كما اعتادوا أن يفعلوا كلما سنحت لهم الفرصة لذلك. تناول آخرون الطعام وتجاذبوا أطراف الحديث، لكنّ هذا التوقف المفاجئ أقلق الجنود، وبذلك علم المزيد والمزيد منهم أنّ هنالك خطبا ما.

عندما اكتمل نصب الخيمة الرئيسية، اقترب بايار من كوبلاي مرة أخرى وقال: «أصبح المكان جاهزا لترتاح يا سيدي».

أشاح كوبلاي نظره عن المكان البعيد الذي كان ينظر إليه وقال بهدوء: «أحضر لي حزم الأوراق، هنالك أشياء أحتاج إليها منها».

انحنى بايار وانطلق مبتعدا، لكن غرابة هذا اليوم جعلته يرغب في العودة إلى كوبلاي في أقرب وقت ممكن، فأرسل أربعة كشافة إلى عربة الحقائب ليحضروا لفافات الورق الكبيرة المربوطة بالحبال.

أمر بايار الرجال قائلا: «ضعوها في الداخل».

كان كوبلاي في الداخل ولم يتحرك من مكانه فسأله: «سيدي، هل الأخبار سيئة جدا؟ هل بإمكانك أن تخبرني ماذا هناك؟».

أجابه كوبلاي بصوت أشبه بالهمس: «مات الخان أيها القائد، لقد مات أخي ولن أراه مجددا».

تراجع بايار بضع خطوات إلى الخلف مصدوما، هز رأسه كما لو أنّه يحاول أن ينكر هذا الكلام. ثم شاهد كوبلاي يتوارى في الخيمة مختفيا في الظلام.

أحسّ بايار كما لو أنّ أحدهم قد ضربه على صدره، فقد ضاق نفسه، لذا اتكأ إلى الأمام مستندا بيديه على ركبتيه محاولا التفكير.

كان أويانغ خاداي قريبا كفاية ليرى كيف أنّ بايار قد انهار بسبب ما قاله له كوبلاي، فاقترب من القائد الأصغر يعتريه القلق وهو الآخر يريد أن يعلم، ولكنّه متوجس مما قد يسمعه.

لاحظ بايار وجود العديد من الرجال بالقرب منه، أولئك الرجال الذين لاحظوا رد فعله على ما سمعه، وتوقفوا عن التظاهر بأنهم لم يسمعوا شيئا، وبغض النظر عن الجزاء الذي من الممكن أن يلحق بهما فقد شكّ في أنّ الرجال سيدعون فارسَي يام وشأنهما لوقت طويل، إذ لا يمكن احتواء هذه الأخبار.

بدأ بايار يتصبب عرقا عندما فكّر في ذلك. فمن الممكن أن تنتشر الأنباء في كل مكان، وستتوقف الحملات، وستقاوم المدن عندما تسمع هذا الخبر، وأصحاب النفوذ في الإمبراطورية سيعلمون أنّهم قد عادوا إلى مرحلة من الاضطرابات الهائلة مرة أخرى، إضافة إلى أنّ بعضهم سيخاف من المستقبل، في حين سيبدأ آخرون بشحذ سيوفهم.

قال بايار لأويانغ خاداي: «لقد مات الخان مونغ».

شحب وجه أويانغ، لكنّه تمالك نفسه بسرعة وقال: «كيف حصل ذلك؟».

رفع بايار يديه بلا حول ولا قوة، فكل ما حققه كوبلاي في أراضي سونغ سيصبح هباء منثورا بسبب الفوضى الناتجة عن رسالة واحدة. بالكاد تمكن من التفكير وقد لاحظ أويانغ خاداي ذلك، فقد أصبح فمه كخط ناعم من اللحم الشاحب، فقال له: «تمالك نفسك أيها القائد. لقد خسرنا خانا من قبل، ولكن الأمة ستستمر. تعال برفقتي لنتكلم إلى فارسَي يام، فهما يعلمان تفاصيل أكثر مما أُخبرنا».

حدّق بايار إلى الفراغ، ثم لحق بأويانغ خاداي الذي انطلق متوجها إلى فارس يام غير المصاب، وعندما وصل أويانغ خاداي إليه حدق الرجل إليه مثل أرنب يواجه ذئبا. فقال أويانغ لرجل يام: «أخبرني بما تعلم».

ازدرد فارس يام ما كان يأكله من لحم وخبز في فمه ثم وقف وأجابه: «لقد كان قاتلا مأجورا أيها القائد».

ردّ أويانغ بعنف: «قائد الجيش».

كان الرجل يرتجف من الرعب حينما أعاد قول اللقب مصححا: «يا قائد الجيش، لقد أُرسلت برفقة أحد عشر رجلا آخر، توجهوا شمالا إلى طرق يام في أراضي تشن».

اقترب أويانغ منه وقال: «ماذا؟ هل كنتم في أراضي سونغ».

أجاب الرجل متلعثما وقد زاد توتره: «كان الخان يتجه جنوبا يا قائد الجيش».

يعرف أويانغ خاداي أنّه لا يجب على أحد أن يتحدث إلى فرسان يام، لكن عاجلا أم آجلا سيخبر بتفاصيل موت الخان. هذا الأمر الذي سيؤثر على كل فارس في كل مكان في الإمبراطورية، ولن يكونوا أهلا للثقة مرة أخرى.

قال أويانغ خاداي غاضبا: «كم يبعدون من هنا؟ وكم عدد الرجال؟ هل يتحتم عليّ أن أسأل عن كل تفصيل قبل أن تُخرج الكلام من فمك؟».

أجابه الرجل: «أنا... أنا آسف يا قائد الجيش، عددهم يقارب المئتين والثمانين ألفا، لكنّهم لن يتقدموا أكثر، فقائد الجيش سيريانك يقودهم عائدا إلى كاراكورم. وسيكون أخوا الخان قد علما بالخبر الآن، خصوصا القائد آريك بويك بما أنّه في العاصمة كاراكورم. أما القائد هولاكو فمن الممكن أن يسمع بهذا الخبر خلال الأيام القليلة القادمة، إن لم يكن قد سمع به بعد». بحث هذا الفارس عن شيء آخر ليقوله تحت ضغط من نظرات أويانغ خاداي الباردة، فأكمل: «لقد كنت هناك عندما وجدت جثة غويوك خان يا قائد الجيش. إنّ الأمة كلها ستتراجع إلى كاراكورم إلى حين اختيار الخان الجديد».

أجابه أويانغ: «لقد كنت موجودا عندما تلقى تسوبوداي خبر وفاة أوكتاي خان أيها الشاب. فلا تقل لي أشياء أعرفها جيدا».

أجاب الرجل: «أعتذر، لم أكن أقصد ذلك أيها القائد».

استدار أويانغ خاداي إلى بايار محبطا من فارس اليام هذا ومن توتره، وقال له: «هل لديك أية أسئلة له؟».

أجاب بايار: «سؤال واحد فقط. كيف استطاع القاتل أن يصل إلى الخان بوجود مثل هذا الجيش الضخم؟».

نظر الشاب المتعب كما لو أنّ الدم قد تجمد في عروقه أو كأنّه غصّ باللحم والخبز الذي تناوله وقال: «تذرع القاتل بأنه فارس يام، فسمح له بالمرور، وتم تفتيشه أيضا لكنني سمعت أنّه قد أخفى شفرة حادة».

قال أويانغ خاداي بصوت منخفض: «يا إلهي».

نظر إليه بايار متفاجئا وقال في داخله: «تنتشر الشعائر المسيحية حتى لدى هؤلاء الذين لا يملكون أدنى فكرة عن الإيمان».

وقف كوبلاي لمدة طويلة في خيمته من دون حراك. أراد أن تأتي تشاباي إليه، لكن لم يكن بإمكانه أن يستجمع قواه ليرسل إليها كي تحضر.

سمع الضجيج الصادر عن رجاله حوله، لكن على الأقل أبقتهم هذه المساحة الصغيرة الخاصة به في الخيمة بعيدا عنه، إنّه أمر مريح أن يكون منفصلا عنهم، بالرغم من أنّه لم يذرف الدموع.

جالت الأفكار في رأسه ببطء شديد، فعندما كان فتى، سبح مرة في بحيرة متجمدة، فأحسّ أنّ أطرافه قد تخدرت بلا حول ولا قوة، وبذلك اعتقد أنّه سيغرق، لكن مونغ أنقذه وأخرجه من البحيرة، ذلك الأخ الكبير الذي ضحك على حاله وقد وقف يرتجف ويتكوّر على ضفة النهر.

امتلك المئات من الذكريات، وآلافا من المحادثات التي تزاحمت في رأسه لتجد مكانا لها. تذكر أن مونغ أرسله ليقضي على سلالة سونغ، لكنّه تذكّر أيضا عندما وجدا الخيمة القديمة في الوادي، كانا بعمر الخامسة عشرة حينها. كانت إحدى العائلات تنام في الخيمة حين سحب كوبلاي ومونغ قضبانا من الحديد، فانهار الخشب المتعفن واللباد وتمايل الاثنان يتأرجحان مع القضبان، ولحسن الحظ لم يُصابا لفرط حماسهما.

لقد كانت قصة كبيرة، ومن ذلك النوع من القصص الذي يمكن أن يُروى في جنازة الخان. فهي تتحدث عن صبيين يقومان بفعل مُنكر في أحد الأيام بداعي التسلية. لقد اكتشفا لاحقا أنّ الخيمة لم تكن مهجورة كليا؛ فعندما عاد صاحبها إليها استعر غضبا وأقسم أن يجد من حطمها أيا كان، ولكنّه لم يمسك بهما. بالرغم من السنين الطويلة التي انقضت منذ ذلك اليوم، لا يزال كوبلاي يبتسم

كلما تذكر هذه القصة. صحيح أنّه خسر أصدقاء من قبل، لكنّه اعتقد أنّ إخوته سيكونون إلى جانبه دائما، في السراء والضراء. ففقدانه مونغ بدا كإزالة كل ما أسس له أخوه من قبل.

بالكاد لاحظ كوبلاي كيف سقط عندما لم تعد قدماه قادرتين على حمله، إذ وجد نفسه ممددا على سجادات سميكة، في حين ارتفع الغبار في الهواء حوله. أحس بالصدمة وتحركت يداه من دون وعي إلى الأحزمة الجلدية لدرعه محاولا أن يفكها إلى أن تخلص من درع الصدر الأملس وتمكن من فكه. اقتلع آخر حزام بنوبة من الغضب ورماه. حفّزه هذا الشعور فدفع بخوذته وأجزاء الدرع الخاصة بعيدا بقوة، ورماها إلى جانبه لتصدر صوت رنّة عند اصطدامها بالقطع الأخرى المرمية أرضا. لم يمض وقت طويل قبل أن يتخلص من آخر قطعة من الدرع، ويرميها على كومة القطع، ويجلس بسروال وسترة قصيرة من الحرير الخشن ذات كمين طويلين تجاوزا يديه وطُويا، أحسّ أنه أفضل من دون الدرع، وجلس مطوقا يديه بركبتيه، يفكر في كل ما حصل وما يجب عليه فعله.

رأى بايار الكشاف الذي كان ينطلق بسرعة باتجاههم قبل أويانغ خاداي، فلكز الرجل الأكبر على كتفه، ثم التفت الاثنان ليشاهدا وصول الكشاف الذي استدار بحصانه متوجها إلى الخيمة الوحيدة التي بإمكانه أن يراها بين كل هذه الأحصنة والرجال الذين يستريحون.

ترجّل الكشاف عند باب الخيمة، لكن بايار اعترضه، أمسك به من يده، وسحبه بعيدا حتى تأكد من أنّ كوبلاي لن يستطيع أن يسمع ما سيقوله الرجل.

فقال بايار: «بلغني تقريرك».

احمر وجه الكشاف وأخذ العرق يتصبب من جبينه، إذ إنه ركب حصانه بسرعة لمسافات طويلة. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على الخيمة انحنى للرجلين وقال: «يا قائد الجيش، وأيها القائد بايار، هنالك جيش لسونغ في المدى؛ ما يقارب عشرة من الحشود أو أكثر، وخمسة من حشود الأحصنة والعديد من المدافع. لقد أرسلوا فرسانهم ليستطلعوا الأماكن لذلك لم أكن أملك سوى وقت قليل لأقوم بتقدير بسيط لأعدادهم قبل أن أعود إلى هنا».

فسأل أويانغ خاداي وهو ينظر إلى الخيمة: «كم يبعدون عن هنا؟».

فأجاب الرجل: «حوالي ثلاثين ميلا نحو الشرق». وأومأ مشيرا إلى حركة الشمس في السماء.

فقال بايار بارتياح: «حسنا، بما أنّهم يصطحبون المدافع، فلن يصلوا إلى هنا قبل الغد».

علق أويانغ خاداي قائلا: «إلا إن تنبهوا لوجودنا هنا وقرروا أن يصطدموا بنا من دون أسلحتهم. وفي كلتا الحالتين، علينا أن ننسحب».

نقّل الكشاف نظره بين الرجلين باستغراب، فقد انطلق أمام المحاربين المغول مبتعدا عنهم منذ فترة ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الأخبار التي وصلتهم في غيابه، إضافة إلى أنهما لم يقررا أن يخبراه بها.

قال أويانغ خاداي للكشاف: «اذهب وبدّل حصانك، وعد من حيث أتيت بأسرع ما يمكن، أحتاج إلى أعين تراقبهم، بل أرى أنه من الأفضل أيضا أن تصطحب معك ثلاثة كشافةٍ آخرين، ضعهم في نقاط متباعدة، وبذلك يمكنهم أن يوصلوا إليّ أي شيء تراه بسرعة».

انحنى الكشاف وهرول مبتعدا.

أيا كان ما قاله بايار لاحقا فقد نسيه عندما خرج كوبلاي من خيمته بعد أن ترك درعه في الداخل، ففغر الرجلان فميهما متفاجئَين بالتغير الذي حصل له، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الذهبي محاطا بحزام عريض ذي لون أحمر قانٍ، أما منطقة الصدر فكانت مطرزة بتنين أخضر غامق، الشعار الأعلى رتبة ونبلا لدى سلالة تشن، أمسك كوبلاي بسيف طويل ذي مفصل أبيض عند مقبضه واقترب من قائديه الأعلى رتبة.

ركع كل من بايار وأويانغ خاداي على ركبة واحدة وأحنيا رأسيهما.

قال أويانغ خاداي: «سيدي، إنّني متأسف لسماع مثل هذا الخبر». وعندما رأى كوبلاي ينظر إلى أربعة كشافة يمتطون أحصنتهم بالقرب منهم وينطلقون مسرعين باتجاه الشرق قرر أويانغ خاداي حينها أن يشرح ما يحدث قبل أن يسأل كوبلاي، فقال: «هنالك جيش لسونغ يتقدم من الغرب يا سيدي. لكنّهم لن يصلوا إلى هنا في الوقت المناسب ليعترضوا انسحابنا».

كرر كوبلاي: «انسحابنا!». بدا الأمر وكأنه لم يفهم ما قاله قائد الجيش، فتلعثم أويانغ خاداي بسبب نظرة كوبلاي الصفراء إليه وقال: «بإمكاننا البقاء أمامهم يا سيدي. نستطيع أن نصل إلى أراضي تشن في الربيع. لقد قال فارس يام إنّ الأخبار ستكون قد وصلت إلى إخوتك بالفعل، فلا بد من أنّهم في طريقهم إلى بلادنا».

قال كوبلاي بهدوء: «أنت لا تفهمني على الإطلاق يا قائد الجيش، فأنا في بلدي، وهذه هي إمبراطوريتي ولن أتخلى عنها».

اتسعت عينا أويانغ خاداي عندما فهم دلالة ثوب شين الذي ارتداه كوبلاي وقال: «لكن يا سيدي، سيكون هنالك اجتماع للمغول، لقاء للأمراء وأخويك...»

قاطعه كوبلاي وقال: «ليس لدى أخويّ ما يقولانه بشأن ما يحدث هنا». ثم خشن صوته وأكمل: «سأنهي ما بدأت به. لقد قلت لك إن هذه إمبراطوريتي.» خرجت منه الكلمة بنوع من التعجب كما لو أنّه فهم حينها فقط الفوضى التي تحدث في داخله. بدت عيناه مثل قطعتين من الذهب اللامع تحت أشعة الشمس، وأكمل: «لا، هنا تقع إمبراطوريتي يا أويانغ خاداي، ولن أُجبر على الرحيل. جهّز الجنود من أجل المعركة يا قائد الجيش. فسأواجه أعدائي وأدمرهم».

تقدم شوان تحت جنح الظلام. رأسه مشغول جدا ومن الصعب أن يستريح، لا يلبث أن تعود إليه أسئلة وذكريات مختلفة. كانت قوة الجيوش أمرا غريبا، فهي أحيانا أعظم بكثير من قوة الجنود الموجودين فيها، فالرجال الذين من الممكن أن يهربوا إن كانوا وحدهم سيقاتلون بالقرب من أصدقائهم وقادتهم ببسالة. في النهاية وجب على الجميع النوم ووجب عليهم تناول الطعام.

خيّم شوان في مكان قريب من مخيم عدوٍ له من قبل، ولا يزال هذا الأمر واحدا من أغرب التجارب في حياته.

كان الجيشان قريبين جدا لدرجة أنّ بإمكانه رؤية نار مخيم المغول على شكل نقاط ضوئية على امتداد السهل المظلم. نشر قائدا سونغ الحراس والكشافة في كل نقطة حول المخيم، ورغم ذلك لم يتوقع أحد أن يحاولوا الهجوم عليهم في الليل. فإن قوتهم تكمن في السرعة والمناورات؛ تلك القوة التي سيفتقدونها في الليل المظلم. ابتسم شوان لفكرة أنّ الرجال ينامون بسلام بالقرب من هؤلاء الذين سيحاولون قتلهم خلال النهار، فالبشر وحدهم يمكنهم تخيل مثل هذه الطريقة الغريبة والمصطنعة لكي يموتوا. الذئاب تمزق لحم الغزلان، لكنها لن تنام وتستغرق في الأحلام على مقربة من بعضها.

سمع شوان غطيط جندي ينام على ظهره في مكان ما قريب منه. جعله هذا الصوت يضحك وتمنى لو يستطيع هو الآخر أن يحظى بقسط من النوم، فهو لم يعد شابا كما كان من قبل، وعلم أنّه

سيعاني من قلة النوم غدا، وتمنى ألّا تستمر المعركة طويلا فقد أقلقه أن يُقتل بسبب هذا، ولا سيما أنّ واحدة من أعظم حقائق المعارك تؤكد على أن لا شيء يُتعب الرجل بسرعة مثل كثرة القتال فردا لآخر.

رأى شوان أشباحا تتحرك في الظلام، فرفع رأسه فجأة مذعورا، لكنّه سمع صوت ابنه فارتاح وقال همسا: «أنا هنا يا لياو جين».

اقتربت المجموعة الصغيرة منه، وبالرغم من أنّ الظلام كان حالكا فقد تعرف إلى كل واحد منهم، إذ إنّ أبناءه الأربعة هم العلامة التي تركها في هذا العالم، وقد فهمَ السيد جين آن ذلك.

تعلق شوان بسيد سونغ النبيل وفكر في التأثير به، صحيح أنّه يستطيع أن يفصل أبناءه عنه من دون التحدث إلى جين آن، ولكن من المرجح جدا أن يتم اكتشافهم.

لذلك خاطر شوان بالتكلم معه بشكل صادق وصريح، وعلى ما يبدو أنّه لم يخطئ بالحكم على الرجل، فقد تفهم السيد جين آن موقفه مباشرة.

وضع شوان كيسا من القطع المعدنية في يد ابنه، فنظر إليه لياو جين متفاجئا يحاول أن يرى تعابير وجه والده في السماء المضاءة بالنجوم.

وقال بهدوء: «ما هذه؟».

أجابه شوان: «إنّها هدية من صديق، وهي كافية لتبقيكم جميعا بخير لفترة من الزمن. ستنجون وستقودون شعبكم، وأنا لا أشك في أنكم ستجدون آخرين يرغبون في مساعدتكم. ولكن بغض النظر عما سيحدث، لديكم فرصة لتعيشوا حياتكم الخاصة وتحصلوا على أطفال من لدنكم. أليس هذا ما ترغب فيه يا لياو جين؟ لقد أعطيتكم أحصنة وسيرافقكم اثنان فقط من رجالي يا بني. إنّهما مخلصان ويرغبان في العودة إلى منزليهما في الوطن، لم أرغب في أن أرسل العديد منهم فيحاولوا أن يسرقوكم». ثم تنهد وأكمل: «لقد تعلمت ألا أثق بأحد وهذا أمر يُخجلني».

قال لياو جين بصوت عال: «لن أذهب» في حين حاولت أختاه إسكاته، لكنه نقل حقيبة القطع المعدنية إلى أيديهما ووقف بالقرب من والده، وأحنى رأسه قليلا ليهمس في أذن شوان قائلا: «يجب على الآخرين أن يذهبوا. لكنني قائد جنود في جيشك يا أبي، دعني أبقَ، دعني أقف معك».

قال شوان باقتضاب: «أفضّل أن أراك على قيد الحياة، غدا سيلقى كثيرون حتفهم هنا، وقد أكون واحدا منهم، فإن حدث ذلك، فدعوني أعلم يا ولديّ أنّ ابنتيّ بأمان وحرّتان. وبما أنني قائدك، آمرك بأن تذهب برفقتهما يا لياو جين، فلترافقكم محبتي ومباركتي».

لم يجبه لياو جين، لكن بدلا من ذلك، انتظر أن يعانق أخوه وأختَاه أباهم للمرة الأخيرة، ووقف على مسافة منهم جميعا، ومن دون أن يقول أية كلمة أخرى قادهم لياو جين بعيدا في الظلام إلى المكان الذي انتظرت فيه أحصنتهم. صحيح أنّه ليس بإمكان شوان أن يرى بشكل جيد في هذا الظلام، إلّا أنّه تمكن من سماعهم عندما امتطوا أحصنتهم وبكت ابنته الصغرى على أبيها، فكُسر قلبه على صوت البكاء هذا.

تحركت المجموعة الصغيرة، وابتعدت عبر المخيم، مرة أخرى بدا شوان سعيدا لأنه فكّر في أن يطلب الإذن من السيد جين آن، وبذلك لن تكون هنالك أية صرخات دهشة واستغراب من حراس سونغ في الليل. لقد أحب جين آن فكرة ذهابهم ودعمَها فقد وقّع لشوان أوراقا ستساعدهم في أراضي سونغ إن تم ايقافهم، وترك الباقي إلى القدر.

لقد قام شوان بكل ما يستطيع ليعطيهم فرصة جديدة للحياة.

سمع أصوات خطوات تقترب منه، فهبط قلبه عندما علم من كان، لم يُفاجأ عندما تكلم الظل الأسود بصوت ابنه لياو جين.

«لقد ذهبوا. فإن لقيت حتفك غدا فإنني سأكون بجانبك». هذا ما قاله ابنه.

قال شوان: «ما كان يجدر بك أن تعصي أوامري». ثم أخفض صوته متابعا: «لكن بما أنّك فعلت ذلك، فابق معي في أثناء تجوالي في المخيم. لن أنام الآن».

فاجأه أنّ لياو جين اقترب منه ولفه من كتفه. لم يكونوا عائلة منفتحة تُظهر المشاعر قط، مما جعل أمورهم تزداد سوءا. فابتسم شوان في الظلام، وأكملا مسيرهما وقال: «دعني أخبرك المزيد عن الأعداء يا لياو جين، فلقد عرفتهم طوال حياتي».

كانت كاراكورم مليئة بالجنود، وامتلأت الحقول أمام المدينة مرة أخرى بجنود المغول، واستضافت كل غرفة في المدينة عائلة على الأقل. لقد عاد مئتا ألف من الجنود إلى المدينة، وامتدت

عمليات الصيد إلى مئات الأميال حول المدينة. غالبا ما كانت الأحاديث في الاجتماعات الضيقة عن شانغدو في الجنوب التي يبدو أنها بحاجة إلى سكان.

وقف آريك بوك في أعمق قبو في القصر، بالرغم من الحياة والحركة في المدينة فوقه. كان الجو باردا في ذلك المكان فارتجف من البرد، وفرك يديه وقد تغلغلت فيهما البرودة.

لم يستطع آريك بوك أن يشيح نظره عن جسد أخيه القابع هنا، ترك مونغ تعليمات بشأن ما يجب القيام به بعد وفاته، متمسكا بالتقاليد حتى النهاية، إذ إنه أراد أن يؤخذ إلى الجبل ذاته الذي دفن فيه جده ويدفن هناك بقربه. عندما يصبح جاهزا، سيأخذه آريك بويك إلى هناك بنفسه، وستبتلع أرضهم الأم أخاه.

تمت تغطية الجثمان، وتمت أيضا خياطة الجرح البليغ الذي بدا كشفَة بيضاء جامدة عند الحلق. رغم ذلك، جعل هذا الأمر آريك بوك يرتجف لأنه كان يقف وحيدا في الغرفة المضاءة بشكل خافت بالقرب من جثة أخيه الذي أحبّه وعرفه طوال حياته.

لقد ائتمنه مونغ على حكم كاراكورم في غيابه، مانحا إياه بلد الأسلاف ليحكمه بنفسه. فقد فهمَ مونغ أنّ الدم والأخوّة لا يستطيع حتى الموت فصل عراهما.

خاطب آريك بوك الجثة الراقدة أمامه قائلا: «لقد أتممت ما طلبته إلي يا أخي. لقد ائتمنتني على عاصمتك ولم أخذلك. وهولاكو أيضا يكمل طريقه ليشرفك ويشرف كل ما فعلته لأجلنا».

لم يبكِ آريك بوك أو يندب فقد علم أنّ مونغ قد ازدرى فكرة أن تحمر أعين إخوته من البكاء، لذلك اتجه إلى الشرب حتى يفقد الوعي، ومشى بين الجنود الذين أخذوا يشربون مثله، فيغني ويتقيأ ويشرب مرة أخرى. ربما سيكون حينها بإمكانه أن يذرف الدموع بلا خجل.

قال آريك بوك: «سيعود كوبلاي إلى هنا قريبا يا أخي». ثم تنهد، فهو يرغب في العودة إلى الجنازة في أقرب وقت، من أجل أن يقول بعض الكلمات الأخيرة لأخيه. لقد بدا الأمر صعبا عليه كما لو أن مونغ حي يستمع إليه.

«أتمنى لو كنت هنالك عندما قدّم والدنا حياته لحماية أوكتاي خان، وكم أتمنى لو أنني كنت بالقرب منك، وقدمت حياتي لأنقذك، فإن ذلك هدفي الدائم في هذه الحياة، كنت سأفعل هذا يا مونغ، أقسم إنني كنت سأفعل ذلك».

أصبح مدركا لصدى الصوت في القبو، فاقترب آريك بوك من جثة أخيه وأمسك يد مونغ ليتفاجأ بوزنها الثقيل. ثم قال: «الوداع يا أخي. سأحاول أن أكون الرجل الذي طالما أردتني أن أكونه، وبإمكاني القيام بذلك تخليدا لذكراك».

30

قبل شروق الشمس، بل قبل الضوء الرمادي الذي يسبق الفجر، بدأ المعسكران بالاستيقاظ والتجهز. تم تجهيز الشاي وتقديمه بآلاف الطاسات، وتناول الجميع وجبات سريعة. أفرغ الرجال مثاناتهم، غالبا أكثر من مرة بسبب التوتر الذي جعل عضلاتها الداخلية تتقلص، أما في مُعسكر سونغ، فتفقد رجال فريق المدافع الأسلحة الثمينة للمرة الألف، متفحصين كرات المقذوفات الملساء، ومتحققين من أنّ أكياس البارود لم تصبح رطبة وعديمة الفائدة.

عندما ظهر الضوء الخافت، تمكن كل جيش من رؤية الآخر. امتطى المغول أحصنتهم بالفعل، ليصطفوا على شكل مجموعات تتألف كل واحدة منها من آلاف الجنود، وهي يمكنها أن تتصرف بشكل منفصل في المعركة القادمة. أراح العديد منهم ظهورهم المشدودة وهم يتجولون ذهابا وإيابا بين الصفوف، واختبر العديد منهم أوتار أقواسهم من خلال سحبها وتجربتها من دون استخدام السهام، محركين بذلك عضلات أكتافهم المشدودة.

وجب على بعض الأمور أن تنتظر حتى يطلع الضوء، لكن حتى يتمكن من تمييز التهديد البسيط من التهديد الجدي، أمر السيد جين آن فريق المدافع بالانطلاق إلى مواقعهم في المقدمة في حين انطلقت فرق مدافع أخرى إلى الأطراف موجهين فوهات مدافعهم السوداء باتجاه أي هجوم يستهدف جناح الجيش.

بإمكانه الآن أن يرى قادة المغول يراقبون حشود جيشه، ويتفقدون مواقعهم لافتين الانتباه إلى ميزات التشكيلات للفرق الأخرى التي لديهم. ابتسم القائد جين آن، فلم يكن يهم مدى شجاعة المغول وسرعتهم، لأنه سيجب عليهم أن يواجهوا ضربات قوية في أثناء انطلاقهم باتجاه صفوف جنوده.

لقد تعلّم درسه من خلال الخسائر التي لحقت برجال غيره، لذلك وضع فرسانا بعشرات الآلاف على جناحي الجيش، وحاول وضع نفسه في موقع المغول، ليرى كيف سيواجهون مثل هذا

التوزيع للقوى، لكنه لم يستطع، فقد كانوا رجال قبائل يسافرون مثل القمل، أما هو فمن الطبقة النبيلة لإمبراطورية قديمة وعريقة.

اصطفت حشود سونغ خلف صفوف المدافع، وأوقف القائد جين آن حصانه، وجلس يشاهد كيف جمع أتباعه جنود المدافع في الصفوف الأولى. بدت إعادة تعبئة مدافعهم الثقيلة بطيئة وغير دقيقة بشكل ملحوظ، لكن من الصعب أن يخطئوا الهدف إذا ما صبوا النيران إلى جانب المدفع. انتظر سيافوه خلف هؤلاء وهم يرتدون دروعهم المصقولة المصنوعة من الحديد والخشب، ويقفون بصمت وانتظام. لقد وضع السيد جين آن المحاربين الممثلين لسلالة تشن هناك، خلف حماية أسلحته ومدافعه.

لقد أُعجب بالرجل الذي كان إمبراطورا في يوم من الأيام، فقد اعتقد السيد جين آن أنّ شوان من أولئك الرجال المهووسين بمكانتهم التي خسروا جزءا كبيرا منها. مع ذلك فقد ذكّر شوان سيد سونغ هذا بأبيه، الذي توفي منذ أكثر من عقد من الزمن، فقد وجد أنّ كلا الرجلين حملا تعب العالم كله، مصحوبين بروح الدعابة الجافة إضافة إلى أنّ المشاعر التي رأياها كانت أكثر مما أحسا بها. لم يعتقد السيد جين آن أنّ جنود شين قد يفرون، لكن في الوقت ذاته، لم يجرؤ على الوثوق باطلاع مثل هذا الرجل العجوز على استراتيجيته. صحيح أنّهم متحمسون جدا عند الفجر، لكن إن استمر القتال طوال اليوم، فلن يستطيعوا مجاراة محاربين بنصف أعمارهم.

فكّر السيد جين آن في أن يراقبهم خلال القتال، وذلك ليتأكد من أن ليست لديه أية نقطة ضعف قد تتطور إلى مشكلة خلال القتال، وبدا الأمر بالنسبة إليه وكأن شروق الشمس في الأفق قد استمر إلى الأبد.

تخيّل جين آن كيف سيقف مفتخرا بانتصاره أمام سكان هانغتشو وقادتها الحمقى الذين استخفوا بالتهديد الذي يواجه حضارتهم وإمبراطوريتهم. تمنى أن يهزم الجيش الذي تجرأ على دخول أراضي سونغ قبل غروب الشمس. فمع تحقيق انتصار كهذا، سيعلو شأن الرجل بكل تأكيد، وكل ما يحتاج إليه الأمر يوم واحد، هذا ما قاله لنفسه، وهو يشعر بالعرق الذي يتصبب منه، يوم واحد طويل فقط.

امتطى كوبلاي حصانه ورافقه على جانبيه بايار وأويانغ خاداي، في حين نظّم باقي القادة صفوفَ المحاربين المغول، وبالرغم من ذلك ظلوا متأهبين لأية أوامر قد تأتيهم من الرجال الثلاثة

الذين يراقبون مواقع سونغ.

قال كوبلاي عابسا وهو ينظر إلى أويانغ: «لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لرايات الإمبراطور تشن أن ترفرف هناك؟ هل هذا نوع من السخرية ليضعوا راياتٍ رجال هزمناهم وألوانهَم؟ إن كان الأمر كذلك، فهم حمقى. لقد هزمنا إمبراطورية تشن، وبهذه الحال لا يسببون أي خوف لنا».

قال أويانغ خاداي: «سيدي، من الضروري أن تقلص فِرق المدافع قدرتها لنتمكن من المناورة».

بدا أويانغ خاداي مشتعلا بغضب يحرقه من الداخل بسبب رفض كوبلاي الاستماع إلى أية فكرة عن الانسحاب. ومن شدة إحباطه، أصبح سلوكه رسميا جدا أكثر من أي وقت سابق، إذ إنه بدا كمَن يلقي خطابا بصوته العالي، قال: «إنّهم يثقون بأسلحتهم الثقيلة يا سيدي، لكن بإمكاننا أن نتحرك الآن. مع احترامي، يجب أن أشير إلى أنني كنت رافضا لمجابهتهم منذ البداية، وهذه التشكيلة التي أمامنا تعزز وجهة نظري، فلماذا ننتحر في مجابهة أسلحتهم؟».

ما أزعج كوبلاي أن أويانغ خاداي كان محقا بالتأكيد، فقد علم أنّه قبل سماعه لخبر وفاة أخيه كان سيلتف حول حشود سونغ مجبرا إياها على أن تأتي لمقاتلته تاركة مدافعها خلفها، أو ربما سيزيد من سرعته متفوقا عليها، وبذلك لن تستطيع مجاراته بعد ذلك، ليصبح بإمكانه حينها اختيار الأرض المناسبة للهجوم.

لقد كان التفكير الأبسط في المعارك هو ألا تترك عدوك يتفوق عليك بشكل كبير، فجميع مدافع كوبلاي التي سيطر عليها أو أحضرها معه من كاراكورم ترقد صدئة في سهول تبعد مئات الأميال، إن وجود هذه الأسلحة في الزمان والمكان المناسبين سيضيف تفوقا كبيرا ومرعبا، لكن إلى أن يتمكن أحدهم من إيجاد طريقة لتحريكها بسرعة، إذ إنها شكّلت غالبا عائقا في طريق الفرسان السريعين. ويبدو أنّ قادة سونغ لم يفهموا هذا الأمر على الإطلاق.

مع أنّه بدا هادئا، لكن كوبلاي شعر أن جزءا منه أراد أن يصرخ ويضرب ويشق طريقه إلى الخارج. فقد بدا فمه أحمر بشكل وحشي، وأمر بمهاجمة العدو في أقوى مراكزه. إنه يريد أن يُخرج كل الحزن والألم الناتجين عن وفاة أخيه ويوجهه إلى أعدائه، فيحطم مدافعهم الحديدية، أراد أن يُظهر لمونغ أنّه يمتلك الشجاعة سواء علمت روح أخيه بذلك أم لم تعلم.

تكلم كوبلاي قائلا: «قال صن تزو إنّ هنالك سبعة شروط للنصر، هل عليّ أن أعيدها على مسمعك؟».

أجابه أويانغ خاداي بعناد: «عندما حدد صن تزو شروطه لم يكن قد رأى استخدام البارود في الحرب يا سيدي».

«أولا، مَن مِنَ القائدين مقتنع بالقانون الأخلاقي؟ ومن على حق يا قائد الجيش؟ هذا الأمر يعني الكثير بالنسبة إلى الرجال. إنّ محاربي سونغ يدافعون عن أراضيهم، لذلك يُرجح أنّهم سيحصلون على النقطة الأولى، لكن بالرغم من ذلك فأنا حفيد جنكيز خان وكل الأراضي ملك لي».

نظر إليه أويانغ خاداي بقلق وصمت، فهو لم يسبق له أن رأى كوبلاي مصمما إلى هذا الحدّ، فها قد خرج الرجل المثقف منه، لذلك خشي أويانغ خاداي عليه من تأثير الحزن والخسارة اللذين أصاباه.

أكمل كوبلاي: «ثانيا، أي من القائدين يمتلك القدرة الأكبر؟ أدع هذا الأمر لك يا أويانغ خاداي، وإليك أيضا يا بايار. لقد صنع جنود سونغ هؤلاء منزلا لا يمكن تحريكه محاطا بأسوار من الأسلحة. ثالثا، لحُسن حظي أنّ الأراضي هنا مسطحة والسماء صافية».

حاول أويانغ خاداي مقاطعته فقال: «سيدي...». لكن كوبلاي أكمل قائلا:

«رابعا، في أي طرف من الطرفين فُرض الانضباط بصرامة أكبر؟ إنّ هذه النقطة في صالحنا يا قائد الجيش، لقد عاش رجالنا حياة قاسية منذ ولادتهم، فهم رجال يتحملون الصعاب، ولم يكبروا هشين في مدن سونغ. خامسا، أي الجيشين أقوى؟ بالنسبة إلى العدد، ربما ترجح كفة الميزان لجيشي سونغ. لكنني هزمت جيوشهم من قبل، وسأهزم هذا الجيش، وسأسيطر على هذه النقطة على ما أعتقد.

سادسا، أي من الطرفين لديهم رجال وقادة أفضل تدريبا؟ إنّ ذلك في صالحنا، فكل رجل هنا خاض معارك عديدة وانتصر بها، إننا محاربون مخضرمون يا أويانغ خاداي. نحن محاربو النخبة في أمتنا. أما محاربو سونغ فقد تنعموا بالسلام لفترة طويلة جدا». توقف لحظة وأكمل: «إنّ الشرط الأخير غريب، ومؤداه أي من الجيشين أكثر التزاما بالثواب والعقاب؟ أعتقد أنّ صن تزو قد قدّر القيادة، إن كنت قد فهمت ما يرمي إليه بشكل صحيح. لكن من دون معرفتي لسونغ، لا أستطيع أن

أتأكد من الأمر، لذلك سأقول إنّنا متساويان بهذا الأمر. إنّ كفة الميزان تميل إلى صالحنا يا قائد الجيش».

قاطعه أويانغ خاداي: «لكن يا سيدي، المدافع».

ردّ كوبلاي بسخط: «يجب أن تُنظف المدافع بين كل ضربة وأخرى، ويجب أن تُنظف أيضا من بقايا القماش أو الجمر المشتعل، ويجب أن تُكبس أكياس بارود جديدة، وأن تُثقب بحذر بقطعة قصب مجوفة مملوءة بالبارود الأسود، إضافة إلى وجوب نقلِ الكرات إلى المدافع وحشرها بها. كل هذا سيستغرق وقتا يا قائد الجيش، ونحن لن نتيح لهم الوقت، سيُطلقون رشقة واحدة من الضربات، وبعدها سنصبح في المدى الذي سيسمح لنا بالوصول إلى فريق المدافع والقضاء عليهم، بإمكاننا مواجهة ضربة واحدة والصمود في وجهها».

كان ينظر بعيدا باتجاه حشود سونغ ينتظر تحركهم، لكنه استدار لمواجهة أويانغ خاداي، وعيناه الصفراوان تتوهجان. وقال له:

«هل يجب عليّ أن أعامل رجال سونغ هؤلاء باحترام، أولئك الرجال الذين لا يعلمون شيئا عن الحرب؟ وهل يجب عليّ أن أخشى أسلحتهم وبارودهم الأسود؟ لا يجدر بي فعل ذلكُ يا قائد الجيش، ولن أفعله».

قال أويانغ خاداي: «سيدي، أرجوك أعد النظر بهذا الأمر. دعهم يقفوا هكذا في أماكنهم إلى أن ينفد منهم الماء، ويعانوا من الجفاف لبضعة أيام من دونه. دعهم يتضورون جوعا ريثما نُغير على الأراضي ونبقى أقوياء، فليس بإمكانهم أن يظلوا في المكان ذاته إلى الأبد، ويدعونا ننطلق حولهم من دون اللحاق بنا. لذلك دعني أدمّر أقرب البلدات إلينا وأُحرقها، وبذلك سيضطرون إلى تلبية استغاثتها والقدوم إلينا».

عندها قال كوبلاي بحزم: «وعندها سنجد جيشا آخر لسونغ في طريقه لمساعدتهم، ألم تتعلم بعد أن أعداد هؤلاء الناس لا نهاية لها؟ أعتقد اليوم أنّني سأرد على غطرستهم بغطرستي الخاصة، وسأنطلق مواجها فوهاتِ مدافعهم».

أصابت أويانغ خاداي نوبةٌ من الذعر، وقال: «سيدي، يجب أن تبقى بعيدا عن المعركة، فإن قُتلت...».

قاطعه كوبلاي قائلا: «حينها سأكون قد قُتلت. لقد اتخذت قراري يا قائد الجيش. قف إلى جانبي أو انضم إلى صفوف أخرى تحت قيادة رجال آخرين».

أحنى أويانغ خاداي رأسه بهدوء، فقد فهم في النهاية أنّه لن يتمكن من ثنيِ الشاب عن الخيار الذي صمم عليه. فنظر إلى أسلحة سونغ مرة أخرى، بعد أن علم أنّه سينطلق لمواجهتها بشكل مباشر، وقال: «حسنا يا سيدي، إنني أقترح أن نسير تاركين مسافاتٍ بين الصفوف عندما ننطلق باتجاههم، ثم نعود إلى تشكيلاتنا بعد الضربة الأولى، فننطلق ونمطرهم بوابل من السهام والرماح. إن سمحت لي يا سيدي، فإنّني أرغب أيضا في أن أُبقي فريقين يتكونان من خمسمئة فارس يرتدون دروعهم الكاملة في الخلف، كي يضربوهم عندما تظهر فجوات في صفوفهم».

فجأة ابتسم كوبلاي ابتسامة عريضة، وقال: «إنّك رجل مثير للاهتمام يا قائد الجيش أويانغ خاداي. أتمنى أن تنجو اليوم».

أجابه أويانغ خاداي: «هذا ما أتمناه أيضا، أما الآن، من بعد إذنك، فإنني سأنقل هذه الأوامر إلى قادة الفرق، وأُخبرهم أن يستهدفوا فرق المدافع أولا». عندما أومأ له كوبلاي بالموافقة أكمل أويانغ قائلا: «لم تنصب قوات سونغ الكثير من المدافع في مؤخرة الجيش يا سيدي. وأعتقد أنّ القائد بايار مؤهل بشكل مقبول، لذلك يجب عليه أن يلتف برفقة فيلق من المحاربين حولهم وأن يهاجمهم من الخلف».

ضحك بايار في سره على هذا الوصف الناقم الذي وصفه إياه أويانغ خاداي.

أجابه كوبلاي: «حسنا».

شعر كوبلاي كما لو أن ثقلا أُزيح عن كاهله، فقد أحسّ بأنه أخف وزنا، وذلك بعد أن اتخذ قراره وتم كل شيء.

بإمكانه الآن أن ينطلق ليواجه الأسلحة برفقة رجاله، إضافة إلى أنّ عظام مصيره قد تحولت إلى قطع متناثرة في الهواء لا يعلم ما سيحدث لها.

نقل أويانغ خاداي الأوامر إلى قادة الفيالق، الذين أوصلوا بدورهم الأوامر إلى قادة الفرق، وهكذا إلى أن وصلت إلى أقل القادة رتبة؛ أولئك الذين يأمرون ما لا يزيد على عشرة مقاتلين. لم تكد الشمس تتحرك من مكانها حتى فهمَ كل محارب في صفوفهم ما يجب عليه فعله بعد إصدار أوامر كوبلاي، فهو لم يُلقِ أي خطاب عليهم، لو فعل ذلك لكان كلامه سيصل إلى مسامع عدد قليل منهم

فقط. راقب ردود فعلهم بصمت، فبدوا غير متفاجئين بالأوامر التي وصلتهم، بل جهزوا أنفسهم بكل بساطة، تفقدوا أحصنتهم وأسلحتهم للمرة الأخيرة. أرسل كوبلاي دعاء صامتا لروح أخيه إذ إنّ الرجال الذين سيموتون في ذلك اليوم كان من المرجح بقاؤهم على قيد الحياة لو أنه اتخذ قرارات أخرى.

وقف في مكانه، وبدت اللحظة في دماغه كأنها تستمر إلى الأبد. أشرقت الشمس، فبدا الأمر كما لو أنّ حجابا قد رُفع عنهم، وكأنها أشرقت على أحزانه للمرة الأولى.

بإمكانه سماع صوت مونغ وهو يتكلم بسخرية وغضب، ولوهلة خُيّل إليه أنّ أخاه يقف خلفه.

انطلق كوبلاي على حصانه مسرعا إلى المكان الذي وقف فيه كل من أويانغ خاداي وبايار حيث يناقشان خطة المعركة برفقة مجموعة رجال آخرين. قال كوبلاي من دون أن يترجل عن حصانه:

«لدي أوامر أخرى يا قائد الجيش أويانغ خاداي. سنلتف حول هذا الجيش ونتجه إلى هانغتشو، فإن ترك الأعداء أسلحتهم خلفهم لملاحقتنا، فسنلتفت إليهم ونمزقهم إلى أشلاء. أما إن أحضروا هذه الأسلحة معهم، فإننا سنهاجمهم في الوقت الذي لا تزال فيه المدافع معلقة بالثيران».

قال أويانغ خاداي: «أشكرك يا ربي».

فضحك الرجال من حوله. كان كوبلاي قد لاحظ كمية الضغط الملقى على عاتقهم قبل ذلك. لكنهم لم يضخموا أمرا طلبه إليهم من قبل، فأحس بالفخر بهم.

قال كوبلاي: «نحن محاربو مونغ خان الأشداء، نتحرك ونهاجم ونتحرك مرة أخرى. امتطوا أحصنتكم، ودعونا نترك حمقى سونغ هؤلاء خلفنا».

تعالت أصوات الضحكات الخفيفة في الصفوف في حين انتشرت الأخبار، وتم ترديد كلمات كوبلاي لمئات المرات. اندفع المحاربون بقوة مهرولين بسرعة وقد وقف محاربو سونغ على بعد أقل من ميل يشاهدون باستغراب كيف أن المغول قد أخلوا ساحة القتال، لم يتركوا إلا الغبار والروث والعشب الذي تغذت عليه حيواناتهم في المكان الذي أخلوه.

لم يتوقع القائد سالسانان عندما تطوع للافتراق عن محاربي الخان والانطلاق نحو الجنوب أن تكون المهمة بهذه الصعوبة. بالرغم من أنّه لم يعلم مكان كوبلاي، لكنّه توقع أن يتعقبه من خلال السير بالقرب من بقايا البلدات والمدن المحروقة التي تركها خلفه. لكن بدلا من ذلك، بدا ريف سونغ بالكاد تأثر بمرور جيشه، لكن لم يكن هنالك سوى عدد قليل من الحيوانات التي ترعى في المنطقة إضافة إلى اختباء الفلاحين من مقاتليه عندما كانوا يبحثون عن أي شيء بإمكانهم تناوله. بالرغم من ذلك، فقد بدا أمرا بعيدا عما تخيل أن يراه من دمار خلال سيره في هذه الأراضي.

لم يحضر جنوده الثمانون ألفا الإمداداتِ المعتادة، فلدى كل محارب حصانان إضافيان فقط، وبينما انطلقوا في طريقهم كانت فيالق سالسانان تخسر بعض الأمهار كل يوم عندما تعرج وتصبح غير قادرة على مجاراتهم في مسيرهم، فيذبحونها لتؤمن لهم لحما كافيا لإطعام مئتي رجل من اللحم الساخن. لم يترك المحاربون قبل أن يغادروا سوى العظام منها، حتى إنّهم كانوا ينزعون النخاع الشوكي الغني منها.

بعد شهر من البحث، تمنى سالسانان كل يوم لو أن الخان مونغ لا يزال على قيد الحياة، فقد كانت الأراضي ذات مساحة شاسعة، والبلدات الكثيرة التي مر بالقرب منها أغرَته للتوقف والإغارة عليها من أجل الحصول على الغنائم، لكنّ حسَّ المسؤولية لديه أبقاه في طريقه بعيدا عن هذا. أبدى رجاله انضباطا، لكنّه بدأ يتساءل أين ذهب كوبلاي، إذ إنه من المستحيل أن تفقد أثر مئة ألف رجل بالرغم من كبر مساحة أراضي سونغ.

استجوب قادةَ القرى أو جنود المدن الذين ارتعدوا أمامه لكن من دون جدوى، إلى أن وصل إلى شاويانغ حيث أعطاه حاكمها دليلا قويا.

لطالما ذكّر سالسانان نفسه وهو يكمل طريقه أنّه ذاهب لمرافقة الرجل الذي من المحتمل أن يصبح الخان الجديد لبلادهم. وسيكون واجبا عليه أن يتصرف بحذر مع الأمير المثقف.

في طريقهم نحو الشرق، اصطحب سالسانان كشافته، وقد تقدم المحاربين، ليتفحصَ المنظر الغريب الذي رآه؛ فقد وجدوا مئات المدافع الثقيلة مقلوبة في الطريق وقد ذُبحت الحيوانات التي كانت تجرها. تم ذبح جثثها بخبرة ويبدو أنه تم استهلاك لحومها. في أغلب الحالات كان الذباب قد تجمع فوق الرؤوس والحوافر وعلى الأرضية الدامية.

كان هنالك جثث رجال إلى جانب المدافع المقلوبة وعظام الثيران، جثث فلاحين عزّلا ما زالت أيديهم معلقة بلجامات هذه الحيوانات. ابتسم سالسانان عندما رأى هذا، فقد علم أنّه من صنيعِ

شعبه.

على بعد بضعة أميال، وجد جثثا ملقاة في الطريق المغبر، وازداد عدد الجثث على قمة التل، كما لو أنه تم صنع منصة من الجثث في ذلك المكان. قاد سالسانان حصانه إلى ذلك المكان بين الجثث، ثم كبح جماح حصانه عندما كشف له موقع المعركة كاملا؛ فقد وجد الجثث منتشرة في كل مكان، ومجمعة في أكوام مثل حشرات ميتة.

من بعيد، شاهد سالسانان أشكالا تمشي بين الموتى، فتوقفت تلك الأشكال وحدقت إليه عندما أصبح مقاتلوه على مرأى منهم. لقد علم أنّه دائما ما ينجو بعض الرجال في المعارك، يفقدون وعيهم، ويُنسون جراء الفوضى التي تحدث في المعركة، أو ربما يُغمى عليهم بسبب جرح أصابهم. من المرجح أن ينهض عدد منهم في اليوم التالي، يزحفون إلى أرضهم في حين أن الجيوش تُكمل معاركها من دونهم. شاهد سالسانان وهو يتقدم في الميدان المليءِ بالقتلى بعضَ الناجين من محاربي سونغ المرميين هناك يرفعون أيديهم، لكنهم تجهموا عندما بدأ رجاله بإحاطتهم.

أومأ برأسه بذهول عندما قرأ مجريات المعركة التي حصلت هنا، يبدو أنها كانت معركة قاسية.

هنالك العديد من جثث المغول هنا وقد تمكن من التعرف إليها من خلال شاراتهم وحرابهم المكسورة. لقد تم ضرب فيالق كوبلاي أكثر من مرة، تمكن من ملاحظة ذلك، ومن المرجح أنّهم قد حوصروا تقريبا. ويبدو أنّ قادة سونغ قد علموا التكتيكات التي اتبعوها وردوا عليها من دون خوف.

اختار سالسانان سهما مكسورا، وحف رأسه بقطعة من ثيابه.

كان بإمكانه التكلم مع مقاتلي سونغ الناجين المستلقين هناك، لكنّه مشى في ميدان المعركة أولا، فهذا المشهد الدموي يُظهر أي نوع من الرجال يحتمل أن يحكم أمّة المغول.

بالقرب من ميدان المعركة الرئيسي، وجد مكانا غطى فيه الطين العشبَ. يبدو أنّ فيلقا قد احتشد هناك، وأُرسل بعدها إلى المعركة. بإمكان سالسانان أن يتخيل كيف تحركوا وهاجموا، مشى في أرجاء ميدان المعركة مقطبا حاجبيه، متخيلا مجرياتها في رأسه، مراجعا رأيه بشقيق الخان. بدت الأوامر صارمة والانضباط ممتازا، وبدا له بجلاء أن قوات سونغ أُجبرت على التراجع، استطاع سالسانان رؤية الرماح المكسورة والملطخة بالدماء في المكان الذي حاولوا أن يثبتوا أماكنهم فيه.

بفعل الخبرة التي اكتسبها من سنوات التدريب نظر يمينا ويسارا باحثا عن الدفعة الثانية من المحاربين الذين أُرسلوا للهجوم في اللحظة المناسبة. قاد حصانه إلى مكان قريب فوق الجثث الملقاة في كل مكان، ثم ترجّل وبدأ يتحرك بحذر في حين انزلقت الجثث وتحركت تحت حذائه.

وجد المكان الذي حدد فيه سير المعركة، فقد تناثرت أكوام من الأقواس والنشاشيب في الميدان هناك، لا يزال بعضها بارزا مثل ريش في قطع من الدروع المتناثرة. لقد انطلق محاربو كوبلاي بين النيران الكثيفة ليلتفوا عليهم، ويهاجموهم مرة أخرى بالسرعة القصوى. بإمكان سالسانان أن يلاحظ الثقة التي انطلقوا بها فأومأ راضيا، من الواضح أن الرجل الذي قادهم لم يظهر أي تردد أو شك في خططه.

أشار أحد رجال سالسانان إليه، فامتطى حصانه متجها إلى مكان آخر. وعندها سأله: «ماذا هناك؟».

أشار الرجل إلى الجثث الملقاة في كل مكان حولهم، بدت رائحة الأحشاء الممزقة مروعة، وحلّق الذباب حول وجه سالسانان وحط عليه، مما جعله يلوّح بيده محاولا إبعاده، لكنّه انحنى رغم ذلك لينظر.

قال الكشاف له: «إنّهم كبار في السن».

حدّق سالسانان حوله متحققا من كلام هذا الشاب، فكل الوجوه بدا عليها التقدم في العمر، إضافة إلى أن الرجال الذين بالقرب منه بدوا هزيلين وضعفاء، فتمتم:

«لماذا ذهب رجال سونغ إلى المعركة مصطحبين معهم مثل هؤلاء الجنود المتقدمين في السن؟»

داس على راية صفراء، فانحنى والتقط القطعة الممزقة، ظهر جزء من الرمز المرسوم عليه، لكن لم يستطع سالسانان التعرف إليه، فترك القطعة المجعدة من يده، وقال: «أيّا كانوا، ما كان يجب عليهم القتال ضدنا».

وقع نظره على البقعة التي توسطت كل هؤلاء القتلى الكبار في السن، حيث وجد جثة ذات شعر رمادي قصير محاطة بحلقة من الجثث الأخرى، كما لو أنّهم قد ماتوا محاولين الدفاع عنه، ورقد رجل شاب أيضا بالقرب من هذه الجثة، وقد بدا أنه الوحيد الصالح للقتال بينهم، غطت أجسادَهم جروحٌ ناتجة عن السهام والسيوف، واخترقتها الرماحُ لتخرج من الجهة الأخرى.

فكّر سالسانان للحظة، وقال بعد أن تحقق من المكان: «لا أعتقد أنّنا نبعد كثيرا عنهم الآن. أخبر الرجال أن يحثوا الخطا، وتأكد من تنبيهك للكشافة بأن يعرّفوا عن أنفسهم فورا، فلا أريد أن تتم مهاجمتي من قبل شعبي».

استطاع سالسانان اللحاق بكوبلاي عند أطراف مدينة تشانغشا. بدا الأمر وكأن مجموعة ذئاب تدخل منطقة خاصة بمجموعة أخرى، فبدا الجانبان حذرَين في البداية، لكن فرق الكشافة التي في الخارج تداخلت، وأسرعت في إيصال الرسائل إلى أولئك الذين قادوا كلا الطرفين.

توقف الجيشان بعيدا عن بعضهما، كي لا يُشكل أي منهما تهديدا للآخر.

انطلق كوبلاي مسرعا برفقة بايار وأويانغ خاداي، بعد أن قطع المفاوضات التي كان يجريها مع حاكم مدينة تشانغشا في منتصف كلامه تقريبا، وذلك عندما سمع بوجود جيش للمغول خلفه.

عند الظهيرة، التقى والقائدَ سالسانان إلى جانب نبع، بدت السماء صافية وخالية إلا من بعض ذيول الغيم فوقهما، وكان النسيم الدافئ يتدفق عليهما. تجمع بين هذين القائدين ستة عشر ألف محارب من المغول.

بدا المقاتلون في طرف كوبلاي مقاتلين قدامى وعنيفين وقذرين يملؤهم الدم والقذارة، أما في الطرف المقابل فبدا المقاتلون جددا، وكانت دروعهم لامعة. نظر رجال كل جيش إلى رجال الجيش الآخر بذهول، وأطلقوا العديد من صيحات التهكم.

ظهرت سعادة كبيرة على وجه كوبلاي عند رؤيته العديد من محاربي أمته. ترك سالسانان يترجّل عن حصانه أولا، وينحني له قبل أن يترجل عن حصانه.

قال كوبلاي: «أنت لا تعلم مقدار سعادتي وترحيبي بكم».

فقال سالسانان: «سيدي، يبدو أنّ الأمر يقع على عاتقي بأن أنقل إليك الأنباء السيئة».

اختفت حينها ابتسامة كوبلاي، وقال: «أنا أعلم أنّ أخي قد مات، فقد أخبرني بذلك فارس يام، بل فارسان منهم».

ظهرت علامات الاستغراب على وجه سالسانان فارتفع حاجبه، وقال: «حسنا، أنا لا أفهم ماذا يحدث يا سيدي، إن قابلتهما، لماذا لم تبدأ رحلتك إلى الديار؟ فالأمة تجتمع في كاراكورم. من أجل جنازة الخان...»

قاطعه كوبلاي قائلا: «أخي كلّفني بمهمة يا أيها القائد، ولقد اتخذت قراري بإنهائها».

في البداية، لم يُجب سالسانان. فقد كان رجلا معتادا على السلطة، ومقيدا بسلسلة الأوامر. لكن برحيل الخان، بدا الأمر وكأن عائقا أساسيا اعتاد عليه قد انزاح، وبالتأكيد تخلص من عادته. تلعثم قليلا ثم قال غير متأثر بنظرات شقيق الخان الباهتة، وقال:

«سيدي، لقد أُعطيت أوامر بمرافقتك إلى الديار. وهذه هي أوامري الوحيدة، فهل تقول إنك لن تأتي برفقتي؟».

أجابه كوبلاي بغضب: «أنا أقول إنّني لا أستطيع العودة قبل أن أجعل سونغ يركعون لنا. إنّ أبا السماء أرسلك إليّ يا سالسانان، فأنت وجنودك بمثابة هدية، وذلك عندما اعتقدت أنّه لم يكن هنالك أي شيء كهذا».

لاحظ سالسانان افتراضَ كوبلاي فتكلم بسرعة كي يسبقه، قبل أن يعطي أوامر لا يمكن التراجع عنها فقال: «نحن لسنا بتعزيزات لك يا سيدي؛ إن أوامري تقتضي بأن أحضرك إلى الديار، إلى كاراكورم. فأخبرني أين هو مخيمك، وسأبدأ بالتجهيزات اللازمة. لقد مات الخان، وسيكون هنالك اجتماع في كاراكورم....».

قاطعه كوبلاي مجددا وقال: «هل أنت أصم؟ لقد قلت إنني لن أعود إلى الديار حتى ينتهي عملي هنا، حتى أحصلَ على رأس إمبراطور سونغ. وأيا تكن أوامرك فإنّني أبطلها. أنتم تعزيزات أتت إليّ، بكل تأكيد، برفقتك سأكمل رغبات الخان».

أطبق سالسانان على أسنانه بقوة محاولا أن يهدئ نفسه إذ من الصعب عليه أن يفهم على كوبلاي. وجد نيران غضبه تستعر بالفعل وقد أجاب:

«مع احترامي يا سيدي، إنّني لست تابعا لك كي تأمرني، والأمر نفسه ينطبق على الجنود الذين أقودهم، فإن لم ترغب في العودة إلى الديار، فيجب عليّ أن أتركك هنا وأعود أدراجي، سأحمل أية رسالة ترغب في أن أنقلها إلى كاراكورم».

استدار كوبلاي بعيدا، واستغرق بعض الوقت ليربط زمام حصانه حول يده. بإمكانه أن يرى جنود سالسانان يقفون بصمت في صفوفهم وقد امتدوا على مسافة قريبة منه. لقد أمِل في أن يضمهم إلى جنوده، وبذلك يضاعف أعداد قواته عندما يهاجم.

بدت روح جنوده المعنوية مرتفعة وهم يقفون خلفه، متأكدين من أنّ هذا الجيش الجديد قد أتى ليزيد من قوتهم، لكن عندما يرونهم منسحبين سيعلمون أنه حُكم عليهم بالموت، وهذا يعني التخلي عن الجيش في لحظة انتصاره. هز كوبلاي رأسه، فمن غير الممكن أن يسمح بذلك، سيعثر على بلدات جديدة في كل ميل يعبره ناحية الشرق، وطرقات أفضل وكثير من الناس. إضافة إلى أنّ هانغتشو لا تبعد أكثر من خمسمئة ميل في هذا الطريق، لكن بإمكانه أن يرى غنى المدن التي أمامه وقوتها.

إذن، هو بحاجة إلى رجال سالسانان، لقد كانوا الاستجابة لصلواته، إشارة إلى أن الأرواح الخيّرة قد أرسلت له المساعدة عندما أصبح في أمسّ الحاجة إليها.

قال كوبلاي وقد لمعت عيناه غضبا: «أنت لا تدع لي أيّ خيار أيها القائد».

امتطى حصانه بهدوء، وقال: «أيها القائد بايار، ويا قائد الجيش أويانغ خاداي، اسمعاني». رفع كوبلاي صوته، محاولا أن يوصله إلى جنود الجيشين الذين كانوا ينتظرون، وأكمل:

«أنا كوبلاي من عائلة بورغيغين، أنا حفيد جنكيز خان، وأيضا الشقيق الأكبر لمونغ خان».

قال سالسانان مصدوما، عندما أدرك ما كان يحدث: «يا سيدي، ليس بإمكانك أن تفعل هذا».

أكمل كوبلاي كلامه كما لو أنّ سالسانان لم يتكلم: «أمامكم جميعا، وفي أراضي أعدائي. أعلن نفسي الخان العظيم للأمة وللخانات التي تقع تحت قيادة شقيقي هولاكو وآريك بوك، وكل الخانات الأخرى. وأعلن نفسي الخان الأعظم لأراضي تشن وسونغ. لقد تكلمت وكلماتي من حديد».

أعقب كلماتِه صمتٌ استمر للحظة فقط، ثم اهتاج جنوده فرحا ورفعوا أسلحتهم عاليا. في الجهة المقابلة استجاب رجال سالسانان بصيحات عالية من الهتاف والتهليل. حاول سالسانان أن يتكلم مرة أخرى، لكن صوته ضاع في الصخب. استل كوبلاي سيفه ورفعه عاليا، فتضاعفت قوة الصخب، وعلا أكثر وهم يصيحون ابتهالا.

نظر كوبلاي إلى الأسفل باتجاه سالسانان وهو يعيد سيفه إلى غمده وقال: «أخبرني مرة أخرى ما لا يمكنني فعله أيها القائد، حسنا، لديّ الحق الآن، وأنا أطالب به بالدم. إما أن أقبل الآن قسم ولائك لي، وإما سأقطع رأسك». هز كتفيه قائلا: «إنّه لا يعني لي شيئا».

نظر إليه سالسانان مشدوها، فاغرا فاه لما قد شهده. فنظر حوله إلى رجاله الذين يهتفون بقوة لتختفي آخر آماله بالمقاومة. ركع على الأرض العشبية ببطء، ونظر إلى الأعلى باتجاه خان الأمة كلها، وقال بعينين لامعتين:

«إنّني أعرض عليك الخيم والأحصنة والملح والدم يا سيدي الخان».

31

عند الفجر وقف آريك بوك على السهول أمام كاراكورم، واتخذ ولدا مونغ الأكبر سنا مكانا بجانب عمهما؛ آسوتاي الذي كان بعمر السادسة عشرة ويورونغ تاش الذي كان بعمر الرابعة عشرة، بالرغم من عمريهما فقد كانت أكتافهما العريضة علامات تدل على قوة ستكون شبيهة بقوة أبيهما العظيمة.

كانت أعينهما حمراء بسبب الحزن والبكاء، لكن آريك بوك بدا عطوفا نحوهما في الأيام التي تلت الخبر السيئ الذي وصلهم، لذلك تطلع إليه الشابان على أنّه رمز للبطل الذي أحباه.

وقف هولاكو إلى الجانب الأيمن لأخيه، لا يزال أثر الشمس يبدو جليا عليه بسبب الأيام التي قضاها في بلاد الفرس وسوريا. لم يترك سوى قوة صغيرة مع القائد كيتبوا لحراسة المدن الجديدة التي احتلها، وحماية الخانات الجديدة التي سيطر عليها هناك.

بإمكان آريك بوك أن يشعر حقا بفخر أخيه، فهولاكو قد أبلى حسنا في بغداد، لكن المنطقة بعيدة عن السلم لذلك لم يكن بإمكانه البقاء لوقت طويل في كاراكورم.

فرك آريك بوك الندبة الموجودة على أنفه المحطم، ولاحظ أنّه يفعل هذا، فأبعد يده عن أنفه، مصمما على أن يتخلص من هذه العادة طوال حياته. نظر إلى الحشود الضخمة للمحاربين من كل الأمة، الأمراء الذين اجتازوا نصف الكرة الأرضية عندما سمعوا بوفاة الخان، فقد أتوا مجتازين مسافات طويلة من الدولة الناشئة التي أسسها جنكيز من قبائل نائية. ظهر ذلك من خلال أعدادهم وثروتهم الواضحة.

يرقد جسد الخان مخفيا في عربة ضخمة مغطاة، صُنعت خصيصا لذلك اليوم. سيجرها أربعون حصانا أبيض، وسيتبعها الآلاف من الرجال والنساء سيرا على الأقدام. ستجعل دموعهم

الأرض مالحة وهم يعودون إلى المرقد الأخير لجد مونغ. سيسير الأمراء المغرورون في أعقابها متخلّين عن أية إشارة تدل على رتبتهم في أثناء نعيهم لأب الأمة.

شاهد آريك بوك هذا المنظر في الوقت الذي بدأت فيه الشمس بالأفول، سيتم إيقاد المشاعل على كامل الطريق الممتد من المدينة. كانوا على وشك أن يبدؤوا، لكن قبل ذلك، انتظروا وصوله.

استدار إلى هولاكو حينما أومأ شقيقه له، فابتسم آريك بوك، متذكرا الاجتماع الأول الذي ساده التوتر بعد عودة هولاكو. وللمرة الأولى منذ سنوات، مشيا من المدينة كراعيين فقيرين، يحملان حقائب جلدية تحوي القمارص على أكتافهما. كانت هنالك نيران عديدة حول المدينة، والعديد من الرجال والنساء مجتمعين حولها بسبب البرد الشديد. انضم إليهم كل من هولاكو وآريك بوك وجلسا في سهرة السمر يتحدثان طوال الوقت عن الخان والأخ الذي فقداه، وشرّفا مونغ بشرب نخب من القمارص وبصقاه في الهواء، وشربا كثيرا إلى أن سكرا.

بدا هولاكو محروقا بسبب الشمس، حتى إنّ رائحته بدت مختلفة، فقد فاحت منه رائحة القرنفل والبهارات الغريبة. خلال تمضيتهما الليلة الأولى لهما في الخارج، كان يصف الأراضي التي رآها من الجبال المشمسة إلى الأسرار القديمة المخفية هناك دون أن تفارق اللمعةُ عينيه، وأخبر آريك بوك عن النساء الفارسيات كحيلات الأعين اللواتي رآهن يرقصن إلى حد الإنهاك، ويتصبب منهن العرق مثل المجوهرات اللامعة على أضواء نار المأدبة. تحدث عن الأسواق العظيمة للأفاعي والسحرة، وعن النحاس والذهب. أصبح صوته أجش عندما تذكر فحزن.

قبل أن تشرق الشمس علم آريك بوك أنّ هولاكو لا يريد إمبراطورية الخان الأعظم، فقد وقع في حب الأراضي الصحراوية حتى إنّه لا يطيق صبرا على العودة إليها متحسرا على كل يوم أمضاه في سهول الديار الذهبية.

استيقظا صباحا ووقفا على أقدامهما يتأوهان ويستمعان إلى صرير مفاصلهما، لكنهما كانا على وفاق وسلام. تنفس آريك بوك بهدوء، مجبرا نفسه على البقاء هادئا، فقد حان الوقت: انتظرته الأمة كي يتكلم.

أخذ نفسا عميقا، فملأ رئتيه بالبخور الذي انتشرت رائحته القوية في الهواء وقال:

«ائتمنني شقيقي مونغ على أرضنا الأم؛ تلك السهول التي وُلد فيها جنكيز خان، وفي غيابه، ترك كاراكورم أمانة بين يدي. سأكمل عمله، وطموحه، ورؤياه بالنسبة إلى الخانات الصغار، إذ لا

يمكن أن تُترك الأمة بلا رقيب، وهذا ما اتفقنا عليه».

خفق قلبه بقوة، وأخذ نفسا عميقا آخر متابعا:

«سأكون الخان العظيم، من بعد جنكيز خان، ومن بعد أوكتاي، وغويوك وأخي مونغ خان. لذلك فلتتلوا قسمكم بالولاء لي، ولتشرفوا أمنيات شقيقي».

كان هولاكو أول من ركع إلى جانب شقيقه فوضع آريك بوك يده على كتفه، تبعه ولدا مونغ أمام كل الحاضرين. فقد عرض عليهما آريك بوك الأراضي والثروات ولم يحتج إلى أن يشرح لهما عن البديل عنه، لذا فإن بعد هذا العرض الذي حدث أمام الجميع، لن يجرؤ أحد على أن يهمس لهما أنّ بإمكانهما الحصول على مركز الخان.

تبعهم كل المحاربين بهذا التصرف ملبين نداءه وذلك على مد النظر. على شكل موجة وكأنها حجرة تتدحرج على سطح بحيرة ساكنة، انحنى الأمراء المجتمعون وعرضوا الخيم والأحصنة والملح والدم. ارتعش آريك بوك قليلا لهذا المنظر، فأغمض عينيه.

لم يغب عن التجمع الكبير أمام كاراكورم سوى كوبلاي، سيسمع شقيقه الأخبار من فرسان يام الذين ينتظرون الإشارة لينطلقوا حاملين هذا الخبر الجديد، وحتى ذلك الحين سيكون العالم بأسره قد سمع أنّ هنالك خانا جديدا. على الأقل لم يكن كوبلاي يمتلك طموحا كبيرا، وإلا كان ليتحدى مونغ عندما كانا صغيرين. حاول آريك بوك أن يتجاهل هذه المخاوف التي اعترته، فقد كان يجب على كوبلاي أن يعود إلى الديار عندما سمع بمقتل مونغ، لكنّه لم يعد على أية حال، فهو رجل شغوف وحالم، وهو يناسب عمل المكتبات والمخطوطات أكثر من قيادة الأمة، وإن اختار أخوه الأكبر أن يتحداه، فسيرد عليه آريك بوك، ويرسل جميع قوات الأمة ضده.

تبسم آريك بويك لفكرة إرسال ذلك الرجل المثقف إلى الحرب. لقد أرسل كوبلاي نساء محاربيه وأطفالَهم إلى الديار، وهم أيضا أقسموا له وركعوا إلى الأرض أمام كاراكورم. وطالما اختار ولدا مونغ طريقهما، فسيجب على كوبلاي أن يتقبل الأوامر الجديدة.

نظر بمتعة، وقد اقشعر بدنه لرؤيته عشرات الآلاف يركعون لأجله. فالابن الأصغر لتولوي وسوهارتاني تجرأ على أن يمد يده للأمة عندما احتاجت إلى خان جديد. لقد كان ذلك اليوم هو يوم آريك بوك وما زالت الشمس تشرق.

القسم الثالث

1260 ميلادي

32

بدت غرفة الاجتماعات الإمبراطورية في قلب تشانغدو مكتظة وصاخبة، فقد اجتمع قادة سونغ من دون أن يُستدعوا، بعد أن ازداد شعورهم بأنه لا يجب عليهم تفويت ما كان يحدث.

عندما حل الصباح، نقل الخدم والرسل الأخبارَ بشكل دائم لقادة المدينة الموجودين خارج غرفة الاجتماع. فاتخذ المزيد من الرجال قرارهم، واستدعوا العرباتِ وحماليها. أما السادة الأصغر سنا فأتوا على أحصنتهم، وقد شدّ كل منهم سيفه حول خصره، ويرافقهم حراسهم الأوفياء. ليست هنالك أية إشارة تدل على السلام أو الأمان في القاعة، فقد ازدادت الضجة الناتجة عن التوتر مع الوقت.

لقد سافروا من مقاطعاتهم إلى المدينة لحضور جنازة الإمبراطور العجوز، لكنهم بقوا في منازلهم في المدينة عندما انتهت هذه الجنازة، ينتظرون استدعاءهم إلى المجلس. لقد اقترب المغول من المدينة، وأصبحوا على مقربة من العاصمة، فانتشر الخوف في هانغتشو وزاد التوتر في الجو. أرهق الجنود عند الأسوار أعينَهم بالنظر إلى الأفق، وكأنّه من الممكن للغزاة المغول أن يظهروا في غشاوة الصباح من دون أي سابق إنذار.

تم تبادل المعلومات مقابل سلاسل من القطع الفضية، فقد بادل مروجو الشائعات معلوماتٍ قليلة مقابل أرباح هائلة.

بدأ الاجتماع الفجائي ذلك اليوم، بسبب شائعة تفيد أنّ الإمبراطور الجديد سيستدعيهم. لم يعلم أحد من أطلق هذه الشائعة، لكنها بلغت جميع الأسر النبيلة قبل بزوغ الفجر. لم يأتِهم في الصباح أي استدعاء رسمي، فأتى نحو عشرة قادة إلى القاعة الإمبراطورية واتخذوا أماكنهم، فانتشر خبر وجودهم هناك، وخلال ساعات الصباح تضاعف عددهم، ثم تضاعف مرة أخرى بسبب خوف القادة الكبار من أن يُحرموا من بعض الأحداث المهمة. وصلت الأعداد إلى الذروة عند الظهيرة.

قرر القادة الثمانية المتبقون من نبلاء سونغ -بشكل مستقل- ألا ينتظروا أكثر كي يستدعيهم الإمبراطور الجديد، فدخلوا قاعة الاجتماع معا برفقة بعض السيافين والخدم، وبذلك حُجز كل مقعد وشرفة عندما قاربت الشمس على المغيب.

كان القائد سونغ وين في وسط كل هذه الجموع، رجلا طويلا ونحيلا، يرتدي ثوب حداد أبيضَ.

ارتدى العديد من القادة الآخرين ثيابا ذات لون أزرق غامق أقل رسمية، إشارة إلى الإمبراطور الذي تُوفي، لكن لم يكن هدوء الجنازة مخيما على القاعة.

لم يُسمع صوت للجرس الذي يُستخدم في العادة للإعلان عن مثل هذا الاجتماع، لقد نظر العديد من الموجودين إلى القائد سونغ وين كي يلقي الخطاب بصوت عال مترافق مع صوت الجرس الذي من شأنه أن يعيد النظام للقاعة، إذ لا يمكن أن يتم قرعه من دون أن يأمر الإمبراطور بعقد هذا الاجتماع، لكنّهم كانوا هناك رغم ذلك، ينتظرون أي تصرف أو صوت. ولم يعلم أي شخص كيف سيبدأ هذا اللقاء.

مع تقدم ساعات النهار، جلس السيد سونغ وين في موقعٍ مركزي من القاعة، وجعل الآخرين يأتون إليه من بين خدمه والقادة التابعين له، تبادل المعلومات، راقب الفصائل التي تجمعت قليلا ثم ابتعد أعضاؤها عن بعضهم مثل دود القز عندما تتفتح شرنقته بفعل الرياح. لم يُبدِ أية علامة على القلق خلال الساعات الطويلة من الانتظار بل في الواقع بدأ يزداد طاقة، فمكانته الرفيعة، وثقته بنفسه جعلتاه قائدا لكل من هم في القاعة. لقد اجتمعت أعداد غفيرة حوله حتى أصبحت الضجة الصادرة عنهم مزعجة للأذن. تم إحضار الطعام والشراب إلى القاعة فتناوله الجميع من دون أن يبارحوا أماكنهم.

ظهر التوتر والخوف في أعين أولئك الذين أتوا، فاجتماعهم ممنوع من دون أن يأمرهم الإمبراطور بذلك، ومع ذلك اجتمعوا، وهذا ما نظر إليه كثيرون على أنه مخاطرة يمكن أن تؤدي إلى خسارة ألقابهم وولاياتهم، وهم ما كانوا ليجرؤوا على المجيء لو أن الإمبراطور ليتسونغ كان حيا، ولكنهم لا يعلمون شيئا عن وريث العرش سوى أنه في الحادية عشرة من العمر، وهذا ما جعلهم يتجرؤون على الاجتماع في هذه القاعة، فهم يعتقدون أنّ ضوء السماء قد انطفأ، وأنّ الإمبراطورية متجهة نحو الهاوية الآن. ففي مواجهة مثل هذه الخرافة، بدا التوافق بينهم هشا، ولكن في الوقت ذاته لم يعد بإمكانهم تجاهل هذا العدو بعد الآن.

أحس السيد سونغ وين بالفوضى حوله، كما لو أنّها شراب قوي يتغلغل في دمه. فكل رجل يدخل إلى القاعة بإمكانه أن يراه هناك ممثلا لواحدة من أقدم العائلات في الإمبراطورية. تكلم بهدوء مع تابعيه وقد بدا رمزا للهدوء والتقاليد في وسط هذا الصخب المتزايد.

كانت رائحة الأفيون لاذعة، جلس يشاهد مستمتعا كيف وضع القادةُ الأطباق المزخرفة أمامهم، هم يهدّئون من أعصابهم من خلال هذه العملية الاعتيادية التي تبدأ بلف أقراص من الأفيون الناعم على أوانٍ برونزية إلى أن تنتهي بجلوسهم متكئين مرة أخرى. بعد أن أنهى كل منهم تجهيز غليونه بدؤوا يدخنون ويحيطون أنفسهم بالدخان.

ارتعشت أصابع يديه من طول الانتظار، لكنّه تمالك نفسه. فالاجتماع شيء جديد، ولم يجرؤ على أن يفوّت أيا من أجزائه.

عندما بدأت الشمس بالأفول، نزل العديد من القادة المجتمعين في قدور من البورسلان أحضرها خدمهم لهم. أخفت أثوابهم كل شيء عندما أفرغوا محتويات أمعائهم ومثاناتهم التي حبسوها طويلا، نُقلت فضلاتهم سريعا كي يتمكن القادة المجتمعون من البقاء في أماكنهم، في حين أن سونغ وين كان ينتظر اللحظة المناسبة.

لا تزال هناك مجموعتان يحتمل أن تعقدا اجتماعا، ومن الممكن أن يتم صرف إحداهما إن افتقرت للدعم. بدا الفتى الشاب في وسط النصف الآخر من القاعة مفتخرا بالقوة المفاجئة التي أصبحت بين يديه، فقد قُتل أخو السيد جين فينغ في المعركة الأخيرة التي جرت بين سونغ والمغول. هذا الأمر الذي جعل الجميع يتوقعون أن تبقى عائلة الفتى الشاب ضعيفة لمدة طويلة، لكنّ السيد الجديد للعائلة تولى مهامه بمهارة.

عبس سونغ وين عندما تذكر الاتفاق التجاري الذي حاول أن يمرره مع هذه العائلة، فقد بدا مثل دعم من صديق، هدية مالية لكن مع بعض الشروط ليساعدهم على تجاوز هذه الأوقات الصعبة، وهناك بند في الاتفاق يتيح له الاستيلاء على جزء من أراضيهم إن تخلفوا عن الاتفاق. لقد بدا اتفاقا مثاليا، يجمع بين الذكاء والقوة، إن رفضوا هذا الاتفاق فإن الأمر سيبدو وكأنه إهانة له، لذلك انتظر أن تُرسل له الوثائق المختومة مرة أخرى. وعندما وصلت إليه، بدا مسرورا لرؤيته ختم العائلة المثالي على المخطوطة. فبدأ يتفحص ويقرأ نزولا كي يصل إلى السطر الوحيد الذي يجعل من هذه الاتفاقية سلاحا حادا أكثر من أي خنجر، ولكنه لم يجده.

هزّ سونغ وين رأسه غير سعيد، عندما تذكر هذا، وذلك عندما ربّت السيد جين فينغ على كتف أحد الداعمين له.

إن نسخ المخطوطة ونسخ الختم عليها بشكل مثالي أمر حاذق، حتى إنّه نسخ خط يدِ الخطاط الخاص بسونغ وين. ليس بإمكانه أن يتذمر مما حصل، بالرغم من أنّه كان يملك الخيار إما أن يقبل بهذا الاتفاق البديل وإما أن يقول إن النيران ستلتهمهم ويرسل أسفه لهذه الأسرة. لكنّه قبِل به رغم كل شيء، معترفا بهذه الضربة الجيدة والذكية.

راقب سونغ وين جيرانه بطرف عينه، وتساءل عما إن كان من الأفضل له أن يدع جين فينغ يتعامل مع وطأة الاستهجان الإمبراطوري.

سيكون الخطر على أول من يتكلم بشكل رسمي، لكنه أحس أنه ليس بإمكانه التخلي عن هذه الأفضلية. ابتسم سونغ لنفسه، مستمتعا بالتوتر الذي انتابه والطريقة التي نبض بها الدم في عروقه، وفكرة أن كل شيء في الحياة يحتاج إلى مخاطرة تدور في رأسه.

وقف ببطء بين الجموع، فصمت كل أتباعه، واستداروا صوبه، بدا عملٌ كهذا كافيا وسط هذه الجموع المتوترة. لوحظت حالة الهدوء المفاجئ هذه، وسرت بسرعة في أرجاء القاعة، فتوقف الجميع عن الهمس أو أي نقاش كانوا يجرونه، والتفتوا إلى الخلف من دون اكتراث ليروا من تجرأ على أن يبدأ الكلام من دون أمر رسمي من الإمبراطور.

ألقى السيد سونغ وين للمرة الأخيرة في ذلك اليوم نظرة خاطفة على قنطرة المدخل، باحثا عن المتحدث الإمبراطوري أو مستشار الإمبراطور. وشكّ في عدم علمِ الشاب هويتسونغ بذلك الاجتماع بعد انقضاء كل هذا الوقت على اجتماعهم. فلا بدّ من أنّ جواسيس الإمبراطور العجوز موجودون في القاعة من أجل سيدهم الجديد، مستعدين لينقلوا له كل كلمة تُقال وهوية قائلها.

أخذ القائد سونغ وين نفسا عميقا، مع ذلك داهمه الوقت فقد انتشر الصمت في القاعة وعمّها الهدوء. يوجد أكثر من مئة قائد يشاهدونه بأعين لمعت تحت أضواء مصابيح المساء. كان تأثير معظمهم على ما سيحدث اليوم ضئيلا، لكن هنالك اثنين وثلاثين رجلا من الذين امتلكوا القوة في هذه الأمة، في مقدمتهم القائد جين فينغ. من المحتمل أن تكون مخيلة سونغ وين جعلته يراهم وكأنهم يقفون بين هذا الحشد، وبالرغم من أنّ كل الرجال هناك قد ارتدوا الأبيض أو الأزرق الغامق، فإنه بإمكانه أن يستشعر تقريبا الأماكن التي تكمن بها القوة والسلطة.

«سادتي». قال وقد بدا الصمت عميقا جدا فلم يحتج إلى أن يرفع صوته على الإطلاق. أكمل سونغ وين: «إنّ حضوركم يعكس إدراككم. لذلك دعونا نمضي قُدما في الحقيقة التي نعلمها جميعا؛ وهي أنّ الإمبراطور ليتسونغ لم يكن ليرغب في أن يرانا نجلس مكتوفي الأيدي في حين أنه يتم غزو أراضينا وتدميرها من قبل المعتدين، إننا في اختبار قاس يا سادتي. نعلم أننا نواجه عدوا شرسا ومريعا، فقد خسرنا العديد من الأُسر العظيمة والقوية، وانتقلت ملكيات أراضٍ أخرى إلى ورَثة جدد عندما دُمِر أصحابها الحقيقيون، فكسرت سلالتهم الصافية».

سمع بعض أصوات الهمسات، لذلك تكلم بصوت أعلى، فقد خطط لكل كلمة سيقولها خلال ساعات الانتظار الطويلة ذلك اليوم، وقال: «إنّني أتقبل ما يقع عليّ من الذنب الذي نتشاركه؛ وهو أنّنا انغمسنا في ألاعيب السلطة حين عانت الإمبراطورية. لقد شاهدت قادة يغادرون هذه القاعة للمرة الأخيرة، ومن ثم حُفرت أسماؤهم على لوحة الشرف، إنهم الرجال الذين سقطوا دفاعا عن حريتنا».

ثم نظر إلى القائد جين فينغ، فبادله الرجل الشاب إيماءة باهتة.

أكمل سونغ وين وقال: «من خلال ضعفنا، ومن خلال انعدام ثقتنا ببعضنا بعضا، سمحنا للعدو أن يزحف إلى عاصمة الإمبراطورية مقتربا أكثر مما اقترب أي عدو قبله. فقد أرسلنا القليل من القوات الضعيفة، وأهدرنا طاقاتنا على الأمور السياسية والثأر الشخصي، فدفعنا ثمنا باهظا. يا سادتي، لقد أهملنا نِعم السماء، ورحل الإمبراطور أيضا عن هذا العالم.

في لحظة الضعف هذه، وفي كل هذه الفوضى يقترب العدو، وأنتم تعلمون ذلك».

تنفس سونغ وين بعمق مجددا. كان بإمكان السيد جين فينغ التكلم حينها، فلم يكن هنالك مستشار إمبراطوري ليتحكم بالمتكلمين أو يقود النقاش، لكن الشاب صمت منتظرا.

أكمل سونغ وين كلامه وقال: «من دون أمر من الإمبراطور، فإننا لا نملك السلطة لتسليح كل الإمبراطورية وجعلِها تقاتل دفعة واحدة. وأنا أعلم ذلك وأقبل به. حاولت أن أصل إلى الإمبراطور هويتسونغ ولم أتلقَ جوابا من البلاط. أعلم أنّه تم رفض العديد منكم، وأن حاشية الإمبراطور تجاهلتكم، ولهذا نحن هنا الآن يا سادتي، نحن نعلم أنّ الذئب في طريقه إلى هانغتشو الآن، ونعلم ما يجب علينا فعله، علينا إما التصدي له ومقاومته، وإما دفع الجزية له ليغادر أراضينا ويدعنا وشأننا، ما من خيار آخر، وإن لم نبادر بسرعة ونقرر فسيتلطخ شرفنا، وسنُسحق، فالدمار قادم لا محالة».

توقف القائد السيد سونغ وين عن الكلام، وهو يعلم أنّ كلماته القادمة ستجعل سهام الخيانة تُصوب عليه، وسيخسر حياته، ومنزله، وأسرته، وتاريخه كله إن قرر الإمبراطور الشاب أن يجعل منه عبرة للآخرين. لكن بالرغم من ذلك، إن استطاع أن يهزم جيوش المغول فإنه سيحظى برضى بلاط العائلة الإمبراطورية، وسيصبح فوق أي عقاب، ولن يمسه أحد. لم يجرؤ سونغ وين على أن يحلم -مع كل قوته التي امتلكها- بأن يصبح إمبراطورا بدوره، لكنّ أفعاله في ذلك اليوم، ستقربه من عرش التنين، أكثر من أي رجل من أسلافه أو ستنتهي حياته. أكمل كلامه قائلا: «لقد أتيت لأرى كيف سيتحتمُ علينا التصرف. لذلك أدعو لعقد المجلس، وأدعو كل قادة سونغ للدفاع عن الإمبراطورية، فهنالك ثلاث وثلاثون أسرة نبيلة هنا اليوم، نحن مع أتباعنا نتحكم بأكثر من مليون جندي. لذلك أدعو للتصويت على هذا في المجلس السري».

ذهب أحد خدمه باتجاه الصندوق الخشبي المرصع بالعاج، الموجود أمام أحد الجدران البعيدة، بدا ذلك الصندوق كشيء قديم وجميل. أمسك الخادم بصولجان حديدي كبير، ونظر في اللحظة الأخيرة إلى السيد سونغ وين مترددا، فأومأ له سونغ وين، وبذلك سحب الخادم الصولجان فجذبه بقوة كاسرا القفل الذي أحاطه.

تلهف الموجودون في أنحاء القاعة. وحدّق كل قائد منهم بذهول، وجزعوا عندما أحضر خادم سونغ وين إناء زجاجيا عميقا أكبر من رأسه. رفعه إلى الأعلى وسار به إلى وسط القاعة، في حين اتجهت مجموعة أخرى من الخدم إلى الخزانة، وسحبت قطعا رخامية من اللون الأسود، وقطعا زجاجية شفافة من الرفوف التي رتبوا فيها بشكل أنيق، تحرك الرجال بين الحشد يسلمون هذه القطع بشكل زوجي إلى أقوى الأسر في الإمبراطورية. بدأ القادة المجتمعون الكلام بأصوات أعلى، مما اضطر السيد سونغ وين لأن يرهق أذنيه وعينيه لكي يتابع ما يحدث في القاعة. لم يكن بإمكانه أن يعلم ما الذي يفكرون فيه، وهذا ما أحبطه. فبالتأكيد بعضهم مرتعد من عدم موافقة الإمبراطور على هذا التصويت، وقد يمنعهم جبنهم وضعفهم من التصويت.

لم يعلم ما سيفعله جين فينغ. صحيح أنّ جيش أخيه قد مُزّق من قبل المغول الغزاة، إلّا أنّ أسرته تعد أسرة عريقة وقديمة، لذا سيكون قراره مهما.

رفع القائد سونغ وين يديه ليريهم قطعتَي الرخام اللتين حملهما، إحداهما ذات لون أسود والأخرى شفافة.

قال وهو يحمل القطعة السوداء: «لنجعل ذات اللون الأسود تعبّر عن الجزية، والقطعة الشفافة تعبّر عن الحرب». ثم ألقى القرص الشفاف في الإناء الكروي، ليصدح صوتها في كل القاعة، وتدور حول نفسها قبل أن تستقر. ثم قال: «هذا هو صوتي إضافة إلى كل الأسر التابعة لي، وأنا أتعهد بتقديم اثنين وتسعين ألف جندي وأحصنةٍ وكل المعدات والتجهيزات اللازمة للحرب تحت إمرتي. فدعونا ندمر العدو الذي أمامنا، من أجل ازدهار الأمة، وباسم ابن السماء، وباسم الإمبراطور هويتسونغ وعرش التنين».

عند هذه النقطة، سيطر القائد سونغ وين على القاعة. خلال الوقت الذي استغرقه تحرك القرص الشفاف حتى استقر، فهمَ كل من في القاعة أنّه يتوقع منهم أن يستجيبوا إلى طلب السيد سونغ وين.

أحسّ سونغ وين بقطرة من العرق تنزلق من حاجبه، لذلك تمالك نفسه ووقف بثبات، وبذلك لن يتمكنوا من رؤيتها وهي تسقط منه، ولن يعلموا بمقدار التوتر الذي عانى منه.

كان كبير أقدم أسرة في الإمبراطورية يجلس في أحد الصفوف الأمامية حول الساحة الفارغة في مركز القاعة. بدا السيد هونغ رجلا ضخما، جعله ثوبه الرسمي يبدو أعرض، وجلس يشد قدميه أمامه، وأراح كل من راحتَي يديه على ركبتيه، صدر صوت طقطقة من يده اليمنى وهو يحمل قطعتي الرخام معا. انتظر السيد سونغ وين منه أن يقوم بحركة ما، لكنّه اندهش عندما رأى القائد جين فينغ يقف من الجهة الأخرى ويتقدم باتجاه الخادم الذي يحمل الإناء الزجاجي. تابعه السيد هونغ بحذر ولم يحرك سوى يده.

فقال جين فينغ: «إنّه يوم نرى فيه أشياء جديدة، لقد قدّم أخي القائد جين آن حياته من أجل حماية أرضنا وشرفنا. وقُتل ابن السماء شوان معه أيضا، وبذلك انتهت سلالة تشن النبيلة دفاعا عن الإمبراطورية، فهل بإمكاني أن أقدم أقل من حياتي؟». نظر إلى النبلاء المجتمعين، وأومأ لهم كما لو أنّه قد فهمهم. وقال: «لدينا مهمة أن نحرق هذه الشوكة التي تتقدم باتجاهنا وتقف عقبة في أراضينا، لذلك أصوّت أنا وأتباعي لصالح الحرب».

ألقى قرصا شفافا آخر في الإناء فدار فيه إلى أن استقر، خلال ذلك شخصت أنظار كل من في القاعة إليه، انحنى جين فينغ قليلا إلى سونغ وين، فهو لم يُعجب بهذا الرجل الأكبر سنا منه أو يثق به، وعندما التقت أعينهما لم يستطع جين فينغ أن يكبح الشك الذي اشتعل في داخله. لكن لمرة واحدة، كان القائد سونغ وين إلى جانب الحق.

سلّم جين فينغ القرص الأسود إلى خادم وعاد إلى مكانه، فوقف سيدان آخران، وتقدما إلى الساحة التي وضع فيها الإناء، ووضعا كلاهما قطعا رخامية شفافة في الإناء، وعادا إلى مكانيهما.

بدأ سونغ وين يشعر بالراحة عندما أتى ثلاثة رجال آخرين إليه ووضعوا أقراصا شفافة في الإناء، ثم رأى السيد هونغ يقف من مكانه. تحرك الرجل بسهولة وبقوة وفخر، فقد كان القائد هونغ من قلائل الرجال المجتمعين الذين لم يهملوا تدريباتهم اليومية بالسيف والقوس.

حمل السيد هونغ قرصَي الرخام فوق الإناء.

قال بصوت أجش: «إنّني لا أرى أي مستشار للإمبراطور هنا، إضافة إلى أنني لم أسمع صوت جرس يستدعينا إلى هذا المكان، وإلى هذا الاجتماع».

بدأ السيد سونغ وين بالتعرق مرة أخرى بعد هذا الكلام. فعلى الرغم من أنّ السيد هونغ هو أحد أولاد العم غير المباشرين للإمبراطور السابق، إلا أنه لا يزال أحد أفراد الأسرة الحاكمة، وبإمكانه ببساطة أن يطلب إلغاء هذا الاجتماع إذا ما أراد أن يفرض تأثيره.

ألقى السيد هونغ نظرة سريعة على كل الموجودين في القاعة وقال:

«على الرغم من أنّ قلبي ينكسر على فكرة دفع جزية إلى هذا العدو، إلّا أنّ هذا الأمر سيكسبنا بعض الوقت حتى تأتينا الأوامر من الإمبراطور هويتسونغ. فأنا أرغب في أن أقود جيشا لمواجهتهم إن كانت نتيجة التصويت تدعو إلى الذهاب إلى الحرب، لكن من دون الموافقة الإمبراطورية لا أستطيع أن أدع مصير عائلتي على المحك بسبب هذا القرار. لذلك أنا أختار الجزية».

ألقى قرصا أسود في الإناء في حين حاول سونغ وين جاهدا ألّا يعبس بوجه هذا الرجل. لم يُظهر السيد هونغ إلا الضعف في خطابه هذا، كما لو أنّه يرغب فقط في أن يُبقي نفسه بمأمن من الغضب الإمبراطوري، مع ذلك فهو يتوقع أن يقود جيشا إن سار التصويت ضده وهو أمر يثير الجنون، لكنّها الحالة الطبيعية التي تسير فيها الأمور السياسية في تلك القاعة.

بهذه الحالة، ذكرهم السيد هونغ بنتائج عدم الموافقة الإمبراطورية، وبدأت هذه الموجة المعارضة للحرب بالانتشار. لم يُبدِ سونغ وين أية تعابير عندما أضاف أربعة قادة آخرين أقراصا سوداء إلى الإناء. لكنّه كان يشتعل غضبا من الداخل.

خفتت الأضواء، وأصبحت تومض بلون أصفر باهت، إذ لم يكن هناك أيّ من الخدم الإمبراطوري لإعادة تعبئتها بالزيت. وقف السيد سونغ وين بثبات منتصبا في مكانه في أثناء تقدمِ سادة إمبراطورية سونغ واحدا تلو الآخر للتصويت. تكلم عدد قليل منهم، بالرغم من أنّ أول من امتنع عن التصويت شرح قراره هذا بكلمات لم تعبر إلا عن الجبن حسب تقدير سونغ وين. ومع ذلك فقد امتنع سبعة قادة آخرين عن التصويت، وسلموا الخدم كلتا قطعتي الرخام.

إنّ المسبب الرئيسي لهذا الضرر هو السيد هونغ، فقد أدى كلامه إلى إخافة الرجال الضعفاء، وجعل الأقوياء منهم حذرين، أدرك سونغ وين كيفية تغير الرأي العام للمجتمعين في القاعة عندما قرروا أن يسيروا بالطريق الآمن، ليختاروا الجزية عوضا عن الحرب. صرّ على أسنانه، وأحسّ بها تتآكل في كل مرة رمى فيها أحد السادة قرصا أسود في الإناء، واحدا تلو الآخر. عندما سار التصويت ضده بنتيجة أحد عشر إلى سبعة، فكّر في التكلم مرة أخرى، لكن ذلك لن يعني إلا خرقا جديدا للعادات، فقد أتت فرصته وذهبت. رمى نظرة ساخطة على هؤلاء الذين امتنعوا، لكنّه احتفظ بكلامه لنفسه في حين أن الإناء قد امتلأ. وُضعت قطعتا رخام داكنتا اللون ثم تبعتهما قطعتان شفافتان. ظهر بصيص أمل في رأس السيد سونغ وين المتلبد، وأتى صوت آخر لصالح الجزية، وتبعه امتناعان آخران من رجلين لم ينظرا إلى وجهه حتى وهما يمشيان بتثاقل نحو مكانيهما.

عندما صوتت كل الأسر العظيمة أو امتنعت عن التصويت، بدا الإناء الزجاجي ممتلئا تقريبا. بالرغم من أنّ سونغ وين قد احتسب الأصوات في رأسه إلا أنّه لم يُظهر أية تعابير عندما تم إحصاء النتيجة، وشاهد الجميع هذه العملية.

أعلن بصوت واضح وعالٍ كصوت أي رسول إمبراطوري: «امتنعت عشر أُسر عن التصويت، وهنالك أربعة عشر صوتا لصالح الجزية، وتسعة لصالح الحرب». ثم تنفس بارتياح وقال: «النتيجة لصالح الحرب».

ابتسم سونغ وين، وشعر بالدوار نتيجة الإرهاق. إنّ الرقم أربعة عشر هو الرقم الأكثر نحسا من بين كل الأرقام، وهو الرقم الذي يبدو وكأنك تقول: «أرغب في الموت» في كلتا اللغتين الكانتونية والمندرينية. أما الرقم تسعة فهو رقم يدل على القوة ومرتبط بالإمبراطور ذاته، لم تكن النتيجة قد توضحت بشكل تام، لكن العديد من الرجال في القاعة ارتاحوا عند رؤيتهم هذه الإشارة التي أتت من السماء، وقدمت لهم هذا المعروف. فأن تنطلق بناء على نتيجة الرقم تسعة ما هو إلا

مباركة ونعمة، ولن يجرؤ أحد على الميل لصالح الجزية بعد أن أتت تحت الرقم أربعة عشر، وذلك خوفا من كارثة تامة.

دوّت نغمة ضعيفة في أنحاء القاعة مقاطعة النقاشات المثيرة التي انتشرت في قاعة الاجتماع بعد هذا الإعلان. هزّ السيد سونغ وين رأسه، وقد فتح فمه بعض الشيء متفاجئا.

فقد وقف المستشار الإمبراطوري قرب الجرس حاملا الصولجان الذي استخدمه ليضرب به. بدا الرجل محمر الوجه، كما لو أنّه ركض مسافة طويلة. وقد ارتدى سترة وسروالا من الحرير الأبيض، وحمل بيده اليمنى عدته المكتبية، وأمسك أيضا أوراقا صفراء اللون بقبضته، وقف محدقا بغضب إلى السادة المجتمعين. ثم قال: «قفوا تبجيلا للإمبراطور هويتسونغ؛ سيد الأمة الأبدي، وحاكم المملكة الوسطى، أظهروا الطاعة إلى ابن السماء».

انتشرت موجة من الصدمة في أنحاء القاعة. فقد ترنح الجميع، وارتجفت أقدامهم في أثناء وقوفهم. لم يسبق لإمبراطور اجتماع سادة سونغ أن حضر من قبل وإن اجتمعوا بناء على طلبه، وبالكاد قابل ثلاثة أو أربعة منهم إمبراطورهم سابقا، لذلك سيطر عليهم شعور الهلع عندما علا صوت الجرس مرة أخرى.

لم يكن هنالك أي انتظام في الطريقة التي ركعوا بها. فقد اختفى تقديرهم الدقيق للمكانة والمرتبة السامية للإمبراطور، وغرقت وجوههم وعقولهم بالرعب. ركع السيد سونغ وين كما لو أنّ قدمَيه لم تعودا قادرتين على حمله، واصطدمت ركبتاه بقوة في الأرض، تبعه القادة الآخرون في كل مكان في القاعة بهذا التصرف، لكن عانى بعضهم خلال الركوع بسبب الخدم المحتشدين حولهم.

لمح سونغ وين فتى يرتدي رداء أبيض مزينا بتنانين ذهبية قبل أن ينزل إلى الأرض ويلمس بجبينه العريض الأرضية القديمة ثلاث مرات. لقد دُمرت كل مخططاته واستراتيجياته، واشتعل تفكيره غضبا وهو يرتفع قليلا، وينحني مجددا، ويلمس برأسه الأرض ثلاث مرات أخرى. قبل أن ينهي سجوده الشعائري أصبح الإمبراطور هويتسونغ أمامهم برفقة حراسه الشخصيين، يمشي بثقة نحو مركز القاعة.

جاهد السيد سونغ وين كي يقف على قدميه، لكنّه أبقى رأسه منحنيا، حاله كحال بقية الموجودين في القاعة. انتابته الحيرة، وحاول أن يفهم معنى قدوم الإمبراطور الجديد إلى هذه القاعة. بدا هويتسونغ رجلا صغيرا، ضعيفا مقارنة بالسيافة الضخمين الذين أحاطوا به. لم يكن من

الضروري أن يفرغوا الساحة، فالوجود الإمبراطوري دفع كل القادة إلى الخلف كي يعطوه مساحة وفي مقدمتهم سونغ وين.

حلّ الصمت مرة أخرى، واضطر سونغ وين لقمع الرغبة المجنونة في الابتسام التي اعترته، فقد أتته ذكرى لأبيه وهو غاضب عندما أمسك بسونغ وين الشاب حينما كان يسرق التفاح المجفف.

لقد بدا من السخف أن يشعر بالشعور نفسه الذي أحسه حينها في حضور فتى شاب، لكن بإمكان سونغ وين أن يرى كيف احمرت وجوه العديد من الحاضرين خجلا وقد اختفت كرامتهم.

وقف الإمبراطور هويتسونغ منتصبا أمامهم بثقة، ربما لأنه يعلم أنّ بإمكانه أن يأمر بقتل أي شخص منهم بكلمة واحدة، وأنّهم لن يقاوموا هذه الأوامر، فالطاعة متأصلة فيهم جميعا. بدأ السيد سونغ وين يفكر كثيرا في ما سيحدث منتظرا أن يتكلم الفتى.

بدا الإمبراطور أشبه بلعبة متحركة برأسه الحليق الذي لمع تحت أضواء المصابيح. أدرك سونغ وين أنّ الخدم الإمبراطوري كانوا يعيدون تعبئة المصابيح بالزيت عندما انتشر الضوء في القاعة، فصبغهم جميعا باللون الذهبي. أصبح بإمكانه الآن أن يرى بوضوح التنانين الصفراء التسعة على رداء هويتسونغ؛ رمز سلطته وسلالته. كبتَ تأوها كان سيخرج منه، فهو يعلم أنّه سيخسر حياته إن رفض هويتسونغ هذا التصويت الذي حدث هناك، وأصابته القشعريرة وهو ينتظر مصير أسرته الذي تقبض عليه يد شاب لم يعرفه من قبل.

تكلم هويتسونغ بصوت واضح وعال قائلا: «من دعا إلى هذا الاجتماع؟»

تقلصت معدة سونغ وين بسبب الخوف الذي اعتراه. لم يحتج إلى أن ينظر كي يدرك أنّ كل الأعين في القاعة كانت شاخصة إليه. نكّس رأسه وتشنج فمه، ساد الصمت، فأومأ لنفسه مستجمعا قواه، وفكّر أنّ الفتى خالف التقاليد بدخوله إلى القاعة، وهو الأمر الوحيد الذي لم يتوقع حدوثه، قبض راحة يده وأمسك بقبضته خلف ظهره عندما رفع رأسه، علم بشكل جيد أنّه من الأفضل ألّا ينظر إلى عينَي الفتى، فظل ينظر إلى الأرضية وهو يقول: «ابنَ السماء، لقد اجتمعنا اليوم لنرد على العدو الذي يهددنا».

سأل الفتى: «من أنت؟».

فأجابه: «أنا خادمك المتواضع هو سونغ وين يا بن السماء، من أسرة...».

قاطعه الإمبراطور وسأله: «هل تتحدث نيابة عمّن في القاعة يا سونغ وين؟ هل تتحمل المسؤولية عنهم؟».

بدلا من أن يحكم على نفسه بالإجابة، ركع سونغ وين على ركبتيه مجددا، ولمس بجبهته الخشب الدافئ.

قال الإمبراطور: «انهض يا سونغ وين، فقد سألتك سؤالا».

خاطر سونغ وين بالنظر إلى أرجاء القاعة، وهو متأكد من أنّه بإمكانه أن يشعر بنظرات القادة الآخرين الذين لم يجرؤ أي منهم على رفع رأسه، فبدا الأمر وكأنهم يقفون برعب وتذلل في حضور الإمبراطور. بدا هويتسونغ بالنسبة إلى كل الحاضرين فتى صغيرا، لكنّه يمثل السماء بحد ذاتها، ويمثل الألوهية لمجموع الرجال في هذه القاعة.

تنهد سونغ وين بهدوء. أراد أن يرى الأمهار الجديدة التي ولدت في مدينته، الناتجة عن اختيار أحصنة صافية النسل للتزاوج. فلقد بذل جهدا ووقتا كبيرين من أجل هذا الأمر يماثلان ما بذله لأجل كل شيء آخر في حياته. وشعر بوخزة في قلبه عندما فكّر في زوجته وأولاده.

إن قرر الإمبراطور أن يجعل من أسرته عبرة للبقية، فإنّ موتهم سيأتي بأوامر مكتوبة على أوراق مربوطة بحرير أصفر، وسيتم إعدام بناته وحرق مدينة عائلته.

قال سونغ وين: «إنّني أتكلم نيابة عن الجميع يا بن السماء. أنا من دعا للتصويت اليوم». ثم أغلق فمه قبل أن يدفعه خوفه الغادر إلى الثرثرة واختلاق الأعذار.

فقال الإمبراطور: «وبذلك قمت بواجبك أيها القائد سونغ وين. فهل صوّت قادتي لرفع الرايات والانطلاق للحرب؟»

دهش سونغ وين وازدرد لعابه بشكل واضح محاولا أن يفهم ما يحدث وقال: «أج.. أجل يا بن السماء».

فأجابه الإمبراطور: «فلتشعر بالفخر إذن أيها القائد سونغ وين. فقد تصرفت كما يرغب الإمبراطور اليوم».

تلعثم سونغ وين وهو يفكر في جوابه القادم، ولكن الإمبراطور الفتى حوّل نظره باتجاه قادته المجتمعين قائلا:

«أخبرني عمي قبل وفاته أنّكم كنتم عبارة عن وكر من الأفاعي، وقال لي إنكم ستفضّلون أن تروا هانغتشو تحترق على أن تخاطروا بكبريائكم وشرفكم. وأنا أرى الآن أنّه كان مخطئا».

أحسّ سونغ وين بفرحة عارمة، وهو يرى أولئك الذين صوّتوا لصالح الجزية يتقلبون منزعجين وغير مرتاحين في أماكنهم، وأولهم السيد هونغ. أكمل الإمبراطور كلامه بصوت واضح يدل على الثقة فقال:

«لن أبدأ حكمي للبلاد تحت التهديد أيها القادة، لذلك ستتوجهون من هذا المكان إلى أراضيكم لتستدعوا قواتكم، وسيرافقكم حرسكم الشخصي أيضا. إنّني أضمن السلام لأسركم، وأعدكم بأنهم لن يُتركوا بلا حماية خلال غيابكم. وأنا أيضا سأتصرف وأدمر أية أسرة من النبلاء تحاول الاستفادة من هذه الحرب».

ثم استدار إلى سونغ وين مرة أخرى وقال:

«لقد أبليت حسنا يا سيدي، فربما لو كنا في حالة سلام لوجدت أنّك قد أخطأت بتصرفك هذا، لكننا لسنا في حالة سلام الآن. لذلك سأحدد موعدا لتكريم أسرتك عندما نعود من الحرب».

«عندما نعود يا بن السماء؟». قال سونغ وين وقد اتسعت عيناه.

فأجابه الإمبراطور: «بالتأكيد، فأنا لست برجل عجوز أيها القائد سونغ وين. وأرغب في أن أتابع الحرب».

للحظة رأى سونغ وين بريقا في عيني الشاب، فارتجف ولكنه أخفى ذلك بانحناءة طويلة.

قال الإمبراطور هويتسونغ: «ستقود الحشود أيها القائد هونغ». ركع الرجل الضخم، وانحنى إلى أن لمس جبينه الأرض. وأكمل الإمبراطور كلامه: «كم تحتاج من الوقت قبل أن تغادر هانغتشو؟».

وقف القائد هونغ على قدميه وبدا وجهه شاحبا. فابتسم سونغ وين لرؤيته منزعجا هكذا، فتحريك مليون جندي يحتاج إلى الإمدادات والدروع والأسلحة الكثيرة؛ أي إنه يحتاج إلى مدينة من المعدات.

أجاب القائد هونغ: «أحتاج إلى شهر يا بن السماء. فإن امتلكت السلطة الكافية فلسوف أكون مستعدا مع مولد القمر الجديد».

قال هويتسونغ وقد علا صوته: «لديك السلطة الكاملة، فدع كل من يمكنه سماعي يعلم أنّك تتكلم باسمي في هذا الأمر. تحركوا بسرعة أيها القادة».

خرج الفتى من المكان الذي أتى منه. أشاح الجميع بنظرهم بعيدا، ربما كان سونغ وين الرجل الوحيد الذي لاحظ كيف ارتجف العديد منهم عندما غادر الإمبراطور.

33

هطل مطر غزير على سطح المنزل الذي مكث فيه كوبلاي. لقد انتظر الرجل مالك المنزل في الخارج في الحقول برفقة حشد من القرويين وعائلته. تجاوزهم كوبلاي منطلقا إلى المنزل، فبدوا أشبه بجراءٍ شبه غارقة في الماء عندما سار بالقرب منهم، لكنهم سيُتركون على قيد الحياة على الأقل، فكل ما يحتاج إليه كوبلاي هو المبيت في هذه القرية لليلة واحدة فقط.

أُشعلت نار هائلة في الموقد، وقف بالقرب منها محاولا تجفيف ملابسه بحرارتها، وبذلك تصاعد البخار منه على شكل خيوط من الدخان، من وهج الموقد، في فترات الراحة كان يقطع الغرفة ذهابا وإيابا قرب الموقد، يتكلم ويومئ وهو يناقش المستقبل.

سأل: «كيف بإمكاني التوقف الآن؟».

تمددت زوجته تشاباي على أريكة عتيقة، لقد سبق لهذه الأريكة أن حُشيت ورقعت عدة مرات، نامت طفلته الصغيرة بين يديها، لكنّه ما زال يتذمر ويناقش احتمال أن تستيقظ هذه الطفلة في أية لحظة. نظرت تشاباي بقلق إلى زوجها، ورأت كيف أرهقته السنون التي قضاها في سونغ، حتى وصل الإرهاق إلى عظامه. في تلك اللحظة، لم يكن قادرا على تذكر الشاب المتعلم الذي كان عليه.

الأمر ليس مجرد تغير فيزيائي، فعلى الرغم من أنّه كسب العضلات والقوة اللتين منحتاه الهيبة في حركاته، إلا أن التغيير الحقيقي ظهر في المعارك التي كسبها إضافة إلى الأساليب والاستراتيجيات التي استخدمها. أحبته تشاباي بشدة لما حققه من انتصارات في تلك المعارك، لكنّها قلقت عليه أيضا. مهما كانت نية مونغ، فقد قسّى زوجها وغيره، وبالرغم من أنّ الخان القديم قد مات إلا أنّها ما زالت تكرهه بسبب ذلك، فعلى الأقل هي لا تتذكر المرة الأخيرة التي فتح فيها كوبلاي كتابا ليقرأه. رقدت مجموعة كتبه في العربات مغطاة بالكتان المدهون بالزيت. لقد كانت قيمة جدا ليتم التخلص منها، لكنّها تلونت باللون الأخضر بسبب العفن.

سأل كوبلاي: «هل هي نائمة؟». لا يزال صوته عاليا ومفعما بالغضب.

أجابته تشاباي: «أجل لقد نامت أخيرا، لكنني أستمع إليك، قلت إنّك اتخذت قرارك، فلماذا تعاني من التفكير في هذا الأمر؟».

أجابها: «لأنني قريب جدا يا تشاباي. بإمكاني الوصول إلى هانغتشو، هل تفهمين ما أعنيه؟ فكل ما عملت لأجله في السنوات الخمس المنصرمة أوصلني إلى هذه النقطة، وها هو ذا أخي النذل يعلن نفسه خانا! فهل يجب عليّ أن أغادر، وأترك كل شيء حققته وأعود إلى الديار زاحفا على معدتي مثل كلب صيد؟ كيف سأتمكن من العيش الآن؟».

فقالت: «كيف لا يمكنك أن تعيش؟ أرجوك أخفض صوتك، حتى لا توقظها مرة أخرى». بدت تشاباي مرهقة من قلة النوم، آلمتها حلماتها من إرضاع طفلتها، لكنّها لم تستطع أن تترك كوبلاي وحده ليصاب بالذعر أو يشرب إلى أن يفقد الوعي.

قال كوبلاي وقد عاد للسير مرة أخرى: «عندما استُدعي تسوبوداي إلى الديار من رحلته إلى الغرب، لم يعد أبدا. هل تفهمين ما أقصد؟ إنّ هذه فرصتي، وهذا وقتي. فإن تركت هذا المكان فلن يسقط حكم سونغ بسهولة حتى لو قررت أن أعود إلى هنا مرة أخرى، إذ سيكونون قد تعلموا من هذه المرة، وسنضطر للقتال من أجل كل خطوة نخطوها. هذا إن عدت ولم أُقتل في إحدى المعارك البعيدة عن هنا وأنا أقاتل أخي! كيف تمكن من فعل هذا بي يا تشاباي؟ ذلك المتغطرس عديم الفائدة....».

قالت تشاباي محذرة: «لا تشتم أمام الطفلة».

فعبس بوجهها وقال: «ليس بإمكانها أن تفهم أي شيء يا امرأة».

أجابته: «لا تقل لي يا امرأة يا زوجي. أنت أردتني أن أستمع وها أنذا أستمع إليك، لكنك قلت إنّك اتخذت القرار بالعودة إلى الديار. فلماذا توقّفنا هنا، في هذا المكان البارد؟ لماذا لم يُحل أي شيء؟».

ردّ بعنف: «لأنه ليس سؤالا بسيطا!» همّت زوجته بالوقوف فسألها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

أجابته: «إلى السرير».

تغيّرت ملامحه وذهب إليها، ركع بالقرب من الأريكة وقال:

«إنّني آسف. كل ما في الأمر أنني اعتقدت أنّه لا يجب عليّ أن أحمي ظهري وأحذر من أخي، ليس منه. فقد اعتقدت أنّ آريك بوك سيدعمني دائما».

وضعت تشاباي يدها على وجهه بحنان، وقالت:

«هل تعلم كم تغيرت منذ غادرت كاراكورم؟ فربما هو تغير أيضا. إنّ خمس سنوات مدة طويلة يا كوبلاي. فربما هو لا يزال يفكر فيك على أنّك شقيقه المحب للعلم، الأكثر حبا للكتب والأفكار الغريبة من بين كل أفراد عائلتك. إنه لا يعرفك، لا يعرف كيف أصبحت الآن، وأنت لا تعرف كيف غيّرته السنوات».

«لقد وصلتني رسالة منه» قال ضجرا. وقفت زوجته ونظرت إلى عينيه وقالت:

«حسنا أهذا ما يغضبك؟ ما فحوى هذه الرسالة؟».

تنهد كوبلاي وقال: «جزء مني تمنى لو كان كل هذا خطأ ما. لقد أعلن آريك بوك نفسه خانا في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه نفسي خانا تقريبا. لم يملك أدنى فكرة عما كنت أفعله هنا. تمنيت أن يفهم أن لديّ الحق أكثر منه، لكنّه بدلا من ذلك أرسل لي رسالة كما لو أنّ ما فعله حقّه الطبيعي والموروث». زاد غضبه مرة أخرى عندما تذكر كلمات أخيه التي كُتبت بيد أحد الخطاطين من مكان بعيد. أكمل: «لقد طلبني إلى الديار يا تشاباي! أخي الأصغر الغبي، كتب إليّ كما لو أنّه نظير لي».

قالت تشاباي بهدوء: «ما عدتما صغيرين يا كوبلاي. فلا يهم الآن من وُلد أولا. لقد كبر وأصبح رجلا، وأصبح الخان أيضا لأرضنا الأم، الأرض الموروثة لأمك بصفتها هدية من مونغ. إنّه معتاد على قيادة الأمم. أنا أشك في أنّه أخذ ردة فعلك في الحسبان. أما أنت فخبرتك في الميدان ضد الأعداء».

«أمر سيفهمه إن واجهته في الميدان». قال كوبلاي قابضا راحة يده اليمنى كما لو أنّه سيضرب شيئا ما. أخذ نفسا عميقا محاولا أن يتحكم بالغضب العارم الذي اعتراه.

وقال غاضبا: «أنتِ لا تقولين إنّه على حق؟».

هزت رأسها وقالت: «بالتأكيد لا يا زوجي. فقد وجب عليه أن يضع الأمر أمام الأمراء ورجال الأمة الكبار. ووجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار أنّك قد تتحداه للحصول على منصب خان

الأمة قبل أن يعلن نفسه خانا. لكنّ ذلك أصبح من الماضي، ولا توجد فائدة من مناقشة ما كان يتحتم عليه فعله، فقد أعلن نفسه خانا. يجب أن تراه على أنّه رجل الآن، وليس الفتى الذي انتشلته من قبل عندما سقط، أو الطفل الذي قصصت عليه القصص. لقد كانت لديه الأم نفسها التي لديك؛ وهي سوهارتاني التي حكمت الأمة عمليا لسنوات. ووالده هو والدك؛ وهو الرجل الذي ضحى بحياته من أجل الخان. وجنكيز أيضا هو جدكما أنتما الاثنين. فإن استمريت بالتفكير في آريك بوك على أنه رجل ضعيف أو أحمق، فبإمكانه أن يدمرك».

قال كوبلاي: «سأقتله أولا. لم أكن أتوقع أن أصبح الخان يا تشاباي. فإن لمونغ كثيرا من الأبناء، لو أنه عاش لبضع سنوات أخرى فقط، لكان سيسمي وريثا له، فينتقل الحكم بطريقة سلسة، لكنه رحل من دون أن يفعل ذلك. بدلا من أن ينفس عن الغضب الذي اعتلاه فقد رحل، رحل مع الرياح».

قالت تشاباي: «يجب أن تهدأ يا زوجي، ويجب أن تضع غضبك والخيانة جانبا، فكّر في الطريقة التي يُفكر وفقها الخان». هزت رأسها وأكملت: «يجب عليك أن تتخذ القرار. إما أن تعتبر الأمر خيانة وتعتبره عدوا لك، وإما أن تتخلى عن الإمبراطورية وتقسم بالولاء لآريك بوك. يجب أن تختار أحد هذين الأمرين، ولكن لا مغزى من أن تقود نفسك إلى الجنون بهذا الأمر. وفي كلتا الحالتين لا يمكنك البقاء في أراضي سونغ».

في غضون لحظة، زال الغضب الذي اعترى زوجها، فنزل إليها بعد أن وقف أمامها وأحنى كتفيه إليها وقال بهدوء:

«إنّه أمر لا يجب أن أخسره. فقد خسرت رجالا، وعانينا جميعا لننفذ الأوامر التي أعطاني إياها مونغ. لا أعلم إن توقع مني أن أنجح أم لا، ربما توقع مني أن أفشل فعلا وكان عليه أن ينطلق إلى هنا لينقذني. لكنني هنا، ما زلت أقف صامدا وبإمكاني الاستيلاء على عاصمتهم يا تشاباي».

تمتمَت بقلق: «لكنك ستخسر العالم إن قمت بذلك. لقد قلت ذلك من قبل. فحتى لو انتصرت على إمبراطورية سونغ، حتى لو أصبحت إمبراطورا هنا يجب عليك أن تواجه آريك بوك في النهاية. صحيح أنّك ستكون قد استوليت على خانات جديدة للأمة العظمى، لكنك ستصبح تابعا لأخيك. وسيجب عليك أن تذهب إلى كاراكورم لتقسم بالولاء له».

تنهدت تشاباي عندما بدأت الطفلة تصدر صوتا وتتلوى، ثم وضعت إصبعها الصغير في فمها، وامتصت إصبعها وكأنها جائعة.

«ليس بإمكاني أن أفعل ذلك». قال وهو يحدق بعيدا كما لو أنّ بإمكانه أن يرى المسافة التي تفصله عن الديار ثم أكمل: «أنا خان يا تشاباي. لدي الحق ولن أتخلى عنه، فيمَ فكّر عندما أعلن نفسه خانا؟ هل ترين ماذا فعل بي؟ ليس لديه الحق ليفعل هذا يا تشاباي، ليس لديه الحق على الإطلاق». هز رأسه، واستدار مرة أخرى محدقا إلى النار المشتعلة في الموقد. ثم قال:

«اعتدت أن أحلم عندما كنت صغيرا بأن أتبع الخطا التي سار عليها أوكتاي خان، لكن الأمر كان مجرد خيال، فابنه غويوك سيرث مكانه، وقد فهمت ذلك. عندما مات غويوك، بدا مونغ الخيار الأفضل. لم أكن مستعدا حينها. فقد اعتاد أن يسخر مني بسبب طريقة لبسي وتكلمي والكتب التي أقرؤها».

قالت تشاباي بلطف: «أنا أتذكر ذلك».

قال كوبلاي: «لكنّه كان محقا يا تشاباي. فالأشياء التي رأيتها.. بل الأشياء التي فعلتها». ارتعش قليلا عندما مرت هذه الذكريات في رأسه وقال: «لقد كنت بريئا. اعتقدتُ أنني فهمت الحياة والعالم، لكنني كنت مجرد طفل صغير».

حمل كوبلاي قضيبا حديديا مخصصا لتذكية النار، وبدأ بطعن الحطب المشتعل به، مما سبب تطاير شرر من النار في الغرفة. فغطت تشاباي الطفلة الصغيرة بيدها كي تحميها من هذا الشرر.

«لكنني لم أعد طفلا». قال ذلك وقد ضعف صوته وأصبح أجش. وضع القضيب الحديدي جانبا، نظر إليها وقال:

«لقد كنا صغارا جدا حينها، لكن بفضل أب السماء لم أعد ذلك الرجل الشاب الذي لم ير جثة مهشمة من قبل. فأنا خان. لقد تم الأمر ولن أغيره أبدا». قبض يده، مستمتعا بقوته التي تحلى بها وأكمل: «لن أسمح لأي شخص بأن يأخذ مكاني».

استدارا إلى الخلف عندما صدح صوت رجل يصيح عند الباب الخارجي. وقف أحد حراس كوبلاي هناك، مبللا تماما بالمطر، يقطر ماء من عباءته المبللة في مكان وقوفه، وقال وهو ينحني بشدة:

«إنّ قائد الجيش أويانغ خاداي هنا يريد رؤيتك يا سيدي الخان».

لا يصل أحد إلى كوبلاي قبل أن يمر من خلال حارسين من حراسه، ويتم تفتيشه ليروا إن كان يحمل أية أسلحة معه، حتى فرسان يام كانوا يُجردون من ملابسهم تماما قبل أن يُسمح لهم بارتدائها مرة أخرى ومقابلته، وقليلون منهم ممن وصلوا إليه أُجبروا على البقاء مع محاربيه، بدلا من أن يُسمح لهم بالعودة وإيصال خبر الإعلان الذي أعلنه. إنّ الدرس الذي تعلموه من مقتل الخان مونغ لا يزال يتردد في كل مكان في الأمة، وهذا يفسر لماذا بدا أويانغ خاداي غاضبا جدا عندما دخل إليه.

«لقد أمرت بأن تراني يا سيدي الخان». قال أويانغ خاداي وقد بدا وجهه شاحبا وعابسا. انتبهَ لوجود تشاباي في تلك اللحظة وانحنى لها، ووقف مستقيما لينتبه إلى الطفلة التي بين ذراعيها، فقال:

«سيدتي، لم ألاحظ وجودك هنا في البداية، هل الطفلة بخير؟».

أجابته: «إنّها تنام كل اليوم وتُجبرني على البقاء مستيقظة كل الليل، ولكنها بخير. فقد حان وقت استيقاظها لتأكل».

أومأ أويانغ خاداي لها بشكل ودي، راقب كوبلاي تصرفاته متفاجئا، فقد شهد جانبا من هذا الرجل لم يره من قبل، إذ إنّ أويانغ خاداي لم يحضر زوجته وأولاده إلى المخيم معه، ولذلك لم تتسنَّ لكوبلاي الفرصة ليرى هذا القائد الصارم أبا شغوف ولطيفا ولم يتوقع أن يكون كذلك.

أصدر كوبلاي صوت بحة خفيفة، ففهم أويانغ خاداي، وانحنى إلى تشاباي مرة أخرى، قبل أن يذهب ليقف بالقرب من زوجها إلى جانب النار المشتعلة. أشار له كوبلاي كي يدفئ نفسه، فوقف قائد الجيش رافعا يديه، وموجها كفيه إلى النار يحدق في اللهب هناك.

قال كوبلاي: «لقد كنت رجل أخي مونغ الذي أرسله برفقتي يا أويانغ خاداي، أنا أعي ذلك، ولكنّه لا يزعجني». نظر إلى قائد الجيش الذي لم يقل شيئا فأكمل:

«لقد أثبتَّ نفسك لي أمام جيوش سونغ، لكن هذا في الماضي. يبدو أنه لا بد من العودة بمحاربيّ إلى الديار، وإن وصل الأمر إلى القتال، فإنّنا سنواجه محاربين مغولا على أرضهم. سنواجه شعبَنا ذاته، رجالا من المحتمل أنّك قد عرفتهم واحترمتهم».

ابتعد أويانغ خاداي عن النيران، ونظر إلى كوبلاي وأومأ بسرعة قائلا:

«أنت تريد أن تعلم إن كان بإمكانك الوثوق بي يا سيدي. أنا أفهم». وقف يفكر لبعض الوقت وهو يمسح قطرات المطر التي على وجهه ثم أكمل: «لا أعلم كيف أستطيع أن أجعلك متأكدا يا سيدي. صحيح أنّ أخاك مونغ اختارني لأقود جيوشك لكنني أطعت كل ما أمرتني به، لقد كنت وفيا وأقسمت بالطاعة لك مع البقية عندما نصّبت نفسك خانا. إن بدا ذلك غير كافٍ فأنا لا أعلم ما أستطيع أن أقدمه لك بعد».

قال كوبلاي بهدوء: «إنّ عائلتك في كاراكورم».

أومأ أويانغ خاداي، وصرّ على أسنانه ثم قال:

«إنّ ذلك صحيح، وهو الحال بالنسبة إلى أغلب الرجال هنا، المحاربين الجدد والقدماء منهم. فإن استخدم أخوك آريك بوك عائلتي ضدي رهينة، فليس هنالك أي شيء بإمكاني فعلُه لإنقاذهم، وسأتوقع أن أنتقم لهم».

لوهلة بدا الغضب الشديد جليا في عيني أويانغ خاداي، وتجلى تخيل مفاجئ لدى كوبلاي بأنّ عائلته قد تلاعبت بهذا الرجل لسنوات، فنظر كوبلاي بعيدا في البداية.

لقد أرسل نساء محاربيه وأطفالهم كي يعودوا إلى كاراكورم، فبدا مستعدا لأن يستغني عن يده اليمنى مقابل أن يتراجع عن هذا القرار الذي اتخذه. لقد أعطى هذا الأمر آريك بوك ورقة ليلعبها، تلك الورقة التي بإمكانها أن تكسر قلوب الرجال الذين حاربوا إلى جانب كوبلاي. لم يكن يعلم بعد إن كان آريك بوك سيستعمل أسلوب التهديد، وكما قالت تشاباي فهو لم يعد يعرف أخاه.

قال كوبلاي فيما يشبه السؤال: «يجب أن أخطط لحملة ضد بلادنا. فهل ستساعدني في هذا الأمر؟».

«بالتأكيد يا سيدي فأنت الخان. وولائي لك». قال أويانغ خاداي كل كلمة وهو متيقن تماما من أنّ شكوك كوبلاي قد انزاحت.

فقال كوبلاي: «كيف ستبدأ هذا الأمر؟».

ابتسم أويانغ خاداي فقد علم أنّ أزمة الثقة هذه قد انتهت، وقال:

«لو كنت مكانك فإنني أعتقد أنّي سأنسحب حالا من أراضي سونغ يا سيدي. وسأجعل من أراضي تشن قاعدة لي قرب تشانغدو. فهنالك طعام كافٍ لدعمنا في الميدان.

سيتحتمُ على أخيك أن يحضر المحاصيل واللحوم من ولاية تشاغاتاي وأراضي روسيا، لذلك سأتحرك لأقطع خطوط الإمداد هذه، فالإمدادات ستؤدي دورا مهما في هذه الحرب». بدأ قائد الجيش بالسير من دون وعي بخُطا مشابهة لخطا كوبلاي التي سار بها قبل أن يدخل الرجل إلى الغرفة وأكمل: «أنا متأكد من أنّ أخاك سيستخدم أمراء تابعين له، هؤلاء الذين أقسموا بالولاء له. لذلك يجب عليك أن تهزم الأقوى بين هؤلاء وترسل لبقيتهم رسالة قوية.

احرم أخاك من القوة والدعم اللذين يتمتع بهما، وعندما تواجهه في الميدان سينهار».

قال كوبلاي بابتسامة تعلو وجهه: «لقد فكّرتَ في هذا الأمر جيدا».

قال أويانغ خاداي: «منذ أن وصلتنا الأخبار يا سيدي. يجب عليك أن تعود إلى الديار، وأن تدمر كاراكورم إن اضطررت لذلك. فأنت الخان، ولا يجب أن تدع أحدا آخر يطالب بهذا اللقب».

فسأله كوبلاي: «ألا تزعجك فكرة أنّه عليك مواجهة شعبك في الحرب؟».

قال أويانغ خاداي مستهجنا: «لقد قاتلنا لخمس سنوات بشكل مستمر تقريبا يا سيدي. بالرغم من أنّ المحاربين تحت إمرتك هم أفضل المحاربين الذين استطاع مونغ أن يقدمهم لك، إلّا أنّهم أصبحوا أقوى بكثير من ذي قبل، وأنا لا أقصد أن أوجه الإطراء لهم بكلامي هذا. ليس بإمكان أحد قد يجنده أخوك أن يقف في وجهنا، لذلك لا، لا يزعجني هذا الأمر. فإن قرروا مواجهتنا في الميدان فسنسير لمواجهتهم ونقضي عليهم».

توقف أويانغ خاداي للحظة وهو يزن كلماته القادمة ثم قال:

«لا أعلم ما هي نواياك بالنسبة إلى أخيك. لكن يجب أن تعلم أنّه إذا ما هدد آريك بوك عائلاتِ محاربينا فربما حينها لن تستطيع أن تصفح عن حياته في النهاية. لقد رأيتك تظهر الرحمة لمدن بأكملها، لكن في ذلك الوقت لم يخسر المحاربون سوى الفضة والغنائم عندما فعلت ذلك. فإن كانت دماء عائلات المحاربين على يدَي أخيك عندما نلقاه.....». توقف عن الكلام عندما كشر كوبلاي.

«إنّني أفهمك». قال كوبلاي. كان قائد الجيش الأكبر منه سنا يشاهده عن كثب حين أكمل: «إن بدأت هذا الأمر فإنني سأنهيه. ليست لدي الرغبة في قتله يا قائد الجيش، لكن كما قلت، هنالك بعض الأشياء التي لا يمكن تجاهلها».

أومأ أويانغ خاداي راضيا بما رآه في ملامح كوبلاي، وقال:

«حسنا، من الجيد أن تكون مدركا للتبعات، فهذه ليست لعبة أو نزاعا عائليا يمكن أن يُحل بتسوية جيدة أو باحتساء الشراب معا. إنّ هذا الأمر سيصبح دمويا يا سيدي. أعتقد أنّك لم تخبر أخاك بنواياك يا سيدي، أليس كذلك؟ فقد رأيتك تأمر بأخذ فرسان يام سجناء».

هز كوبلاي رأسه مؤكدا.

فقال أويانغ خاداي: «إنّه شيء يُحتسب على الأقل. سنكون قادرين على مفاجأته وذلك أمر يساوي أكثر من خمسة فيالق من المحاربين. أنا أقترح أن تتخذ شانغدو حصنا لك يا سيدي. فهي ضمن النطاق الذي يمكّننا من ضرب أخيك، وبإمكاننا أيضا أن نترك بقية تابعي المخيم هناك.

إن تحركنا بسرعة فبإمكاننا أن نقطع خطوط امداده، وأن نستولي على أراضي الأمراء الذين يدعمونه، لذلك نحتاج إلى معلومات عن هؤلاء الرجال، ومع شيء من الحظ، ستنتهي الحرب قبل أن يدرك ما يحصل».

أحس كوبلاي بالثقة التي بدت على قائد جيشه. فكّر في الرسالة التي أرسلها آريك بوك إليه مرة أخرى، فقد ذكر أخوه الأمراء الذين أقسموا بالولاء له، وقال:

«أعتقد أنّني أملك قائمة بأسماء هؤلاء الرجال يا قائد الجيش. لقد كان أخي كريما بما فيه الكفاية كي يعطيني أسماء أبرز داعميه».

تفاجأ أويانغ خاداي ثم ابتسم وقال:

«لم تكن هنالك أي من طرق يام عندما نصّبت نفسك خانا يا سيدي. فمن المحتمل ألّا يعلم بهذا لشهور عديدة بالرغم مما فعلته. بإمكاننا أن نسبق الأخبار وأن نكون محل ترحيب من قبل الأمراء قبل أن تكون لديهم أدنى فكرة عن نوايانا».

زمّ كوبلاي شفتيه لهذه الفكرة. فهو لا يحبذ فكرة الاقتراب من رجال يعتقدون أنّه حليف لهم ثم يدمرهم، لكنّ أخاه لم يدع له سوى خيارات قليلة، فقال:

«حسنا، إن كانت هذه الطريقة التي يجب أن تسير بها الأمور فلنتبعها. إنّ ولدَي مونغ الأكبر سنا وقفا إلى جانب أخي، وهما أسوتاي ويورونغ تاش، هل تعرفهما؟».

أجابه أويانغ خاداي: «لا يا سيدي. لا بد من أنّه قد قدم لهما الأراضي مقابل تقديم الدعم له، من أيضا؟».

أجابه كوبلاي: «حفيد تشاغاتي الغو، وابن جوشي باتو. هذان هما أقوى حلفائه الجدد».

قال قائد الجيش: «إذن سندمرهما أولا. أنا لست قلقا من ولدَي مونغ يا سيدي. سيكونان لاعبين ثانويين فهما لم يبنيا اسما لهما بعد. سيتحكم باتو بإمدادات الطعام والمعدات القادمة من الشمال. فهو الشخص الذي يجب أن نهاجمه أولا، ثم نهاجم الغو».

فكر كوبلاي للحظة وقال:

«باتو مدين لي بخدمة كبيرة، بإمكاننا أن نضمه إلى صفوفنا». نظر إليه أويانغ خاداي متسائلا، لكنّه هز رأسه غير راغب في مناقشة هذا الأمر وأكمل: «رغم هذا فإنّ ذلك يعني السفر لآلاف الأميال حول الديار».

قال أويانغ خاداي: «تمكّن تسوبوداي من السفر ثلاثة أضعاف هذه المسافة يا سيدي. لذلك أرسل قوة صغيرة من فيلقين أو ثلاثة ليغيروا عليهم. فإنّ القائد بايار سيكون مستعدا ومتحمسا جدا إن عرضت عليه الفرصة ليقود جيشا تبعا لأوامرك. أما أنا وأنت فسننقض على أراضي تشاغاتي في الغرب».

قال كوبلاي بهدوء: «لدى أخي هولاكو ولاية جديدة قرب دمشق. سأرسل أحدهم إلى هناك، ثم نصل إلى كاراكورم. كل هذا في فصل يا قائد الجيش. لن أضيع سنين على هذا الأمر. أريد أن ينتهي هذا بسرعة، حينها سأتمكن من العودة إلى أراضي سونغ».

قال أويانغ خاداي وهو ينحني تبجيلا: «كما ترغب يا سيدي الخان».

فتح آريك بوك الباب واتكأ عليه يحدق إلى قاعة القصر. كانت الصالة كبيرة بما يكفي لتردد صدى صوت أية ضجة بسيطة، حتى إنّ مجموعة الخطاطين جلسوا على مكاتبهم شبه صامتين. فلم يصدر منهم سوى صوت خربشة الريش والصوت اللطيف لغمره بالحبر. جلسوا محنييّ الرؤوس، يكتبون ويقرؤون. بين الحين والآخر، كان ينهض أحدهم من مكانه حاملا مخطوطة بيده يعبر بها القاعة ويتفقدها هامسا مع الأعلى منه شأنا من الخطاطين.

ظهر باتو من الباب المفتوح. لقد كان أكبر بكثير من آريك بوك، بالرغم من أنّه هو الآخر حفيد لجنكيز خان، يتحدر من سلالة جوشي ابن جنكيز خان البكر.

تخلل شعره الأسود الكثير من الشيب، وبدا العمر على وجهه مثل أي راعي قطعان أمضى كثيرا من الأيام تحت المطر والرياح. بدت بشرته الشاحبة الأمرَ الوحيد الذي أظهر أنّ أراضيه تقع في الشمال الروسي. رفع حاجبيه عندما رأى الخطاطين، فضحك آريك بوك بهدوء وقال:

«لقد أردت أن ترى القلب النابض للإمبراطورية يا باتو. هذا هو، أعترف بأنّه ليس كما تخيلته عندما أصبحت الخان».

«أعتقد أنّني كنت سأصاب بالجنون إن اضطررت للعمل في صالة كهذه». قال باتو بشكل جدي. استهجن الأمر وأكمل: «لكنّه أمر ضروري. أستطيع أن أتخيل كمية المعلومات التي يجب أن تمر من خلال كاراكورم».

أجاب آريك بوك وهو يغلق الباب بلطف خلفهما: «إنّه العالم الجديد. أعتقد أنّ جنكيز لم يكن ليفهم هذا الأمر».

كشر باتو بتصرف صبياني فجأة وقال:

«كان سيكره الأمر، هذا كل ما أعرفه».

قال آريك بوك: «أنا لست من الرجال الذين يسهبون بالتفكير في الماضي يا باتو. لذلك دعوتك خصيصا إلى كاراكورم. فأنت ابن عمي، والرجال أيضا يتحدثون عنك بشكل حسن، ولا يجب أن نكون كالغرباء».

قال باتو مبتسما: «أنت تشرّفني بهذا الكلام. فعلى الرغم من أنّني مرتاح بما فيه الكفاية في أراضيّ، إلّا أنّ الجزية التي أدفعها عبء عليّ بكل تأكيد. مع ذلك فأنا لم أفشل أبدا في دفع المستحقات المترتبة عليّ من قبل».

بدا التلميح الذي قاله باتو واضحا بما يكفي، فأومأ آريك بوك وقال: «سأرسل كاتبا إليك لمراجعة الكميات التي ترسلها. فربما يجب أن تحصل ترتيبات جديدة بالنسبة إلى ولاياتي. يمكن أن تتم إعادة صياغة كل شيء يا باتو. لقد أمضيت شهورا أتعرف إلى حجم قوتي ونفوذي بكل بساطة،

لكن هذا ليس كل العمل الذي يجب عليّ فعله. فأنا لا أرى سببا يمنعني عن تقدير الرجال الأوفياء لي».

قال باتو: «من الأفضل أن تقود على أن تتبع غيرك. إنّه أمر متعب أكثر، لكن المكافآت...».

ابتسم آريك بوك بمكر وقال: «دعني أرِكِ المكافآت» وأشار إلى باتو كي يتبعه. ثم قال:

«إنّ أخي هولاكو قد وصف لي مجلس حريم في بغداد، فبدأت بشيء مشابه هنا».

«مجلس حريم؟» أجابه باتو وهو يقول هذا الكلام مستغربا.

قال آريك بوك: «إنّه تجمع لنساء شابات جميلات، مخصصات لي. لديّ رجال أرسلهم إلى سوق الرقيق ومعهم المال كي يبحثوا عن الأصغر والأفضل. تعال، سأعطيك ما تختاره، أية واحدة منهن قد تُعجب بها، ربما سأعطيك أكثر من واحدة إن رغبت في ذلك».

قاد آريك بوك باتو عبر ممرات عديدة حتى وصلا إلى باب يحرسه رجلان، وقف الرجلان بانتصاب بحضور الخان فمر آريك بوك قربهما، فتح الباب إلى المكان الذي تعالت منه أصوات الضحكات والماء الجاري. تبعه باتو إلى الداخل، وقد ازداد فضوله.

ظهرت ساحة صغيرة خلف الباب، ممتلئة بالنباتات المورقة، وشاهد ممرا مغطى حول هذه الساحة. رأى باتو ست أو سبع نساء شابات ولاحظ كيف اتسعت ابتسامة آريك بوك الوحشية. تتوزع حول الساحة غرف بسيطة تحتوي على أسرّة وبعض الحلي.

قال آريك بوك: «أُبقيهن هنا حتى يصبحن حوامل، ثم أنقلهن إلى الخارج إلى إحدى غرف القصر لأحصل على الطفل».

سأل باتو: «هل هن... زوجات؟».

اندفعت تلك النساء بالحال إلى قرب الخان عندما رأينه. ركع بعضهن على الأرضية الملمعة. فضحك آريك بوك وقال:

«لدي أربع زوجات يا بن عمي. فلا أحتاج إلى المزيد منهن».

أشار إلى إحدى أولئك النساء الشابات فأتت إليه وقد بدا الخوف في عينيها جليا. رفع آريك بوك ذقنها بيده، أدار رأسها يمينا ويسارا كي يتسنى لباتو أن يرى جمالها. وقفت منتصبة في مكانها

عندما أنزل يده عن عنقها وفتح رداءها، كاشفا عن نهديها. رفع أحدهما بأحد أصابعه فتوترت الفتاة. عندما تكلم آريك بوك مرة أخرى بدا صوته أخشن: «يا له من وزن شهي في يدي. لا يا باتو، إنّ هؤلاء النسوة من أجل المتعة والأطفال. سأحصل على ألف وريث لي. لمَ لا؟ فيجب على الخان أن يمتلك سلالة قوية. اختر أيّا منهن. وستقدم لك ليلة لن تنساها».

لاحظ باتو بؤبؤ عين الفتاة المتسع، وأدرك أن تلك الرائحة ناتجة عن الأفيون. لم يُبدِ أي شيء لآريك بوك عندما أومأ بلطف وقال:

«إنّ زوجاتي لسن متسامحات كزوجاتك يا سيدي الخان. أعتقد أنّهن سيحملن سكينا ويطعنني وأنا نائم إن قبلت بعرضك هذا».

تذمر آريك بوك، وأشار إلى فتاة بالقرب منه ملوحا لها بالرحيل، ثم قال:

«يا له من هراء يا ابن عمي! فيجب على كل رجل أن يكون خانا في منزله».

ابتسم باتو بصعوبة، محاولا أن يجد طريقة للتخلص من هذا دون أن يُظهر أية إهانة للخان. فهو لم يكن يرغب في نساء آريك بوك. وقال:

«يجب على كل رجل أن ينام يا سيدي. وأنا أفضّل أن أستيقظ حيث لا يزال كل شيء متماسكا». ثم ضحك فضحك معه آريك بوك، مما خفف من حدة التوتر الذي أصابه. استمر آريك بوك بمداعبة نهد الفتاة، مشتتَ الذهن ثم قال:

«وصف لي أخي هولاكو غرفا مخصصة للمتعة والإثارة، حيث توجد هنالك أزياء ومقاعد وأدوات غريبة، والمئات من النساء الجميلات، كل ذلك من أجل الشاه».

كشّر باتو من دون أن يلاحظ أحد. بينما نظرت الفتاة بعينين متبلدتين إلى آريك بوك الذي يداعبها، بدت شفتاها منتفختين ومتورمتين، في الحقيقة وجدها باتو جذابة جدا. لكن مثلما قال له أوكتاي خان من قبل، كل ما تراه متعلق بالقوة. لم يرد باتو أن يضع نفسه في موقع المَدين لآريك بوك. بإمكانه أن يلاحظ الإثارة التي اعترت الرجل الصغير فقد خرجت منه كأمواج، أشبه بالحرارة. شخر آريك بوك وهو يتنفس من فمه، وقد ظهر على معالم وجهه أنّه قد غُمر بالشهوة. عانى باتو من الغثيان بسبب هذا المنظر في حين حافظ على ابتسامته في مكانها. وقال:

«ماذا عن كوبلاي يا سيدي؟ لم أره منذ سنوات. هل هو عائد إلى كاراكورم؟».

فقد آريك بوك بعض حماسه عند ذُكر شقيقه. ابتسم قليلا وقال:

«إنّه قادم بأقصى سرعته. لقد أمرته بأن يعود إلى الديار».

قال باتو ببراءة: «أرغب في أن أراه مرة أخرى يا سيدي، فقد كنا صديقين من قبل».

34

أعلن المستشار الإمبراطوري بصوت عالٍ:

«التزموا الصمت لحضور ابن السماء، إمبراطور سونغ، سيد الأمة الأبدي».

رفع سيده يده محييا كلا من القائدين هونغ وسونغ وين عندما وصل إلى الخطوط الأمامية. بدا وجه هويتسونغ الشاب مفعما بالحماس لأنّه ينطلق برفقة هذه الحشود. امتطى حصانا مخصيا كبيرا بكبر طاولة. اعتبر هذا الحصان اللطيف مناسبا لفتى في الحادية عشرة من عمره، ذلك الفتى الذي لا يمكن التفريط به. وجب جلدُ هذا الحصان بلا رحمة فقط كي يمشي، لكنّ هذا الأمر لم يثبط حماس الإمبراطور الشاب.

قال الإمبراطور متحدثا إلى قادته: «هل ترون كيف يهربون أمامنا؟». لقد أتى هويتسونغ من مركز الجيش الآمن إلى الصفوف الأمامية ليتأكد من الأخبار التي وصلته من رسله الخاصين. يستطيع أن يرى محاربي المغول ينطلقون باتجاه الشمال إلى حدود تشن من مسافة بعيدة.

منظرهم هذا جعله يرغب في الضحك من السعادة. إذ إنّ أول أعماله الإمبراطورية هو إخراج المغول من أراضيه. في الحقيقة، ابتسمت السماء لحكمه الذي بدأ بهذا الشكل.

لم يكن يهم وجوب انطلاق قادته بأقصى سرعة وبصعوبة نحو الأمام فقط ليظهر العدو أمامه، فقد كان الإمبراطور هويتسونغ متأكدا حينها من أنّ المغول قد بدؤوا بالانسحاب أمام جيشه الضخم الذي اقترب منهم.

قال: «إنّهم يعودون إلى أراضيهم». لم يجب أيّ من القادة المحيطين به على كلامه الذي لم يبدُ بمثابة سؤال واضح.

تسلق هويتسونغ على صهوة حصانه، وبذلك وقف مهملا التوازن بتهور الشاب الصغير الذي كان عليه. مشى حصانه بهدوء وهو يقف عليه محافظا على خطاه مع حشد الجنود والفرسان

المحيطين به الذين امتدوا على كلا جانبيه وخلفه على مد النظر.

عندما استدار لينظر إلى الخلف، هز هويتسونغ رأسه متفاجئا بقوة الأمة التي ورثها وضخامتها. جنود يمشون بصفوف منتظمة، إضافة إلى أنّ الرايات الملونة ترفرف عاليا. حوّل الجنود القريبون نظرهم عن الإمبراطور، أما الجنود الأبعد منهم فقد مشوا بثبات متقدمين باتجاهه، وكانوا بعيدين جدا ليلاحظوا هذا الشخص الصغير الذي نظر إليهم. نظر أبعد من ذلك، إلى أن بدوا بالنسبة إليه أشبه بألوان داكنة، وبدت الصفوف التي تقدّمت كأمواج بعيدة من بحر مظلم، امتدت في الأرض تحت السماء الزرقاء الصافية. مشت مجموعة من الفلاحين متثاقلة في الخلف على الأقدام، وفي العربات التي حملت الطعام والمعدات لدعم الجنود. لم يُبد هويتسونغ اهتماما بهذه الأشياء فإنّ مدنه وبلداته مليئة بها. عندما رآها في النهاية بدت له بمثابة عبء كبير، يتم استخدامها والتخلص منها حسب الرغبة.

استدار هويتسونغ إلى الخلف وجلس على سرج حصانه بسعادةٍ، وابتسم عندما اقترب منه القائد سونغ وين الذي قاد حصانه ليسير بالقرب منه.

«ألن يقفوا لمواجهتنا؟» سأل هويتسونغ وهو يجاهد ليرى محاربي المغول الذين انطلقوا في الأراضي أمامهم، فبدا صوته حادا حينها.

هز السيد سونغ وين رأسه وقال:

«من المحتمل أنّهم علموا أن ابن السماء ينطلق برفقتنا اليوم». لم يكن هذا سوى إطراء للفتى الذي امتلك القوة والسيطرة على أسرته وكل من وجد هناك ثم أكمل: «لم يُظهروا أية إشارة على التوقف منذ أيام».

قال هويتسونغ: «إنّني خائب الأمل فقط لأنّني لم أر معركة أيها القائد سونغ وين».

ألقى سونغ وين نظرة خاطفة عليه، فقد قلقَ من أن يأمرهم الفتى بأن يجتازوا الحدود ويتوجهوا إلى أراضي تشن فقط كي يُشبع رغبته غير الناضجة ويرى الدماء. لدى الرجل الأكبر سنا من الإمبراطور فكرة كافية عمّا قد يكلفهم هذا الأمر، كما هو الحال بالنسبة إلى أغلب الرجال الذين شهدوا المعارك في شبابهم، فقد بدا سعيدا جدا لرؤيته هذا العدو ينسحب ويغادر أراضيهم بلا قتال، لذلك تكلّم قبل أن يُصدر الفتى أوامر قد تودي بحياة الآلاف من الرجال، وقال:

«لقد بدأت فترة حكم الإمبراطور هويتسونغ بشكل جيد. فقد طردت العدو إلى خارج أراضيك، وستملك الوقت الآن كي تثبّت مواقعك وتكمل تدريبك».

يبدو أنّ هذا الكلام هو الكلام الخاطئ الذي لا يجدر قوله لفتى في الحادية عشرة. عبس القائد سونغ وين عندما بدأ الفتى كلامه غاضبا:

«هل تعتقد أنّه يجب عليّ أن أعود إلى مدرسيّ الذين عفا عليهم الزمن؟ إنّهم ليسوا هنا أيّها القائد سونغ وين، وأنا حرٌّ منهم! وها هو ذا جيشي يسير. فهل يجب أن أتوقف الآن؟ بإمكاني أن أطردهم من أراضي تشن. بإمكاني أن أرسلهم إلى بلادهم مباشرة».

«لا بد أنّ ابن السماء يعلم أنّ مدننا بقيت بلا دفاع خلفنا» قال القائد سونغ وين وهو يبحث عن الكلمات المناسبة ثم أكمل: «في الأوقات الطبيعية، لدينا حاميات مدن قوية، لكن في هذه الأيام، إمّا أنها فُقدت في الحرب، وإما أنها انطلقت معنا في مسيرنا هذا. وأنا متيقن من أنّ ابن السماء يعرف القصص التي تتكلم عن جيوش استُدرجت إلى أراضي أعدائها ثم هوجمت من الخلف فدُمرت وخسرت أراضيها».

نظر الإمبراطور هويتسونغ إليه بتردد، لكنّه بقي صامتا بشكل تام، يعضّ على شفته وهو يفكر، دعا القائد سونغ وين بصمت إلى السماء كي لا يبدأ هذا الفتى فترةَ حكمه بحملة غير مخطط لها. بشكل حذر، اختار أن يتكلم مرة أخرى وقال:

«يعلم ابن السماء أنّهم مجهزون بشكل ممتاز بالمعدات والمؤن في أراضيهم، أما نحن فعلينا أن نحضر الطعام والمعدات لمئات الأميال. إنّ حملة كهذه ستكون أمرا عظيما خلال السنة الثانية أو الثالثة من حكمك، لكن في السنة الأولى لا أعتقد ذلك، على الأقل ليس من دون التخطيط لها. ولا بد أنّ ابن السماء يعلم هذا بشكل أفضل من خدمه المتواضعين».

أصدر الفتى صوتا بلا معنى يدل على انزعاجه ثم قال:

«حسنا أيها القائد سونغ وين. ابدأ العمل على حملة كهذه. أما الآن فسنطارد هؤلاء الرجال إلى الحدود، لكنّك ستقود الحرب في السنة القادمة. فأنا لست برجل عجوز مريض أيها القائد سونغ وين. وسأستعيد أراضي أسلافي».

انحنى سونغ وين بشدة، بقدر ما استطاع وهو على صهوة حصانه وقال:

«يشرّفني ابن السماء بمشاركة حكمته العظيمة معي». نزلت قطرة من العرق منه إلى قرب أنفه فمسحها من دون أن ينتبه له أحد. بدا الأمر كما لو أنّ مجموعة فتيان قرويين يلعبون مع الأفاعي، يضحكون بشدة بالقرب منها، بالرغم من أنّ أفعى كوبرا خطرة قد اندفعت باتجاههم، فأي خطأ بسيط يعني الموت، لكنّهم دائما ما كانوا يفعلون ذلك، فيتجمعون في كل مرة يرون فيها أفعى كهذه ويحيطون بها. أحسّ سونغ وين أنّه أحد أولئك الفتيان في الوقت الذي حدّق فيه إلى الأرض التي تمر من تحته دون أن يجرؤ على رفع نظره.

شعر كوبلاي بألم في عنقه جراء النظر المتكرر إلى الخلف عبر كتفه وهو منطلق على حصانه، بدا إحباطه جليا للعيان. أحسّ بنظرات أويانغ خاداي إليه لذلك لطّف من عبوسه وقال:

«لا تقلق. فإنّني لن آمر المحاربين بالالتفاف لمواجهة هذا الجيش الذي يلحق بنا. إذ إنّني لم أر من قبل كل هذا العدد من الجنود يسيرون للحرب. وبما أنّ بايار قد انطلق أمامنا، فكم عدد الجنود لدينا، ربما عشر عددهم؟ أو عشرون بالمئة؟ لقد تعلمت بما فيه الكفاية بألّا أهاجم عندما يجب عليّ أن أعدّ العدّة وأهرب».

تكلم بلطف، لكن بإمكان أويانغ خاداي أن يدرك أنّ النظرات إلى الخلف كانت من أجل إحصاء أعدادهم، والمراقبة لاكتشاف العيوب في صفوف سونغ. لقد كانوا بعيدين جدا عنهم ليقرأهم بشكل دقيق، لكن كوبلاي أمضى وقتا طويلا يواجه هؤلاء الجنود، وأصبح على علم بنقاط ضعفهم وقوتهم، وأصبح يعلم أيضا نقاط ضعف وقوة جنوده الموجودين بالقرب منه.

قال كوبلاي: «هل ترى كيف يحمون مركز الجيش بشكل كبير؟ هذه المعلومة جديدة فهنالك الكثير منهم يا قائد الجيش. أعتقد أنّ الرجل الذي يحمونه هناك هو الإمبراطور أو أحد أقربائه على الأقل، لكن يجب عليّ أن أدعهم خلفي رغم ذلك، وذلك كي أقاتل أخي». اتكأ إلى الأمام على سرج حصانه، وبصق كما لو أنّه أراد أن يخلص نفسه من طعم هذه الكلمات التي خرجت من فمه.

وأضاف: «رغم ذلك، سنكمل طريقنا. هل تعتقد أنّهم سيتوقفون عند الحدود؟». بدا سؤاله مفعما بالأمل، لكنّ أويانغ خاداي أجابه بسرعة، قائلا:

«لن يفعلوا ذلك إلّا إن كان يقودهم رجل مثل جدك، حينها فقط لن يتوقفوا عند الحدود بكل تأكيد. لقد وضعوا كل قدراتهم في حملة قصيرة على أراضيهم، لذلك أشك في أنّ لديهم ما يكفي من

الطعام لإطعام كل هؤلاء الرجال لأكثر من عدة أسابيع».

«لكن إن تجاوزوا الحدود، فسأُجبر حينها على مجابهتهم، وتدميرهم». قال كوبلاي وهو ينظر إلى قائد الجيش الأكبر منه بتمعن، فضحك عندما أجفل أويانغ خاداي وأكمل: «حسنا، إنّها الحقيقة أليس كذلك؟ سأقاتلهم وأجرهم إلى تشانغدو ثم سأجعلهم يعانون في أراضيّ. سوف أطهّر الأراضي في طريقي وأجعلهم يعانون من الجوع خلال مسيرهم. بإمكاننا القيام بذلك يا قائد الجيش. فماذا يعني إن كانوا أكثر عدداً منا بعشرة أضعاف؟».

قال أويانغ خاداي: «هذا يعني الدمار على ما أعتقد يا سيدي الخان». اعتقد أنّ كوبلاي يحاول إغاظته، لكن بدا أن هذا الرجل مدمن على مقاتلة جنود سونغ، فلقد أفنى الكثير من شبابه في مهمته لهزيمة إمبراطوريتهم. وقد شعر كوبلاي بالألم لأنه سيضطر للتوقف عن هذا، ورغم أنّ الأمر بدا كالمزاح فقد علم قائد الجيش أنّ كوبلاي مستعد ليغتنم الفرصة لينهي ما بدأه وذلك بهزيمة الإمبراطور نفسه.

عندما تجاوزوا الحدود ودخلوا إلى أراضي تشن، التي تعرفوا إليها من خلال المعابد البيضاء، بدأ العديد من الرجال بالنظر إلى الخلف ليتأكدوا مما إذا كانت هذه القوات المطاردة ستتبعهم إلى هناك. لقد كانت لحظة حلوة ومرة في الوقت ذاته بالنسبة إلى كوبلاي عندما رأى طليعة جيش سونغ تتوقف. أبطأ من خطواته عن عمد حينها، وبذلك لم تبعد هذه القوات عنهم أكثر من ميل. بإمكانه أن يرى الصفوف الأمامية تقف بلا حراك لتشاهد كيف غادر المغول أراضيهم، فتخيل الفرحة التي اعترت صفوفهم. تلونت الحدود باللون الداكن بسبب الرجال والأحصنة التي امتدت لأميال شرقا وغربا في إعلان واضح للقوة والثقة، وكأنهم يقولون ها نحن هنا نقف في مكاننا، لا نخشى مواجهتك.

قال كوبلاي لأويانغ خاداي: «سيكون عليّ أن أترك محاربين هنا بما أنّ جيشا كهذا قريب إلى هذا الحد».

أجابه أويانغ خاداي: «لا فائدة من هذا. لا يمكن لجزء من جيشنا أن يحارب هذا الحشد. توجد في أراضي تشن حامية محاربين خاصة بها. فأنت الخان هنا، وهذه الحامية لك لتستخدمها. مع ذلك إن هاجمت قوات سونغ في أثناء انطلاقنا لمواجهة أخيك فإن مدنك ستُنهب، ومن الممكن أن تخسر تشانغدو وينكينغ».

قال كوبلاي: «لم أعد شابا لأفعل ذلك مرة أخرى، فماذا تقترح؟»

أجابه قائد الجيش: «اجعل من سالسانان قائد جيشك على أراضي تشن. أعطه مهمة الدفاع عن الأراضي هنا والسلطة من خلالك لينشئ جيوشا باسمك ويقودها. لديك أراض أكبر بعشر مرات مما لدى إمبراطور سونغ هذا. ولن يجد هذا الإمبراطور الهجوم عليك أمرا بسيطا، إلا إذا كان أحمق بما فيه الكفاية ليدخل إلى ملكيتك».

«حسنا، سأترك فيلقا واحدا هنا، كي يراقبوا الحدود ويجعلوا الأمر يبدو كما لو أنّنا مستعدون لمواجهتهم».

«أو لينقلوا الأخبار إن بدؤوا بالهجوم». قال أويانغ خاداي رافضا أن يتخلى عن عناده.

تنهد كوبلاي وهو ينطلق مبتعدا أكثر وأكثر عن الحدود، فهذه هي نهاية حملته ضد إمبراطورية سونغ. ودعا أبا السماء أن يتمكن من رؤية الأراضي الجنوبية مرة أخرى قبل أن يموت.

بعد أن دخل إلى أراضيه، علم كوبلاي أنّه قد دخل إلى مقاطعة متصلة بطريقة أو بأخرى بكاراكورم. ولم يكن قادرا على التحرك مع محاربيه من دون أن يشاهده فرسان يام وينقلوا هذه الأخبار إلى العاصمة، ينطلقون بسرعة في رحلة طويلة وذلك كي يخبروا آريك بوك بما رأوه.

كانت هنالك طريقة واحدة فقط لحل هذه المشكلة وقد ناقشها مع القائد بايار إضافة إلى أويانغ خاداي. لم يعارض الفكرة التي طُرحت سوى سالسانان لكن كوبلاي تجاهله. فسالسانان لم يكن حاضرا خلال سنوات الحرب ضد إمبراطورية سونغ ولم يكن قد كسب احترام القادة الآخرين، لذلك بدا كوبلاي راضيا بفكرة إعطاء الرجل أوامر للدفاع عن أراضي تشن.

وجدوا أول مركز لفرسان يام في تقاطع طرق على بعد ما يقارب العشرة أميال عن الحدود. وقد تمت الإغارة عليه، وأخذُ الفرسان في هذه المحطة بوصفهم محاربين ضمّهم بايار إلى صفوفه، إضافة إلى أنّ الإسطبلات خالية تماما. تجاوز كوبلاي مركز يام هذا يعتريه شعور من الضلالة. فهو المركز الأول من العديد من المراكز على امتداد الطرق التي تجاوزها قائده بايار ودمرها في أراضي تشن. من خلال هذا التصرف، علم كوبلاي أنّه قد أعلن الحرب على أخيه، وليس بإمكانه التراجع عن ذلك، فقد بدأ في طريق لا ينتهي إلّا بموته أو بوجوده في كاراكورم. صرّ على أسنانه متابعا طريقه فاجتاحه شعور من الارتياح.

تقع تشانغدو في الشمال، سيترك هناك باقي أتباع مخيمه إضافة إلى تشاباي وطفلته الرضيعة. لكنّ ابنه زين جين سيبقى معه، فقد أصبح قويا بما فيه الكفاية ليتحمل مشقة الطريق الطويل.

أومأ كوبلاي بصمت، سينطلق جنوده من تشانغدو وسيأخذ كل منهم حصانا إضافيا واحدا ومؤنا تكفيهم لشهر واحد فقط. سيغادرون هذه المدينة مثل الغزاة، وسيتحركون بأقصى سرعة بشكل مماثل لسرعة القوات التي قادها جنكيز. إنّه لَشعور جيد بأن يكون مصيرك بين يديك. ولقد تم اتخاذ القرار وأصبح الشك من الماضي.

سحب آريك بوك قوسه إلى قرب شفتيه، فلمست ريشة السهم شفته قبل أن يطلقه. استقر السهم في المكان الذي استهدفه، مخترقا جلد ظبي أصفر عند العنق فسقط ذلك الظبي يركل بحوافره بقوة. هتف حاملو السهام المرافقون له لهذه الضربة، وانطلقوا على أحصنتهم إلى الأمام ونزلوا كي ينحروا عنق ذلك الحيوان. رفع أحدهم ذلك الظبي من قرونه، تقوست العنق الطويلة حينما رأى آريك بوك غنيمته. كان حيوانا جيدا، لكنّ آريك بوك أكمل طريقه ليصطاد المزيد. إنّ حلقة الصيد هذه التي نظمها القائد الغو في ذروتها، فقد تم استجرار الحيوانات إلى مركز مكان صيدهم لعشرات الأميال. وبدأت رحلة الصيد هذه قبل الفجر، جعلت الحرارة في المنطقة المحيطة بسمرقند وبخارى فترةَ الظهيرة مناسبة للراحة والاسترخاء. كانت الشمس حارقة فوق رؤوسهم، فبدأ آريك بوك يتصبب عرقا، وبدأت كل الحيوانات من الخنازير البرية إلى الأرانب السريعة بالهروب بعد سماع صوت حوافر حصانه، لكنّ الخان تجاهلها جميعها بعد أن سمع صوت غطيط فهد في مكان قريب. استدار وهو على صهوة حصانه يبحث عنه وشتم من دون صوت عندما رأى ابنة الغو وقد انطلقت بالفعل، حاملة رمحها ومستعدة لإطلاقه من يدها. تدعى تلك الفتاة ايغيارن وهو يعني القمر الجميل، لكن بينه وبين نفسه نظر آريك بوك إليها على أنّها هيناغ؛ وهو اسم يُطلق على ثور قوي في التيبت، لقد بدت غريبة الأطوار بالنسبة إلى النساء، طويلة جدا وعريضة المنكبين حتى إنّ نهديها بدوا أشبه بقطعتين مسطحتين من العضلات.

صرخ لها آريك بوك كي تبتعد عن مكانها عندما رأى شبح حيوان أصفرِ اللون بين حشود الحيوانات هناك. لم يكن هناك سوى الفهد الفارسي يستطيع التحرك بمثل هذه السرعة، قفز قلبه من مكانه عندما لمحه. انطلق نحو الأمام، وبدا كأنه سيصطدم بايغيارن عندما وقف حصانها على حافريه الخلفيين لصرخته. امتلأ المكان بصرخات الرجال وأصوات الحيوانات ولم تتصرف

ايغيارن تبعا لصراخه. وعندما صرخ مرة أخرى كانت قد أنزلت رمحها وانحنت موجهة ضربة إلى جسد ذهبي وأسود حاول أن ينطلق سريعا تحت حوافر حصانها. صرخ الفهد وزمجر وهو يلتف حول الرمح المصنوع من الخشب عندما انطلق مخترقا صدره.

أطلقت ايغيارن صيحة نصر، بدا صوتها بالنسبة إلى آريك بوك قبيحا حاله كحال كل شيء آخر فيها. بينما شتم، قفزت هي عن صهوة حصانها، واستلت سيفا قصيرا يشبه الساطور أكثر من أي شيء آخر.

لا يزال هذا الفهد خطيرا بالرغم من الرمح الذي اخترق صدره، فصاح لها آريك بوك لتبتعد كي يطلق عليه. لكنّها إما قد تجاهلته وإما أنّها لم تسمعه فتمتم غاضبا وأخفض قوسه. لقد أراد أن يرسل سهما ليخترق جسد تلك الفتاة الشابة الأشبه بالثور بسبب وقاحتها، لكنّه سافر طويلا ليطري على أبيها، لذلك منع نفسه عن القيام بذلك. باشمئزاز، رآها تنحر عنق الفهد فاستدار بحصانه وانطلق باتجاه آخر.

بما أنّ الشمس أصبحت حارقة فوقهم، فقد شارفت جولة الصيد هذه على نهايتها، لم تكن هنالك أية جوائز ثمينة في كومة الفرو والمخالب المحيطة بهؤلاء الفرسان. أسقط آريك بوك خنزيرا بعد أن أصابه بسهم دقيق استهدف به أسفل كتفه، فاخترق السهم رئتيه لذلك بصق الحيوان دما أحمر عند كل نفس تنفسه. وأسقط أيضا غزالين آخرَين، رغم ذلك فهو لم يحقق الصيد الذي رغب فيه. لا يزال مزاجه عكرا في حين تعالت أصوات الصيحات، وركضت مجموعة من الأطفال أمام هؤلاء المحاربين، فقد كانوا قتلة حيوانات مأجورين يجهزون على الوحوش المصابة. أزعجته ضحكاتهم بشكل أكبر، فأعطى قوسه إلى خدمه قبل أن يترجّل عن حصانه ويقوده إلى خارج دائرة الصيد الدموية هذه.

عرف السيد الغو أكثر منه كيف يصطاد أفضل الحيوانات. وقد حمل خدمه الغزلان من أجل وليمة الليلة، رغم ذلك لم تكن لأيّ منها تلك القرون الطويلة. إضافة إلى أنّ الفهد الوحيد اصطادته ابنته. لاحظ آريك بوك أنّها قد صرفت الخدم وأخذت مكانا لها كي تبدأ بسلخ الحيوان بسكينها الخاص. توقف آريك بوك عندما مشى بالقرب منها وقال:

«لقد اعتقدت أنّ الضربة من حقي؛ أقصد الضربة لاصطياد الفهد، فقد صرخت بأنني سأطلق سهمي بصوت عال عندما رأيته».

«سيدي». أجابت ملطخة بالدماء حتى مرفقيها. صُدم آريك بوك مرة أخرى بحجمها الكبير، فقد ذكرته بنيتها ببنية أخيه مونغ فقد كان رجلا ضخما. أكملت قائلة:

«لم أسمعك يا سيدي الخان، إضافة إلى أنّني لم أحصل من قبل على حزام من جلد الفهد».

«أجل، حسنا...». توقف آريك بوك عن الكلام عندما ظهر أبوها ووقف بين العشب المغطى بالدماء ينظر إليهم قلقا. فسأل آريك بوك:

«هل استمتعت بالصيد يا سيدي الخان؟». رمشت عينه عندما جملَ ابنته بلمحة سريعة، وبدا متوترا لأنّها قد أهانت ضيفه.

ابتسم آريك بوك مجاملة وقال:

«لقد استمتعت يا سيد الغو. كل ما في الأمر أنّني كنت أقول لابنتك إنّها قد اعترضت طريقي حينما كنت أصوب باتجاه الفهد».

تغيرت ملامح وجه السيد الغو، لم يعلم آريك بوك إن كان ذلك من الغضب أم الخوف.

قال الغو:

«يجب أن تأخذ الحزام إذن يا سيدي. أحيانا تصبح ابنتي صماء وعمياء خلال الصيد. وأنا متأكد من أنّها لم تقصد أية إهانة بفعلتها هذه».

نظر آريك بوك مرة أخرى إليه، وقد أدرك أنّ الرجل خائف حقا، يخشى من أن يطالب الخان بعقاب على هذا. لكنّه لن يطالب بشيء كهذا في أول زيارة له، شعر بالإثارة بسبب قوته الجديدة. رأى ايغيارن تنظر بخوف، ففتحت فمها كي تجيب قبل أن تجعلها نظرة أبيها تخفض رأسها وتغلق فمها.

قال آريك بوك:

«إنّ ذلك كرم منك أيها السيد الغو. إنّ جلد هذا الفهد على وجه الخصوص سيصنع حزاما ممتازا، من الممكن ربما أن يُرسل إلى مكان إقامتي عندما تنتهي ابنتك من سلخه».

أجابه الغو: «بالتأكيد يا سيدي الخان. سأعمل على هذا بنفسي».

أكمل آريك بوك طريقه راضيا عما حصل. فهو أيضا كان واحدا من هؤلاء الأمراء المنتشرين في الأمة الذين يملك كل منهم ولايته الصغيرة. ربما كانت له مكانة أعظم من مكانتهم بما أنّه أخو الخان، لكنّه لم يتسن له أن يستمتع بالطاعة الفورية حينها، فالأمر مثير للنشوة. نظر مرة أخرى إلى الخلف، ليجد ابنة الغو تحدق إليه، فأشاحت نظرها بسرعة عندما أدركت أنّه قد اكتشف أمرها. ابتسم آريك بوك لنفسه، فهو سيأمر خدمه بأن يدبغوا جلد الفهد وينعموه ثم سيجعله هدية للفتاة قبل أن يغادر. فقد احتاج إلى أبيها، إضافة إلى أنّ هذه الهدية الصغيرة ستجعله يحصد مقابلا أكبر بكثير. فمن دون شك أنّ هذا الرجل قد أحبّ ابنته التي تشبه الثور، وآريك بوك في حاجة أيضا إلى الطعام الذي تنتجه خانة هذا الرجل.

فرك يديه ببعضهما ليمسح بقع الدم التي جفت عليهما. لقد كان يوما جيدا، ونهاية الأشهر التي زار فيها الإمارات التي تشكّل الإمبراطورية العظمى.

تم الاحتفاء به في كل مكان ذهب إليه، وأُثقلت حقائبه وعرباته وكثرت بسبب الهدايا الثقيلة التي قدمت له من ذهب وفضة. حتى إنّ أخاه هولاكو وضع جانبا النزاعات التي تحدث في أراضيه الجديدة بعد أن تم ذبح القائد كيتبوا على يد جنود مسلمين عندما أتى هولاكو إلى كاراكورم لحضور جنازة أخيه مونغ. فقد كسب أخوه ولاية صعبة وسيطر عليها، ورغم ذلك أقام استعراضا لآريك بوك من خلال رجاله وأعطاه درعا صُنع من أحجار اليشم النفيسة هدية له ورمزا للمودة.

دخل آريك بوك إلى أراضي قصر سمرقند برفقة السيد الغو وباحتفاء كبير، عبر بوابتها الضخمة. في ذلك اليوم، وُجدت كثير من العربات المغطاة بالذبائح التي اصطادوها في كل مكان حولهم عندما دخلوا القصر، فأتت النساء للترحيب بهم من مطابخ القصر، يضحكن ويمزحن وهن يشحذن سكاكينهن.

ابتسم آريك بوك، وأومأ لهن، لكنّ تفكيره كان في مكان آخر، فكوبلاي لم يكن قد أجاب على رسائله. إن غياب أخيه الأكبر أقلقه، وبدا بمثابة الشوكة في حلقه، تؤلمه عند كل حركة يقوم بها. فلم يكن يكفيه أن ينحني له رجال مثل الغو فلقد علم آريك بوك أنّ غياب كوبلاي المستمر أمر يتكلمون عنه في كل مكان في الإمبراطورية، في النهاية لدى أخيه جيش يرافقه لم يقسم بالولاء إلى الخان الجديد بعد. وحتى يتم هذا الأمر، فإنّ موقع آريك بوك لا يزال قلقا، ومحطات يام أيضا صامتة لم تأته بأية أخبار جديدة.

فكّر في إرسال مجموعة أوامر جديدة إلى أخيه، لكنّه هز رأسه مبعدا هذه الفكرة عنه فهي تعبر عن ضعف، ولن يتضرع إلى كوبلاي كي يعود إلى الديار، فالخان لا يسأل، بل يأمر، وقد أمر بذلك.

تساءل عما إن كان أخوه قد نسي نفسه في مكان ما في أراضي تشن، غافلا عن مخاوف الخانات الأخرى المتعلقة بغيابه. إنّ هذا الأمر لن يفاجئ آريك بوك.

انطلق كوبلاي تحت المطر الغزير، وهذا ما أرهق حصانه، وجعله يلهث عند كل مرة يخطو فيها في الوحل الكثيف والعميق.

علم أنّه أينما توقف فسيستبدل حصانه بحصان احتياطي، فقد كانت الأحصنة القوية سر قوة جيشه، ولم يفكّر حتى في الأحصنة العربية الأصيلة الأضخم أو في أحصنة الحرث الروسية الكبيرة ذات الأكتاف الأعلى من رأسه، بإمكانه أن يقود أحصنة المغول إلى أماكن بعيدة، ثم يعيد الكرّة في اليوم التالي من دون أن تتأثر.

لم يكن واثقا جدا بنفسه، فقد اهتزت يداه المخدرتان من البرد، واستمر بالسعال بشكل مستمر، كان يرشف القمارص من إناء ليخفف من ألم حلقه، ويدع نفحة من الدفء تنتشر في صدره. عليه أن يكون صاحيا بشكل كامل ليقود حصانه وقد أراحه هذا الأمر.

انطلق معه مئة وعشرون ألفا من المحاربين، من بينهم أولئك المحاربون الثمانون ألفا الذين شقوا طريقهم معه إلى هانغتشو. لم يكن هنالك طريق واسع بما فيه الكفاية ليتسع لمثل هذا الحشد، فغطوا حقولا بعرض نصف ميل وهم يتقدمون، سبقهم كشافته الذين انطلقوا بلا دروع أو معدات يسيطرون على محطات يام ويمسكون بالفرسان الموجودين فيها لفترة كافية حتى تصل القوات ويضموهم إليها. استطاع كوبلاي تقدير المسافة التي يقطعونها يوميا من خلال عدد المراكز التي يتجاوزونها، فالمسافات بينها معيارية، وُضعت من قبل جنكيز بنفسه. إنّ تجاوز مركزين من هذه المراكز، يعني قطع خمسين ميلا، وبإمكانهم أيضا تجاوزُ ثلاثة من هذه المراكز عندما تكون الأرض ثابتة والشمس مشرقة.

لكن هذا اليوم لم يكن يوما مشمسا، كان أداء الصفوف الأمامية أفضل، وذلك لأنّه في الوقت الذي انطلقت فيه الصفوف الثانية والثالثة عبر الأرض نفسها، أصبحت الأرض ضحلة فالتراب

أصبح متحركا كالزبد، الأمر الذي أرهق الأحصنة والجمال فتقلّصت المسافة التي بإمكانهم قطعها.

رفع كوبلاي يده يشير إلى خادمه لشخصي. لم يستطع فتيان الطبول الذي ركبوا الجِمال اللحاق بهم خلال الأيام الخمسة عشر الماضية جرّاء الركوب القاسي، فلا يوجد جمل يستطيع الركض لخمسين أو سبعين ميلا في يوم واحد فوق الأراضي الوعرة. عبس كوبلاي عندما رأى منظر الرجل. فقد بدا خادمه مغطى بالوحل بشكل كامل حتى إنّه اسودّ وجهه وقدماه وصدره بالكامل تقريبا، بدت عيناه مثل ثقبين أحمرين. رأى الخادم الإشارة فرفع بوقا إلى شفتيه، وأصدر صوتا منه لم يكن عاليا جدا كرره آخرون بين صفوف المحاربين.

استغرق إيقاف كل هذه الأعداد وقتا طويلا، وذلك حتى تصلهم الأوامر. انتظر كوبلاي بصبر إلى أن أبطأت القوات في الأمام والخلف خطواتها. في النهاية، أصبح قادرا على الترجل عن حصانه، تأوه وهو يترجّل غير مرتاح ومتعبا إذ آلمه جسمه بالكامل، فقد امتطى حصانه بسرعة طوال فترة الصباح، وتمنى أن يشعر رجاله بنصف التعب الذي شعر به فقد حان وقت الاستراحة وتناول الطعام.

احتاج إلى ثلاثمئة ألف حصان للرعي كل يوم كي حتى تتمكن الأحصنة من متابعة السير.

لطالما اختار كوبلاي نقاط التوقف قرب الأنهار أو المراعي الجيدة، لكن أصبح من الصعب إيجادها كلما تقدموا باتجاه الغرب. فشانغدو أصبحت على بعد أكثر من ألف ميل خلفهم، إنّ مدينته التي بني نصفها حتى الآن تُظهر بشكل واضح ما الذي ستصبح عليه بعد عدة سنوات، فقد افتُتحت طرق واسعة بشكل جيد، وعُبدت بالحجارة الملساء الممتازة، وأصبحت جاهزة كي يسير عليها شعبه، إضافة إلى أنه تم الانتهاء من بناء أقسام عظيمة من المدينة، ودبت الحياة في الشوارع الهادئة بعد أن أحضر شعبه إليها. لقد سعد للسعادة التي بدت جلية على وجوههم عندما رأوا المنازل الفارغة وانتقلوا إليها معا، يتحدثون عن كل أعجوبة جديدة رأوها هناك. ابتسم عندما راودته تلك الذكريات، فقد أقاموا الحدائق والطرقات، صحيح أنّها لا تزال عبارة عن أوتاد وشتلات، إلّا أنها زُرعت وأصبحت أمرا واقعا وستنمو مع الأيام.

إن لم يترك أي عمل يُذكر به، فيكفِه فخرا أنه بنى هذه المدينة من لا شيء.

منذ ذلك الوقت، اختلفت المناطق التي مروا بها عدة مرات، من السهول الرطبة إلى الهضاب الوعرة التي لم تكن تحوي أي شيء إلا بعض الشجيرات الشوكية اليابسة. تجاوزوا المئات من البلدات الصغيرة، وعندما رآهم سكانها ابتعدوا عن طريقهم واختبؤوا. هنالك فائدة رائعة من

الركوب برفقة مئة وعشرين ألف محارب؛ وهي أنّه لم يكن يجب على كوبلاي أن يخاف من قطاع الطرق والقتلة، فقد انطلقوا ولم يقابلوا أحدا في طريقهم، واختفى أيضا كل عدو من المحتمل أن يلاقيهم خوفا من عددهم الكبير.

في كل فريق يتكون من عشرة محاربين كان هنالك اثنان أو ثلاثة منهم مهمتهم قيادة ثلاثين حصانا عطشا للرعي وشرب الماء. صحيح أنّهم حملوا الحبوب، لكنّ مشكلة الوزن جعلتهم يأخذون معهم ما يكفي من أجل الحالات الطارئة فقط. سلم كوبلاي حصانه إلى شخص آخر ووقف يتمدد ويتأوه من التعب، ومع هطول المطر، لم يكلف نفسه عناء البحث عن الأراضي التي تحتوي أخشابا كي يشعل النار.

سيتناول أغلب الرجال وجبة باردة من الخبز البائت وبقايا اللحوم. زودتهم شانغدو بما يكفيهم من الخراف والماعز المملح لأكثر من شهر؛ تلك الكمية التي تركت سكان شانغدو جميعا يعيشون على نصف حصص الطعام المعتادة حتى تتجدد القطعان القديمة وتُستبدل بقطعان جديدة. لم يصلوا بعد إلى مرحلة شرب دماء الأفراس التي لا تزال على قيد الحياة، لكن ذلك الأمر ليس بالبعيد.

تنهد كوبلاي وهو يستمتع بمشاهدة الأعمال اليومية التي يقوم بها جنوده حوله. وعمد إلى إراحة عينيه، وذلك بتركيز نظره على شيء قريب بدلا من النظر أميالا إلى الأمام.

افتقد زوجته، وبالرغم من أنّه تعلّم ألّا يتعلق بطفل قبل أن يتأكد من أنّه سينجو، إلا أنّه اشتاق إلى طفلته أيضا. رافقه ابنه زين جين وانطلق مع مرافقيه، في نهاية اليوم بدا عليه التعب، لكنّه كان مصمما على ألّا يخذل والده، فهو على وشك أن يصبح رجلا، لكنّه نحيل وهزيل مثل والده. هنالك طرق أسوأ من هذه ليكبر الفتى ويصبح رجلا، ورفاق أسوأ من المحاربين الموجودين حوله.

عندما تمدد كوبلاي، اقترب أويانغ خاداي منه ينفض أكواما من الوحل عن قدميه وهو يسير باتجاهه. لقد غطى الوحل المتناثر من حوافر الأحصنة الجميع، ابتسم كوبلاي عند رؤيته لقائد الجيش العظيم، وقد بدا كما لو أنّه تدحرج من هضبة موحلة. فجأة ازدادت غزارة الأمطار، فغسلت الوحل الذي تلطخا به وهما واقفان يحدقان ببعضهما بعضا. سُمع صوت الرعد القوي المرافق للأمطار المنهمرة، ونزلت صاعقة في مكان قريب أضاءت السماء بضوء خافت خلف الغيوم الكثيفة. بدأ كوبلاي بالضحك وقال:

«اعتقدت أننا ذاهبون لنعبر الصحراء يا قائد الجيش، من الممكن أن يغرق المرء وهو واقف هنا».

أجابه أويانغ خاداي: «إنّني أفضّل الجو الحار يا سيدي، فلا أستطيع أن أُخرج الخرائط تحت هذه الأمطار. لقد استولينا على محطتي يام في طريقنا اليوم، لذلك أقترح أن ندع الأحصنة والرجال يرتاحون حتى الغد، فلا أعتقد أنّ بإمكانهم الصمود أكثر من ذلك».

سأل كوبلاي: «كم تبعد سمرقند عن هنا؟». رأى كيف رفع الرجل الأكبر منه سنا نظره إلى السماء فتذكّر أنّه قد سأل السؤال ذاته عدة مرات.

قال قائد الجيش: «قرابة السبعمئة ميل يا سيدي. بإمكاننا أن نُنقص منها الخمسين ميلا التي قطعناها اليوم».

تجاهل كوبلاي نبرة صوت قائد الجيش الفظة، وبدأ يحسب، فاستنتج أنّهم يحتاجون إلى اثني عشر يوما آخر، وربما عشرة أيام إن أجبر الرجال على التحرك حتى يصابوا بالإرهاق، واستبدلوا وسائل ركوبهم على نحو أكثر من المعتاد. لقد كان حذرا بالتعامل بما لديه من موارد حتى هذه النقطة، لكن ربما آن الأوان كي يدفعهم للسرعة القصوى الممكنة.

أُسست خانات شاغاتاي بشكل جيد، ولا بد من وجود كثير من محطات يام المنتشرة في كل مكان هناك وفي كل الاتجاهات. بالرغم من أنّه قبض على كل فرسان محطات يام الذين صادفهم في طريقه إلا أن الشكوك ساورته حول إمكانية أن يكون أحدهم قد سبقه. كل ما يحتاج إليه الأمر هو فارس بارع، ليبقى أمام محاربيه، رجل من دون سلاح يمتطي حصانا جديدا يصل إلى محطة جديدة ثم يغير حصانه في كل محطة بعدها. من الممكن حدوث ذلك، أفزعه أن يكون هناك شخص سبقهم ونقل أخبارهم إلى كاراكورم.

انتظر أويانغ خاداي بصبر، في حين وقف كوبلاي يفكر بصمت، لقد أصبح يعرف كوبلاي جيدا.

سأل كوبلاي: «ما الذي يمكنك أن تخبرني إياه عن الأراضي التي سنصل إليها قريبا؟».

باستهجان، نظر قائد الجيش إلى الجنوب، إن لم يكن استهجانه بسبب المطر المنهمر بغزارة، فلا بد أنّه رأى قمم الجبال البيضاء التي تقع خلفها الهند. لقد كانوا يتجنبون حواف سلسلة الجبال، يسيرون في طريق مستقيم تقريبا نحو الجنوب الغربي؛ ذلك الطريق الذي سيوصلهم إلى قلب خانات شاغاتاي وأكثر مدنها ازدهارا. وقال:

«تُظهر الخريطة طريقا ضمن آخر سلسلة من الجبال. لا أعلم كم علينا التسلق لنتجاوزها. الأراضي خلف قمة هذا الجبل مسطحة وهذا ما سيسمح لنا بتعويض الوقت الذي نخسره خلال التسلق».

للحظة، أغمض كوبلاي عينيه. بإمكان رجاله احتمال البرد أكثر بكثير من الحرارة، لقد أمّن معاطف سميكة ووضعها على ظهور أحصنة. لكن المشكلة الدائمة هي الطعام الذي أثر على كثير من الرجال والحيوانات. فهم بالفعل يعانون من نقص الحصص الغذائية قبل أن يبدؤوا التسلق حتى، ولا يريد أن يصل إلى خانات شاغاتاي كاللاجئين الذين عانوا من كارثة ما. عليهم أن يصلوا أقوياء بما فيه الكفاية ليقاتلوا ويربحوا القتال.

قال كوبلاي: «حسنا، نحتاج إلى خمسة عشر يوما. في اليوم الخامس عشر أريد أن أرى أسوار سمرقند أمامي. سنتوقف الليلة ونبيت هنا، بما أنّ المراعي جيدة فلندع الأحصنة تملأ معداتها، أخبر الرجال أن يذهبوا للبحث عن خشب لإشعال النار، لم يبق لدينا أي منها تقريبا».

لقد أصبح حملُ ما يكفي من الحطب من أجل نار التدفئة جزءا من روتين تدريبه اليومي.

بالرغم من أنّ مشكلته هي نقص الإمدادات، إلا أن كوبلاي تساءل عما إن كان تسوبوداي قد عانى من المشكلة نفسها خلال رحلته التي انطلق بها إلى الشمال والغرب متجاوزا حدود إمبراطورية جنكيز خان.

تمطط مرة أخرى في حين أن رجاله بدؤوا بالعمل على نصب الخيمة الأساسية، وتشنجوا وهم يحملون الأوتاد. إنّ هذه الخيمة ستحميهم من المطر لوقت كاف وهذا سيسمح لهم بإشعال النيران في الخشب الجاف الذي أخرجوه من أكياسه. من كان يعلم أن بعض الأغصان الجافة وقطع الخشب ستصبح أشياء ثمينة بالنسبة إليهم؟ سال لعاب كوبلاي عندما فكّر في الطعام الساخن.

سيتناول أغلب الرجال خليط الجبن الذي صنعوه من مزج قطع الجبنة القاسية مع الماء، وستمدهم بعض قطع اللحم المجفف بالقوة بالرغم من أنّها ليست كافية على الإطلاق. لكنّهم سيكملون الطريق، سيتحملون أي شيء في طريقهم برفقة خانهم.

أحبّ القائد بايار الشمال البارد، فقد تساءل منذ شبابه عن الشعور الذي سينتابه لو أنه انطلق برفقة تسوبوداي في الأراضي الشاسعة البيضاء، تلك الأراضي التي ليست لها نهاية. في الحقيقة،

صدم من منظر السهوب الروسية الخضراء خلال الربيع، على الأقل الأراضي المنخفضة منها. أنشأته والدته على قصص انتصارات تسوبوداي، وكيفية استيلائه على موسكو وكييف، وهزيمته فرسان المسيح الذين ارتدوا دروعهم البراقة، فالركوب في هذا الطريق ذاته جعله يشعر بالفرحة. علم بايار أنّ المسيحيين والمسلمين يزورون الأماكن المقدسة بوصفه جزءا من إيمانهم، الأمر الذي أمتع بايار هو اعتبار رحلته في أراضي باتو رحلة الحج الخاص به.

بالتدريج، اختفى الطفح الجلدي والعدوى اللذان أصابا رجاله في الجنوب الرطب. أصبحت جروحهم تلتئم حالما تجف. حتى إنّ نشاط القمل والبراغيث يصبح أقل في البرد، واستمتع أغلب الرجال بتجفيف ثيابهم بالقرب من النيران الأمر الذي أعطاهم الراحة، كلما استطاعوا القيام بذلك.

فهم بايار أنّ عليه أن يكون قائدا صارما مع رجاله. لقد علم أنّه سيواجه معركة قادمة، وأنّ الجنود الثلاثين ألفا الذين معه نظروا إليه على أنّه قائدهم. رغم ذلك، فقد أراد أن يهتف مثل ولد صغير عندما غطس حصانه في الثلج محاطا بهضاب من الثلج في كل مكان حوله.

فصل الشتاء على هذا الارتفاع يظل دائما، بالرغم من وجود العديد من السهوب خضراء اللون في الأفق البعيد في الأسفل. وكانت الأراضي مفتوحة، من دون زخارف الحضارة التي رآها وبغضها في أراضي سونغ. لم تكن هنالك أية طرق ليتبعها هناك، فشق جنوده طريقهم بأنفسهم، آلمته عظامه من شدة البرد الذي تغلغل فيها، وأحسّ أيضا بوخزة عند كل نسمة هواء، لكنّه أحسّ أنّه على قيد الحياة، كما لو أنّ السنين التي قضاها في أراضي سونغ قد قضاها تحت غطاء من الدفء الرطب، وهو يحاول الآن تنظيف رئتيه من آثاره. لم يكن بمثل هذه الرشاقة من قبل، فكان ينطلق كل يوم بنشاط وحيوية، يمتطي حصانه، ويصيح لقادة جيشه، لن يخذل بايار الخانَ كوبلاي الذي اعتمد عليه ما دام حيا.

لم تكن فيالق جنوده من الفيالق التي حاربت مع كوبلاي في الجنوب، فجميعهم من الجنود الذين أحضرهم مونغ خان معه لمواجهة إمبراطورية سونغ، لذا لم يبدُ عليهم التعب الذي يظهر على الرجال الذين قضوا سنوات في الحرب، مع ذلك فإن بايار راض بهم، فقد أقسموا على الولاء للخان، ولم يقلقه ولاؤهم بعد ذلك، فهُم رجاله الذين يستطيع أن يأمرهم إضافة إلى أن جزءا منه قد ابتهج بما أنّه القائد الوحيد للكثير من الرجال، قوة تستطيع أن تبث الرعب في أعداء كوبلاي. هذه هي أمّتهم: مجموعة من المحاربين عديمي الرحمة، يشقون طريقهم مسلحين بسيوفهم ورماحهم وأقواسهم.

إنّ خانات باتو جزء من التاريخ، فقد قصت الحكايات عنها آلاف المرات منذ أن ثار جوتشي؛ أبو باتو ضد جنكيز، لم يقم أحد بما قام به جوتشي ولكن ذلك كلفه حياته، إلا أن خانات الرجل بقيت حتى الآن، وقد أعطاها أوكتاي خان لباتو.

وجب على بايار أن يحاول عدم الابتسام عندما فكر في مقابلته أحد أحفاد جنكيز؛ الابن البكر لابن جنكيز البكر. كان باتو الأول من بين عديدين ممن قد يصبح أحدهم خانا، لديه الحق بذلك أكثر من العديد منهم. لكن بدلا من ذلك فقد انتقلت السلالة إلى أوكتاي ثم إلى غويوك وبعدها إلى مونغ، سلالات أبناء مختلفين. أملَ بايار في أن يرى بعض آثار سلالة دم جنكيز في الرجل الذي سيقابله، وتمنى ألّا يضطر لأن يدمره. فقد أتى كي يعلن أنّ كوبلاي أصبح الخان ويطالبه بالطاعة له، فإن رفض باتو هذا الأمر، فإن بايار يعلم ما يجب عليه فعله حينها.

سيترك أثره في تاريخ أمة المغول على أنّه الرجل الذي أنهى سلالة نبيلة من لدن الخان العظيم بحد ذاته. إنّ هذه الأفكار مرّة وغليظة، لذا لم يطل التفكير في هذا الأمر، فلقد أصبح كوبلاي الخان، وأخوه مجرد رجل ضعيف متباه، لا توجد أية طريقة أخرى لرؤية ما يحصل.

في الأشهر الباردة، لم يستطع باتو أن يرسل كشافة إلى الخارج لأسابيع، وفي كل مرة أرسلهم فيها كانوا يعانون بشدة من الجليد. ولم يتفاجأ بايار من رؤية منازل حجرية معزولة عندما كان يقود رجاله نزولا من أعلى الهضاب. فبإمكانه أن يرى من مسافة بعيدة الدخان يتصاعد من مساكن مصنوعة من جدران سميكة وأسقف مائلة جدا وقد صُممت لكي تجعل الثلج يتساقط عنها بدلا من أن يتكدس ويضيف وزنا ثقيلا عليها، بإمكانه أن يرى محاربين يهربون من طريقهم عند رؤيتهم لمحاربيه كي يخبروا باتو بالتهديد الذي اقترب منهم. لقد استولى بايار على آخر محطة يام قبل بضعة أميال، واصطحب فرسان المحطة الغاضبين معه. لن تُطبق أوامر آريك بوك بعد الآن، بعد أن تقابل مع رجال باتو، وسيسمع آريك بوك قريبا ما أرادوه أن يسمعه، وسيعلم أنّه قد خسر أراضيه الجنوبية.

أمل بايار في أن يكون كوبلاي وأويانغ خاداي قد وصلا إلى سمرقند. فبعد سمرقند وأراضي باتو ستصبح كاراكورم معزولة، لأنهم بذلك يحرمونها من أكبر مزودين بالإمدادات من الحبوب وقطعان الماشية.

عندما صدحت أبواق الحرب، أكمل بايار مسيرته، وتحرك رجاله الثلاثون ألفا يجرون الأحصنة الإضافية خلفهم. لديه رجال في القسم الخلفي البعيد يحملون عصيا طويلة لكي يجبروا

القطعان على التقدم إن أرادت التوقف والرعي، فهذه القطعان لن تحصل على فرصة للرعي والراحة قبل الانتهاء من السيد باتو.

كان بايار قادرا على الحكم على الرجل الذي سيواجهه من سرعة استجابته للغارة، لذلك وجب عليه أن يعترف بأن محاربي باتو قد ظهروا بسرعة. فعلى الرغم من أنّ التحذيرات لم تصلهم عن طريق فرسان يام إلى أراضيهم المستقرة منذ زمن ومن دون أي أعداء محتملين قربهم، فإن بايار لم يمش أكثر من عشرة أميال عبر المراعي المتجمدة قبل أن يسمع أصوات أبواق بعيدة ويرى صفوفا سوداء من الأحصنة المهرولة تتقدم بسرعة. شاهد قائد كوبلاي بدهشة ازدياد الأعداد، وكيف نزلوا إلى الوادي من جهتين أو ثلاث جهات مختلفة. لم يكن عمر خانات باتو أكثر من جيل، لذلك ليست لديه أية فكرة عن عدد الرجال الذين سيكونون في الميدان لمواجهة غزوه لأراضيهم.

خطط لمواجهة عشرة آلاف محارب أو ربما عشرين ألفا في أقصى حد، لكن من خلال تجمعهم وانتظامهم بثبات قاطعين الطريق عليه، اشتبه أنّ أعدادهم تماثل أعداد محاربيه تقريبا، كانوا ثلاثين ألفا من الرجال المستعدين للدفاع عن أراضي سيدهم وشعبه.

أدرك بايار أنّ كوبلاي كان بعيدا عن الديار لوقت طويل، فعندما غادر إلى أراضي سونغ، بالكاد كانت خانات باتو قد سُجلت في سجلات كاراكورم. لكن يبدو أنّ شعب باتو قد تكاثر جدا خلال هذه السنوات، وللمرة الأولى فكّر بايار في أنّه من المحتمل ألّا يكون قادرا على محاربة جيش هذا الرجل، فقد رأى الطريقة التي تحركت بها فيالق المحاربين وتابع التشكيلات التي تحركت بها المجموعات الأصغر والفرق في ذلك الحشد، ليدرك بذلك أنّ الرجال الذين سيواجههم لم يكونوا حشدا همجيا بل رجالا مدربين، مسلحين بالأقواس والسيوف مثلهم مثل محاربيه.

أوقف بايار محاربيه عندما رفع قبضته. أعطاه كوبلاي السيطرة الكاملة، وللمرة الأولى منذ سنوات، أحس بضعف خبرته، فقد كان المحاربون المواجهون له من شعبه ولم يعلم كيف يقترب منهم بصفته قائدا معاديا. انتظر بعض الوقت وهو يقف في الصفوف الأمامية ثم تنفس بارتياح عندما رأى كيف انفصلت مجموعة من محاربين باتو عن جيشه وتقدمت إلى وسط الميدان. رفعوا الأعلام الحمراء الخاصة بخانات القبيلة الذهبية، ولكنّهم رفعوا أيضا الرايات البيضاء الناصعة.

لم يكن هنالك أي شعار يعلن عن الهدنة بين الخانات المختلفة، لكنّ الشعار الأبيض يعني إعطاء فرصة، ولم يستطع إلا أن يتمنى أن يفكروا في المثل عندما يرفع هذه الرايات، فأشار بايار إلى مرافقيه وقال لهم: «ارفعوا الرايات البيضاء، وليأتِ مئتا مقاتل معي». انطلق على حصانه قبل

أن يتحركوا. ركّز على الفريق المعادي وهو يقود جنوده نحو الأمام متسائلا عما إن كان يجب عليه أن يفكّر فيهم بصفتهم أعداء له. كان هنالك رجل كبير في السن في وسطهم محاط بمحاربين يرتدون دروعا كاملة ويحملون الأقواس في أيديهم. توجه بايار إليه، وهو يعلم أنّ رجاله سيصطفون خلفه من دون أية أوامر أخرى.

ازداد التوتر في الأجواء عندما اقترب رجاله واصطفوا بالقرب منه.

أحسّ بايار بأنّه يرتجف قليلا عندما أصبح في مدى سهامهم، وقد ارتدى درعا مبطنا ومصقولا أشبه بدروع تشن، لكنّه علم كأي رجل على قيد الحياة أنّ سهام المغول تستطيع اختراقه، فتصبب العرق من تحت إبطه، لكنّه لم يُظهر لأحد إلا الملامح الباردة فكوبلاي يعتمد عليه.

أراد بايار أن يأمر بالتوقف على بعد مئة ياردة، ولكن هذه المسافة بعيدة ليتمكن من التكلم مع الشخص الذي يقود هؤلاء، لذلك أجبر نفسه على التقدم إلى الأمام كما لو أنّه لا يواجه رجالا قادرين على إطلاق السهام من تلك المسافة وإصابة عنقه.

شاهدتهم مجموعةُ باتو يقتربون من دون أية تعابير، بالرغم من أنّهم جهّزوا سهامهم بتوتر متزايد عندما اقترب إلى ما يقارب العشرين خطوة منهم. ساد هدوء مفاجئ جعله قادرا على سماع خفقات الرايات مع الرياح وهي تلتف وتتمدد. أخذ نفسا عميقا كي يتحكم بأعصابه، ويتكلم بصوت عال وواثق، وصرخ قائلا:

«رافعا رايات الهدنة، أبحث عن السيد باتو بورغيغين».

«لقد وجدتني». أجاب الرجل في مركز هذه المجموعة وأكمل: «الآن، لماذا أتيت إلى أراضيّ برفقة هؤلاء المحاربين؟ هل أعلن الخان العظيم الحرب ضد شعبي؟».

لوهلة حاول بايار ألّا يبتسم، فهو معرض للموت في أية لحظة ولكن ردة فعله وجبت أن تكون ابتسامة، وقال:

«لا أعلم يا سيدي ما الذي يفعله المدعي أنه الخان.. كل ما أعرفه أنّ كوبلاي خان يعرض عليك السلام مقابل ولائك له».

فتح باتو فمه قليلا مصدوما. وغمغم وهو يتكلم متخليا عن وقاره، وقال:

«ماذا؟ الخان كوبلاي؟ من أنت كي تأتي إلى هنا وتتكلم نيابة عن كوبلاي؟».

ضحك بايار على حيرة الرجل، وقد انزاح بعض التوتر عنه أخيرا وقال:

«قدمْ لي حقوق الضيف في خيمتك يا سيدي. فقد ركبت لمسافة طويلة وحلقي جاف».

حدّق باتو به للحظة بدت وكأنّها لن تنتهي، حتى إنّ ضحكة بايار المهددة زالت عن وجهه.

بدا الرجل في الخمسين من عمره تقريبا، هذا ما استشفه بايار من شعره الرمادي إضافة إلى التجاعيد المنتشرة حول فمه وعينيه، وتساءل وهو لا يزال يقف منتظرا عما إن كان يشبه جنكيز محاولا أن يتذكر وجهه.

قال باتو: «حسنا، أضمن لك حقوق الضيف لهذا المساء، ولكن ليس لأكثر من هذا، وذلك إلى أن أسمع ما لديك لتقوله لي».

زال توتر بايار قليلا. لن يكون آمنا بشك كامل بعد هذا العرض، لكن لن يتم ازدراء هذا العرض ببساطة. فمنذ الآن حتى الصباح التالي، سيكون باتو مستضيفه وضامنه، حتى إنّه سيدافع عنه إن تمت مهاجمته خلال ذلك الوقت. ترجّل عن حصانه وأومأ لرجاله بأن يفعلوا المثل. قلّد باتو تصرف بايار هذا، واقترب منه بخفة يمشي فوق العشب المتجمد ووجهه مليء بالفضول وسأل:

«من أنت؟».

أجابه بايار: «القائد بايار يا سيدي؛ أحد قادة كوبلاي خان».

هز باتو رأسه بارتباك، وقال:

«أرسل رجالك بعيدا، واجعلهم يخيمون في الوادي على بُعد ميلين إلى الشرق. فلن أدعهم يخيفون قراي. ولن يكون هنالك أي نهب أو سلب أو اتصال مع شعبي أيها القائد، هل هذا واضح؟».

أجاب بايار: «سأصدر الأوامر يا سيدي».

بدا باتو وكأنّه يدرس تصرفات بايار، وهو لا يزال مذهولا مما حصل. راقب بايار عندما تم فرش السجاد على العشب ووضع الشاي على النار كي يغلي. أرسل الأوامر إلى محاربيه ومن ثم جلس في مكانه، ولم يأمل إلا أن يجد الكلمات المناسبة لكي يبهر الرجل الذي جلس قبالته ويقنعه.

انتظر باتو إلى أن تناول بايار كوبا من الشاي بيده اليمنى وارتشف الرشفة الأولى منه، ثم سأله:

«الآن اشرح لي أيها القائد. فأنت تعلم أنّني أتمنى تقريبا أن تكون رجلا مجنونا. فإنّ ذلك سيكون أفضل بكثير من الأخبار التي أعتقد أنّك أحضرتها معك».

35

سمرقند مدينة جميلة، محاطة بالجبال البيضاء وأحيطت بسور عريض حيث بإمكان ثلاثة فرسان الركوب جنبا إلى جنب أعلى السور. ارتفعت الأبراج الزرقاء فوق السور ذي اللون الرملي، وكانت الأبواب العظيمة موصدة. قاد جنود كوبلاي المزارعين والقرويين أمامهم مثل الإوز، وازدادت الأعداد عندما أصبحوا في آخر خمسة أميال غير قادرين على دخول المدينة، فجلسوا وصرخوا أمامها، رافعين أيديهم من وراء الأسوار. وتجاهلهم محاربو كوبلاي.

وقف على السور جنود مغول وفرس ينظرون إلى الأسفل بدهشة. فلم يأت أي جيش إلى سمرقند منذ عهد جنكيز. ولا يزال هنالك العديد من الذين شهدوا تلك الأيام على قيد الحياة، ويذكرون الرعب الذي انتشر حينها. تسلّق المئات ومن ثم الآلاف من السكان أدراج الأسوار كي يروا الجنود عند أبواب المدينة.

نظر كوبلاي إليهم، وقد جلس بشكل مريح على صهوة حصانه الهزيل الذي أنزل رأسه باحثا عن أي طعام ليأكله. مازال وجهه وأصابعه يؤلمانه من البرد الذي عاناه في الجبال التي تجاوزوها. بما أن الشمس كانت قوية فقد علم أنّه سيخسر لون بشرة وجهه وتصبح أشد سمرة من بقية جسده وذلك بعدما بدأ جلده يقشر.

حبا زين جين بحصانه بسرعة صوب أبيه، بالرغم من أنّه لم يتكلم إذ وقف هو الآخر ينظر إلى السور. ابتسم كوبلاي عند رؤيته تعابير وجه ولده وقال:

«لقد استولى جدي على هذه المدينة من قبل يا زين جين».

«كيف؟». أجاب الفتى متعجبا. فبالكاد يتذكر كاراكورم، وسمرقند صُممت تحديدا كي تبهر رجالا مثل الرجال الذين يقودهم كوبلاي.

أجابه كوبلاي: «عن طريق المقاليع والحصار. وقتها لم تكن لديه مدافع».

قال زين جين: «لكننا لا نملك أية مدافع يا أبي».

قال كوبلاي: «صحيح، لكن إن لزم الأمر فإنني سأطلب إلى الرجال بناء آلات ثقيلة كي ندمر سور المدينة. لن يكون الأمر سريعا، لكن المدينة ستسقط. بالرغم من أنّني لم آتِ إلى هنا من أجل هذا يا زين جين، فليست لديّ الرغبة في قتل شعبي، إلّا إن قرروا مجابهة سلطتي. لكن هنالك طرق أسرع إن هم عرفوا تاريخهم».

أشار إلى أويانغ خاداي الذي بدوره صاح آمرا اثنين من المحاربين. ترجّل المحاربان عن حصانيهما وباشرا بإفراغ معدات عن الأحصنة الإضافية.

شاهدهما زين جين يحملان لفات من المواد والصواري على أكتافهما ويترنحان تحت وزنها. فسأل أباه: «ماذا لديهما هناك؟».

أجابه كوبلاي وهو يبتسم: «سترى». فالرجل المثقف الذي كان عليه بدا بعيدا جدا في تلك اللحظة، وبالرغم من أنّه استمتع بقصص عائلته وبتاريخ المدينة إلا أن التاريخ ليس مجرد قصص تُحكى، وقد ذكّر نفسه، وقد تقدم الرجلان إلى الأمام بما يحملان، أنّ التاريخ قد أعطى دروسا أيضا.

بينما وقف الخان يراقبهما عمل الرجلان بسرعة، رفعا طبقات من الأقمشة فوق إطار خشبي ودقّا الأوتاد في الأرض الصخرية وربطا الحبال. لقد دخلا في مجال السهام وبيّن ظهراهما المتيبسان كيف حاولا مقاومة الخوف الذي اعتراهما بأن يُطلق أحدهم سهما ويصيبهما في أثناء عملهما.

عندما وقفا وتراجعا قليلا، صاح المحاربون بزئير من التحدي من دون تخطيط، وارتد إليهم صدى صيحتهم من المدينة، فقد نصبت خيمة بيضاء أمام سمرقند.

قال زين جين وهو يصرخ كي يُسمع بسبب الضجة: «لا أفهم ما يحدث».

أجابه كوبلاي قائلا: «سيفهم الرجل الأعلى شأنا في المدينة. إنّ الخيمة البيضاء تعتبر مطالبة بالاستسلام، إشارة إليهم بأنّ جنود الخان قد أعلنوا الحرب. عندما تغرب الشمس، إن بقيت أبوابهم موصدة في وجهي، فسيتم نصب خيمة حمراء، وستبقى ليوم واحد أمام السور. فإن تجاهلوا هذه أيضا، فإنني سأنصب خيمة سوداء».

سأل تشين جين: «ماذا تعني كل من الخيمة الحمراء والسوداء؟».

أجابه كوبلاي: «إنّها تعني الموت يا بني، بالرغم من أنّ الأمر لن يصل إلى ذلك».

بينما وقفا يتكلمان، بدأت الأبواب الضخمة تتأرجح وتُفتح. تعالت صيحات من الأمل من اللاجئين المنتظرين أمام أسوار المدينة. وانطلقوا بسرعة كما لو أن سدا قد انفجر فجأة، يدفعون بعضهم بعضا بيأس ويقفون في طريق الفرسان الذين يحاولون الخروج من المدينة.

ابتسم كوبلاي إلى ولده وقال:

«إنّهم يتذكرون جنكيز، على الأقل في سمرقند يا بني، فها قد أتوا».

كان السيد الغو يتصبب عرقا بالرغم من أنّه استحم في الماء البارد عند طلوع الشمس. لقد استدعاه قادته الأعلى شأنا من غرف قصره، بدت وجوههم شاحبة من الخوف. لم يستطع أن يصدق ما تراه عينه من حجم الجيش الضخم الذي تجمّع أمام أسوار سمرقند، وأدرك للمرة الأولى في حياته شعور أعداء الأمة عندما يستيقظون ليروا المحاربين المغول في انتظارهم، تمنى لو أن والده بيدور لا يزال على قيد الحياة، كان سيعلم ما يجب فعله في مواجهة تهديد كهذا.

أسرع الغو إلى أعلى السور، ووقف خلف عمود من الحجر ينظر إلى الجنود الذين انتشروا أمامه، فهل أهان آريك بوك بطريقة ما؟ ازدرد السيد الغو لعابه متألما، فقد جفّ حلقه بسبب ما يحدث. إن قرّر الخان أن يجعل منه عبرة لمن اعتبر فإنّ مدنه المحبوبة ستُحرق، وسيذبح شعبه إذ ليس لدى الغو أي تصور عن القوة التدميرية لجيش مغولي في الميدان. وستتناثر سمرقند في خانات شاغاتاي كأنه قد نزل بها وباء لا يمكن إيقافه. وقد رأى موته الحتمي في تلك الرايات الخفاقة.

صعد أعلى رجاله شأنا أدراج أسوار المدينة ليتابعوا ما يحدث، ونظروا إليه بانتظار أوامره. تماسك السيد الغو، واستجمع إرادته مجبرا نفسه على التفكير. فهو الرجل الذي يقودهم جميعا وحيواتهم بين يديه. لم يلم ابنته فايغيارن فتاة شابة وقوية، لكن لا تستحق أيةُ إهانة اعتبر آريك بوك نفسه قد تعرض لها إرسالَ جيش إلى هنا.

بإمكانه أن يرسلها خارج المدينة وهكذا لن يقع حقد آريك بوك عليها. وارتجف الغو وهو يفكر.

قال أحد رجاله: «سيدي، إنني لا أستطيع أن أرى رايات الخان في الخارج».

كان السيد الغو يستدير لينزل عبر الدرج إلى الأسفل عندما توقف فجأة وسأل:

«ماذا تقصد؟».

وعاد يمعن النظر مرة أخرى. إنّ الجو صحو اليوم، لذلك بإمكانه أن يرى إلى مسافات شاسعة من حيث يقف في أعلى السور.

«لا أفهم ما يحدث». همهم الغو بذلك بعد أن تأكد من الأمر بأم عينيه. إنّ رايات آريك بوك ليست هناك، لكنّه لم يتعرف إلى الرايات الأخرى التي ترفرف هناك. يبدو أنّه قد نُقش عليها حيوان ما بالحرير الأصفر. بدت بعيدة جدا كي يتأكد منها، لكنّ السيد الغو كان متأكدا من أنه لم يسبق له أن رأى هذه الرايات.

قال لرجاله وهو يبتسم بضيق: «ربما يجب عليّ أن أخرج وأسألهم ماذا يريدون؟».

لم يخفف هذا الجواب عنادهم، ولم يزل الرعب الذي ظهر جليا على وجوههم. فكل منهم لديه عائلة في سمرقند أو في المدن المحيطة بها. لم تهاجم خانات شاغاتاي منذ عقود، ورغم ذلك فإن جميعهم يعلمون قصص الذبح والدمار التي حلّت بالمدينة عندما أتاها جنكيز، من المستحيل أن تعيش في الخانات من دون السماع بهذه القصص.

تقدمت مجموعة صغيرة من الجنود الذين احتشدوا أمام المدينة إلى الأمام، كل منهم يحمل لفة من القماش. نظر الغو إلى الأسفل محتارا في حين اقترب هؤلاء المحاربون من السور، وبدأ أحد جنوده القريبين بتوجيه سهم إليهم، لكنّ الغو صرخ وأمره بألّا يفعل شيئا.

وقف الآلاف يشاهدون ما يحدث بفضول، في الوقت الذي أخذت فيه الخيمة البيضاء شكلها، والرجال في الأسفل يضربون الأوتاد ويربطون الحبال لتثبيتها. لم تكن متينة مثل خيم السكن الكبيرة، ورفرفت جوانبها بتأثير نسمات الهواء. عندما تعرف السيد الغو إليها، تراجع خطوة إلى الخلف وهو يهز رأسه.

«لا يمكن». تكلم بصوت غير مسموع. كذلك وقف الرجال الذين تذكروا ما تعنيه في مكانهم مصدومين في حين تساءل أصدقاؤهم عمّا تعنيه هذه الخيمة.

صاح السيد الغو: «جهزوا البوابات». وأردف: «سأخرج إليهم». ثم استدار إلى رجاله وقد بدا القلق جليا على تعابير وجهه فقال لهم: «لا بد أنّ هذا خطأ ما. لا أفهم ما يحدث، لكن لن يدمر الخان سمرقند».

كاد أن يقع وهو ينزل الدرج راكضا، ولم تتمكن ساقاه من حمل وزنه كما يجب. كان حصانه في الشارع الرئيسي في المدينة، وانتظر قدوم حراسه الشخصيين. لم يعلموا شيئا عمّا قد رآه وهو بدوره لم يشرح لهم ما يحدث.

الخيمة البيضاء طلب مباشر للاستسلام الكامل، ويجب أن تتم الإجابة عليها قبل أن تُرفع الخيمة الحمراء. بينما كان الغو يمتطي حصانه أدرك أنه لا يزال لديه يوم، لكن الخوف شل تفكيره، فالخيمة الحمراء ستعني هلاك كل ذكر في عمر القتال في المدينة، أما الخيمة السوداء فهي وعد بذبح كل شيء حي فيها، بمن فيهم النساء والأطفال. تجاهلت مدينة هيرات جنكيز عندما هددهم بتلك الطريقة، لذلك لم يبقَ سوى السحالي والعقارب على قيد الحياة في ذلك المكان عندما انتهى منها.

صاح السيد الغو: «افتحوا الأبواب!». وجب عليه أن يجيب على طلب الجيش في الخارج في الحال. أزاح جنوده العمودَ الكبير المصنوع من خشب السنديان والحديد عن الباب كي يتمكنوا من فتحه. عندما ظهر خيط من الضوء، استدار سيدهم إلى رجل من أكثر رجاله ثقة وقال: «اذهب إلى أبنائي وبناتي. خذهم إلى بر الأمان إلى...» تردد قبل أن يكمل كلامه، فإن قرر الخان تدمير سلالته فإنه لا يوجد مكان آمن في العالم بالنسبة إليهم، سيطاردهم آريك بوك في كل مكان، ولن يتجرأ أحد على أن يُقدم لهم المأوى خوفا من انتقامه.

قال خادمه الموثوق: «سيدي، إنّ قرية هريتم تبعد مئة ميل إلى الشمال والغرب. لقد سكنت هنالك من قبل، وهي تقع بعد الحدود في أراضي هولاكو. ولن يعلم أحد أنّهم هناك إلّا أنت، سأحميهم وأفديهم بحياتي».

أجاب الغو وتنفس بارتياح: «حسنا، اذهب الآن من بوابة أخرى. سأرسل في طلبهم إن استطعت».

عندما فُتحت الأبواب أكثر رأى السيد الغو حشودا من النساء والرجال يتدافعون إلى الداخل رافعين أيديهم ذعرا، فبدأ جنوده بدفعهم إلى الخلف كي يسمحوا لسيدهم بالمرور. لم ينظر السيد الغو إليهم وهم يتدفقون حول رجاله، فالمدينة ليست آمنة أكثر من مكانهم في الخارج.

نظر إلى صفوف الجنود الداكنة التي تنتظر في الخارج، فآلمته معدته من الخوف عندما حثّ حصانه على المشي، وبدأ يتقدم إلى الأمام.

عندما تجاوز أسوار المدينة تحت غطاء من رماة سهامه، رأى رجال الرايات لديه يهمّون برفع راياته الخاصة، فصاح قائلا بشكل أشبه بالرعب: «الرايات البيضاء، سنذهب إليهم تحت الهدنة».

حدّق رجاله إليه، ولاحظوا الخوف الذي اعتراه. لم تكن لديهم أية أعلام بيضاء، لكنهم شاهدوا أحد اللاجئين الذي ارتدى رداء أبيض، فطُرح الرجل غير المحظوظ خلال لحظة أرضا، وجُرّد من ردائه الذي رُفع على رمح في حين انطلق السيد الغو إلى الخارج.

سأل كوبلاي ابنه: «هل ترغب في القدوم معي؟». ابتسم زين جين ابتسامة عريضة ردا على سؤال أبيه، فحثّ حصانه الذي اندفع إلى الأمام، أومأ كوبلاي لأويانغ خاداي الذي أشار بدوره إلى أقرب قائد مجموعة تتألف من مئة مقاتل، فانفصلت هذه المجموعة عن صفوف الجيش، واصطف رجالها على جانبي هذين القائدين.

رافقهم حاملو رايات كوبلاي برايات صفراء، نُقشت عليها تنانين صينية، لمعت تحت ضوء الشمس.

تمتم كوبلاي إلى زين جين الذي سار بجانبه عندما اقتربوا من القوات الخارجة من المدينة، وقال: «التزم الهدوء واستمع».

فسأل زين جين: «هل سنقتلهم؟». لم يبدُ أن الفكرة أزعجت كوبلاي فابتسم وقد رأى الرايات البيضاء ترفرف فوق رؤوسهم وقال: «لا، لن نقتلهم إلّا إن تحتم عليّ ذلك، فأنا أحتاج هذه الخانات إلى جانبي».

توقفوا معا مُبدين انتظامهم وانضباطهم لأولئك الذين وقفوا أعلى السور يشاهدون، أما قوات السيد الغو فقد وقفت بانضباط أقل، وهو ذلك النوع من اللين الذي توقعه جنود كوبلاي من جنود مدينة.

تقدّم السيد الغو برفقة أكثر رجاله شأنا، وفعل كوبلاي الشيء نفسه برفقة أويانغ خاداي في حين وقفت الفرقتان الصغيرتان مقابل بعضهما تحت أشعة الشمس، وانعكست ظلالهم الطويلة على الأرض الرملية. انتظر كوبلاي، ووقف شامخا كي يبدؤوا الكلام أولا.

استمر الصمت للحظة قبل أن يتكلم السيد الغو سائلا: «من أنتم كي ترفعوا خيمة بيضاء أمام مدينتي؟».

أجابه كوبلاي: «أنا كوبلاي، حفيد جنكيز خان، والخان الأعظم لأمة المغول. أعطني اسمك واعترف بي سيدا لك، وبذلك لن تكون هنالك مشكلة بيننا».

فغر السيد الغو فاه، وتراجع على سرج حصانه. لقد قابل كوبلاي عندما كان فتى، لكنّ السنوات قد غيّرته وأصبح من الصعب التعرف إليه. فالرجل الذي يراه يرتدي رداء تشن الحريري، وقد طرّز بالتنانين، إضافة إلى ذلك هو يحمل سيفا على خصره، وبدا قويا وخطرا. أنعم السيد الغو النظر إليه بالرغم من ضوء الشمس، ورأى عينيه الصفراوين اللامعتين اللتين ميزتا سلالة جنكيز، فازدرد لعابه وقال متلعثما:

«أنا الغو، خان مقاطعة شاغاتاي، فإن كنت...» تردد ولم ينهِ كلامه، فقد أوشك على أن يقول كلاما يشكك بما قاله كوبلاي، لكن ليس بإمكانه أن يتحمل تكاليف إهانة رجل يرافقه مئة وعشرون ألف محارب، لذلك أكمل قائلا: «إنّني ابن عمك، ابن بيدور ابن تشاغاتاي الذي بدوره ابن جنكيز».

قال كوبلاي: «قابلتك عندما كنت فتى، أليس كذلك؟ عندما تم تنصيب غويوك خانا في كاراكورم؟».

أومأ السيد الغو له وهو يحاول أن يقارن الفتى النحيل الذي يتذكره مع هذا الرجل الذي يقف أمامه، قال: «إنّني أتذكرك، هل عدت من أراضي سونغ؟».

ابتسم كوبلاي وقال: «أنت رجل غريب، ها أنذا أقف أمامك وما زلت تسأل. فلتسلّم مدينتك الآن يا سيد الغو. لن أطلب هذا مرة أخرى».

فغر الرجل الأكبر سنا فمه، لكن لم يخرج منه أي صوت. هزّ رأسه غير قادر على أن يستوعب ببساطة ما قيل له.

تمتم في النهاية: «إنّ آريك بوك هو الخان». شعر السيد الغو بالخوف عندما تغيرت تعابير كوبلاي وأصبحت باهتة، واشتعلت عيناه الصفراوان بالغضب.

قال كوبلاي: «لا يا سيد الغو، إنّه ليس الخان. فأنا أطالب بالخانات وكل الأمة التي فيها. إضافة إلى أنّ أخي سيركع لي أو يسقط، لكنّ هذا سيكون في يوم آخر. أعطني جوابك وإلا سأستولي على المدينة وأُنصب رجلا آخر مكانك». استدار كوبلاي إلى أويانغ خاداي وتكلم معه بهدوء: «هل أنت مهتم بحكم سمرقند يا قائد الجيش؟».

أجابه أويانغ خاداي: «إن كانت هذه رغبتك يا سيدي الخان. لكنّني أفضّل أن أنطلق برفقتك ضد الغاصب».

قال كوبلاي: «حسنا إذن، سأجد شخصا آخر». ثم استدار إلى السيد الغو مرة أخرى الذي كان لايزال فاغرا فمه بعض الشيء، وقال له: «ما هي إجابتك يا سيد الغو؟».

قال الغو: «لقد.. لقد أقسمت على الولاء لآريك بوك. إلى أخيك يا سيدي. لا أستطيع أن أسحب كلمتي».

أجاب كوبلاي على الفور: «إنّني أعفيك من قسمك، والآن...»

قاطعه الغو وقال بعنف: «إنّ الأمر ليس بهذه البساطة». يبدو أن الغضب أيقظه من صدمته.

قال كوبلاي: «لا؟ إذن من لديه القدرة ليعفيك من قسمك إن لم يكن الخان؟».

قال الغو: «يا سيدي، إنّ هذا.. إنّني أحتاج إلى وقت كي أفكر. فهل تدخل المدينة بسلام هذه الليلة؟ أضمن لك ولرجالك حقوق الضيف».

للحظة، كاد كوبلاي أن يتعاطف مع وضع الرجل الحرج فقد وضع في موقف لا يُحسد عليه، فهنالك مئة وعشرون ألف محارب أمام مدينته يتوعدونه بالدمار الحتمي، وليس بإمكانه أن ينكث بقسمه إلى آريك بوك، لكنّ كوبلاي لم يترك له خيارا. في النهاية قسَت إرادة كوبلاي وقال:

«لا يا سيد الغو. ستتخذ قرارك هنا والآن. فقد اخترت أن تقسم على الولاء لشخص غاصب، لا أحمّلك مسؤولية جرائمه. لكنني خان الأمة الشرعي، والحاكم الحقيقي لكل الخانات. كلماتي من حديد وما أقوله هو القانون. أقول لك مرة أخرى إنّني أعفيك من قسمك السابق، ومن عهدك. لقد انتهى الأمر. في هذه اللحظة لن تقول لأي رجل آخر سيد. هل تفهم ما قلته لك؟»

شحب وجه السيد الغو وأومأ، فأكمل كوبلاي:

«حسنا، تستطيع أن تتخذ قرارك بما أنك أصبحت رجلا حرا الآن، فمكاني ليس هنا، ولديّ أعمال أخرى غير هذه الخانات، لكن ليس بإمكاني أن أدع عدوا خلفي وأنطلق لمواجهة أخي الأحمق. ولا أستطيع أن أدع خط إمداد يستمر بإيصال الإمدادات إلى كاراكورم عندما سأحاصرها، هل تفهم ذلك؟».

أومأ السيد الغو مرة أخرى غير قادر على الإجابة. أصبح صوت كوبلاي ألطف، أشبه بصوت ودود وقال:

«حسنا اختر يا سيد الغو. فالخيارات الحقيقية المتاحة أمامنا قليلة، ولن يكون لديّ خيار آخر سوى تدمير سمرقند إن اتخذت القرار الخاطئ هنا، في هذا الصباح، ولكنني لا أتمنى أن أهددك وكل ما في الأمر أنّ الأمة في ضلال يا سيد الغو، لذلك يجب علي أن أعيد الأمور إلى نصابها الصحيح بعد أن أخذَت منحى خاطئ».

فكّر الغو في أولاده، إنهم في طريقهم الآن إلى قرية آمنة. لم يكن لديه أدنى شك بما كان كوبلاي يقوله. لكن لدى آريك بوك جيش ضخم ولن يستسلم لأخيه، ليس بعد أن أصبح خانا. لم يحدث أن قاتلت قوات مغولية ضد شعبها من قبل، لكنّ الأمر سيحدث وسينتج عنه دمار كبير لا يمكنه تصوره.

ببطء وحذر تحت ناظري قائد جيش كوبلاي الذي وقف مترقبا، ترجّل السيد الغو عن حصانه ووقف بالقرب منه ناظرا إلى الرجل الذي ادّعى أنّه يحكم العالم. إنّ خانات شاغاتاي ليست إلّا جزءا صغيرا من هذا العالم، هذا ما أخبر نفسه به. مع ذلك، إن أقسم على الولاء لشخص جديد، فإنّ آريك بوك سيرسل محاربيه للانتقام، ولن يُظهر أية رحمة اتجاهه، فلن يشفق أحد على سيد حانث للعهد. أغمض السيد الغو عينيه للحظة وهو محاط بأعداد ضخمة من المحاربين. في النهاية تكلّم وقال:

«سيدي، إنّ أقسمت على الولاء لك فإنّ مُدني ستصبح هدفا لكاراكورم، وسيعتبر تصرفي هذا إعلان حرب على الخان». تراجع خطوة عندما أدرك أنّه استخدم الكلمات الخطأ لكنّ كوبلاي ضحك فقط.

قال كوبلاي: «لا أستطيع أن أعدك بالأمان يا سيد الغو، فلا يوجد أمان في هذا العالم. لكنّني أستطيع أن أقول إنّني سأُبقي انتباه أخي عليّ هذا الصيف. بعد ذلك، سأسترد منصب الخان المسلوب، وأنظر بعين اللطف إلى مدنك».

قال الغو: «لكن إن خسرت يا سيدي...».

قاطعه كوبلاي قائلا: «ماذا تقول؟ إن خسرت؟ أنا لا أخاف من قطعة لحم الكلاب تلك، ذلك الأخ الذي يعتقد أنّ بإمكانه أن يأخذ مكاني. إنّ الشمس حارة يا سيد الغو، وكنت صبورا معك. إنّني

أتفهم مخاوفك، لكن لو كنت مكانك لكنت سأعلم ما يجب عليّ فعله».

ابتعد السيد الغو عن حصانه، ووقف على الأرض الرملية، وانحنى حتى ركع على قدميه وقال:

«إنّني أعرض عليك الخيم والأحصنة والملح والدم يا سيدي الخان، إنّ قسم ولائي لك». بدا صوته أشبه بالهمس.

اختفى التوتر الذي اعترى كوبلاي عندما تكلم وقال:

«إنّه القرار الصحيح يا سيد الغو، والآن فلترحب برجالي في مدينتك، ربما بإمكاننا أن نستريح ونشرب شيئا نطفئ به الظمأ في حلقنا».

«حسنا يا سيدي الخان». قال السيد الغو وهو يتساءل عما إن كان قد تخلى عن شرفه الآن بفعلته هذه، وعن حياته أيضا. كان يفكّر في إعادة أولاده إلى المدينة مرة أخرى، ولكن لن تضرهم تمضية فصل مع القرويين، وبذلك يبتعدون عن الأذى ويبقون بأمان بما أنّ الخانات سوف تعاني من حرب أهلية.

راقب القائد بايار باتو بانزعاج، عندما بدأ الأخير يمشي في المنزل مفكرا. لم يتلقَ الرجل الأخبار بشكل جيد ومازال بايار يبحث عن الكلمات المناسبة لإقناعه. لقد علم أغلب خطة كوبلاي فجزء منها يقتضي بأن يبقي أمراء الأمة بعيدين عن الصراع بين الأخوين. وقد كان هذا الطلب طلبا صعبا أصاب أساس شرفهم وقسمهم، لكن كوبلاي كان واضحا بتعليماته.

فقد قال له كوبلاي: «لم يسبق أن حصلت في الأمة حرب أهلية، تأكد من أن يفهم باتو أنّه تم إيقاف العمل بالقواعد الأساسية حتى ينتهي الصراع في عائلتي، وأنّ قسمه يعود إلى منصب الخان العظيم أيا كان. ولكن إلى أن تتم تسوية هذا الصراع وحتى يوجد خان واحد فقط، فلن يستطيع تشريف قسمه والحفاظ عليه كاملا، أخبره أن يبقى في أراضيه، ولن تكون هنالك أية ضغينة بيننا».

راجع بايار كلمات كوبلاي، وفكّر فيها أكثر من مئة مرة في حين جلس باتو إلى طاولة السنديان الكبيرة، وأومأ إلى الخدم ليحضروا أطباقا ساخنة من اللحم والبطاطس مع الزبدة.

قال باتو وهو يسحب كرسيا إلى الخلف: «انضم لي أيها القائد. هذا لحم بقر من قطيعي».

نظر بايار إلى قطع اللحم فسال لعابه. ابتسم ثم جلس، سحب قطعة من اللحم بأصابعه إلى فمه، وبدأ يأكل بشراهة إلى أن سال الدهن من اللحم على ذقنه.

قال بايار: «إنّه لذيذ». وأنّ بشكل من الرضى والاستمتاع. أخذ يضع اللحم في فمه ويبلعه من دون مضغ وأمسك بالمزيد بين أصابعه، وأسقط قطعة من يديه على الخشب العتيق.

قال باتو: «لن تتذوق شيئا أفضل من هذا. آمل أن أبيع اللحم إلى مدن الخان خلال بضع سنوات، وذلك بعد أن أكون قد زدت من عدد القطيع».

قال بايار: «ستصنع ثروة بهذا، لكن ليس في الفترة التي يجري فيها الاقتتال. لا أزال أنتظر إجابتك يا سيدي».

تناول باتو طعامه ببطء مستمتعا بمذاق كل لقمة يتناولها، وناظرا باستمرار إلى الرجل الذي يجلس بالقرب منه، بلع الطعام مطولا، ثم سكب بعدها النبيذ، وارتشف رشفة كبيرة منه، وجلس مكانه مرة أخرى وقال:

«حسنا، لديّ ثلاثة خيارات أيها القائد، كما أرى الأمر. بإمكاني أن أدعك تذهب، وأفعل كما يريد كوبلاي وأبقى بذلك بعيدا عن القتال، وألتفت إلى أراضيّ وشعبي إلى أن يأتي آريك بوك إلى هنا غاضبا برفقة جيشه، ويسأل عن سبب عدم تدخلي بما يحدث في الوقت الذي يتعرض فيه سيدي الشرعي إلى هجوم. إن كانت هذه هي النتيجة فسأخسر كل شيء».

لم يجبه بايار، إذ لم يكن يعلم لا هو ولا باتو ما قد يحدث إن خسر كوبلاي، ولا بد من أنّ آريك بوك سيتصرف بشكل صارم ضده ليثأر من تصرفه، ربما كان الرجل العاقل سيُصدر عفوا للخانات الصغيرة، لكن لا توجد أية دلالة حسب سلالة آريك بوك تقول إنّه من المحتمل أن يكون رجلا عاقلا.

أكمل باتو: «إنّ خياري الثاني هو أن أتجهز أنا ومحاربيّ وأنطلق لمساندة خاني الشرعي، أعتقد أنّك ستعارضني بهذا الخيار، لذلك أول أمر سأفعله هو أن أذبح رجالك».

بدأ بايار بالكلام: «إن اعتقدت..».

أوقفه باتو مرة أخرى رافعا راحة يده وأكمل:

«أنت في أرضي أيها القائد. إنّ شعبي يخدمون رجالك ويزوّدونهم باللحم الجيد والشراب كل يوم. بإمكاني أن أعطي أمرا واحدا وأنهي الأمر قبل غروب الشمس. هذا هو خياري الثاني».

قال بايار بانفعال: «أخبرني فقط ما هو قرارك».

كشّر باتو بابتسامة له وقال:

«أنت لست برجل صبور أيها القائد. إنّ خياري الثالث هو ألّا أفعل أي شيء وأبقيك برفقتي. فإن فاز كوبلاي، فلن أكون حينها قد أقدمتُ على أي تصرف لأذيته، أما إن انتصر آريك بوك، فسأكون قد منعتُ ثلاثين ألف محارب من الانضمام إلى القتال. هذا الأمر سيمسح لي بالحفاظ على حياتي وأراضيّ على الأقل».

شحب وجه بايار قليلا في أثناء تكلم الرجل الآخر، فقد أضاع الكثير من الوقت بالفعل في خانات باتو. لقد ذكّره كوبلاي بأوامره عدة مرات، وذلك كي ينطلق إلى كاراكورم، ولدى بايار أيضا أفكاره الخاصة عن مكانه في خطة الخان، فإن تم سجنه لعدة أشهر فإن ذلك سيشكل فرقا بين النجاح والفشل.

شاهد باتو رد فعله عن كثب وقال:

«أرى أنّ ذلك لا يلقى قبولا لديك أيها القائد. أفضل الخيارات لشعبي ربما هو الأسوأ بالنسبة إليك».

حدق بايار إليه متجهما وغاضبا. فإنّ كل ما خطط له كوبلاي سيؤول إلى معركة قبل كاراكورم. إنّ محاربي بايار هم آخر مجموعة ستضرب، تلك المجموعة التي سيحافظون عليها لتضرب جيش العدو من الخلف في اللحظة المناسبة. بلع طعامه بصعوبة، فقد بدا اللحم اللذيذ كقطع من الحجارة في معدته. سيبحث كوبلاي عنه عندما يحين الوقت وإن لم يكن هناك فإن أمر صديقه سينتهي.

وقف بايار ببطء وقال:

«سأغادر الآن، ستتخذ أي قرار تراه مناسبا لكنك لن تُبقيني هنا».

استدار بسرعة عندما سمع أصوات سيوف تُستل من خلفه. وقف اثنان من حراس باتو يشاهدانه بغضب عندما تكلم وكانا يقفان أمام الباب حاجبَين ضوء الشمس والهواء عنه.

«اجلس أيها القائد، لم أنتهِ من كلامي معك بعد». قال باتو، وهو يتكئ على كرسيه. ولاحظ كيف اتجهت أنظار القائد إلى السكين الكبيرة التي تُستخدم لتقطيع اللحم.

ضحك باتو عندما أمسكها، واستخدمها ليقطع قطعة جديدة من اللحم وقال:

«طلبت إليك أن تجلس».

36

أرجع آريك بوك قوسه إلى الخلف، وحاول أن يسيطر على ضربات قلبه وتنفسه ويعيدهما إلى انتظامهما مرة أخرى، لكنّه لم يتمكن من ذلك، ففي أي وقت اعتقد أنّه سيبدأ بالهدوء، كان الغضب الشديد يجعل ضربات قلبه تتسارع ويديه ترتجفان.

أطلق سهمه وهو يصرخ غضبا وإحباطا، فانطلق السهم فوق الهدف المصنوع من القش.

رمى القوس على الأرض باشمئزاز، متجاهلا إجفال مدربه الخاص من الطريقة التي عامل بها هذا السلاح الثمين. كان تيلان في الستين من عمره تقريبا، خدم ثلاثة من الذين شغلوا منصب الخان قبل آريك بوك، أحدهم في الميدان. كذلك وقف ثلاثة من الفتيان الذين يكنسون محيط منطقة التدريب مصدومين عندما شهدوا التصرف الذي من الممكن أن يودي بهم إلى الجلد بالسوط.

لم يبدِ تيلان أية تعابير، عندما التقط القوس الثمين، ووقف بصبر قرب الخان، بالرغم من ذلك، فقد تفقد القوس بيده من دون أن يُظهر ذلك، باحثا عن أي ضرر أصابه أو تصدعات، عندما تأكد من أنّه في حالة جيدة بدا راضيا، فرفعه مرة أخرى نحو آريك بوك الذي أشار له بأن يبعده، وقال:

«ليس بعد الآن، لا أستطيع أن أركّز».

وقف قائد جيوشه بالقرب منه متجهزا كي يطلق سهمه.

واجه ألاندار خيارا حساسا. إنّ ضربات قلبه منتظمة وبطيئة، وذراعاه ثابتتان مثل الخشب الصلب، بإمكانه أن يضع السهم في أي مكان يختار أن يصيبه، لكن تحت نظرات الخان قرر ألاندار ألّا يطلق سهمه، فخفف الشد على وتر القوس ببطء، وشعر بعضلات صدرته ترتعش بشكل مزعج.

فكّ ألاندار السهم عن كتفه، وأعطى المعدات إلى مدرب الأسلحة في منطقة التدريب في كاراكورم. لقد اعتقد أنّه من الممكن أن يستفيد آريك بوك من صباح نشيط يتدرب فيه ويتعرق، لكن

الخان بدا كما لو أنّه يزداد غضبا عند كل ضربة خاطئة.

فسأل: «هل تفضل أن تتدرب بالسيوف يا سيدي الخان؟».

تذمر آريك بوك، فقد أراد أن يشنق أحدا لا أن يغرق بالروتين والتدريب إلى أن يؤلمه جسده. لكنّه أومأ بكياسة مصطنعة وقال: «حسنا».

قال قائد الجيش: «فلتجهز سيوف التدريب الخاصة بالخان يا تيلان».

عندما استدار مدرب الأسلحة كي يذهب ويحضر السيوف رفع آريك بوك رأسه كما لو أتاه الإلهام وقال:

«أحضر نصل رأس الذئب معك أيضا، وجهز بذلة التدريب».

اختفى تيلان برفقة القوسين في المبنى خلف ساحة التدريب، ثم عاد يحمل سيفين في غمديهما ودرعا من الجلد القاسي. حمل آريك بوك السيفين، وأحس بثقل كل منهما. ثم قال:

«فلترتدِ البذلة يا تيلان. فأنا في المزاج لأقطع شيئا ما».

كان مدرب الأسلحة محاربا مخضرما، فقد قاتل بجانب تسوبوداي، وكسب مكانته في بلاط الخان. بدا عدم الراحة جليا على ملامحه وعبس. فبالنسبة إلى أحد متدربيه، فإنّ هذه إشارة للغضب تجاهه، لكنّه آريك بوك الذي بدا واضحا بكلامه.

قال تيلان: «هل يجب عليّ أن أدع أحد الغيلان يرتديها يا سيدي الخان؟».

بالكاد نظر آريك بوك إليه وقال:

«هل قلت لك أن تجهز أيا من الغيلان؟».

أجابه تيلان: «لا يا سيدي».

قال آريك بوك: «فافعل ما أُمرت به».

بدأ تيلان بتثبيت الأحزمة الجلدية حول نفسه. بدت بذلة التدريب مثل مئزر لحداد بكمين طويلين، طبقات الجلد التي حيك منها صلبة وبالكاد تطوى عند الخصر، أضيف إلى ذلك خوذة

مبطنة مع قطع للعنق، وهناك أيضا واقيات ثقيلة ثُبتت تحت الكمين وعلى الذقن. وضع تيلان القطعة الرئيسة الثقيلة منها فوق رأسه في حين وقف ألاندار وبدأ بربط الأحزمة.

استلّ آريك بوك سيف تدريب، وبدأ بالتلويح به في الهواء، بدا ذلك السيف أثقل من السيف العادي، فقد أُثقل بالرصاص وذلك كي يزيد من قوة المعصم والذراع الأمامية للمحارب، لكنّها افتقدت إلى كثير من الحواف، وأيضا رأسها مدور. فقابل هذا السيف بالتجهم، ثم استل سيفه الخاص الذي ورثه من أخيه مونغ.

اتجهت أعين كل من ألاندار وتيلان إلى آريك بوك، عندما سمعا صوت الفولاذ البراق الذي أُخرج من غمده. لم يكن الأمر مجرّد أنّ كلا الرجلين محاربان مخضرمان، فالسيف وُجد في عائلة الخان منذ أجيال. لقد صُممت القبضة بشكل رأس ذئب، إضافة إلى أنّ هذا السيف يعتبر بشكل أو بآخر أحد أهم معالم القوة بالنسبة إلى الأمة الناشئة فقد حمله جنكيز وكذلك أبوه من بعده. لقد بدا السيف الصقيل كقطعة من المعدن الحاد المصممة لتقطيع اللحم. رفعه آريك بوك ولوّح به في الهواء.

قابلت عينا ألاندار عينَي تيلان، فابتسم بامتعاض عندما رأى تعابير وجه الرجل. لقد أحبّ تيلان، بل أمضى عدة ليالٍ حتى برفقته يشربان الخمر. لم يكن هذا المعلم من ذلك النوع من الرجال الذي يُغمى عليه إن خسر بعض الدم أو تعرض لضربة، لكنّه لم يبدُ سعيدا، انتهى ألاندار من تثبيت الدرع ثم تراجع بعيدا.

سأل قائد الجيش آريك بوك: «هل يجب أن أعطيه سيفا؟».

أومأ آريك بوك وقال: «أعطه سيفك».

لقد علموا ثلاثتهم أنّ ذلك لن يحدث فرقا، فقد صُممت البذلة من أجل صد الهجمات، وذلك كي تعلم محاربا شابا بأن يبقى هادئا ومركزا حينما يهاجمه العديد من أصدقائه. لن تسمح هذه البذلة لتيلان بأن يتحرك بالسرعة الكافية كي يدافع عن نفسه.

سلّم ألاندار سيفه إلى معلّم الأسلحة، وعبس عندما وقف في تلك اللحظة يدير ظهره للخان. قلّب تيلان عينيه استجابة، لكنّه أخذ السلاح.

عندما ابتعد ألاندار، تقدم آريك بوك، ولوّح بسيفه باتجاه عنق تيلان بكل ما أوتي من قوة. اختفت ابتسامة ألاندار عندما ترنح تيلان إلى الخلف. لقد احتوت خوذة الرأس الخاصة بالبذلة على

قطع ثقيلة تحمي منطقة العنق، لكنّ سيف رأس الذئب قد قطعها تقريبا فتدلت إحدى تلك القطع بخيط فقط بسبب الضربة.

صدّ المدرب الضربة التالية بجهد كبير، وقد استخدم كامل قوته كي يجعل الأذرع الجلدية للبذلة تنثني بالسرعة المناسبة. صاح آريك بوك وقد تصبب العرق من وجهه، لكنّه تقدم وأخذ يضرب من الأعلى والأسفل، باتجاه الفخذ والعنق. نتجت عن ضرباته هذه شقوق كبيرة في البذلة، فأصبح بإمكان ألاندار أن يرى ثياب تيلان تحتها. فكّر قائد الجيش في التعليق على هذا، لكنّه قرر ألا يقول شيئا فآريك بوك هو الخان.

أدرك تيلان أنّه في قتال، فعندما اقترب منه آريك بوك كثيرا، تحرك وعكس اتجاهه إلى الوراء مستفيدا من حجم البذلة التي ارتداها، ثم دفع الخان بوركه ما جعله يتمايل، فرد الخان بضربة أخرى باتجاه العنق ما أدى إلى تمزق الجلد الواقي وتحرره من البذلة وسقوطه. أصبحت عنق تيلان المليئة بالعروق مكشوفة، وأحسّ بذلك، فشعر بالهواء يلامس جلده في اللحظة التي أصبح فيها بلا حماية. حاول أن يتراجع ويتنحى، لكن آريك بوك كان يضغط عليه في كل حركة قام بها، ملوحا بسيفه كما لو أنّه هراوة أكثر مما هو سيف. تصدى لأكثر من ضربة من ضرباته العنيفة من خلال درع الجلد السميك مما أدى إلى طقطقة أصابعه وجعله يهمس ألما.

بدا أن دهرا قد مرّ قبل أن يتوقف آريك بوك، وذلك بعد أن أصبحت البذلة الجلدية عبارة عن خرقة بالية نصفها معلق على جسد المدرب بعد أن مُزّق في حين استقر النصف الآخر على الأرض عند قدمي تيلان. سال الدم أسفل قدمي الرجل، ثم تجمع عندما وقف آريك بوك يلهث، يراقبه إن كان سيقوم بأية حركة مفاجئة. ما فاجأ المدرب وألاندار وأخافهما أنّ آريك بوك وضع رأس سيفه على الأرض متكئا عليه بكامل وزنه، كما لو أنّه عصاة عادية، وليس النصل الأكثر شهرة في تاريخ أمة المغول. تصبب العرق من الخان، ثم تنفس بقوة، وقال:

«إنّ هذا سيغير مزاجي». ثم وقف منتصبا بصعوبة، وأعطى السيف إلى ألاندار الذي أمسك به بسهولة. ثم قال: «اجعل المعالج الخاص بي يتفقد جروحك يا تيلان. أما أنت يا ألاندار فتعال معي».

من دون أن ينطق بأية كلمة أخرى، خرج من ساحة التدريب، التقط ألاندار غمد السيف، وبالكاد تمكن من أن يلقي نظرة اعتذار إلى تيلان قبل أن يذهب ليلحق بالخان.

وقف المدرب وحيدا في مركز ساحة التدريب يلهث. لم يتحرك أبدا قبل أن يأتي أحد الفتية ويجرؤ على الاقتراب منه.

سأله الفتى وهو ينقل ناظريه وينظر إلى البقايا الممزقة لخوذة الرأس: «هل أنت بخير أيها المدرب؟».

بالرغم من أن شفتيه كانتا داميتين إلا أنه ابتسم للفتى محاولا أن يمشي خطوة إلى الأمام وقال:

«خذ يدي وساعدني يا فتى. لا أستطيع أن أمشي وحدي».

آلمه هذا الاعتراف بالقدر ذاته الذي آلمته به جروحه التي أُصيب بها، لكنّ كبرياءه لم يسمح له بالسقوط أرضا، نادى الفتى صديقه وساعدا تيلان الذي وقف بينهما كي يخرج من ساحة التدريب تلك.

خطا آريك بوك خطوات سريعة ماشيا في ممرات القصر. بدا الأمر كما لو أنّ غضبه العارم قد هدأ بعض الشيء، وحرّك كتفيه ممططا إياهما وهو يمشي. لقد كان يتخيل كوبلاي أمامه عندما ضرب المدرب مما أزاح الغضب عنه لفترة من الزمن، لكنه شعر بالغضب مرة أخرى في أثناء سيره، كما لو أنّ جمرة محترقة قد اشتعلت وجعلته راغبا في ضرب أي شيء.

وصل إلى باب من النحاس المزخرف، فدفعه كي يفتح من دون أن يلاحظ الحراس الذين وقفوا هناك. تبعه ألاندار إلى قاعة الاجتماعات، ورأى أكثر رجاله شأنا يقفون هناك بلا حراك كما لو أنّهم مقيدون بسلاسل، فقد انتظروه كي يعود منذ أن استشاط الخان غضبا قبل ساعات، لم يكونوا قادرين على المغادرة من دون إذنه.

لم يُظهروا أي دليل على قلة الصبر، وانحنوا له. لكن ألاندار لاحظ أنّ جرّة النبيذ قد فرغت، ولم يكن هنالك أي شيء آخر قد تغير، فقد جعل آريك بوك أكثر من عشرة رجال ينتظرونه طيلة ساعات الصباح.

مشى آريك بوك بينهم، ووصل إلى مقدمة الطاولة، ثم شتم عندما رأى إبريق النبيذ فارغا، انتزعه وسار به إلى البوابة النحاسية ودفعه إلى يد أحد حراسه قائلا:

«أحضروا المزيد من النبيذ». متجاهلا الرجل الذي حاول أن ينحني له ويمسك بالإبريق في الوقت ذاته. عندما استدار إلى قادة جيشه مرة أخرى بدت عيناه وكأنهما تقدحان شررا من الغضب، ولم يجرؤ أحد على النظر إليهما.

قال غاضبا: «أما الآن أيها السادة، فأعتقد أنّكم قد أُعطيتم الوقت الكافي كي تفكروا، تعلمون المخاطر التي ينطوي عليها الأمر». توقف للحظة قبل أن يكمل: «وجد رجال الكشافة لدي مراكزَ مدمرة لليام، ولم تتم الإجابة على أوامري، وقد توقفت الإمدادات من الشمال، فإن لم ينقلب أحد الجواسيس ضدي، فإنّ أخي كوبلاي قد أعلن الحرب على خانات. أخي الذي من دمي حرّض محاربيه ضد حاكمه الشرعي». ثم توقف ونظر إليهم نظرة خاطفة.

«هل أصبح العالم هادئا؟ هل أصبحتم كالأرانب في جُحر دخلت إليه أفعى، وليس لديكم شيء تقدمونه للخان؟ لا شيء؟!». صرخ عندما قال الكلمة الأخيرة، وبصق على الأرض. جميع الرجال في القاعة مقاتلون مخضرمون، إلّا أنّهم تراجعوا من حوله. أنفاسه الحانقة ملأت الغرفة بأكملها، فقد تنفس بغضب إضافة إلى أنّ الندبة على أنفه أصبحت حمراء.

قال آريك بوك: «أخبروني كيف من الممكن أن يصل جيش إلى خاناتي قبل أن نعلم بشأنه، فهل أسس جدي خطوط يام لتكون عديمة الفائدة؟ سألت مستشاري لأشهر عدة لماذا توقفت الرسائل عن القدوم إلى هنا، ولماذا تأخرت التقارير؟ سألت أعلى رجالي شأنا ما الخطأ الذي حدث وعزل كاراكورم عن بقية العالم بهذه الطريقة؟ والآن، لمَ لا تقولون لي كيف حدث مثل هذا الأمر دون أن نعلم به؟».

عاد حارساه يحملان إبريقين مليئين بالنبيذ، وواحدا إضافيا وذلك لدرء أية مشكلة.

انتظر آريك بوك ريثما صب النبيذ في كوبه، كرعه دفعة واحدة، وعندما أنهى كوبه الثاني، بدا أهدأ رغم أنّ تدفق الدم في عروقه جعلها بارزة في عنقه.

قال آريك بوك: «عندما ينتهي هذا سأقطع رؤوس أولئك الذين قالوا لي إنّه من غير الممكن أن تُدمر خطوط يام، فقد أعطوني شعورا زائفا بالطمأنينة وراحة لم يعرفها أي خان آخر. سأحصل على رأس السيد الغو وأعطي ابنته إلى مرافقيّ من أجل رياضتهم». أخذ نفسا عميقا، مدركا أنّ الصراخ على رجاله لن ينتج عنه أي شيء، وقال:

«أريد أن يعاد بناء محطات يام. سيأتي إليكم قائد الجيش ألاندار كي تقدموا له أفضل الكشافة لديكم ليصبحوا فرسانا في محطات يام. أحتاج إلى أن أعلم أين هم محاربو أخي الآن، وبذلك سأرد على خيانتهم بأكبر قوة ممكنة».

توجه إلى الرجال في القاعة ليتأكد من أنّهم رأوا احتقاره له، وفي النهاية قال:

«أخبرني ما هو عدد قواتنا يا ألاندار؟».

بدأ قائد الجيش في التكلم: «من دون القوات في أراضي روسيا أو شاغاتاي...»

قاطعه آريك بوك قائلا: «قل لي ما أملك يا قائد الجيش، ليس ما لا أملك».

أكمل ألاندار: «مئتي ألف محارب يا سيدي، وذلك إن تركنا الحراس فقط هنا كي يضمنوا السلام في المدينة».

فسأل آريك بوك: «ماذا عن أخي؟».

تردد ألاندار قبل أن يتكلم، فهو يعلم أنّ جوابه لن يتجاوز كونه تخمينا لعددهم ثم قال:

«من الممكن أنّه يملك ما يقارب الثمانين ألف محارب يا سيدي، على أية حال فقد أمضى سنواتٍ في حربه مع إمبراطورية سونغ ولا بد أنّه خسر العديد منهم. ربما ستين أو سبعين ألف محارب».

قال آريك بوك: «بل ربما قد خسر أكثر من ذلك يا قائد الجيش، فمن المحتمل أن يكون أخي قد خسر نصف قواته وهو يقرأ كتب تشن التي لديه، أو يتعلم كيف يرتدي ثيابا مثل عاهرات تشن».

قال قائد الجيش: «كما تقول يا سيدي. ليس بإمكاننا أن نعلم عددهم تماما إلى أن نعيد بناء خطوط يام».

قال آريك بوك: «إنّه لم يهزم إمبراطورية سونغ يا قائد الجيش ألاندار، بالكاد ثبت في مكانه لخمس سنوات منتظرا أن ينطلق الخان مونغ إليه ويساعده، ذاك هو نوع الرجل الذي نواجه، وهذا هو الخان المزيف، أخي الذي يقطع خطوط الإمداد وينطلق بثقة واهية يجول العالم، لقد خان أمّة جنكيز. ليس بعد الآن يا ألاندار، فقد اكتفيت من هؤلاء المحاربين الهشين الخائفين من أن يخبروني

أن الخانات تتداعى، سننطلق لنقابل هذا الأخ المثقف، وسأجعله يزحف عند قدمي قبل أن ننتهي من هذا».

قال ألاندار وهو يحني رأسه له: «كما تشاء يا سيدي».

قال آريك بوك وهو يومئ إلى أحد القادة العشرين الذين انتظروا أوامره بتوتر: «بإمكاننا القول إن الخائن كان في سمرقند منذ شهرين. أحضروا لي الخرائط أيها السادة. سنرى كم قطع من مسافة وهو يفر هاربا خلال هذا الوقت».

تبادل بعض الرجال النظرات، فهم يعلمون من خبرتهم أنّ بإمكان محاربين مغول نشيطين أن يتجاوزوا ألف ميل أو أكثر منذ ذلك الحين. اختار ألاندار أن يتكلم، فهو يعلم ذلك أكثر من الجميع إضافة إلى كونه الأكثر حصانة من غضب آريك بوك، فقال:

«سيدي، من الممكن أن يكون في أي مكان، نحن نعتقد أنّه أرسل قوات ضد باتو في الشمال، فمن المرجح أنّه قد قسّم قواته بالفعل، لكن ما نعلمه حتما أنّه سيأتي إلى كاراكورم».

قال آريك بوك: «إنّ هذه مجرد مدينة».

أجابه قائد الجيش: «إنّها مدينة توجد فيها نساء محاربيه وأطفالهم يا سيدي. سيأتي كوبلاي من أجلهم، ليس لديه خيار آخر؟».

وقف آريك بوك في مكانه مفكرا، ثمّ أومأ في النهاية وقال:

«أجل لدينا ذلك على الأقل، نحن نعلم إلى أين سيأتي، ونحن نملك أيضا شيئا ثمينا بالنسبة إليه، إنّ ذلك سينفع ليكون نقطة بداية يا قائد الجيش، لكنّني لا أريد أن أحارب بشكل دفاعي، إنّ قوتنا تكمن في الحركة والسرعة. ولن أدعه يحاصرني في مكاني هل تفهم ذلك؟ إنّ ذلك هو ما يفكر فيه عدونا، لذلك أريد أن أخرج من كاراكورم وأجده في أثناء تحركه. أريد أن أطارده كما لو أنّني في جولة صيد، وأقترب بهدوء من رجاله إلى ألا يتمكنوا من إيجاد مكان يهربون إليه».

أجاب ألاندار: «إنّ محطات يام الأقرب تعمل بالفعل يا سيدي. إنّنا نعيد العشرات منها إلى العمل كل يوم، وبما أنّنا قد علمنا الآن ما حدث لهم، فسيتم إنذارنا في أية لحظة يُرصد فيها محاربو كوبلاي».

قال آريك بوك: «لقد قيل لي ذلك من قبل يا ألاندار، ولن أعتمد على هذا مرة أخرى». أخذ نفسا عميقا وأكمل:

«أرسل المحاربين إلى خانات شاغاتاي، إضافة إلى كشافة ينطلقون بين المجموعات التي ستنقسم إلى خمس مجموعات للقتال، في كل منها أربعون ألف مقاتل يغطون كل الأراضي. أبقِ الكشافة في الخارج مستعدين لأول لقاء، عندما يرون الأعداء....» توقف، يحاول أن يجمّل الكلام المتعلق بأخيه الأحمق، ثم أكمل: «عندما يرونه لن يشتبكوا معه إلى أن تتجمع جميع القوات معا، سوف نضربه بقوة، هذا الخان المزيف. وسأكون موجودا لأشهد ذلك».

أجاب ألاندار: «كما تشاء يا سيدي. سأترك ألف رجل ليحرسوا المخيمات وكاراكورم، وفي البداية سأعيد تأسيس محطات يام بين المدينة وخطوط شاغاتاي». إنّ هذا لا يتعدى كونه تفسيرا للأوامر التي أُعطيت له، فوقف آريك بوك في الحال وقال:

«إنّ هذه مجرد مدينة يا قائد الجيش، لقد قلت لك ذلك، فأنا خان الأمة، ومدينة واحدة لا تعني لي شيئا».

تردد ألاندار قبل أن يتكلم إذ إنّ الخان لم يكن في مزاج يسمح له بالنقاش معه، لكن وجب عليه أن يتكلم، فموقعه بصفته قائدا للجيش يوجب عليه ذلك، وعليه أن يهدئ من روع الخان وغضبه المبرر بطريقة مناسبة، فقال:

«يا سيدي إن أرسل أخوك محاربين إلى الشمال، فمن المحتمل أن يكونوا خلفنا في حين أننا ننطلق لمجابهة القوات الرئيسة، ومن الممكن أن يدمر كاراكورم».

أجابه آريك بوك: «لديّ رهائن لأبقيهم بسلام إضافة إلى المدينة يا ألاندار، سأضع سكاكين على أعناق نسائهم وأطفالهم عندما يمسون أول حجر من أحجار كاراكورم. هل يرضيك هذا؟ أي قائد من قادة أخي قد يتخذ قرارا كهذا؟ لذلك فهُم لن يهاجموا المدينة خوفا من المذبحة التي ستحدث بعد ذلك».

وقف ألاندار غير مرتاح، لقد بدا متأكدا من أن آريك بوك سيلجأ إلى التهديد، وعلم أنّه من الأفضل ألّا يضغط عليه بهذا الأمر. لم يفكر أي خان من قبل في ذبح شعبه، لكن لم تحصل أي حرب سابقا، ليس منذ أن خان جوتشي جنكيز، لكن ذلك لا يُعتبر شيئا بالمقارنة مع ما يواجه آريك بوك، لذا قرر قائد الجيش ألا يقول شيئا، واختار أن يلتزم الصمت.

أومأ آريك بوك كما لو أنّ كلامه قد نال موافقة ثم قال:

«سأُبقي على عدد كافٍ من الرجال كي ينقلوا أوامري، فلتدع بعض الرجال الذين يعلمون كيف يحفظون قسمهم يقسمون على الولاء يا قائد الجيش. هذا كافٍ الآن، إنني أنتظر بفارغ الصبر كي أرد على الإهانة. أرسل رسلا إلى هولاكو، قل له إنّني أستدعيه كي ينفّذ قسمه، واحشد محاربيّ عند السهول، سأنطلق لأجد أخي كوبلاي، وسأختار الطريقة التي سيموت بها عندما نقبض عليه».

أحنى ألاندار رأسه، ولم يتمكن من التخلص من شعوره بأن الخان يقلل من شأن المحاربين الذين سيواجههم، فهُم بنفس سرعة رجاله، وبالرغم من تبجح آريك بوك، فإنه لم يدع نفسه يصدق أنّ مَن يقود الأعداء مجرد رجل أحمق، وباحث عن العلم، فإنّ الأحمق لن يقطع الإمدادات عن كاراكورم قبل أن ينفّذ هجومه، إضافة إلى أنّ باحث العلم لن يحرم الخان من أقوى القادة التابعين له ويدع آريك بوك يقف من دونهم قبل أن يبدأ القتال الحقيقي. بالرغم من ذلك كله فقد تعلم الانصياع منذ أن كان شابا إذ إنه قال:

«كما تشاء يا سيدي الخان».

37

بدا هولاكو منزعجا عندما تذكر قائد جيشه في أثناء وقوفه وحيدا في الصف الأول للمعركة. لقد قُتل كيتبوا منذ سنوات مضت، لكن ذكراه لا تزال قائمة عند المسلمين الذين تعهدوا بألّا يعترفوا بحكمه، فقد تبين أن قراره عندما سيطر على المنطقة بجعل المسيحيين يمتلكون المساجد أو يدمرونها كان قرارا خاطئا.

لم يكن يعلم أنّه سيعاني من هذا القدر الكبير من المشاكل في هذه الخانات التي اختارها، فبعد تدميره للمدينة أتى رجال كانوا قد سافروا لآلاف الأميال ليحاربوا من أجل الأرض التي سيطر عليها، ابتسم ابتسامة عريضة وهو ينطلق، فجدّه سبق أن قال إنه لا يوجد أفضل من هذه الطريقة ليقضي الإنسان حياته بها، فولايته لم تكن مستقرة ولم تنعم بالسلام كما لو أنّ الأعداء ينبتون من الأرض كل سنة. اعتقد أن هذا الأمرَ جيد بالنسبة إلى محاربيه، فقد حافظوا بهذه الطريقة على قوتهم وصلابتهم ضد الرجال المجانين سُمر البشرة الذين ماتوا وهم يصرخون باسم مدينة أو ينادون إلههم.

انبطح هولاكو على حصانه عندما فاجأه سهم آتٍ من مكان قريب، وقد اختار من أطلقه اللحظة بعناية.

بدت صفوف فرسان العدو غير واضحة عندما هاجم جناح الجيش. لم تكن لديه إلّا لحظات قبل أن يبدؤوا بالتصدي لمناورته المفاجئة. بإمكانه سماع أصوات صيحاتهم، تحت أشعة الشمس الحارقة.

بالكاد أومأ هولاكو لمحاربيه، فالتف فرسانه يستهدفون جناح جيش العدو، رفعوا الرماح في اللحظة الأخيرة، واندفعوا بسرعة بين الأحصنة والمحاربين، يدفعون برماحهم إلى الأمام قاطعين مئات من الخطوات بقوة داخل حشد العدو كما لو أنّهم سكين تنهش اللحم. انهار الفُرس أمامهم، هاجم

هولاكو يضرب على يمينه ويساره بقوة، كل ضربة تهدف إلى إسقاط أحد الأعداء أو قتلِه، فتساقط الرجال من خلفه.

سمع صوت إطلاق سهم معدني، فأصابه شيء ما في أعلى صدره مخترقا درعه ليضرب ترقوته بقوة، تأوه وتمنى ألّا تكون قد كُسرت مرة أخرى.

فقدَ شعوره في تلك المنطقة في حين أنه انطلق يضرب في صفوف الأعداء، وهو يعلم أنّ الألم سيأتي بعد هذا. كانوا يفوقون محاربيه عددا، لكنّ الرجال لا يزالون نشيطين وأقوياء، وبالكاد بدأ اليوم. لقد تمكنت قواته من جزء كبير من صفوفهم، فأشار إلى قادة فيالقه كي يتجمعوا ويفرقوا فرق العدو، بدا ذلك أشبه بعمل الراعي الذي يفصل الكبش الصغير من القطيع ويقوم بذبحه. تقدمت القوات الرئيسة من الفرسان والمشاة إلى مقدمة صفوف المغول يحملون الرماح مما أتاح له بعض الوقت.

مسح هولاكو العرق عن وجهه بيده المطخة بالرمال والدم، ورمش عندما أُصيبت عيناه بالعرق المالح. كان عطِشا، لكن عندما نظر حوله باحثا عن الفتيان على الجِمال الذين يحملون الماء لم يجد لهم أثرا.

في الوقت الذي وقف فيه يبحث عن الماء، أثارت حركة غريبة انتباهَه، وعندما أمعن النظر رأى مجموعة كبيرة من المحاربين ينطلقون بسرعة على منحدر باتجاههم، تحرك أولئك المحاربون بسرعة ورشاقة بالرغم من حرارة الجو، بإمكانه أن يرى أنّهم مسلحون بالسيوف والسهام.

أسرع هولاكو بالابتعاد عن ساحة المعركة الرئيسة لعشرين أو ثلاثين خطوة، محاولا التفكير في أفضل طريقة لمواجهتهم، إذ إنّ جميع محاربيه يقاتلون في تلك اللحظة، ولم تكن لديه أية مجموعات إضافية. تجهّم وجهه وقد استمرت قوات الفرس بالازدياد والتقدم اتجاهه، كما لو أنّ لا نهاية لأعدادهم. لمعوا تحت ضوء الشمس بدروعهم المصنوعة من النحاس والحديد، ورأى فرسانا يتقدمون على المشاة على أطراف الجيش.

لم ينتبه إلى جيش يختبئ في التلال، وأيا يكن القائد الذي أحضر محاربيه إلى هناك وخبأهم، فقد اختار لحظة هجومه بعناية. بلّل هولاكو شفتيه الجافتين بلسانه، وهو ينظر حوله محاولا أن يستوعب مجريات المعركة، يجب عليه أن يرسل عشرة آلاف مقاتل لملاقاتهم ومنعِهم من الانضمام إلى إخوتهم في المعركة.

سال العرق منه، ووصل إلى عينيه في حين انتهى الرجال من حوله من ذبح المئات من المحاربين الذين فصلوهم عن القوات الرئيسة. إنّه عمل لطالما برعوا فيه، إضافة إلى ثقة محاربيه بقوتهم وصلابتهم واعتيادهم على أعنف المعارك بعد السنوات التي قضوها في القتال.

استمر سيل الرجال المسرعين على التل بالتقدم، كما لو أنّهم سيل من الزيت.

بحث هولاكو عن فيلق بإمكانه فصله عن القتال، لكنّ الجميع يقاتلون بعنف ومنشغلون في المعركة. رفع الأفغان والفرس رؤوسهم عندما رأوا التعزيزات القادمة إليهم، وقاتلوا بضراوة أكثر، فهم يعلمون أنّ بإمكانهم أن يفقدوا قوتهم في النهاية ويرتاحوا قليلا لأنه سيتحتم على المغول أن يردوا على التهديد القادم. تراجع أحد الفيالق إلى الخلف بسبب آلاف المحاربين الذين صرخوا وتقدموا يجبرونهم على فك الحصار، فأفسحوا مجالا بالقرب منهم لمجموعة أخرى.

شتم هولاكو، فقد وجب عليه أن يستغل الفرصة، لكنّه رأى أنه من الخطر سحبُ أية مجموعة من الرجال، فالرجال الذين كانوا يقتلونهم سيندفعون خلفهم، فإن هو سحب مجموعة فسيعرض جيشه للتطويق، تخّيل التهديد الذي يعانون منه للحظة، ثم تمتم: «بحق دماء الآلهة». أسلوب كيتبوا القديم بالكفر الذي اعتاد على قوله فتأثر به هولاكو. لقد علم هولاكو أنّه كان سيلقى حتفه مع صديقه في الميدان ذلك اليوم، لسوء الحظ أن كيتبوا اضطر لمواجهة جيش ضخم في الوقت الذي كان فيه هو في كاراكورم يشاهد أخاه يصبح خانا.

لكن في النهاية دفعت القبائل ثمنا باهظا مقابل حياة قائد مغولي، وقد شهد ذلك من خلال حملة الانتقام الضخمة والمنظمة التي قام بها.

أشار هولاكو لحاملي الرايات لديه، ووقف يشاهد النتيجة عندما ارتفعت رايات القوات وتأرجحت بشكل دائري، استجاب المحاربون للرايات خلال لحظات فتوقفوا، وتراجعوا.

لاحظ هولاكو كيف توجهت أنظار الجميع إليه، فحاول ألا يُبدي الذعر الذي اعتراه في حين بدأ الأعداء يندفعون بقوة إلى الأمام.

صاح إلى رافع الراية قربه قائلا: «الراية الثانية، اشتبكوا مع العدو». كان لديهم عدد قليل من الإشارات، ولم تكن من بينها أية إشارة إلى القوات الجديدة المتجهة إليهم من التل، بالرغم من ذلك فإنّ محاربيه خبراء حرب، وسيعلمون أنّه لم يوقفهم عن القتال فقط كي يأمرهم باستئنافه.

استداروا على أحصنتهم، وبدؤوا بصعود الأرض المنحدرة، ابتسم هولاكو بارتياح، ثم تنفس الصعداء عندما لاحظ أنّ أعداد الأعداء مازالت تتزايد، فقد ظهر الآلاف منهم مرة أخرى، ثم شتم الوديان وطبيعتها التي مكّنتهم من إخفاء الآلاف من حوله عن أعين كشافته.

تقدمت صفوف الفرس في الأسفل وهم يصيحون بغبطة عندما بدا الأمر وكأنهم يلاحقون المحاربين الهاربين من الميدان، في تلك اللحظة قادتهم نشوتهم وقوتهم إلى جناح محاربيه كما خشي. أخذ هولاكو نفسا عميقا كي يصرخ بأوامر جديدة إلى مجموعة المحاربين المرافقة له المؤلفة من ألف رجل، صرخ عاليا: «فلتأتوا بالدعم، إلى صفوف المحاربين النحاسية. ائتوا بالدعم». صاح بالأوامر مرات عديدة مهرولا بحصانه. لقد كانت هنالك أعداد كبيرة من العدو، لكنّه لم يكن مستعدا للتراجع بعد، على الأقل ليس أمام هذا العدو، فمن الممكن أن تنقلب موازين المعركة وأن يهزمهم، وبإمكانه أن ينتظر إلى تلك اللحظة لذلك دعا من أجل تحدث.

كانت فيالق المحاربين النحاسيين تعاني من الضغط من الأمام والجانب، وأوشكت على أن تُهزم، وللمرة الأولى في ذلك اليوم أحس هولاكو بألم ناتج عن التوتر في معدته، واعتراه الشك في أنّه سيهزم، وهو الذي لم يسبق له أن خسر أية معركة ثابتة ضد رجال القبائل الهمج من قبل. رغم ذلك تحدوه كل عام، وأحضروا أعدادا أكبر وأخذوا يصيحون: «بغداد» و«الله أكبر» وهم يتقدمون للمعركة.

صرّ على أسنانه وقد انطلق لمساندة محاربيه، فمن غير الممكن أن تخسر فيالقه أمام هؤلاء الحثالة، أو لنقل إنّه يمكن أن يُهزموا ولكنّهم لن يُجبروا على الهرب.

انطلق المحاربون الذين كانوا برفقته، وتوزعوا في ساحة المعركة، خسر ألف مقاتل رماحهم وسهامهم في القتال، لكنّهم استلوا سيوفهم واشتبكوا مع العدو، محاولين السيطرة على أرض المعركة وهم يصيحون بصيحات القتال. ضرب هولاكو كل من حوله بكامل قوته، كان يهوي بسيفه على الخوذ وهم يرفعون الدروع ليتصدوا له.

بإمكانه أن يرى من خلفه القواتِ الجديدة التي تلتقي بقواته على المنحدر، وقد استطاع المحاربون المغول أن يتغلغلوا في صفوف الحشود برماحهم، لكن هولاكو شاهد كيف أخذ محاربوه يتقهقرون أمام الأعداد الهائلة، حوصر محاربوه من عدة أماكن كما لو أنّهم داخل شبكة صيد ممزقة، ليس بإمكانهم أن يثبتوا في أماكنهم، إضافة إلى أنّ الفرس الذين أخذوا يصيحون عاليا تدفقوا حولهم وفي داخلهم وتجاهلوا المئات من الرجال كي يصلوا إلى ميدان المعركة الأساسية.

شتم هولاكو وحوّل غضبه إلى ضربة سريعة قاسمة فتحت جمجمة رجل ملتحٍ عندما أتى صائحا محاولا إصابة هولاكو. كانت مهمته أن يحافظ على رباطة الجأش في المعركة، وألا يستسلم للألم والغضب اللذين يعتريانه. مازالت الصفوف على الهضبة تزداد وتتقدم إلى المعركة، فأحس بقشعريرة وبرودة في جسده بالرغم من الحر. لقد تمكن منه الشاه بشكل دقيق، وأجبره على الزج بجميع قواته في الميدان الرئيسي، ثم انطلق لتنفيذ الكمين مستخدما كل القوة التي لديه.

أفسح هولاكو مكانا، وبدأ بجمع قادة المجموعات بالقرب منه من أجل القيام بهجوم آخر في نقطة ضعف عندما رأى كشافته يسرعون على الأراضي المغطاة في الدماء يشيرون إلى وادٍ خفي على يمينه، فشتمَ هولاكو في سره، فإن كان هنالك جيش آخر فقد قُضي عليه لا محالة.

على الرغم من أنّه رتب أفكاره إلّا أنّه عندما رأى أول مجموعة من الجيش القادم من الوادي الظليل بالقرب من التلال التي كان عليها كشافته الذين سبقوهم، فرك هولاكو عينيه وفغر فاه، فما رآه كان مستحيلا، لكن أحسّ أن الحياة قد عادت إليه رغم ذلك؛ فقد أتت فيالق من محاربي المغول مسرعين وهم يحملون رماحهم إلى الأعلى وكأنها غابة من الأشواك. لقد عرف مَن هم من راياتهم، فهز رأسه بنوع من التعجب قبل أن يلتفت ليرى العدو، ومن ثمّ كشر عن أسنانه ببطء لكنّها لم تكن ابتسامة بل استعدادا لإنهاء القتال.

كان المحاربون في الهضاب يقودون أحصنتهم متقاربين، مجبرين على التجمع بسبب الوديان الضيقة المحيطة بهم في كل مكان، لكنّهم انتشروا عندما وصلوا إلى الأرض المفتوحة، فصاح هولاكو فرحا عند رؤيته مناورات يعرفها كما يعرف كل جزء من جسده. انطلق عشرون ألف محارب مغولي في طريق جديد نحو القوات القادمة من منحدر الهضبة، في حين زاد عشرون ألفا آخرون سرعتهم كي يصلوا إلى ساحة المعركة، واقتربوا من موقعه، وبدؤوا بضرب الفرس مثل مطرقة تنهال على صفوفهم.

رأى هولاكو السهام تنطلق منهم، وكانت أصوات الأقواس والسهام تصدح وهي تُطلق مرارا وتكرارا سهاما أعدادها بعشرات الآلاف تغطي السماء وتزداد باقتراب القوات. انهارت قوات الفرس بسبب الهجوم الجديد، ولم تستطع دروعهم إلا أن تحمي القليل منهم. وقف هولاكو على سرج فرسه، ليرى الرماح تنزل، ورأى أيضا صفا يتألف من خمسمئة محارب يضربون عدوه ويتجاوزنه ويسحقونه ويدمرونه.

صاح بحماس، وأصدر أوامر جديدة لقادة جيشه، فقد أصبح الفرس بين فكي كماشة، جعلته نظرة أخرى إلى الهضبة يرى كيف يذبح محاربو المغول الجددُ قواتِ الفرس هناك، كانوا يقضون على فرسانهم ويجتاحونهم ويسقطونهم أرضا بالسهام مرة تلو الأخرى.

انتهت المعركة، لكن بالكاد كان قد بدأ الذبح حينها.

رمى العديد من الفرس أسلحتهم، وحاولوا الهرب أو رفعوا أيديهم الفارغة إلى السماء، لقد وصلوا لنهايتهم. تم قتلهم عندما انطلق المحاربون إليهم إذ لم يقبل هؤلاء المحاربون أي استسلام، بل أطلقوا السهام عليهم وأصابوهم من مكان قريب.

رفع محاربو هولاكو رؤوسهم، ووضعوا القلق الذي أحسوا به جانبا، وقد أجبرتهم كرامتهم وفخرهم أيضا على أن يقفوا بشموخ في حضور رجال من شعبهم.

استمر القتل لوقت طويل إلى أن بدأت الشمس بالمغيب، وجُمع ما تبقى من رجال العدو وسيقوا في مجموعات أصغر، وقف الجرحى بين الرجال القتلى الملقين على الأرض، فاستخدم هولاكو رمحا مكسورا كهراوة عندما انطلق إلى أحد الرجال وكسر عنقه بضربة قوية، تراجع ذلك الرجل من شدة الضربة قبل أن يسقط.

مسح قادة الفيالق أرض المعركة بسرعة مثل النمل اللاذع يتجولون في كل مكان باحثين عن أهداف جديدة، إلى أن هرب آخر ما تبقى من العدو برعب آملين في أن يجدوا أي مكان يختبئون به.

بدأت الحرارة تنخفض مع غياب الشمس، فنزع هولاكو خوذته ليفرك فروة رأسه الرطبة، لقد كان يوما جيدا، وتحركت نسمات من الهواء الدافئ محملة برائحة الدماء.

أغمض هولاكو عينيه بارتياح ليريحهما للحظات، فشكر أب السماء من أجل الخلاص، ومن فرحه شكر إله المسيحيين أيضا. كان كيتبوا سيستمتع بالمشهد حولهم، لذلك بدا هولاكو متأسفا لأنه لم يعش ليرى هذا.

فتح عينيه عندما صدحت أبواق المغول بصوت النصر في أرض المعركة؛ صوت سمعه كل المحاربين، جعل هذا الصوت يديَّ هولاكو تصابان بالقشعريرة، فأطلق صفيرا من بين أسنانه كي يسترعي انتباه قادة جيشه، ووقف يشاهد راياته تُرفع، وأمر أعلى قادته شأنا بالقدوم إليه. استمر لحن النصر إلى أن ملأ الوادي، وصدح من كل اتجاه، فقد أحس هولاكو أنّ صوته عذب بالنسبة إليه.

بدأ محاربو هولاكو بتقاسم الغنائم من القتلى، واشتعلت عدة شجارات عندما أعلنوا أنّ الأسلحة والدروع من حقهم، وتنازعوا عليها مع القادمين الجدد، فضحك هولاكو عندما رأى الرجال يتدحرجون على الأرض ويتشاجرون على أرض كانوا يقاتلون عليها كالإخوة منذ لحظات، فهو يعلم أنّ شعبه عنيف كالذئاب.

عندما اجتمع قادة جيشه، رأى مجموعة تتألف من بعض العشرات من الفرسان تنفصل عن المحاربين المغول الجدد وتتقدم باتجاهه، رفرفت الرايات في الهواء في حين تقدم الفرسان نحوه بحذر بين الموتى.

قرأ أويانغ خاداي أرض المعركة عندما دخل إليها، وعندما قابل نظرات هولاكو علم الرجلان أنّ هولاكو مدين له، لذلك بالرغم من أنّ هولاكو أمير للأمة وخان في منطقته إلّا أنّه تكلم أولا تكريما للرجل الأكبر منه.

قال هولاكو: «كنت قد بدأت أعتقد أنّني سأحتاج إلى يوم آخر كي أقضي عليهم يا قائد الجيش، مرحبا بك هنا، أضمن لك حقوق الضيف، وأتمنى أن تتناول الطعام معي هذا المساء».

أجاب أويانغ خاداي: «أسعدني أنني كنت في الخدمة يا سيدي. لا شكّ لديّ في أنك كنت ستحظى بالنصر في النهاية، ولكن إن وفرت عليك عناء نصف يوم فهذا أمر جيد».

ابتسم الرجلان ومسح هولاكو العرق عن وجهه مرة أخرى ثم سأل:

«أين هو أخي كوبلاي يا قائد الجيش؟ هل هو برفقتك؟».

أجابه أويانغ خاداي: «لم يأتِ اليوم يا سيدي، رغم أنّني رجله وسأكون سعيدا بأن أشرح لك ونحن نتناول الطعام».

كانت الشمس تغيب في الوقت الذي غادر فيه المحاربون أرض المعركة. تم جمع الدروع الحديدية التي أصبحت ساخنة تحت أشعة الشمس بعد أن بردت.

تناقل العديد من الرجال قصصا كيف أنّهم رأوا محاربين موتى يتجشؤون، بل يقفون أحيانا متشنجين قبل أن يسقطوا مرة أخرى. لم يكن ذلك المكان بالمكان المناسب لقضاء الليل، وعلم هولاكو أنّه سيجب عليه أن يرسل الرجال إلى هناك لاحقا لينتهوا من السلب وجلب الغنائم، فقاد

أويانغ خاداي ومحاربيه إلى سهل عشبي يبعد بضعة أميال إلى الشرق بالقرب من حافة التلة تقريبا. لديه معسكر أساسي هناك، تم تجهيز الحساء للجميع قبل أن يرتفع القمر في السماء ويصل إلى أعلى نقطة له، إضافة إلى الخبز القاسي الذي بدا أنّه مناسب كي يُستخدم ملعقة أكثر منه طعاما.

بدا هولاكو بمزاج جيد ومليء بالحماس عندما نزع قادة أويانغ خاداي دروعهم ووضعوها على أحصنتهم، فعل مثلهم بدوره، فقد كانت سترته مبللة بالعرق، لكن من المريح أن يتخلص الرجل من درعه ويستمتع ببرودة الليل التي تنسل على ذراعيه العاريين ووجهه. جلس مقابل قائد جيش كوبلاي يتحرق فضولا، لكنّه أراد أن يدع الرجل يتناول طعامه وشرابه قبل أن يطالبه بالإجابات.

لا شيء يُتعب الرجال أكثر من القتال لذا فإن المحاربين لن يضيعوا فرصة تناول الطعام بعد المعركة إن سنحت لهم، كانوا رجالا مخضرمين على عكس الفرس القتلى الذين تركوهم خلفهم.

عندما أنهى أويانغ خاداي طعامه، أعطى وعاء الطعام إلى أحد الخدم، ومسح أصابعه بسرواله في المكان الذي ظهرت فيه بقعة شحم قديمة داكنة ثم قال:

«إنني رجل صريح يا سيدي، لذلك دعني أتكلم بصراحة». فأومأ هولاكو له.

أكمل أويانغ خاداي قائلا: «يطلب أخوك كوبلاي إليك أن تتنحى جانبا خلال المعارك التي ستحصل، فقد أعلن نفسه خانا وسيحارب السيد آريك بوك، وكل ما يطلبه هو أن تبقى في خاناتك، وألا تؤدي أي دور في الحرب».

توسعت عينا هولاكو جراء ما سمعه من الرجل الأكبر سنا، هز رأسه بدهشة، ثم قال بصوت أجش محاولا أن يستوعب ما سمع:

«آريك بوك هو الخان، لقد كنت هناك يا قائد الجيش وأقسمت له على الولاء».

قال أويانغ خاداي: «لقد قيل لي أن أخبرك هذا سيدي، إنّ أخاك كوبلاي يطلب إليك أن تبقى بعيدا ريثما يسوي الأمر مع أخيه الأصغر. ليست لديه أية ضغينة ضدك، ولن يدعك تختار بين أخويك في الدم خلال فترة الحرب».

جلس أويانغ خاداي يراقب هولاكو بأمل صامت. لم يعطه كوبلاي أية أوامر كي ينفذ هجوما، لكنّ محاربي أويانغ خاداي مستعدون أمام قوات هولاكو، وما إن يصدر صوت واحد منه

حتى يتمكن من قتل الآلاف منهم. بينما جلس محاربو هولاكو يبتسمون ويستريحون أمامهم، أدرك أويانغ خاداي أنّ بإمكانه الفوز.

أشاح هولاكو بناظريه إلى خارج المخيم. من المحتمل أنّه بدوره أيضا قد لاحظ التهديد الذي يحيط به، هز رأسه مرة أخرى وقد قست تعابير وجهه، ثم قال:

«لقد كنت مفيدا لي اليوم يا قائد الجيش، وأنا ممتن لذلك. لقد منحتك حق الضيف في مخيمي، لكنّ ذلك لا يعطيك الحق في أن تخبرني أين يكمن ولائي وما يجب عليّ فعله. عندما تشرق الشمس...». توقف قبل أن ينهي كلامه، تناقص غضبه في حين أن الحيرة بدأت بالتغلغل في رأسه ثم قال:

«كيف يُعقل هذا حتى؟ لم يعد كوبلاي إلى كاراكورم، كنت سأسمع بذلك لو أنه عاد».

استهجن كوبلاي وتنهد، ثم قال: «إنّ سيدي هو الخان يا سيد هولاكو. ولم يكن يجب على أخيك آريك بوك أن يعلن نفسه خانا، ستتم تسوية هذا الأمر خلال فصل، وستتجاوز الأمة هذا الأمر تحت قيادة الخان الشرعي».

سأل هولاكو: «لماذا لم يأتِ كوبلاي إليّ بنفسه؟ لماذا أرسلك أنت يا أويانغ خاداي؟».

أجابه: «لديه حرب ليخوضها يا سيدي. لا أستطيع أن أخبرك بكل مخططاته، لكنّني أتكلم باسمه إضافة إلى أنّ كل شيء أخبرتك به حقيقي، هو لا يطلب إليك أن تنكث عهدك، لكنّه من دافع حبه لك، يطلب أن تبقى بعيدا حتى تتم تسوية الأمر فقط».

أراح هولاكو رأسه على يديه يفكر، أراد أن يجر كوبلاي وآريك بوك من أذنيهما ويجعلهما يتصافحان ويتصالحان، وتمنى للمرة الألف لو أن مونغ لا يزال على قيد الحياة كي يقول له ما يجب عليه فعله، فقد أعطى قسمه، لكن ماذا لو كان آريك بوك مخطئا باستيلائه على منصب الخان؟ فقد سمع العديد من الناس يتكلمون عن هذا الأمر ويتساءلون لماذا لم ينتظر كوبلاي كي يعود إلى الديار، وها هي ذي النتيجة.

بالكاد تمكن هولاكو من استيعاب الأمر وأخذ يفكر في أن هناك احتمالا بحصول كارثة.

ففي أفضل الحالات، من الممكن أن يخسر أحد أخويه مما جعله يشعر بألم أشبه بسكين قد غرزت في صدره، وذلك بعد وقت قصير من خسارته لمونغ، وأسوأ ما قد يحدث هو أن تتمزق

الأمة وتتحارب بسبب هذا النزاع، ما يجعلها هدفا سهلا للأعداء المحيطين بها، وهذا سيدمر كل ما بناه جنكيز خان في جيل واحد. لم يكن هنالك أي صواب أو خطأ في الأمر، وليس هنالك أي ادعاء واضح من الاثنين يمكن القول عنه إنّه على حق. لكن أصبح آريك بوك الخان الآن، بصرف النظر عمّا قاله كوبلاي، فقد حُفر ذلك على الحجر ولا يمكن تغييره. اتكأ هولاكو على يديه، وانحنى أكثر وهو بالكاد يتمتم لنفسه: «إنّ هذه خاناتي».

أحنى أويانغ خاداي رأسه إليه وقال: «وستبقى كذلك يا سيدي. فأنت من غزاها واحتلها، ولن تؤخذ منك. لقد علم سيدي أنّك ستنزعج وينشغل بالك، إنّ ألمك هو ألمه، وهو يرغب في الحصول على تسوية سريعة».

قال هولاكو وهو بالكاد يهمس: «كان بإمكانه أن يتنحى جانبا».

أجابه قائد جيش كوبلاي: «ليس بإمكانه يا سيدي، فهو الخان».

سأل هولاكو وهو يرفع رأسه: «ماذا يعني ذلك الأمر لي يا قائد الجيش؟ ليست هنالك أية قواعد في هذه الحياة، لا يهم إن كتبها الحكماء أو صدرت عنهم فلا شيء يقيد الرجل أكثر من نفسه، لا شيء يحفظ الأكبال التي قبلها الرجل على نفسه إلّا ذاته، إنّ القوانين والعادات لا تعني شيئا إن ملكت القوة».

قال أويانغ خاداي: «إنّ لدى كوبلاي القوة يا سيدي، حتى إنّه يتحرك باتجاه كاراكورم في الوقت الذي أتكلم فيه إليك هنا الآن. ستتم تسوية الأمر قبل قدوم الشتاء بطريقة أو بأخرى».

اتخذ هولاكو قراره وعبس وجهه وقال:

«إن أخويَّ يلعبان لعبة لا أريد أن أكون جزءا منها، هنالك مدن قد انتفضت ضدي في الشمال، لذلك سأقضي هذا الفصل في حصارها وتدميرها، عندما أنتهي من هذا الأمر سأتجه شرقا إلى كاراكورم لأرى من يحكم هناك».

أحس أويانغ خاداي أنّ توتره قد زال بعد هذه الكلمات وقال:

«إنّ ذلك قرار حكيم يا سيدي، إنّني متأسف لأنني سببت لك الألم».

صاح هولاكو بسخط: «فلتجد مكانا آخر تجلس فيه يا قائد الجيش، لقد سئمت من رؤية وجهك، ستغادر هذا المكان عندما تشرق الشمس، فقد حصلت على إجابتك التي سألتزم بها».

وقف أويانغ خاداي وأجفل عندما آلمته ركبتاه فهو لم يعد شابا، وتساءل عما إن كان بإمكانه أن يثق بكلمات رجل لا يعترف بأية قوة أكثر من قدرته على التدمير والقيادة، لكنّ الإجابة الصحيحة هي أنّه ليس بإمكانه أن يثق به.

لوهلة، فكّر أويانغ خاداي في إصدار أوامره إلى الرجال الذين ينتظرون كلمة منه، فهُم على أتم الاستعداد، وبإمكانه بضربة واحدة أن يجرد الرجل من قوته ويزيله بدلا من أن يحتار بشأن التزامه بكلمته..

تنهد قليلا، ثم فكّر في أنّ بإمكانه قبول الكلمات التي أُعطيت له، ومن المحتمل أن يندم على هذا لاحقا. لكنّ كوبلاي خسر أحد أخويه بالفعل، لذلك انحنى أويانغ خاداي ثم مشى وجلس قرب موقد آخر.

علم أنّه لن يستطيع أن ينام تلك الليلة.

38

في أعلى الهضاب ذات اللون الأخضر الرمادي، لم يستطع كوبلاي أن يستريح، وقف ونظر بعيدا نحو سهول الوادي الواسعة التي بدت هادئة بشكل مخادع ومسالمة من هذا الارتفاع. تدفق الماء من مجرى إلى يمينه، بإمكانه أن يصل إليه ويتجرع ماء باردا في حال احتاج إلى ذلك. كان اليوم حارا والسماء صافية بلونها الأزرق وخالية من الغيوم، هذه أرض يعرفها جيدا، فبعد الكثير من الوقت في أراضي سونغ لا يزال وجوده في الديار يمس شغاف قلبه ويُشعره بشعور مختلف.

سمع صوت أحد رجاله وهو يلعن من خلفه في حين تسلق المحاربون الصخور المنزلقة. لم يلتفت كوبلاي، بل وقف في مكانه مرتاح البال وهو يحدق إلى الفضاء الشاسع، منغمسا في الشعور الذي تولد فيه نتيجة هذا الهدوء والفراغ. لقد سئم بعد أيام وليال من الركوب الشاق، رغم هذه السكينة فقد تمكّن منه حدث غريب، فشد على قبضته وارتعشت يداه.

إنّ آريك بوك في مكان ما هناك، بعيد عن ناظريه. لقد وضع كوبلاي خطته، وجهّز رجاله لكن الأمر آل به إلى الانتظار، فإن خرج آريك بوك من المدينة إليه فهم مستعدون له، وإذا قرر أن يبقى في المدينة، فسيسحقونه مثل ذبابة علقت في قطعة قماش.

بدا أمرا غريبا ألا يحظى بقادة جيشه برفقته بعد أن أمضوا كثيرا من الوقت معا؛ فما زال بايار في أراضي روسيا، أما أويانغ خاداي فهو في الهضاب البعيدة في طريق عودته من مهمته إلى هولاكو. لقد افتقدهما، لكنّه لم يفتقد أحدا مثلما افتقد ياو تشو، فقد كبر ذلك الراهب كثيرا، ولم يعد قادرا على الركوب مع المحاربين. لقد استقر ياو تشو في ديره في النهاية، أخذ الوقت والعمر أعظم مشاعل الأمة، هذا ما فكّر فيه كوبلاي، فأرسل دعاءه بصمت إلى السماء كي يرى صديقه مرة أخرى.

للمرة الأولى منذ سنوات، وقف كوبلاي وحيدا مع محاربيه، في وجه آريك بوك برفقة محاربي مونغ الذين أقسموا على خدمته، عبس كوبلاي عندما فكّر في ذلك، لكنّ القوة لن تجعل أخاه

يربح، ليس وحدها.

علم كوبلاي أنّ التواصل مع هولاكو مخاطرة، فمن المحتمل أن يكون أخوه قد أنصت لما وجب على أويانغ خاداي أن يقوله ومن ثم انطلق بسرعة للدفاع عن خانات آريك بوك. أعاد أويانغ خاداي كلمات هولاكو مرارا له، لكنّ كوبلاي يعلم أنّه لا يجب عليه أن يثق به، فإن تحرك هولاكو كي يدعم آريك بوك فإن هذا الأمر سيضيف سنة أخرى إلى مهمته، والأمر أيضا سيزيد من تكلفة الحرب وهي خسارة أخ آخر، لم تكن لدى كوبلاي أية شكوك أخرى، في الوقت الذي جلس فيه محاربوه يتمددون ويستريحون حوله، أرسل دعاء كي يحافظ هولاكو على كلامه، وأن يفكر بعقلانية ويبقى بعيدا عن هذا الأمر.

رفع كوبلاي رأسه عندما سمع صوت جلجلة أجراس من مكان بعيد في هدوء الجبال، لم يكونوا أيا من رسل يام هذه المرة، بل قطيعا صغيرا أرسله بعيدا برفقه اثنين من كشافته على أقدامهما، تمنى أن يكونا قد استطاعا الاقتراب من كاراكورم من دون أية مصاعب.

لم يتوقع أن يعودا قبل شهر آخر فقد نصب مخيمه في التلال بعيدا عن مدينة أخيه. حاول أن يخمّن ماذا تعني عودتهما السريعة هذه، لكنّه استسلم في النهاية، ونظر إلى أسفل المنحدر الشديد ورأى مجموعة صغيرة من الرجال يقودون الخراف والماعز أمامهم، وعلم أنّه سيستغرق وصولهم بعض الوقت وسينتظر قليلا قبل أن يعلم ما سيقولونه له.

التفت كوبلاي ليرى ولده وهو يتكئ بشكل خطير فوق الصخور ليشرب الماء من الجدول فقال: «احذر! إنّ الأرض زلقة هناك».

نظر زين جين بازدراء إلى فكرة سقوطه. فشرب من جدول الماء، مبللا سترته. ابتسم كوبلاي له، لكن عندما استمر بالنظر إليه نظرات محذرة، تسمّر زين جين في مكانه وتراجع إلى الخلف إلى أن تمكن من الاتكاء على الصخور بشيء من الراحة.

قال زين جين: «لقد سمعت الرجال يتحدثون عمّا أنت مقبل على فعله».

لم ينظر كوبلاي إليه وأجاب: «أنا متأكد من أنّك تعلم أنّه لا يجب عليك أن تنقل القصص إليّ».

غيّر الفتى الشاب وضعيته، فسحب إحدى قدميه إلى أسفله كي يتمكن بذلك من إراحة مرفقيه على ركبته التي رفعها، ثم قال:

«إنّهم لا يشتكون، كانوا يتحدثون فقط، هذا كل ما في الأمر».

حاول كوبلاي أن يكون صبورا، لكن لم يكن لديه أي شيء آخر يفعله قبل أن ينقل له جواسيسه التقرير فسأل:

«ماذا يقولون؟».

ابتسم زين جين له وقال: «يقولون إنّك ستصبح إمبراطورا عندما ينتهي هذا».

أجابه كوبلاي: «إن بقيت على قيد الحياة، فذلك صحيح، سأصبح خان الأمة، لكن إمبراطورا للصين».

سأل الفتى الشاب: «هل يعني هذا أنّني سأصبح إمبراطورا من بعدك؟».

حينها نظر إليه كوبلاي، وحاول أن يكبت ضحكته ثم سأله:

«هل هذا ما ترغب فيه؟ أن تحكم العالم؟».

أجابه زين جين وقد بدا كأنّه يفكر: «أعتقد.. أعتقد أنّني سأحب ذلك، أجل».

قال كوبلاي: «حسنا، سأبذل قصارى جهدي كي أجعل ذلك يتحقق يا بني. فدمك من دمي، وأنت قطعة مني، سأسمي ولي عهدي، وستكون أنت ولي العهد».

فسأل ولده: «ألهذا السبب نحن ذاهبون لنحارب؟».

ضحك كوبلاي قائلا: «هنالك أشياء أسوأ كي نحارب من أجلها». نظر خلفه إلى مرافقيه الذين يرتاحون في صدوع الجبل، غالبية رجاله مختفون في الوديان والصدوع خلفه، ثم أكمل:

«أعتقد أنّني سأصبح خانا أفضل من آريك بوك يا زين جين. إنّ ذلك سبب أيضا. إضافة إلى أن الأب يعمل من أجل أبنائه وبناته، فهو يهدر قوته وشبابه من أجل تربيتهم ومنحهم كل ما بإمكانه منحه، عندما تنجب أطفالا من لدنك ستفهم ما أتكلم عنه».

أخذ زين جين يفكر في الأمر بشكل جدي ثم قال: «سأبني المدن عندما أصبح إمبراطورا، سأكون محبوبا لا مهابا».

أومأ كوبلاي، وقال:

«أو ربما الاثنان يا بني، إن كنت محظوظا».

قال زين جين: «سأرغب في أن أغيّر العالم كما فعلتَ».

ابتسم كوبلاي، لكن كان هنالك جانب محزن في هذه الابتسامة، وقال:

«اعتدت أن أناقش مثل هذه الأشياء مع والدتي يا زين جين، لقد كانت امرأة ذات قدرات نادرة». غُمرتْ عيناه بذكريات الماضي عندما توقف لوهلة ثم أكمل: «هل تعلم، لقد قلت لها شيئا كهذا من قبل، قالت لي إنّ بإمكان أي أحد أن يغير العالم، لكنه لا يستطيع أحد أن يغيره إلى الأبد، فخلال مئة عام لن يبقى أي شخص مما نعرفهم على قيد الحياة، وعندها ما الفرق إن كنا أمضينا كل حياتنا نقاتل أو نستلقي تحت أشعة الشمس ونرتاح؟».

نظر زين جين إليه غير قادر على استيعاب مزاج والده الغريب، وسأل:

«إن لم تكن للأمر أية أهمية أو لا يشكل فرقا، فلماذا ننطلق لمحاربة أخيك؟».

أجابه كوبلاي: «ربما لم أعبّر عما قصدته بشكل صحيح، أنا أقصد أنّه ليست للأمر أهمية إن غيرنا العالم، فالحياة ستستمر وستأتي حيوات أخرى وتذهب، فقد قال جنكيز بنفسه إنّه سيُنسى ولكن صدقني أنّه ترك أثرا عظيما. فما يهم هو كيف نعيش يا زين جين، من المهم أن نعلم كيف نستخدم ما أُعطي لنا، خلال وقتنا القصير في هذه الحياة».

ابتسم عندما رأى ولده يحاول جاهدا أن يفهم الفكرة، ثم أكمل: «كل ما بإمكانك قوله عندما تحين النهاية: «إنّني لم أضيع وقتي في هذه الحياة» وأعتقد أنّ ذلك أمر في غاية الأهمية، وأنّ كل ما نفعله مهم».

قال زين جين: «إنّني أفهم ما تقول».

اقترب كوبلاي منه وفرك رأسه بقوة وقال:

«لا أعتقد أنّك تعي ما أقول، لكن ستفهم يوما ما، ربما في غضون سنوات». ثم نظر إلى الصدوع التي تسلقها رجاله ببطء وقال: «استمتع بهذه اللحظات الهادئة يا زين جين، فعندما يبدأ القتال ستشكل هذه اللحظات ذكرى سعيدة».

سأل زين جين وهو ينظر إلى عيني والده: «هل بإمكانك أن تهزمهم؟».

أدرك كوبلاي أنّ ولده خائف، فاسترخى وابتسم مجيبا: «أعتقد ذلك، أجل. لكن ما من شيء مؤكد».

فأكمل زين جين راغبا في الحصول على رد فعل عندما قال: «لديهم محاربون أكثر مما لدينا».

ضحك كوبلاي وقال: «دائما ما يفوقنا الأعداء عددا، لا أعتقد أنّني كنت سأعلم ما يجب عليّ فعله إن واجهت جيشا أصغر من جيشي». أدرك أنّ التكلم بهدوء وخفة لم يطمئن ولده، لذا أصبحت نبرة صوته جادة وقال: «أنا لست أول رجل يحاول أن يفكر في طريقة تقلب أفضلية محاربين مغول عليهم. على أية حال، أنا أول من سيقوم بذلك. فأنا أعلم التكتيكات التي يتبعها المغول أكثر من أي رجل على قيد الحياة، وأعتقد أنّه بإمكاني أن أجد بعض التكتيكات الجديدة، إضافة إلى أنّ محاربي أخي أمضوا سنواتهم الأخيرة بهدوء ومدللين حول المدينة، أما محاربونا فاعتادوا على القتال في كل يوم وكل خطوة، واعتادوا على الانتصار أيضا، سنلتهمهم أحياء».

ابتسم ولده أمام تبجحه، فضحك كوبلاي له وقال:

«فلتتدرب على حركاتك الآن يا زين جين، فلن نبرح مكاننا لفترة».

وقف ولده متأففا لكن بما أنّ والده يراقبه، فقد وجد مكانا مستويا في الصخور وبدأ يتدرب على سلسلة من الحركات والضربات التي علمه إياها كوبلاي من قبل.

لقد علّم ياو تشو هذه الحركات لكوبلاي منذ سنين، فقد لقّنه كلا منها إضافة إلى أسمائها وتاريخها.

راقبه كوبلاي بنظرات فاحصة، متذكرا عدم رضى يا تشو عن حركاته، لم يكن هنالك أي مجال للوصول إلى الكمال في هذه التقنيات، لكن دائما ما كان الهدف هو جعل كل ضربة وتصدٍّ والتفافة أقرب ما يمكن إلى الإتقان والكمال.

«حرّك رأسك للخلف قبل أن تتحرك». قال كوبلاي في حين تردد زين جين، وأجابه من دون أن يحرك رأسه: «ماذا؟»

أجابه كوبلاي: «يجب عليك أن تتخيل العدو قادما إليك من أكثر من جهة، تذكر أن الأمر ليس رقصة، فالهدف من هذا هو أن تكسر عظمة في كل ضربة وتصدٍّ، تخيلهم في كل مكان حولك

وتصرف تبعا لذلك».

صاح كوبلاي مشجعا عندما أدار ولده رأسه بسرعة ثم سدد ركلة تخيلية قوية ناحية الأعلى باستدارة ودقة ممتازين. بينما تابع كوبلاي مشاهدته، غرز ولده سكينا في حلق عدو خفي إذ امتدت يداه إلى الأمام وضرب بقوة.

صاح كوبلاي له: «اثبت في مكانك واستخدم ساقك الخلفية». شاهد كيف حسّن زين جين من وقفته، وانحنى قبل أن يكمل حركاته، فنظر كوبلاي بفخر إلى ابنه مفكرا في أنّه سيكون من الجيد أن يسلمه إمبراطورية.

استطاع آريك بوك أن يشتم رائحة عرقه في أثناء انطلاقه على حصانه، الرائحة المزعجة لحيوان صحي. لم يسمح لنفسه أن يصبح ضعيفا عندما أصبح الخان، لم يكن جسده القصير رشيقا من قبل لكنّه قوي، وافتخر أيضا أنّ بإمكانه أن يرهق الرجال الأصغر منه سنا في أية مسابقة. لقد تعلّم أمرا مهما وأساسيا منذ سن مبكرة، فالقدرة الكبيرة على التحمل أمر مهم مثل أية قدرة جسدية أخرى. تمتم بينه وبين نفسه وهو راكب، بدا تنفسه كالشخير الذي خرج من أنفه المحطم.

لقد امتلك الإرادة والقدرة على تحمل الألم والتعب، ودفع نفسه إلى ما بعد حدود الرجال الضعفاء. منذ اليوم الذي سمع فيه بخيانة كوبلاي له لم يبارحه الغضب العارم للحظة واحدة، فلم تعن الأوجاع والآلام شيئا بالنسبة إليه في الوقت الذي كان فيه أخوه يعبر السهول متحديا إياه.

أخذ محاربوه حماسهم منه منطلقين بعزم وشراسة وقد قسّموا الأراضي على أربعة أقسام يبحثون عن أي أثر للخائن. بالكاد عرف آريك بوك الرجال الذين برفقته، لكن ذلك ليس بالأمر المهم طالما أنهم أظهروا الطاعة لخانهم. تفرق قادة جيشه في الخارج قاطعين مسافات هائلة، يقود كل منهم محاربيه الأربعين ألفا وهم موقنون من أنّ أي اثنين منهم مجتمعين سيماثلون بلا أدنى شك الأعداد التي أحضرها كوبلاي معه إلى الميدان، فقد بدا آريك بوك متيقنا من هذا تماما، وكان واثقا بأنه عندما يجمع هذه الجيوش الخمسة معا مثلما يجمع أصابع اليد الخمسة في قبضة واحدة فإنه سيحطم غرور أخيه بلا شك.

لقد استمتع آريك بوك بالطريقة التي فكر كيف سينتقم بها من أخيه، فقد كان هنالك العديد من الرجال في الأمة من الذين اعتقدوا أنّ بإمكانهم حكمها، فحتى أبناء جنكيز تحاربوا، وقد قُتل الخان غويوك عندما كان يصطاد، رغم أنّ آريك بوك شكّ في أن مونغ هو من دبر هذا، لكن هذه الأمور أصبحت من الماضي.

بإمكانه أن يجعل من مقتل كوبلاي كشفرة حادة تغلق هذا الجرح، سيجعل منها قصة تنشر الرعب في أي مكان التقى فيه أعداؤه وفكروا في أن يتآمروا ضده، فمن المناسب أن يجعل من كوبلاي عبرة للجميع، إذ سيقولون إنّ الخان قد مزّق أخاه الذي من لحمه ودمه وسيشعرون بالخوف. أومأ آريك بوك لنفسه، مستمتعا بأفكاره والشعور الذي يشعر به، ولكوبلاي أيضا زوجة وأبناء سيلحقون به عندما يقتلهم بعد أن يقضي على هذا التمرد.

عندما رأى كشافته يتسابقون إليه من الشرق، جلس منتصبا على صهوة حصانه. كان المحاربون الذين انطلقوا برفقة الخان المجموعة الأساسية من بين الخمس في حين قاد قائد جيشه ألاندار الجناح الأيمن الذي انطلق نحو الجنوب. أحسّ آريك بوك بأن حرارته ترتفع عندما بدأ يتنفس بشكل أسرع، فقد علم ألاندار الأوامر، ولن يرسل الكشافة إليه إلّا إن كان قد رأى العدو وحدد مكانه.

تسابق الرجال على أحصنتهم بعد أن تجاوزوا الصفوف الأولى من محاربيه، التفوا متجهين إلى المكان الذي رفرفت فيه رايات آريك بوك. شاهدهم الآلاف عندما وصلوا إلى مكان الخان، فترجلوا عن أحصنتهم ليصلوا إليه، قطع مرافقوه الطريق على الكشافة مستخدمين أحصنتهم ومنعوهم من الاقتراب أكثر من الخان، فقد انتشر خوف جديد في الأمة بعد مقتل الخان مونغ بمثل هذه الطريقة.

لم يرغب آريك بوك في الانتظار إلى أن يتم تفتيش الكشافة حتى يدعوهم يمرون إليه. وقف أقرب رجل من الكشافة على بعد بضعة أحصنة منه فصاح يسأله عن الأخبار. أومأ الكشاف له وقال: «لقد تم رصدهم يا سيدي الخان على بعد أربعين ميلا أو أقرب من ذلك».

كان هذا كل ما يريد الخان أن يسمعه، فصرف الكشافة، وأرسلهم كي يعودوا إلى سيدهم ليخبروه أنّهم قد أوصلوا التقرير إلى الخان، كان كشافة آريك بوك مستعدين لتلقي الأوامر، فبمجرد أن سمعوا الأمر امتطوا أحصنتهم وأسرعوا في طريقهم، وتبعا لذلك ستنقل الأخبار التي ستجتذب كل المحاربين إلى الخان، أولئك الذين شكلوا أخطر قوة محاربة انطلقت إلى الميدان على الإطلاق. ابتسم آريك بوك مكشرا عن أنيابه، والتف على حصانه منطلقا إلى الشرق بأقصى سرعة، ستتبعه كل المجموعات إلى مكان كوبلاي كي تشكل رمحا يقضي على آمال أخيه.

نظر إلى الشمس وهو يحسب الوقت الذي سيستغرقه ليلتقي بعدوه، لكن الحماس الذي اعتراه خفت بعد أن اشتعل فجأة، فقد قطع الكشافة الذين أتوا إليه نحو أربعين ميلا بالفعل؛ ما يعني أنّ لدى

قوات كوبلاي نصف يوم يتصرفون فيه كما يشاؤون، وإلى أن يصل محاربو آريك بوك إليهم سيكون الظلام قد حلّ أو أشرفت الشمس على المغيب على الأقل.

بدأ آريك بوك بالتعرق مرة أخرى متسائلا عن هي الأوامر التي يجب عليه أن يصدرها كي يهاجم قوات لم يرها بعد، قوات ستكون قد انتقلت من مكانها عندما يصل إلى منطقتها، كبّلته الشكوك وهو يفكّر في خطته المحكمة، لكن إن لم يتمكن من جذب أخيه إلى معركة قبل اليوم التالي فلن تكون تلك الخطة المحكمة ناجحة في النهاية.

حدّق كوبلاي في نقطة واحدة عبر التلال البعيدة ينتظر إشارة تأكيد من هناك، فرأى ومضات ضوء صفراء مرة أخرى تظهر وتختفي خلال لحظة، تنهد وحاول أن يتنفس بهدوء.

لقد رمى الطعم والآن عليه أن يشاهد كيف يقعون في الفخ.

صاح لكشافته قائلا: «أجيبوهم برايات حمراء». فلا بد من أنّ الرجل الذي أرسل الإشارة ينتظر الرد على بعد أميال، أبقى كوبلاي ناظريه على المكان في حين رفع رجله قطعة قماش حمراء بطوله ولوّح بها قبل أن يرميها أرضا.

«انتظر.. انتظر.. فلترفع الراية الصفراء الآن». أمره كوبلاي، وأحسّ بأنّ توتره يخف بما أنّ خطته تسير كما أراد. لم تكن الرايات مثل هذه شيئا جديدا للتواصل عبر المسافات الطويلة من وادٍ إلى واد عن طريق رجال في القمم. رغم ذلك فقد شذّب كوبلاي هذا الأسلوب مستخدما نظاما من خمسة ألوان من الرايات يمكن دمجها لتنقل الكثير من المعلومات، ولا بد من أن يكون الرجل في التلة الأخرى قد رأى الرايات ونقل الرسالة إلى أماكن أبعد وبفعالية أكثر من أي حصان قد ينطلق لينفذ المهمة.

قال كوبلاي: «حسنا». نظر رجل الكشافة إلى الأعلى باتجاه كوبلاي، لكنّ كوبلاي كان يتكلم مع نفسه حين قال: «لنر الآن إن كان محاربو أخي صبورين بما يكفي ليقاتلوا من أجل خان ضعيف».

39

تمتم ألاندار غاضبا عندما رأى كشافته قد عادوا متجهين إليه، توقعوا أن يقف في مكانه حالا كي يسمع الأخبار التي سيطلعونه عليها، لكن بدلا من ذلك وجب عليه أن يزن أوامره، ويتخذ أفضل القرارات، ويضع أفضل الاستراتيجيات، فهو في وضع لا يُحسد عليه، ولم يستمتع بصباحه.

تبعد كاراكورم أكثر من مئتي ميل خلفه، إنه مشتاق إلى لذة النوم وتمضية الليالي تحت النجوم، حيث يستيقظ متيبسا ومتجمدا من البرد. امتطت جموع المحاربين الذين يرافقونه أحصنتهم مسرعين يمسحون الأراضي، وظلوا على اتصال مع آريك بوك، لكن ألاندار لم يتمكن من إزاحة الشك والخوف اللذين تغلغلا فيه، فكل ما عرفه عن كوبلاي يُظهر أنّ الرجل لم يكن أحمق، ولكنّ آريك بوك بدا متيقنا من أنّه سيصطاده كما يصطاد غزالا في رحلة صيد، توقع رجال ألاندار من سيدهم أن يأمرهم بالهجوم والاشتباك مع العدو في أول فرصة يلاقونه فيها، وأحسّ بنظرات كشافته المتسائلة عندما وقفوا ليبلغوه تقريرهم، لكنّه لم يقل شيئا بل نظر أمامه، وانطلق على حصانه.

كان قادة جيشه الأربعة بالقرب منه، فصفّر مستدعيا إياهم إلى جانبه.

انطلق القائد القوي فيريغ بشعره الأشيب-الذي يمتلك خبرة تربو على عشرين عاما أمضاها في خدمة ثلاثة من الخانات- بسرعة عابرا الصفوف ملبيا نداء استدعائه. عندما وصل إلى قائده سأله: «هل لديك أية أوامر جديدة يا قائد الجيش؟».

أجابه ألاندار: «ليس بعد، لكنه يبدو فخا».

ثم نظر القائد بشكل فطري إلى المكان الذي شوهدت فيه قوات كوبلاي تمشي بسرعة في طريق طويل بين واديين، لقد التقوا بهم لفترة قصيرة، لكنها كانت كافية لتتيح لكشافة ألاندار الإسراع في نقل الأخبار، تلك الأخبار التي ستصل بدورها إلى المجموعات في الخطوط الخلفية.

قال فيريغ: «لا يجب عليك الرد يا قائد الجيش». ألقى ألاندار نظرة سريعة ليرى خيبة الأمل التي اعترت ملامح الرجل الأكبر سنا. ثم أكمل فيريغ: «دع الخان يقرر ما ينبغي فعله عندما يعود مصطحبا معه القوات».

قال ألاندار: «لن يعود قبل أن يحل الظلام».

ابتسم فيريغ وقال: «لن يُحدث يوم إضافي فرقا».

فسأله ألاندار: «أتعتقد أنّ هذا فخ؟».

أجابه الرجل: «هذا محتمل، فبالكاد لمحنا مجموعة صغيرة لا يتجاوز عددها الستة أو السبعة آلاف محارب، ربما يريدوننا أن ننطلق خلفهم ونشتبك معهم، ثم ينصبوا لنا فخا. هذا ما كنت سأفعله لو كنت مكانهم».

ارتفع ألاندار بقدر ما استطاع على سرج حصانه ونظر إلى التلال المحيطة بهم، وقال:

«إن كان هذا فخا، فلا بد أنّ لديهم قواتٍ كبيرة في مكان قريب من هنا، متأهبة كي تظهر في اللحظة التي نتحرك فيها».

إنه في موقف لا يُحسد عليه، وقدّر فيريغ المأزق الذي وقع فيه. توقع الرجال من قادتهم أن يُظهروا الشجاعة، ويتخذوا القرارات بسرعة، فقد سمعوا الأخبار وهم ينتظرون الأوامر كي ينطلقوا بسرعة وقوة، لكنّ ألاندار لم يتكلم، فإن وقع ضحية حيلة ما فهو سيخاطر بحياة محاربيه، إضافة إلى أنّه سيخاطر بأن يصب آريك بوك جام غضبه عليه، ولكن إن التقى بذيلِ جيش كوبلاي ولم يغتنم الفرصة، فإنه سيبدو أحمق أو جبانا. إنه محتار بين خيارين أحلاهما مرّ، لذلك لم يفعل شيئا، وترك الأمر للوقت كي يتخذ القرار عنه.

استرعت انتباهه سحابةٌ من الغبار تتطاير في الهواء إلى يساره، التفت ألاندار إلى الخلف محدقا إليها، فتغيرت ملامحه عندما تبين له حقيقة ما كان ينظر إليه، وقال:

«قل لي إني محق، وإنّني أرى سحابة غبار تتطاير خلف هذه الهضاب يا فيريغ».

نظر القائد إلى الهضاب محاولا أن يرى أكثر، إذ لم يعد نظره حادا كما كان عليه، لكنّه صنع منظارا بيديه، محاولا أن يركز أكثر على المكان الذي أشار إليه ألاندار، وهي حيلة كشاف قديمة ثم قال:

«لن تثير سحابة كهذه إلا قوة كبيرة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار المكان الذي كنا فيه، فلا بد من أنهم يتموضعون في مكان يتيح لهم ضرب جناح جيشنا».

تنهد ألاندار بارتياح، بعد أن أيقن أنه سيحظى بانتصار وقال لفيريغ:

«أعتقد أنّنا سنشهد بعض القتال اليوم، أرسل خمسة آلاف محارب خلف المحاربين الذين رأيناهم بين التلال، دعهم يعتقدون أنّنا خُدعنا، أما القوات الرئيسة فبإمكانها عبور الممر هناك». وأشار إلى ممر بين الهضاب الخضراء، سيتيح له الالتفاف على العدو ومهاجمة القوات التي انبعثت سحابة الغبار من تحركها. ثم تابع: «اذهب ببطء أيها القائد، فإن كانت هذه قوات كوبلاي الرئيسة، فسنبقى بعيدين عن مجال الاشتباك، مستعدين للانسحاب من المعركة، وسيتيح لنا هذا تثبيتهم في مكانهم إلى أن يصل الخان».

نظر ألاندار إلى الخلف ناحية الشرق، فلا بد من أنّ بقية قوات آريك بوك تتحرك من الشرق وتتقدم نحوهم بهدف تقديم الدعم، وقال: «يجب أن يصل أربعون ألف محارب إلى هنا قريبا، يليهم الخان برفقة محاربيه. ستصل الفرقة الأخيرة في وقت ما بعد ظهر الغد، وسأصدر أوامر جديدة عندما يصلون إلى هنا».

أحسّ فيريغ أنّ قائد الجيش قد هدأ وارتاح بعد أن أصبح قادرا على اتخاذ القرار، فأحنى رأسه بعض الشيء يستمتع بفكرة أنّهم سيُربكون أولئك الرجال الذين اعتقدوا أنّ بإمكانهم خداع جيش الخان.

انطلق خمسة آلاف محارب إلى الأمام باتجاه أول واد، ثم أعطى ألاندار الأوامر لقواته الرئيسة كي تنعطف وتندفع لتستقر بين التلال، فانطلق محاربوه بسرعة، وبدت السعادة عليهم بعد أن علموا أنّهم سيخدعون الأعداء. لقد رأى الجميع حينها الأثر الخفيف من الرمال، وتخيلوا الحيرة التي سيصاب بها الخان المزيف عندما يلاقونه من جهة أخرى، وينقضون على جناح جيشه مثل الذئاب.

كان ألاندار في الصفوف الأولى التي عبرت الممر، معتقدا أنّه اكتشف الحيلة التي أقدم عليها كوبلاي، لكنّه لا يزال واعيا إلى أنّ أعداد قوات كوبلاي تفوق أعداد قواته، إلا أنه لم يتمكن من التخلص من شعوره بالرضى خصوصا وأنه سيستطيع نصب فخ لأولئك الذين أرادوا خداع جيشه. فهو لم يصل إلى قيادة جيوش الخان عن طريق ارتكاب الأخطاء أو كي يرتكبها. فكّر لوهلة في قائد

جيش مونغ سيريانك الذي أزيح من منصبه بموت سيده، وكيف أصبح يقاتل في الصفوف الخلفية. اعتقد ألاندار أنّ الرجل محظوظ لأنه تمكن من الحفاظ على حياته.

دخل ألاندار الممر الذي أحاطت به من الجانبين منحدرات شديدة، ففي مكان ما أمامهم هناك مجموعة من المحاربين، انطلقت كي تفاجئ قواته كما ظنت.

عندما وصلوا إلى نهاية المعبر، انحنى على صهوة حصانه، وأنزل يده إلى سيفه الطويل المعلق على جانبه، عندها بدأت الأرض تظهر جلية أمامهم، وتمكن من رؤية وادٍ أخضر أمامه تحت ضوء الشمس. استطاع سماع أصوات معركة من بعيد، فقد التقت قواته بالقوات الزائفة التي يُفترض به أن يهاجمها، فجهّز محاربوه أقواسهم مستعدين لإطلاق وابل من السهام.

ركبوا لفترة من دون الإمساك بصهوة أحصنتهم، مستخدمين ركابهم لقيادة الأحصنة بالرغم من أنها كانت تسير مسرعة، تسارعت دقاتُ قلب ألاندار بالتزامن مع تسارع إيقاع حوافر أحصنته. في هذا اليوم، لن يستخدم سهامه بالرغم من أنّ لديه قوسا وسهاما معلقة قرب صهوة حصانه، أحسّ بالإثارة التي أحسّ بها أيضا الرجال من حوله، بدت نسمات الهواء القوية باردة فجأة عندما تجاوز الممر، وتعرض الصف الأول من محاربيه لضوء الشمس. لقد كان قائدا لمحاربين شجعان لا يخشون شيئا وهذا ما أشعره بالفخر، ومضى قُدما ليلقي أول لمحة على العدو.

تفاجأ محاربو ألاندار وشعروا بخيبة الأمل عندما التفوا أسفل التل، وأصبحوا قادرين على النظر إلى الوادي الذي امتد نحو الشرق، صاحوا وأشاروا إلى بعضهم بعضا وهم يتقدمون، لقد صاحت آلاف الحناجر صيحات خيبة أمل لأنّ الأعداء قد اختفوا.

رأوا في الوادي آلاف الأحصنة، ولم يحتج الأمر إلى محارب خبير كي يعرف أن محاربي كوبلاي من المغول لم يمتطوا هذه الأحصنة. فغر ألاندار فاه عندما رأى مجموعة من الفتية العرب يصيحون ويضربون أعدادا من الحيوانات التي رُبط بذيل كل واحد منها غصن شجرة، وكانت الحيوانات تجرها على الأرض الرملية.

أحسّ ألاندار بألم في معدته من الخوف. فإن كانت السحابة والأحصنة من أجل التمويه والتضليل فأين هي قوات كوبلاي الآن؟ أبطأ من سرعته من دون تفكير تقريبا، وفعل محاربوه الشيء نفسه إلى أن أصبحوا يسيرون خبوا، بدا التوتر عليهم عندما عرفوا بالكمين الذي وقعوا فيه، فقد علموا أنّه تم الإيقاع بهم، لكنهم لم يروا الخطر بعد.

ارتجف ألاندار على سرج حصانه عندما تناهى إلى سمعه صراخ وأصوات أبواق تحذيرية، لا تزال قواته تتحرك في المعبر بين التلين. وعندما أدرك أن هناك خطبا ما يحدث خلفه على بعد نصف ميل أخذ يشتم بصوت عال، وسحب لجام حصانه بشدة ليوقفه عن الحركة. بإمكانه أن يسمع أصوات الأقواس التي تطلق السهام عند مدخل الوادي، وتخيل أوتار الأقواس تُسحب إلى الخلف مصدرة أصواتا أشبه بطنين النحل.

في البداية عجز عن التفكير، أضف إلى ذلك أنّ الوادي ضيق جدا لا يتيح لمحاربيه إمكانية الاستدارة والعود إلى الخلف، ولكنهم كانوا في مرمى أسلحة العدو. رفع ذراعه وأمر قواته بالتقدم، فإن استطاع أن يُخرج كل قواته من الممر فإنه سيستطيع المناورة مرة أخرى، انطلق المحاربون إلى الأمام متجاهلين الفتيان الذي جلسوا على أحصنتهم يصيحون ويسخرون منهم، تمددت صفوف محاربيه إلى الخارج فرأى ألاندار حركة على جانبه الأيسر.

شعر بالإحباط، وبالكاد استطاع أن يصيح عندما لاحظ الموقع الذي وصلوا إليه. ابتعد بحصانه عن الصفوف ورافقه عشرة من حراسه الشخصيين، في حين استمر محاربوه بالتقدم، وخرج خلفهم المحاربون من المعبر، في تلك الأثناء شعر بالألم يعتصر قلبه.

كان هنالك محاربون مغول ينطلقون بأقصى سرعتهم من الهضاب متجهين مباشرة لضرب جناح جيشه.

لم يتمكن ألاندار من القيام بأي شيء سوى الصراخ محذرا، رغم ذلك فقد كان رجاله في خطر، ويتعرضون للهجوم من الخلف والجانب في الوقت نفسه.

استل سيفه مكشرا، فقد جره الأعداء إلى النقطة التي أرادوها، لقد انتهت الألاعيب الآن وحان وقت القتال، صاح قادة مجموعاته بالأوامر، فانطلق أول وابل من السهام مستهدفا القوات التي هاجمت جناح جيشه، إنّ هذه هي الأفضلية الوحيدة التي تمتع بها مقارنة بأعدائه، فبإمكانه أن يحضر المزيد من الأقواس كي تطلق باتجاه صفوفهم الأمامية.

عندما وصلت إليهم أول مجموعة من السهام، بدؤوا بتوسيع صفوفهم ليصبح في كل صف خمسين محاربا.

شاهد ألاندار مصدوما رفعَ الأعداء لدروع ثقيلة تصدوا من خلالها للسهام، لم يسبق له أن رأى محاربين من المغول يحملون مثل هذه الأشياء الثقيلة في معركة، إذ إنهم استعملوا الأقواس

التي اضطرتهم لأن يستخدموا أيديهم طوال الوقت. وجه قادتُه الرجال لمواجهتهم بالفعل، فانتقلت الأوامر بسرعة إلى قادة الفيالق والمجموعات وقادة كل مئة محارب من المحاربين، بدّل محاربوه تشكيلتهم ليصبح جناح الجيش هو المقدمة ذات الصفوف الكبيرة، تعتبر هذه المناورة إحدى أصعب المناورات على الإطلاق، وتتطلب إيقاف آلاف المحاربين وقيادتَهم بشكل متقن. لكن بالرغم من ذلك جرت المناورة بشكل سلس.

شعر ألاندار بشيء من الأمل، لكن الأعداء رموا دروعهم، ورفعوا أقواسهم بدلا عنها، فانهالت السهام، وتطايرت في المسافة التي كانت تضيق بين الجيشين.

عندما رأى ألاندار أنّ صفوفه لم تستطع الاصطفاف في الوقت المناسب، أجفل خصوصا عندما رأى رماة سهام العدو يُطلقون وابلا من السهام على الصفوف المترنحة لمحاربيه، رأى خيطا أسود يتجه نحوه بسرعة، لقد بدا كالخيال عندما لمس شيء ما كتفَه وأكمل طريقه، وهذا ما جعله يهتز على صهوة حصانه. أصاب سهم آخر عنق حصانه واخترقه مما جعله يسعل ويبصق دما.

ذُعر ألاندار، وترجّل عن حصانه قبل أن ينهار الحصان أرضا. وجب على رجاله إخلاء الوادي، لكن ليس لديهم سبيل إلى ذلك إلا إن انطلقوا بسرعة مبتعدين عن هؤلاء الذين هاجموهم من كل حدب وصوب.

تداخلت الأوامر في رأسه، ولم يستطع اتخاذ القرار الصائب، في الوقت الذي سقطت فيه أشعة الشمس الدافئة على وجهه، وحلّقت السهام بالقرب منه من دون أن تجعله يجفل، وأخذ حراسه ينظرون إليه عندما امتطى حصانا جديدا جلس ولم تظهر على وجهه أية تعابير.

قاتل محاربوه لفترة طويلة من دون أن يُصدر لهم الأوامر.

عانى قادته من التقييد بسبب النقص في الأوامر لفترة قصيرة، ثم سدوا هذه الثغرة من خلال عملهم معا، لم يكن لدى الرجال الأقل رتبة في سلسلة الرتب الوقتَ الكافي كي يقلقوا أو يعانوا قبل أن تصلهم أوامر جديدة ويبدؤوا بالتحرك مرة أخرى. شكلت مجموعة تتألف من مئة محارب حاجزا صلبا ريثما تتمكن القوات الرئيسة من الخروج.

بدا هذا التحرك كافيا لإنقاذ المعركة، لكنّ المحاربين الذين واجهوهم كانوا مخضرمين سبق لهم أن قاتلوا بشراسة في أراضي سونغ، فعندما كان القتال سلسا تحركوا بصفوف متداخلة، وبذلك

استطاعوا أن يضربوا بقوة نقاط الضعف، أما عندما تحول القتال إلى قتال بالسيوف والرماح فلم يفسحوا لهم أي مجال، وبذلك سُحق محاربو ألاندار.

في النهاية، خرج المحاربون من الممر، ووقف ألاندار يهز رأسه غير مصدق عندما رأى القوات التي دفعتهم من الخلف، فقد افترض أنّ أعداد هذه القوات لا تتجاوز عدة آلاف، وأنها القوات ذاتها التي نظر إليها بسخرية في ذلك الصباح. لكن بدلا من ذلك فقد تقيأ الوادي محاربين تحت رايات كوبلاي، لقد كانت أعدادهم كبيرة، وهذا ما جعله يدرك أنّه كان يجب عليه أن يُبقيهم في الممر بين التلال لأن فاعليتهم عندها ستكون منخفضة، واكتشف كم يفوقه الأعداء عددا فقد كانوا ضعفه على الأقل.

شاهد الفتيان العرب الذين سببوا سحابة الرمال كيف وقف ألاندار فاغرا فاه وقد سُحق محاربوه، وتعرضوا للضرب من كل جهة بعد أن حوصروا.

لم يستطع ألاندار أن يرى إلّا الفوضى، فهنالك العديد من الفرق تعدو إلى الأمام والخلف، وأدرك أنّه كان يتحرك تبعا لخطة كوبلاي منذ أن خطا أولى خطواته، وهذا ما جعله يشعر بالألم والحسرة. تطايرت السهام في كل اتجاه وتساقط الرجال في كل مكان، وبالكاد استطاع الإلمام بتفاصيل تحركات جيشه أو قول أي شيء لهم في ظل هذه الحشود الفوضوية، رغم أنّ العدو بدا ملما بتفاصيله. اضطر حراسه الشخصيون أيضا لصد هجوم من محارب انطلق مسرعا باتجاهه كي ينال منه، مستخدمين السيوف لإبعاد رمح الرجل عن ألاندار.

بعد أن جرى التخلص من هذا الرجل، استطاع ألاندار استعادة بعض من وضوح تفكيره، ورغم أنّه أحسّ بأمعائه تتلوى ألما، فقد علم أنه ليس هناك من مهرب، وأن عليه طلب الانسحاب.

فقد ألاندار بوقه عندما سقط مع الحصان، ووجب عليه أن يصيح إلى أحد قادته، بدا الرجل مضطربا عندما فهم كلام قائده، لكنّه نفخ في البوق مصدرا سلسلة من النغمات. لم تكن هنالك استجابة، ويبدو أنّ الصوت قد ضاع بين حشود الرجال المتحاربين، إضافة إلى أنه استرعى انتباه الأعداء، إلى هذا الجزء من أرض المعركة فصوبوا عليه مزيدا من السهام، بدت وكأنّها تتحرك ببطء، ثم هوت في كل مكان حولهم مصدرة أزيزا.

أصاب أحد السهام القائدَ النافخ بالبوق في أعلى صدره ثاقبا الدرع الذي ارتداه، فصاح ألاندار عندما انهار الرجل، وتوجه إليه وأخذ البوق منه.

كان يلهث بشدة، لكنّه رفع البوق إلى فمه، وأعاد النفخ ليصدر الإشارات. استجابت له مجموعة من الرجال، وانطلقوا بسرعة وقوة كي يتمكنوا من الانسحاب من المعركة بسهولة، تراجعوا فوق جثث أصدقاء لهم رافعين السيوف والرماح إلى الأمام كي يوقفوا الأعداء.

فجأة، امتلأت المناطق التي يخلونها بالسهام، فأصيب المئات من المحاربين الذين سقطوا يختنقون بعد أن اخترقت الأسهم الخشبية صدورهم أو أعناقهم، ولم يستطع إلا عدد قليل منهم الوصول إلى ألاندار والاصطفاف حوله وهم يلهثون متعبين. حافظوا على موقعهم لوقت كاف كي يصل عددهم إلى ألف محارب، ثم تراجعوا، انضم إليهم بعض الفرسان الذين استطاعوا الهروب، وبذلك وصلت أعدادهم إلى ما يقارب الثلاثة آلاف يتحركون في أرض غطتها جثث القتلى.

بحث ألاندار عن فيريغ بين قادة جيشه، إلا أنه لم يره، بالرغم من أنّه اصطحب ما يقارب عشرين قائدَ مجموعة، وقد أصيب عدد منهم بجروح. لاحظ أنّ محاربي العدو انتبهوا إلى مكان مجموعته لأنهم كانوا يشيرون إليهم، أحسّ بالدم يقطر من وجهه إضافة إلى خسارته ماء وجهه عندما رأى آلافا من الأعين الوحشية تنظر إليه، وذلك كي ترى قائد الجيش يهرب.

لا تزال مجموعات الرجال تنضم إلى قوته الصغيرة وتشق طريقها بصعوبة للوصول إليه، في تلك الأثناء عمد العدو إلى تنظيم صفوفه استعدادا لهجوم آخر. نظر ألاندار إلى أرض المعركة، وفزع عندما رأى حجم الخسائر التي مُني بها، فقد رأى آلاف القتلى، والأسهم المكسرة، والأحصنة المصابة، والرجال الذين يصرخون بسبب جروحهم ويقطرون دماء على الأرض. تقدم أحد الأعداء إلى الصف الأول، وقال شيئا للذين بالقرب منه، فصاحوا بتحدٍ، جعلت الضجة التي صدرت عنهم ألاندار يجفل على حصانه.

بالكاد عاد برفقته خمسة آلاف رجل يلهثون. فكّر في أن يجمعهم مع باقي قواته، بعد أن بدا له أن القتال توقف في الجهة المقابلة من الوادي، عندما أصبحت هنالك مسافة ثمانمئة خطوة بين الجيشين توقف رجاله متعبين وهم ينظرون إليه بخوف بانتظار أوامره. في الجهة المقابلة، امتلأ الوادي بالمحاربين الذين وقفوا بصمت تام، عندما التفت جميع محاربي ألاندار لمشاهدتهم. وقف ألاندار متوترا، ولم يُصدر أي أمر، بإمكانه سماع رجاله يتنفسون بصعوبة، تمتم الرجال غير مصدقين ما حصل فقد تغلب العدو عليهم، وقاتل أفضل منهم، وناور بشكل أفضل. لا تزال الشمس تتوسط السماء، ولم يستوعب كيف انتهى هذا الأمر بهذه السرعة، قال ألاندار وقد رفع صوته ليصل إلى أكبر عدد ممكن من المحاربين:

«الخان خلفنا، وهو يقترب منا برفقة عدد كاف من الرجال ليدمروا هذا الجيش، لقد خسرنا الجولة الأولى فقط، استجمعوا قواكم فقد قاتلتم ببسالة».

عندما قال كلماته الأخيرةَ، صاح قائد الأعداء فتقدم العدو باتجاههم.

صاح ألاندار: «اذهبوا، وإن سقطت فابحثوا عن الخان». ثم ركل حصانه كي ينطلق بأقصى سرعته. تبعثر الفتية العرب أمام رجاله يسخرون ويصيحون.

عندما خرج ألاندار من الوادي طلب كوبلاي إلى محاربيه التوقف، وأتى إليه أويانغ خاداي على صهوة حصانه، فأومأ الرجلان إلى بعضهما، ثم قال كوبلاي:

«لن يبقي آريك بوك على هذه التشكيلة بعد أن وجدونا». لم يهنئ كوبلاي قائد الجيش الأكبر سنا بالرغم من أنه يعلم أنّ أويانغ خاداي قد يعتبر ذلك انتقاصا مما قام به، لا يعدو الأمر كونه مجرد مجاملة من مستوى معين من السلطة، فقائد الجيش لم يكن بحاجة إلى أي مديح فهو يعرف مقدار مهارته.

قال أويانغ خاداي: «لطالما أردت أن أُظهر لأندار الأخطاء في طريقة تفكيره، إضافة إلى أنّه لا يتصرف بشكل مناسب تحت الضغط، وقد أخبرته بهذا مرارا، إنّ هذا درس أوّل جيد له. هل ستتجه إلى كاراكورم الآن؟».

تردد كوبلاي، فجيشه لا يزال نشيطا نوعا ما، إضافة إلى أنّ النصر جعل الروح المعنوية عالية، وهذا ما بدا جليا عندما ترجلوا عن أحصنتهم يتفقدونها ويتفحصون الأسلحة. لقد أخبر قائد الجيش أنّه سيحاول توجيه ضربة سريعة إلى مقدمة قوات آريك بوك عندما تنطلق لمحاربته، بعد ذلك تقضي الخطة بأن ينطلقوا بسرعة متجهين إلى العاصمة لقصدِ العائلات التي تركوها خلفهم.

لاحظ أويانغ خاداي الحيرة التي وقع بها كوبلاي، فدنا منه بحصانه، وبذلك لن يتمكن أحد من سماعهما بسهولة، ثم قال: «أتريد أن تكمل؟». بدت مجرد جملة أكثر مما هي سؤال.

أومأ له كوبلاي قلقا، مفكرا في زوجته وابنته في شانغدو التي تبعد آلاف الأميال إلى الشرق. لم يكن من البسيط أن يطلب إلى رجاله أن يقاتلوا لأجله في حين أن مصير عائلاتهم يعتمد عليهم.

قال كوبلاي: «لن يمر وقت طويل قبل أن يجمع أخي محاربيه في جيش واحد، بإمكاننا أن ننتهي منهم قبل أن يتجمعوا يا قائد الجيش ما دامت هنالك نساء وأطفال في كاراكورم، ألم تكن هذه

نصيحتك؟ وبذلك نضرب مرة أخرى بسرعة، فإذا توجهت شمالا الآن، فسأكون قد أضعت فرصة الانتصار، ومن المرجح أن تكون هذه الفرصة الوحيدة التي لدينا».

استمع أويانغ خاداي إلى كلامه من دون أن يُظهر أي تعبير، ثم قال بهدوء:

«أنت الخان. فإن أمرتنا بهذا، فسننطلق لننفذه».

قال كوبلاي: «إنّني أحتاج إلى أكثر من هذا في هذه اللحظة يا أويانغ خاداي. لم يسبق لنا أن قاتلنا عدوا وحياة أطفال ونساء محاربينا معلقة بين يديه، فهل سيتبعني الرجال بالرغم من هذا؟».

لم يُجبه الرجل الأكبر سنا مباشرة، بدا الوقت الذي سكت فيه وكأنه دهر، في النهاية أحنى أويانغ خاداي رأسه وقال:

«بالطبع سيتبعونك، فهم يعلمون أنّ الخطط تتغير، إذ من الممكن أن يكون أفضل خيار لنا هو أن ننطلق ونحارب هنا مرة أخرى، طالما أننا نملك الأفضلية».

قال كوبلاي: «لكنّك ترغب في أن تتجه شمالا رغم هذا».

انزعج قائد الجيش، لكنه لم يُظهر ذلك، فقد أقسم إنّه سيطيع الخان، لكنّ التفكير في زوجته وأطفاله وهم بين يدي حراس آريك بوك ظل يزعجه بشكل دائم.

«إنّني سوف... أتبع الأوامر يا سيدي الخان». قالها بشكل رسمي.

في البداية نظر كوبلاي بعيدا. لطالما تبين له أن الإدراك المتأخر خيار جيد وفرصة غيّرت حياته بطريقة أو بأخرى، من النادر أن تشعر بمثل هذه اللحظة عندما تحدث، فأغمض عينيه متأملا تاركا النسيم يداعب وجهه، أحسّ بالموت في الشمال، لكنّ رائحة الدم كانت قوية في الهواء ولم يعلم إن كان هذا فأل خير أم لا، عندما استدار ناحية الشرق باتجاه جيوش أخيه البعيدة، أحسّ بالقشعريرة تسري في جسده.

إنّ الموت يكمن في كل الاتجاهات، فجأة بدا متأكدا من هذا. هزّ رأسه، كما لو أنّه يحاول أن يحرره من الأفكار التي تشابكت فيه. لم يكن جنكيز ليهدر لحظة واحدة، إضافة إلى أن رجاله عرفوا الموت، وتعايشوا معه كل يوم، فقد ذبحوا الحيوانات بأيديهم وعلموا أنّه عندما يبدأ الطفل بالسعال فمن المحتمل أن يعني هذا أنّهم سيجدونه جثة هامدة لاحقا. لن يخشى الموت، ذلك الرفيق القريب من الجميع، ولن يسمح له أن يؤثر عليه، فهو الخان في تلك اللحظة وقد اتخذ قراره، وقال:

«إنّ أوامري تقضي بأن نكمل طريقنا يا قائد الجيش. اجمعوا السهام التي يمكننا أن نستخدمها مجددا، وهيا بنا نطارد ألاندار باتجاه المحاربين القادمين بعده، سنهاجم المجموعة الجديدة القادمة إلينا بكل ما نملك من قوة».

أدار أويانغ خاداي حصانه من دون أن ينبس ببنت شفة، وأخذ يصيح بالأوامر إلى المحاربين المنتظرين، أصابتهم الحيرة، لكنّهم امتطوا أحصنتهم بسرعة رغم ذلك، متجاهلين الجرحى والمصابين الذين يُحتضرون في كل مكان حولهم. كانت الشمس في طريقها إلى الأفول، لكن هنالك ساعات من أضواء الصيف الرمادية بعد المغيب، وهي وقت كافٍ ليقاتلوا مرة أخرى قبل أن يحل الظلام تماما.

40

شكر كوبلاي قرار أخيه الأحمق عندما رأى أربعين ألف مقاتل ينطلقون بسرعة لمواجهته. إنّ القائد العظيم تسوبوداي اتبع هذا التنظيم من قبل، خمسة أصابع تنتشر في مناطق مختلفة بحثا عن عدو. إنّ هذه الخطة فعالة ضد الجيوش التي تتحرك ببطء، أما ضد المحاربين الذين يقودهم فهي خطة واهنة. لقد شكّل أخوه فرقا أصغر، تبعد كل واحدة عن الأخرى مئة ميل، وأخذت هذه الفرق تبحث عنه. ضرب كوبلاي وأويانغ خاداي الفرقة الأولى، وبإمكانه الآن أن يكمل طريقه، ويدمّر الفرق الأخرى، برفقة جيشه المؤلف من نحو مئة وعشرين ألف محارب.

صحيح أن بإمكان آريك بوك أن يتوقف ويجمع هذه الفرق ويوحد جيشه، ولكن إلى أن يفعل ذلك، فإنّ فرقه ستظل ضعيفة وذات أعداد قليلة نسبيا.

بالرغم من أنّ محاربي كوبلاي وأويانغ خاداي كانوا أقل عددا من جيش آريك بوك إلا أنهم تمكنوا من سحق محاربي ألاندار، لكن هذ الأفضلية العددية ستختفي عندما يقطعون الأفعى قطعة تلو الأخرى. راجع كوبلاي خطته في رأسه آلاف المرات، بحثا عن أي شيء يمكن أن يعزز من فرص النصر أكثر، لم يكن عليه التأكد من أنّ أويانغ خاداي في موقعه المناسب، فقد كان قائد الجيش أكثر خبرة من أي شخص آخر. ولكن كوبلاي لم يستطع أن ينسى المرونة التي تتحرك وفقها قوات أخيه، وهذا ما أتاح لها الانتشار والتحرك السريع في الأراضي.

كانت الفرقة الثانية من محاربي أخيه بعيدة جدا كي يتمكن من سماع أصوات أبواقها، لكن بإمكانه أن يتخيلها في الجهة المقابلة من السهل الأخضر الواسع تتحرك وتنتظم وفق تشكيلات المعركة، مستجيبة لوجوده.

عبس عندما عصفت الرياح، وتأكد من موقع الشمس في السماء، فالشفق ذو اللون الرمادي الفاتح يستمر لساعات في هذه الفترة من السنة، لكن من الممكن ألّا تكون هذه الساعات كافية، وقد كره فكرة أن يضطر للتراجع قبل أن تنتهي المعركة، إذ إنه لم يكن يرغب في أن يرصد في مكان

واحد. لقد سعى من مناوراته إلى إضعاف قدرة أخيه على الحركة وتعزيز قدرته، ولكن في الظلام يصعب عليه الاشتباك.

كان سيصدر أوامره النهائية ضد محاربي سونغ المتبلدين في اللحظات الأخيرة، وبذلك يكون الوقت قد تأخر جدا بالنسبة إليهم للقيام بأي ردّ فعل، لكنّه الآن يواجه محاربين مغول بإمكانهم أن يتحركوا ويردوا بسرعة كافية، فبينما يعطي أويانغ خاداي الأوامر لجزء من جيشه أرسل محاربيه تباعا، وقسم الأمر على مرحلتين متتاليتين.

على بعد ميل واحد عن العدو أحسّ بالحاجة الملحة إلى إصدار الأمر الأخير، وبدأ قلبه ينبض بسرعة.

تحرك محاربو آريك بوك بسرعة وسلاسة مندفعين لملاقاته، لم يعلم مَن قادهم إن كان ألاندار قد تمكن من الوصول إلى بر الأمان، تمنى كوبلاي أن يكون قد تمكن من ذلك كي يجعله يهرب مرتين في اليوم.

كانوا على بعد ستين ضربة قلب منه، فأعطى كوبلاي أوامره في اللحظة نفسها التي رأى فيها محاربين يقتربون من الاشتباك مع مقدمة جيشه. ابتسم عندما ماثل كل من أويانغ خاداي وقادته التشكيلات، فقد اتسع الطرفان مثل رأسي المطرقة، وبما أن لدى كوبلاي مزيدا من المحاربين فقد بدأ يتخيل كيف سيراهم العدو عندما أخذوا يتوسعون مثل الجناحين على جانبي الظهر، ليظهر العدد الحقيقي لقواته.

لم تمر سوى لحظات قبل أن تنطلق السهام من كلا الجانبين، من الممكن للصفوف الواسعة أن تُطلق مزيدا من السهام لتطير في الهواء، في حين رفع الرجال الذين تدربوا طوال حياتهم الرماحَ التي تجاوز عددُها عشرات الآلاف واحدا تلو الآخر وبسرعة. للمرة الأولى في حياته أحسّ كوبلاي بأنّ الأمر أشبه بملاقاة سد من النيران وعليه أن يحاول جاهدا ألّا يجفل بسبب الهواء القوي. عندما قرعت طبول الحرب، انطلق وابل السهام فعبرت بالقرب من بعضها في الهواء، بإمكانه أن يسمع أصوات ارتطامها بالحديد والرجال، إضافة إلى تأوهات الرجال وصيحاتهم من كلا الجانبين.

لم يرفع المحاربون رماحهم بعد في مكانه الذي تموضع فيه من الصف الرابع، في حين حلقت السهام فوق الرؤوس وسقطت أمامهم، ردّت صفوفه الواسعة بإطلاق آلاف الرماح، فأصبحت السماء داكنة على جانبيه، ولم تكن هنالك من مشكلة بإصابة الهدف في ظل كل هذه الأعداد.

انهال الوابل الأول على الصفوف الأمامية للمشاة الراكضين باتجاههم، أما الوابلان الثاني والثالث فمزقا الرجال والأحصنة، وبذلك تكدس القتلى فوق بعضهم، وضربت السهام دروع محاربيه على كلا جانبيه، فقد ترك كوبلاي التروس الثقيلة التي جلبها معه من سمرقند تصدأ في الوادي الذي هزم فيه قائد الجيش ألاندار، كان أسلوب قتال يستحق المحاولة، لكن القوة الحقيقية لمحاربيه تكمن في رماة السهام، والقوة المدمرة للأقواس والأسهم المدببة المصنوعة من خشب البتولا، التي أطلقت من الأقواس في اللحظة التي تحركت فيها الأحصنة على الأرض. أصيب الآلاف في كلا الجانبين، وسقطت الأحصنة على الأرض وهي تدور وتلتف بأقصى سرعتها قبل أن تسقط مما جعل السقوط قاسيا بما يكفي ليقتل راكب الحصان.

حافظت قوات كوبلاي على تشكيلاتها بشكل أفضل من أولئك الذين واجهوهم. فقد قضوا السنين في المعارك ضد إمبراطورية سونغ، ضد الأقواس والأسهم ورماح العدو. ضربت بعض الصفوف بقوة في أماكن ازدادت فيها كثافة السهام، لكن شقّ البقية طريقهم يخفضون من سرعتهم بعض الشيء، واتبعوا العادة التي واظبوا عليها في اللحظات الأخيرة قبل الاشتباك؛ حين وُضعت الأقواس على سروج الأحصنة، واستُلّت آلاف السيوف عندما خففوا من سرعتهم قليلا، ليسمحوا للصفوف خلفهم بالتقدم.

ظهرت رماح كوبلاي من بين صفوفه الأمامية، فكل محارب من محاربيه كان يحمل قضيبا طويلا من خشب البتولا ويندفع إلى الأمام، لقد تطلب حمل هذه الرماح الطويلة بثبات قوة هائلة من الذراع والكتف، وفي اللحظة الأخيرة أنزلوها ووجهوها إلى نقطة محددة، متكئين إلى الأمام، مستعدين للاشتباك مع الأحصنة التي تزن نصف طن وهي تحمل فرسانا مدرعين، فضربت الرماح صفائح الصدر التي ارتداها المحاربون والمصنوعة من قشور الأسماك. لم يضع محاربو كوبلاي أية أشرطة ليسترجعوا الرماح الطويلة، فعندما كانت تصيب أي رجل لم تكن تُسترجع، حتى لا يتعرض مطلقها إلى كسر وهو يحاول الحفاظ عليها، وبعد إطلاق الآلاف من الرماح وتحطم العديد، امتلأ الهواء بالشظايا المتطايرة.

انهارت صفوف العدو، فقد سقط الرجال يسعلون دما أو انهاروا أرضا بعد أن عانوا من نزيف داخلي.

تحول اصطدام آلاف المحاربين الذين التقوا ببعضهم وهم يتحركون بأقصى سرعة إلى أصوات ضربات حوافر وأصوات صيحات عالية. واشتبكت الصفوف الأمامية ببعضها ملوحة بالسيوف وضاربة بعضها بعنف ودموية. انتشرت صفوف كوبلاي الواسعة بسرعة إلى أجنحة

الجيش، في حين استمر أويانغ خاداي بإصدار أوامره بهدوء، فقد احتفظ محاربوه الذين برفقته بأقواسهم واستمروا بإطلاق أكثر من عشر دفعات من السهام من كل جانب على رجال آريك أبوك.

في كل مرة، كان يتم الرد على ضرباتهم بضربات تماثلها قوة، وخسر المحاربون في الأجنحة السهم تلو الآخر، وعندما أصبحت خطوط التماس قريبة، أخذ المحاربون يطلقون سهامهم بهدوء تام، متجاهلين القتلى حولهم وقد استمروا في القتال. في المقدمة تقدمت قوات كوبلاي بقوة، وتحرك الرجال ليدمروا رأس الأفعى.

بدأت أجنحة الجيش تنهار، فقد أفسد ما سعى إليه رماة سهام آريك بوك، عندما أُجبر أولئك الذين في المقدمة على التخلي عن أماكنهم.

تقدم محاربو أويانغ خاداي إلى الأمام قرابة المئتي ياردة عن الصفوف الرئيسة، عندما تجمعت الفرق التي شكّلت رؤوس المطرقة، استمر محاربوه بإطلاق ضرباتهم، وبدأت الأسهم التي أمطرت العدو بالتناقص، لكنّهم استمروا بالإطلاق إلى أن أفرغوا ما في جعبتهم من سهام، فقد أرسلوا ما يزيد على مليون سهم باتجاه العدو.

لم يتراجع محاربو المغول الأعداء ولم يستسلموا، لكنّ قوات كوبلاي كانت تتغلب عليهم، فقد ضغط محاربوه المخضرمون في كل فرصة ممكنة وكل لحظة، مجبرين إياهم على التراجع خطوة تلو الأخرى، ومن ثم عشرات الخطوات عندما انهار صفان من صفوفهم. لم يتمكنوا من التحرك إلى الأطراف، حيث راقبهم أويانغ خاداي بهدوء، فاستل محاربوه على اليمين سيوفهم التي أصدرت صوتا قويا جعل أجنحة الجيش تقشعر لها. كانت لديهم مسافة تتيح للأحصنة التحرك بسرعة، وعندما صاح بأمر انهال محاربوه بالضربات على أجنحة الجيش، وأُعملت فيهم السيوف بضربات حادة وقوية.

انهارت مقدمة الجيش، وأحس الذين في الأجنحة بالتحول الذي حدث، فتسلل الهلع إليهم وانتشر في كل مكان. حاولوا أن يديروا أحصنتهم، يسحبون لجاماتها في الوقت الذي اصطدموا فيه بمشاة وأحصنة طليقة من كل اتجاه. ضُربت أطراف أجنحة جيش العدو فتراجعت، وتقدمت قوات أويانغ خاداي وتغلغلت عبرها، واستدار المحاربون الذين في مركز الجيش بأحصنتهم وأولوا ظهورهم إلى المعركة، يضربون أحصنتهم بيأس كي تزيد من سرعتها، لكن وبالرغم من القرار الذي اتخذوه بالتراجع، لم يتمكنوا من الهرب، فلم يكن هنالك مكان للتحرك وأبقتهم الحشود التي تدافعت من الخلف في أماكنهم، يصرخون بخوف أو ألم.

استمر القتل، وحوصر جناحا الجيش، ولم يتمكن الرجال من التحرك على الإطلاق. لم يكترث محاربو كوبلاي على الإطلاق لأولئك الرجال الذين حاولوا الاستسلام، ولم يكن هنالك مجال للرحمة، فالوقت مبكر جدا لإيقاف القتل، وكانت المذبحة رهيبة. فقد ذُبح الرجال الذين رفعوا أيديهم في أماكنهم، وأصيبت الأحصنة أيضا بجروح جديدة من المحاربين والمهاجمين على حدّ سواء.

لم يدخل كوبلاي القتال بعد الدفعة الأولى من المحاربين، فقد انتظر برفقة مجموعة من مرافقيه في أحد الأطراف، يشاهد عن كثب ويصدر الأوامر لدعم الصفوف المتحركة. بدا الأمر بالنسبة إليه كمشاهدة موجةٍ تعلو فوق صخرة، ولكنه عندما نظر إلى الصخرة رآها تتقهقر وتغوص في الرمال. لمح للحظة قائد جيش أخيه، يقاتل ويصيح بالأوامر في مركز الجيش، ويحاول جاهدا كي يبتعد من مكانه. سيتذكر ألاندار هذا اليوم، هذا ما فكّر فيه كوبلاي وهو يشعر بالرضى، ولكنّ ذلك لن يحدث إلا إن نجا من المعركة.

نظر كوبلاي إلى الجهة الأخرى، عندما أطلق أويانغ خاداي صوتا من بوقه في ساحة المعركة. بإمكانه أن يرى مجموعة جديدة من المحاربين قادمين باتجاههم في الضوء الضعيف للشفق، لا بد من أنّها المجموعة الأساسية من بين مجموعات آريك بوك، وخمّن كوبلاي أن أخاه سيكون ضمن هذه المجموعة ينطلق مسرعا في اتجاهه.

غابت الشمس، ولكن القتال استمر، كان سيستمر بالقتال لو أن الوقت لا يزال نهارا، فقد تغلب رجاله على محاربي المجموعة الثانية، إضافة إلى أنّ بعض المحاربين كانوا يهربون بعيدا بالفعل متجهين إلى بر الأمان بين قوات الخان الذي دخل إلى أرض المعركة.

نفخ أويانغ خاداي في البوق مرة أخرى فتمتم كوبلاي، فهو لم يكن أعمى أو أصم. قلّب الخطط والاستراتيجيات في رأسه مرارا وتكرارا وهو لا يزال في مكانه بلا حراك، مأخوذا بالفرصة التي أمامه. كان رجاله قلقين، فذكّر نفسه بذلك، وأنّ سهامهم أوشكت على النفاد وحرابهم كُسرت، ومن الجنون أن يرسلهم للاشتباك مرة أخرى في الظلام. بإمكانه أن ينهي هذا في ضوء النهار، وأفكاره أتعبته كذلك. شدّ قبضة يده على لجام حصانه، مما جعل قفازه يصرّ.

صدح صوت البوق للمرة الثالثة منتشلا إياه من الأحلام والتفكير.

صاح غاضبا: «إنّني أسمعك». أشار كوبلاي لمرافقيه الذين كانوا بانتظار أوامره وقال: «أرسلوا إشارة الانسحاب، فقد أبلينا جيدا بما يكفي اليوم».

ظل ينظر إلى ساحة المعركة، في حين انتشر صوت البوق بين محاربيه. لقد كانوا يتوقعون هذا بعد أن خفت الضوء من حولهم فتراجعوا بسرعة، واصطفوا في صفوف منتظمة واستراحوا على صهوات أحصنتهم التي يمتطونها، يتكلمون ويضحكون مع بعضهم.

رقد القتلى بين أولئك المحتضرين، بإمكان كوبلاي أن يسمع صراخ رجل ذي طبقات صوت مرتفعة، في مكان ما بين الأكوام التي تجاوزوها. لا بد من أنّ قدمَي الرجل فقط محطمتان ليملك هذه القدرة على الصراخ مُحدثا كل هذه الجلبة. لم ير كوبلاي الذي ترجّل عن حصانه وسار باتجاه الرجل المصاب، لكن الصوت بدا أشبه بصوت بكاء خانق.

فجأة فكّر في زين جين وقلق عليه. لطالما كان طريقا صعبا كي يقطعه بصفة الخان والأب في الوقت ذاته. لقد فهم الرجال أنّه سيقلق على ولده ذي الخمسة عشر عاما أكثر مما قد يقلق عليهم جميعا، لكن ليس بإمكانه أن يظهر أية دلالة على الخوف، أو أن يترك زين جين بعيدا عن الخطر.

لطالما وضع أويانغ خاداي زين جين في الجهة الخلفية من أية تشكيلة من دون أن يشير إلى ذلك. بحث كوبلاي في الميدان عن ابنه، لكنّه لم يتمكن من رؤيته، فصرّ على أسنانه، وتضرع بصمت إلى أب السماء كي يكون بخير. سيعلمه أويانغ خاداي إن حدث شيء، فلم يسبق له أن غفل عن أي شيء.

هرب الآلاف من رجال آريك بوك بعد الضربة الموجعة التي وجهها لهم.

استمروا بالهرب إلى أن اصطف رجاله، وبدؤوا بالتحرك إلى الشمال. نظر كوبلاي إلى خلف الرجال القتلى والأحصنة، إلى المكان الذي لا يزال يركب أخوه فيه تاركا سحابة من الغبار خلفه.

ما إن اختفى ضوء الشمس تماما، حتى اختفت قوات آريك بوك البعيدة في الظلام. أمال كوبلاي رأسه بنوع من السخرية المحترمة. فقد تمكن قائد جيش العدو ألاندار من أن يحظى بحريته في اللحظات الأخيرة، ولم يتمنَّ أي شيء في هذه اللحظة أكثر من سماع الرجل وهو يشرح لأخيه كيف خسر الكثير من الرجال في يوم واحد.

استشاط آريك بوك غضبا، عندما مال إلى الأمام على صهوة حصانه وصاح له: «شه»، وركله بشدة كي يزيد من سرعته، والعرق يقطر منه ماسا عينيه مما جعله يرمش في أثناء تحديقه إلى الأمام بسبب الملح. غابت الشمس، ورحل المحاربون الذين في الجهة المقابلة، وابتلعهم ظلام

الليل. بإمكانه أن يسمع أصوات حوافر الأحصنة تعدو بسرعة حوله، لم يعد يتذكر من المعركة إلا خيالات، يتذكر ما رآه وسمعه من أصوات صراخ الرجال وصليل السيوف خلال الاشتباكات.

كان أحد قادة فيالقه يلتف بحصانه ليصل إلى موقع الخان، جاعلا حصانه ينطلق بسرعة وبمجهود كبير، تجاهله آريك بوك، وهو يركز على أولئك الذين أمامه فقط، علم أنّه فقدَ التواصل مع القوات من خلفه، وتمت مهاجمة هذه التشكيلة من جهة واحدة، وعلم أيضا أنّ القوة التي ترافقه لن تكون كافية لترسل أخاه هاربا، وأنّ عليه أن ينتظر ليجمع جيشه من جديد، فهو لا يملك سوى أربعين ألف محارب برفقته، أما الثمانون الآخرون فهُم خلفه، وعندما يجمع هذه القوات معا فإنها ستكون كافية بغض النظر عما يخطط له كوبلاي. بصق آريك بوك في الهواء، عندما تردد اسم أخيه في رأسه. أحس بلعابه في فمه كالحساء، واشتعل غضبا لدرجة أنّه أحسّ بأنّ النار تخرج من كل مكان من جسده، هو يمتطي حصانه بسرعة أكثر مما فعل منذ سنوات، معتقدا أن أويانغ خاداي هو من قاد الهجوم. أدرك آريك بوك أن أخاه سلّم القيادة إلى قائد خبير، وأخذ يشتم بصوت مرتفع ولوقت طويل، وهذا ما جعل الرجال الذين بالقرب منه يشيحون أنظارهم بدلا من أن يشهدوا غضبه، فقد كان عليه أن يفعل آلاف الأشياء بشكل مختلف.

ظن آريك بوك أن كوبلاي رجل علمٍ ضعيفٌ أفسد محاربيه الأقوياء الذين رافقوه، ومع ذلك فقد وجهوا إليه ضربة في المكان والزمان المناسبين، وهزموا قائد الجيش ألاندار، بالكاد تمكن من تصديق ذلك، لقد ظن أن الجناح الأيمن هو درة جيشه ومكمن قوته فيه لكنهم سحقوه، والآن بعد أن حل الظلام لا بد من أن هربوا خوفا من ثأره.

كانت السهول واسعة على مد النظر، لكن منطقة المعركة كانت صغيرة. مع حلول الظلام، ذهبت قوات الأعداء مثيرة سحابة من الغبار خلفها. في اللحظات الأخيرة قبل أن يفقد أثرهم، بدا آريك بوك متأكدا من أنّه رأى محاربين يتحركون باتجاه الشمال. صرّ على أسنانه، وكان جسده يتميز غيظا ويشتعل غضبا.

لم يكن هناك عدد كبير من المحاربين للدفاع عن كاراكورم، فمعظم جيش آريك بوك -إن لم نقل كلّهم- كان في الحملة. شعر بالآلام عندما تخيّل كيف أنّه من الممكن لأخيه أن يسيطر على العاصمة بضربة سريعة، فقد تجاهل مخاوف ألاندار الدالة على الضعف متيقنا من أنّ أخاه لن يتمكن من الاقتراب من العاصمة. لم يكن يعني له هذا الأمر شيئا، لكن آريك بوك أراد أن يخفف من إحباطه بالصياح. لكن هنالك أمر آخر، فأي رجل يسيطر على كاراكورم له الحق بالمطالبة بالحكم، هذا الأمر معروف بالنسبة إلى الأمراء والخانات الصغيرة.

وصل قادته إليه، وامتطوا أحصنتهم بالقرب منه، وطرحوا عليه العديد من الأسئلة التي ذهبت أدراج الريح، في البداية تجاهل آريك بوك هؤلاء الرجال، لكن بعد أن خيّم الظلام بشكل كامل، وجب عليه كبح جماح حصانه حتى يخبو، صهلت أحصنة القادة الذين ساروا بالقرب منهم وتنفست بصعوبة. في تلك الأثناء، أخذت طاقة آريك بوك تخبو وأحس ببرودة لم يشعر بها من قبل؛ فهو لم يتخيل أن يتمكن أخوه من الانتصار عليه في معركة. راودته تخيلات وهو يواجه أخاه بالسيف، بدا ذلك مُرضيا له، ولكن لا قيمة له، فهز رأسه ليطرد هذه الأفكار الحمقاء، وأكمل طريقه في ظلام الليل.

تدفق الرجال حوله من كل حدب وصوب، وقد أحنوا رؤوسهم أمام الرجال الذين يعرفونهم شاعرين بالعار. كانوا ينضمون إلى محاربيه بالعشرات والمئات، يخرجون من الظلام الذي أمامه، رأى آريك بوك أحدهم ينعطف بحصانه، محاولا أن يجعله يخبو بشكل مشابه للصف الأول ليقف معه في الصف، كان الرجل على بُعد حصان واحد عنه، فأخذ يصيح قبل أن يعلم آريك بوك أنّه ألاندار. بدت مفاصل أصابع الخان بيضاء وهو يمسك لجام حصانه قبل أن يصل إليه قائد الجيش.

قال ألاندار: «سيدي الخان».

لم يضطر لأن يصرخ كي يتغلب على الصخب الناتج عن صوت حوافر الأحصنة، فما لبثت الأحصنة أن هدأت حين تكلم.

لم يكن العشب أسفل أحصنتهم مرئيا، فأوشك آريك بوك على أن يطلب إليهم إشعال المشاعل، لكن هنالك المئات ممن اتجهوا صوبه من المعركة دون أن يستطيع أن يعلم ما إن كانوا من رجاله، ولن يكون من الحكمة أن يُظهر نفسه لهم بإضاءة المكان.

قال آريك بوك: «يا قائد الجيش، إنّني أسحب منك رتبتك، ولن تقود جيوشي بعد الآن في المعارك». حاول أن يحافظ على نبرة صوت هادئة، لكنّ الغضب أوشك على أن يسيطر عليه، أراد أن يرى وجه الرجل، لكنّ الظلام حالك.

قال ألاندار وقد بدا صوته كئيبا بشكل لا يوصف: «لك ما شئت يا سيدي».

علا صوت آريك بوك وهو يتكلم إلى أن أصبح يصرخ، وقال له: «هل ستخبرني بما جرى، أم سيجب عليّ أن أسحب الكلام منك كلمة تلو الأخرى؟». أحسّ أنّ ألاندار قد أجفل خائفا منه.

أجابه ألاندار: «إنّني متأسف يا سيدي. لقد نصبوا فخا ليستدرجوا مقاتليّ، واستخدموا موقعا آخر ليجعلوني أعتقد أنّي لاحظت حيلتهم». عندها تمكن ألاندار من التعامل مع الأمر بالرغم من أنّه لا يزال مصابا بالدوار بعد هذا اليوم، ومتعبا جدا، ويتكلم بصعوبة.

وجب على كلماته أن تخفي مديحه للعدو، لكن كان هنالك احترام مليء بالحسد حين أكمل قائلا: «نصبوا كمينا لقواتي عندما تبعناهم إلى داخل الوادي، ورأيت أيضا ما يقارب المئة وعشرين ألف محارب بالمجمل يقودهم كوبلاي وأويانغ خاداي».

سأله آريك بوك: «ألم تكن أوامري أن تنتظر إلى أن يأتي الجيش الرئيسي إليك إن رأيت العدو؟ ألم تعتقد أنّني أخذت ما حصل اليوم تماما بعين الاعتبار؟»

أجابه الاندار: «إنّني متأسف يا سيدي. اعتقدت أنّني تمكنت من إدراك ما يخططون له، وأنّه بإمكاني أن أهجم وأدمرهم لأجلك، فقد رأيت الفرصة مواتية لتدميرهم وحاولت أن أستغلها، لكنني كنت مخطئا يا سيدي الخان».

ردد آريك بوك وراءه: «كنت مخطئا». كان هذا كافيا ليجعل الرجل ينحب ويعتذر له. استدار آريك بوك إلى قائد في الطرف الآخر وقال له:

«فلتأخذ أسلحة الرجل وتكبله يا أوراك، سأتعامل معه في الصباح». تجاهل أصوات الصراع عندما اقترب المحاربون من ألاندار، فهل توقع حقا أن يبقى على قيد الحياة؟ لا بد من أنّه أحمق.

عندما ظهر الهلال وأضاء السماء بعض الشيء، كانت قوات كوبلاي قد وصلت إلى حافة ساحة القتال، فما كان من آريك بوك إلا أن غادرها. لا يزال بعض الرجال والأحصنة الذين سقطوا في المعركة على قيد الحياة، يطلبون المساعدة بشفقة إلى أولئك الذين مروا بالقرب منهم. اختار آريك بوك طريقه بحذر مبطئا من سيره، ازدادت أعداد القتلى على الأرض وهو يتابع طريقه، بإمكانه أن يسمع أصوات الجرحى ينتحبون من الألم. أصبح الغضب الذي اعتراه كصخرة جثمت فوق صدره، وفي معدته، لذلك بالكاد استطاع أن يقف منتصبا، إنّ قائد جيش كوبلاي هو المسؤول عن هذا؟

في مركز كل هؤلاء القتلى، ترجّل آريك بوك عن حصانه، وطلب إليهم أن يحضروا الأضواء. هنالك رائحة مزعجة والذباب منتشر في كل مكان على الرغم من الظلام، وقد أخذ يطنّ

في وجوه الرجال الذين اضطروا للتلويح كي يبعدوه عنهم كل بضع لحظات. تنفس آريك بوك بعمق، وأغمض عينيه عندما أُضيئت المشاعل من كل الجهات. رجف آريك بوك قليلا عندما نظر إلى تلك المنطقة يحاول أن يستوعب ما يرى، وضغط على شفتيه قرفا وأعماه الغضب من جديد، إنّ أخاه هو المسؤول عن كل هذا، صاح بصوت عال: «أحضروا ألاندار إليّ».

لم يتكلف عناء النظر في أي اتجاه، لكن رغم ذلك فقد تم نقل الأوامر بسرعة، وتم جر ألاندار ليُلقى إلى قدمي آريك بوك.

سأله آريك بوك: «هل كانوا يتوجهون إلى الشمال بعد نهاية المعركة؟».

الرجل الذي كان قائد جيشه من قبل يعاني الآن وهو يركع على قدميه، ويومئ محاولا أن يبقي رأسه محنيا للأسفل بأكبر قدر ممكن، وأجاب:

«أعتقد ذلك يا سيدي».

تمتم آريك بوك: «سيتجه إلى كاراكورم إذن. بإمكاني اللحاق به رغم ذلك». لقد علم سبب سعي كوبلاي وراء تلك المدينة، فهنالك عشرات الآلاف من النساء والأطفال الذين شكّلوا مجمعاتهم الفقيرة في السهول حول كاراكورم، ينتظرون رجالهم كي يعودوا إليهم.

استل آريك بوك سكينا كبيرة من غمد مثبت على فخذه. إنّ أشلاء محاربيه الممزقة مبعثرة في كل مكان حوله ولا بد من أن يكون هنالك حساب على هذا، وثمن ليُدفع مقابل كل هذا، وقد علم ما وجب عليه فعله.

سمع ألاندار صوت السكين التي أُخرجت فنظر إلى الأعلى مرعوبا. وقال:

«سيدي الخان، إنّني...». اختنق صوته عندما أمسك به آريك بوك من شعره ونحر عنقه بضربة قوية مزقت لحم الرجل.

قال آريك بوك في أذني ألاندار: «إنّ هذا يكفي منك، فلتصمت الآن».

اهتز ألاندار بعنف معانيا، وفاحت رائحة البول الذي تبخر في الهواء.

رماه آريك بوك جانبا، وصاح في الظلام: «أيها الكشافة، تعالوا إليّ».

أتى اثنان من الأقرب إليه بسرعة فقفزا عن حصانيهما، وألقيا نظرة خاطفة على جثة ألاندار الهامدة ثم أشاحا بنظريهما.

قال آريك بوك: «لقد قطعتما اليوم مسافات كثيرة، لكنكما لن ترتاحا هذه الليلة».

كان الكشافان شابَين لم يتجاوزا الثامنة عشرة من العمر، فأومأا من دون أي كلام مأخوذين بمثولهما أمام الخان.

قال لهما آريك بوك: «خذا حصانين جديدين، وانطلقا إلى كاراكورم، استخدما مراكز اليام لتبديل الحصانين». ثم سحب خاتما من إصبعه وأعطاه إلى أحد الشابين، وأكمل: «سيجب عليكما أن تتجاوزا جيوش أخي، لذلك انطلقا بقوة وسرعة، أريدكما أن تصلا إلى المدينة قبله. جِدا رئيس حراس قصري، وأخبراه أنّني قلت إنّ الوقت قد حان. هل تفهمان ما أقول؟ قولا له هذه الكلمات بحرفيتها. والآن فلتعيدا أوامركما على مسمعي».

ردد الشابان كلماته أمامه، فأومأ لهما راضيا. هنالك ثمن يُدفع لكل شيء، ففي الوقت الذي يصل فيه كوبلاي إلى المدينة، سيعلم ما هو ثمن تمرده، ابتسم آريك عندما فكّر في ذلك، فربما سيثور رجال كوبلاي عليه عندما يدركون ما كلّفهم تصرفه، ومن المحتمل أن يعود آريك بوك إلى المدينة ليجد أخاه قد قُتل على أيديهم.

41

كان الليل باردا وساكنا حينما ركب كوبلاي متجها إلى كاراكورم. تشارك هو ورجاله قطعا من اللحم الأسود في الطريق، وتبادلوا آنية من الحليب الحامض أو القمارص ليرووا بها عطشهم.

ليس هنالك وقت للتوقف والاحتفال بنصر اليوم، خصوصا وأن محاربي آريك بوك يسيرون على مقربة منهم في الخلف.

رأى كوبلاي ابنه للحظات عندما ركب زين جين بالقرب منه لأداء بعض المهمات لقائد مجموعته، لا بد من أنّ الرجل قد اقترح أن يركب بالقرب من الخان في أثناء سيرهم، إنّ هذا نوع من اللفتات الخفية التي نسقها رجاله، وقد علم كوبلاي أنّهم أحسوا بالفخر لوجود ابنه يركب معهم، فمع كل الثقة التي منحهم إياها فقد أشفق كوبلاي على العدو الذي اقترب محاولا أن يتغلب على تلك المجموعة، إذ إنهم سيذبحون كل من يتجرأ على الاقتراب من وريث الخان.

بالرغم من أنّ أفكاره بدت متلبدة، إلا أنه عمل على وضع الخطط وهو في طريقه، ووجب عليه أيضا أن ينتهي من هذا ويبتعد قبل الفجر، لكنّ رجاله قاتلوا أو ركبوا طوال اليوم وأصبحوا منهكين من التعب. إنه من دون الاستراحة يسلبهم قوتهم، ويدمر جيشه في الوقت الذي يحتاج فيه إليهم بأقصى قوتهم وطاقتهم. لقد أعطى الأوامر بالفعل للركوب على شكل ثنائيات، إذ يستريح أحد الطرفين ويأخذ قيلولة في حين يستلم الآخر لجام الحصان، لكنّهم احتاجوا إلى الترجل والنوم لعدة ساعات على الأقل.

من المحتمل أنّ أويانغ خاداي كان الرجل الأكبر سنا من بين جميع الرجال الذين قادهم، ولكنّه بدا تحت ضوء القمر الخافت نشيطا وقويا كعادته، ابتسم كوبلاي له، محاولا أن يقاوم الحركة المترنحة لرأسه التي جعلته يتنشط من جديد كلما وجد نفسه نائما، إنّ ميزة السرج المرتفع أنّه يسند الرجل النائم بشكل أفضل من أي تصميم آخر، لكنّه لايزال يشعر أنّه من الممكن أن يسقط عنه إن تغلب النوم عليه، فقد كان يتثاءب بشكل كبير كل بضع لحظات.

«هل نعلم كم خسرنا من الرجال؟». سأل كوبلاي هذا السؤال كي يُبقي نفسه مستيقظا، وليس لأنه أراد أن يعلم هذا حقا.

أجابه أويانغ خاداي: «لا أستطيع أن أكون دقيقا إلى أن يحل الصباح، لكنني أعتقد أنّنا خسرنا قرابة العشرين ألف مقاتل أو أكثر بقليل».

سأل كوبلاي متعجبا، وانفجرت الكلمات منه بقوة: «في يوم واحد؟».

لم يشح أويانغ خاداي ناظريه وأجاب: «لقد قتلنا أكثر من ذلك، فلديهم عدد الأقواس ذاته، والمهارات ذاتها، لذلك لا بد من أن تكون الخسائر كبيرة».

كشر كوبلاي ونظر إلى السماء، فهو خسر عددا يقارب عدد الرجال الذين خسرهم خلال كل المعارك التي خاضها في إمبراطورية سونغ، إضافة إلى أنّ هنالك العديد منهم يُحتمل بقاؤهم على قيد الحياة وهم يشعرون بالبرد والوحدة بين القتلى، ينتظرون أن يجدهم محاربو آريك بوك ويغرزوا سكاكينهم في أجسادهم.

ارتعش عندما فكّر في مثل هذه النهاية المفجعة، فبعد أن قضى سنوات برفقتهم في أراضي سونغ فإن خسارة كل واحد منهم تُعد خسارة شخصية، لم تكن لدى آريك بوك فكرة عن مفهوم الولاء الذي زاد بينه وبين محاربيه خلال السنوات. أزاح هذا التفكير بعيدا، فهو يعلم أنّه لن يفيد بشيء، سوى أنه سيزيد من غضبه على أخيه الأحمق، لا يزال عمق غضبه يفاجئه، لكن بدا من الصعب أن يكبح جماحه.

قال بصوت عال: «أربعة أيام لنصل إلى كاراكورم، سيبقى رجال أخي خلفنا طوال الطريق».

لم يرد أويانغ خاداي، وكان كوبلاي يعلم أنه لم يطرح على أويانغ أي سؤال لينتظر منه جوابا. وابتسم عندما فكّر كيف يستطيع الرجل الأكبر سنا أن يكون قليل الكلام بعد كل ما خاضاه معا، فقال له:

«هنالك شيء آخر سأقوم به يا قائد الجيش، فعندما نصل كاراكورم، سيكون علينا الدفاع عن شعبنا ومدينتنا، سأجعل جميع من في الأمة ينظرون إلى آريك بوك على أنه العدو، وعندما تصبح المعركة في أوجها سيضربه بايار». صمت كوبلاي وتنهد قبل أن يتابع سائلا: «ما رأيك في هذا؟».

في النهاية أجاب أويانغ خاداي: «أعتقد أنّه لديك ما يقارب المئة ألف محارب أو أقل من ذلك لمواجهة محاربي أخيك المئة وعشرين ألفا وربما أكثر. وأعتقد أن السهام والرماح لدينا تبدأ في النفاد، ولا أستطيع أن أضع الخطط بناء على قوة إضافية وجبَ عليها أن تنتقل لألفي ميل أو أكثر».

قال كوبلاي: «لقد عدت من رحلتك إلى أراضي هولاكو، أعتقد أنّ بايار سيصل إلى هناك بدوره».

قال قائد الجيش: «سأكون سعيدا برؤيته، لكنّنا يجب أن نتحضر للأسوأ. فنحن بحاجة إلى أسلحة».

تمتم كوبلاي، فقد كان عليه أن يعلم أفضل من أن يتوقع كلمات تحفيزية من أويانغ خاداي. إضافة إلى أنّ خانات شاغاتاي قد زودت حملَته بالعديد من المؤن؛ فقد أرسل السيد الغو الفتية العرب ليصنعوا سحابة الغبار وهذا أدى دورا حاسما في معركتهم الأولى، وأيضا مخزونهم الذي لم ينتهِ بعد من الطعام والشراب أتى من مدنه. رغم ذلك فإنّ أويانغ خاداي على حق، فقد كانت السهام والحراب مخزونهم الأكثر أهمية وما بقي منها قد ينفد في معركة واحدة.

قال كوبلاي: «إن استطعت أن تجعل السهام والرماح تظهر خلال الأيام القليلة القادمة فسأشكرك على قسمك على الولاء لي يا قائد الجيش. حتى ذلك الحين، لا فائدة من مناقشة هذا».

ظل أويانغ خاداي صامتا لوقت طويل يفكر، وفي النهاية قال:

«هنالك مخازن في كاراكورم تكفي لتملأ كل جعب السهام لدينا».

تراجع كوبلاي عن السخرية من الفكرة في اللحظة الأخيرة، فالرجل العجوز يعرف الفرص كما يعرفها هو، وسأله:

«هل تعتقد أنّنا نستطيع الحصول عليها؟».

أجابه أويانغ خاداي: «لا، لكن الخان آريك بوك يستطيع».

تفاجأ كوبلاي من هذه الكلمات، فأومأ أويانغ خاداي وأكمل: «لا تعلم المدينة شيئا عن المعارك التي تحدث في الخارج. بإمكاني أن أرسل رجالا يحملون الأوامر لإحضار سهام ورماح جديدة على عربات. إنّ هذا جيد على ما أعتقد ومن الممكن أن ينجح، إن سمحت لي، سأرسل بعض الكشافة يحملون الأوامر المفترضة من الخان، رجال أثق بهم ليؤدوا هذه المهمة».

أجابه كوبلاي: «إنني أسمح لك». وشكر السماء بصمت لوجود هذا الرجل بالقرب منه.

بدا التكلم معه في الظلام أسهل بكثير من العادة، فلا يستطيع أي من الرجلين أن يرى الآخر بشكل جيد، وفكّر كوبلاي في مشاركة السر الذي عرفه منذ سنين مضت في أرشيف كاراكورم. جعله القلق يتغاضى عن كلماته، لكن قرر أن يتكلم فجأة باندفاع وقال:

«لقد سبق لي أن وجدت سجلا عن أبيك». خيّم صمت مطلق حولهما وتساءل عما إذا كان أويانغ خاداي قد سمعه حتى، فسأله: «أما زلت هنا؟».

«أنا هنا. أعلم من كان، إنّه ليس بشيء اعتدت أن...». أجابه أويانغ خاداي ثم تلاشى صوته.

حاول كوبلاي أن يجعل من أفكاره أوامر، فاحتاج إلى أن يجد الكلمات المناسبة، لقد علم لسنوات عديدة أن أويانغ خاداي هو ابن تسوبوداي، لكنّ هذه المعرفة لم تجد الوقت المناسب لتُطرح. عندما سمع أن قائد جيشه يعلم بالأمر جعله على نحو غريب يبدو عديم المعنى.

قال كوبلاي: «لقد أُعجبت به وأحببته، تعلم هذا، فهو رجل لا مثيل له».

قال أويانغ خاداي: «لقد سمعت العديد من القصص عنه يا سيدي، فهو لم يعرفني».

قال كوبلاي: «لقد عاش سنواته الأخيرة يعمل بالرعي، هل كنت تعلم ذلك؟».

«لقد علمت». فكّر أويانغ خاداي لفترة من الوقت قبل أن يكمل، أما كوبلاي فبقي صامتا: «لقد كبرت برفقة جنكيز بدورك بما أنّه جدك يا سيدي، أعتقد أنّك تعلم ما يكفي عن الرجل الذي لم يفارقه».

تمتم كوبلاي قائلا: «إنهما عملاقان».

أجاب أويانغ خاداي: «أعرف هذا جيدا».

لقد كان هذا شيئا في داخل أويانغ خاداي لم يتوقعه كوبلاي، فقد ارتفع الرجل في الرتب من دون مساعدة أحد، وللمرة الأولى أحس كوبلاي أنّه فهم ما قاد الرجلَ وأعطاه الدافع حتى يكون ما هو عليه، فقال:

«أعتقد أنه كان سيفتخر بك».

ضحك أويانغ خاداي في الظلام وقال: «وكذلك كان جنكيز سيفتخر بك. أما الآن فدعنا ندع الأشباح للّيل. يجب أن نجد نهرا لتشرب الأحصنة، وسأوشك على أن أقع عن صهوة حصاني إن لم أرتح قريبا».

ضحك كوبلاي، وتثاءب مرة أخرى عند سماع فكرة النوم وقال:

«كما تشاء يا قائد الجيش. سنجعل من آبائنا وأجدادنا فخورين بنا، أنا وأنت».

أجابه أويانغ خاداي: «أو ننضم إليهم».

«أجل.. أو ننضم إليهم، الفخر أو الموت». قال كوبلاي، ثم توقف ليمسح الرمل عن عينيه قبل أن يكمل: «لن يتوقف آريك بوك الآن، ليس ونحن نتحرك باتجاه العاصمة. سيدفع رجالَه وراءنا حتى إن انتهى بهم الأمر مرهقين».

قال أويانغ خاداي: «لقد أردته أن يكون يائسا، مع كل شيء فقد ركّز على المدينة. وإذا لم يأت بايار...»

أوقفه كوبلاي وقال: «سيأتي يا قائد الجيش».

كانت الأيام الثلاثة التالية من أغرب الأيام التي عرفها كوبلاي، فقد كان محقا حول دفع آريك بوك لمحاربيه إلى أقصى حدودهم. ففي اليوم الثاني، اجتازت الجيوش أربع محطات يام، وعلموا أنّهم قد تجاوزوا مئة ميل من الفجر إلى الغسق.

تحرك الكشافة على أطراف كل قوة يأتون في بعض الأحيان للتفاخر، أو ينجرفون إلى داخل منطقة السهام وبذلك يستهدفون على أحصنتهم مما يجعلهم يسقطون أمام صرخة قوية من أقرب المحاربين إليهم.

عند غروب شمس اليوم الثالث، لم يعد يفصل بين الجيشين أكثر من عشرة أميال ولم يستطع أي منهما أن يضيق أو يوسع تلك الفجوة أو يوسعها. لا يتذكر كوبلاي عدد الأحصنة التي بدّلها في حين حاول هو وأويانغ خاداي أن يفعلا ما بوسعهما كي يُبقيا على أحصنتهما نشيطة، لكن لم يكن هناك وقت كافٍ للرعي، إذ وجب عليهم أن يتركوا المئات من الأحصنة خلفهم عندما ضعفت أو أصبحت تعرج.

شعر كوبلاي بأنفاس أخيه على عنقه طوال الوقت، لكن كل ما فعله هو النظر إلى الأمام بحثا عن كاراكورم متجاهلا ما يشعر به.

عندما أوشكت الشمس على الغروب أصبح الوضع متعبا للرجال، لكنّ كوبلاي لم يستطع أن يأمرهم بالتوقف إلى أن يتأكد من أنّ أخاه قد توقف اليوم، فبما أنّ الجيشين بهذا القرب فإنه لم يجرؤ على التوقف للاستراحة في مكان يستطيع أن يشن آريك بوك فيه هجوما مباغتا عليهم. كان كشافته ينقلون له أين أصبح جيش أخيه إلى أن نقلوا له في النهاية الخبر الجميل وهو أنّ مطاردهم قد توقف. حينها أصرّ كوبلاي على المضي مجبرا رجاله على قطع كل ميل ثمين مستهلكين طاقتهم.

نام رجاله كالموتى تحت النجوم، ولم يكن من الممكن إيقاظهم من أجل مناوبات الحراسة الليلية إلا عن طريق الركل، صاح الرجال خلال نومهم متعبين وذلك بسبب التفكير المستمر في أنّهم ملاحَقين بشكل دائم إذ إنه من الصعب عليهم وهم صيادون بالفطرة أن يكونوا ملاحقين، في حين ازدادت ثقة الرجال من خلفهم بأنفسهم مثل مجموعة من الذئاب، وهم يعلمون أنّهم سيمسكون بهم في النهاية.

لقد علم كوبلاي من خلال كشافته، بأن الأسلحة آتيه إليهم، ولكنه لم يخبر محاربيه لأنّه يعلم أنّهم سيستمتعون برؤية العربات المحملة بالأسلحة من كاراكورم. وصلت عربات الأسلحة إلى مخيم محاربيه قبل غروب الشمس، ورحّب رجاله بهذه العربات بالهتافات والصياح. صعد رجل إلى كل عربة، وأخذ يرمي جعب السهام الممتلئة والرماح إلى الأيادي الممدودة، أخذ الرجال يضحكون عندما علموا أنّ المدينة أعطتهم مثل هذه الهدية بالخطأ، إضافة إلى عدم تعرض الرجال الذين قادوا هذه العربات للأذى فهم يعلمون تماما كيف يعترضون إذا ما تم إيقافهم وطلب إليهم أن يعودوا إلى المدينة.

تبعد كاراكورم ما يقارب الأربعين ميلا عنهم، يعلم كوبلاي أنّهم سيصلون إلى المدينة عند ظهيرة الغد، وتمنى لو طلب إليهم أن يحضروا قوارير مليئة بالقمارص إضافة إلى السهام والرماح، لكنّه اكتفى برؤية السعادة التي ظهرت جلية على وجوه رجاله بسبب ما حظوا به عن طريق الحيلة.

أحسّ كوبلاي بأنّ التوتر الذي رافقه خلال الأيام الماضية قد قل عندما تمدد تلك الليلة لينام، بعد أن ارتطمت قدمه بحجر مما جعله ينظف العشب تحته لدقيقة قبل أن يتمدد. بما أنّ كاراكورم أصبحت قريبة فمن شبه المؤكد أن رجاله سيقاتلون في الغد، سيدخلون في معركة مع عدو منهك

ومتعب مثلهم تماما، وسيكونون واثقين من أنفسهم، وسيبذلون ما في وسعهم، لكن رغم ذلك فقد خاف عليهم جميعا.

أن يقاتل اثنا عشر رجلا مقابل عشرة أمرٌ سيجعل القتال صعبا. لأن الرجال العشرين ألفا الذين باستطاعة أخيه أن يزج بهم في المعركة يمكنهم أن يُحدثوا فرقا، عشرون ألف رجل قادرون على أن يمطروا رجاله بالسهام أو ينقضوا عليهم بهجوم مباغت في أثناء انهماكهم بالمعركة. لو أنه واجه إمبراطورية سونغ بهذا الشكل لضحك على هذه الأرقام، لكن مواجهة شعبه جعلته يشعر باليأس. لقد قام بكل ما يستطيع القيام به، وفكّر مرة أخرى في الورقة الأخيرة لديه التي سيرميها عندما يصل إلى مشارف كاراكورم. لا بدّ من أنّ بايار في مكان ما خلف التلال يوشك على الوصول إلى المدينة، وسيتمكن محاربوه الثلاثون ألفا من تغيير مسار المعركة.

كان يفكر عندما غلبه النعاس. لم يشعر كوبلاي بشيء إلى أن أتى ولده ليوقظه، هزه من كتفه ووضع قطعة من اللحم البارد في يده، لم ينبلج الفجر بعد، ولكن أبواق الكشافة أشارت إلى أن مخيم آريك بوك بدأ الاستعداد للتحرك.

وقف كوبلاي يأكل ويمضغ طعامه بسرعة، عندما أدرك أنّ هذا هو اليوم الأخير. إنه يعلم أنّه مهما يحدث فإنه سيرى نهاية الأمر قبل أن تغيب الشمس التي كانت تشرق لتوها خلف الجبال، وهو تفكير غريب بعد كل ما مر به.

طار النوم من عينيه، ووقف على قدميه يقضم طعامه، أجفل عندما علق شيء بين أسنانه، وأحسّ أنّ هنالك سنا على وشك السقوط، تذكّر وهو يجفل أنّ هناك أطباء للأسنان في كاراكورم. عندما شعر بحاجة إلى إفراغ مثانته وضع الخبز في فمه ووقف يسحب رداءه، وتبول على الأرض برضى.

قال لزين جين وهو بالكاد يبتسم له: «ابق سالما اليوم».

لقد أصبح الفتى الشاب نحيلا خلال الأيام التي قضاها في القتال أو ركوب الأحصنة معهم، وبشرته أيضا أصبحت أغمق مما يتذكر كوبلاي، كان يأكل الخبز البائت القاسي مثل الحجر لكنّه المتوفر، ولحم الضأن المليء بالشحم أشبه بعجينة رملية في فمه، عندما أوشك كوبلاي على الاختناق ناوله زين جين إناء تجرع منه الماء.

قال كوبلاي لزين جين: «ما أعنيه هو إن سارت المعركة بشكل سيئ بالنسبة إلينا فلا تأت إليّ بل ابتعد، أفضّل أن أراك تهرب وتعيش بدلا من أن تبقى وتموت، هل هذا مفهوم؟».

نظر إليه زين جين نظرة أشبه باحتقار مبهم، لكنّه أومأ له موافقا، بدأت أصوات أبواق الكشافة تعلو من جديد، وتحرك مخيمه بسرعة عندما امتطى الرجال أحصنتهم، وأخذوا يتفقدون أسلحتهم للمرة الأخيرة، فقد بدأ محاربو آريك بوك بالتحرك.

قال كوبلاي على مضض: «أسرع الآن، وعد إلى مجموعتك».

تفاجأ عندما عانقه زين جين للحظة بقوة قبل أن يتحرك ويتجه إلى حصانه.

انطلقوا بسرعة خلال ساعات النهار الطويل يقطعون الأميال بسرعة أو يهرولون إلى أن يلقي الكشافة نظرة على قوات آريك بوك ويبلغوهم بالمستجدات. لن تعني أربعون ميلا شيئا للرجال والأحصنة المفعمين بالنشاط، لكن بعد أيام من ركوب أحصنتهم كانوا جميعهم متعبين. تخيل كوبلاي أحصنتهم تنزف دما بعد عدة أميال مما سيجعلهم يتخلون عنها لأنها تعرج أو تنهار، لكنّ هذه الخيول القوية قد ربيت لتتحمل، لذلك أكملت طريقها مثلما أكمل الرجال الذين يركبونها طريقهم متجاهلين الآلام في ظهورهم وأقدامهم.

لقد كانت لحظة غريبة بالنسبة إلى كوبلاي عندما تعرف إلى التلال المحيطة بكاراكورم. لمعت المنحدرات الخضراء الرمادية في ذاكرته، فقد ترعرع في المدينة وعرف الأراضي المحيطة بها مثل أي مكان في العالم. شعر بانقباض عندما لاحظ قوة ذاكرته والذكريات التي تتالت إلى ذهنه، عندما علم أنّهم وصلوا إلى الديار. خلال كل تخطيطاته والمناورات التي رسمها في ذهنه لم يأخذ بالحسبان قوة هذه الذكريات البسيطة، فها هو ذا الآن في الديار، وها هي ذي المدينة التي بناها عمه تقبع على بعد أميال، وقد حان الوقت كي يستدير ويواجه أخاه، ويختبر الرجال الذين علمهم وتعلّم منهم خلال آلاف الأميال التي قطعوها من أراضي امبراطورية سونغ، أحسّ بالدموع تداعب عينيه فضحك على هذا.

42

شُيد السور الذي يحيط بكاراكورم في الأساس ليكون بارتفاع رجل، لكنّ هذا قد تغير عندما هُددت المدينة فتم تدعيم السور ورفعه وأصبح يحتوي على أبراج مراقبة وبوابات قوية. لم يعد كوبلاي يعلم عدد السكان الذين تأويهم المدينة، أو عدد التجمعات حول المدينة في الخيم الفقيرة. لقد مشى بينها أكثر من مرة عندما كان شابا، إنها ذكريات جميلة وحزينة في الوقت ذاته. إنّ أفراد شعبه لم يحسنوا التصرف في مكان واحد، بالرغم من أنّهم أتوا إلى كاراكورم للعمل وجمع المال، لم يكن هنالك خياطون، وتجمعت الخيم السكنية هناك بشكل كثيف تحت الشمس، وأيضا الرائحة النتنة للبول والبراز بإمكانها أن تجعل أقوى الرجال يتقيؤون. عندما كانوا يتنقلون كانت هذه المخيمات نظيفة وخضراء، لكن عندما حاصرهم الفقر، عاشوا في ذل وفي مكان أشبه بأحياء الفقراء فلم تتجرأ النساء ولا بعض الرجال على أن يخرجوا من منازلهم بعد مغيب الشمس.

عندما أعطى أوامره للتوقف، استطاع أخيرا رؤية الأسوار البيضاء البعيدة. لقد تجنب أية أفكار تتعلق بالمستقبل بما أنّ أخاه في الميدان ضده. بدا الأمر أشبه بالافتخار المبالغ به، فمن الخطير أن يضع خططا للسنوات القادمة في حين أنه من الممكن أن يُقتل اليوم بكل بساطة. مع ذلك، كلما حدّق إلى الضباب خلفه تبادرت إلى ذهنه الأراضي الواسعة المحيطة بشانغدو في أراضي إمبراطورية تشن، بإمكانه أن يجد مكانا لهم هناك، وبإمكانه أن يسمح لهم بأن يسكنوا فيه ويعيشوا مثل الرجال بدلا من عيشة الحيوانات هذه متجمعين في مكان صغير جدا ومدينة صغيرة. أصاب المرض شعبَه عندما لم يتمكنوا من الانتقال، ليس بسبب الأمراض التي تنتشر في المدينة خلال كل صيف فقط، فبينما ارتفعت الشمس من فوقه ارتعد من فكرة انتشار وباء الطاعون أيضا في كاراكورم التي غاصت في قذارتها. كان متأكدا من أنّه سيتمكن من التصرف بشكل أفضل إن هو عاش.

كان أويانغ خاداي أشبه بالدبور في ذلك اليوم، يتجول في كل مكان، ويصدر الأوامر إلى المحاربين الذين اصطفوا بشكل ممتاز، رُفعت رايات كوبلاي في مكان بعيد جدا عن المكان الذي

أوقف فيه حصانه محاطا بمرافقيه. نظر وابتسم بسخرية إلى الميدان حيث رفعت الرايات الكبيرة المصنوعة من الحرير الأصفر والمزينة بالتنانين البارزة من القماش كما لو أنّها حقيقية. أخذ يفكر كيف أنّ السهام ستنهمر بشكل كثيف على هؤلاء الرجال الذين تطوعوا لهذا، إنّهم الرجال الوحيدون الذين لا يزالون يحتفظون بالتروس الثقيلة التي استخدموها من قبل، إضافة إلى ذلك فقد وضع تروسا مصنوعة من قشور السمك على صدور أحصنتهم، سيبتعد كوبلاي عنهم ويقف في الصف الرابع ليصدر أوامره متخفيا.

بالرغم من الخسائر التي تكبدوها فقد وقف نحو ستة وتسعين ألف محارب لمواجهة جيش آريك بوك، حارب أغلبهم جنبا إلى جنب لسنوات ضد أعداد أكبر من هذه بكثير، ومما يميزهم أيضا أن كل قائد التقى مع أقرانه ومحاربيه وشاركهم الشرب حد الثمالة لآلاف المرات، فقد عرفوا الرجال من حولهم ووثقوا بهم وهم الآن مستعدون كما لم يكونوا مستعدين من قبل، فمدينة الخان شامخة من خلفهم ووجب عليهم أن يحظوا بها لأجله، والخان نفسه يقاتل أيضا بين الصفوف، وسينتهي كل شيء اليوم.

لا تزال لدى آريك بوك تسعة أميال عليه أن يقطعها عندما أمر كوبلاي قواته بالتوقف، وهذا ما أعطاهم الوقت الكافي لإفراغ مثانتهم، وارتشاف الماء من الجرار، قبل أن يرموها عندما تفرغ. تم تفحص ما يقارب مئة ألف قوس للتأكد من عدم احتوائها أية تشققات، والتأكد من أوتارها وتبديلها في حال وجود مشكلة ما. دهن الرجال الشحم على أنصال سيوفهم كي يتمكنوا من سحبها من أغمادها بسلاسة، وترجّل العديد منهم عن أحصنتهم ليتفقدوا زمام سروجهم وأربطتها بحثا عن أية نقاط ضعيفة قد تتمزق بسبب الحمل. تبادل عدد قليل منهم الضحكات، ونادى بعضهم على أصدقائهم، لقد ازدادت صلابتهم خلال الرحلة الطويلة إلى المدينة وأصبحوا مستعدين.

أبقى كوبلاي ظهره مستقيما كالسيف عندما رأى أول المقتربين من محاربي آريك بوك، فقد ظهروا من مكان بعيد أشبه بالذباب الأسود يتحركون بسرعة في السراب الحار.

بعد الكشافة، أتى المحاربون بشكل مجموعات سوداء ضخمة من الفرسان المنطلقين تحت سحابة من الرمال البرتقالية التي تطايرت من تحتهم بشكل حلزوني وارتفعت فوقهم.

تفحص قبضة سيفه مرة أخرى، سحب السيف من غمده وأعاده إليه مرارا وتكرارا مصدرا صوت صليل. إنّ الشعور السقيم الذي سبّب له ألما في معدته شعورٌ مألوف بالنسبة إليه كما لو أنه يحرق غضبه من خلاله، صحيح أنّه أحس بالخوف لكنّه لن يدع الضعف يتسلل إليه.

رؤيتُه لجيش أخيه جعلَت ضربات قلبه تتسارع، واندفع الغضب بقوة في دمه، استُدعي بمشيئته يزيد من إرادته مما جعله أقوى من الخوف. تصبب العرق من جبينه وهو جالس مثل تمثال يشاهدهم يقتربون. بإمكانه أن يشم رائحة الأحصنة من حوله ممزوجة برائحة الرجال القوية الذين لم يستحموا منذ أشهر. إنّ رجاله يدينون له بالقسم والخبرة، وقد يموت العديد منهم في هذا اليوم، وسيكون ذلك الإثم إثم آريك بوك. دائما ما ذكر كوبلاي نفسه أنّه يعرف أخاه، إذ لا يهم كيف تغير خلال السنين التي فرقتهما.

وقد أتت فكرة الموقع المزيف للرايات من تلك المعرفة.

لم يكن آريك بوك يرغب في الفوز في المعركة فقط، إذ إنّ خسارات قائد جيشه قد أذلّته. إن كان كوبلاي لا يزال يعرفه ولو قليلا فإن أخاه سيكون نصف أعمى بسبب الغضب والجرح اللذين أصابا كبرياءه، وسيوجه رماة سهامه لاستهداف تلك النقطة، في حين سيمتص رجال الرايات تلك السهام. لم تكن هذه الأفكار لطيفة إذ لا تزال هنالك بعض الذكريات عن طفولتهما في عقله، لكنّ كوبلاي سيستخدم أي شيء وأية نقطة ضعف ضده في ذلك اليوم. لقد اعتذر من أمه وأبيه بصمت، آملا في ألا يتمكنا من رؤية المعركة التي سيخوضها اليوم.

نظر كوبلاي إلى يمينه ويساره على طول الصفوف الهادئة. لم يكن يرتدي أي شيء يدل على مكانته وسلطته، ونظر إليه مرافقوه بتعابير تدل على افتخار تام به.

كانوا مستعدين، فأرسل دعاء آخر إلى أرواح أجداده كي يأتي بايار في الوقت المناسب.

رأى أويانغ خاداي يرفع يده، لقد حان الوقت. نظر إلى الأمام باتجاه الجيش الكبير المتجه إليهم عندما أعطى قائد جيشه الأمر، بدأت أصوات الأبواق تتردد بين الصفوف، إشارة للانطلاق، نغمة منخفضة جعلت يدَي كوبلاي ترتجفان قبل أن يقبض على لجام حصانه بقوة.

تحرك مئة ألف محارب يركبون أحصنتهم ويهرولون إلى الأمام لملاقاة العدو، ذلك العدو الذي كان أخيه الأصغر.

43

ارتفع آريك بوك، وانحنى على صهوة حصانه، محدقا عبر الغبار إلى المكان الذي انتظره فيه أخوه. حدد له الكشافة موقعه قبل وقت طويل، لكنّه لا يزال ينتظر أن يتأكد من ذلك بأم عينيه، بالرغم من أنّ أسوار كاراكورم كانت ملونة بالأبيض إلا أنه لم يتمكن من رؤية إلّا القليل من الظلال خلف الصفوف الداكنة لجنود كوبلاي، التي بدت مثل انعكاس لحديد ما، أومأ غاضبا، وأحكم قبضته على مقبض سيفه.

نظر قادة فيالقه الاثنا عشر على جانبيه إلى جنودهم، وانتظروا إذنه كي يلتحقوا بالجنود، لكنّ آريك بوك بقي صامتا.

خذله قائد جيشه، ولم يُعين قائد جيش آخر كي لا يراه يفشل بدوره، فهو الخان، وبإمكانه أن يقود المعركة، وبإمكانه أن يشعر بالتوتر الذي أحس به رجاله ذوو الرتب المرتفعة الذين اعتقدوا أنه سيبقيهم إلى جانبه حتى يبلغهم وابل السهام الأول.

امتطى رجاله أحصنتهم مسافة خمسين ميلا في ذلك اليوم من دون توقف، وكانوا متعبين، لكنّ رؤية العدو يقف قبالتهم، أزالت ذلك التعب عنهم. لم يشعر آريك بوك بالتعب، فقد استعر الغضب والحماس فيه، سيما أنه لم يعد يفصل بين الجيشين أكثر من ميلين، عندها تمكن من رؤية تشكيلات جيش كوبلاي تقف في مكانها كما لو أنها نبتت من الجذور، منتظرة إياه. لقد قاوم الغضب الهائل الذي اعتراه عندما فكّر في كيفية قطعهِم عليه الطريقَ إلى مدينته، ووقوفهم في طريق الخان الشرعي، ووعد نفسه بأنّه سيرد على غطرسة أخيه.

سارع جنوده ليماثلوا سرعته، بالرغم من أنّهم لم يكونوا كسولين، أُحضرت آلاف الأحصنة الإضافية من الخلف، وبذلك أصبح بإمكان الجنود أن يتنقلوا بينها قفزا من دون أن يضطروا للإبطاء من سرعة مسيرهم، تراجعت الأحصنة التي ركبوها طوال اليوم إلى الخلف بسرعة من دون الرجال الذين حثوها على الإسراع.

أصبح آريك بوك قريبا لدرجة سمحت له برؤية الرايات الصفراء الكبيرة التي رُفعت على رماح أشبه بالأشواك العالية مشيرة إلى المكان الذي يقف فيه أخوه. من هذه المسافة، لم يتمكن من تمييز الرمز الذي رُسم عليها، لكنّه حظي بالنظرة الأولى على موقع الخان المزيف. استطاع أن يتخيل كوبلاي وهو ينظر إليهم، فأصابته القشعريرة كما لو أنّ نظراتهما قد تلاقت عبر السهل الفارغ.

نادى قادة جيشه قائلا: «هذا هو هدفكم، سأمنح إقليما للرجل الذي يأتيني برأسه، فمن منكم يريد أن يصبح خانا لأحد الأقاليم في نهاية هذا اليوم؟».

لاحظ المفاجأة التي اعتلت وجوههم عندما استوعبوا حجم الجائزة التي عرضها عليهم، فشعر بالرضى، إذ إنه بعد العرض الذي قدمه لجنوده سيقود رجالا لن يُبدوا أية رحمة في سبيل حصولهم على الجائزة. لقد شعر براحة تامة عندما فكّر في أنه سيهوي على كوبلاي كما لو أنه جبل يهوي على رأسه من السماء.

أرسل قادته إلى الخلف ليقفوا مع جنودهم، وما هي إلا فترة قصيرة حتى شعر بالتغيير عندما بدؤوا يصيحون الأوامر بصوت عالٍ، فازدادت سرعتهم، وانطلق المحاربون بأقصى سرعتهم، يحاول كل واحد منهم المناورة ببراعة، ليحظى بالموقع الأفضل كي يتمكن من ضرب تلك المجموعة الصغيرة التي تحمل الرايات.

ابتسم آريك بوك مستمتعا بأفكاره، لم يعد يفصل بين الجيشين إلا أقل من ميل، بدا له الأمر كما لو أنه رمى اللحوم الطرية أمام الذئاب، فهو يملك العدد الأكبر من الرجال؛ أولئك الرجال الذين يقاتلون من أجل خان الأمة العظيم، لقد شعر بالسعادة الغامرة لأنه يشارك في هذه المعركة.

كان فتى الاستطلاع مرهَقا، استلقى على سرج حصانه عندما وصل إلى محطة يام الأخيرة في قلب كاراكورم. لم يكن من السهل الجري والالتفاف على محاربي كوبلاي. فقد وجب عليه أن يلتف لمسافة طويلة خلف خطوط الاستطلاع، ثم يمتطي حصانه عبر الظلام ويسير في كل ممر أو طريق يراه، لم ينم طيلة ثلاثة أيام، فهو لم يكن قادرا على ذلك، بوجود كشافة العدو يتحققون من كل مسار وممر. لقد أصيبت عضلة يده الأمامية بخنجر، فاستخدم الألم كمنبه يبقيه مستيقظا، في حين أنه أكمل طريقه يمعن النظر خارج الغابة الكثيفة، وينتظر مجموعة من المحاربين للمضي قُدما.

بينما وجه حصانه المنهك إلى أسفل طريق المدينة متجها إلى محطة يام، حك على الضمادة فوق جرحه، لقد هُيئ له أنه يسمع همساتٍ ويرى ألوانا غريبة، ولم يستطع أن يحدد متى أجبر عينيه

على البقاء مفتوحتين. لم تكن لديه أدنى فكرة عما حدث لرفيقه، فمن المحتمل أن الحظ لم يحالفه مثله، وأصابه سهم عندما كان يتقدم في طريقه.

كان الكشاف فتى في الثامنة عشرة من عمره، اعتقد أن قوته غير محدودة، حتى أظهرت له هذه المهمة الحقيقةَ، فكل عضلة في جسمه تؤلمه، وأحس بأن هناك قطعة من الحجر في جمجمته مكان دماغه، وشعر ببطء تفاعله وغبائه، ربما لهذا السبب لم يشعر بلذة النصر، عندما سقط عن سرجه إلى الأذرع الممدودة لفرسان يام، الذين لم يسخروا من حالته ورائحته، فلا يزال السرج رطبا تحت ساقيه بسبب الأوقات التي تبول فيها من دون أن يتوقف.

بدا عليهم القلق جليا بوجود جيش خارج المدينة، أحضر أحد الفرسان قطعة مبللة من القماش من دلو قريب، وضغط بها على وجه الكشاف، فأيقظه لفترة قصيرة، وأزال الغبار والقذارة المتكتلين على وجهه.

قال أحدهم مستغربا: «لا يملك حقيبة رسائل». لذا لم يتوقع أحد منهم أخبارا جيدة من نوع الرسائل هذا، فالرسائل التي لا تُكتب لا تُبشر بالخير. صفع الرجل الكشاف برفق على وجهه، وقال له: «استيقظ يا فتى. أنت هنا، لقد وصلت. إلى من أُرسلت لتتحدث؟».

رفع الكشاف يده بانفعال بسبب المعاملة القاسية، دفعهم بعيدا ليقف معتمدا على نفسه، وتكلم أمامهم بصوت عالٍ وقوي: «لديّ رسالة من الخان، إلى قائد الحراس».

أعطاه أحدهم إناء من الماء النظيف، فارتشف بامتنان، ثم بصق على الأرض لينظف فمه المليء بالدم.

كانت لكلماته نتائج جيدة، فقد أيقظت الجميع، وأعادتهم إلى كفاءتهم المعتادة.

قال قائد محطة يام: «خذه إلى الداخل يا ليف، سأتعامل مع الحصان».

كان الحصان مرهقا جدا ومدمى حاله كحال فارسه. بوجه متجهم سحبه قائد اليام إلى الساحة، إذ لم يُرد أية دماء على الأرض في الداخل.

نادى أحد الرجال: «سأنتظر سماع بعض الأخبار الليلة».

تجاهل القائد هذا التعليق، في الوقت الذي اقتيد فيه الكشاف بعيدا بمساعدة أحد الرجال الذي كان يسنده.

علم فارس اليام أكثر من أي شخص آخر أنّه يجب ألا يُطرح أي سؤال على الكشافة، فمشيا عبر الشوارع في صمت متجهَين إلى قصر الخان؛ القصر الذي يمكن رؤيته من مسافة بعيدة ببرجه الشامخ المغطى بالذهب. نظر الكشاف إلى الأعلى شاكرا، لقد كان يعرج ويشعر بألم حاد في أعلى ساقه مع كل خطوة يخطوها.

كانت بوابات القصر بحراسة رجال يقفون منتصبين ويرتدون دروعا مصقولة، انحنى أولئك الحراس لفارس اليام، ونظروا بارتياب إلى مرافقه المتسخ.

قال فارس اليام مستمتعا بالفرصة الأولى التي أتيحت له لرؤيتهم يتحركون بسرعة: «نريد مقابلة قائد الحراس، إنّها أوامر الخان، الأمر مُلحّ».

صفّر أحد الحراس في حين انطلق الآخر إلى الداخل كما لو أنه يخوض سباقا للجري، يصدر صوتا قويا من حذائه فقد استطاعوا أن يسمعوا أصوات تقدمه لبعض الوقت.

سأل الحارس: «هل هنالك أية أخبار عن الجيش؟».

هزّ الكشاف رأسه، وأجاب بفظاظة:

«في آخر مرة رأيتهم فيها، كانوا يستديرون لمواجهة الخان، سينتهي الأمر اليوم».

بدا أن الحارس يريد طرح مزيد من الأسئلة، لكن الجميع سمعوا وقع الخطوات العائدة من الجهة الأخرى. لم يهتم قائد الحراس بمنصبه أو مكانته، ليس بوجود رسالة من الخان وجيش الأعداء على مقربة من كاراكورم، وصل راكضا إلى طريق منبسط ووضع يده على البوابة ليستعيد توازنه لأنه كاد أن ينزلق.

سأل لاهثا: «هل تريد أن تقول لي شيئا على انفراد؟».

أجابه الكشاف: «لم يقل لي ذلك، أخبرني الخان أن أقول لك لقد حان الوقت».

ما إن سمع القائد ذلك حتى شحب لونه، وأخذ نفسا عميقا، وتنفس ببطء، محاولا أن يهدئ من روعه، وهذا ما أثار دهشة فتى الكشاف. ثم سأل قائد الحراس: «هل من شيء آخر؟».

«هذا كل شيء يا سيدي، قال لي فقط لقد حان الوقت».

طأطأ القائد رأسه، ومشى بعيدا من دون أن يقول أية كلمة، تاركا أربعة رجال يحدقون إليه.

تمتم أحدهم: «هذا لا يبشر بالخير».

جال كوبلاي بمنظاره ذهابا وإيابا بين صفوف المحاربين المتجهين نحوه، وبين محاربيه. تحرك كلا الجانبين بسلاسة، وأخذا يناوران ويشتبكان عندما التقيا، بحث كوبلاي عن نقاط ضعف الجيش الآخر. للوهلة الأولى بدا الأمر لمن ينظر من بعيد كما لو أنّهما جيشان عظيمان اجتاحا بعضهما بطيش، لكن الصراع كان منظما.

سيحرك قادة آريك بوك أحد الجناحين الأمر الذي سيستجيب له كوبلاي أو أويانغ خاداي ويتصدى أحدهما للتحرك، ثم سيرسلان مجموعة أخرى من المحاربين يسرعون لدعم موقع آخر، لقد سعيا إلى استدراج العدو في الميدان بدلا من المخاطرة بهجوم جماعي على جزء ضعيف من تشكيلاتهم. لقد تكرر الأمر في الهجوم الأول والهجوم الذي تلاه، فعندما أصبح الجنود من الطرفين في مرمى السهام سعى كل قائد للاستفادة من كل ميزة لديه.

على بعد ثلاثمئة خطوة، أطلق الطرفان الوابل الأول من السهام التي حلقت عاليا، ومن خلال احتساب أقصى مدى للأسهم وسرعتها، تبين أنها ستنهال فوق رؤوس الصفوف الأبعد في خلف. شاهدها كوبلاي تحلق مرتفعة، ثم تسقط بغزارة في المكان الذي رُفعت فيه راياته، عندها صاح آمرا قادته الأقرب بأوامره النهائية، لم تمضِ سوى دقائق قبل أن يُرد على السهام، وبعدها انحرف الجنود ناحية اليسار معززين الجهة التي يوجد فيها، تاركين الموقع الخاطئ مع قليل من التعزيزات.

فات الأوان على آريك بوك كي يتصرف، فقد تمكن كوبلاي وقادته من قراءة تشكيلاته، ملاحظين أنه عمد إلى تعزيز جناحه الأيسر، كان الجناح محميا بشكل جيد، فهنالك الآلاف من الرجال يرسلون الدفق الأساسي من السهام، يبدو أن آريك بوك أكل الطُعم، وسيعمد إلى ضرب الموقع الخطأ، الذي يعتقد أن كوبلاي موجود فيه.

بالكاد لاحظ كوبلاي رشقات الأسهم الكثيفة التي انطلقت من الجهتين، بمعدل رشقة كل ست نبضات من نبضات قلبه، حاملة معها الموت والرعب والدمار، فقد ثبّت عينيه على تحركات العدو دون أي شيء آخر، حيث وقفوا يلقون بقوتهم باتجاه المكان الذي ظنوا أن كوبلاي يقف فيه، ويحشدون لينطلقوا بأكبر عدد ممكن باتجاه تلك النقطة من أجل تدميرها.

حلقت عشرات آلاف السهام في اللحظات الأخيرة بين الجيشين، متسابقة في الهواء، وأصابت الأحصنة والرجال على حد سواء، وجب على كوبلاي أن يناور بحصانه متجنبا حصانا

سقط على الأرض أمامه، قبل أن يركل حصانه ليحثه على القفز فوق فارس آخر، وعندها وجد نفسه في الصف الثاني في حين تطايرت الرماح من كل الجهات، فما كان منه إلا أن استل سيفه.

كان محاربو آريك بوك عن يمينه قد جهّزوا رماحهم مستعدين للانطلاق بها، بالرغم من عاصفة السهام الهوجاء في محاولةٍ منهم للوصول إلى مكان الرايات الصفراء وإصابتها.

استطاع كوبلاي قراءة الغضب الذي اعترى أخاه بسبب تشكيلاته، فأخذ يصرخ من دون أن يتلفظ بكلمة، صوت زمجرة اختفى بين الصرخات والاصطدامات في كل مكان من حوله.

وصل أحد الرمّاحين إليه، في البداية بدا بطيء الحركة، وكان يوجه الرمح إلى صدره، ولكن عندما اندفع إليه واصطدم به مثل طير سريع الاندفاع، فقد ضرب مقدمة الرمح حارفا مساره، مجبرا حامله على المرور بالقرب منه ليجرح وجهه، وعندما تجاوزه شعر ببقعة من الدماء تلامس خده.

استغل حملَة الرماح في جيشه الصفوف الضعيفة المقابلة لهم، فقد سخّر آريك بوك محاربيه للهجوم في منطقة واحدة، لذلك شكّل محاربوه تقريبا ما يشبه الرمح على الأرض المندفع في اتجاه واحد.

كشر كوبلاي عن أنيابه، وابتسم عندما رأى ما حدث، صحيح أنّه لن يتمكن من حماية الرجال الذين يحملون راياته، لكنه سيستطيع أن يضرب بشكل مفاجئ خاصرة الجيش التي انكشفت بفعل التحرك الأرعن لمحاربي أخيه.

في فترة وجيزة لا تتعدى عدة ضربات للقلب، انساب الجيشان بالقرب من بعضهما كما ينساب الراقصون، كانت مناورة على مستوى عال من الصعوبة، ولم يستطع تأديتَها إلا نخبة فرسان الأمة، ومع ذلك، فقد ارتكب آريك بوك خطأ، فبينما توغل رمّاحته أكثر وأكثر، أصبح جناح جيشه مكشوفا لقوة كوبلاي الرئيسة. وفي الوقت الذي أصدر فيه كوبلاي أوامره، صاح أويانغ خاداي بتعليماته، مرسلا وابلا جديدا من السهام إلى الحشود التي انطلقت بسرعة عندما تجاوزوهم، مسقطا بذلك مئات الرجال عن أحصنتهم.

لقد استغرق التفاف محاربيه وقتا، وبدت كل لحظة بمثابة عذاب شديد، في حين تدفقت أعداد كبيرة من الرجال على جانبيهم. لجم كوبلاي جماح حصانه بوحشية، مستخدما قوته لإجبار الحصان على الالتفاف في مكان ضيق، فتعثر مجددا بجثة، لكن الحصان عبر بشكل مستقيم، وصهل خائفا،

أشار بسيفه إلى محاربي أخيه، فانطلق رجاله يحثون بكعابهم أحصنتهم على الإسراع، ويزمجرون «تشا» مطلقين صيحات قوية.

اصطدموا في طريقهم بأكثر من حصان، لكن محاربي آريك بوك استمروا بتركيزهم إلى الأمام في حين قام السيافون بطعنهم ورفسِهم وجرحهم بقوة جبارة، قوة رجال تدربوا على السحق.

ذهب كوبلاي معهم، مجتازا الصف الأول الذي يعدو إلى جانبه، وتقدم أكثر في الوقت الذي كانت فيه الصفوف أمامه تنهار، أبقى قادة مجموعاته على صفوف هجومهم واسعة، وبذلك لن تجتاز أية مجموعة الأخرى وتجد نفسها مطوقة. رغم مصرع الكثير من الرجال، حافظ قادة جيشه على هدوئهم، ولم يتوقفوا عن إطلاق سلسلة من الأوامر، فهم ينفّذون الخطة التي أعطاهم إياها كوبلاي وكان واثقا من أنهم ينفذونها على خير ما يرام، فهم من المحاربين القدامى والأقوياء والمخلصين في عملهم.

انهار جناح جيش آريك بوك الذ فككه محاربو كوبلاي إلى أقسام، فقد وجه رجاله ضربة قوية للعدو، وبالرغم من جهود قادة المجموعات، إلا أنهم كانوا في خطر أن ينساقوا كثيرا في هذا الاشتباك، وقبل أن يتمكن كوبلاي من إعطاء أوامره، وجه أويانغ خاداي أوامره إلى اثنين من قادة الفيالق كي يزجّا بعشرين ألف محارب، لتوسيع دائرة هجومهم، فيذبحوا جناح الجيش عن طريق السهام، ثم يضربوا بالرماح.

كان لديهم الوقت الكافي لزيادة السرعة، فانقضوا بأقصى سرعة، خافضين الرماح، وبذلك أصابوا الرجال والخيول التي ترنحت قبل أن تسقط.

شاهد كوبلاي بطرف عينه كيف تتهاوى راياته الصفراء. وبلمح البصر صدح صوت قوي من محاربي آريك بوك الذين عادوا للقتال بضراوة مجددا. فقد اختفى الدافع الذي حدّ من تفكيرهم ودمّر تشكيلاتهم في البداية، وما هي إلا لحظات حتى شعر بالاختلاف عندما انسحبوا عائدين وبدؤوا بإعادة تشكيل الصفوف، فشتم ذلك.

لاتزال السهام تتطاير، وعلم أنه سيصبح الهدف إن أعطى الأوامر.

انحرف عشرون ألفا من محاربي آريك بوك خارجين من المعركة ليصلوا إلى موقع جيد.

عندما شاهدهم كوبلاي يقودون أحصنتهم متقهقرين ويطلقون السهام، قبل أن يضعوا الأقواس على خطافات الأسرجة ويستلوا سيوفهم، ظن كوبلاي أنهم افترضوا مقتله، وهذا ما

أعطاهم الشجاعة للاستمرار بالقتال، فكشر، ثم أومأ، واستدار إلى مرافقيه ليصرخ قائلا: «ارفعوا الرايات عاليا، دعوهم يشاهدون كيف خدعناهم».

ابتسموا عندما بسطوا راياتهم الصفراء الكبيرة، ووضعوا بطريقة مدروسة حلقات معدنية عند أطراف الرايات تدل على كفاءتهم وبراعتهم.

عندما شاهد محاربوه الرايات، رفعوا أقواسهم وسيوفهم وهدروا بكل ما لديهم من قوة، بدا الأمر كما لو أنّ الصوت العالي جعل محاربي آريك بوك يتراجعون إلى الخلف، لكن ما حصل عمليا هو أنّ رجال كوبلاي اندفعوا متقدمين إلى الأمام. فلا شيء يُسعد المغول أكثر من خدعة جيدة في ميدان المعركة. لم يقتصر الأمر على حقيقة أن كوبلاي لا يزال على قيد الحياة، بل تجاوزه إلى حقيقة أن آريك بوك أزهق حياة الآلاف من محاربيه من دون فائدة. انفجر محاربو كوبلاي ضحكا لفترة قصيرة، قبل أن يشدوا أوتار أقواسهم ويضربوا سيوفهم ببعضها، ثم ما لبثت أن تلاشت هذه الفترة المؤقتة لتعود التعابير الصارمة إلى وجوههم؛ تلك التعابير التي تخبر كم هم قتلة أشداء ذوو بأس شديد.

من فوق آلاف الرؤوس استطاع كوبلاي رؤية رايات أخيه على بعد نصف ميل، فتجاهلها، لأنه لا يريد أن يرى أخاه ميتا، إنه يريده حيا، ولكن إن كانت مشيئة أب السماء أن يموت، فلن يندم على موته.

تجمع مرافقوه حوله، واقتربوا أكثر فأكثر عندما أرسل رماة آريك بوك سهامهم لتحلق عاليا في السماء، على أمل أن يحظوا بضربة موفقة. شدّ كوبلاي على فكّه عندما امتلأت السماء من فوقه بالسهام المتمايلة، وتمنى لو أنه كان يملك ترسا حينها، لكنّه لم يكن قادرا على حمل ترس، والحفاظ على خدعته في الوقت ذاته، أصيب أحد حملة راياته، وسقط متألما، فأمسك رجل آخر الراية التي كادت أن تسقط وهي تتهاوى من يد الرجل المصاب.

صاح كوبلاي عندما رأى أنّه يجب عليه أن يتراجع، فالهجوم الذي شنه ضد جناح جيش العدو المكشوف جعل جيشَه يتوغل عميقا بين العدو، فأصبح مكشوفا، وعرضة للتطويق والهجوم المضاد الذي سوف يشنونه الآن، إضافة إلى أنّ أخاه قد أدرك مكانه الحقيقي.

وقف للحظة، وكأن الزمن قد توقف باحثا في الأرجاء عن أثر لمحاربي بايار.

قاتل رجاله ببسالة، وأثبت قادة جيشه أيضا أنّهم من النخبة، ربما فقد أخوه ما يقارب الأربعين ألفا من محاربيه في حين أنهم خسروا نصف العدد، لكن المعركة بعيدة عن نهايتها، إضافة إلى أن كوبلاي في خطر محدق.

في الوقت الذي أخذ ينظم فيه أفكاره، أحضر أويانغ خاداي محاربين إليه مجبرا العدو على التراجع، كي يتيح له الوقت ليبتعد عن المكان.

صاح كوبلاي إلى رجاله كي يجدوا له مكانا بعيدا عن الصفوف الأمامية، فبدؤوا بالانسلال بين المحاربين، الذين هتفوا له في أثناء انسحابه، إنهم لا يزالون سعداء بالخدعة التي سمحت لهم بإهانة آريك بوك، رجال عرفهم من الأيام التي قضاها في أراضي سونغ، رفعوا سيوفهم ترحيبا به وقد مر بالقرب منهم متابعا طريقه بين المحاربين.

لقد امتدت ساحة المعركة إلى ما يقارب الميل عن مكانها الأصلي، وذلك لأنّ المحاربين تجمعوا واشتبكوا، ثم تراجعوا وهاجموا مرة أخرى. عندما تدفق محاربو آريك بوك باتجاههم بغضب، سحب أويانغ خاداي فجأة أربعمئة محارب خارج ساحة المعركة تاركا مكانا فارغا، فأسرع محاربو العدو وراءهم، جلّ تفكيرهم هو الإمساك بهؤلاء الفرسان وقتلهم، يصيحون ويصرخون لهم وهم يركبون مسرعين.

ما إن وصلوا إلى المنطقة التي أفرغها أويانغ خاداي حتى انهالت عليهم السهام من مجموعة المشاة التي أفرغت عليهم جعابها من السهام التي تجاوزت عشرة آلاف سهم، مزق صفوف العدو وحولَهم إلى أشلاء، فشكلوا أكواما من القتلى، ردّ رماة آريك بوك من دون أن يتمتعوا بالقدرة على إطلاق ذلك العدد الكبير من السهام، فأُسقطوا بسرعة عن أحصنتهم. رفع أويانغ خاداي يده ثم أخفضها ليشير إلى محاربيه كي يطلقوا السهام، ثم سحب الصفوف الأمامية إلى الخلف كي يسمح لأولئك الذين لا يزالون يملكون سهاما ليتقدموا.

دمرّت المناورات المتقنة في وسط المعركة قلب قوات آريك بوك.

أولئك الذين نجوا من هذه الضربات، تراجعوا إلى الخلف، بعيدا عن السهام المنهمرة، وتجمعوا حول خانهم مستعدين ليتم إرسالهم مرة أخرى.

تراجع كوبلاي ثلاثمئة خطوة إلى الخلف، مصيبا رماة العدو الذين بحثوا عنه محبَطين، ورأى كيف استلم أويانغ خاداي زمام الأمور من موقعه ذاك، وسمع أصوات السهام التي أصابت

العدو مرة أخرى، أدار وجهه ليرى مجموعة كبيرة من المحاربين قد انفصلت عن موقع أخيه، وتحركت بسرعة نحوهم، وتنفس بارتياح عندما رأى أن أويانغ خاداي يستطيع الضرب من الجناح والخلف في الوقت ذاته. نظر حوله ليرى القوات المتوفرة بين يديه، فأرسل رجالا يركضون إلى قادة جيشه بعد أن صاح لهم بسرعة هائلة وأرسلهم بعيدا.

نظر مرة أخرى باحثا عن بايار، فأكثر ما أخافه منذ عودته من أراضي سونغ التفكير في المعركة التي ستحدث قريبا حيث ستدمر فيها جيوش الأمة بعضها، فهو لم يعد قادرا على إحصاء أعداد القتلى، وإن استمر الأمر هكذا، فإنّ أمّة جنكيز ستصبح غير محمية، وبوجود الذئاب من حولهم؛ أولئك الرجال الذين يتربصون بالأمة، فقد احتاج إلى المحاربين الذين كان محاربوه يقتلونهم، لقد احتاج إليهم جميعا.

بحث عن بايار واقفا بلا حراك في مكانه، قابضا بيده اليمنى على مقبض سيفه عندما ظهرت مجموعة من المحاربين من بعيد، صفوف داكنة من الفرسان المسرعين باتجاههم.

أحس كوبلاي بأن الحماس الذي اتقد في داخله يخفت عندما رأى أعدادهم، فهنالك الكثير منهم، تنفس بصعوبة، وشعر بالخوف يتسلل إليه مرة أخرى، لقد كانت أعدادهم كبيرة، فهو لم يرسل أكثر من ثلاثين ألف محارب إلى روسيا برفقة بايار، والجيش الذي يتقدم باتجاهه أكبر من ذلك بكثير.

أغمض كوبلاي عينيه، وأحنى رأسه متنفسا بسرعة وصعوبة، فقد أحس أن دمه يغلي في داخله، واحمرّ وجهه مع كل ضربة من ضربات قلبه. بإمكانه أن يستسلم أو أن يقاتل حتى الرجل الأخير وهو القرار الأسوأ من بين جميع القرارات. مسح الدم عن خده بنوبة من الغضب. لاحظ أنّ رجال آريك بوك يصيحون والتشكيلات تتحرك مرة أخرى، كما لو أنّهم يتجهزون للرد على تهديد جديد. هزّ كوبلاي رأسه عندما رفعه مراقبا ما يحدث، وأحس بأن أنفاسه قد حُبست في حلقه.

فكّر في سره، إنّهم ليسوا محاربين داعمين لأخيه! فقد كان آريك بوك يلتف براياته إلى الخلف، ويبتعد بهم تحت حماية من محاربيه، أحسّ كوبلاي بالدوار والتعب، فبإمكانه سماع ضربات قلبه تخفق بقوة في أذنيه، لقد أحسّ بألم الخسارة وتقبلها، لم يكن متأكدا مما يجب عليه فعله حينها، لكن عندما صاح الرجال من حوله وهتفوا، صاح معهم، ولوّح بسيفه باتجاه المحاربين القادمين بأقصى سرعتهم.

صاح كوبلاي إلى العدو: «ألقوا بسيوفكم على الأرض».

أعاد قادته كلامه مرة أخرى، ثم قادة فيالقه، ثم الرجال الذين قاد كل واحد منهم مجموعة مؤلفة من مئة محارب، وخلال لحظات صاحت آلاف الأصوات بالأوامر على رجال آريك بوك. هنالك ما يقارب السبعين ألف محارب يقتربون منهم، محاربون نشيطون ومجهزون بجعب السهام الممتلئة والرماح السليمة، فاستمر كوبلاي بترديد أوامره ورددها محاربوه من خلفه كترنيمة.

دفعهم أويانغ خاداي للتراجع أكثر، مفسحا مجالا أكبر بين الجيشين، لم يتحرك أحد ليغلق الفجوة إذ أوقف محاربو آريك بوك أحصنتهم بصمت تام، يشاهدون سبعين ألف محارب يتحركون بسرعة باتجاههم.

لم ير كوبلاي أول رجل رمى بسيفه من رجال آريك بوك ثم أتبع ذلك برمي جعبة السهام الفارغة عن ظهره، يبدو أن هذا الرجل قاد ألف رجل لأنهم فعلوا مثلما فعل، ترجّل العديد منهم، ووقفوا بالقرب من أحصنتهم رافعين أيديهم. انتشر هذا الأمر بين محاربي آريك بوك واحدا تلو الآخر، ابتداء من أولئك الأبعد عن خانهم.

في الوقت الذي استطاع فيه كوبلاي تمييز رايات بايار وباتو برفقته، لم يكن قد بقي من الرجال الذين لم يستسلموا سوى ما يقارب العشرة آلاف محارب يرافقون آريك بوك مسلحين ومستعدين، ومحاطين برجالهم الذين نادوا عليهم كي يستسلموا.

انتظر رجال آريك بوك المتبقين في مكانهم مكفهري الوجه، في حين نظم أويانغ خاداي فيالقه التي اصطفت بشكل منتظم، ثم أتى بايار وباتو بالقرب منهم رافعَين الأقواس ومستعدين.

بفعل تهديد الجيش الجديد والقوي الذي أمامهم، رمى ما تبقى من المحاربين سيوفهم على الأرض، وساروا مبتعدين عن المجموعة الصغيرة المرافقة لآريك بوك، صاح آريك بوك بغضب لكنّهم تجاهلوه.

اعتلى كوبلاي صهوة حصانه، يعتريه شعور بأنّه لم يكن في خطر أكثر من اليوم، ما كان يجب عليه أن يأمر قادته الذي تجمعوا حوله للركوب برفقته وقد أتوا بمفردهم. إنّ سهما واحدا يستطيع أن ينهي حياته، وعندها سيقود آريك بوك محاربيه مرة أخرى، لم يشك لوهلة في أن أخاه سيقاتل حتى النهاية، وسيترك الأمة ضعيفة ومجروحة، دفع حصانه إلى الأمام عبر ساحة المعركة، ولم ينظر إلى يمينه أو يساره، وكان رجاله قد أبعدوا خلفهم محاربين كانوا يحاولون أن يقتلوهم قبل لحظات.

بدا أن دهرا قد مضى قبل أن يجد آريك بوك. بدا أخاه أكبر سنا، ورأى كوبلاي أنفه المحطم الذي احمرّ من الغضب، ولا يزال مستلا لسيفه. تمتم كوبلاي بأوامر إلى الرجال من خلفه الذين رفعوا أقواسهم وسحبوا أوتارها إلى أن أصدرت صريرا مسموعا، أكثر من عشرة سهام موجهة إلى رجل واحد، ذلك الرجل الذي ينظر بحقد إلى كوبلاي.

قال كوبلاي له: «استسلم يا أخي، لقد انتهى الأمر الآن».

كان هنالك بريق واضح في عينَي آريك بوك عندما نظر نظرة سريعة إلى رجاله، إنّ وجهه مناسب جدا لنظرة الاحتقار التي رماهم بها، فانحنى قليلا إلى الأمام ثم بصق على الأرض. لوهلة اعتقد كوبلاي أنّه سيركل حصانه ويسرع متجها إليه فيقتل، لكنّ أخاه هزّ رأسه كما لو أنّه يستطيع سماع تفكيره هذا، وفتح يده ببطء، وأسقط سيف رأس الذئب أرضا.

44

وقف كوبلاي وحيدا في قاعة العرش في قصر كاراكورم، ونظر عبر النافذة المفتوحة إلى أسطح المدينة في الأسفل. قبل أن يدخل إلى القصر، لم يلحظ قذارته ورائحته اللتين أحضرهما معه، فقد جعلته الغرف النظيفة ذات الأرضية الحجرية الملمعة يشعر بشعور غريب، وكأنّه غريب عن المكان، مثل قرد في حديقة، ابتسم عندما فكّر في ذلك، متخيلا كيف يبدو منظره الآن، فالدرع الذي يرتديه أبعد ما يكون عن رداء المثقف الذي ارتداه طوال شبابه، إضافة إلى أنّ راحتَي يديه اللتين كانتا تتلطخان بالحبر في الماضي أصبحتا مليئتين بآثار حمله للسيف. رفع يده اليمنى، ونظر إلى الندوب السوداء على بشرته، والوسخ الذي أخذ مكانه في كل ندب وشق وتحت كل ظفر من أظافر أصابعه؛ إنه مزيج من الدم، والتراب، والزيت.

لم يرَ المدينة التي قضى فيها شبابه منذ سنوات عديدة، لكن منذ الخطوة الأولى التي خطاها عبر أبواب المدينة، ذُهل بالأشياء التي بقيت كما هي والأشياء التي تغيرت. إنّ الركوب لفترة قصيرة في شوارع المدينة للوصول إلى القصر أشبه بتجربة غريبة. خلال السنوات التي قضاها بعيدا، دخل إلى عدد كبير من مدن سونغ، لا يستطيع إحصاء عددها أو تذكرَها، كانت كاراكورم بالنسبة إليه كبيرة وواسعة، مدينة ذات شوارع عريضة وأبنية متينة. أما بالنسبة إلى الرجل الذي عاد إلى الديار الآن فقد بدت بشكل ما مدينة صغيرة وبالية.

لم يسبق لأي ممن يسكنون خلف سورها أن رأوا الحدائق والمجاري المائية الدقيقة والجميلة لمدن سونغ، أو متنزهات الصيد الكبيرة التي صُممت في شانغدو، فحتى مكتبة القصر التي قضى فيها ساعات لا تُحصى تقلصت في غيابه، وأبَت الكنوز المخبأة فيها أن تعود إلى ذاكرته.

عندما كان يسير وحيدا في ممرات القصر، زار العديد من الأماكن التي قضى فيها شبابه، فقد وجد في الغرفة التي كان ينام فيها من قبل قطعة من خشب السنديان التي حفر عليها اسمه، بوقوفه هناك سلم نفسه للأحلام لفترة من الوقت وهو يتلمس الحروف البدائية.

بدورها بدت حدائق القصر مختلفة، فقد نمت صفوف الأشجار الظليلة، وأصبحت ضخمة، وغيّرت المنظر العام، فقد بدلت روح الحديقة ملقية ظلالا في مناطق مختلفة، لم يعد شيء كما كان، جلس لبعض الوقت على مقعد تحت تعريشة بُنيت بعد وفاة أوكتاي، شعر بالسكينة وقد تمايلت الأزهار الشاحبة لشجرة الكرز بسبب الرياح من حوله. لقد انتهت الحرب، وأدرك هذا بشكل تام عندما جلس هناك صامتا، كل ما وجب عليه فعله هو أن يحكم.

لا بد أنّ إدراكه هذا قد أشعره بالسعادة، لكنّه لم يتمكن من إبعاد إحساس خيبة الأمل عنه؛ ذلك الإحساس الذي أثقله، فكل سنواته التي قضاها في الحروب لم تكسبه سوى الذكريات، حاول أن يبعد مشاعر الحنين التي اجتاحته، لكنّ الحقيقة مختلفة، فقد افتقد إلى هواء الصيف الثقيل والمليء برائحة المحاصيل التي قيل له إن حرقَ نتاجها من القش يُبعد الآفات عن المدينة.

التفت مبتعدا عن النافذة التي وقف يشاهد منها شوارع كاراكورم في الأسفل. حتى وإن كانت كاراكورم معيبة، إلا أنها لا تزال أولى المدن التي بناها قومه، العلامة الفارقة التي بناها أوكتاي خان لينتشلهم من حياة البداوة إلى حياة الأمة المستقرة. لقد كانت حلما عظيما بالنسبة إليهم، لكنّه يعلم أنّه سينجح أكثر في شانغدو، وسينجح أكثر في كونه إمبراطورا للصين، مع كل الثروة الموجودة في الأراضي التي تحت تصرفه. أدرك كوبلاي أنّه سيجب عليه أن يعين حاكما لكاراكورم، شخصا يستطيع الوثوق بأنه سيعيد للمدينة إشراقتها ونظافتها.

فكّر في أن يسلم أمر المدينة إلى أويانغ خاداي، وأخذ يقلّب الأمر في رأسه، قبل أن يومئ في النهاية.

المكان الذي كان موطنا لكوبلاي أصبح مدينة مليئة بالغرباء، فمكانه في شانغدو، التي تُشكّل جسرا بين أراضي تشن وأراضي المغول، تماما كما خطط لها ومن هناك سيستطيع طوال الوقت أن يرسل المحاربين ليسيطر على أراضي سونغ. شدّ قبضته ووقف بصمت، لقد انهارت مدن سونغ أمامه عندما كان قائدا مغوليا، لكنها ستسقط بصورة نهاية أمام الخان العظيم.

سمع أصوات خطوات تقترب من الباب النحاسي الذي عزل القاعة عن بقية القصر، استجمع كوبلاي قواه مرة أخرى متجاهلا القلق الذي جعل يديه وقدميه ترتجف.

لقد ركب حصانه، وقاتل طوال اليوم، وتنبعث منه رائحة الأحصنة، إضافة إلى أنّ شمس الصيف بدأت تغيب أخيرا، لكن هنالك شيء أخير وجب عليه القيام به قبل أن يتمكن من الاستحمام،

وقبل أن يتناول طعامه وينام. لم يكن هنالك أي خدم ليجيبوا على القبضة التي تطرق على الباب الخارجي، لا بد من أنّهم اختفوا جميعا عندما دخل الغازي المدينة، يتوقعون منه الذبح والدمار.

كم هم أغبياء! فهو لن يؤذي رجلا واحدا من الأمة التي ولد فيها، عبر كوبلاي القاعة، وتوجه إلى الباب النحاسي وفتحه بهدوء، واضعا يده على مقبض سيفه بطريقة غريزية.

وقف أخوه بين أويانغ خاداي وبايار وكان العبوس سمة مشتركة بين الرجال الثلاثة. لم يتفوه كوبلاي بكلمة، بل أومأ لهم ليدخلوا، أجبر آريك بوك على أن يجر نفسه إلى الأمام لأن قدميه كانتا مغلولتين لذلك لم يستطع أن يخطو خطوات صغيرة، وعندما أوشك على الوقوع أمسك به بايار من كتفه.

قال كوبلاي بلطف للرجلين: «انتظرا في الخارج».

انحنيا قليلا من دون احتجاج، وأعادا سيفيهما إلى غمديهما وهما يغادران القاعة. دفع أويانغ خاداي الباب كي يغلقه من الخارج وشاهد كوبلاي كيف أُغلقت فتحة الباب على عيني قائد الجيش الباردتين.

كان وحيدا برفقة أخيه، للمرة الأولى منذ سنوات. وقف آريك بوك ويداه مقيدتان خلفه بشموخ وقوة متلفتا حوله إلى القاعة الهادئة تماما إلا من صوت الأزيز الخفيف القادم من الندبة القديمة على أنفه، نظر كوبلاي آملا في أن يجد أي أثر للفتى الذي عرفه سابقا، لكنّ وجهه أصبح خشنا، فقد كبر وازداد قوة وصلابة، ولمعت عينا آريك بوك في حين كان أخوه يتفحصه.

من الصعب ألا يفكر في المرة الأخيرة التي تقابلا فيها في هذا المكان، برفقة أخيهما مونغ المليء بالحياة بخططه التي وضعها للعالم، منذ ذلك الوقت تغيرت أمور كثيرة وقد شعر كوبلاي بالألم وهو يفكر في ذلك.

قال: «قل لي يا أخي، بما أن الحرب قد انتهت الآن، من منا كان على صواب؟».

أدار آريك بوك رأسه بهدوء، وظهرت علامات الغضب على وجهه عندما احمرّ رويدا رويدا، وأجابه بصوت أجش: «لقد كنتُ صاحب الحق، والآن أصبحت أنت صاحب الحق».

هز كوبلاي رأسه، فبالنسبة إلى أخيه لم يكن هنالك أي حق يفوق الحق الناجم عن القوة. أغضبته هذه الكلمات، لذا وجب عليه أن يكافح كي يجد الهدوء مرة أخرى، رأى شيئا من بريق

النصر الذي لا يزال يلمع في عيني آريك بوك.

قال كوبلاي: «لقد أعطيت يا أخي أوامر بذبح نساء رجالي وأطفالهم في المخيمات المحيطة في المدينة».

كشر آريك بوك عن أنيابه وقال: «هنالك ثمن لكل شيء، أكان يجدر بي أن أتركك تدمر جيشي من دون رد؟ فأنا خان الأمة يا كوبلاي، فإن أخذت مكاني فإنك ستتخذ قرارات صعبة بدورك».

قال كوبلاي بهدوء: «لا أعتقد أنّه كان قرارا صعبا بالنسبة إليك، أما زلت تعتقد حقا أنّ أوامرك قد نُفذت؟ هل صدقت أنّ قائد الحراس سيقتل نساء عزل وأطفالهن يستنجدون في كل مكان من حولهن؟».

اختفت تعابير الازدراء التي ارتسمت على وجه آريك بوك عندما فهم الأمر، أحنى كتفيه قليلا وقد انزاحت عنه بعض مشاعر الحقد والغضب مما جعله يبدو مرهقا.

قال آريك بوك: «يبدو أنني وثقت بالرجل الخطأ».

أجابه كوبلاي: «لا يا أخي، أنت هو الرجل الخطأ. بالرغم من ذلك، تصعب عليّ رؤيتك بهذا الشكل، أتمنى لو انتهت الأمور بشكل مختلف».

صاح آريك بوك: «أنت لست الخان، ادعُ نفسك بما تشاء، لكن أنت وأنا نعلم حقيقتك. لقد حظيت بانتصارك يا كوبلاي، والآن أخبرني ما تنوي عليه ولا تهدر وقتي بعظاتك هذه، ليس هنالك ما أتعلمه منك أيها الرجل المحب للعلم، تذكر أنّ والدتنا حافظت على هذه المدينة، وأنّ أبانا ضحى بحياته من أجل الأمة، وهما يشاهدانك وأنت ترتدي قناع الندم، ما من شخص يعرفك أكثر مني، لذا لا تعظني، كنت ستفعل الأمر ذاته لو كنت مكاني».

أجاب كوبلاي: «أنت مخطئ يا أخي، لكن هذا غير مهم الآن». توجه إلى الباب النحاسي، وضربه بقوة بقبضة يده ثم أكمل كلامه: «لديّ إمبراطورية كي أحكمها، إمبراطورية أصبحت ضعيفة تحت قيادتك، لن أقع ضحية لإغراء القوة والسلطة، خذ العزاء من ذلك يا آريك بوك، هذا إن كان أمر الأمة يهمك في شيء، لكنني سأكون قائدا جيدا لشعبنا».

قال آريك بوك، وقد احمرّ وجهه غضبا مرة أخرى: «هل ستصحبني إلى الخارج كل شهر كي تريني نتائج هزيمتي؟ أم أنك ستنفيني وبذلك تُظهر رحمتك للفلاحين؟ أنا أعرفك يا أخي. لقد تطلعت لأصبح مثلك يوما ما. أنت رجل ضعيف وبالرغم من أسلوبك الجيد في الكلام وبالرغم من معرفتك، فإنك ستفشل في كل شيء تفعله». ثم بصق في وجه أخيه.

أغمض كوبلاي عينيه للحظة كي يتخذ قراره الذي جعله يشعر بألم أشبه بألم انتزاع قشرة الجلد عن الجرح. إنّ العائلة أمر غريب فبالرغم من أنّه يشعر بكراهية آريك بوك الساحقة تجاهه، فإنه لا يزال يتذكر الفتى الصغير الذي كان يسبح في الشلال وكيف نظر إليه حينها بمحبة بسيطة. لقد ضحكا معا لآلاف المرات، وسكرا معا، وتشاركا الكثير من الذكريات الجميلة والثمينة عن والديهما. أحس كوبلاي بأن حلقه أصبح جافا وصعُب عليه الكلام بسبب الحزن.

دخل كل من أويانغ خاداي وبايار إلى القاعة مرة أخرى.

قال كوبلاي: «خذه إلى الخارج أيها القائد، ولتبق للحظة يا قائد الجيش».

أخذ بايار آريك إلى الممر، وكانت خطواته المتثاقلة مثيرة للشفقة بشكل ما. وقف كوبلاي أمام أويانغ خاداي، وأخذ نفسا عميقا قبل أن يقول: «كنت سأعفو عنه لولا قراره بقتل العائلات».

أومأ أويانغ خاداي، بدت عيناه كبقعتين سوداوين، فزوجته وأولاده كانوا في المدينة.

أكمل كوبلاي: «توقع الجنود أن آمر بقتله يا قائد الجيش، إنّهم ينتظرون الكلمة مني».

أجابه أويانغ خاداي: «لكنّ القرار يعود إليك يا سيدي، ففي النهاية الخيار خيارك».

أشاح كوبلاي بنظره بعيدا عن الرجل الأكبر سنا، لن تكون هنالك راحة له، لا يوجد سبيل لجعل الأمر أسهل، ولم يوفر أويانغ خاداي له السبيل الأسهل من قبل، واحترمه لهذا، وبالرغم من أنّ الأمر آلمه كثيرا إلا أنه أومأ قائلا: «أجل. لكن لا تقتله في العلن يا أويانغ خاداي، ليس وهو أخي. فلتضع غضبك جانبا إن كنت تحترمني ولتجعل من قتله سريعا ونظيفا قدر الإمكان». أصبح صوته أجش عندما نطق آخر كلماته.

سأله أويانغ خاداي: «ماذا عن الجسد يا سيدي؟».

أجابه كوبلاي: «لقد كان خانا يا قائد الجيش، فلتجهز له محرقة جنائزية تضيء السماء، ولتدع شعب الأمة يظهرون الحداد على رحيله إن أرادوا، إنّه أخي يا أويانغ خاداي. فقط اجعل الأمر

سريعا».

كانت شمس الصيف الحارة تحرق مؤخرة عنق كوبلاي عندما جلس في حدائق القصر إلى جانب ولده زين جين. ارتفعت سحابة سوداء من الدخان في السماء من مكان بعيد، لم يرغب كوبلاي في الوقوف ومشاهدة جنازة أخيه، بدلا من ذلك حاول أن يرتاح مغمضا عينيه، مستمدا بعض السعادة من رفقة ولده له.

قال كوبلاي: «سأنطلق إلى شانغدو خلال أيام، سترى والدتك هناك مرة أخرى».

أجابه زين جين: «أنا سعيد لأنني تمكنت من رؤية المدينة أولا، إنّها مليئة بالتاريخ».

ابتسم كوبلاي وقال: «إنّه ليس تاريخا بالنسبة إليّ يا فتى، إنّها عائلتي وأنا أفتقدهم جميعا، لقد ركبت برفقة جنكيز عندما كنت أصغر منك، وقتها بالكاد كنت قادرا على أن أتمسك بسرج الحصان».

سأل زين جين: «كيف كان يبدو؟».

فتح كوبلاي عينيه ليرى ابنه يراقبه فقال:

«إنّه رجل أحب أطفاله وشعبه يا زين جين. لقد قطع يد إمبراطورية تشن التي امتدت على أمتنا وجعلنا نخرج من معاناة القبائل، لقد غيّر العالم».

نظر زين جين إلى الأسفل وهو يلعب بغصين من شجرة الكرز في يده محنيا إياه في كل الاتجاهات، وقال: «أرغب في تغيير العالم».

ابتسم كوبلاي، لكن مع نظرة من الحزن في عينيه وقال:

«ستفعل ذلك يا بني، ستفعل ذلك، لكن لا أحد يستطيع تغيير العالم إلى الأبد».

ملاحظة تاريخية

هنالك بعض التفاصيل عن غويوك، من المؤكد أنه قاد جيشا لمهاجمة باتو في أراضيه بعد أن فشل الأخير في إعطاء قسمه في اجتماع الأمراء أو كما يدعونه التجمع، نحن نعلم أن سوهارتاني

حذّرت باتو، ثم مات غويوك بشكل غير معروف، عندما كان الجيشان قريبين من بعضهما. في بعض الأحيان يموت الأشخاص من دون سبب، في الواقع، مع وفاة ابن جنكيز جوتشي، يمكننا القول إن بعض النهايات تكون غريبة جدا لتُصدق كما ذُكرت في السجلات الرسمية. لم يحقق غويوك أي شيء يذكر. وفاة غويوك أفسحت المجال كي يصبح مونغ خانا، الذي قاد صراع أمة المغول ضد الأمم المتحضرة، لقد جابهت تلك القوى المتحضرة المتأثرة بحضارة تشن ثقافة المغول التقليدية ونظرتهم المعتادة. وقد ساند باتو، الذي يدين بحياته لسورهارتاني، مونغ.

كان مونغ بعمر السادسة والثلاثين عندما أصبح خانا، كان شابا قويا ورشيقا أمامه الكثير من السنين، ومن المؤكد أنّه بدأ فترة حكمه باجتماع في أفراغا، ثم ذبح كل من عارضه ليُخلي الطريق لعائلته، من بين الذين أنهى حياتهم زوجة غويوك، أوغول خميش التي اتُهمت بممارسة السحر. بدأ مونغ حكمه للخانات بإرساله العديد من بعثات القتال إلى الخارج، كي يعيد بناء آلة الحرب في كل الجهات. حكم من 1251 إلى 1259، ثماني سنوات من التوسع والذبح.

اتجه أخوه هولاكو إلى الغرب ليدمر العالم الإسلامي، أما كوبلاي فقد أُرسل إلى الشرق والجنوب في أراضي سونغ في الصين تحت أوامر مونغ. توفيت والدتهم سوهارتاني سنة 1252، عن عمر يناهز السبعين عاما. خلال حياتها حكمت أراضي منغوليا بأسلوبها الخاص، وشهدت أيضا تنصيب ابنها البكر خانا. بوصفها مسيحية نسطورية علّمت أبناءها البوذية، وبنت الجوامع والكتاتيب في المناطق الإسلامية، وبسبب سعة أفقها وقوتها اعتبرت المرأة الأكثر استثنائية في حقبتها، إنّها تشكل جزءا جيدا ومفرحا من قصص التاريخ، أعتقد في بعض الأحيان أنّها من الأشخاص الذين يستحقون كتبا للحديث عنهم وحدهم- مثل ماريوس عم يوليوس قيصر - فأنا لم أفِهما حقهما بالتأكيد.

إن لم تحدث حقا، فإنّ اختراع قصص خيالية تتحدث عن هجوم كوبلاي على أراضي سونغ سيبدو أمر مضحكا، إذ لم تكن لديه خبرة في المعارك، إضافة إلى أنّه أمضى أغلب حياته بوصفه رجل علم، واحتوت في تلك الأيام مدينة واحدة من مدن إمبراطورية سونغ على تعداد سكاني يفوق تعداد أمة المغول مجتمعة، لذا وجب عليه أن يضع الخطط بإحكام ودقة حتى بالنسبة إلى حفيد جنكيز.

ملاحظة جانبية: العبّارات المصنوعة يدويا من جلد الخراف كالتي وصفتها في القصة استُخدمت من قبل كوبلاي ولا تزال تُستخدم حتى الآن لعبور الأنهار في الصين.

لقد أعطى مونغ قادة مخضرمين لكوبلاي: منهم أويانغ خاداي بن تسوبوداي وهو قائد معروف، لقد أعطى مونغ أفضل قادته لكوبلاي من أجل حملته الأولى، التي كانت أشبه بالهدف الأول لقاصر ومن الصعب أن يتمكن من تحقيقه بسهولة. هنا مرة أخرى، أراهم جنكيز السبيل، فبما أنّ جنكيز هاجم مملكة تشيا الغربية في البداية، فإنه بذلك فتح لهم بابا خلفيا يوصلهم إلى أراضي تشن. رأى مونغ منطقة يونّان بمدينتها الوحيدة «تا لي» طريقا للدخول إلى أراضي سونغ، لا بد من أنّ جيش كوبلاي كان أقل عددا، لكنّ ذلك لم يشكل مشكلة كبيرة جدا، فالمغول دائما ما كانوا أقل عددا. من المثير ملاحظة أنّ فكرة الحشد المغولي الشهيرة وجيوشهم الكبيرة التي تضرب الجيوش الصغيرة ما هي إلا فكرة خاطئة تماما.

عرض مونغ على كوبلاي الاختيار ما بين ولايتين كبيرتين في الصين، لكن كوبلاي-حسب ما ورد في كتب التاريخ- طلب بعض الوقت ليستشير ياو تشاو، نصحه الرجل العجوز بكينغزهاو في الشمال بما أنّ تربتها غنية، فبإمكان كوبلاي أن يؤسس آلاف المزارع هناك والتي أنتجت ثروة هائلة قادت بدورها إلى مشاكل مع أخيه بشأن الدخل الناتج عنها. تلك هي الأراضي نفسها التي بنى فيها عاصمته الكبرى تشانغ دو والمعروفة باللغة العامية بشانغدو، يُحتمل أنّها لم تحتو على «قبة السعادة» كما في قصائد صامويل كولريدج، لكنّها احتوت على منتزه غزلان كبير جدا داخل أسوار المدينة، حيث بإمكان كوبلاي أن يصطاد.

في عام 1256 هاجم هولاكو حصنا في ألموت.

في الحقيقة، كان رئيس الطائفة المسلمة التي شغلت حصن ألموت يدعى علاء الدين. تجنبت ذكر اسمه الحقيقي بسبب التشابه مع شخصية علاء الدين الشهيرة، ولأنني استخدمت اسما مشابها جدا في كتاب سابق، لذلك استخدمت هنا اسم سليمان. كان القتلة الإسماعيليون أقوياء جدا في تلك الفترة من الزمن، لديهم أربعة حصون رئيسة على الأقل، واعتُبر حصن ألموت الأكثر مناعة بينها في منطقة منيعة في الجبال جنوب بحر قزوين.

من المثير للاهتمام أنّ القصة التي تدور حول حسن وسيده أتت من سجلات كتبها المغول، وقد كتبها عطاء الملك الجويني، وهو كاتب ومؤرخ فارسي رافق هولاكو في كلتا رحلتيه إلى ألموت وبغداد، وأصبح لاحقا حاكم المدينة بعد سقوطها بيد المغول. نحن لسنا متأكدين من أنّ حسن هو من قتل سيده، لكنّه المرشح الأكبر، فقد تم تعذيب حسن لسنوات بدافع التسلية، وقد وصل الأمر أن

استُغلت زوجته أمام عينيه في غرفة النوم. إنّ هذا الحدث أحد الأحداث المثيرة في التاريخ فقد قتل قائد القتلة في الوقت المناسب تماما مما جعل مهمة هولاكو أسهل، وأجبر القتلة على الاستسلام، ورُكل أيضا قائدهم الجديد ركن الدين إلى ألموت بأمر من هولاكو- والذي اعتبره المغول شرفا كبيرا من وجهة نظرهم بما أنّه لم ينزف دما، يحترمون بهذا الشكل مكانته بوصفه قائدا لجماعة دينية.

إنّ سقوط بغداد بين يدي هولاكو ترافق مع واحدة من أكثر المذابح وحشية التي نفذتها سلالة جنكيز، فقد أصرّ هولاكو على نزع السلاح من المدينة، ثم ذبح ما لا يقل عن ثمانمئة ألف من السكان الذين يصل عددهم إلى المليون. يقال إنّ نهر دجلة اصطبغ باللون الأحمر بسبب الدم. سمح هولاكو للخليفة اختيار مئة من السبعمئة امرأة اللواتي كن في مجلس حريمه لإنقاذهن، ثم أمر هولاكو بقتله وأضاف النساء المئة إلى خيمه.

حاولت أن أظهر الفرق بين هولاكو وكوبلاي بما أنّ لكل منهما أسلوبه المختلف في كثير من الأشياء. حاول هولاكو أن يصبح مثل مونغ وجنكيز في حين أصبح كوبلاي صينيا مثله مثل أي قائد تقليدي من سلالة تشن بل أعظم منهم جميعا.

فُتشت بغداد، ونهبت، وذلك لأنّ هولاكو رجل جشع تجاه الذهب، الذي لم يعنِ شيئا لجنكيز. بمقارنة كوبلاي مع هولاكو، نحن نعلم أنّ كوبلاي كان يعفو عن المدن بمجرد أن تستسلم له، وجعل من هذا الأمر جزءا من أسلوب حياته، فقد نهى رجاله عن القتل الجائر لسكان تشن وسونغ، بل هددهم بالإعدام إن هم عصوا أوامره. لا بد من أنّ شخصيته بدت مختلفة تماما عن القساوة التقليدية لحضارته، وهذا يُفسر كم كان رجلا غير تقليدي، لا بد من أنّه تأثر بياو تشاو، ذلك الرجل الذي لا يزال معروفا في الصين إلى وقتنا الحاضر بمبادئه البوذية وبالأرواح الكثيرة التي أنقذها.

ظل مونغ يشعر أنّ عليه أن يشرف على الهجوم على إمبراطورية سونغ بنفسه. يشير أحد المصادر إلى أنّ الجيش الذي أحضره إلى أراضي سونغ تكوّن من ستين فيلقا من المحاربين، حشد كبير يتجاوز عدده الستمئة ألف رجل، بالرغم من أنّ عددا أقل من هذا هو المرجح، لطالما استصعب أعداء الخان تقدير حجم الجيش المغولي، لأنهم كانوا دائما يصطحبون أعدادا كبيرة من الأحصنة الإضافية. لا نعلم إن كان كوبلاي قد ماطل خلال هجومه أم أنّ مونغ اتفق مع أخيه على أنّ الهجوم من محورين سيكون ضروريا لتوحيد الإمبراطورية الصينية.

إنّ الطريقة التي توفي بها مونغ على الطريق مختلف عليها. فقد كانت إما نتيجة جرح من سهم مسموم وإما بسبب مرض الزحار أو الكوليرا، هنالك الكثير من الاحتمالات الأمر الذي دفعني لأن اتفق مع أنّ هجوم هولاكو على القتلة دفعهم لقتله رغبة في الانتقام. علم هولاكو أنّ عليه أن يتراجع عندما وصلته أخبار وفاة مونغ، فهي عادات قديمة ومعروفة، حتى إنّ غزو تسوبوداي لأوروبا الغربية أُوقف عندما توفي أوكتاي خان. لا بد من أنّ قادة سونغ قد سمعوا بالأمر في الوقت ذاته الذي سمع به كوبلاي وليس من الصعب علينا تخيل الراحة التي شعروا بها.

بما أنّ كوبلاي رفض أن يغادر الصين فقد بدأ بتخليص نفسه في هذه الحركة من سياسات وطنه، اعتبر الصين خاناته وإمبراطورتيه حينها. لم يكن لدى جيش مونغ عدم الرغبة في العودة تلك وتخلى في الحال عن تقدمه في أراضي سونغ.

عندما سمع هولاكو بالأخبار، عاد هو الآخر من الشرق الأوسط بدافع الولاء حتى النهاية، تاركا قرابة عشرين ألف محارب تحت إمرة القائد كيتبوا (الذي أصر بكل تأكيد على التمسك بتحويل الجوامع التي احتلوها إلى أماكن عبادة مسيحية). من دون بقية المحاربين لدعمه، تم تدميرهم من قبل قوات المسلمين المناهضة مستخدمين كل الأساليب مثل التراجع المصطنع الذي أحبته الجيوش المغولية. على كل حال، حظي هولاكو بخاناته الخاصة التي أصبحت تدعى في النهاية إيران في يومنا هذا، كل ما في الأمر أن كوبلاي تجاهل النداء.

في الديار في كاراكورم، اتخذ آريك بوك قرارا سيؤثر على جميع الأجيال القادمة في عائلته. لقد حكم المدينة خلال فترة غياب أخيه وأعلن نفسه خانا، وبعد عودة جيش مونغ أقنع نفسه بأنّه لا يوجد هنالك مرشح أفضل منه لذا نصّب نفسه على أنّه الخان العظيم، وهنا أتى الابن الأصغر لسوهارتاني وتولوي إلى الحكم.

في العام ذاته 1260، نصب أخوه كوبلاي نفسه خانا عندما كان يقف على أرض أجنبية، لم يكن كوبلاي يعلم حينها أنّه زرع بذور حرب أهلية بين الإخوة ستؤدي إلى زوال إمبراطورية جنكيز.

لقد بدّلت ترتيب أباطرة سونغ وذلك بدلا من أن أحذف مشاهد الإمبراطور الصغير هويتسونغ الذي حكم في وقت لاحق، وليس بفترة بعيدة. حكم الإمبراطور ليتسونغ لما يقارب الأربعين عاما ومات من دون أن يحظى بأطفال في سنة 1264. ورث ابن أخيه العرش وكان يدعى بالإمبراطور دوزونغ وهو رجل نهم وشهيته كبيرة للطعام، استمر حكمه عشر سنوات فقط حتى عام

1274 حين تسلم أخوه ذو الثماني سنوات الحكمَ من بعده، الذي بدوره نجا لأربع سنوات فقط قبل أن يرى نصر كوبلاي على أسرته.

بالنسبة إلى موضوع الأرقام: الرقم أربعة عشر أكثر الأرقام نحسا في الثقافة الصينية، بما أنّ لفظه أشبه بلفظ الرجل لعبارة «أريد الموت» في كل من اللغتين المندرنية والكانتونية. أما الرقم تسعة، فهو أعظم الأرقام الصحيحة الفردية وهو أحد أكثر الأرقام حظا فهو مرتبط بالإمبراطور.

في تلك الفترة، كان هنالك الكثير من الأمراء لذكرهم، السيد الغو الذي يكون ابن بيدور وتشاغاتاي، الحفيد الأكبر لجنكيز. حكم خانات تشاغاتاي ودعم آريك بوك خلال الحرب الأهلية في البداية قبل أن ينقلب ضده. من المعروف أنّه الأول من سلالته الذي اعتنق الإسلام الأمر الذي بدا كحركة جيدة أكسبته دعمَ السكان الذين حكمهم في الخانات حول سمرقند وبخارى، التي أصبحت في يومنا هذا أوزبكستان. بعد قرن من هذه الأحداث أصبحت سمرقند عاصمة الغازي تيمورلنك.

الإجابة التي قالها آريك بوك لأخيه: «لقد كنتُ صاحب الحق والآن أصبحت أنت صاحب الحق» هي جزء من السجلات التاريخية المذهلة التي تُظهر حقيقة الرجل. مثل الخان غويوك من قبله فإنّ وفاة آريك بوك تُعتبر بشكل غريب إحدى الحوادث الملائمة في التاريخ؛ شاب في مقتبل حياته معافى وقوي، رغم ذلك يموت بعد وقت قصير من خسارته أمام كوبلاي، ليس من الصعب أن نشك في أن هنالك لعبة ما هنا.

عندما بدأت بكتابة هذه السلسلة، أردت أن أكتب عن حياة الخان كوبلاي، والأحداث الأكثر شهرة حاله كحال ماركو بولو، فكلاهما شنا هجوما على اليابان- الأمر الذي بدا جزءا أساسيا من القصة. بالرغم من أنّها قصة تاريخية حقيقية وأنّ كل الشخصيات قد توفيت منذ زمن طويل، وأنّ كل القصص فيها قد انتهت، غالبا ما انتهت بشكل مأساوي، إلا أن القليل من الحيوات تنتهي بالفخر، إضافة إلى أنّني قد كتبت عن موت يوليوس قيصر وجنكيز خان. لذلك اعتقدت للمرة الأولى أنّه يجب عليّ أن أنهي السلسلة بشخصية لا تزال على قيد الحياة وأمامها الكثير من الأحلام والآمال لتحققها.

ربما أعلم أنّ زوجة كوبلاي وابنه قد توفيا قبله مما جعله يصبح رجلا محطما ومستسلما للشرب وتناول الطعام بشكل غير مقبول، لكن في هذه الفترة التي تحدثت فيها عن حياته لم يكن رجلا كهذا، لذا أردت أن أبقيه على هذا الشكل.

دائما ما ستكون هنالك نهايات غير معروفة بسبب قراري هذا.

في النهاية، هزم كوبلاي إمبراطورية سونغ وأسس سلالة يوان الحاكمة للصين الموحدة، اسم عائلة لايزال يستخدم اسما للعملة اليوم.

حكم أحفاده قرابة المئة عام قبل أن ينتهوا من التاريخ، بيدَ أنّ سلالة جنكيز حكمت خانات أخرى لمدة أطول بكثير.

بدأت هذه القصة بعائلة واحدة جائعة ملاحَقة ووحيدة في سهول منغوليا- وانتهت بحكم كوبلاي خان لإمبراطورية أكبر من إمبراطوريتَي الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر، لما يتجاوز ثلاثة أجيال فقط، إنّها ببساطة أعظم قصة تحول من الفقر إلى الثراء في التاريخ البشري.

Notes

[1←]

كان لابن الهيثم مساهمات قيمة في الفحوص التشريحية على العين البشرية، وهو أول من صنع كاميرا مظلمة المعروفة بالكاميرا ذات الثقب.